

رئيس الفريق العلمي

أ. د. حمد بن ناصر بن عبد الرحمن العمار

رعاية ودعم

صاحب السمو الملكي

الأمير بندر بن عبد العزيز آل سعود

أجزل الله مثوبته

المجلد الثاني



دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

ح دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، ١٤٣٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمار، حمد ناصر

كنوز رياض الصالحين/ حمد ناصر العمار - الرياض ١٤٣٠هـ، ٢٢ مج.

٦١٠ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٢-٩٤-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٦-٩٦-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨ (ج٢)

١- الحديث - جوامع الفنون ٢- الحديث - شرح أ- العنوان

ديوي ٢٣٧,٣ ١٤٣٠/٤٢٨٨

رقم الإيداع: ١٤٣٠/٤٢٨٨

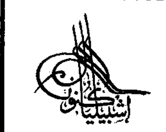
ردمك: ٢-٩٤-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٦-٩٦-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨ (ج٢)

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م



دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية ص.ب ٢٧٢٦١ الرياض ١١٤١٧

هاتف: ٤٧٤٢٤٥٨ - ٤٧٧٣٩٥٩ - ٤٧٩٤٣٥٤ فاكس: ٤٧٨٧١٤٠

E-mail: eshbelia@hotmail.com



رئيس الفريق العلمي

أ. د. حمد بن ناصر بن عبد الرحمن العمار

رعاية ودعم

صاحب السمو الملكي

الأمير بندر بن عبد العزيز آل سعود

أجزل الله مثوبته

المجلد الثاني



دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

ح دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، ١٤٣٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمار، حمد ناصر

كنوز رياض الصالحين/ حمد ناصر العمار - الرياض ١٤٣٠هـ، ٢٢ مج.

٦١٠ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٢-٩٤-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٦-٩٦-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨ (ج٢)

١- الحديث - جوامع الفنون ٢- الحديث - شرح أ- العنوان

ديوي ٢٣٧,٣ ١٤٣٠/٤٢٨٨

رقم الإيداع: ١٤٣٠/٤٢٨٨

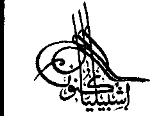
ردمك: ٢-٩٤-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٦-٩٦-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨ (ج٢)

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م



دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية ص.ب ٢٧٢٦١ الرياض ١١٤١٧

هاتف: ٤٧٤٢٤٥٨- ٤٧٧٣٩٥٩ - ٤٧٩٤٣٥٤ فاكس: ٤٧٨٧١٤٠

E-mail: eshbelia@hotmail.com

٤- باب الصدق

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[سورة التوبة:١١٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ ﴾[سورة الأحزاب:٣٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾[سورة محمد:٢١].

وأما الأحاديث:

الحديث رقم (٥٤)

٥٤- فَالأَوَّلُ: عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «**إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الجنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ ليصْدُقُ حَتَّى يُكتَبَ عِنْدَ اللّهِ صِدِّيقاً، وإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفجُورِ وَإِنَّ الفجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكتَبَ عِنْدَ اللّهِ كَذَّاباً**» متفقٌ عليه[١].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

يهدي: يرشد ويُدِلُّ[٢].

البر: أصله التوسع في فعل الخير وهو اسم جامع للخيرات كلها، ويطلق على العمل الخالص الدائم[٣].

الفجور: أصل الفُجر: الشق. فالفجور شق ستر الديانة، ويطلق على الميل إلى الفساد

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧/١٠٣) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٤٣١٩). وسيكرره المؤلف برقم (١٥٤٤).

(٢) الوسيط ٩٧٨.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٥٢٤/١٠، وانظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ٤٠، والكليات معجم المصطلحات والفروق الفردية، أبو البقاء الكفوي ٢٣١.

وعلى الانبعاث في المعاصي وهو اسم جامع للشر[1].

الشرح الأدبي

الصدق هالة من النور تحيط بالمؤمن الصدوق، وتنشر حوله أشعة من البهاء والوقار، وتمتد إلى من حوله فتضيء أنفسهم بالثقة والحبور، فالصدق -كما يرى العلماء- هو استواء السر والعلانية، والظاهر والباطن، بألا تكذب أحوال العبد أعماله، ولا أعماله أحواله، والكذب ظلمة تغشى النفس فتحجب عنها مصادر النور، ومنابع الهدى، وتصيب حياة الإنسان بالاضطراب، وتنزع الثقة من كل عمل أو قول في مسيرته وصلاته بالناس.

وهذا الحديث الشريف يتصدر باب الصدق في رياض الصالحين، ويفوح عبيره، وتعبق زهوره، والنفس الإنسانية لا تجمل إلا بالصدق والإخلاص، صدق اللسان، وإخلاص النية. وصياغة الحديث اللغوية وتشكيله الأسلوبي يؤكدان أهمية الصدق ودوره في حياة الإنسان ومسيرته الدنيوية ومآله الأخروي. وكذلك يرشد إلى خطورة الكذب وأثره في تدمير العلاقات الاجتماعية وتشويه القيم الإنسانية.

ولو تأملنا الصياغة الأسلوبية في هذا الحديث تأملاً لا يفصل المبنى عن المعنى لاكتشفنا كثيراً من أسرار البيان النبوي، فالحديث يتكون من ست جمل لغوية، وهي تتصاعد في ترتيب منطقي وتنسيق جمالي، وكل جملة تبدأ بالتأكيد بحرف "إن"، ويتكرر هذا الحرف ست مرات، وكأن هذا التكرار تنبيه للمؤمن، وتحصين له من الانزلاق إلى هاوية الكذب والنفاق ومن التفريط في جوهرة الصدق التي تضيء له كل الدروب، وتحميه من النوازل والكروب.

والفعل "يهدي" معناه هنا: يوصل، وهو هنا قريب من الدلالة المألوفة وهي الهداية إلى الطريق الصحيح، أما في جانب الكذب فالفعل "يهدي"، لا يتجاوز مدلوله اللغوي وهو التوصيل؛ لأن الوصول للفجور ليس هداية وإنما زيغ وضلال، ولعل هذا التعبير من باب السخرية من ذلك الكذاب المنافق.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٥٢٤/١٠، والمفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ٣٧٣، والوسيط ٦٧٤.

والبر: كلمة جامعة تشمل كل أنواع الخير من الأعمال الصالحة الخالصة من كل مذموم. ولذلك فإن "البر" هو الطريق إلى الجنة، وفيها النعيم المقيم السرمد الذي لا يزول، وقد كرر لفظ "البر" مرتين تأكيداً لأثره في إصلاح النفس، وإصلاح المجتمع والحياة بأسرها.

والأفعال في الحديث تتوالى في نسق لغوي منتظم: صيغة المضارع، إشارة إلى استحضار هذا السلوك الصادق في الحال، والاستقبال استحضاراً دائماً لا ينقطع بانقطاع السبب أو الدافع أو المؤثر.

والتعبير: بـ"حتى" في قلب هذه الجملة: "وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً" يفسر ديمومة هذه الصفة، ومعنى "يكتب" أي يحكم له بذلك ويستحق الوصف بمنزلة الصديقين وثوابهم. والمراد: إظهار ذلك للمخلوقين، فيلقي الله ذلك في قلوب الناس وألسنتهم، كما يوضع له القبول.

وصيغة المبالغة: "في صدِّيقًا"، ترشد إلى جمال الصدق، وإلى أن من يحرص على هذه الصفة يهيئ الله له الأسباب للحفاظ عليها، واقتران الفعل، "يصدق باللام" بعد "إن" يضاعف التأكيد، ويكشف عن شدة حرص الإنسان على الصدق والمجاهدة في سبيله حتى ينال الجزاء الأوفى ويكتب عند الله صديقاً.

والجزء الثاني من الحديث يتكون من ثلاث جمل مثل الجزء الأول، ولكن القضية تختلف مع أن البناء اللغوي متشابه، والجمل متناسقة، ولكن "الكذب" هنا هو الخصلة الذميمة التي يحذر منها رسول الله ﷺ، وقد قُدِّم "الصدق" لشرفه ولأثره الإيجابي في الحياة، وأخرَ الكذب لأنه من أقبح الخصال، وأذم الفعال، وأردأ الأقوال.

ولعله جاء في ختام الحديث حتى يحذر المؤمن الصدوق من إغراءات الباطل ووسوسات الشياطين، ويظل متيقظاً خوف الوقوع في شرك الأكاذيب.

والكذب طريق إلى "الفجور" وهو الأعمال السيئة، وكلمة "الفجور"، تتسع دلالتها لتشمل كل أنواع السلوك السيئ والأعمال المشينة، والكذب هو الطريق الموصل إلى ذلك المهوى السحيق، والنفق العميق، والفجور -بكل ما يتضمنه من ضروب الإثم والرذيلة- يقود الإنسان إلى النار وبئس القرار.

والحديث في بنائه اللغوي يتضمن كثيراً من مظاهر الجمال الأسلوبي: ومن سمات الجمال الشمولية وهى السلامة من العيوب، والقصد، والتناسق، والتنظيم.

والحديث يبوح بكل هذه المظاهر الجمالية الأسلوبية، فهو خال من التعقيد اللفظي والمعنوي، وهو خال من تنافر الحروف والكلمات، وصياغته تسير وفق نظام مقصود، وتناسق في التراكيب وتنظيم في العبارات والأدوات.

والمقابلة في الحديث بين موقفين: موقف الصدق، وموقف الكذب، وكلاهما صيغ في ثلاث جمل، وكل جملة تبدأ "بإن" وبعدها المصدر "الصدق أو الكذب" ثم الطباق بين البر والفجور، والجنة والنار، والفعل: "ليصدق"، و"ليكذب" وكذلك الطباق بين صدِّيقاً وكذَّاباً وهما متوافقان في الصيغة النحوية والبلاغية، ولكن لكل منهما دلالة تخالف الدلالة الأخرى، والحديث دستور اجتماعي رشيد يضع أسس السلوك القولي والعملي، وكل حديث صحيح لم يرد ما ينسخه، وكان موضوعه جزءاً من رسالة النبي ﷺ بحيث أصبح في نهاية الأمر تعبيراً عن الإرادة الإلهية، هذا الحديث له في نظر المسلمين نفس السلطة التشريعية والأخلاقية التي للنص القرآني لأنها تنبع من تعاليمه[1].

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم الكذب.

فقد ذكر الفقهاء[2] أن الأصل في الكذب أنه حرام، وهو من الكبائر إن كان

---

(١) انظر: دستور الأخلاق في القرآن الكريم، د. محمد عبدالله دراز، تعريب وتحقيق وتعليق: د. عبدالصبور شاهين.

(٢) انظر في ذلك: المبسوط، السرخسي ١٦/١٤٥، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي ٤/٢٤١، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي الباجي ٧/٣١٣، وحاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، العدوي ٢/٤١٢، وأنوار البروق، القرافي ٤/٨، وأدب الدنيا والدين، الماوردي ص ٢٦١، والزواجر عن اقتراف الكبائر، أبو العباس أحمد بن محمد الهيتمي ٢/٣٢٢، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ٧/٢١٤، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ١/١١، ١٩، وغذاء الألباب شرح منظومة الآداب، الإسفراييني ١/١٣٤، وإعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم ١/٩٣، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٤/٢٠٥.

في شهادة زور لما فيه من القول بغير حق، وأنه ينبغي للمسلم أن يكون صادقاً في حديثه، وقد يكون الكذب مباحاً أو واجباً، فالكلام وسيلة إلى المقصود، وكل مقصود محمود يمكن تحصيله بغير الكذب يحرم الكذب فيه، فإن لم يمكن تحصيله بغير الكذب جاز الكذب فيه، وهنا ينظر إن كان تحصيل المقصود واجباً كان الكذب واجباً كما لو اختفى مسلم من ظالم يريد قتله أو أخذ ماله وسئل إنسان عنه وجب الكذب بإخفائه، وإن كان المقصود مباحاً كان الكذب مباحاً، وإن كان لا يتم مقصود الحرب أو إصلاح ذات البين أو إصلاح الزوجة وتأليفها إلا بالكذب كان الكذب مباحاً، إلا أنه ينبغي أن يتحرز منه ما أمكن.

ومن الجدير بالذكر أن بعض العلماء، منهم الطبري قالوا: لا يجوز الكذب في شيء أصلاً، قالوا: وما جاء من الإباحة في هذا المرادُ به التورية واستعمال المعاريض لا صريح الكذب[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار والتوكيد.

ثانياً: من مهام الداعية: توجيه المدعوين إلى ما ينفعهم.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل الصدق.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: الصدق طريق إلى الجنة ومرافقة النبيين.

خامساً: من موضوعات الدعوة: ذم الكذب وبيان عاقبته.

سادساً: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار والتوكيد:

لقد أخبر النبي ﷺ عن فضيلة الصدق وحسن عاقبته كما أخبر ﷺ عمن قبح الكذب وسوء عاقبته، وقد أكدّ هذا الإخبار ليكون أوقع عند المخاطب سواءً المصدق بذلك أو المنكر، فيزداد الأول صدقًا على صدق، أما الآخر فقد يصير كالأول

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٥٣.

مصدقاً وإلا فقد أقيمت عليه الحجة.

ثانياً- من مهام الداعية: توجيه المدعوين إلى ما ينفعهم:

والداعية وهو يفعل ذلك يقتدي بالنبي ﷺ، كما يظهر جليًا في هذا الحديث الشريف، فقد بيّن النبي ﷺ فضل الصدق ومذمة الكذب، والغرض من ذلك توجيه أتباعه إلى التحلي بالصدق فهو نافع لهم، وثمرته مرضيته، والابتعاد عن الكذب فهو ضار بهم ضررًا بالغًا في الدنيا والآخرة ويتبع ذلك الاقتداء ويليه اهتمام الداعية بمن يدعوهم ويخاف عليهم مع بذل المستطاع في دعوتهم إلى الله، وتغيير واقعهم إلى ما هو أفضل وأرقى انطلاقاً من السجية التي ينبغي أن تكون ملازمة للداعية، وهي حب الخير التي تنمّ عن كرم النفس وصفاء القلب وسلامته من مساوئ الأخلاق ورديء الخلال، وتلك هي بغية الدعاة وعلى رأسهم الأنبياء عليهم السلام قال تعالى عن شعيب وما قاله لقومه: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[1].

قال القاسمي: (قوله: "إن أريد الإصلاح ما استطعت" أي: إصلاح نفوسكم بالتزكية، والتهيئة لقبول الحكمة، ما دمت مستطيعاً متمكناً منه. "وما توفيقي إلا بالله" أي: وما كوني موفقاً للإصلاح إلا بمعونة الله وتأييده. "عليه توكلت" أي: أعتمد "وإليه أنيب" أي: أرجع في السراء والضراء)[2].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل الصدق:

جاء في صريح الحديث بيان فضل الصدق والتخلق به، فقال ﷺ "إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل يصدق حتى يكتب عند الله صديقاً"، قال القاضي عياض: (قوله: "إن الرجل يصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، ويكذب حتى يكتب عند الله كذاباً": فيه تحريض على تحري الصدق وتجنب الكذب وترك التساهل فيه؛ فإن ذلك يؤدي إلى أمثاله، ويقع فيه ويكثر منه إذا لم

---

(١) سورة هود، آية: ٨٨.

(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٢٦٣/٩/٦.

يتحفظ من الكذب حتى يعرف به، ويكتب عند الله بالمبالغة في الصدق إذا اعتاده، أو بالكذب إذا اعتاده، فإن فعيل وفعال من "صديق وكذاب" من أبنية المبالغة والكثرة. ومعنى كتبنا هنا: أي حكم عليه وله بذلك وحق له منزلة الصديقين وثوابهم، أو صفة الكذابين وعقابهم. وقيل في قوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ أي حكم، ويكون هذا إظهار حكمه فيها وإنفاذ قدره له بالشقاوة والسعادة بمقتضى الصفتين، أو كتب ذلك في كتاب ليشهر بالصفتين في الملأ الأعلى، أو يلقى ذلك في ألسنة الناس، كما يوضع القبول والبغضاء، وإلا فقضاؤه المتقدم وكتابه السابق قد سبق فيه بما كان ويكون فيه هذا.

وقوله: "وإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة،وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار"، معناه: أن الصدق يهدي إلى البر بالعمل الصالح الخالص من الإثم. والبر اسم جامع للخير كله، وقيل: البر: الجنة وقيل ذلك في قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ﴾ ويوصل إليه، والبر يوصل إلى الجنة ويرشد إليها، والكذب يوصل إلى الفجور وأصله الميل عن القصد، وقيل: الانبعاث في المعاصي، ومنه قيل للفاجر: كاذب، وللمكذب بالحق: فاجر. ومعنى: "يتحرى الصدق ويتحرى الأدب": أي يقصده ويعتمده، والحرى: ناحية الشيء)[1].

إن الصدق من الصفات التي لا تكمل شخصية المسلم إلا بها، وقد أمرنا الله بالتزام الصدق والتخلق به، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[2]. أي: كونوا مع الصادقين والتزموا انتهاجهم الصدق في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، الذين أقوالهم صدق وأعمالهم وأحوالهم لا تكون إلا صدقاً خالية من

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٨/٨١ - ٨٢.

(٢) سورة التوبة، آية: ١١٩.

الكسل والفتور سالمة من المقاصد السيئة مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة[١]، فالصدق ينبغي أن تصبغ به حياة المسلم كلها بلا استثناء في الأقوال والأفعال والأحوال، قال ابن القيم: (والصدق ثلاثة: قول وعمل وحال:

فالصدق في الأقوال: استواء اللسان على الأقوال كاستواء السنبلة على ساقها.

والصدق في الأعمال: استواء الأفعال على الأمر والمتابعة كاستواء الرأس على الجسد.

والصدق في الأحوال: استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص، واستفراغ الوسع وبذل الطاقة، فبذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق، وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به تكون صديقته)[٢].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: الصدق طريق إلى الجنة ومرافقة النبيين:

جاء ذلك وضحاً في صريح قوله ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة» أي أن الصدق يهدي ويوصل إلى البر وهو اسم جامع للخيرات كلها ويطلق على العمل الخالص الدائم، وإن البر بدوره يهدي إلى الجنة، قال ابن بطال: مصداقه في كتاب الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾[٣]،[٤]، فالصدق يهدي إلى كل عمل صالح خالص من كل مذموم[٥]، فإذا لازم الإنسان الصدق وأخذ نفسه به فإنه يتعوده حتى يصير صديقاً يصدق قوله ويصدق فعله ويصدق حسه وشعوره، ويقوده الصدق وملازمته إلى كل صفة خير وهي البر فيسمو في كل سلوكه وتصرفاته ويصل باستقامته إلى

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٣١٢.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/ ٢٨١.

(٣) سورة الانفطار، آية: ١٣ .

(٤) فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٥٢٤.

(٥) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٥٤.

الجنة[1]، ومعية النبيين والشهداء المنعم عليهم من قبل الله والمغدق عليهم بفيض رحمته وكريم عطائه، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾[2].

خامساً- من موضوعات الدعوة: ذم الكذب وبيان عاقبته:

جاء في الحديث بيان أن الكذب مدعاة لسيء الأخلاق والأعمال، وأنه طريق إلى النار -والعياذ بالله- فقال ﷺ: "وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً"، فالكذب يوصل إلى الفجور، وهو الميل عن الاستقامة، وقيل الانبعاث في المعاصي[3].

وفي المعنى جاءت نصوص كثيرة ومنها ما بيَّن بأن الكذب من خصال النفاق وشيم المنافقين، فقال ﷺ: ((أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خلة من نفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر))[4].

فالكذب إذا لازم الإنسان فإنه يسوقه إلى كل شر فيتوصل بذلك إلى النار[5]، لهذه الأسباب وغيرها عد العلماء الكذب من الكبائر، فذكر الإمام ابن حجر الهيتمي والإمام الذهبي الكذب -الذي لا رخصة فيه- من الكبائر، وأفحش الكذب ما كان

(١) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني عبدالمجيد هاشم، ص٧١.

(٢) سورة النساء، الآيتان: ٦٩، ٧٠ .

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٥٤.

(٤) أخرجه البخاري ٣٤، ومسلم، ٥٨.

(٥) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ص ٧١.

كذباً على الله عز وجل أو كذبا على رسوله ﷺ[١] إضافة إلى مايؤدي إليه الكذب من مضار سواء أكان على مستوى الأفراد أو على مستوى المجتمعات، فهو وسيلة لدمار صاحبه أمما وأفراداً، ويورث فساد الدين والدنيا، ناهيك عما يصيب صاحبه من خسة ودناءة وذهاب للمروءة والجمال والبهاء[٢]، فالإنسان المشتهر بالكذب يسقط اعتباره وتذهب مهابته، ويصبح هملاً في سقط المتاع[٣].

إن الكذب من الأخلاق المرذولة، والصفات القبيحة، وهو عنوان سفه العقل، وآية سقوط الهمة، وخبث الطوية، والكذاب مهين النفس بعيد عن عزتها المحمودة، قال الماوردي: "والكذب جماعُ كل شر، وأصل كل ذم، لسوء عواقبه، وخبث نتائجه، لأنه ينتج النميمة، والنميمة تنتج البغضاء، والبغضاء تؤول إلى العداوة، وليس مع العداوة أمن ولا راحة.

ولذلك قيل: من قلّ صدقه قلّ صديقه"[٤].

ومن مظاهر الكذب المحرمة: الكذب على الله ورسوله ﷺ والكذب لإفساد ذات البين والكذب لإضحاك السامعين، والكذب في المطالبات والخصومات والكذب للتخلص من المواقف المحرجة. ومن مظاهر الكذب -أيضاً- نقل الأخبار الكاذبة وحذف بعض الحقيقة والتوسع في باب المصلحة والمبالغة في المعاريض والتملق لأرباب الثراء والجاه والكذب على الأولاد ونحو ذلك[٥].

---

(١) انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر، أبو العباس أحمد بن محمد الهيتمي ، ابن حجر الهيتمي، ص ١٢٤-١٢٥، والكبائر، الذهبي، ص ١٢٨-١٣٥.

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٥٤٣٠/١١.

(٣) أخلاقية الداعية، عبدالله ناصح علوان ص ١٦-١٧.

(٤) أدب الدنيا والدين، الماوردي ص ٢٦٢.

(٥) انظر: سوء الخلق "مظاهره - أسبابه - علاجه، محمد بن إبراهيم الحمد، ص ٤٥ - ٤٦.

سادساً- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

يتضح ذلك في الحديث من خلال ترغيب الرسول ﷺ في الصدق بأنه يهدي بصاحبه في النهاية إلى الجنة، وترهيبه من الكذب ببيان سوء عاقبته وأنه يسوق صاحبه إلى النار والعياذ بالله إن أسلوب الترغيب والترهيب من أنفس الأساليب الدعوية لما له من أثر بالغ في النفوذ إلى القلوب وانقياد المدعوين وقبولهم لما يزجى إليهم من قبل الداعية، فالترغيب في الثواب والترهيب من العقاب يحملان النفس على فعل ما أمر الله به سبحانه وتعالى وترك ما نهى عنه، فالترغيب يشوق النفس ويعلي الهمة، والترهيب يخيف ويحذر من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله، لذا كان على الداعية إتباع أسلوب الترغيب والترهيب وعدم تركهما أو التركيز على أحدهما دون الآخر فهما كجناحى طائر لا يطير إلا بهما معاً.

ولا شك أن للترغيب والترهيب آثارًا واضحة في نفوس المدعوين، مما يجعل الداعية حريصًا على الإفادة من ذلك في تعامله وتوجيهه وإرشاده للمدعوين.

الحديث رقم (٥٥)

٥٥- الثَّاني: عَنْ أبي مُحَمَّدٍ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أبي طَالِبٍ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ حفِظْتُ مِنْ رسولِ اللَّه ﷺ: «دَعْ ما يَرِيبُكَ إِلَى مَا لا يَرِيبُكَ، فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمأنينَةٌ، وَ[1] الْكَذِبَ رِيبةٌ» رواه التِرْمذي وقال: حديثٌ صحيحٌ[2].

ترجمة الراوي:

الحسن بن علي بن أبي طالب: الإمام السيد، ريحانة رسول الله ﷺ وسبطه، وسيد شباب أهل الجنة، أمير المؤمنين ولد بالمدينة المنورة في شعبان سنة ثلاثٍ من الهجرة وقيل في نصف رمضانها، ولما ولد رضي الله عنه، جاءه النبي ﷺ، فقال ((أروني ابني، ما سمَّيتُموه؟)) قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: حرب، فقال النبي ﷺ ((بل هو حسن))[3]، (وعقَّ عنه النبي ﷺ بكبش)[4]، وكان الحسن عاقلاً، حليماً، محباً للخير، فصيحاً، من أحسن الناس منطقاً وبديهة، وكان شبيهاً برسول الله ﷺ، فقد صلى أبوبكر رضي الله عنه العصر يوماً ثم قام وعليٌّ رضي الله عنه يمشيان، فرأى الحسن رضي الله عنه يلعبُ مع الغلمان، فأخذه أبوبكر رضي الله عنه، وحمله على عنقه، وقال: بأبي شبيه بالنبي: ليس شبيهاً بعلي، وعلي رضي الله عنه يضحك[5].

أحبه النبي ﷺ ودعا لمن أحبَّه ((اللهم إني أحبُّه فأحبَّه، وأحبَّ مَنْ يحبُّه))، قال أبو هريرة رضي الله عنه: فما كان أحدٌ أحبّ إلي من الحسن بن علي بعدما قال رسول الله ﷺ ما قال[6].

---

(١) عند الترمذي زيادة: (إنَّ).

(٢) أخرجه الترمذي (٤٣١٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وصحّحه ابن خزيمة (٢٣٤٨)، وابن حبان (الإحسان ٧٢٢)، وقال الحاكم (١٣/٢): هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي في التلخيص (٩٩/٤): سنده قويٌّ. أورده المنذري في ترغيبه (٢٥٩١). وسيكرره المؤلف برقم (٥٩٣).

(٣) أخرجه أحمد ٩٨/١ رقم ٧٦٩، وقال محققو المسند: إسناده حسن ١٥٩/٢.

(٤) أخرجه أبو داود (٢٨٤١) وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٤٦٦).

(٥) أخرجه البخاري ٣٥٤٢، ٣٧٤٢.

(٦) أخرجه البخاري ٢١٢٢، ٥٨٨٤ واللفظ له، ومسلم ٢٤٢١.

وقال عبدالله بن الزبير رضي الله عنه: رأيتُ الحسن يأتي النبي ﷺ، وهو ساجد، فيركب رقبته، أو قال ظهره، فما ينزله حتى يكون هو الذي ينزل ولقد رأيته يجئ وهو راكع فيفرج له بين رجليه حتى يخرج من الجانب الآخر[١].

وقال النبي ﷺ: ((الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة))[٢].

وقد بايعه أهل العراق بالخلافة بعد مقتل أبيه علي بن أبي طالب رضي الله عنهما سنة ٤٠هـ، وأشاروا عليه بالمسير إلى الشام لمحاربة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، فأطاعهم وزحف بمن معه وبلغ معاوية رضي الله عنه خبره، فقصده بجيشه، وتقارب الجيشان في موضع يقال له "مسكن" بناحية من الأنبار، فكره الحسن رضي الله عنه أن يقتتل المسلمون وقال: قد كانت جماجم العرب في يدي يحاربون من حاربتُ ويسالمونَ من سالمتُ، فتركتها ابتغاء وجه الله وحقن دماءِ أمة محمد ﷺ، فكتب إلى معاوية يشترط شروطاً للصلح ورضى معاوية، فخلع الحسن رضي الله عنه نفسه من الخلافة وسلم الأمر لمعاوية رضي الله عنه سنة ٤١هـ وسمى هذا العام "عام الجماعة" لاجتماع كلمة المسلمين. وتحقق قول النبي ﷺ الذي قال فيه ((إن ابني هذا سيّدٌ ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين))[٣]، وانصرف الحسن رضي الله عنه إلى المدينة حيث أقام إلى أن توفي. ويوم أن مات الحسن رضي الله عنه بكى أبو هريرة ونادى بأعلى صوته: يا أيها الناس مات اليوم حِبُّ رسول الله ﷺ، فابكوا فبكى الناس نساءً وصبياناً ورجالاً.

واختلف في سنة وفاته فقيل مات سنة ٤٩هـ، وقيل ٥٠هـ، وقيل ٥١هـ، وقيل غير ذلك، ودفن بالبقيع[٤].

---

(١) قال محققو السير: إسناده ضعيف، السير ٢٤٩/٣ هامش (٣).

(٢) أخرجه الترمذي ٣٧٨١ وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٩٧٥).

(٣) مجمع الزوائد ١٧٥/٩.

(٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (١٧٩-١٨٤)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (١٣/٢-٢١)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (٢٧٤-٢٧٦)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (١٤٣/٢-١٥٢)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٤٠٣/١-٤٠٦)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي (٢٤٥/٣-٢٧٩)، والأعلام، الزركلي (١٩٩/٢-٢٠٠)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (٣٩٢/١-٤٠١).

غريب الألفاظ:

دعْ ما يَريبُك إلى ما لا يريبُك: دع ما تشكُّ فيه إلى ما لا تشك فيه، أو عليك بالصافي من الأمور ودع المشتبه منها[١].

رِيبَة: ترتاب به القلوب فلا تسكن إليه، بل تنفر منه[٢].

الشرح الأدبي

جاء هذا الحديث عبارته موجزة، وألفاظه سهلة، ومعانيه واضحة الدلالة، ولكنها تتسع وتمتد لتشمل كثيراً من الأمور التي تحير الإنسان، وما أكثرها وما أدَقها: في العبادات، والمعاملات والعقائدّ وعن ابن مسعود قال: ما تريد إلى ما يريبك وحولك أربعة الآف لا تريبك؟ وقال عمر: دعوا الربا والريبة، يعني ما ارتبتم فيه وإن لم تتحققوا أنه ربًا.

ومعنى هذا الحديث يرجع إلى الوقوف عند الشبهات واتقائها، فإن الحلال المحض لا يحصل لمؤمن في قلبه منه ريب، وهو القلق والاضطراب، بل الحلال تسكن إليه النفس، ويطمئن به القلب، وأما المشتبهات فيحصل بها للقلوب القلق والاضطراب، والموجب للشك[٣].

والحديث يتكون من ثلاث جمل واضحة مختصرة : الجملة الأولى تتكون من ثلاثة أفعال وتتنوع. فالفعل الأول: "دع"، وهو فعل أمر بمعنى اترك، والأمر للوجوب، وقيل للندب، لأن توقي الشبهات مندوب على الأصح، والأمر موجه إلى كل مسلم مؤمن حريص على الالتزام بأوامر الشرع ونواهيه، والأمر بذلك موجه إلى ملايين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، والفعل الثاني، مضارع مثبت، "يريبك"، والفعل الثالث: مضارع منفي، ومن أسرار التعبير في هذا الحديث الشريف أن الفعل الأول المثبت هو الذي يأمرنا الرسول بتركه وهو ما يتحقق فيه الريب والشك، أما الفعل المنفي "لا

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ر ي ب)، ورياض الصاحلين ٧٠.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/ ٢٨٤، ٢٨٥.

(٣) المرجع السابق ١/ ٢٨٠.

يريبك"، فهو الذي يأمرنا الرسول بالإقدام عليه وفعله في أي ميدان كان، وفي أي زمان، وفي أي مجال، وكاف الخطاب تتعدى دائرة المخاطب الفرد إلى المخاطبين من جميع أمة الإسلام الذين يحرصون على النجاة والطمأنينة.

- والجملتان الثانية والثالثة: تجيئان في الصيغة الإخبارية المؤكدة وهما جملتان اسميتان ثابتتان في الدلالة غير مرتبطتين بزمن لأنهما قاعدتان من قواعد الخلق الإسلامي، فإن الصدق طمأنينة، والصدق هنا صدق نفسي وشعوري وعملي، والكذب مع النفس وعدم تصديق الإحساس يعد ترسيخا للشك والإثم، فرسول الله في هذا الحديث يرشد إلى التحلي بالصدق والبعد عن الكذب.

فقه الحديث

في هذا الحديث من الفقه:

ترك ما فيه ريبة، والريبة هي الشك والتردد، وترك ما فيه ريبة أصل عظيم في الورع، يقول الخطابي: كل ما شككت فيه فالورع اجتنابه، ثم هو على ثلاثة أقسام واجب ومستحب ومكروه، فالواجب اجتناب ما يستلزمه ارتكاب المحرم، والمندوب اجتناب معاملة من أكثر ماله حرام، والمكروه اجتناب الرخص المشروعة على سبيل التنطع[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من واجبات المدعو: الاهتمام بسنة النبي ﷺ.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الأخذ بجانب الحيطة والوقوف عند الشبهات.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الورع.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٢٩٣/٤، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٧/٧، سبل السلام، الصنعاني ١٥٢/٤، الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٩٦/٢٣.

خامسًا: من آداب الدعوة: البعد عن الشبهات والتيقن في الأمور.

سادساً: من موضوعات الدعوة: بيان فضل الصدق وشناعة الكذب.

سابعاً: من أساليب الدعوة: التوكيد، والترغيب والترهيب.

أولاً- من واجبات المدعو الاهتمام بسنة النبي ﷺ:

(السنة كل ما أثر على الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية أو خلقية أو سيرة، وهي المصدر الثاني بعد القرآن الكريم وهي شارحة القرآن ومبينة له ومفصلة لما أجمل منه، كما أنها قصة كفاح وخلاصة تجارب لأعظم داعية وأكرم عقل في الوجود، كما أنها نفحات قدسية وتوجيهات ربانية وتجليات إلهية لفهم القرآن وتوجيهه في الحياة ليعمل عمله في آلاء الكون وسنن الاجتماع، وعلل النفوس ومشكلات الحياة، وضروب الإصلاح وسياسة الأمم ورسم الطريق المستقيم، كما أنه ينبوع بل ينابيع الخلق والمثل، ومكارم الأخلاق التي تتزود منها الإنسانية طول فترة بقائها على وجه هذه المعمورة وإلى يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها...، وهي كذلك أساليب للتربية وخطوات للتوجيه...، فضلاً عن أنها منهل للعلم النافع، والفكر الصائب، والزاد الطاهر...، فهي العطاء الغامر والفيوضات الكريمة التي يحتاجها كل مسلم وينتفع بها كل بشر في هذا العالم المضطرب المائج بالأهواء والفتن والحروب والإحن)[1].

وقد كان في سلف الأمة الصالح القدوة والأسوة في الاهتمام بسنة النبي ﷺ (فهاهو ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما كان يتبع أمر رسول الله ﷺ، وآثاره وحاله، ويهتم به، حتى كان قد خيف على عقله من اهتمامه بذلك)[2]، وفي ذلك قالت عائشة رضي الله عنها: (ما رأيت أحداً ألزم للأمر الأول من ابن عمر)[3]، وقد ورد هذا الاهتمام بسنة

---

(١) الخطابة وإعداد الخطيب، د. توفيق الواعي، ١٢٧-١٢٩.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي ٣/٢١٣.

(٣) المرجع السابق ٣/١١٢.

النبي ﷺ في الحديث من قول الصحابي: "حفظتُ من رسول الله ﷺ"، وما ذلك إلا امتثالاً لأمر النبي ﷺ ((بلّغوا عني ولو آيةً))[1] ورغبةً في أن يكون ممن دعا لهم النبي ﷺ بقوله: ((نَضَّرَ الله امْرأً سَمِعَ مِنَّا حَديثاً فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ))[2] وفي ذلك مسلكاً لحفظ سنة النبي ﷺ وتبليغها إلى الغير فيحصل بذلك كامل الأجر والفائدة. وهكذا استمر حفظ سنة النبي ﷺ عبر الأجيال والأزمان، ومما لا شك فيه أن المدعوين تختلف استعداداتهم لحفظ السنة، ولكن المتفق عليه هو العمل بها وتطبيقها في مختلف مجالات الحياة وإخراجها من بطون دواوين السنة إلى الحياة حاكمة ومطبقة.

ثانياً- من أساليب الدعوة: الأمر:

لقد ورد هذا الأسلوب الدعوي في الحديث في أمره ﷺ بترك كل ما فيه شك وشبهة والأخذ بكل ما تسكن إليه النفس وتطمئن وذلك في قوله ﷺ: "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك". وأسلوب الأمر من الأساليب المباشرة للحث على الامتثال والإذعان، وكان هذا مناسباً للابتعاد عن الشبهات، واجتناب كل ما هو مشكوك فيه، والأخذ بما ليس فيه شك أو ريبة. ومما لاشك فيه أن الأمر من الأساليب الدعوية الهامة التي تعين الداعية على إرشاد المدعو وتوجيهه إلى فعل ما يجب عليه.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦١).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٥٦) وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢١٣٩).

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: الأخذ بجانب الحيطة والوقوف عند الشبهات:

مما لا شك فيه أن المؤمن يحتاط لنفسه ويقف عند الشبهات ويتقيها وهذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله ﷺ "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك (فالحلال المحض لا يحصل للمؤمن في قلبه منه ريب -والرَّيْبُ بمعنى القلق والاضطراب- بل تسكن إليه النفس، ويطمئن به القلب وأما المشتبهات فيحصل بها للقلوب القلق والاضطراب الموجب للشك)[١].

وقد رغب النبي ﷺ في ترك الشبهات واتخاذ الحيطة والورع ورهب من الوقوع فيها فقال: ((إنَّ الْحَلاَلَ بَيِّنٌ وَإنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلاَ وَإنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمىً، أَلاَ وَإنَّ حِمَى اللّهِ مَحَارِمُهُ، أَلاَ وَإنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ))[٢] وقد كان ﷺ يقول: ((إني لأنقلِبُ إلى أهلي، فأجِدُ التمرةَ ساقطةً على فِراشي فأرفعُها لآكلَها، ثمَّ أخشَى أن تكونَ صدَقةً فأُلقيها))[٣] وقال عمر رضي الله عنه: (دعوا الربا والريبة، يعني: ما ارتبتم فيه، وإن لم تتحققوا أنه رباً)[٤].

وقد خرَّج ابن جرير بإسناده عن بشير بن كعب أنه قرأ قول الحق تبارك وتعالى ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾[٥] فقال لجارية له: إن دريتِ ما مناكبها فأنتِ حُرّة لوجه الله، فقالت: إن مناكبها جبالُها. فكأنما سُفع في وجهه، ورَغِبَ في جاريته، فسألهم، فمنهم من أمره، ومنهم من نهاه، فسأل أبا الدرداء فقال: (الخير طمأنينة، والشر ريبة، فذَرْ ما

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٨٠/١.

(٢) أخرجه البخاري ٥٢، ٢٠٥١، ومسلم ١٥٩٩.

(٣) أخرجه البخاري ٢٣٢، ومسلم ١٠٦٩.

(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب ٢٨٠/١.

(٥) سورة الملك، آية: ١٥.

يريبك إلى ما لا يريبك)[١]، وبذلك يتحقق اطمئنان القلب وسكون النفس وكفى بذلك فائدة وكفي بذلك مغنمًا.

رابعاً- من موضوعات الدعوة: الورع:

إن الورع من أصول الدين وقواعده، ومن صوره ترك ما يشك المسلم فيه، وهذا مفهوم من عموم الحديث: قال ابن حجر: (والمعنى إذا شككت في شيء فدعه، وترك ما يشك فيه أصل عظيم في الورع)[٢]، وقال ابن تيمية: (والورع من قواعد الدين)[٣].

وقال أبو عبدالرحمن العمري الزاهد: "إذا كان العبد ورعاً ترك ما يريبه إلى ما لا يريبه". وقال حسان بن أبي سنان: ما شيء أهون من الورع إذا رابك شيء فدعه. وهذا إنما يسهل على مثل حسان.

قال ابن المبارك: كتب غلام لحسان بن أبي سنان إليه من الأهواز: إن قصب السكر أصابته آفة، فاشتر السكر فيما قِبَلَك. فاشتراه من رجل، فلم يأت عليه قليل فإذا فيما اشترى ربح ثلاثين ألفاً، قال: فأتى صاحب السكر فقال: يا هذا إن غلامي كان كتب إليّ فلم أعلمك. فأقلني فيما اشتريت منك، فقال له الآخر: قد أعلمتني الآن وقد طيبته لك، قال: فرجع فلم يحتمل قلبه فأتاه فقال: يا هذا إني لم آت هذا الأمر من قبل وجهه، فأحب أن تسترد هذا البيع، قال: فما زال به حتى رد عليه)[٤].

وقال البغوي: (وجملة الشبه العارضة في الأمور قسمان: أحدهما هو ما لا يعرف له أصل في تحليل ولا تحريم. فالورع تركه. والثاني أن يكون له أصل في التحليل أو التحريم، فعليه التمسك بالأصل، ولا ينزل عنه إلا بيقين علم، وذلك مثل الرجل الذي يتطهر للصلاة ثم يشك في الحدث، فإنه يصلي ما لم يعلم الحدث يقيناً، وكذلك الماء يجده في الفلاة يشك في نجاسته، فهو على أصل الطهارة. فعليه التمسك به حتى لا يقع

---

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن، الطبري ١٢٨/٢٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٣٤٣/٤.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٧٤/١٥.

(٤) المرجع السابق ٢٨٠/١.

في الوسواس... وإن كان أصله الحظر مثل أن يشك في نكاح امرأة أو شراء جارية أو في لحم شاة أنها مذكاة أو ميتة. فلا يحل له شيء منها حتى يتيقن المِلْك والذكاة. وكذلك لو اختلطت امرأته بنساء أجنبيات أو مذكاة بميتات يجب عليه أن يتجنب أكلها حتى يعرف الزوجة والمذكاة بعينها)[١].

خامساً- من آداب المدعو: البعد عن الشبهات والتيقن في الأمور:

إن البعد عن الشبهات يورث الطمأنينة والسكينة، لذا فإن على المدعو أن يبتعد عما يشك فيه ويرتاب، حتى يحفظ دينه، وهذا واضح من عموم الحديث، وفي الحديث زيادة عند الترمذي: ((فإن الصدق طمأنينة وإن الكذب ريبة))[٢]، ولفظ ابن حبان: ((الخير طمأنينة والشر ريبة))[٣].

قال ابن تيمية: (فجعل الطمأنينة ضد الريبة وكذلك اليقين ضد الريب، واليقين يتضمن معنى الطمأنينة والسكون)[٤].

وقال البغوي: (نوع من الاشتباه أن يقع للرجل حادثة يشتبه عليه وجه الحكم فيها بين الحل والحرمة، فسبيله إن كان عالماً أن يجتهد، وإن كان عامياً أن يسأل أهل العلم، ولا يجوز له سبيل الاستباحة من غير اجتهاد أو تقليد مجتهد إن كان عامياً)[٥].

وقد نبه ابن تيمية على مداخل للغلط في فهم الورع فقال: "يقع الغلط في الورع من ثلاث جهات:

أحدها: اعتقاد كثير من الناس أنه من باب الترك، فلا يرون الورع إلا في ترك الحرام لا في أداء الواجب، فترى أحدهم يتورع عن الكلمة الكاذبة وعن الدرهم فيه شبهة ومع هذا يترك أموراً واجبة عليه من صلة الرحم وحق جار ومسكين وابن سبيل

---

(١) شرح السنة، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ومحمد زهير الشاويش ٨/١٥-١٦.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٥١٨.

(٣) أخرجه ابن حبان ٧٢٢.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٣/٢٣٨.

(٥) شرح السنة، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ومحمد زهير الشاويش ٨/١٦.

ونهي عن منكر وأمر بمعروف، وعن الجهاد في سبيل الله إلى غير ذلك مما فيه نفع للخلق في دينهم ودنياهم مما وجب عليه ... وهذا الورع قد يوقع صاحبه في البدع الكبار.

الثانية: إن كثيراً من الناس تنفر نفسه عن أشياء لعادة ونحوها، فيكون ذلك مما يقوي تحريمها في نظره واشتباهها عنده ويكون بعضهم في أوهام وظنون كاذبة، مبناها على الورع الفاسد. كحال أهل الوسوسة في النجاسات، وورع قوم يعدون غالب أموال الناس أو كلها محرمة أو مشتبهة، ولهذا يحتاج المتدين المتورع إلى علم كثير بالكتاب والسنة والفقه في الدين وإلا فقد يفسد تورعه الفاسد أكثر مما يصلح.

الثالثة: جهة المعارض الراجح، فإن الشيء قد يكون جهة فساده يقتضي تركه فيلحظه المتورع، ولا يلحظ ما يعارضه من الصلاح الراجح وبالعكس. وقد تبين أن من جعل الورع: الترك فقط، وأدخل في هذا الورع أفعال قوم ذوي مقاصد صالحة بلا بصيرة من دينهم وأعرض عما فوتوه بورعهم من الحسنات الراجحة، فإن الذي فاته من دين الإسلام أعظم مما أدركه، فإنه قد يعيب أقواما هم إلى النجاة والسعادة أقرب)[(١)].

ومما يجدر ذكره في هذا المقام ذكر قاعدة فقهية هي من القواعد الفقهية الكبرى، وهي قاعدة: "اليقين لا يزول بالشك"، قال أحمد الزرقا: (إن هذه القاعدة من أمهات القواعد التي عليها مدار الأحكام الفقهية، وقد قيل: إنها تدخل في جميع أبواب الفقه، والمسائل المخرجة عليها، من عبادات ومعاملات وغيرها، يبلغ ثلاثة أرباع علم الفقه. ومعناها أن ما كان ثابتاً متيقناً لا يرتفع بمجرد طروء الشك عليه، لأن الأمر اليقيني لا يعقل أن يزيله ما هو أضعف منه بل ما كان مثله أو أقوى.

هذا ولا فرق بين أن يكون السابق مقتضياً للحظر أو مقتضياً للإباحة، فإن العمدة عليه في كلتا الحالتين، ولا يلتفت إلى الشك في عروض المبيح على الأول وعروض الحاظر على الثاني.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٠/٢٤٢-٢٤٣، وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٤٣/١١٠-١١٢.

فمن القسم الأول: ما لو غاب إنسان غيبة منقطعة بحيث لا يعلم موته ولا حياته فإن المعتبر اليقين السابق وهو حياته إلى أن يعلم موته بالبينة أو بموت جميع أقرانه وإن كان احتمال موته قائماً في كل لحظة. فلا يجوز قبل ذلك قسمة ماله بين الورثة، ولو كان له وديعة عند آخر فيجب على المستودع حفظها، فلو أعطاها للورثة يكون ضامناً.

ومن القسم الثاني: ما إذا كان إنسان يعلم أن بكراً مديون لعمرو بألف مثلاً. فإنه يجوز له أن يشهد على بكر بالألف وإن خامره الشك في وفائها أو في إبراء الدائن له عنها، إذ لا عبرة للشك في جانب اليقين السابق.

ومنها ما إذا كان يعلم أن العين الفلانية كانت ملك بكر ثم نازعه فيها أحد، فإنه يجوز له أن يشهد لبكر بأن العين ملكه وإن كان يحتمل أنه باعها لمن ينازعه)[١].

سادساً- من موضوعات الدعوة: بيان فضل الصدق وشناعة الكذب:

يظهر ذلك في قول النبي ﷺ "الصدق طمأنينة والكذب ريبة"، فالصدق تطمئن له النفوس الكريمة وهو دعامة الفضائل ودليل الكمال، وبه وصف الحق تبارك وتعالى نفسه فقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾[٢] وقال ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾[٣] وهو وصف الأنبياء والمرسلين وبه أمر الحق عباده فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[٤]. وبه تتحقق راحة الضمير، وطمأنينة النفس، والزيادة في الخير والبركة في الكسب؛ وذلك لقوله ﷺ ((البَيِّعانِ بالخيارِ مالم يَتفرَّقا، فإن صَدَقا وبَيَّنا بورِكَ لهما في بيعِهما))[٥]، وبالصدق يتحقق الفوز بمنزلة الشهداء، لقوله ﷺ

---

(١) شرح القواعد الفقهية ٨١-٨٢، وانظر: جمهرة القواعد الفقهية في المعاملات المالية، د. علي أحمد الندوي ٢٢٩/١-٢٣٦.

(٢) سورة النساء، آية: ٨٧.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٩٥.

(٤) سورة التوبة، آية: ١١٩.

(٥) أخرجه البخاري ١٥٣٢، ومسلم ١٥٣٢.

((مَنْ سَأَلَ اللّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ ، بَلَّغَهُ اللّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ))[1] وفي ذلك دعوة إلى تحري الصدق وبيان عظيم فضله.

أما الكذب فبه الريبة والاضطراب، وقد قبحه الإسلام، ونفّر منه، وجعله من خصال الكافرين، فقال جل شأنه ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾[2] وبيّن الحق تبارك وتعالى سوء عاقبة الكذب فقال: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ﴾[3]. وقال ﷺ: ((وإيَّاكم والكذِبَ، فإنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إلَى الفُجُورِ، وإنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إلَى النَّارِ وَمَا يزَالُ العبْدُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله كَذَّاباً))[4].

(ومن هنا كان العقلاء في عهد النبي ﷺ إذا سمعوا كلامه وما يدعو إليه، عرفوا أنه صادق، وأنه جاء بالحق، وإذا سمعوا كلام مسيلمة، عرفوا أنه كاذب، وأنه جاء بالباطل، وقد رُوي أن عمرو بن العاص سمعه قبل إسلامه يدَّعي أنه أنزل عليه: يا وبر يا وبر، لك أذنان وصدر، وإنك لتعلم يا عمرو، فقال: والله إني لأعلم أنك تكذب. فينبغي على المرء ألا يعتمد على قول كل قائل...، وإنما يعتمد على قول من يقول الصدق، وعلامة الصدق أنه تطمئن به القلوب، وعلامة الكذب أنه تحصل به الريبة، فلا تسكن القلوبُ إليه، بل تنفر منه)[5].

سابعاً- من أساليب الدعوة: التوكيد، والترغيب والترهيب:

التوكيد من الأساليب الدعوية الهامة في تقوية الكلام وإثباته في أذهان المدعوين. وقد ورد هذا الأسلوب الدعوي في الحديث من قوله ﷺ "فإن الصدق طمأنية،

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٩).

(٢) سورة النحل، آية: ١٠٥.

(٣) سورة الزمر، آية: ٥٩.

(٤) أخرجه البخاري ٢٦٠٧ ، ومسلم ١٨٠٩ واللفظ له.

(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/٢٨٥.

والكذب ريبة" مؤكداً ﷺ على أهمية الصدق وشناعة الكذب.

أما الترغيب والترهيب، فهو أسلوب دعوي ناجع للنفس البشرية في تقويمها لقبول الحق والبعد عن كل ضيق وعذاب وهذا ما ورد في هذا الحديث من ترغيبه ﷺ في الصدق وترهيبه من الكذب بقوله "فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة، (والأصل في الترغيب أن يكون في نيل رضى الله ورحمته وجزيل ثوابه في الآخرة، وأن يكون الترهيب بالتخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة، وهذا هو نهج رسل الله الكرام كما بينه القرآن الكريم وجاءت به السنة النبوية المطهرة)[١].

(١) انظر: أصول الدعوة، عبدالكريم زيدان ص ٤٢١.

الحديث رقم (٥٦)

٥٦- الثَّالثُ: عنْ أبي سُفْيانَ صَخْرِ بْنِ حَرْبٍ ﷺ. في حديثِه الطَّويلِ في قِصَّةِ هِرقْلُ، قَالَ هِرقْلُ: فَماذَا يَأْمُرُكُمْ يعْني النَّبِيَّ ﷺ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: قُلْتُ: يقول «**اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ لا تُشرِكُوا بِهِ شَيْئاً، واتْرُكُوا ما يَقُولُ آباؤُكُمْ، ويَأْمُرنَا بالصَّلاةِ[1] والصِّدقِ، والْعفَافِ، والصِّلَةِ**». متفقٌ عليه[2].

ترجمة الراوي:

أبو سفيان صخر بن حرب: هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، الأموي القرشي، اشتهر بكنيته (أبو سفيان) وكان يكنى بأبي حنظلة بابنه حنظلة المقتول يوم بدر مشركاً، ولد قبل الفيل بعشر سنين، فكان أسنّ من النبي ﷺ بعشر سنين، وعاش بعده عشرين سنة، وهو والد أم حبيبة زوج النبي ﷺ، قال الزبير بن بكار: وتزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان، زوّجه إياها النجاشي، فقيل لأبي سفيان: إن محمداً قد نكح ابنتك، قال: ذاك الفَحْل لا يُقْرع أنْفُه، يعني أنه كريم لا يرد.

وكان من أشراف قريش وساداتها، ومن الشجعان الأبطال، وكان تاجراً يجهز التجار بماله وأموال قريش إلى الشام وغيرها من أرض العجم، وكان أحياناً يخرج بنفسه، وكانت إليه راية الرؤساء المعروف بالعقاب، وكان لا يحبسها إلا رئيس، فإذا حميت الحرب اجتمعت قريش، فوضعت تلك الراية بيد الرئيس، وكان من رؤساء المشركين في حرب الإسلام عند ظهوره، قاد قريشاً وكنانة يوم أحد، ويوم الخندق لقتال رسول الله ﷺ، أسلم يوم الفتح، وقصة إسلامه يوم الفتح مشهورة كما جاء في حديث العباس بن عبدالمطلب أنه أتى به وقد أردفه خلفه يوم الفتح إلى رسول الله ﷺ وسأله أن يؤمنه... فشهد وأسلم، ثم سأل له العباس رسول الله ﷺ -أن يؤمن من دخل داره، وقال إنه رجل يحب الفخر والذكر فأسعفه رسول الله ﷺ في ذلك، وقال ((من

---

(١) عند البخاري زيادة: (والزكاة).

(٢) أخرجه البخاري (٧) واللفظ له، ومسلم (١٧٧٣/٧٤).

دخل دار أبي سفيان فهو آمن...))[١] فأبو سفيان نال شرف الصحبة وقبلها شرف المصاهرة، وغفر الله ما كان منه، والله يغفر لمن يشاء وهو أرحم الراحمين.

شهد حنيناً، وأعطاه النبي ﷺ من غنائمها مائة بعير، وأربعين أوقية وَزَنها له بلال، وأعطى ابنيه يزيد ومعاوية، وفقئت عين أبي سفيان يوم الطائف فلم يزل أعور حتى فقئت عينه الأخرى يوم اليرموك، أصابها حجر فشدخها فَعمِيَ، وكان في المعركة ذاتها يقف على الكراديس[٢] فيقول للناس: الله الله فإنكم دارة العرب وأنصار الإسلام، وإنهم دارة الروم وأنصار المشركين، اللهم هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصرك على عبادك.

قال الذهبي: (وشهد قتال الطائف فقلعت عينه حينئذٍ ثم قلعت الأخرى يوم اليرموك، وكان يومئذٍ قد حسن إن شاء الله إيمانه، فإنه كان يومئذ يحرِّض على الجهاد ... فإن صحَّ هذا عنه فإنه يغبط بذلك، ولا ريب أن حديثه عن هرقل وكتاب النبي ﷺ يدل على إيمانه، ولله الحمد).

وكان عمر يحترمه وذلك لأنه كان كبير بني أمية.

أما عن صفاته الخَلْقية: فكان رَبْعة دَحْدَاحاً[٣] ذا هامة عظيمة.

مات سنة (٣١) وقيل (٣٢)، وقيل (٣٣)، وقيل (٣٤)، في خلافة عثمان بن عفان، وصلى عليه ابنه معاوية، وقيل: بل صلى عليه عثمان بموضع الجنائز، ودفن بالبقيع، مع بقية صحابة رسول الله ﷺ، وهو ابن (٨٨) سنة وقيل (٩٣) سنة[٤].

---

(١) أخرجه الطبراني ٧٢٦٤، والبيهقي في الدلائل ٣٢/٥، وسنده حسن، فإن فيه ابن إسحاق وقد صرّح بالتحديث، وقوله ﷺ: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن" أخرجه مسلم ١٧٨٠.

(٢) الكراديس: واحدتها: الكردوسة: وهي الطائف العظيمة من الخيل والجيش، الوسيط في (ك ر د س).

(٣) الدحداح هو القصير السمين، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير لابن الأثير ص (٢٩٨). والرجل والمرأة "الربعة" وسيط القامة، الوجيز في (ر ب ع).

(٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٨١٣، ٨١٤، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٩/٣، ١٠، ١٤٤/٦، ١٤٥، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٦٠٣، وسير أعلام النبوة ١٠٥/٢-١٠٧، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٤٤٢/٣، ٤٤٣، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٢٠٤/٢، ٢٠٥، والأعلام، خير الدين الزركلي ٢٠١/٣، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ١٠٤٣/٢-١٠٤٦.

غريب الألفاظ:

هرقل: ملك الروم وهرقل اسمه ... ولقبه: قيصر، كما يُلقب ملك الفرس: كسرى[1].

العفاف: الكف عما لا يحل ولا يجمل من قول أو فعل[2].

الصلة: صلة الأرحام وكل ما أمر الله به أن يوصل[3].

الشرح الأدبي

إن مشاهد السيرة النبوية العطرة تتوالى أطيافها، وتتماوج ألوانها، وتدعونا دائماً إلى التأمل والتفكر والتدبر، وهذا الحديث الشريف مشهد مقنع ومؤثر له ظلاله الندية، وإشعاعاتُه الوضيئة، وله إيقاعه الخاص والمؤثر في النفس والقلب والعقل والروح، لماذا؟ لأن كلماته مروية عن رسول الله ومنقولة عنه على لسان أبي سفيان وهو حين نقل هذه التعاليم النبوية لم يكن مسلماً، ولكنه كان مشركاً، وكان من أشد المعارضين للإسلام، حيث أراد في العام السادس من الهجرة المباركة أن يوضح لهرقل قيصر الروم المبادئ التي يدعو إليها محمد النبي عليه الصلاة والسلام، وذلك حين كتب الرسول ﷺ، إلى هرقل يدعوه للإسلام، فأرسل هرقل إلى أبي سفيان، يسأله عن التعاليم التي يدعو إليها محمد، ولذلك يجيء الحديث في صياغة "الحكاية" وهو جزء من حديث طويل في قصة "هرقل"، يقول أبو سفيان وهو يحكي مشهداً من مشاهد السيرة العطرة: "قال: هرقل: فماذا يأمركم؟" ولم يقل: فماذا يقول لكم؟ وذلك لأن هرقل يعرف أن كلام الأنبياء أمر واجب التنفيذ، ولذلك نراه يرغب في دخول الإسلام لولا معارضة قومه لذلك كما جاء في هذا الحديث الطويل، ويحكي أبو سفيان في صيغة الفعل الماضي قائلاً: "قلت: يقول" وذلك للدلالة على أن هذا الحوار كان في وقت مضى، ورواه أبو سفيان بعد إسلامه للتدليل على صدق النبي محمد فيما يقول، وكذلك للتدليل على أن أباسفيان لم يكن على حق وهو يعارض النبي ﷺ ويحاربه

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٤٤/١ وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٤٢.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٤٣، والوسيط في (ع ف ف).

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٤٣.

حتى أسلم يوم فتح مكة. وفي التعبير بقوله: "قلت: يقول" إيحاء أيضاً بعدم اقتناع أبي سفيان وقتها بكلام النبي ﷺ ولكنه أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه. وقدَّم أبو سفيان الأمر بعبادة الله وحده، وعدم الإشراك به؛ لأن هذا الأمر هو أساس عقيدة الإسلام، وهذا ما يرفضه وقتها أبو سفيان، وكان يظن أن هرقل سيوافقه على هذا الرفض، ولذلك عطف على هذه الجملة جملة أخرى تفيد رفضه للتوحيد وسخريته منه حين قال: "واتركوا ما يقول آباؤكم" والتعبير بقوله: "ما يقول" فيه إشارة وإيحاء بأن النبي ﷺ يرغب المشركين في الإسلام، وأن عبادتهم مجرد أقوال مزعومة من الآباء، ولا يجوز أن يظل الأبناء أسرى هذه المزاعم وتلك الأقاويل، ثم قال أبو سفيان: "ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة" والصلاة من أسس الإسلام، ولذلك جاء بعد قوله: "أعبدوا الله" والصدق والعفاف والصلة من أقوى المظاهر الخلقية التي تقوي الصلات بين أفراد المجتمع، وتصلح ما اعوج من السلوك الإنساني".

فقه الحديث

جاء في الحديث الأمر بالصلاة والصدق والعفاف والصلة:

- أ- الصلاة: وقد اتفق الفقهاء[1] على أن الصلاة فرض عين على كل مسلم ومسلمة متى كان بالغًا عاقلاً ولا تسقط إلا بالموت فقط.
- ب- الصدق في الحديث: ذكر الفقهاء[2] أن الصدق واجب وأن الأصل في

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني ٨٩/١، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢٥٦/١، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي ٣٧٨/١، وشرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ محمد بن أحمد بن محمد عليش ١٧٧/١، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، الشربيني ٣١٢/١، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين الرملي ٣٨٧/١ وما بعدها، وشرح منتهى الإرادات ١٢٥/١، وكشاف القناع، البهوتي ٢٢١/١.

(٢) المبسوط، السرخسي ١٤٥/١٦، تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي ٢٤١/٤، المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي الباجي ٣١٣/٧، وحاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، العدوي ٤١٢/٢، وأنوار البروق، القرافي ٨/٤، وأدب الدنيا والدين، الماوردي ص ٢٦١، والزواجر عن اقتراف الكبائر، أبو العباس أحمد بن محمد الهيتمي ٣٢٢/٢، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ٢١٤/٧، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ١١/١، ١٩، وغذاء الألباب شرح منظومة الآداب، الإسفراييني ١٣٤/١، وإعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم ٩٣/١، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٠٥/٣٤.

الكذب أنه حرام، ومع ذلك قد يكون الكذب مباحًا أو واجبًا، فالكلام وسيلة إلى المقصود، وكل مقصود محمود يمكن تحصيله بغير الكذب يحرم الكذب فيه، فإن لم يمكن تحصيله بغير الكذب جاز الكذب فيه.

- ج- العفاف: (عن الأطماع وسؤال الناس): يحرص الإسلام على حفظ كرامة الإنسان وصونه عن الابتذال، فيحرم السؤال على من يملك ما يغنيه عن السؤال من مالٍ أو قدرة على التكسب، أما من كان محتاجًا إلى الصدقة وممن يستحقونها لفقر أو زمانة أو عجز عن الكسب، فيجوز له السؤال بقدر الحاجة بشروط[١].
- د- صلة الأرحام: وقد ذكر الفقهاء[٢] أنه يستحب استحبابًا متأكدًا صلة الأرحام سواء كانت قريبة أم بعيدة، ونقل البعض [٣] الإجماع على وجوبها.

المضامين الدعوية

أولاً: من أصناف المدعوين: غير المسلمين.
ثانياً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.
ثالثاً: من موضوعات الدعوة: توحيد الله تعالى وعدم الإشراك به.
رابعاً: من موضوعات الدعوة: بيان أهمية الصلاة والالتزام بالأخلاق الحميدة.
خامساً: من فقه الداعية: ترتيب الأولويات.

أولاً- من أصناف المدعوين: غير المسلمين:

(إن دعوة غير المسلمين إلى الإسلام وترغيبهم في الدخول فيه من أوجب الواجبات ومن أسباب خيرية هذه الأمة، ومن أسباب الفلاح في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[٤] وقال

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٦٤/٣٠.

(٢) انظر: المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٤٤/٦، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨٦/٧، ١١٨/١٧.

(٣) انظر: كتب ورسائل ابن تيمية في الفقه، شيخ الإسلام ابن تيمية١٨٦/٢٩، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد النفراوي المالكي ٢٩٣/٢.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[1])[2].

(فدعوة غير المسلمين إلى الإسلام، واجب إسلامي يجدر بالعاملين في الحقل الإسلامي أن ينهضوا به ويولوه حقه من جهدهم وتفكيرهم ووقتهم. بل إن هذا الواجب بالذات هو المهمة الأصيلة الأساسية لكل داعية)[3]، وقد تميزت الدعوة الإسلامية بأنها دعوة عالمية؛ ومما يؤكد ذلك (أن في القرآن الكريم من دعوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن دعوة المشركين وعباد الأوثان، وجميع الإنس والجن؛ ما لا يحصى إلا بكلفة، وهذا كله معلوم بالاضطرار من دين الإسلام)[4] وقد دعا النبي ﷺ ملوك الأرض في زمانه، كملك فارس كسرى، وملك الروم هرقل، كما هو منصوص عليه في الحديث.

(فحري بالدعاة إلى الإسلام أن يبذلوا جهودهم في ذلك، وألا يكونوا على هامش الدعوة. فكثير من دعاة الإسلام في هذا العصر غير متفهمين تماماً لطبيعة الأهداف التي يعملون لها، ولا بعد الطريق التي يسيرون فيها، ولحقيقة المتطلبات التي يحتاجها العمل الإسلامي من حياتهم ووقتهم وتفكيرهم، ومن أنفسهم وأموالهم. وهذا ما يجعلهم في كثير من الأحيان أمثلة غير حسنة لما يدعون الناس إليه، ونماذج غير صالحة لما يأمرون الناس به. وبالتالي يجعلهم في حياة الحركة الإسلامية عبئاً ثقيلاً، وأوزاراً تعيق سيرها وتحول دون انطلاقها.

إن فريقاً من هؤلاء يظنون أن تكاليف العمل الإسلامي تسقط عن كواهلهم إذا هم أصدروا كتاباً، أو كتبوا مقالاً، أو ألقوا محاضرة. وآخرين يعتقدون أن مجرد انتسابهم إلى حركة إسلامية وحضورهم اجتماعاتها، ودورانهم في فلكها هو غاية الغايات ومنتهى الأمنيات.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٢) دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، د. عبدالله بن إبراهيم اللحيدان، ص ٥.

(٣) انظر: كيف ندعو إلى الإسلام، فتحي يكن ص ١٤.

(٤) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية، ١/٣٣٦-٣٣٧.

إن هؤلاء وأولئك -لا شك- يعيشون على هامش العمل الإسلامي، ولم يدخلوا في الواقع ميدانه الأصيل أو يعيشوا أجواءه الحقيقية.

إن المفهوم الصحيح لتكاليف العمل الإسلامي ينبغي أن يرسخ في أذهان العاملين أنهم مدعوون لتقديم مصلحة الإسلام على كل مصلحة، ومن مصلحة الإسلام نشره وتبليغه لغير المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وبيان حاجة الناس إليه)[١].

(وإذا قلنا: إن الناس بحاجة إلى الدين، وإلى الدعوة الدينية، فإنما نعني الإسلام، لا أي تدين مبهم... فالعالم محتاج إلى أن يعرف الله كما عرَّف نفسه إلى عباده في القرآن الكريم. فإن صور الوجود الإلهي بلغت في أسلوب القرآن قمة لم يبلغها كتاب آخر. والنفس الإنسانية لا تدرك أطرافاً في الكمال الأعلى يغرس في أعماقها أروع العقائد، وأرسخ الإيمان إلا إذا اتصلت بهذا القرآن، واستمعت إليه وفتحت أنظارها لهديه.

﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾[٢].

والعالم بحاجة إلى أن يعرف "محمداً" ﷺ وأن يدرس سيرته دراسة بعيدة عن الافتراء والتزيد، ليأخذ من الإحاطة بهذه السيرة أمجد درس فيما تستطيع المواهب البشرية بلوغه من خير وفضل وجلالة وسناء.

وسيعرف كل دارس لحقيقة هذا الإنسان الكبير أن المثل التي ذكرها أصحاب النظريات الخلقية العليا قد تجسدت في هذا الرجل واستحالت سنناً وضيئاً هادياً يثير الحب والإعزاز والاقتداء.

العالم محتاج إلى أن يدرك جملة الحقائق التي جاء بها الإسلام من عقائد وعبادات وأخلاق ومعاملات. فإن هذه الحقائق هداية نافعة له، والعمل بها -مجتمعة- يحصل

---

(١) انظر: كيف ندعو إلى الإسلام، فتحي يكن ١١-١٢.

(٢) سورة الرعد، آية: ٣٠.

خيراً جزيلاً وينفي شراً كثيراً)[١].

ثانياً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

قد ورد هذا الأسلوب الدعوي في الحديث من استفهام هرقل وسؤاله عن دعوة النبي ﷺ وما أمر به، وذلك في قول الراوي: "قال هرقل: فماذا يأمركم -يعني النبي ﷺ، أما الجواب فقد ورد في الحديث من قول أبي سفيان بن حرب: "يقول: اعبدوا الله وحده لا تشركوا به شيئاً..."، ومما لاشك فيه أن السؤال والاستفهام عما أشكل والجواب عنه طريق لمعرفة الحق، فضلاً عن استحضار الأذهان لتلقف المعرفة مما يزيد في بيانها وإيضاحها وفي ذلك عظيم الفائدة.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: توحيد الله تعالى وعدم الإشراك به:

إن الإيمان بالله تعالى وتوحيده وعدم الإشراك به هو غاية بعثة الرسل عليهم السلام، لذا كان كل نبي يستفتح دعوته بقول: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾[٢]، وهذا ما أكده نص الحديث من قول أبي سفيان: يقول -أي النبي ﷺ- "اعبدوا الله وحده لا تشركوا به شيئاً".

ومما لا شك فيه (أن توحيد الله تعالى والإيمان به هو أهم أصول الإيمان، وأعظمها شأناً، وأعلاها قدراً، بل هو أصل أصول الإيمان، وأساس بنائه، وقوام أمره، وبقية الأصول متفرعة منه، راجعة إليه، مبنية عليه. والإيمان بالله عز وجل هو الإيمان بوحدانيته سبحانه في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته، فهذه أصول ثلاثة يقوم عليها الإيمان بالله، بل إن الدين الإسلامي الحنيف إنما سمي توحيداً لأن مبناه على أن الله واحد في ملكه وأفعاله لا شريك له، وواحد في ذاته وأسمائه وصفاته لا نظير له، وواحد في ألوهيته وعبادته لا ندَّ له.

وبهذا يعلم أن توحيد الأنبياء والمرسلين ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

---

(١) مع الله: دراسات في الدعوة والدعاة، محمد الغزالي، ٢٥-٢٧.

(٢) سورة الأعراف: الآيات: (٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥).

القسم الأول: توحيد الربوبية، وهو الإقرار بأن الله تعالى ربُّ كل شيء ومليكه وخالقه ورازقه، وأنه المحيي المميت النافع الضار، المتفرد بالإجابة عند الاضطرار، الذي له الأمر كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، لا شريك له في ذلك.

القسم الثاني: توحيد الألوهية، وهو إفراد الله وحده بالذل له والخضوع والمحبة والخشوع والركوع والسجود والذبح والنذر، وسائر أنواع العبادة لا شريك له.

القسم الثالث: توحيد الأسماء والصفات، وهو إفراد الله تعالى بما سمى ووصف نفسه في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ وتنزيهه عن النقائص والعيوب ومماثلة الخلق فيما هو من خصائصه، والإقرار بأن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، له المشيئة النافذة والحكمة البالغة، وأنه سميع بصير، رؤوف رحيم، على العرش استوى، وعلى الملك احتوى، وأنه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سبحانه الله عما يشركون، إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى، والصفات العلا.

ولكل قسم من هذه الأقسام الثلاثة دلائل كثيرة من الكتاب والسنة.

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم.

وهذه الأقسام الثلاثة للتوحيد قد أخذها أهل العلم بالاستقراء والتتبع لنصوص الكتاب والسنة، وهو استقراء تام لنصوص الشرع، أفاد هذه الحقيقة الشرعية، وهي أن التوحيد المطلوب من العباد هو الإيمان بوحدانية الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، فمن لم يأت بهذا جميعه فليس بمؤمن)[(١)].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: بيان أهمية الصلاة والالتزام بالأخلاق الحميدة:

هذا ما أكد عليه نص الحديث من قول أبي سفيان إخبارًا عن النبي ﷺ "ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة".

(فالصلاة عماد الدين، والفارق بين الكفار والمسلمين وشرط النجاة وحارسة

---

(١) كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء ، إعداد نخبة من العلماء، ٩-١٠.

الإيمان، وقد ذكرها الله تعالى من الأشراط الأساسية للهداية والتقوى، فقال: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1] وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾[2] وقد استثنى المحافظين على الصلوات من أصحاب الأخلاق الذميمة، وقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾[3] وقال، وهو يذكر المؤمنين المفلحين: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[4]، وقال وهو يحكي أهل النار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ قَالُوا۟ ۝ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾[5] وقال عن المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[6].

وهي فريضة دائمة مطلقة على عبد وحر، وغني وفقير، وصحيح ومريض، ومقيم ومسافر، لا تسقط عمّن بلغ الحلم في حال من الأحوال، بخلاف الصيام، والزكاة، والحج، الأركان الثلاثة التي وجبت بشروط وصفات، وفي أوقات معينة محدودة، حتى أُمر بها [أي الصلاة] في ساحة الحرب وميدان القتال، وشرعت صلاة الخوف، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ۝ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ

(١) سورة البقرة، الآيات: ١-٣.

(٢) سورة الأعلى، الآيتان: ١٤-١٥.

(٣) سورة المعارج، الآيتان: ٢٢-٢٣.

(٤) سورة المؤمنون، آية: ٩.

(٥) سورة المدثر، آية: ٤٢.

(٦) سورة النساء، آية: ١٤٢.

لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾[1] وقال: ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾[2].

ولا تسقط هذه الفريضة عن نبي مرسل، فضلاً عن صالح أو عارف، أو مجاهد، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾[3] ومن رأى أنها تسقط عنه لفضل معرفته ووصوله إلى درجة اليقين و[المشاهدة] أو لحسن بلائه في الإسلام، أو لسوابقه ومآثره الكثيرة، فقدأتلف نفسه وعرَّضها للخطر الأكبر)[4].

وفي ذلك بيان لعظم أمر الصلاة كآكد أركان الإسلام بعد التوحيد بالله تعالى.

أما الصدق (فهو منزلة القوم الأعظم الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين والطريق الأقوم الذي لمن لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين. وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران، وهو سيف الله في أرضه الذي ما وُضع على شيء إلا قطعه، ولا واجه باطلاً إلا أراده وصرعه؛ من صال به لم ترد صولته، ومن نطق به علت على الخصوم كلمته؛ فهو روح الأعمال، ومحك الأحوال، والحامل

(١) سورة النساء، الآيات: ١٠١-١٠٣.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٢٣٨-٢٣٩.

(٣) سورة الحجر، آية: ٩٩.

(٤) الأركان الأربعة، أبو الحسن الندوي، ٢٦-٢٧.

على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال؛ وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين، ودرجته تالية لدرجة "النبوة" التي هي أرفع درجات العالمين؛ ومن مساكنهم في الجنات تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصديقين؛ كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدار مددٌ متصل ومعين.

وقدأمر الله سبحانه أهل الإيمان أن يكونوا مع الصادقين، وخص المنعم عليهم بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين. فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[2] فهم الرفيق الأعلى ﴿وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ ولا يزال الله يمدهم بأنعمه وألطافه ومزيده وإحساناً منه وتوفيقاً؛ ولهم مرتبة المعية مع الله، فإن الله مع الصادقين، ولهم منزلة القرب منه؛ إذ درجتهم منه ثاني درجة النبيين.

وأخبر تعالى أن من صدَّقه فهو خير له، فقال: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾[3].

وأخبر تعالى عن أهل البر، وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم من الإيمان، والإسلام، والصدقة والصبر، بأنهم أهل الصدق فقال: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُواْ

(١) سورة التوبة، آية: ١١٩.

(٢) سورة النساء، آية: ٦٩.

(٣) سورة محمد، آية: ٢١.

وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[١]، وهذا صريح في أن "الصدق" بالأعمال الظاهرة والباطنة، وأن "الصدق" هو مقام الإسلام والإيمان.

وقسم الله سبحانه الناس إلى صادق ومنافق. فقال: ﴿ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾[٢].

والإيمان أساسه الصدق، والنفاق أساسه الكذب؛ فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما محارب للآخر.

وأخبر سبحانه أنه في يوم القيامة لا ينفع العبد وينجيه من عذابه إلا صدقه، قال تعالى: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[٤] فالذي جاء بالصدق هو من شأنه الصدق في قوله وعمله وحاله؛ فالصدق في هذه الثلاثة:

فالصدق في الأقوال: استواء اللسان على الأقوال، كاستواء السنبلة على ساقها.

والصدق في الأعمال: استواء الأفعال على الأمر والمتابعة، كاستواء الرأس على الجسد.

والصدق في الأحوال: استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص، واستفراغ الوسع، وبذل الطاقة. فبذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق)[٥].

هذا عن الصدق، أما عن العفاف (فهو الكف عما لا يحل ولا يجمل، يقال: عف الرجل: إذا امتنع عن المحارم والأطماع الدنيئة)[٦]، (والعفة من ثمرات الأديان ونتاج

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٧٧.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٢٤.

(٣) سورة المائدة، آية: ١١٩.

(٤) سورة الزمر، آية: ٣٣.

(٥) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٣/٥-٨.

(٦) انظر: الكليات معجم المصطلحات والفروق الفردية، أبو البقاء الكفوي ٦٥٦، ولسان العرب، ابن منظور في (ع ف ف).

الإيمان، وهي دليل كمال النفس وعزها، وهي من أركان المروءة التي ينال بها الحمد والشرف، فبالتخلق بها تحفظ الأعراض وتصان العورات في الدنيا، وتحصل لذة النعيم في الآخرة)[١].

قال الماوردي: (والعفة نوعان: أحدهما العفة عن المحارم، والثاني العفة عن المآثم، فأما العفة عن المحارم، فنوعان: أحدهما ضبط الفرج عن الحرام، والثاني كفُّ اللسان عن الأعراض، فأما ضبط الفرج عن الحرام فلأن عدمه مع وعيد الشرع وزاجر العقل معرَّةٌ فاضحة، وهتكةٌ واضحة...، وأما كف اللسان عن الأعراض؛ فلأن عدمه ملاذُ السفهاء وانتقام أهل الغوغاء، وهو مستسهل الكف، وإذا لم يقهر نفسه عنه برادع كافٍّ، وزاجر صادٍّ، تلبط بمعاره، وتخبط بمضارة...، وأما العفة عن المآثم فنوعان أيضاً أحدهما: الكف عن المجاهرة بالظلم، والثاني: زجر النفس عن الإسرار بخيانة. فأما المجاهرة بالظلم فعُتُوٌّ مهلك وطغيان مُتْلِفٌ، ويؤول إن استمر إلى فتنة تحيط في الغالب بصاحبها فلا تتكشف إلا وهو بها مصروعٌ.

وأما الإسرار بالخيانة فَضَعَة لأنه بذلّ الخيانة مَهين، ولقلة الثقة به مستكين. وقيل في منثور الحكم: من يخُنْ يَهُنْ...، هذا ولا يجعل ما يتظاهر به من الأمانة زوراً، ولا ما يبديه من العفة غروراً، فينتهك الزور، وينكشف الغرور، فيكون مع هتكه للتدليس أقبحُ ولمعرَّة الرياء أفضح)[٢].

فالدعوة إلى العفة أمر عظيم، وبها يكون الكمال في الدين، قال محمد بن الحنفية (الكمال في ثلاثة: العفة في الدين، والصبر على النوائب، وحسن التدبير في المعيشة)[٣].

ومن الأخلاق الحميدة التي أمر بها النبي ﷺ صلة الأرحام، وفي ذلك قول الحق

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٢٨٨٨/٧.

(٢) أدب الدنيا والدين، الماوردي ٣٠٩-٣١٣. ومعنى تلبط: التصق، وَضَعَه: حقارة.

(٣) المرجع السابق ٣١٧.

تبارك وتعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾[١] وقد بيّن النبي ﷺ فضل ذلك فقال ((مَن سَرَّهُ أن يُبسَطَ لهُ في رِزقِهِ أو يُنْسَأَ لهُ في أثَرِهِ فلْيَصِلِ رحِمَه))[٢] وعظّم النبي ﷺ مخالفة ذلك فقال: ((لا يدخل الجنة قاطع))[٣] أي قاطع رحم (والصلة هي صلة الأرحام، وهي كناية إلى الإحسان إلى الأقربين من ذوي النسب والأصهار والتعفف عليهم والرفق بهم والرعاية لأحوالهم وكذلك إن بعدوا وأساءوا، وقطع الرحم قطع ذلك كله ... فكأنه بالإحسان إليهم قد وصل ما بينه وبينهم من علاقة القرابة والصهر)[٤].

وفي الدعوة إلى هذه الأخلاق الحميدة بيان لقول النبي ﷺ ((إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ))[٥].

خامساً- من فقه الداعية ترتيب الأولويات:

هذا يظهر في الحديث في دعوة النبي ﷺ إلى التوحيد أولاً بقوله "اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً" ثم دعوته ﷺ إلى الصلاة، والصدق والعفاف والصلة، فلا شك أن التوحيد هو أصل أصول الإيمان، لذا قدّم في الدعوة إليه، وكان هو المطلوب الأول من المدعوين ثم بعد ذلك يأمرون بمقتضيات هذا التوحيد من عبادات كالصلاة والزكاة ونحوهما، ومن أخلاق كالصدق والعفاف وصلة الأرحام، ومما هو جدير بالذكر أن صياغة الحديث تشير إلى هذا الترتيب، قال ابن حجر: (وفي قوله" يأمرنا" بعد قوله "يقول اعبدوا الله ..."، إشارة إلى أن المغايرة بين الأمرين لما يترتب على مخالفهما، إذ مخالف الأول كافر، والثاني ممن قبل الأول، عاصٍ)[٦] ومما يؤكد

---

(١) سورة النساء: آية ١.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٨٥).

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦).

(٤) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، العيني ٨١/٢٢.

(٥) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٧٣) وصححه الألباني في الصحيحة رقم (٤٥) ص (١١٢).

(٦) فتح الباري، ابن حجر ٢٦٩/٢.

صحة استنباطنا قول النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه عندما أرسله إلى اليمن ((إنكَ تَقْدَمُ على قومٍ أهلِ كتابٍ، فلْيكُنْ أولَ ما تدَعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى، فإذا عَرفوا اللهَ فأخبرهم: أنَّ اللهَ فرضَ عليهم خمس صلواتٍ في يومِهم وليلتَهم))[1]. وقد أشار النووي إلى ذلك بقوله: (إن النبي ﷺ رتب ذلك في الدعاء إلى الإسلام وبدأ بالأهم فالأهم)[2]، فدل ذلك على أهمية ترتيب الأولويات في الدعوة والتعليم.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٣)، ومسلم (١٩).

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩٧.

الحديث رقم (٥٧)

٥٧- الرَّابِعُ: عَنْ أبي ثَابِتٍ، وقِيلَ: أبي سعيدٍ، وقِيلَ: أبي الْوليدِ، سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ، وَهُوَ بدرِيٌّ، ﷺ، أَن النبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ سَأَلَ اللّهَ تعالَى الشَّهَادَة بِصِدْقٍ، بَلَّغهُ اللّهُ مَنَازِلَ الشُّهدَاء، وإِنْ مَاتَ عَلَى فِراشِهِ**» رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

سهل بن حُنيف: هو سهل بن حُنيف الأنصاري الأوسي العوفي، يُكْنى بأبي ثابت، ويقال أبو سعيد، ويقال أبو سعد، ويقال أبو عبدالله، ويقال أبو الوليد.

كان ﷺ من السابقين الأولين، له صحبة ورواية، له في كتب الحديث (٤٠) حديثاً، شهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها، فهو صحابي أنصاري بدريّ، ثبت مع رسول الله ﷺ يوم أحد، وكان بايعه يومئذ على الموت، فثبت معه حين انكشف الناس عنه، وجعل ينضح[٢] يومئذ بالنبل عن رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ نبِّلوا[٣] سهلاً فإنه سهل[٤]، كما أثنى رسول الله ﷺ على بسالته في القتال، فعن ابن عباس ﷺ قال: ((دخل عليٌّ بسيفه على فاطمة، وهي تغسل الدم عن وجه رسول الله ﷺ فقال خذيه فلقد أحسنت به القتال، فقال النبي ﷺ إن كنت قد أحسنت القتال اليوم فلقد أحسن سهل بن حُنيف وعاصم بن ثابت، والحارث بن الصِّمة، وأبو دُجانة))[٥].

---

(١) برقم (١٩٠٩/١٥٧). أورده المنذري في ترغيبه (١٩٢٨).

(٢) ينضح أي يرمي، انظر: القاموس المحيط، مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن ض ح).

(٣) نبِّلوا أي ناولوه النبل ليرمي، انظر: النهاي في (ن ب ل).

(٤) أخرجه الحاكم ٤٠٩/٣، ٥٧٨٨ عن عاصم بن عمر بن قتادة مرسلاً، وفي إسناده محمد بن عمر الواقدي، وهو متروك.

(٥) أخرجه الحاكم ٢٤/٣، ٤٣٦٥، ٤٣٦٦، و٤٠٩/٣-٤١٠، ٥٧٩١، ٥٧٩٢، وصححه الحاكم لكن نقل القول، أن المشهور من حديث ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة مرسلاً.

آخى رسول الله ﷺ بينه وبين عليّ بن أبي طالب، وكان عمر يقول عنه: سهل غير حَزَنٍ. وكان رضي الله عنه من فقراء الأنصار.

وكان حسن الجسم والجلد، أبيض اللون، فعن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أن أباه حدثه أن رسول الله ﷺ خرج وساروا معه نحو مكة حتى إذا كانوا بشعب الخَرَّار من الجحفة، اغتسل سهل بن حنيف، وكان رجلاً أبيض، حسن الجسم والجلد، فنظر إليه عامر بن ربيعة وهو يغتسل فقال: ما رأيت كاليوم ولا جلدَ مُخَبَّأةٍ[1]، فلُبِطَ[2] بسهل، فأُتي رسول الله ﷺ، فقيل له: يا رسول الله هل لك في سهل، والله ما يرفع رأسه وما يُفيقُ، قال: هل تتهمون فيه من أحد؟ قالوا: نظر إليه عامر بن ربيعة، فدعا رسول الله ﷺ عامراً فتغيَّظ عليه، وقال: علام يقتلُ أحدكم أخاه؟ هلا إذا رأيت ما يُعْجبُك برّكت[3]؟ ثم قال له: اغتسل له فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخلة إزاره[4] في قدح، ثم صُبَّ ذلك الماءُ عليه يصبه رجل على رأسه وظهره من خلفه، ثم يكفئ[5] القدح وراءه ففعل به ذلك فراح سهل مع الناس ليس به بأس))[6].

صحب عليّ بن أبي طالب حين بويع بالخلافة، واستخلفه عليّ على المدينة حين خرج إلى البصرة، ثم شهد مع عليّ صفين، كما ولاه عليّ أيضاً على فارس.

مات سهل بن حنيف بالكوفة سنة ٣٨، وصلى عليه عليٌّ وكبر عليه خمساً وقيل ستاً فكأن البعض أنكر ذلك فبين عليٌّ لهم فضله قائلاً هذا سهل بن حنيف، من أهل

---

(١) الجارية التي في خدرها لم تتزوج بعد، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (خ ب أ).

(٢) لُبِطَ أي صُرِعَ وسقط إلى الأرض، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ل ب ط).

(٣) أي: دعوت بالبركة حاشية السندي على مسند أحمد ٣٥٨/٢٥.

(٤) داخلة إزاره: قيل هو الفرج، وقيل: ما يلي البدن من الإزار، حاشية السندي ٣٥٨/٢٥.

(٥) يكفئ: أي: يقلب، المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٦) أخرجه أحمد ٤٨٦/٣ رقم ١٥٩٨٠ واللفظ له، وابن ماجه ٣٥٠٩، وقال محققو المسند: حديث صحيح ٣٥٥/٢٥-٣٣٦.

بدر، ولأهل بدر فضل على غيرهم فأردت أن أُعْلِمَكُم فضلهم[(١)].

الشرح الأدبي

ما أجمل الصدق في حياة الإنسان؛ وما أعظم دوره في الارتقاء بعاطفة الإنسان ومداركه إلى الدرجات العلى؛ فالصدق إيقاع القلوب المؤمنة، والصدق وسام في جبين الصالحين، والصدق نور في وجوه العارفين، والصدق من شيم الشهداء الأبرار الذين أقبلوا على ساحات الجهاد ملبين نداء القوي القهار، العزيز الغفار، وهم يدافعون عن ديار الإسلام ويحمون حرمات المسلمين؛ لذا كان دمهم يوم القيامة عنوان قبولهم، وفي الدنيا عرس حياتهم.

ويكمن سر اختيار صاحب رياض الصالحين لهذا الحديث في باب الصدق في هذا التوجه القلبي الصادق لكل من صدقت نيته وصحت عزيمته وقويت إرادته وهو ينهض لنصرة الإسلام والمسلمين، ويثب في قوة وشجاعة إلى إحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة.

وكلمات الحديث الشريف مصابيح من نور الهداية، وهى -في إيجازها- تتسع لكثير من الدلالات، وتعلن في صدق وترغيب أن صدق القلب سبب لبلوغ الأرب، وأن من نوى شيئاً من عمل البر أثيب عليه وإن لم يتفق له عمله[(٢)].

والحديث في بنائه اللغوي يتكون من جملة واحدة شرطية تتكون من أداة الشرط وفعل الشرط وجواب الشرط، فالجزاء من جنس العمل، والمقدمة الصحيحة تؤدي إلى النتيجة الصحيحة، والحديث قاعدة عامة تفتح الباب للملايين من أمة الإسلام في كل

---

(١) الطبقات، ابن سعد لابن سعد (٣/٤٧١-٤٧٣)، (٦/١٥)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (٣٠٧)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (٢/٥٧٢، ٥٧٣)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (٥٤٧، ٥٤٨)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي (٢/٣٢٥-٣٢٩)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (٣/٣٢٣، ٣٢٤)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٢/١٢٣)، والأعلام، خير الدين الزركلي (٣/١٤٢)، وعظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (٢/٩٦٧، ٩٦٨).

(٢) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١/١٧٨ .

زمان وفي كل مكان للمشاركة في حماية العقيدة الإسلامية، والحفاظ على حرمات الإسلام.

ولذلك جاء فعل الشرط: "سأل الله تعالى الشهادة"، فهي أمنية ورجاء ومطلب ضروري والتعبير بالفعل، "سأل" أقوى وأكثر إيحاءً وصدقاً، وهو دليل على إخلاص النية وسلامة القصد، وهو غير الفعل، طلب أو أراد، وكلمة "الشهادة" وردت معرفة بأل للتدليل على علميتها وعلى أنها مضمونة الثواب متحققة الجزاء والرجاء. وتقييد السؤال بكلمة "بصدق" للتفرقة بين الذي يطلب أو يرجو وهو غير صادق أو وهو خائف أو من أجل الغنيمة فقط، وجواب الشرط تفصح كلماته، عن المكنون من الجزاء الأوفى لذلك الذي خلصت نيته، وصحت عزيمته، والتعبير بقوله: "بَلَّغَه" أفصح وأقوى في الدلالة من أعطاه أو أثابه. وذلك لأن منازل الشهداء عالية ولا يصل إليها إلا الذين صدقوا ماعاهدوا الله عليه، ولذلك قال: "منازل": ولم يقل: "منزلة"، ويقول رسول الله ﷺ، "والذي نفس محمد بيده ما شحب وجه ولا اغبرت قدم في عمل تبتغي به درجات الجنة بعد الصلاة المفروضة، كالجهاد في سبيل الله، ولا ثقل ميزان عبد كدابة تنفق له في سبيل الله أو يحمل عليها في سبيل الله)[١] وذروة سنام هذا الأمر، أي الدين، الجهاد في سبيل الله.

فقه الحديث

قال النووي: (فيه استحباب سؤال الشهادة واستحباب سؤال الخير)[٢].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده مطولاً، ٢٤٦/٥ رقم ٢٢١٢٢، وقال محققو المسند: صحيح بطرقه وشواهده دون قوله: "ما شحب وجه...إلخ" فإنه حسن لغيره.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٤٨/١٣.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل صدق النية.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الترغيب.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: استحباب سؤال الشهادة في سبيل الله.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: عظيم فضل الله على عباده.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل صدق النية:

لقد أخبر النبي ﷺ عن جزاء من سأل الشهادة وكان في ذلك صادقًا، أن الله يبلغه منازل الشهداء ولو مات على فراشه، فقد "أفاد هذا الحديث ثمرة النية الصادقة، وأن من نوى شيئًا من أعمال البرّ أثابه الله عليه ولو قصرت النية عن العمل، والنية الصادقة هي التي لا يشوبها عَرض من أعراض الدنيا ولم يصبها التردد والضعف في العزيمة على الوفاء بها. ومثل هذا الحديث ما رواه مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((من طلب الشهادة صادقًا أعطيها ولو لم تصبه))[1][2] قال النووي: (ومعناهما جميعًا أنه إذا سأل الشهادة بصدق أعطى من ثواب الشهداء وإن كان على فراشه، وفيه استحباب سؤال الشهادة واستحباب نية الخير)[3] ولعل ما يفسر فضل صادق النية في الخير ومن أعلاه الشهادة، لعل ما يفسر ذلك أنه يكون ليل نهار مشغولاً بهذا الخير يقترب منه كل يوم خطوة بل خطوات، ويدفعه هذا إلى بذل ما في وسعه وطاقته إلى الوصول إليه فهو ينتقل من خير إلى خير.

ثانياً- من أساليب الدعوة: الترغيب:

(إن الترغيب من الأساليب الدعوية الهامة التي ينبغي للداعية أن يسلكها في إرشاد المدعوين وحملهم على التشمير عن ساعد الجد في طاعة الله تعالى لنيل السعادة في

---

(١) أخرجه مسلم ١٩٠٨، ١٥٦.

(٢) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبدالعزيز بن ناصر الجليل ٢٩٦/١.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٢١.

الدنيا والآخرة)[١]، وهذا ما ورد في الحديث من ترغيبه ﷺ في سؤال الله تعالى الشهادة بصدق لما في ذلك من نيل منزلتها ولو مات المرء على فراشه.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: استحباب سؤال الشهادة في سبيل الله:

قال النووي: عن هذا الحديث وغيره مما في معناه: (وفيه استحباب سؤال الشهادة)[٢] لأنه إما أن ينالها السائل في ساحات القتال والمعارك وإما أن ينالها في الآخرة فيكون مع الشهداء، وذلك بسبب صدقه في طلب الشهادة، والمسلم إذا سأل الله الشهادة في سبيله دلّ ذلك على صدقه في إيمانه وعلى تعلّقه بما يرضي الرب سبحانه وتعالى، وحبّه لما يحب ولو أدى ذلك إلى إتلاف نفسه وماله في سبيل نيل مرضاته، هذا إن قاتل وحارب وجاهد، وإلا فهو مستعدٌّ لذلك في كل وقت وكل حين، يترقب أن تحين الفرصة لأن يعلن حبّه لله والمسارعة في مرضاته، وربما كان من المستحسن أن ننقل هنا كلمات نيّرة لابن القيم عن الجهاد، تبين حال المجاهد مع ربه، وهذا يصدق أيضًا على مَنْ يسال الشهادة بصدق، يقول ابن القيم: (وأما الجهاد فناهيك به من عبادة هي سنام العبادات وذروتها، وهو المحك والدليل المفرق بين المحبّ والمدعي، فالمحب قد بذل مهجته وماله لربه وإلهه؛ متقربًا إليه ببذل أعز ما بحضرته يودّ لو أن له بكلّ شعرة نفسًا يبذلها في حبه ومرضاته، ويود أن لو قُتل فيه ثم أحيي ثم قتل ثم أحيي ثم قتل، فهو يفدي بنفسه حبيبه ﷺ وعبده ﷺ ورسوله ﷺ، ولسان حاله يقول:

يَفْديكَ بالنَّفْسِ صبٌّ لَوْ يكونُ لَهُ   أعزُّ مِنْ نَفْسِهِ شيءٌ فَدَاكَ بهِ

فهو قد سلّم نفسه وماله لمشتريها وعلم أنه لا سبيل إلى أخذ السلعة إلا ببذل ثمنها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ﴾[٣] وإذا كان من المعلوم المستقرّ عند الخلق أن علامة المحبة

---

(١) انظر: هداية المرشدين، علي محفوظ ١٩٢.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٢١.

(٣) سورة التوبة، آية: ١١١.

الصحيحة بذل الروح والمال في مرضات المحبوب، فالمحبوب الحق الذي لا تنبغي المحبة إلا له، وكل محبة سوى محبته فالمحبّة له باطلة، أولى بأن يشرع لعباده الجهاد الذي هو غاية ما يتقربون به إلى إلههم وربهم، وكانت قرابين مَنْ قبلهم من الأمم في ذبائحهم وقرابينهم تقديم أنفسهم للذبح في الله مولاهم الحق، فأي حسن يزيد على حسن هذه العبارة، ولهذا ادخرها الله لأكمل الأنبياء وأكمل الأمم عقلاً وتوحيدًا ومحبة لله)[1].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: عظيم فضل الله على عباده:

(إن الله عز وجل هو أكرم الأكرمين لا يوازيه كريم، ولا يعادله نظير، يبتدئ بالنعمة من غير استحقاق، ويتبرع بالإحسان من غير استثابة)[2]، وليس أدل على ذلك من أنه تعالى يبلغ من سأله الشهادة بصدق منزلة الشهداء وإن مات على فراشه، فكرمه تعالى بعباده وفضله عليهم لا يحده حد ولا يقيد قيد، فهو الوهاب المتفضل بالعطايا والمنعم على عباده بما لا يلزمه، وليس أدل على ذلك من قوله ﷺ: ((مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا الله عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً وَإِنْ هَمَّ بهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا الله عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ. وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا الله عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا الله سَيِّئَةً وَاحِدَةً))[3] وقوله ﷺ: ((مَنْ أَتَى فِرَاشَهُ وَهُوَ يَنْوِي أَنْ يَقُومَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ حَتَّى أَصْبَحَ كُتِبَ لَهُ مَا نَوَى وَكَانَ نَوْمُهُ صَدَقَةً عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ))[4] وفي ذلك دليل على عظيم فضل الله تعالى وعميم كرمه على عباده.

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن القيم ٢/٤.

(٢) الأسماء والصفات، البيهقي، ١/١٠٠، ١٠٣.

(٣) أخرجه البخاري ٦٤٩١، ومسلم ١٣١.

(٤) أخرجه النسائي ١٧٨٨، وابن ماجه ١٣٤٤، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١١٠٥).

الحديث رقم (٥٨)

٥٨- الخامِسُ: عَنْ أبي هُريْرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم: «**غزا نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِياءِ صلواتُ اللّه وسلامُهُ عليهِمْ فقَالَ لقوْمِهِ: لا يتْبعْني رَجُلٌ ملَك بُضْعَ امْرأَةٍ، وهُوَ يُريدُ أن يبْنِيَ بِهَا ولَمَّا يَبْنِ بِها، ولا أحدٌ بنى بيُوتاً لَمْ يرفَعِ سُقوفَهَا، ولا أحدٌ اشْتَرى غَنَماً أَوْ خَلَفَاتٍ وهُو يَنْتَظِرُ أوْلادَهَا. فغَزَا فَدنَا مِنَ الْقَرْيةِ صلاةَ الْعصْرِ أوْ قَريباً مِنْ ذلكَ، فَقَال للشَّمس: إنَّكِ مَأمُورةٌ وأنا مأمُورٌ، اللهمَّ احْبسْهَا علَينا، فَحُبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عليْهِ، فَجَمَعَ الْغَنَائِم، فَجاءَتْ يَعْنِي النَّارَ لتَأكُلَها فَلَمْ تطْعمْهَا، فقال: إنَّ فِيكُمْ غلُولاً، فليبايعنِي مِنْ كُلِّ قبِيلَةٍ رجُلٌ، فلزقتْ يدُ رَجُلٍ بِيدِهِ فقَالَ: فِيكُم الْغُلولُ، فليبايعنِي قبيلَتُكَ، فلزقَتْ يدُ رجُلَيْنِ أو ثلاثَةٍ بِيَدِهِ فقَالَ: فِيكُمُ الْغُلُولُ، فَجاءوا بِرَأْسٍ مِثْلِ رَأْسِ بَقَرَةٍ مِنَ الذَّهبِ، فوضَعها فَجَاءَت النَّارُ فأكلَتها، ((فلمْ تَحل الْغَنَائِمُ لأحدٍ قبلَنَا))[1]، ثُمَّ أَحَلَّ اللَّهُ لَنا الغَنَائِمَ لَمَّا[2] رأَى ضَعفَنَا وعجزَنَا فأحلَّها لنَا**» متفقٌ عليه[3].

«**الخَلِفاتُ**» بفتح الخاءِ المعجمة وكسرِ اللامِ: جمْعُ خَلِفَةٍ، وهِيَ النَّاقةُ الحاملُ[4].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

بُضْع امرأة: البضع يطلق على عقد النكاح والجماع والفرج والمعاني الثلاثة لائقة هنا[5].

---

(١) هذه الزيادة ليست عند البخاري، وإنما عند مسلم.

(٢) لفظ البخاري: (ثم).

(٣) أخرجه البخاري (٣١٢٤) واللفظ له، ومسلم (١٧٤٧/٣٢).

(٤) بنصه في الترغيب للمنذري (٣٧٠/٤).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٧١، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٢١، وفتح الباري، ابن حجر ٢٥٦/٦.

ولمّا يبن بها: أي ولم يدخل عليها. والأصل في ذلك: أن الرجل كان إذا تزوج امرأة بنى عليها قُبة ليدخل بها فيها[1]، وفي رواية عند ابن حبان ٤٨٠٧: "لم يدخل بها".

خَلِفات: بفتح الخاء المعجمة وكسر اللام: جمع خلفة وهي الناقة الحامل[2].

غُلولاً: الغلول: الخيانة في المغنم والسرقة في الغنيمة قبل القسمة.

الشرح الأدبي

تتنوع أساليب البيان النبوي في تقديم الموعظة، وكشف سبل الهداية، والإبانة عن المقصود، ومن هذه الوسائل "القصة"، وهي من سبل التشويق والإقناع، والقصة في هذا الحديث الشريف مستمدة من الواقع، وأحداثها يمكن أن تتكرر في كثير من المواقف، والإشعاع الذي تتوهج به هذه القصة هو الصدق وعدم الخيانة، وصدق النية في الجهاد وعدم انشغال بال الإنسان بهمومه الخاصة التي تحول بينه وبين الإقدام والثبات في مواجهة الأعداء، في ميادين القتال.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف، ولنحدق في التكوينات الأسلوبية التي تحول الحقائق التاريخية إلى قطعة أدبية ناطقة بالجمال اللغوي والأدبي، تحمل طاقات نورانية من الهداية والتأثير والحكمة والموعظة الحسنة.

- وبداية الحديث تفصح عن جو القصة، وعن ثوبها الفني، فالفعل "غزا" يوضح أن القضية تتعلق بالجهاد والدفاع عن العقيدة، وعدم تحديد اسم النبي يرشد إلى أن الأمر ليس خاصاً بنبي ما، ولكنه قاعدة عامة، وأمر مشترك بين جميع الأنبياء: وهو ضرورة إخلاص النية في الجهاد، وعدم التعلق بشواغل الدنيا، من الأهل، والأموال، والممتلكات الخاصة، وقيل أن النبي هو يوشع بن نون عليه السلام.
- والأحداث في هذه القصة متتابعة متلاحقة، والعطف بالفاء في كل جمل

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٩١.

(٢) رياض الصالحين ٧١.

الحديث الشريف يؤكد ذلك حيث ترد الفاء العاطفة في الربط بين الجمل التي تكون في مجموعها أحداث هذه القصة، وفي نهاية الحديث يرد حرف العطف "ثم" ولكن في جملة مغايرة لما سبق، وهي التي توضح ما من الله به على أمة محمد ﷺ حيث أحلت لهم الغنائم، ولم تحل للأمم السابقة فحرف العطف "ثم" في قوله: "ثم أحل الله لنا الغنائم" يرشد إلى هذه الخصوصية التي جاءت بعد مضى زمان طويل من توالي الأمم وتعدد الأنبياء، فتأمل أخا الإسلام وافقه أسرار هذا البيان النبوي الكريم، وهذه الأسرار تكمن في الحروف والكلمات والجمل، وفي بنيان الحديث المتكامل كأنه البنيان المرصوص، والنسيج المتلائم المتلاحم في مبناه ومعناه.

والحديث في القسم الأول منه: تتسم عباراته بجمال التنظيم والتنسيق، وروعة الأداء. فالجمل الثلاث ترد في إطار "النهي" عن الانشغال بالأمور الذاتية الدنيوية في ساح الجهاد.

والسجع والتوازي في بناء الجمل يشكل إيقاعاً أسلوبياً مؤثراً مشوقاً فعلى الرغم من أن المظاهر السلوكية منهي عنها، ولكنها صيغت في أسلوب مؤثر مشوق حتى تكون الاستجابة سريعة، ولنتأمل نهايات هذه الجمل: [ولما يبن بها، لم يرفع سقوفها، وهو ينتظر أولادها].

والأمور التي نهى عنها هذا النبي وهى كذلك منهي عنا في شريعتنا وفي دفاعنا عن ديننا: هي عدم الانشغال بالمرأة في الجهاد، وبخاصة في أول مراحل الارتباط وأول العهد بالزواج، وهذا جانب نفسي اجتماعي عميق لا يهمل البعد الاجتماعي، ولا البعد النفسي في مثل هذه الحالات.

وحتى ما يملكه الإنسان من متاع الحياة وفي ذروته: إعداد البيت الذي يسكنه، ولم يتمه، سيظل مشغولاً بهذا الهاجس: وهو في الجهاد، وربما يطمع في الغنائم وربما يؤديه ذلك إلى "الغلول" الذي سيق من أجله هذا الحديث، فالجهاد يحتاج إلى قلب فارغ من هموم الحياة، ممتلئ يعبير الإيمان، وسحائب الشجاعة والإقدام والرضوان.

وحتى ما يحرص عليه الإنسان من الأنعام وهي في حالة انتظار الولادة.. التي ترمز لاستمرار الرزق ومتاع الحياة، لا يترك المؤمن ذلك إلى الجهاد إذا كان سيظل متعلقاً بما تركه، والأمور الثلاثة تمثل أسس الحياة المادية وهى من مكونات القوة في دنيا الناس.

الزواج والاستقرار "ملك بضع امرأة"، وتشييد المسكن للسكن وإيواء الأبناء، وامتلاك الأموال التي تعن على مواصلة الحياة، ورمز إليهما الحديث بالغنم أو الخلفات.

وهذه الأسس لا يجب أن تحول بين الإنسان وبين الجهاد في سبيل الله وإنما في أوقات محددة تنتهي بزوال السبب، فالرجل عندما يبني بالمرأة ويستقر، والذي يرفع سقوف بيوته، وكذلك الذي يطمئن على أغنامه أو أمواله بصفة عامة. على هؤلاء أن يعودوا للجهاد، وأن يؤدوا واجبهم في الدفاع عن العقيدة وهم فارغو البال من شواغل الحياة الدنيا وعرضها الزائل ولا يقولون: شغلتنا أموالنا وأهلونا، ولا يقدمون أعذاراً واهية لتخلفهم عن الجهاد.

والتكرار من الظواهر الأسلوبية في هذا الحديث الشريف حتى يتنبه الغافلون، وحتى يزداد أولوا الألباب تبصرةً وتذكرةً وتفكراً وتدبراً ، والتكرار يتمثل في إعادة بعض الجمل أو الكلمات مثل قوله : [يريد أن يبني بها، ولما يبين بها]، وقوله: ولا أحد بنى، ولا أحد اشترى، [إنك مأمورة، وأنا مأمور].

والخطاب الذي يوجهه النبي للشمس: هو خطاب حقيقي: لأن الشمس مسخرة للإنسان بأمر الله سبحانه، وهى مثل كل الكائنات: تسبح بحمد ربها، ومظاهر الطبيعة في المنظور الإسلامي تستجيب لأمر الله والمساواة بين الشمس والإنسان في الأمر تجيء على سبيل المشاكلة: فجميع الكائنات مسخرة بأمر الله، غير أن أمر الجمادات أمر تسخير وتكوين، وأمر العقلاء تكليف، كما يقول العلماء.

وحبس الشمس من معجزات الأنبياء وكذلك استجابة الدعاء. وتأخير غروب الشمس بفضل الله سبحانه ترشد إلى أن الله ينصر من ينصره، ويقول: وكان حقاً علينا نصر المؤمنين.

- ومن المشاهد المعجزة في هذا الحديث: مشهد النار التي لم تطعم الغنائم.. وهى نار من السماء- كما تقول الروايات، وعدم التهام النار للغنائم علامة على عدم القبول، ويبرق الشعاع الأسنى في هذا الحديث وهو: "النهي عن الغلول"، أي الخيانة في المغنم، وأدرك هذا النبي أن بعض الذين شاركوا في الحرب قاموا بأخذ بعض الغنائم ، وهذا إعجاز أخرجنا الله به أنبياءه واكتشف النبي سر عدم القبول حتى رد هؤلاء الذين خانوا الأمانة ما أخذوه، وأكلته النار: وذلك رمز للقبول. وعلامة للصدق والنية الخالصة، والتوبة النصوح، وحل عقدة هذه القصة يبرق في الجملة الأخيرة التي توضح فضل الأمة الإسلامية وإكرام الله لها حيث أحل لها الغنائم، "ثم أحل الله لنا الغنائم": لما رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا": وهذا من خصوصيات أمة الإسلام.

فقه الحديث

يبين هذا الحديث أن الغنائم كانت محرمة على الأمم السابقة، ولا يحل لأحد أن يأخذ منها شيئاً، بل كانت تجمع فتجيء نار من السماء فتأكلها فيكون ذلك علامة على القبول وعدم الغلول[1]، ثم كان من رحمة الله بهذه الأمة وتفضيله لها أن أحل لها الغنائم، والغنيمة كما يقول الفقهاء هي اسم للمأخوذ من أهل الحرب على سبيل القهر والغلبة[2]، وقد اتفق الفقهاء[3] على مشروعية أخذ الغنائم وأنها تستحق لكل من حضر

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٢/١٢.

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني ١١٧/٧، والمغني، ابن قدامة ٣١٣/٦.

(٣) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني ١١٧/٧ وما بعدها، تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي ٢٤٨/٣، مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي ٣٦٦/٣ وما بعدها، شرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ محمد بن أحمد بن محمد عليش ١٨٠/٣ وما بعدها، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين الرملي ١٤٣/٦ وما بعدها، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، الشربيني ١٥٥/٤ وما بعدها، شرح منتهى الإرادات ٦٣٨/١ وما بعدها، المغني، ابن قدامة ٣١٣/٦ وما بعدها.

الوقعة وخرج لأجلها سواء باشر القتال أو عهد إليه برباط في مكان معين، فهو كمن يقاتل تماماً، لأن القتال لا يتم إلا بالرباط والتعاون، فكل من خرج للجهاد من المسلمين يستحق سهماً من الغنيمة التي يقوم الإمام بتقسيمها على الغانمين، ويجوز للإمام أن يرضخ للنساء والصبيان منها، وهي تقسم خمسة أخماس[1] أربعة أخماسها للغانمين وخمسها يصرف للفقراء والمساكين والمصالح العامة.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: مراعاة حال المدعوين وتهيئة نفوسهم للدعوة أولاً.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الدعاء وفضل الالتجاء إلى الله.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: دلائل قدرة الله تعالى.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: بيان خصوصية النبي ﷺ وفضل هذه الأمة.

خامساً: من وسائل الدعوة: القصة.

أولاً- من موضوعات الدعوة: مراعاة حال المدعوين وتهيئة نفوسهم للدعوة أولاً:

إن من عوامل التأثير في المدعوين تهيئة نفوسهم ومراعاة أحوالهم وهذا ما ورد في الحديث من قوله ﷺ "فقال لقومه لا يتبعنّ رجل ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها، ولا أحد بنى بيوتاً لم يرفع سقوفها ولا أحد اشترى غنماً أو خلفات وهو ينتظر أولادها.

وقد أمرالحق تبارك وتعالى بتهيئة نفوس المدعوين للدعوة فقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾[2] (فلا ضير من إعطاء

---

(١) شرح معاني الآثار ٢٧٦/٣، تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي ٢٤٨/٣، المدونة ٥٠٣/١، المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي ١٧٨/٣، الأم، الإمام الشافعي ١٤٦/٤، الأحكام السلطانية، أبو الحسن الماوردي ص ١٦١، شرح منتهى الإرادات ٦٣٨/١، المغني، ابن قدامة ٣١٣/٦.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٦.

المشركين الفرصة لكي تتهيأت نفوسهم لسماع القرآن ومعرفة هذا الدين، لعل قلوبهم تتفتح وتتلقى وتستجيب، فتزكو تلك القلوب، وتطيب تلك النفوس)[١]، وإن كان ذلك في حق غير المسلمين فهو في حق المسلمين أولى، وقد كان النبي ﷺ القدوة والمثل في تهيئة نفوس المدعوين ومراعاة أحوالهم في الدعوة إلى الله (فحينما جاءه عتبة بن ربيعة، لمفاوضته ﷺ استمع إليه حتى انتهى من كلامه ثم قال له: "أفرغت يا أبا الوليد" قال: نعم. قال: "فاسمع مني")[٢].

وفي رواية ذكرها القرطبي قال: ("يا ابن أخي أسمع" ولا يخفى على أحد ما في هذه الملاطفة والتكنية من تهيئة للنفس السامع)[٣]، (وها هو ذا مصعب بن عمير رضي الله عنه سفير الدعوة مبعوث النبي ﷺ بدأ بتهيئة نفوس مدعويه للسماع أولاً، فحينما جاءه كل من زعيمي بني عبد الأشهل، أسيد بن حضير، وسعد بن معاذ رضي الله عنهما قال لكل منهما أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكرهه، وبهذه الملاطفة والعرض المنصف، هيأ نفسيهما للسماع، فلما سمعا أسلما، وأسلم أقوامهما)[٤]، ومن تهيئة نفوس المدعوين الترحيب بهم والتلطف معهم والثناء عليهم، فعن أبي جمرة قال: ((كنتُ أقعُدُ معَ ابنِ عبّاسٍ، يُجلِسُني على سَرِيره، فقال: أَقِمْ عِندي حتَّى أَجْعَلَ لكَ سَهْماً مِنْ مالي، فأقمتُ معَهُ شَهرَينِ، ثمَّ قال: إنَّ وفدَ عبدِ القَيْسِ لما أَتَوُا النبيَّ ﷺ قال: «مَنِ القَوْمُ -أوْ مَنِ الْوَفْدُ؟- قالوا: رَبيعةُ. قال: مَرْحَباً بالقَوْمِ -أو بالوفدِ- غيْرَ خَزايا ولانَدامَى))[٥] قال ابن حجر: (وفيه دليل على جواز الثناء على الإنسان في وجهه إذا أمن عليه الفتنة)[٦]. فمراعاة أحوال المدعوين وتهيئة نفوسهم للدعوة

(١) التدرج في دعوة النبي ﷺ، إبراهيم بن عبدالله المطلق ص ١٥٢.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير، ١٥٩/٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٩٠/١٨.

(٤) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ٥٩/٢ - ٦٠.

(٥) أخرجه البخاري ٥٣.

(٦) فتح الباري، ابن حجر ١٦٠/١.

أولاً من أهم عوامل وركائز بلوغ الدعوة ووصولها إلى قلوب المدعوين.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الدعاء وفضل الالتجاء إلى الله:

مما لا شك فيه أن الدعاء من صفات عباد الله المتقين، وهو مفزع المظلومين وملجأ المستضعفين وهو دليل الإيمان وحسن الإسلام، وقد أشار الحديث إلى أهمية الدعاء وفضل الالتجاء إلى الله من قوله صلوات الله وسلامه عليه: "فقال للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم أحبسها علينا، فحبست حتى فتح الله عليه".

فالدعاء من أعظم العبادات وقد بين النبي ﷺ ذلك فقال الدعاء هو العبادة ثم قرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[1]، [2].

فالدعاء من أقوى أسباب دفع المكروه وحصول المطلوب لقوله ﷺ: ((لاَ يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلاَّ الْبِرُّ. وَلاَ يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلاَّ الدُّعَاءُ))[3] وقوله ﷺ: ((إِنَّ الدُّعاءَ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزِلْ فَعَلَيْكُمْ عِبَادَ الله بالدُّعَاءِ))[4] والدعاء من أحب الأمور إلى الله تعالى لقوله ﷺ: ((لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى الله تَعَالَى مِنَ الدُّعَاءِ))[5]، ويتطلب الدعاء الإخلاص والثقة بالله تعالى واليقين بالإجابة وذلك لقوله ﷺ ((أُدْعُوا الله وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بالإجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الله لا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاَهٍ))[6] (فينبغي للداعي أن يكون حاضر القلب متفهماً لما يقول، مستشعراً عظمة من يدعوه إذ لا يليق بالعبد الذليل أن يخاطب ربه ومولاه بكلام لا يعيه هذا الداعي وبجملٍ قد اعتاد تكرارها دون

---

(١) سورة غافر: الآية ٦٠.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٧١٤، صححه الألباني (صحيح الأدب المفرد ٥٥٠).

(٣) أخرجه ابن ماجه ٩٠، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٧٣).

(٤) أخرجه الترمذي ٣٥٤٨، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٨١٣).

(٥) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٧١٢، صححه الألباني (صحيح الأدب المفرد ٥٤٩).

(٦) أخرجه الترمذي رقم (٣٤٧٩) وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٥٧٤).

فهم لفحواها، أو أن تجري على لسانه -هكذا- على سبيل العادة)[١]، و(للدعاء آداب وشروط يجب توافرها كي يكون الدعاء كاملاً منها: الثناء على الله قبل الدعاء والصلاة على النبي ﷺ، والإقرار بالذنب والخشوع والرهبة بين يدي الرب، والإلحاح بالدعاء والعزم في المسألة، و استقبال القبلة ورفع الأيدي، وأن يقدم بين يدي دعائه عملاً صالحاً، وذلك فضلاً عن اجتناب الحرام وأكل الحلال...)[٢]. فعلى الداعية أن ينبه إلى عظيم فضل الدعاء وما به من خير وعبادة.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: دلائل قدرة الله تعالى:

(فالله عز وجل هو القادر الذي لا يعجزه شيء، بل يستتب له ما يريد على ما يريد، فلا يلابس قدرته عجز بوجه)[٣]، وهذا ما ظهر جلياً في الحديث من قوله ﷺ "فحبست الشمس"، فهي القدرة التي لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء فلا يحدها حد ولا يمنعها مانع، وبها يخاطب العقل ويرسخ الإيمان فقال جل شأنه ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[٤] وقال: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ﴾[٥] وقال جل شأنه ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[٦].

---

(١) الدعاء، محمد بن إبراهيم الحمد ص٣٢.

(٢) انظر: المرجع السابق، ٣٧-٥٢.

(٣) الأسماء والصفات، البيهقي، ٥٢/١، ٨١.

(٤) سورة فصلت، آية: ٥٣.

(٥) سورة العنكبوت، آية: ٢٠.

(٦) سورة الرعد، آية: ١.

رابعاً- من موضوعات الدعوة: بيان خصوصية النبي ﷺ وفضل هذه الأمة:

(قد اختص الله تبارك وتعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ دون غيره من الأنبياء عليهم السلام بخصائص كثيرة تشريفاً له وتكريماً مما يدل على جليل رتبته وشرف منزلته عند ربه)[١] وكان من ذلك قوله ﷺ في الحديث "فلم تحلَّ الغنائم لأحدٍ قبلنا ثم أحل الله لنا الغنائم"، وهذا ما أكده النبي ﷺ في قوله ﷺ ((فضلت على الأنبياء بست" ثم ذكر ﷺ من ذلك ((وأُحِلَّتْ ليَ المَغانِمُ))[٢]. (وفي هذا الحديث دليل على فضل هذه الأمة في اختصاصها بحل الغنيمة، وكان ابتداءُ ذلك من غزوة بدر وفيها نزل قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾[٣].

فأحل الله لهم الغنيمة[٤]، (وقد كانت الأمم قبلنا على ضربين فمنهم من لم يؤذن له في الجهاد فلم تكن لهم غنائم، ومنهم من أذن له فيه فكانوا يغزون ويجاهدون ويأخذون أموال أعدائهم وأسلابهم، لكن لا يتصرفون فيها بل يجمعونها، وعلامة قبول غزوهم ذلك أن تنزل النار من السماء فتأكلها، وعلامة عدم قبوله أن لا تنزل. ومن أسباب عدم القبول أن يقع فيهم الغلول، وقد منّ الله تعالى على هذه الأمة ورحمها وجبر عجزها وضعفها لشرف نبيها عنده، فأحل لهم الغنائم وستر عليهم الغلول، فطوى عنهم فضيحة أمر عدم القبول، فلله الحمد على نعمه تترى)[٥].

وقد بين الحق تبارك وتعالى عظيم فضل هذه الأمة في قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[٦] وقال ﷺ ((أنتم

---

(١) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٤٤٩/١.

(٢) أخرجه البخاري ٥٣٥.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٦٩.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٢٥٨/٦.

(٥) انظر: المرجع السابق.

(٦) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

تُتِمُّون سبعين أُمَّةً، أنتمُ خيرُها وأكرمُها عند الله))[١]، وقال أبو هريرة ﷺ: ((نحن خير الناس للناس، نسوقهم بالسلاسل إلى الإسلام))[٢]، وقد بين الحق تبارك وتعالى سبب خيرية هذه الأمة في قوله تعالى: ﴿تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ قال القرطبي: (وهذا مدح لهذه الأمة ما أقاموا ذلك واتصفوا به، فإذا تركوا التغيير وتواطؤوا على المنكر، زال عنهم اسم المدح، ولحقهم اسم الذم)[٣].

خامساً- من أساليب الدعوة: القصة:

إن القصة من الملامح التي تلازم الداعية وتملأه انفعالاً بدعوته[٤]، (وتمتاز بأنها تصور نواحي الحياة، فتعرض لك الأشخاص، وحركاتهم وأخلاقهم وأفكارهم، واتجاهات نفوسهم، وبيئتهم الطبعية والزمنية. تعرضهم عليك بعرض أعمالهم وتصرفاتهم ونقاشهم، فإذا رأيت هذه التصرفات والأعمال ومضيت مع الحوار والنقاش عرفت ما يستكن في النفوس من طباع، وما يهجس فيها من خواطر، وانشرح صدرك لأهل الخير منهم وضقت ذرعاً بذوي النفوس المظلمة والوسائل الملتوية، حتى لكأنك تراهم رأي العين، وتسمع منهم سمع الأذن، وتعاشرهم وتحيى بينهم، وتمتاز القصة كذلك بأن النفس تميل إليها، فغريزة حب الاستطلاع، تعلق عين السامع وأذنه وانتباهه بنسق القصص البارع استشرافاً لمعرفة ما خفي من بقية الأنباء والقصة بهاتين الميزتين من خير الوسائل التي يتوسل بها الداعية لإبلاغ تعاليمه إلى أعماق القلوب، فهي بالميزة الأولى تعرض هذه التعاليم في صورة عملية حية تحرك الوجدان وترفع نبض المشاعر... وهي بالميزة الثانية: ميزة التنبيه والتقبل، تجعل النفوس أوعية مفتوحة، يصب فيها الداعية ما يشاء فيبلغ القرار.

---

(١) أخرجه الترمذي ٣٠٠١، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٣٩٩).

(٢) أخرجه البخاري ٤٥٥٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٥/٢٦٤.

(٤) الدعوة الإسلامية: أصولها ووسائلها، د. أحمد غلوش، ٢٩٣.

وقد بيّن الحق عز شأنه هذه الوسيلة في القرآن الكريم فقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[(١)] وقال: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[(٢)])[(٣)] وقد وردت هذه الوسيلة الدعوية الهامة في الحديث من قوله ﷺ "غزا نبي من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه" قاصاً ﷺ ما كان بين هذا النبي عليه السلام وبين قومه، وما كان من حبس الشمس له، وما كان من غلول قومه للغنائم، ولاشك أن لهذه الأحداث والمواقف تأثير كبير في النفوس.

---

(١) سورة يوسف، آية: ١١١.

(٢) سورة هود، آية: ١٢٠.

(٣) تذكرة الدعاة، البهي الخولي ص ٤٤-٤٥.

الحديث رقم (٥٩)

٥٩- السادسُ: عن أبي خالدٍ حكيمِ بنِ حزَامٍ ﷺ، قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**الْبيِّعَان بالخِيارِ ما لم يَتفرَّقا، فإن صدقَا وبيَّنا بورِك لهُما في بَيعْهِما، وإن كتَما وكذَبَا مُحِقَتْ بركةُ بيْعِهما**» متفقٌ عليه[1].

ترجمة الراوي:

حكيم بن حزام: هو ابن خويلد بن أسد القرشي، يكنى أبا خالد، هو ابن أخي خديجة بنت خويلد زوج النبي ﷺ.

ولد في الجاهلية قبل عام الفيل بثلاث عشرةَ سنة، في جوف الكعبة وكان شديد الأُدْمَة، خفيف اللحم شهد حرب الفجار، وكان من أشراف قريش، وعُقلائها، ونُبلائها، وعليه كانت الرِّفادة، وكان عالماً بالأنساب وقد شهد بدراً مع الكفار، ونجا مع من نجا، فكان إذا اجتهد في يمينه قال: لا والذي نجاني يوم بدر من القتل، وكان رضي الله عنه في جاهليته محباً للنبي ﷺ، فعن عراك بن مالك أن حكيم بن حزام قال: ((كان محمد ﷺ أحبَّ الناسِ إليَّ في الجاهلية، شهد حكيم الموسم كافراً، فوجد حُلَّةً لذي يَزَنٍ تُباع، فاشتراها بخمسين ديناراً ليهديها إلى رسول الله، فقدم بها عليه المدينة، فأراده على قبضها هدية، فأبى. قال عبيدالله: حسبته قال: "إنا لا نقبل من المشركين شيئاً، ولكن إن شئت أخذناها بالثمن، فأعطيته حين أبي عليَّ الهدية))[2].

وقد أسلم رضي الله عنه يوم الفتح وحُسن إسلامهُ، وغزا حنيناً والطائف قال فيه النبي ﷺ يوم الفتح ((من دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن))[3].

قال عروة بن الزبير: إن حكيم بن حزام رضي الله عنه أعتق في الجاهلية مائة رقبة، وحمل

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٧٩)، ومسلم (١٥٣٢/٤٧) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٢٦٥٩).

(٢) أخرجه أحمد ٤٠٢/٣-٤٠٣ رقم ١٥٣٢٣، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٣٩/٢٤-٤٠.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ٦/٨ رقم ٧٢٦٣ عن عروة بن الزبير مرسلاً، كما أن في إسناده ابن لهيعة وقد احترقت كتبه فحدّث من حفظه فاختلط، انظر: تقريب التقريب ٤٤٤/١.

على مائة بعير، فلما أسلم حمل على مائة بعير وأعتق مائة رقبة، قال: فسألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، أرأيت أشياء كنت أضعها في الجاهلية؟ كنت أتحنَّث بها - يعني: أتبرر بها؟ فقال رسول الله ﷺ: أسلمت على ما سلف من خير(١).

وكان جواداً، كريماً، باع دار الندوة من معاوية بمائة ألف، فقال له ابن الزبير بعت مكرمة قريش، فقال: ذهبت المكارم يا ابن أخي إلا التقوى، إني اشتريت بها داراً في الجنّة أشهدكم أني جعلتها لله.

وقد روى عن النبي ﷺ أحاديث بلغت أربعين حديثاً.

وتوفي بالمدينة سنة ٥٤هـ وقيل ٥٠هـ وكان يقول في موته: لا إله إلا الله، قد كنت أخشاك وأنا اليوم أرجوك ربي وقد عاش مائة وعشرين سنة شطرها في الجاهلية وشطرها في الإسلام(٢).

غريب الألفاظ:

البَيِّعان: البائع والمشتري، يُقال لكلٍّ منهما: بائع وبَيِّع(٣).

محقت بركة بيعهما: أي ذهبت بركته وهي زيادته ونماؤه، والمحق: النقص والمحو والإبطال(٤).

الخيار: طلب خير الأمرين من إمضاء عقد وفسخه(٥).

---

(١) أخرجه البخاري ٢٥٣٨، ومسلم ١٢٣.

(٢) الطبقات، ابن سعد ١٠٩/٣، ٦٥/٤، و الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ١٥٦-١٥٧، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٥٨/٢-٦٠، وسير أعلام النبلاء، الذهبي ٤٤/٣-٥١، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٢٥٨/٢-٢٦٣، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٤٧٣/١-٤٧٤، والأعلام، خير الدين الزركلي ٢٦٩/٢.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ي ع).

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩٧٢، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٨٥٩.

(٥) الروض الندي في فقه الإمام أحمد للعلامة البعلي ص ٢١٢.

الشرح الأدبي

هذا الحديث يأتي في ختام باب الصدق. وهو مسك الختام، لأن الصدق ليس في الحديث فقط ولكن صدق الأفعال يأتي ثمرة لصدق الأقوال، وكلا الاثنين لابد أن ينبعا من صدق الجنان، ولذلك يعد الإيمان الصحيح في الذروة من قيمة الصدق؛ لأنه -كما قال العلماء- التصديق بالجنان والإقرار باللسان والعمل بالأركان؛ وكل سلوك في الحياة لابد أن تتضمنه هذه الدائرة الخلقية المحكمة وهى : صدق القلب، وصدق اللسان، وصدق العمل.

وفي وهج هذه الدائرة تتموج أشعة الصدق، ونقتبس من أشعة البيان النبوي الأضواء الهادية لإصلاح العلاقات الاجتماعية بين أفراد الأمة، وفي مقدمة هذا الإصلاح ضبط حركة البيع والشراء ضبطاً إيمانياً صحيحاً، لأنها حركة صاخبة مائجة تتحكم في إيقاع الحياة، وهذا التحكم إما أن يضبط ميزان السلوك الاجتماعي، وإما أن يؤدي به إلى الخلل والجور والفساد.

ولذلك يضع المصطفى ﷺ هذه القاعدة المجردة التي تنطبق على كل بائع وكل مشترٍ في جميع الأزمنة والأمكنة التي تضبط حركتها تعاليم الإسلام، وسنة المصطفى ﷺ.

ولذلك يبدأ الحديث بهذه القاعدة "البيعان بالخيار ما لم يتفرقا"، والمراد بهما البائع والمشتري، والمساواة بينهما في لفظ واحد ترشد إلى أن المسؤولية مشتركة ومتساوية وعليهما بالصدق في النية والقول والعمل، وعليهما بتجنب فساد النية، وكذب اللسان، ومخالفة الأعمال للأقوال، والتعبير بقوله، "بالخيار"، فيه بلاغة وإيجاز، ويرشد إلى أمور متعددة: فالخيار اسم من الاختيار والتخيير أي حرية الموقف قبولاً أو رفضاً للبيع، والتعبير بهذا اللفظ يوحي كذلك بقبول خير الأمرين من الفسخ والإجازة، فالخيرية تكون هي الحكم والمعيار، وليس الهوى الشخصي أو المصلحة الشخصية الضيقة، والتعبير بلفظ "يتفرقا" فيه تصوير حركي.

والجزء الثاني من الحديث ورد في جملتين شرطيتين، ليبين ارتباط جواب الشرط

بفعل الشرط، وأنه لازم عنه، وواقع بوقوعه، فيختار البائعان أي النتيجتين يريدان، فإن أراد البركة كان عليهما الصدق، وأن سلكا طريق الغش والخداع والتدليس رغبة في زيادة المال والإكثار منه، جاءت النتيجة بعكس ذلك تمامًا، وهي المحق والنقص والخسران.

فقه الحديث

هذا الحديث نص في خيار المجلس، وهو نوع من أنواع الخيار التي وردت في الفقه الإسلامي، وقد اختلف الفقهاء في مشروعية خيار المجلس نظراً لاختلافهم في فهم الحديث، والمقصود بالتفرق فيه وكذا اختلافهم في معنى المتبايعين هل هما المتساومان أم المتعاقدان بالفعل؟ وذلك على قولين:

القول الأول: يرى الحنفية[1] والمالكية[2] أن المقصود بالتفرق هنا التفرق بالأقوال لا بالأبدان، ولذا فهم لا يقولون بخيار المجلس ولا يرون مشروعيته، فمتى تم العقد بين البائع والمشتري لزم ولو ظلا مكانهما في مجلس العقد ولم يتفرقا وليس لواحد منهما خيار الرجوع فيه ما لم توجد إقالة من الطرف الآخر.

القول الثاني: للشافعية[3] والحنابلة[4] وأكثر أهل العلم حيث أخذوا بظاهر الحديث، وقالوا بمشروعية خيار المجلس، فيحق لكل من البائع والمشتري الرجوع في

---

(١) درر الحكام شرح غرر الأحكام، محمد بن فراموز الحنفي منلا خسرو ١٧٧/٢، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢٨٣/٥، وأحكام القرآن للجصاص ٢٥٤/٢.

(٢) مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي ٤١٠/٤، الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد النفراوي المالكي ٨٤/٢.

(٣) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي شرح المهذب للنووي ٢٠٥/٩، ط مطبعة المنيرية، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري ٤٦/٢، وحاشيتا قليوبي وعميرة ٢٣٥/٢، ط/ دار إحياء الكتب العربية.

(٤) المغني، ابن قدامة لابن قدامة ٥/٤، ٦، والفتاوى الكبرى ٣٩٠/٥، والفروع ٨١/٤، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي ٣٦٣/٣.

عقد البيع بعد تمامه ما دام أنهما لم يتفرقا من مجلس العقد بعد، فإن تفرقا وذهب كل إلى حاله لزم العقد وانتهى خيار المجلس.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: يسر الشريعة الإسلامية.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: بيان فضل الصدق وشناعة الكذب.

رابعاً: من واجبات الداعية: حرصه على إفادة المدعو.

أولاً- من موضوعات الدعوة: يسر الشريعة الإسلامية:

إن اليسر من أهم مظاهر وسمات هذا الدين، لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[1] ولقوله ﷺ: ((إِنَّ خَيْرَ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ، إِنَّ خَيْرَ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ))[2] وقد ورد بيان التيسير في الحديث من قوله ﷺ "البيعان بالخيار ما لم يتفرقا" (وهو خيار كل من المتعاقدين في الإقدام على العقد أو الإحجام عنه قبل التفرق وبذلك يتحقق تمحيص الإرادتين وتنقية عنصر التراضي من الشوائب أو استدراكاً لندم قد يقع من أحدهما)[3]، (فلا يفترقان إلا عن تراض بينهما فيما يتعلق بإعطاء الثمن وقبض المبيع وإلا فقد يحصل الضرر والضرار وهو منهي في الشرع، أو المراد منه أن يشاور مريد الفراق صاحبه ألك رغبة في المبيع، فإن أراد الإقالة أقاله)[4] (والإقالة من صور التيسير في الشريعة الإسلامية، ويقصد بها: أن يتم عقد البيع بين طرفين، ثم يندم بعد ذلك المشتري - أو البائع- على إتمام هذه الصفقة لسبب من الأسباب، كأن يستجد له أمر،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٢) أخرجه أحمد ٤٧٩/٣ رقم ١٥٩٣٦ وقال محققو المسند: إسناده حسن ٢٨٤/٢٥.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٣٤٨٩/٤، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية، ٧٩/٢٠، ١٤٦.

(٤) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي على سنن أبي داود، محمد أشرف الحق بن أمير العظيم آبادي، ١٤٨٣.

فيرى أنه بحاجة إلى أموال لقضاء حاجة ضرورية، أو لها أولوية، أو ما أشبه ذلك فيأتي إلى البائع، ويرغب إليه في أن يحلله من هذا العقد... فموافقة البائع على إلغاء هذا العقد، هو ما يسمى بالإقالة، وقد رغب الإسلام في ذلك تيسيراً وتسهيلاً على الناس)[1] فقال النبي ﷺ ((مَنْ أقَالَ مُسْلِماً أقَالَ الله عَثْرَتَهُ))[2] قال صاحب عون المعبود: (أي: غفر زلته وخطيئته)[3] فالإسلام دين السماحة واليسر فلا حرج فيه على أحد كما قال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[4] قال القرطبي: (أي وما جعل عليكم في الدين من ضيق...، وهذه الآية تدخل في كثير من الأحكام؛ وهي مما خص الله بها هذه الأمة)[5]. فينبغي للداعية بيان يسر الإسلام وسماحته للمدعوين، فإن بيان ذلك يعد عاملاً مهماً من عوامل استجابة المدعو وانقياده للدعوة.

ثانياً- من أساليب الدعوة: الترغيب الترهيب:

لقد رغب النبي ﷺ البائعين في الصدق بأن أخبر بجزائه وهو البركة في بيعهما: السلعة والثمن، ولما كانت النفس قد يدفعها حب المال إلى التدليس وكتمان العيوب، رهب النبي ﷺ من ذلك بأن أخبر بأن جزاء ذلك هو محق البركة، فكان الجزاء عكس مقصود الغاش والمدلس.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: بيان فضل الصدق وشناعة الكذب:

(إن الصدق هو الطريق الأقوم الذي يجب أن يسلكه المؤمنون، وبالصدق يتميز أهل الإيمان عن أرباب النفاق، والصدق سيف الله في أرضه الذي ماوضع على شيء إلا قطعه، ولا واجه باطلاً إلا أرداه وصرعه؛ من صال به لم تُردّ صولته، ومن نطق به علت

---

(١) الإسلام دين التيسير، صلاح أحمد الشامي ص ٨٧.

(٢) أخرجه أبو داود ٣٤٦٠، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٩٥٤).

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي، محمد أشرف الحق بن أمير العظيم آبادي، ١٤٨٤.

(٤) سورة الحج (٧٨)

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٤٥١/١٤.

على الخصوم كلمته؛ فهو روح الأعمال، ومحكُّ الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال...، وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين)[١]، ومن أجل ذلك رغب النبي ﷺ في تحري إقامته والبعد عن تركه فقال في نص الحديث: ((فإن صَدَقا وبَيَّنا بورك لهما في بَيعِهِما، وإن كَتَما وكذَبا مُحِقَتْ بركةُ بَيعهما)) (فإن صَدَق البائع في إخبار المشتري مثلاً وبين العيب إن كان في السلعة، وصدق المشتري في قدر الثمن مثلاً وبين العيب إن كان في الثمن تحقق فضل الصدق في حصول البركة)[٢].

فالإخبار عن الشيء على ما هو عليه من اللزوم على المؤمنين من رب العالمين وفي ذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[٣][٤] أي: (اصدقوا والزموا الصدق تكونوا مع أهله وتنجوا من المهالك ويجعل لكم فرجاً من أموركم ومخرجاً)[٥] وقد حث النبي ﷺ على ذلك فقال: ((عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ. فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَىٰ الْبِرِّ. وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَىٰ الْجَنَّةِ. وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّىٰ الصِّدْقَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللّهِ صِدِّيقاً...))[٦] (وقد كان النبي ﷺ إمام الصادقين وكانت حياته ﷺ أفضل مثال للإنسان الكامل الذي اتخذ من الصدق في القول والأمانة في المعاملة خطاً ثابتاً لا يحيد عنه قيد أنملة، وقد كان ذلك فيه بمثابة السجية والطبع فعرف بذلك حتى قبل البعثة، وكان لذلك يلقب بالصادق الأمين، واشتهر بهذا وعرف به بين أقرانه، وقد اتخذ ﷺ من الصدق الذي اشتهر به بين أهله وعشيرته مدخلاً إلى المجاهرة بالدعوة)[٧].

---

(١) انظر: مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٥/٣.

(٢) انظر فتح الباري، ابن حجر (٣٨٦/٤).

(٣) سورة التوبة، آية: ١١٩.

(٤) الأخلاق في الشريعة الإسلامية، د. أحمد عليان ص ٢١٩.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٣٣/٤.

(٦) أخرجه مسلم ١٨٠٩.

(٧) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٢٤٧٧/٦.

إذ إنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[١] (صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي "يا بني فهر، يا بني عدي"، لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: "أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً. قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد"...)[٢] فكان الصدق باباً في نشر الدعوة إلى الله. (وأما الكذب فجماع كل شر، وأصل كل ذم لسوء عواقبه، وخبث نتائجه)[٣]، ففضلاً عن كونه ماحقاً للبركة في الدنيا كما ورد في نص الحديث، إلا أنه سبب في استحقاق صاحبه النار لقوله ﷺ ((وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ. فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَىٰ الْفُجُورِ. وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَىٰ النَّارِ. وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّىٰ الْكَذِبَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللّهِ كَذَّاباً))[٤].

والكذب من الأخلاق المرذولة، والصفات القبيحة، فهو خصلة من خصال النفاق لقوله ﷺ ((آيةُ المُنافِق ثلاثٌ إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أخْلَفَ، وإذا أُؤْتُمِنَ خان))[٥] وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (لأن يضعني الصدق -وقلما يضع- أحب إلي من أن يرفعني الكذب وقلما يفعل). وقال بعض الحكماء: الصدق منجيك وإن خفته، والكذب مرديك وإن أمنته...، فالكذب لا يصدر إلا عن مهانة النفس ودناءة الهمة وقد قال الجاحظ: لم يكذب أحد قط إلا لصغر قدر نفسه عنده، قال الشاعر:

وما شيء إذا فكرت فيه	بأذهب للمروءة والجمال
من الكذب الذي لا خير فيه	وأبعد بالبهاء من الرجال)[٦]

---

(١) سورة الشعراء، آية: ٢١٤.

(٢) أخرجه البخاري ٤٧٧٠.

(٣) أدب الدنيا والدين، الماوردي، ٢٥٣.

(٤) أخرجه مسلم ١٨٠٩.

(٥) أخرجه البخاري ٣٣، ومسلم ٥٩.

(٦) أدب الدنيا والدين، الماوردي ٢٥٣، ٢٥٥.

وفي ذلك بيان شناعة الكذب وسوء عواقبه، لما فيه من خسة النفس ودناءتها، فحري بالداعية أن يبين فضل الصدق وشناعة الكذب حثاً منه على الامتثال لأمر الله تعالى ورسوله ﷺ.

رابعاً- من واجبات الداعية: حرصه على إفادة المدعو:

مما لا شك فيه أن الحافز الحقيقي إلى الدعوة وبذل النصح بما في ذلك من إرشاد المدعوين إلى ما فيه صلاح لهم في الدنيا والآخرة، هو الإيمان بالآخرة وتمثل ما فيها من سعادة دائمة وشقاء دائم، وما أعد الله فيها لعباده المؤمنين المطيعين من جزاء، وللكفار العصاة من عقاب، فذلك هو الحافز الحقيقي إلى دعوتهم، وبذل نصحهم وهو الذي يقلقهم ويكدر صفو عيشهم، حتى لا يهدأ لهم بال ولا يقر لهم قرار، وهو حافز أقوى وأعظم سلطاناً على نفوسهم مما يشاهدونه من اختلال النظام واضطراب الأحوال، وما يشعرون به من الأخطار المحيطة بهذا المجتمع إذا انتشر فيه الفساد، ويجعلون ذلك موجباً لدعوتهم وإنذارهم وسبباً لقلقهم وإشفاقهم، فيقول القرآن عن نوح عليه السلام وهو أول رسول يذكره القرآن بتفصيل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[1] ويقول عن هود عليه السلام وهو من أقدم الأنبياء، وقد بعث في قوم تهيأت لهم أسباب العيش، وتوسعت لهم الدنيا، وطابت لهم الحياة: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[2] ويقول عن شعيب عليه السلام وقد بعث في قوم لان لهم العيش وانتشر في أرضهم الخصب: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾[3])[4]، وقد كان النبي ﷺ وهو القدوة والمثل الأعلى أشد الناس حرصاً على

---

(١) سورة هود، الآيتان: ٢٥، ٢٦.

(٢) سورة الشعراء، الآيات: ١٣٢-١٣٥.

(٣) سورة هود، آية: ٨٤.

(٤) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، أبو الحسن علي الحسني الندوي ص ٦٥-٦٦.

هداية المدعوين وبذل النصح لهم وهذا ما بينه الحق تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[(٢)].

فعلى الداعية أن يحرص على إفادة المدعوين وإرشادهم إلى ما فيه صلاح لهم، مقتدياً في ذلك بحرص الأولين من الأنبياء والصالحين على هداية الناس، وهذا ماورد في نص الحديث من حثه ﷺ على الصدق وترهيبه من الكذب وبيانه ﷺ لما في الإسلام من يسر وسماحة، وفي ذلك إفادة ونفع وتوجيه المدعوين لما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

---

(١) سور يوسف، آية: ١٠٣.

(٢) سورة النحل، آية: ٣٧.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

الصدق قيمة عظيمة في حياة الأفراد والأسر والمجتمعات، لأن الصدق يتسع باتساع مجالات الحياة وليس الصدق محصوراً في مجال الأقوال، بل مقياس ومؤشر الصدق في مجال الأعمال ومطابقتها للأقوال، وعدم الازدواجية بين الأقوال والأعمال.

لذا أكدَّ النبي ﷺ على حقيقة أن الصدق يهدي إلى البر مؤكداً على أهمية الحرص على الصدق وتحريه في الحياة وميادينها، وتربية النفوس على ذلك حتى يصبح سمتاً لا ينفك عن المؤمن، وفي المقابل يُنفِّر النبي ﷺ من الكذب، ومن التلبس به نظراً لآثاره الوخيمة، لأن الإسلام يوجه إلى الاستمساك بالصدق في كل شأن، وتحريه في كل قضية، لأنه عمود المجتمعات وركنها الركين، يحفظ عليها جوانب حياتها ومقوماتها.

فالصدق في العقائد وفي التبليغ عن الله ورسوله يحفظ على الأمة عقيدتها وهديها، ويمدها بالزاد والقوة من النبع الأصيل، ويحفظ للأمة كرامتها، ويبعدها عن الهوان والضعف.

إن من أبرز المضامين التربوية في أحاديث الباب -الصدق- ما يلي:

أولاً: بيان حقيقة الصدق في حياة الإنسان:

حيث بيّن النبي ﷺ حقيقة الصدق بأنه يهدي إلى البر وإلى طرق الخير التي يحتاج الإنسان إلى سلوكها في حياته، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال التنشئة السليمة والصحيحة على تحري الصدق في كافة تعاملات الإنسان، أملاً في النجاة، لأن الصدق مع النفس ومع الناس من الأسباب الأساسية في علاج الكثير من المشكلات، وإن الصدق يُنمِّي ملكة المراقبة للنفس والمحاسبة لها، حتى لا تقع في غوائل الكذب الذي يظنه بعض الناس أنه قد ينقذ الإنسان، ويجعله يظفر بمراده، وفي الحقيقة أن ذلك نوع من الوهم الذي عمت به البلوى، ولذا فإن النبي ﷺ يؤكد على حقيقة الصدق أنه يهدي إلى البر، مما يكون سبباً في دخول الجنة، ويجعل الإنسان يرتقي إلى مصاف الصديقين، والنبي ﷺ يبين الأسلوب الحكيم في البيع والشراء فيقول: البيعان بالخيار ما لم

يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما..

إن التاجر قد يكذب في بيان سلعته وعرض ثمنها، ويعتبر هذا من الذكاء في كسب الربح، وما علم أنه محق وخسارة وعدم ثقة، وأن الصدق ثقة وبركة وأمانة، وهذا مما غفل عنه كثير من المسلمين في معاملاتهم التي تنوعت وتعددت، وتعددت، كذلك ألوان الكذب والخداع، فكان ذلك ممحقة للبركة، في حين أخذ غيرهم بتعاليم الإسلام فربحت تجارتهم وربت، وإن كانوا على غير ملتهم، ولكنهم ساروا على نهج الإسلام[١].

ألا ما أجمل هذا الدين وما أحسنه؟

إنه طريق مفتوح لجميع البشر، وأفق يتطلع إليه الجميع، ليس فيه احتكار للمقامات وليس فيه خصوصيات محجوزة لأناس بأعيانهم، وليس إلا العمل الصالح المبني على التقوى[٢].

والصدق كحمل الجبال الرواسي، لا يطيقه إلا أصحاب العزائم القوية، ولذلك صار موصلاً إلى الجنة.

ثانياً: التحفيز على الصدق:

إن من أبرز أساليب التربية تأثيراً على النفوس: التحفيز بالحث على تحرِّي الصدق والتزامه، لأنه درجات والتي من أولها: صدق القصد وهو كما العزم وقوة الإرادة، بأن يكون القلب داعية صادقة إلى السلوك، وبه يتلافى كل تفريط فيصلح من قلبه ما مزقته يد الغفلة.

ثانيها: أن لا يتمنى الحياة إلا للحق، ولا يشهد من نفسه إلا أثر النقصان... فمن عرف نفسه وعرف ربه لم ير نفسه إلا بعين النقصان والتقصير ويعمل على رضا محبوبه.

ثالثها: الصدق في معرفة الصدق، فإن العبد إذا صدق الله رضي الله بعمله وحاله

---

(١) انظر: سلوك المسلم، د. توفيق يوسف الواعي، ٤٧-٤٩.

(٢) انظر: موسوعة فقه القلوب، محمد بن إبراهيم التويجري ٢/١٨٨٤.

ويقينه، لأنه قد رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً، فرضي الله به عبداً، ورضي بأقواله وأعماله القائمة على الإخلاص والمتابعة[1].

ثالثاً: الجد في التعامل مع الأمور:

إن من الآثار التربوية لتحري الصدق في الحياة: الجد في التعامل مع الأمور، لأن التربية على الصدق تجعل المسلم حازماً منجزاً حريصاً على أن يكون عمله مثمراً، وليس في حياته مجال لكثرة الأعذار، ولا يبحث عن المبررات التي تخول له التقاعس في إنجاز الأعمال، أو الأعذار التي تعفيه من القيام بإنجاز الأعمال المنوطة به، لأنه المسلم الجاد يدرك قيمة الوقت، وأنه مسؤول عنه يوم القيامة، والمسلم الصادق عالي الهمة يتطلع إلى معالي الأمور، ويسعى في إنجازها، ويرفض عملياً أن يعطي وكالة للغير نيابة عنه في القيام بأعماله المنوطة به والواجبة عليه، ولقد أثمر ذلك ثماراً عظيماً في حياة الصحابة رضي الله عنهم فكانوا رجالاً رفعوا رايات الإسلام، وتحملوا المسؤولية بأمانة وجد.



(١) انظر: المرجع السابق، ١٨٨٥/٢.

٥- باب المراقبة

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾[الشعراء: ٢١٩-٢٢٠]، وَقالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُم﴾[الحديد: ٤]، وَقالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللّهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾[آل عمران: ٦]، وَقالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[الفجر: ١٤]، وَقالَ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[غافر: ١٩] وَالآيات في الباب كثيرة معلومة.

وأَمَّا الأحاديثُ:

الحديث رقم (٦٠)

٦٠- **فالأَوَّلُ:** عَنْ عُمرَ بنِ الخطابِ ﷺ، قال: «بَيْنما نَحْنُ جُلُوسٌ[1] عِنْد رسولِ اللّه ﷺ، ذَات يَوْمٍ، إِذْ طَلع عَلَيْنَا رجُلٌ شَديدُ بياضِ الثِّيابِ، شديدُ سوادِ الشَّعْر، لا يُرَى[2] عليْهِ أَثَر السَّفَرِ، ولا يَعْرِفُهُ منَّا أَحدٌ، حتَّى جلَسَ إِلَى النَّبيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رَكْبَتَيْهِ إِلَى رُكبَتَيْهِ، وَوَضع كفَّيْه عَلَى فخِذيهِ، وقال: يا محمَّدُ أَخبِرْنِي عن الإسلام؟ فقالَ رسولُ اللّه ﷺ: ((**الإِسلامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللّهُ، وأَنَّ مُحَمَّداً رسولُ اللّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكاةَ، وتصُومَ رَمضَانَ، وتحُجَّ الْبيْتَ إِنِ استَطَعتَ إِلَيْهِ سَبيلاً**)).

قال: صدَقتَ. فَعجِبْنا لَهُ يسْأَلُهُ ويصدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عن الإِيمانِ. قَالَ: ((**أَنْ تُؤْمِنَ باللّهِ وملائِكَتِهِ، وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ، والْيومِ الآخِرِ، وتُؤمِنَ بالْقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ**)). قال: صدقْتَ. قال: فأَخْبِرْنِي عن الإِحْسانِ. قال: ((**أَنْ تَعْبُدَ اللّه كَأَنَّكَ تَراهُ. فإِنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فإِنَّهُ يَراكَ**)). قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عن السَّاعةِ؟ قَالَ: ((**مَا المسْؤُولُ عَنْهَا بأَعْلَمَ مِن السَّائِلِ**)). قَالَ:

---

(١) هذه اللفظ لا توجد عند مسلم.

(٢) قال النووي: ضبطناه بالياء المثناة من تحت المضمومة، وكذلك ضبطناه في الجمع بين الصحيحين وغيره، وضبطه الحافظ أبو حازم العدوي هنا: "نرى" بالنون المفتوحة. وكذا هو في مسند أبي يعلى الموصلي، وكلاهما صحيح، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨٢.

فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا؟. قَالَ: ((أَنْ تلدَ الأَمَةُ رَبَّتَها، وَأَنْ تَرى الحُفَاةَ العُراةَ العالَةَ رِعاءَ الشَّاءِ يتَطاوَلُون في البُنيانِ))، ثُمَّ انْطلَقَ، فلبثْتُ مليًّا، ثُمَّ قَال: ((يا عُمرُ، أَتَدرِي منِ السَّائِلُ؟)) قلتُ: اللهُ ورسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: ((فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعلِّمُكم دِينكُمْ)) رواه مسلمٌ[١].

ترجمة الراوي:

عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١).

غريب الألفاظ:

أماراتها: علاماتها[٢].

تلد الأمة ربتها: أي سيدتها ومعناه: أن تكثر السراري حتى تلد الأمة السرية بنتاً لسيِّدها، وبنت السيد في معنى السيد. وقيل غير ذلك[٣].

العالة: الفقراء، ومفردها عائل[٤].

رِعاء الشاة: الرعاء -بكسر الراء وبالمد- جمع راعي الغنم ويقال فيهم: رُعاة بضم الراء وزيادة الهاء[٥].

يتطاولون في البنيان: أي يتبارون ويتنافسون في البناء من أجل المباهاة والفخر[٦].

ملياً: أي زماناً طويلاً وكان ذلك ثلاثاً، أي: بعد ثلاث ليال[٧].

---

(١) برقم (٨/١). أورده المنذري في ترغيبه (٥١٣).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (أ م ر).

(٣) رياض الصالحين ٧٣.

(٤) رياض الصالحين ٧٣، واللسان والقاموس في (ع ي ل).

(٥) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣٦٤، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨٢.

(٦) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨٢، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والوسيط في (ط و ل).

(٧) رياض الصالحين ٧٣، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨٣.

الشرح الأدبي

في ظلال هذا الحديث الشريف نستروح نسمات الإيمان، ونشتمّ عبير النبوة، ونتأمل أسرار البيان النبوي الكريم التي يتضمنها هذا الحديث الجامع الذي يعد من جوامع كلمه ﷺ، وأسلوب الحديث يتسم بالشرح والتفصيل، والإقناع والتدليل، وهو مع ذلك في غاية الإيجاز، فلا إسهاب في عباراته، وإنما كل عبارة وراءها معان ومداخل.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث النبوي الشريف، وهو أداء جمالي تربوي قصصي هادف.

فالحديث يبدأ بصيغة السرد والحكاية ويعتمد في بدايته على عنصر المفاجأة والتشويق والدهشة.

والتعبير بقول عمر "بينما نحن جلوس عند رسول الله ذات يوم"، فيه معنى المفاجأة ومعنى الشرط، وهذه القصة واقعية الحدث وليست قصة متخيلة. إنما يروي وقائعها الفاروق عمر رضي الله عنه وأشخاصها هم الأعلى مكانة ورتبة في الخلائق وهم: المصطفى ﷺ وجبريل عليه السلام وبعض الصحابة الأخيار، ودقة الوصف المثير للتأمل والدهشة تتجلى في قول عمر: "إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد".

هذا الوصف فيه مفارقة، لأن الرجل بدا غريباً. فهو ليس من أهل المدينة، ومع ذلك ثيابه نظيفة، وليس عليه مسحة من غبار السفر، وشعره لس أشعث، ورغم ذلك لا يعرفه أحد من الحاضرين.

- والتعبير بقوله: "طلع علينا رجل"، يدل على أنه ظهر بغتة، وهذا التعبير مستعار من طلعت الشمس ولا يذكر إلا فيما له شأن، وذلك مناسب لهذه الشخصية، لأنها في الحقيقة هى شخصية جبريل ﷺ، فقد طلع على الناس طلوع الشمس من خدرها.
- وقال بعض المحققين: طلوعه كذلك يقوي معنى قولهم: "حسن الأدب في الظاهر عنوان حسن الأدب في الباطن"، والملائكة تتمثل في أحسن الصور،

وتأخذ الزينة، وفي هذا أسوة حسنة لأهل العلم الداعين إلى الله أن يتجملوا من الحلال الطيب بما يحسن منظره ولا يزري بلابسه[١].

- ولنتأمل طريقة جلوس هذا الرجل السائل، حيث جلس من النبي مجلساً يثير تعجب الحاضرين، وذلك لأن جلسته توحي بعدم اكتراث هذا السائل، وبأن هيئته في جلسته هيئة معلّم مهتم بشؤون التعليم والعلم، وهذا ليس شأن السائل المعتاد، ونداؤه لرسول الله "يا محمد" يوحي بعدم التوقير ويثير مزيداً من عجب الحاضرين لمزيد من التشويق ومتابعة ما يدور من حوار وإجابات. وقيل: زيادة في التغريب عند افتتاح الخطاب بالمسألة، وإمعاناً في إيهام السامعين وتعليماً لهم كرر السائل جملة: "أخبرني" أربع مرات في سؤاله عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأمارات الساعة، ولفظ "أخبرني" لا يوحي بجهل السائل، وإنما يوحي بمعرفته للإجابة، والقصد من السؤال هو تعليم الحاضرين وكل من يتلقى هذه الإجابات النبوية الدقيقة العميقة، والتعقيب بقول السائل: "صدقت" يؤيد هذا المنحى في تفسير قوله: "أخبرني"، ولذلك تعجب الصحابة: كيف يسأله ثم يصدقه، لأن من شأن السائل أن يكون جاهلاً وغير عارف إجابة السؤال إلا إذا كان في مقام التعليم والتقويم، ويجيبه المصطفى ﷺ موضحاً معالم الإسلام، ومعالم الإيمان وهما متلازمان في العقيدة الصحيحة، وكل معلم وكل ركن من أركان الإسلام الخمسة أسهب في توضيحه الفقهاء وعلماء العقيدة، وتفيض آثارهم العلمية بالذخائر والنفائس في هذا المجال، وكذلك الإيمان يحتاج إلى مجلدات وهي موجودة ومحققة تشرح حقيقته وأركانه ومتعلقاته وهي التي وضحها الحديث الشريف: من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره.

---

(١) انظر: المختار من كنوز السنة، ودليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان في تفصيل هذا الموضوع.

وقيل: قدم الملائكة على الكتب مراعاة للترتيب الواقع لأنه تعالى أرسل الملك بالكتاب إلى الرسل. ولفظ "الملائكة" يفيد معنى توصيل الرسالة، فهم رسل الله إلى أنبيائه.

- والإيجاز البليغ يتمثل في قوله: "ما المسؤول عنها بأعلم من السائل"، وكذلك الدلالات اللغوية الموحية في تصوير أمارات الساعة تعد من جوامع كلمه ﷺ وفيها نبوءات بما سيحدث، وفيها بشارات بكثرة الفتوحات، وكثرة المخالفات، وفساد الأحوال.
- وعقدة القصة تحل بلحظة التنوير وإضاءة الحدث وهي الكشف عن شخصية السائل وهو جبريل عليه السلام.

فقه الحديث

قال القاضي عياض: "وقد اشتمل على جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة من عقود الإيمان، وأعمال الجوارح، وإخلاص السرائر والتحفظ من آفات الأعمال، حتى إن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشعبة منه. ويقول القرطبي: (فيصلح هذا الحديث أن يقال فيه إنه أم السنة، لما تضمنه من جمل علم السنة)[(١)]. وفيه من الفقه:

١-تحسين الثياب والهيئة عند الدخول على العلماء والملوك والأدب في مجالستهم:

- قوله: "إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر" قال القرطبي: (فيه دليل على استحباب تحسين الثياب والهيئة والنظافة عند الدخول على العلماء والفضلاء والملوك، فإن جبريل عليه السلام أتى معلِّمًا للناس بحاله ومقاله)[(٢)].
- ٢-البدء بالسؤال قبل السلام: قال جبريل عليه السلام: "يا محمد أخبرني عن الإسلام؟" قال ابن حجر: (فإن قيل: فكيف بدأ بالسؤال قبل السلام؟ أجيب بأنه يحتمل أن يكون ذلك مبالغة في التعمية لأمره، أو ليبين أن ذلك غير

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٩٢ – ١٩٣.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ١/١٣٧.

واجب، أو سلم فلم ينقله الراوي، قلت [القائل ابن حجر]: وهذا الثالث هو المعتمد، فقد ثبت في رواية أبي فروة ففيها ((حتى سلم من طرف البساط فقال: السلام عليك يا محمد، فرد عليه السلام))[(١)][(٢)].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على مجالسة النبي ﷺ.

ثانياً: من صفات الداعية: الرفق واللين.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

رابعاً: من واجبات المدعو: التسليم بالحقائق.

خامساً: من موضوعات الدعوة: معرفة أركان الإسلام والإيمان وحقيقة الإحسان.

سادساً: من موضوعات الدعوة: مراقبة الله والإخلاص في عبادته.

سابعاً: من موضوعات الدعوة: ترك الأمور التي لا تعني الإنسان.

ثامنًا: من موضوعات الدعوة: أمارات الساعة.

تاسعًا: من مهام الداعية: إزالة اللبس والاستغراب عن المدعوين.

عاشراً: من وسائل الدعوة: التعليم.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على مجالسة النبي ﷺ:

يظهر ذلك في قوله عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ...".

قال ابن عثيمين: (وكان الصحابة رضي الله عنهم يجلسون عند النبي ﷺ كثيراً، لأن الرسول ﷺ لا يغيب عن أصحابه رضي الله عنهم أو أهله: إما في البيت: في شؤون بيته ﷺ يحلب الشاة، ويرقع الثوب، ويخصف النعل[(٣)].

---

(١) أخرجه أبو داود ٤٦٩٨، والنسائي ٤٩٩٤، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٩٣١).

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٣٠٤/١.

(٣) انظر في ذلك: ما أخرجه أحمد في مسنده ١٢١/٦.

وإما مع أصحابه في المسجد، وإما ذاهباً إلى عيادة مريض أو زيارة قريب، أو غير ذلك من الأمور التي لا يمضي منها لحظة إلا وهو في طاعة الله[(١)].

وقد حرص صحابة رسول الله ﷺ على مجالسته لينالوا شرف مصاحبته وينهلوا من علمه ويتأسوا بأخلاقه وصفاته التي خصه الله بها وجعله خير خلق الله وأعظمهم خُلقاً قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[(٢)] وكذلك ليعلموا أمور دينهم، وكان الصحابة رضي الله عنهم أشد الناس حرصاً على أخذ العلم وأمور دينهم عن رسول الله ﷺ لأنه المعلم الأول لهذه الأمة، قال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾[(٣)].

ثانياً- من صفات الداعية: الرفق واللين:

يظهر ذلك في قول عمر رضي الله عنه حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه. فالرفق واللين من الداعية أمر مطلوب فعليه أن يكون هيناً عطوفاً مشفقاً على الناس، ينظر إليهم على أنه طبيب يعطي كل مريض علاجه الذي يناسبه[(٤)].

ورسول الله ﷺ كان يحب الحلم والأناة ويعفو ويصفح فلابد أن يقتدي الداعية برسول الله ﷺ الذي ضرب أروع الأمثلة في اللين والرفق بأمته. يقول تعالى مخبراً عن ذلك: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[(٥)].

ثالثاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

من الأساليب الدعوية المهمة السؤال والجواب لما لهما من أثر في إثارة انتباه المدعوين

---

(١) شرح رياض الصالحين ١٦٣/١.

(٢) سورة القلم، آية: ٤.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٥١.

(٤) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأثرهما في حفظ الأمة، د. عبدالعزيز أحمد المسعود ٢٨٦/١.

(٥) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

وإقبالهم على ما يقال. ومن الشواهد في الحديث: أن جبريل عليه السلام يسأل رسول الله ﷺ عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، والساعة، ورسول الله ﷺ يجيب.

فأسلوب السؤال والجواب من أساليب الدعوة المفيدة نظراً لأنه يعمل على جذب انتباه المدعوين، لأجل الإلمام بما يطرح من أسئلة وأجوبة عليها، خاصة إذا كانت متعلقة بأمور الدين والقضايا الأساسية فيه، والأسئلة تثير الرغبة في المدعوين لمعرفة الجواب وقد تنزع نفوسهم إلى المشاركة في الإجابة عليها كأنهم هم المسؤولون، وفي كلتا الحالتين تتفتح أذهانهم لمعرفة الجواب، من المتصدر للإجابة، العالم بأجوبة المسائل المطروحة[١].

رابعاً- من واجبات المدعو: التسليم بالحقائق:

يظهر ذلك في قول جبريل عليه السلام: "صدقت" فلم ينكر ولم يعارض بل صدق وسلم بالحقائق التي ذكرها رسول الله ﷺ.

فالمدعو مطالب بالتسليم بالحقائق إذا تبينت له: وذلك أن الله تعالى قد أعطى الإنسان عقلاً يميز به بين ما ينفعه وما يضره، وما هو خير، وما هو شر، وقد أرسل الله الرسل والأنبياء، وأنزل معهم الكتاب والميزان، ليقوم الناس بالقسط. قال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[٢].

وطالب الله سبحانه أمة الدعوة جميعاً بأن يستجيبوا للرسول محمد ﷺ؛ لأنه يدعوهم لما يحييهم في الدنيا حياة طيبة، ويعطيهم في الآخرة رضا الله. فقال لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[٣].

---

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ص ٥٩.

(٢) سورة الحديد، آية: ٢٥.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

إن المدعو مطالب بأن يسلم بالحق بمجرد أن يستبين له، ومطالب بأن يكف عن المعصية، ويخرج من ذلها وإثمها، ليستمتع بعز الطاعة وعظيم أجرها عند الله، ومطالب بأن يستمر على طاعته، وأن يستزيد منها ومن فعل الخير. إن المدعو مطالب بذلك كله، وهذا هو الانقياد والانصياع إلى الحق، وهذا هو واجبه الذي لا محيد عنه إلا بهمزات الشياطين من الإنس أو الجن، أو بإغلاق القلب والعقل عن تقبل الحق عناداً أو كبرياء. ومن يفعل ذلك بعد أن يتبين له الحق فإنه يسيء إلى مستقبله مع الله، لأنه لن يفلت من عقاب مخالفة الرسول ﷺ[١].

خامساً- من موضوعات الدعوة: معرفة أركان الإسلام والإيمان وحقيقة الإحسان:

يظهر ذلك في سؤال جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان. قال رسول الله ﷺ "سلوني"[٢] قال النووي: (هذا ليس بمخالف للنهي عن سؤاله، فإن هذا المأمور فيما يحتاج إليه وهو موافق[٣] لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٤].

قال السعدي: (وهذه الآية وإن كان سببها خاصاً بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين من أهل الذكر، وهم أهل العلم، فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين، أصوله وفروعه، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها، أن يسأل من يعلمها. ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم، إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه)[٥].

---

(١) انظر: أصناف المدعوين وكيفية دعوتهم، د. حمود بن أحمد الرحيلي ص ١٤، ١٥.

(٢) أخرجه مسلم مطولاً برقم ١٠.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي النووي ص ٨٥.

(٤) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٤٦٨.

والمسلم الذي يجهل أمور دينه يجب عليه أن يسأل العالم بها حتى يعلم حقيقة دينه وأركانه، لأنه يجب على كل مسلم أن يكون لديه إلمام ومعرفة بأركان الإسلام والإيمان والفرق بينهما، وأن يعرف حقيقة الإحسان.

وأن من واجبات الداعية: بيان الأشياء التي يقوم عليها الدين الإسلامي وكذلك الأشياء التي يتحقق بها كمال الدين، وهذا ما فعله النبي ﷺ حينما أخبر عن الإسلام، والإيمان، والإحسان. والدعاة هم الذين حملوا مواريث النبوة، واضطلعوا بأعباء الرسالة. فعليهم أن يقودوا الناس إلى الله، ويوجهوهم إلى وجهة الحق والخير. فتعلو بذلك إنسانيتهم وتسمو مواهبهم ويحققوا معاني الهدى والرشاد[1].

فإن الدعاة إلى الله هم الهداة إلى الله، والدعاة إلى كلمته، والقوامون على دينه، والذائدون عن حرماته، والواقفون على مفترق الطريق يرشدون الحيارى، ويبصرونهم أعلام الطريق.

هؤلاء الذين يبلغون رسالات الله، والذين اصطفاهم الله لحمل أمانته ودعوة الخلق إلى الحق[2]، فينبغي عليهم أن يبينوا للمدعوين أسس الدين وأركانه.

سادساً- من موضوعات الدعوة: مراقبة الله والإخلاص في عبادته:

وهذا ما عبر عنه رسول الله ﷺ بقوله "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" فهذا من جوامع الكلم التي أوتيها ﷺ لأنا لو قدرنا أن أحدنا قام في عبادة وهو يعاين ربه سبحانه وتعالى، لم يترك شيئاً مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمت، واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها إلا أتى به. فقال ﷺ "اعبد الله في جميع أحوالك كعبادتك في حال العيان" فإن التتميم المذكور في حال العيان إنما كان لعلم العبد باطلاع الله سبحانه وتعالى عليه، فلا يقدم العبد على تقصير في هذا الحال للاطلاع عليه، وهذا المعنى موجود مع عدم رؤية العبد،

---

(١) انظر: دعوة الإسلام، السيد سابق، ص ٢٨٥.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص ٢٩٣.

فينبغي أن يعمل بمقتضاه، فمقصود الكلام الحث على الإخلاص في العبادة، ومراقبة العبد ربه تبارك وتعالى في إتمام الخشوع والخضوع وغير ذلك. وقد ندب أهل الحقائق إلى مجالسة الصالحين؛ ليكون ذلك مانعًا من تلبُّسه بشيء من النقائص، احترامًا لهم واستحياء منهم فكيف بمن لا يزال الله تعالى مطلعًا عليه في سره وعلانيته[١].

سابعاً- من موضوعات الدعوة: ترك الأمور التي لا تعني الإنسان:

يظهر ذلك في سؤال جبريل عن الساعة وإخبار الرسول ﷺ أنّ الخلق كلهم في علمها سواء وفي هذا إشارة إلى أن الله تعالى استأثر بعلمها[٢].

يقول تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣].

قال ابن كثير: (أمر تعالى نبيه ﷺ إذا سئل عن وقت الساعة أن يرد علمها إلى الله تعالى، فإنه هو الذي يجليها لوقتها أي: يعلم جلية أمرها ومتى يكون التحديد أي لا يعلم ذلك أحد إلا هو تعالى)[٤]. فعلم الساعة يترك لله تعالى ولا يسأل الإنسان إلا فيما يعنيه فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ المَرْءِ تَرْكُهُ ما لا يعْنِيهِ))[٥].

قال ابن رجب: أن من حسن إسلامه ترك ما لا يعنيه من قول وفعل، واقتصر على ما يعنيه من الأقوال والأفعال، ومعنى يعنيه: أنه تتعلق عنايته به، ويكون مقصده ومطلوبه[٦].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٨٢.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١٣٥/١.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٨٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٥١٨/٣.

(٥) أخرجه الترمذي ٢٣١٧ وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٨٨٦).

(٦) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٨٨/١.

ثامنًا- من موضوعات الدعوة: أمارات الساعة:

قد ذكر رسول الله ﷺ للساعة علامتين:

الأولى: "أن تلد الأمة ربتها" والمراد بربتها سيدتها ومالكتها. وهذا إشارة إلى فتح البلاد، وكثرة جلب الرقيق حتى تكثر السراري ويكثر أولادهن فتكون الأم رقيقة لسيدها، وأولاده منها بمنزلته. فإن ولد السيد بمنزلة السيد، فيصير ولد الأمة بمنزلة ربها وسيدها[1].

الثانية: "أن ترى الحفاة العراة العالة" أي أهل البادية وأشباههم من أهل الحاجة والفاقة تبسط لهم الدنيا حتى يتباهون في البنيان[2]. وهذه الأمارات من الأشياء التي خص الله عز وجل نبيه بها.

ومن معاني "يتطاولون في البنيان" أن كل قادر يحاول أن يزيد في ارتفاع بنيانه الذي يبنيه حتى يكون أعلى من غيره، في منافسة زائفة لا نهاية لها، ولا هدف من ورائها غير التفاخر والتطاول، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. والتطاول فيه معنى المنافسة، والمباهاة، والتفاخر، وهو أكثر من التطويل.

وفي هذا الحديث الشريف ذكر المصطفى ﷺ نبوءتين من أشراط الساعة تحققتا بالكامل في العقود المتأخرة من القرن العشرين وما كان أحد يمكن له أن يتخيل - مجرد تخيل - إمكانية وقوعهما: والنبوءة الأولى منهما: "أن تلد الأمة ربتها".

ومن معاني هذه النبوءة النبوية الشريفة أن يسود العالم حثالات البشر من أبناء وبنات الإماء والعبيد، وأبناء الزنا ومجهولي الأنساب بمعنى أن تكون الأم وضيعة الأصل، حقيرة المنشأ، ومعدومة التربية، ثم يصل أبناؤها أو بناتها إلى حكم المجتمعات، ويدعون أمهاتهم فيما هن من هوان وذل وانحطاط.

وقد يكون المقصود بهذا النص النبوي الشريف أن ينتشر عقوق الوالدين، خاصة عقوق الأمهات، وذلك لأن لفظة (الأمة) كما تعني غير الحرة (أي العبدة) وجمعها

---

(١) المرجع السابق ١/١٣٦.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٨٢.

(إماء)، تعني أيضاًأياً من النساء، وبذلك يعني النص أن الناس سوف يصلون إلى زمن يفقدون فيه الاحترام الواجب للوالدين بصفة عامة، وللأم بصفة خاصة فيعاملونها معاملة السيد للخادمة ويهدرون كل ما لها من حقوق، وقد وصل الناس إلى هذا المستوى من نكران الجميل، وغمط الحقوق ولم يكن ممكناً لأحد أن يتصوره أبداً أبداً من قبل عقود قليلة..!!

والنبوءة الثانية في هذا الحديث النبوي الشريف هي: (وأن ترى الحفاة، العراة، العالة، رعاء الشاء يتطاولون في البنيان) وقد تطاولوا!!

ولا يمكن لعاقل أن يتصور مدى التطاول في البنيان الحاصل على سطح الأرض اليوم بصفة عامة، وفي الجزيرة العربية بصفة خاصة، وإن جاز ذلك - وهو لا يجوز - في دول تحتاج إلى شبر من الأرض مثل كل من اليابان وبريطانيا، فلا يجوز أبداً في الصحاري العربية والإسلامية الممتدة لملايين الكيلومترات المربعة، وتكلفة عمارة واحدة من هذه العمارات التي تطاولت في الارتفاع تبنى آلاف الدور، وتنشر العمران على الأرض، تلطف الجو، وتتيح الفرصة لمزيد من الزرع، ولمزيد من المكان لكل من الإنسان، والحيوان، وتخفف الضغط على البيئة، وهي في نفس الوقت أقل كلفة في الإنشاء وفي الخدمة والصيانة والتأمين ضد الحرائق وغيرها من المخاطر، والأمن في حالات الحرروب والزلازل حيث إن مثل هذه العمائر الشاهقة الارتفاع تعتبر نقاط ضعف في حالات الحروب والزلازل لسهولة تدميرها والقضاء على من فيها. هذا غير تأثيرها السيئ على البيئة والإنسان من النواحي البيئية والصحية والنفسية والاجتماعية، فهي تعزل الناس عن بعضهم البعض، وتقطع أو تحد من علاقاتهم، وتشجع على العزلة الاجتماعية والفردية، كما تشجع على الجريمة، وتعزل الناس عن الطبيعة وتفصلهم عن الجيران[١].

وفي الوقت نفسه تلغي الخصوصية وتحرم الأطفال من أماكن لهوهم، وتؤدي إلى ازدحام الشوارع ،وإلى كثرة السيارات بها، وإلى تلوث البيئة، وإلى ضعف الإبصار وإلى العديد من الأمراض الأخرى.

---

(١) الإعجاز العلمي في السنة النبوية، د. زغلول النجار، ٢/١٥٧ - ١٥٩.

إن كل عربي ومسلم يفرح لانتشار العمران والتقدم المادي في بلاد العرب والمسلمين، ولكنه في نفس الوقت يكره النظام السائد في الإنفاق من أجل التطاول في البنيان في صحاري تحتاج إلى انتشار العمران انتشاراً أفقياً وليس امتدادٌ رأسياً.

هل يمكن لعاقل أن يبرر هذا التسابق الجنوني على التطاول في البنيان؟ أو يملك النظر إلى هذه الكتل الخرسانية المرتفعة لمستويات مبالغ فيها جداً دون حاجة إلى ذلك إلا أن يفسره بالرغبة في التطاول في البنيان؟ وهل يمكن للناظر إلى القصور الباذخة، والسيارات الفارهة، والإسراف المخل في كل اتجاه إلا أن يدرك حجم المؤامرة على بلادنا العربية والمسلمة لصرف إنفاقها عن الاتجاه الصحيح الذي يهدف إلى بناء الإنسان نفسياً وروحياً، ودينياً، وفكرياً، علمياً وتقنياً، بدنياً وعسكرياً حتى يتمكن من الدفاع عن أرضه ، وعرضه، وماله، ونفسه وولده، ودينه ومقدساته، فلا يكون وما يملك نهباً لقطاع الطريق الدوليين الجدد الذين أغرقوا بلاد العرب والمسلمين في ترف كاذب، وألهوهم عن بناء شعوبهم البناء الصحيح، في الوقت الذي طوروا هم أنفسهم علمياً وتقنياً، وتفوقوا في ذلك تفوقاً كبيراً ليفرضوا إرادتهم على العرب والمسلمين وعلى بقية دول العالم بحد الغلبة العسكرية الجائرة!!"[1].

تاسعًا- من مهام الداعية: إزالة اللبس والاستغراب عن المدعوين:

وهذا ما فعله النبي ﷺ عندما استغرب الصحابة والتبس عليهم أمر جبريل عليه السلام فأزال النبي ﷺ هذا الالتباس والاستغراب بإخباره ﷺ عمر بأنه جبريل جاء يعلمهم أمر دينهم.

وهذا كان شأنه دائماً ﷺ في كل ما التبس على صحابته رضي الله عنهم أو استغربوا له وهو القدوة للدعاة ولعامة المسلمين.

عاشراً- من وسائل الدعوة: التعليم:

إن من الوسائل الدعوية التي تعين الداعية في توصيل دعوته إلى المدعوين: التعليم وقد حفل هذا الحديث بتعليم الأمة أمور دينها من خلال تلك الأسئلة التي طرحها جبريل عليه السلام على النبي ﷺ وقد أخبر النبي ﷺ "بأنه جبريل أتاكم يعلمكم أمور

(١) المرجع السابق ١٥٩/٢ - ١٦٠.

دينكم". وقال ابن رجب (فمن تأمل هذا الحديث العظيم علم أن جميع العلوم والمعارف ترجع إليه وتدخل تحته وأن جميع العلماء من فرق هذه الأمة لا تخرج علومهم التي يتكلمون فيها عن هذا الحديث)[١].

ولقد اهتم الرسول صلوات الله وسلامه عليه بتعليم أصحابه اهتماماً كبيراً، لأنه كان يعلم أن الجهل أساس كل داء، وأن من جهل شيئاً عاداه، فما عليه إلا أن يفتح عقولهم ليسمعوا كلمة الحق ويتبعوا الدين المبين، وليدعوا الناس على بصيرة وفهم. وعلى الداعية أن ينتبه لهذا، ويعلم الناس أحكام الدين، ويعرّفهم بحدود الله، ولا يكتفي منهم بالعاطفة الطيبة... كما لا يكتفي بإلقاء البذرة في الأرض دون تعهدها بالتقشيب والسقي وغير ذلك. فعليه أن يبلغ أن الإسلام دين شامل للحياة وعليه أن يوصي بالاتصال الدائم بكتاب الله فهماً وتدبراً، وسيرة نبيه ﷺ وعليه أن يدعو إلى المحافظة على أركان الدين وأصوله[٢].

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ص ١٣٤.

(٢) انظر: الدعوة الإسلامية، محمد خير رمضان يوسف، ٧٥، ٧٦.

الحديث رقم (٦١)

٦١- الثَّاني: عن أبي ذَرٍّ جُنْدُبِ بْنِ جُنَادةَ، وأبي عبْدِ الرَّحْمنِ مُعاذِ بْنِ جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عنْ رسولِ اللَّهِ ﷺ، قال: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحسنةَ تَمْحُهَا، وخَالقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ» رواهُ التِّرْمذيُّ، وقال: حديثٌ حسنٌ[1].

ترجمة الراويين:

أبو ذر الغفاري: اختلف في اسمه اختلافاً كثيراً فقيل: جندب بن جنادة، قال بن الأثير: وهو أكثر وأصح ما قيل فيه. والمشهور: جندب بن جنادة بن قيس بن عمرو بن مُلَيل بن صغير بن حَرام بن غفار، وجاء في سنن ابن ماجه عن أبي ذر قال: مر بي النبي ﷺ وأنا مضطجع على بطني فركضني برجله وقال: ((يا جنيدب إنما هذه ضِجْعَةُ أهل النار))[2] قال ابن حجر: فإن صحّ إسناده فهو صريح في أن اسمه جندب، وهو من كبار الصحابة، وفضلائهم، له صحبة ورواية، روى ٢٨١ حديثاً.

وكان أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد أسلم قديماً، يقال أسلم بعد ثلاثة وقيل بعد أربعة، فكان خامساً، ثم انصرف إلى بلاد قومه فأقام بها حتى قدم على النبي ﷺ، ذلك أنّه لما بلغ أبا ذر مبعث رسول الله ﷺ... تزود وحمل شنَّة له فيها ماء حتى قدم مكة... فجاء النبي ﷺ فطاف بالبيت وصلّى ركعتين خلف المقام، قال أبو ذر: فأتيته، فإني لأول الناس حياه بتحية الإسلام، فقلت: السلام عليك يا رسول الله. قال: ((وعليك السلام، من أنت؟))[3] قلت: رجل من بني غفار، فعرض عليَّ الإسلام، فأسلم، وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقال له رسول الله ﷺ: ((ارجع إلى قومك فأخبرهم

(١) رواه الترمذي (١٩٨٧)، وقال: هذا حديث حسن صحيح. ونقل الترمذي عن شيخه في هذا الحديث محمود ابن غيلان أنه قال: والصّحيح حديث أبي ذر أهـ قلتُ: وفيهما انقطاعٌ، وأخرجه ابن حجر في الأمالي المطلقة (ص: ١٣١) بإسناده من طريق الدارمي برقم (٢٧٩٤) ثمّ ذكر له شاهدين وصحّحه. وقال ابن منده في التوحيد (٣٢٨/١): هذا إسناد مشهور، رواه ثقات. أورده المنذري في ترغيبه (٤٦٢٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه ٣٧٢٤، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٠٠١).

(٣) أخرجه مسلم ٢٤٧٣، ١٢٢.

واكتم أمرك عن أهل مكة فإني أخشاهم عليك، فقلت: والذي نفسي بيده لأصرخنَّ بها بين ظهرانيهم، فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فثار القوم إليه فضربوه حتى أضجعوه، وأتى العباس فأكب عليه، وقال: ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار وأن طريق تجارتكم إلى الشام تمر عليهم، وأنقذه منهم))[١]، ثم لحق بقومه فكان هذا أول إسلام أبي ذر رضي الله عنه.

ولما رجع إلى بلاده دعا قومه إلى الإسلام فأسلم بعضهم، ودعا لهم رسول الله ﷺ ولقبيلة أسلم فقال ((غفار غفر الله لها وأسلمُ سالمها الله))[٢] وأقام في قبيلة غفار حتى مضت بدر وأحد والخندق -ومع ذلك كان عمر يلحقه بالبدريين- ثم قدم على النبي ﷺ المدينة فصحبه إلى أن مات، ثم خرج بعد وفاة أبي بكر إلى الشام، فلم يزل بها حتى ولي عثمان، ثم سكن الرَّبَذة[٣]، حتى مات بها، وكان قد شهد فتح بيت المقدس مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد قال النبي ﷺ: ((ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من رجل أصدق لهجة من أبي ذر))، وكان رضي الله عنه ذا علم وافر وأثنى الجميع على علمه، وكان يفتي في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، إذ أنه كان من أوعية العلم المبَرّزين، وعده ابن سعد من الطبقات في أهل العلم والفتوى من أصحاب رسول الله ﷺ.

وكان كريماً لا يخزن من المال قليلاً ولا كثيراً، رأساً في الزهد والصدق والعلم والعمل كما كان قوّالاً بالحق لا تأخذه في الله لومة لائم على حِدَّةٍ فيه.

أما عن صفاته الخَلْقية فكان آدمَ[٤] طويلاً جسيماً -وقيل كان نحيفاً- كث اللحية.

---

(١) أخرجه البخاري ٣٥٢٢، ومسلم ٢٤٧٤، ١٣٣.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٨٠١، وابن ماجه ١٥٦، وصححه الالباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٢٧).

(٣) الرَّبَذة بالراء، وبعدها باء موحدة والذال المعجمة وبالتحريك لها ذكر في أخبار أبي ذر. وكانت قرية عامرة ولكنها خربت سنة ٣١٩هـ بسبب الحروب وتقع في الشرق إلى الجنوب من بلدة الحناكية مائة كيل عن المدينة في الطريق إلى الرياض وبينها وبين مهد الذهب على مسافة ١٥٠ كيلاً. المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، ص ١٢٥.

(٤) الأُدْمة: السُّمْرة، والآدَمُ من الناس الأَسْمر والجمع أُدْمَانَ، مختار الصحاح في (أ د م).

توفي رضي الله عنه بالرّبْذة سنة (٣١) وقيل سنة (٣٢) وعليه الأكثر، وصلى عليه عبدالله ابن مسعود[١].

معاذ بن جبل: هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس أبو عبدالرحمن الأنصاري الخزرجي. أسلم وسنه ١٨ عاماً، وقد شهد العقبة وشهد بدراً والمشاهد كلها.

جمع الله له الهيبة وجمال الشكل وبهاء المنظر وحسن الأخلاق والإمامة في علم الحلال والحرام وقراءة القرآن.

فقد كان طويلاً أبيض وضئ الوجه حسن الثغر أكحل العينين، كان من أجمل الرجال، ولا يسأل شيئاً إلا أعطاه، وكان الصحابة إذا تحدثوا وفيهم معاذ نظروا إليه؛ هيبة له.

أحبّه النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره بحبه، فقال له: يا معاذ والله إني لأحبك والله إني لأحبك[٢].

وقد جمع القرآن في حياة النبي صلى الله عليه وسلم[٣] وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأخذ القرآن منه، فقال صلى الله عليه وسلم: ((خذوا القرآن من أربعة: من عبدالله بن مسعود وسالم ومعاذ وأبي بن كعب))[٤].

وقد شهد له النبي صلى الله عليه وسلم بأنه أعلم الصحابة في الحلال والحرام، فقال: ((وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ))[٥].

---

(١) الطبقات، ابن سعد (٣٥٤/١)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (١١٠-١١٢)، (٨٠٠-٨٠٢)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (٩٦/٦-٩٨)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (١٤٦٦-١٤٦٨)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي (٤٦/٢-٧٨)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (٣٠٣/٨، ٣٠٤)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٥١٩/٤، ٥٢٠)، والأعلام، خير الدين الزركلي (١٤٠/٢)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (٢٠٥٦/٣).

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، وغيره وهو الحديث المذكور في الرياض برقم ٣٨٤ وصححه النووي.

(٣) صحيح البخاري (٥٠٠٣)، ومسلم (٢٤٦٥).

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٩٩) ومسلم (٢٤٦٤).

(٥) أخرجه الترمذي: (٣٧٩٠، ٣٧٩١)، وابن ماجه (١٥٤) وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٢٥).

وقال عمر: من أراد الفقه فليأتِ معاذ بن جبل. وقال مرة: عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ. ولولا معاذ لهلك عمر.

وقد استعمله النبي ﷺ على اليمن ورجع بعد وفاته وكان من أهل مشورة عمر.

ومناقبه كثيراً جداً، ومآثره عديدة، يلخصها قول ابن مسعود: إن معاذاً كان أمة قانتاً لله، إن كنا نشبهه بإبراهيم عليه السلام، إن الأمة الذي يعلم الخير والقانت المطيع لله ولرسول الله ﷺ، وكذلك كان معاذ بن جبل.

نزل حمص بالشام وكانت وفاته بالطاعون سنة ١٨ وقيل سنة ١٧ وعمره أقل من الأربعين[١].

غريب الألفاظ:

أتبع السيئة الحسنة: أتبع الشيء شيئاً: جعله له تابعاً وألحقه به، والمعنى: إذا فعلت سيئة فافعل حسنة وراءها[٢].

تمحها: تذهب بآثارها وتزيلها[٣].

خالق الناس: خالطهم وعاملهم وعاشرهم[٤].

---

(١) الطبقات، ابن سعد (٥٨٣/٣) والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٦٥٠، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (١٨٧/٥) والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ١٢٥٢، والسير (٤٤٣/١)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (١٣٧/٧) وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٩٧/٤)، والأعلام، خير الدين الزركلي (٢٥٨/٧)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (١٧٨٥/٣).

(٢) انظر: الوسيط ٨١.

(٣) انظر: القاموس المحيط، مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي ١٣٣٣، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٦٥٤.

(٤) انظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٦٥٤، اللسان والوسيط في (خ ل ق).

الشرح الأدبي

حين نتأمل صياغة هذا الحديث النبوي الشريف ندرك أنه جاء في قالب الوصية.

وبوارق هذه الوصية تصدر أشعتها الهادية في اتجاهات ثلاثة تحيط بكل ما يحفظ على الإنسان علاقته بربه، وعلاقته بنفسه، وعلاقته بالناس، في ظل رؤية إسلامية راشدة.

- وأول إشعاع من أشعة هذه الوصية نقتبسه من قوله عليه الصلاة والسلام، "اتق الله حيثما كنت" وترد الصياغة اللغوية في أسلوب الأمر، والأمر للوجوب، "اتق الله"، والفعل مشتق من الوقاية: أي يقي الإنسان نفسه من غضب ربه وذلك بامتثال أوامره تعالى واجتناب نواهيه، والتقوى لا تكون أسيرة لحظة أو مكان أو مناسبة، وإنما قال المصطفى ﷺ "حيثما كنت".
- والأسلوب هنا شرطي، والجواب محذوف: أي: "حيثما كنت فاتق الله" وهذه قمة المراقبة والخشية؛ فالكينونة تكون في الزمان والمكان، لأن التقوى لابد أن تخالط كينونة المسلم في كل حرف وكل كلمة وكل حركة وكل زمان وكل مكان؛ لأن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا﴾[1].

والإشعاع الثاني من بوارق هذه الوصية يمثل أفقاً من آفاق الفرج واستمرارية التقوى، وهو الحرص على التوبة والعودة إلى واحة الطاعة وحصن التقوى، وجاء ذلك في أسلوب الأمر وجواب الأمر، وهو يؤكد وجوب هذا المسلك الراشد الذي يتضوأ في هذه الجملة الموجزة التي تحمل المقدمة والنتيجة، والعمل والثواب، (وأتبع السيئة الحسنة تمحها)، والتعبير بـ "تمحها" أكثر تصويراً للموقف والمعنى من تغيرها أو تزلها، وفي هذا اطمئنان لكل من أراد أن يتوب لأن الثواب مضاعف "ويبدل الله سيئاتهم حسنات". والوصية الأخيرة، تمثل الثمرة الحقيقية للتقوى والتوبة وهي ترد في صيغة الأمر الذي يرشد إلى ضرورة إشاعة الخلق الحسن، والعلاقات الحسنة السوية: "وخالق الناس بخلق حسن".

---

(١) سورة النساء، آية: ١.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الحث على تقوى الله.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: حسن الخلق.

رابعاً: من واجبات الداعية: الحرص على مصلحة المدعوين.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر:

جاءت صياغة هذا الحديث الشريف في أسلوب الأمر "اتق الله ... وأتبع السيئة الحسنة ... وخالق الناس..." ولعل ما يفسر استخدام الامر هنا أن هذه المطلوبات الثلاثة مطالب بها كل واحد من المسلمين نظرًا لأهميتها الشديدة ومكانتها السامية، فلا تحتمل تأخيرًا أو تلميحًا، بل يناسبها التصريح والمباشرة، وهذا ما يؤديه الأمر خير أداء.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الحث على تقوى الله:

يظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ "اتق الله حيثما كنت...".

إن التقوى أساس الدين وبها يرتقي إلى مراتب اليقين[1]. وتقوى الله تكون في كل زمان ومكان؛ لأن التقوى من الأمور التي حث عليها الإسلام ورغب فيها وجعلها سبباً لكثير من الخيرات قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾[2].

قال السعدي: (أن تقوى الله وسيلة إلى حصول العلم، وأوضح من هذا قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[3] أي علماً تفرقون به بين الحق والباطل)[4].

---

(١) تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي، المباركفوري ٢/١٦٥٤.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٨٢.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٢٩.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١٠٠.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[1].

قال السعدي: (فكل من اتقى الله، ولازم مرضاته في جميع أحواله يثيبه الله في الدنيا والآخرة، ويسوق له الرزق من وجه لا يحتسبه ولا يشعر به[2]. وغيرها من الآيات التي ترغب في تقوى الله وتبين أنها سبب في تيسير الأعمال وتكفير الذنوب وحصول المطلوب.

كذلك حث النبي على تقوى الله وأمر بها في كثير من أحاديثه منها: ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله من أكرم الناس؟ قال ((أتقاهم))[3] وكان يدعو بها ﷺ ويقول ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى، وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى))[4] وغيره مما حث على تقوى الله وذلك لأن الله وعد المتقين بقوله ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[5]. ولم يزل السلف الصالح يتواصون بها، كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول في خطبته: (أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله، و أن تثنوا عليه بما هو أهله، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[6])[7].

---

(١) سورة الطلاق، الآيتان: ٢-٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٨٠٦.

(٣) أخرجه البخاري، ٣٣٥٣، ومسلم ٢٥٢٦.

(٤) أخرجه مسلم، ٢٧٢.

(٥) سورة القمر، الآيتان: ٥٤، ٥٥.

(٦) سورة الأنبياء، آية: ٩٠.

(٧) الخبر في المصنف لابن أبي شيبة ٢٥٨/١٣، ورواه من طريقه الحاكم في المستدرك ٣٨٣/٢، وأبو نعيم في الحلية ٣٥/١، وصححه الحاكم، ورده الذهبي بقوله: عبدالرحمن بن إسحاق كوفي ضعيف.

ولما حضرته الوفاة، وعهد إلى عمر، فوصَّاه بوصيةٍ، وأول ما قال له: اتق الله يا عمر.

وكتب عمر إلى ابنه عبدالله: أما بعد، فإني أوصيك بتقوى الله عز وجل، فإنه من اتقاه وقاه، ومن أقرضه جزاه، ومن شكره زاده، فاجعل التقوى نصب عينيك وجلاء قلبك.

واستعمل عليٌّ بن أبي طالب رجلاً على سريَّةً، فقال له: أوصيك بتقوى الله الذي لا بدَّ لك من لقائه، ولا منتهى لك دونه وهو يملك الدنيا والآخرة.

وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى رجل: أوصيك بتقوى الله عز وجل التي لا يقبل غيرها، ولا يرحم إلا أهلها، ولا يثيب إلا عليها، فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل، جعلنا الله وإياك من المتقين.

ولما وُلِّي خطب، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: أوصيكم بتقوى الله عز وجل، فإنَّ تقوى الله عز وجل خلفٌ من كل شيء، وليس من تقوى الله خلف.

وقال رجل ليونس بن عبيد: أوصني، فقال: أوصيك بتقوى الله والإحسان. فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

وقال له رجل يريد الحج: أوصني، فقال له: اتق الله، فمن اتقى الله، فلا وحشة عليه.

وقيل لرجل من التابعين عند موته: أوصنا، فقال: أوصيكم بخاتمة سورة النحل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾[1].

وكتب رجل من السلف إلى أخٍ له: أوصيك بتقوى الله، فإنها أكرم ما أسررت، وأزين ما أظهرت، وأفضلُ ما ادَّخرت، أعاننا الله وإياك عليها، وأوجب لنا ولك ثوابها.

وكتب رجل منهم إلى أخ له: أوصيك وأنفسنا بالتقوى، فإنها خير زاد الآخرة والأولى، واجعلها إلى كل خيرٍ سبيلك، ومن كل شر مهربك، فقد توكل الله عز وجل لأهلها بالنجاة مما يحذرون، والرزق من حيث لا يحتسبون.

وقال شعبة: كنتُ إذا أردت الخروج، قلت للحكم: ألك حاجةٌ، فقال: أوصيك بما أوصى به النبي ﷺ معاذ بن جبل: ((اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة

---

(١) سورة النحل، آية: ١٢٨.

تمحها، وخالق الناس بخلق حسن)). وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعائه: ((اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفة والغنى))[١])[٢].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: حسن الخلق:

يظهر ذلك في قوله ﷺ "... وخالق الناس بخلق حسن".

إن حسن الخلق من الموضوعات ذات الأهمية البالغة في الدعوة الإسلامية، وذلك لأن حسن الخلق أساس عظيم من أسس الأخلاق الإسلامية وقد سُئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الجنة؟ فقال: "تقوى الله وحسن الخلق"[٣].

قال السعدي: (حسن الخلق ومكارم الأخلاق تحبب العبد إلى أعدائه، وسوء الخلق ينفر عنه أولاده وأصدقاءه. ومن مزايا حسن الخلق أن صاحبه يتمكن من إرضاء الناس على اختلاف طبقاتهم، كل من جالسه وخالطه أحبه، لا يمله الجليس)[٤].

وكذلك رسول الله ﷺ رغّب في حسن الخلق لأن حسن الخلق ينعكس على الفرد وعلى الجماعة. وقد كان رسولنا الكريم أحسن الناس أخلاقاً وقد رغب ﷺ في حسن الخلق فقال: (أَكْمَلُ المؤمنينَ إيماناً أحْسَنُهُمْ خُلُقاً)[٥] إن رسول الله ﷺ هو القدوة لنا في حسن الخلق وسعة صدره وتلطفه مع الناس ورفقه بهم وحلمه مع جهل عليه وقد زخرت السنة بنماذج عظيمة في حسن خلقه ﷺ وقد سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن خلقه ﷺ فقالت: "كان خلقه القرآن"[٦].

قال ابن رجب: (وقوله: "وخالق الناس بخلقٍ حسن" هذا من خصال التقوى، ولا تتم

---

(١) أخرجه مسلم ٢٧٢١، وفيه العفاف بدل العفة.

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/٤٠٥-٤٠٧.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٠٠٤ وقال الالباني: حسن الإسناد (صحيح سنن الترمذي ١٦٣٠).

(٤) الرياض الناضرة، ص ٧٧، ٧٨.

(٥) أخرجه الترمذي ١١٦٢، وقال الألباني: حسن صحيح (صحيح سنن الترمذي ٩٢٨).

(٦) أخرجه مسلم ٧٤٦.

التقوى إلا به، وإنما أفرده بالذكر للحاجة إلى بيانه، فإن كثيرًا من الناس يظن أن التقوى هي القيام بحق الله دون حقوق عباده، فنصّ له على الأمر بإحسان العشرة للناس، فإنه كان قد بعثه إلى اليمن معلمًا لهم ومفقهًا وقاضيًا، ومن كان كذلك، فإنه يحتاج إلى مخالقة الناس بخلق حسن ما لا يحتاج إليه غيرُه ممن لا حاجة للناس به ولا يخالطهم، وكثيرًا ما يغلب على من يعتني بالقيام بحقوق الله، والانعكاف على محبته وخشيته وطاعته وإهمال حقوق العباد بالكلية أو التقصير فيها، والجمع بين القيام بحقوق الله وحقوق عباده عزيز جدًا لا يقوى عليه إلا الكمل من الأنبياء والصديقين.

وقال الحارث المحاسبي: ثلاثة أشياء عزيزة أو معدومة: حسن الوجه مع الصيانة، وحسن الخلق مع الديانة، وحسن الإخاء مع الأمانة.

وقال بعض السلف: جلس داود عليه السلام خاليًا، فقال الله عز وجل: مالي أراك خاليًا؟ قال: هجرت الناس فيك يا رب العالمين، قال: يا داود ألا أدلك على ما تستبقي به وجوه الناس، وتبلغ فيه رضاي؟ خالق الناس بأخلاقهم، واحتجز الإيمان بيني وبينك.

وقد عدَّ الله في كتابه مخالقة الناس بخلق حسن من خصال التقوى، بل بدأ بذلك في قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(١).

وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن سعيد المقبري قال: بلغنا أن رجلاً جاء إلى عيسى بن مريم عليه السلام، فقال: يا معلم الخير، كيف أكون تقيًا لله عز وجل كما ينبغي له؟ قال: بيسير من الأمر: تحبُّ الله بقلبك كله، وتعمل بكدحك وقوتك ما استطعت، وترحم ابن جنسك كما ترحم نفسك، قال: من ابن جنسي يا معلم الخير؟ قال: ولدُ آدم كلهم، وما لا تحب أن يؤتى إليك، فلا تأته لأحدٍ وأنت تقي لله عز وجل كما ينبغي له.

وقد جعل النبي ﷺ حسن الخلق أكمل خصال الإيمان، كما خرج الإمام أحمد

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٣٣، ١٣٤.

وأبو داود من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ((أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا)) وخرجه محمد بن نصر المروزي، وزاد فيه: ((وإن المرء ليكون مؤمنًا وإنَّ في خلقه شيئًا فينقُصُ ذلك من إيمانه)).

وخرّج أحمد وأبو داود النسائي وابن ماجه، من حديث أسامة بن شريك قال: قالوا يا رسول الله، ما أفضل ما أعطي المرء المسلم؟ قال: ((الخلق الحسن)).

وأخبر النبي ﷺ أن صاحب الخلق الحسن يبلُغُ بخلقه درجة الصائم القائم لئلا يشتغل المريد للتقوى عن حسن الخلق بالصوم والصلاة، ويظن أن ذلك يقطعه عن فضلهما، فخرج الإمام أحمد وأبو داد من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: ((إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجات الصائم القائم)).

وأخبر أن حسن الخلق أثقل ما يوضع في الميزان، وأن صاحبه أحب الناس إلى الله وأقربهم من النبيين مجلسًا، فخرج الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي من حديث أبي الدرداء، عن النبي ﷺ، قال: ((ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة)). وخرج ابن حبان في "صحيحه" في حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "ألا أخبركم بأحبكم إلى الله وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة؟" قالوا: بلى، قال: "أحسنكم خلقًا".

رابعاً- من واجبات الداعية: الحرص على مصلحة المدعوين:

إن من أهم ما يجب على الداعية القيام به، وعدم الغفلة عنه، هو الحرص على نفع المدعوين وتوجيههم إلى ما فيه نفعهم، مثل: أمره بتقوى الله في كل حال، وفعل الحسنات والتخلق مع الناس بالأخلاق الحسنة، وتذكير المدعوين بما يجب عليهم نحو ربهم من تقواه ومراقبته والخوف من عقابه وتذكيرهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1]. وكذلك حثهم على كسب الحسنات، والبعد عن الذنوب والمعاصي.

---

(١) سورة الحجرات: آية ١٣.

وكذلك ما يجب عليهم نحو إخوانهم من حسن الخلق وذلك لأن الإسلام ربط بين تقوى الله وحسن الخلق فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الجنة فقال ((تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ))[1] إن من أوجب الواجبات على الداعية حث المدعوين على تقوى الله تعالى، والتزود منها، نظرًا لعموم نفعها في الدنيا والآخرة ولحاجة كل مسلم إلى ذلك، وحاجته أيضًا للأخلاق الحسنة التي تؤهله إلى أعلى المنازل يوم القيامة.

(١) أخرجه الترمذي ٢٠٠٤، وقال الألباني: حسن الإسناد (صحيح سنن الترمذي ١٦٣٠).

الحديث رقم (٦٢)

٦٢- الثَّالثُ: عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: «كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ يوْماً فقال: «يا غُلامُ إنِّي أُعلِّمكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّه، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، واعلَمْ: أَنَّ الأُمَّةَ لَو اجتَمعتْ عَلَى أَنْ ينْفعُوك بِشيْءٍ، لَمْ يَنْفعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَد كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوك بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قد كَتَبَهُ اللَّه عليْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ، وجَفَّتِ الصُّحُفُ». رواهُ التِّرمِذيُّ وقَالَ: حديثٌ حسنٌ صَحيحٌ[1].

وفي روايةِ غيرِ التِّرْمِذيِّ: «احفظَ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يعرِفْكَ فِي الشِّدةِ، واعْلَمْ أَنّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لمْ يَكُن لِيُخْطِئَكَ واعْلَمْ أنّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وأَنَّ مَعَ الْعُسرِ يُسْراً»[2].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

رفعت الأقلام وجفت الصحف: أي كتب في اللوح المحفوظ ما كتب من التقديرات ولا يكتب بعد الفراغ منه شيء آخر، فعبر عن سبق القضاء والقدر برفع القلم وجفاف الصحيفة بعد فراغ الكاتب من كتابته[3].

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦). قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس (١/٦٠): وقد روي هذا الحديث عن ابن عباس من طرق كثيرة من رواية ابنه علي، ومولاه عكرمة، وابن أبي مليكة وغيرهم، وأصحّ الطرق كلها طريق حنش الصنعاني التي أخرجها الترمذي، كذا قاله ابن منده وغيره.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٩/٢٣١)، والحاكم في المستدرك (٤/٥٤٢). قال السخاوي في المقاصد (ص: ١٥٧): ومن طريق الطبراني أورده الضياء في المختارة، وهو حسنٌ.

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ر ف ع)، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٩٤٦.

الشرح الأدبي

- تكمن عظمة منهج الإسلام التربوي في أنه يستند في أساسه على العبادة بمعناها الواسع الشامل، وعلى الصلة الدائمة بالله، فالتربية على أساس العبادة تزود الإنسان دائماً بشحنات متتالية من القوة، وهي مستمدة من قوة الله عز وجل، ولقد وضح الدين الإسلامي أن للعبادة دوراً رئيساً في حياتنا وسلوكنا، وأن هذه العبادة ليست مجرد شعائر تؤدى فحسب، بل إن لها كذلك دورًا إيجابيًا مهمًا في تكوين شخصية الفرد وصقلها: والمفهوم الصحيح للعبادة هو ما أوضحه شيخ الإسلام ابن تيمية عندما سئل عن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾[1]، فأجاب رحمة الله: بأن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالعبادة تشمل الفرائض التعبدية كما تشمل حسن المعاملة والوفاء بحقوق العباد والأخلاق والفضائل الإنسانية كلها من صدق الحديث وأداء الأمانة والوفاء بالعهود[2].
- وانطلاقاً من هذا المفهوم المتسع للعبادة والسلوك الإسلامي تجئ هذه الوصايا المشرقة في هذا الحديث الشريف والمصطفى ﷺ يتوجه بها في أسلوب تربوي تعليمي إلى عبدالله بن عباس وهو غلام في سن العاشرة وكان قد أردفه خلفه على دابته. وقيل: إن هذه الوصايا الجامعة الرفيعة المقدار، الجامعة من العلوم والمعارف ما يفوق الحصر، فيها دليل على أنه ﷺ علم ما يؤول إليه أمر ابن عباس من العلم والمعرفة وكمال الأخلاق وحسن الأحوال.
- وهذه الوصايا المحكمة تؤكد اهتمام الإسلام بالطفولة، وحرص النبي ﷺ على غرس القيم الإسلامية في نفوس الناشئة، وقد ضرب المثل،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٤٩/١٠.

وأعطى الأسوة الحسنة في تعليمه لابن عباس، وقال له: "إني أعلمك كلمات ..." الحديث.

وعنايةً من الإسلام بمستقبل الطفل أمر الآباء بحسن رعاية أبنائهم والقيام على تربيتهم وفق مفاهيم الإسلام، وأرشد الآباء إلى ضرورة إكساب الطفل المهارات والقدرات التي تجعله رجلاً قوياً ثابتاً متزناً في كل خطواته وتحركاته وأقواله وأفعاله.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث النبوي الذي يعد وثيقة تربوية تعليمية يتأسى بها علماء التربية وهم يخططون لثقافة الطفل وتربيته وتنشئته على أسس صحيحة.

- ورواية الحديث على لسان ابن عباس رضي الله عنهما: ترشد إلى الطريقة التربوية التي كان يعامل بها النبي ﷺ أصحابه وأبناء الصحابة وهى الملاطفة والحرص على تقديم النصيحة في أي وقت حتى وقت ركوب الدابة، وفي ذلك عدم تضييع الوقت، ولكن يجب استغلال كل دقيقة في النصح والتعليم.
- والنداء في قوله ﷺ: "ياغلام" فيه إيناس وتنبيه إلى أهمية ما بعد هذه النداء، والنداء بحرف الياء للإشعار بمزيد من الاهتمام والانتباه، وكذلك لم يحدد اسم الغلام مع أنه معروف وذلك للإشعار بأن هذه الوصايا ليست خاصة بابن عباس وإنما هى موجهة إلى كل من في مثل سنه وإلى كل مسلم بصفة عامة، والحديث -كما يقول العلماء- أصل عظيم في مراقبة الله ومراعاة حقوقه، والتفويض لأمره، والتوكل عليه، وشهود توحيده وتفرده، وعجز الخلائق كلهم وافتقارهم إليه[1].

والتأكيد في قوله: "إني أعلمك كلمات" يرشد إلى أهمية هذه الكلمات القليلة التي يسهل حفظها، وتحديد مصطلح "التعليم" فيه إيذان بوجوب هذا الأمر على كل مسؤول وعالم وأب بأن يتولى مسؤولية تعليم الأبناء وإرشادهم إلى الطريق الصحيح. وقوله "كلمات" في هذه الصيغة المنكرة للإيحاء بقلتها وسرعة حفظها، وذلك من باب الترغيب الذي يوائم العمر الزمني وحاجات الطفولة للتيسير، والتكرار في كثير من

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١/ ٢٠٠.

جمل الحديث وكلماته له وظيفة تأثيرية تناسب جو الطفولة، لأن الغلام في هذه السن يحتاج إلى توضيح وتفصيل، والحديث في روايتيه يتكون من عشرة وصايا وفيها يتكرر كثير من الكلمات والجمل، وتتقارب المعاني وتتقابل في هذه الوصايا التربوية الأخلاقية الرائعة.

"احفظ الله يحفظك" هذه الوصية من جوامع كلمه ﷺ، فقد جمعت سائر أحكام الشريعة قليلها وكثيرها، وهي صيغت في قالب الأمر وجوابه، وألفاظها قليلة، ومعانيها كثيرة مترامية، وليس بها لفظ غريب، ولا تركيب ملتوٍ غامض، ولا أسلوب معقد ، وإنما هى تسطع وتتوهج كالشمس في كبد السماء.

"احفظ الله تجده تجاهك"، وهنا يتكرر فعل الأمر، "احفظ الله"، وهو ملازمة تقوى الله، وفي ذلك صلة وتواصل مع الحديث السابق: "اتق الله حيثما كنت". والوصية السابقة كانت للرجال، أما هذه الوصايا فهي للغلام الذي يعد لرجولة كاملة في ظل تعاليم الإسلام، والتعبير بقوله: "تجده تجاهك" أي: تجده معك بالحفظ والإحاطة والتأييد والإعانة.

والوصية الثالثة: "إذا سألت فاسأل الله"، وهذه الوصية في صيغة الشرط والجزاء، وأداة الشرط "إذا" وهى للتحقق، ويرشد ذلك إلى أن الله يحقق للعبد السائل المخلص رجاءه وسؤاله، وكذلك تربي هذه الوصية المسلم على الشجاعة وعدم إراقة ماء الوجه أمام أي مخلوق.

والوصية الرابعة: وهى الاستعانة لا تكون إلا بالله، في ظل سؤال الله الخالص من كل شائبة من الشرك والظنون والأوهام، وتكرار لفظ الجلالة أربع مرات في هذه الوصايا، يؤكد ثبات عقيدة المسلم واطمئنانه إلى حفظ الله وإجابته وإعانته في كل أموره الخاصة والعامة في دنياه وآخرته.

والوصية الخامسة: تغلفها عدة ظواهر أسلوبية ومنها الأمر والتأكيد والشرط والقصر، وهي تؤكد بهذه الأساليب أن النفع لا يكون إلا من الله، ولذلك يجب أن لا يتوهم الإنسان نفعاً خالصاً من أحد، والتعبير بـ"لو" يدل على أن النفع الجماعي من

البشر مستحيل ويكون عدمًا هباء، إذا أراد الله سبحانه وتعالى غيره وقدّر سواه.

والوصية السادسة: تجيء متوازية ومتوازنة في أسلوبها مع الوصية السابقة: ولكن تتغير أداة الشرط وهي "إنْ" لأن وقوع الضرر من الممكنات البشرية، والنفس أمارة بالسوء، وقيل: إن اجتماع الناس على الإمداد والنفع من المستحيلات بخلاف اجتماعهم على الأذى فإنه ممكن. وبين الوصيتين مقابلة أسلوبية وتضاد في المعنى، وهذا التضاد كان من أسباب تغير أداة الشرط، والتضاد بين "لك" و"عليك" يشير إلى ثمرة كل من الوصيتين.

- وبقية الوصايا في الرواية الثانية تحصنها عدة ظواهر أسلوبية مثل الأمر والتكرار والطباق والمقابلة لتأكيد المراد.

المضامين الدعوية

أولاً: من واجب الدعاة: الاهتمام بالموهوبين وأصحاب العبقريات من صغرهم.

ثانيًا: من الحلول الدعوية العملية لمشاكل التعليم: استخدام الوسائل المتاحة.

ثالثًا: من المهام الدعوية: الحرص على الجمع بين المعلم المتقن والطالب المُجِدّ:

رابعًا: من أساليب الدعوة: النداء والأمر.

خامسًا: من صفات الداعية: الحرص على نفع المدعوين.

سادسًا: من وسائل الدعوة: التعليم.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: الالتجاء إلى الله تعالى، وسؤاله سبحانه.

ثامنًا: من موضوعات الدعوة: بيان أن الأمور تجري بقدر الله.

تاسعًا: من موضوعات الدعوة: حسن الصلة بالله.

- عاشرًا: من موضوعات الدعوة: أهمية اليقين في الله.

أولاً- من واجب الدعاة: الاهتمام بالموهوبين وأصحاب العبقريات منذ صغرهم:

إن النبي ﷺ يعرف عبقرية ابن عباس وموهبته وكيف لا وهو الذي دعا له "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل". لذلك حرص النبي ﷺ أن يردفه خلفه على دابته وأن يخصه بهذا الدرس العلمي الجامع النافع.

ثانيًا- من الحلول الدعوية العملية لمشاكل التعليم: استخدام الوسائل المتاحة:

استخدام الوسائل المتاحة: فقد جعل النبي ﷺ من ظهر الدابة فصلاً مدرسيًا متنقلاً، مما يوجب على الدعاة توظيف الوسائل المتاحة في كل بيئة للتعليم والدعوة وفي ذلك تيسير عملية التعليم واستغلال الأوقات التي لا تمر دون فائدة.

ثالثًا- من المهام الدعوية: الحرص على الجمع بين المعلم المتقن والطالب المُجِدُّ:

حيث كان المعلم رسول الله ﷺ وكان الطالب عبدالله بن عباس وإذا توفر للتعليم ذلك وللدعوة خطت الأمة خطوات عظيمة نحو التقدم.

رابعًا- من أساليب الدعوة: النداء والأمر:

أ- النداء: يعد النداء من الأساليب الدعوية التي لا يستغني الداعية عن الإفادة منها في الدعوة، وقد ورد النداء في هذا الحديث في قوله ﷺ "يا غلام" و(يا) النداء تستعمل لنداء البعيد حقيقة، أو حكماً، ولكن تستعمل مع القريب للتوكيد، وللتنبيه[1]. وهذا ما فعله النبي ﷺ مع ابن عباس في قوله (يا غلام) لشد انتباهه، وتأكيداً لأهمية النصيحة التي سوف يذكرها له.

ب- الأمر: وهو من الأساليب الدعوية المهمة لأنه يدل على أهمية الموضوع، وحرص الداعية على طلبه، ويشعر المدعو بضرورة الاستجابة لهذا الأمر لأهمية المأمور به، وذلك لأن الأمر بالشيء أمر بجميع ما لا يتم الشيء إلا به، وهذا ذكره السعدي[2] في تفسير قوله تعالى: ﴿وأمر أهلك بالصلاة﴾ ورسول الله ﷺ استخدم أسلوب الأمر في أكثر من موضع في هذا الحديث "احفظ الله... فاستعن بالله.. وأعلم أن الأمة... تعرَّف إلى الله..." وهذا يدل على حرص النبي ﷺ على تأكيد الأمر على ابن عباس.

---

(١) انظر: القاموس المحيط، مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي ص ١٣٥٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن اللويحق ص ٤٦٦.

خامسًا- من صفات الداعية: الحرص على نفع المدعوين:

من صفات الداعية الحرص على نفع المدعوين ويستنبط هذا من مجموع الوصايا التي أوصى بها ﷺ ابن عباس رضي الله عنهما في هذا الحديث والتي تبين ما اتصف به النبي ﷺ من حرص على نفع المدعو من خلال جملة الوصايا التي عهد بها إليه والتي تؤكد على أهمية تأسي كل داعية بالنبي ﷺ وحرصه على نفع المدعوين.

قال ابن رجب: (هذا الحديث يتضمن وصايا عظيمة وقواعد كليّة من أهم أمور الدين)[1]. إن هدف الداعية حب الخير للمدعوين، إذ أن حقيقة الدعوة حب الخير للغير، والحرص على تحقيق المصلحة له، وظهور هذا الحرص يجعل الدعوة محل قبول وامتثال، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2]. وحرص الداعية على نفع المدعوين وتحقيق الخير لهم يجعل القلوب تلتف حوله ويقبلون دعوته[3].

سادسًا- من وسائل الدعوة: التعليم:

يعتبر التعليم من أهم الوسائل الدعوية وذلك لأن التعليم هو الذي ينقل الدعوة من الداعية إلى المدعو وكذلك ينقل العلم من جيل إلى جيل عن طريق التعليم وقد جعل الإسلام رفعة الإنسان بالعلم قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[4].

وكان التعليم وسيلة دعوة ابن عباس حيث علّمه رسول الله ﷺ من خلالها جملة من الحقائق المفيدة له وهي: حفظ نفسه من المعاصي من أجل أن يحفظه الله، وكذلك الالتجاء إليه، وسؤاله، والاستعانة به، وترك غيره، والاعتماد على الله وحده، وإخلاص

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/٤٦٢.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٣) انظر: النصيحة وموقعها من أسلوب الحكمة، الباز: محمد عبدالفتاح الدميري، ص ٦١، ٦٢.

(٤) سورة المجادلة: آية ١١.

العبودية لله تعالى، لذا كان من اللازم للداعية أن يفيد من هذه الوسيلة الدعوية التي جاءت في صورة وصايا عظيمة من النبي لابن عباس رضي الله عنهما وللأمة من بعده.

سابعًا- من موضوعات الدعوة: الالتجاء إلى الله تعالى:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله".

قال ابن رجب: (واعلم أن سؤال الله تعالى دون خلقه هو المتعين لأن السؤال إظهار الذل من السائل، والمسكنة والحاجة والافتقار، وفيه الاعتراف بقدرة المسؤول على دفع هذا الضرر وجلب المنافع ... ولا يصلح الذل والافتقار إلا لله وحده، لأنه حقيقة العبادة... وأما الاستعانة بالله دون غيره من الخلق، فلأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه، ودفع مضاره، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل فمن أعانه الله فهو المعان ومن خذله فهو المخذول وهذا معنى قول (لا حول ولا قوة إلا بالله)[1].

يظهر هذا من قوله ﷺ "واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك..." قال ابن رجب المراد أن ما يصيب العبد في دنياه مما يضره أو ينفعه، فكله مقدّر عليه، ولا يصيب العبد إلا ما كتب من ذلك في الكتاب السابق، ولو اجتهد على ذلك الخلق كلهم جميعاً[2].

وقد دل القرآن على مثل هذا في قوله عز وجل: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾[3]، وفي ذلك تقوية لعقيدة المؤمن، وزيادة في إيمانه، مما يدفع الوساوس والمخاوف التي تسيطر على الإنسان في حياته، وتجعله يخضع لمخلوق مثله، يتملقه وينافقه، ويطلب رضاه، ويخشى غضبه إلى غير ذلك من الأمور التي يتوجس المؤمن من عواقبها، إلا أن يقين المؤمن بأن الأمور تجري بقدر الله يحرره من كافة المخاوف، ويجعله يقبل على الحياة باطمئنان وثقة، لا يرجو إلا فضل الله تعالى.

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٤٨١، ٤٨٢.

(٢) المرجع السابق ٤٨٣، ٤٨٤.

(٣) سورة التوبة: آية ٥١.

تاسعًا- من موضوعات الدعوة: حسن الصلة بالله:

يستنبط هذا من عموم الحديث ويتحقق حسن الصلة بالله بحفظ أوامره واجتناب نواهيه وذكر الله ومعرفته في الصحة والرخاء فإذا اتقى العبد الله وحفظ حدوده وراعى حقوقه في حال رخائه وصحته كانت صلته بالله قوية ولا يلجأ إلى الله في شيء إلا أعطاه إياه. قال رسول الله ﷺ: ((إن اللَّهَ تعالى قال: ... وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افتَرَضْته عليه. وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحبه، فإذا أحبَبته كنت سمعه الذي يسمع به وبَصرَه الذي يبصر به ويدَه التي يبطِش بها. ورجله التي يمشي بها، وإنْ سألني لأَعطينه، ولئن استعاذني لأعيذَنه))[1].

عاشرًا- من موضوعات الدعوة: أهمية اليقين في الله:

يظهر هذا من دعوته ﷺ إلى الصبر على الشدائد والرضا بالقضاء في قوله ﷺ: "واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك فمهما يصيب المسلم من شدة وكرب فلابد أن يكون على يقين في أن هذا الأمر فيه خير له وأن هذا البلاء سوف يزول ويفرج الله عنه الكرب ويجعل له من أمره يسراً، واليقين يعين العبد على أن ترضى نفسه بما أصابه.

(وتظهر حقيقة اليقين بالله في مراحل الضعف؛ إذ ليس صاحب اليقين من تنفرج أساريره وينشرح صدره، ويتهلل وجهه حين يرى قوة الإسلام وعزة أهله، وبشائر نصره، وإنما يكون اليقين لصاحب الثقة بالله مهما حلك الظلام، واشتد الضيق، واجتمعت الكروب، وتكالبت الأمم؛ لأن أمله بالله كبير ويقينه بأن العاقبة للمتقين، وأن المستقبل لهذا الدين)[2].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٥٠٢.

(٢) هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقاً، محمود محمد الخزندار ص ٣٥.

الحديث رقم (٦٣)

٦٣- الرَّابعُ: عنْ أَنَس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: «إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالاً هِيَ أَدقُّ في أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعَرِ، كُنَّا[1] نَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ رسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْمُوبِقاتِ» رواه البخاري[2].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

أدق: أصغر[3].

الموبقات: الذنوب المهلكات[4].

الشرح الأدبي

- إن المسلم يجب أن يتحلى بخلق المراقبة، ويجب أن يرقى إلى مقام الإحسان في العبادة، فالإحسان كما حدده جبريل في حواره مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[5]، وهذا التوجه هو السر في إدراج هذا الحديث في باب المراقبة، لأن المؤمن عليه أن لا يستهين بأي أمر فيه أدنى مخالفة أو شبهة تقدح في عقيدته أو سلوكه، حتى يظل قلبه مضيئاً بنور التقوى والخشية والورع والصلة الدائمة بالله عز وجل؛ ولنتساءل: ماذا في صيغة هذا الحديث من كلام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ إن الحديث رواه البخاري وهو من لفظ "أنس بن مالك" رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ولكنه يتفق في معناه مع كثير من أحاديث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومع كثير من الأمور التي أقرها

---

(١) عند البخاري زيادة: (إن كنا).

(٢) برقم (٦٤٩٢). أورده المنذري في ترغيبه (٣٦٤٣).

(٣) انظر: الوسيط في (د ق ق).

(٤) رياض الصالحين ٧٤، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثيري (و ب ق).

(٥) أخرجه البخاري ٥٠، ومسلم ٩.

المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ولنتأمل الظواهر الأسلوبية والفنية التي تبرز جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الذي رواه البخاري.

- وأول ظاهرة تدعونا إلى التأمل والتفكر هي الخطاب الجمعي الذي ورد في أسلوب التوكيد الموجه من أنس الراوي الأعلى، إلى المتساهلين في الأعمال الذين يستهينون بكثير من الصغائر، وهذا الخطاب الجمعي يوحي بأن هذا السلوك سينتشر بين أفراد الأمة، ولذلك يحذر منه أنس عن طريق الإيحاء بقوله: "كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات" أي: المهلكات.

واقتران الفعل "تعملون" باللام زيادة في التوكيد والتنبيه على خطورة هذا السلوك الذي يستهين ببعض الأعمال المخالفة، ومجيء الفعل "تعملون" في صيغة المضارع يوحي باستمرار اقتراف هذه الأعمال، ومن ثم يكون الاعتراض الضمني على ذلك، وتنكير لفظ "أعمالاً" يوحي بشيوع هذا السلوك وكثرته، وكذلك يوحي بعدم إحساس الناس بخطورة هذه الأعمال وأثرها الضار على سلامة عقيدة المسلم وسلامة منهجه في الحياة وهو لا يأبه بنتائج هذه الأعمال غير المرضية.

وتصوير الأعمال بأنها أدق في الأعين من الشعر للمبالغة في عدم إحساس الناس بأضرارها فهي لا تكاد تحس، ولا يكاد يشعر القائمون بها بمدى ضررها لظنهم أنها من المباحات أو من "المسكوت عنه" وهم لا يدركون أنها من الشبهات، ومن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، وتأمل قوله: "كنا نعدها على عهد رسول الله من الموبقات"، فالتعبير بالفعل "كنا" في صيغته الجمعية يدل على أن هذا كان سلوكاً عاماً عند الصحابة وذلك لكمال الخشية الناشئة عن كمال المعرفة[1].

والتعبير بالفعل "كنا" في هذه المادة اللغوية يوحي كذلك بالتحسر على قيمة الورع والخشية التي كادت تضيع في سياق السلوكيات التي تستهين بصغائر الأمور ولا تتقي الشبهات.

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٧١.

ولفظ: "الموبقات" يعطي دلالة الهلكة، والهلاك هو صفة جامعة لكل أنواع الخسران في الحياة الدنيا والآخرة وتقول العرب: وبقت الإبلُ في الطين إذا وحلت فنشبت فيه، فالصغائر تغرق الإنسان في الذنوب، والموبقات هي الذنوب المهلكات.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانياً: من تاريخ الدعوة: الدعوة في العهد المدني.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: الترهيب من استصغار الذنوب.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: بيان ورع الصحابة رضي الله عنهم.

خامساً: من واجبات الداعية: الحرص على مصلحة المدعوين.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

ورد أسلوب التوكيد في هذا الحديث في قوله (إنكم لتعملون...) وقد استعمل التوكيد هنا لبيان أن الأعمال التي كان الناس يأتونها بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي أدنى من الشعر في أعينهم، كان الصحابة رضي الله عنهم يعدونها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات. وقد أفاد التوكيد هنا بيان تلك الحالة التي كان عليها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الورع والخشية لله تعالى، وشدة المراقبة لأنفسهم.

ثانياً- من تاريخ الدعوة: الدعوة في العهد المدني:

يظهر هذا في قول أنس رضي الله عنه: "... كنا نَعُدُّها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ...".

والعهد المدني هو بداية الدولة الإسلامية وبداية تكوين مجتمع له نظمه، وتشريعاته العظيمة أما العهد المكي فهو عهد تربية وإعداد، وقد ربى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه رضي الله عنهم، واستطاع أن يصوغ منهم مجتمعًا يطبق شرع الله، ويعمل على نشر الإسلام، وإقامة دولته التي كانت نواتها الأولى في المدينة النبوية، وكان يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة.

فحينما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم بدأت الدعوة في العهد المدني، واستمرت عشر سنين، خاض فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أشهر غزوات الإسلام، وقاد

أصحابه من نصر إلى نصر، ومن فتح إلى فتح، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، والتفوا حول نبيهم ومعلمهم، وإمامهم وقائدهم ﷺ يفدونه بأرواحهم، ويؤثرونه على أنفسهم، وكان يفيض عليهم من بره ورحمته وعطفه ورأفته[١].

فمجتمع المدينة كان مجتمعاً مثالياً، تسوده الفضيلة، ويطبق شرع الله، لا مكان فيه إلا لحب الله ورسوله، ونصرة دين الله.

فالعهد المدني عهد مجتمع له نظمه، وتشريعاته العظيمة، فمن نظمه: ذلك الإخاء الإسلامي الذي قام بين المهاجرين والأنصار، وهو أعجب نظام اجتماعي عرفته البشرية.

ومن تشريعاته ما أذن به الحق سبحانه وتعالى للمؤمنين من قتال المعتدين ومحاربة المعاندين الظالمين، فكان في ذلك تأمين لحرية الدعوة ودفع للعدوان ومنع للفتنة في الدين.

ولم يكن تشريع الجهاد قاعدة من قواعد نشر الدعوة إلى الله وتبليغ الرسالة، وإنما كان علاجاً لمرض فجور الكفر وعتو العناد عند المشركين[٢].

لقد استطاع النبي ﷺ أن ينطلق بالدعوة الإسلامية في العهد المدني وأن يبعث بأصحابه رضي الله عنهم إلى البلدان والأمصار، وأن يرسل الرسائل والكتب إلى الملوك والقياصرة، وكان العهد المدني عهد ازدهار وانتشار للدعوة الإسلامية.

ثالثاً- من أساليب الدعوة: الترهيب من استصغار الذنوب:

إن من أساليب الدعوة: الترهيب، وفي هذا الحديث ترهيب من استصغار الذنوب لأن استصغار الذنوب سوف يؤدي بالإنسان إلى المهالك، ولأن الأصل في الإسلام أن الإنسان محاسب على كل شيء صغيراً كان أم كبيراً، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[٣] وعن عبدالله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال: ((إِيَّاكُمْ ومُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ

---

(١) انظر: الأسلوب النبوي في الدعوة، د. الشريف حمدان راجح الهجاري ص ٥٣٤.

(٢) المرجع السابق ٥٣٤.

(٣) سورة الزلزلة: آية ٨.

فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلاً كمثل قوم تركوا أرض فلاة فحقر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادًا فأججوا نارًا، وأنضجوا ما قذفوا فيها))[١].

وقال ابن بطال: المحقرات إذا كثرت صارت كباراً مع الإصرار، وعن أبي أيوب الأنصاري قال: ((إن الرجل ليعمل الحسنة فيثق بها وينسى المحقرات فيلقى الله وقد أحاطت به، وإن الرجل ليعمل السيئة فلا يزال منها مشفقًا حتى يلقى الله آمناً))[٢].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: بيان ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من المراقبة لأنفسهم:

يظهر ورع الصحابة رضوان الله عليهم في قول أنس: "... كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات" أي من المهلكات وهذا لا عجب فيه فإن صحابة رسول الله ﷺ أفضل الأمة إيماناً وخلقاً وتمسكاً بالحق وطلباً لرضاء الله عز وجل وقد قال في حقهم رسول الله ﷺ ((خيرُ النّاسِ قَرني...))[٣]؛ لأنهم كانوا ينهلون من معين رسول الله ﷺ، كان القرآن ينزل على النبي ﷺ، فيتلوه عليهم، وكانوا يزنون أنفسهم بميزان الإسلام، يدققون في أعمالهم، ويحاسبون أنفسهم محاسبة شديدة.

خامساً- من واجبات الداعية الحرص على مصلحة المدعوين:

إن من الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها الداعية حرصه على مصلحة المدعوين وأن يبين لهم حقيقة أفعالهم فإذا كانت خيراً أثنى عليه وإذا كانت شراً نهى عنه وهذا ما فعله الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه عندما رأى الناس لا يتهاونون في بعض الأمور العظيمة، قال ابن عثيمين: (أنس بن مالك من المعمرين، فبقي بعد النبي ﷺ حوالي تسعين سنة، فتغيرت الأمور في عهده رضي الله عنه، واختلفت أحوال الناس وصاروا يتهاونون في بعض الأمور العظيمة في عهد الصحابة رضي الله عنهم)[٤].

---

(١) مسند أحمد ٤٠٣/١ رقم ٣٨١٨ وقال محققو المسند حسن لغيره.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٣٣٧/١١.

(٣) أخرجه البخاري ٣٦٥١، ومسلم ٢٥٣٣.

(٤) شرح رياض الصالحين ٢٣٥/١.

الحديث رقم (٦٤)

٦٤- الْخَامِس: عَنْ أبي هريْرَةَ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: ((**إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى، أنْ يَأْتِيَ الْمَرْءُ**[١] **مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ**[٢])) متفقٌ عليه[٣].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

الغيرة: الأَنَفَةُ[٤]، وقال ابن حجر: (هي في اللغة تغير يحصل من الحمية والأنفة)[٥].

الشرح الأدبي

- ما أجمل حياة المؤمن وهي تخطر في بساتين الطاعة، وهي تذوق حلاوة ثمار الإيمان وما أرقى السلوك الإنساني الدائر في فلك التصور الإسلامي، والأفق الإيماني؛وهذا السلوك يستجيب دائماً في حركته الحياتية وفي كل أقواله وأفعاله إلى نداء الحق سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلاً﴾[٦].

- وفي ضوء هذا السلوك الإيماني يتوجه هذا الحديث الشريف في مفهومه إلى هؤلاء الذين ينأون عن مقتضيات السلوك الصحيح في ظل الإسلام، ومنطوق الحديث الشريف يصرح بذلك حين يقول المصطفى ﷺ في أسلوب توكيدي. "إن الله تعالى يغار"، وفي رواية أخرى: و"المؤمن يغار".

---

(١) لفظ البخاري ومسلم: (المؤمن).

(٢) زيادة (عليه) عند مسلم.

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٢٣) واللفظ له، ومسلم (٢٧٦١/٣٦). أورده المنذري في ترغيبه (٣٤٥٣).

(٤) رياض الصالحين ٧٤.

(٥) فتح الباري، ابن حجر ٧٣١/١.

(٦) سورة الأحزاب، الآيتان: ٤١، ٤٢ .

- وفي ذلك بيان لأهمية ابتعاد المؤمن عن محارم الله تعالى، والحرص على فعل الطاعات وتحقيق مرضاة الله، والتوبة والإنابة إلى الله تعالى.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: إثبات الغيرة لله.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: مراقبة الله تعالى، واجتناب ما حرّمه سبحانه.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

يعد التوكيد من الأساليب الدعوية التي يستخدمها الداعية في تثبيت أمر من الأمور في ذهن المدعو، وقد استخدم النبي ﷺ التوكيد هنا لإثبات غيرة الله تعالى عند إتيان المرء ما حرم الله عليه. ويظهر أسلوب التوكيد في قوله ﷺ: "إن الله تعالى يغار..." حيث أكد ثبوت الغيرة لله تعالى.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: إثبات الغيرة لله تعالى:

ورد في هذا الحديث إثبات صفة الغيرة لله تعالى: "إن الله تعالى يغار" كما وردت في غير ذلك من الأحاديث، فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا ((لا أحد أغير من الله، ولذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحبّ إليه المدح من الله))[1]، وعن عائشة رضي الله عنها مرفوعًا: ((يا أمة محمد، ما أحد أغير من الله أن يرى عبده أو أمته تزني، يا أمة محمد، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا))[2] وعن أسماء رضي الله عنها مرفوعًا: ((لا شيء أغير من الله))[3] قال ابن عثيمين عن حديث الباب: (وفي هذا الحديث إثبات الغيرة لله تعالى، وسبيل أهل السنة والجماعة فيه وفي غيره من أحاديث الصفات وآيات الصفات، أنهم يثبتونها لله سبحانه على الوجه اللائق به يقولون: إن الله

---

(١) أخرجه البخاري ٤٦٣٤، ومسلم ٢٧٦٠، ٣٣.

(٢) أخرجه البخاري ٥٢٢١، ومسلم ٩٠١.

(٣) أخرجه البخاري ٥٢٢٢، ومسلم ٢٧٦٢.

يغار لكن ليست كغيرة المخلوق وإن الله يفرح ولكن ليس كفرح المخلوق وإن الله له ما له من الصفات الكاملة ما يليق به، ولا تشبه صفات المخلوقين)[(١)].

وأسماء الله وصفاته الواردة في الكتاب والسنة كثيرة ويجب على المسلم إثباتها لله تبارك وتعالى على ما يليق بجلاله وكماله، كما أثبتها الله لنفسه في كتابه، وهو أعلم بنفسه من خلقه، وأثبتها له رسوله ﷺ في سنته، وهو أعلم الخلق بربه وأكملهم نصحًا وأفصحهم وأبلغهم بيانًا وأتقاهم وأخشاهم له، وليحذر من تعطيل الله من صفاته أو تشبيهها بصفات المخلوقين، لأن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[(٢)])[(٣)].

ولا يلزم عن إثبات الصفات لله التشبيه والتجسيم فإن من نَفَى صفة من صفاته التي وصَفَ الله بها نفسه كالرضا الغضب والمحبة والبغض ونحو ذلك، وزعم أن ذلك يستلزم التشبيه والتجسيم. قيل له: فأنت تثبت له الإرادة والكلام والسمع والبصر مع أن ما تثبته له ليس مثل صفات المخلوقين، فقل فيما نفيته وأثبته الله ورسوله مثل قولك فيما أثبتَّه، إذ لا فرق بينهما.

فإن قال: أنا لا أثبت شيئًا من الصفات قيل له: فأنت تثبت له الأسماء الحسنى مثل حي عليم قدير، والعبد يسمى بهذه الأسماء، وليس ما يثبت للرب من هذه الأسماء مماثلاً لما ثبت للعبد، فَقُلْ في صفاته نظير قولك في مسمّى أسمائه)[(٤)].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: مراقبة الله تعالى واجتناب ما حرّمه سبحانه:

إن مما يجب على العبد تركه واجتنابه والابتعاد عنه: تلك المعاصي التي تسبب غضب الله تعالى، حيث ثبتت غيرة الله على عباده عند ارتكابهم الفواحش والمعاصي التي حرمها الله عليهم، فينبغي للمؤمن أن يطيع الله تعالى، ويبتعد عن المعاصي التي تسبب غضبه، وتوجب عقابه، وذلك لأن الله حرمها، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ

---

(١) شرح رياض الصالحين ١/٢٣٦.

(٢) سورة الشورى، آية: ١١.

(٣) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء، إعداد نخبة من العلماء ص ٨٩.

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ١/٦٠-٦١.

ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ... ﴾ [(١)].

قال السعدي (ذكر الله المحرمات، التي حرمها الله في كل شريعة من الشرائع فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ أي: الذنوب الكبار التي تستفحش وتستقبح، لشناعتها وقبحها، وذلك كالزنا، واللواط، ونحوهما.

وقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي: الفواحش التي تتعلق بحركات البدن، والتي تتعلق بحركات القلوب، كالكبر، والعجب، والرياء، والنفاق، ونحو ذلك ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: الذنوب التي تؤثم، توجب العقوبة في حقوق الله والبغي على الناس، في دمائهم وأموالهم، وأعراضهم، فدخل في هذا: الذنوب المتعلقة بحق الله والمتعلقة بحق العباد[(٢)]. فمما ينبغي معرفته أن الذنوب والمعاصي ضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان، على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا وسببه الذنوب والمعاصي؟[(٣)].

فعلى المسلم الابتعاد عن هذه المعاصي وغيرها امتثالاً لأمره تعالى وبعداً عن غضبه.

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٣٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٢٥٠.

(٣) انظر: الداء والدواء، ابن القيم ص ٦٥.

الحديث رقم (٦٥)

٦٥- السَّادِسُ: عَنْ أبي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ سمِع النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ ثَلاَثَةً مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ: أَبْرَصَ، وأَقْرَعَ، وأَعْمَى، أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ فَبَعث إِلَيْهِمْ مَلَكاً، فأَتَى الأَبْرَصَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حسنٌ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ، ويُذْهَبُ عنِّي الَّذي قَدْ قَذَرَنِي النَّاسُ، فَمَسَحهُ فذَهَب عنهُ قذره وَأُعْطِيَ لَوْناً حَسناً. قَالَ: فَأَيُّ الْمالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قال: الإِبلُ (أَوْ قَالَ البَقَرُ -شَكَّ الرَّاوِي) [١] فأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، فقَالَ: بارَك اللَّهُ لَكَ فِيها.

فأَتَى الأَقْرعَ فقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحب إِلَيْكَ؟ قال: شَعْرٌ حسنٌ، ويذْهبُ عنِّي هَذَا الَّذي [٢] قَذِرَني النَّاسُ، فَمسحهُ عنْهُ. أُعْطِيَ شَعراً حسناً. قال: فَأَيُّ المَالِ. أَحبُّ إِلَيْكَ؟ قال: البَقَرُ، فأُعطيَ [٣] بقرةً حامِلاً، وقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لكَ فِيهَا.

فَأَتَى الأَعْمَى فقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قال: أَنْ يردَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَري فأُبْصِرَ [٤] النَّاسَ فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بصرَهُ. قال: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِليكَ؟ قال: الْغنمُ فَأُعْطِيَ شَاةً والِداً، فأَنْتجَ هذَانِ وَولَّدَ هَذا، فكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الإِبلِ، ولِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَم.

ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الأَبْرص في صورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكينٌ قدِ انقَطعت [٥] بِيَ الْحِبالُ في سَفَرِي، فَلا بَلاغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلاَّ باللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ، والْجِلْدَ الْحَسَنَ، والْمَالَ، بَعيراً أَتبلَّغُ بِهِ في سفَري، فقال [٦]: الحقُوقُ كَثِيرةٌ. فقال: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ أَلَمْ تَكُنْ أَبْرصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ، فَقيراً، فَأَعْطَاكَ اللَّهُ، فقال: إِنَّما وَرِثْتُ هَذا المالَ

---

(١) لفظ البخاري: (هو شك في ذلك) بدل: (شكَّ الراوي). ووقع عند مسلم عن شيبان بن فروخ عن همام التصريح بأن الذي شكَّ في ذلك، هو: إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة.

(٢) عند البخاري ومسلم زيادة: (قد).

(٣) لفظ البخاري: (فأعطاه).

(٤) عند البخاري ومسلم زيادة: (به).

(٥) لفظ البخاري: (تقطعت).

(٦) عند البخاري ومسلم زيادة: (له).

كَابراً عَنْ كابِرٍ، فقالَ: إنْ كُنْتَ كَاذِباً فَصَيَّرك اللَّهُ إلى مَا كُنْتَ.

وأتَى الأَقْرَعَ في صورتِهِ وهيئَتِهِ[1]، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ما قَالَ لهذَا، وَرَدَّ عَلَيْه مِثْلَ مَاردَّ هَذَا، فَقَالَ: إنْ كُنْتَ كَاذِباً فَصَيَّرَكَ اللهُ إلى مَا كُنْتَ.

وأتَى الأَعْمَى في صُورتِهِ وهَيْئَتِهِ، فقالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وابْنُ سَبِيلٍ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ في سَفَرِي، فَلا بَلاغَ لِيَ اليَوْمَ إلاَّ باللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بالَّذي رَدَّ عَلَيْكَ بصرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا في سَفَرِي؟ فقالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ إلَيَّ بَصري، فَخُذْ مَا شِئْتَ وَدعْ مَا شِئْتَ، فَوَاللَّهِ ما[2] أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ[3] أَخَذْتَهُ للَّهِ عزَّوجلَّ.

فقالَ: أَمْسِكْ مالَكَ فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ فَقَدْ رُضِيَ اللَّهُ عنك، وَسَخَطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ » متفقٌ عليه[4].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

الأبرص: هو الذي أصابه البرص وهو بياض يقع في الجسد لعلة[5].

أراد الله أن يبتليهم: الابتلاء: هو الاختبار والامتحان، والمعنى: أن الله قضى أن يمتحنهم ويختبرهم[6].

قذرني الناس: اشمأزوا من رؤيتي فكرهوني واجتنبوني[7].

الناقة العشراء: الحامل[8].

---

(١) (هيئته) لا توجد عند مسلم، وهي عند البخاري.

(٢) لفظ البخاري ومسلم: (لا).

(٣) هذا لفظ البخاري، ولفظ مسلم: (شيئًا).

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤/١٠) ولفظهما سواء.

(٥) انظر: الوسيط ٤٩.

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٩٠، وفتح الباري، ابن حجر ٥٧٩/٦.

(٧) فتح الباري، ابن حجر ٥٧٩/٦، والوسيط في (ق ذ ر).

(٨) رياض الصالحين ٧٦.

شاة والداً: أي عرف منها كثرة النتاج، ويقال: حامل[١].

أنتج: وفي رواية فنتج، معناه: تولى نتاجها، والناتج للناقة كالقابلة للمرأة[٢].

وولَّد هذا: هو بتشديد اللام، أي: تولى ولادتها، وهو بمعنى أنتج في الناقة. فالمولّد والناتج والقابلة بمعنى، لكن هذا للحيوان وذاك لغيره[٣].

انقطعت بي الحبال: هو بالحاء المهملة والباء الموحدة، أي الأسباب[٤].

البلاغ، ما يُتَبلّغ ويتوصل به إلى الشيء المطلوب[٥].

أتبلغ به: أي أتوصل به إلى مرادي[٦].

كابراً عن كابر: أي ورثته عن آبائي الذين ورثوه من أجدادي الذين ورثوه من آبائهم كبيرا عن كبير في العز والشرف[٧].

لا أجْهَدُك: معناه: لا أشق عليك في رد شيء تأخذه أو تطلبه من مالي، وفي رواية البخاري: لا أحْمَدك بالحاء المهملة والميم، ومعناه: لا أحمدك بترك شيء تحتاج إليه كما قالوا: ليس على طول الحياة ندم. أي على فوات طولها[٨].

ابتليتم: أي امتحنتم[٩].

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (و ل د)، وفتح الباري، ابن حجر ٥٨٠/٦.

(٢) رياض الصالحين ٧٦.

(٣) رياض الصالحين ٧٦.

(٤) رياض الصالحين ٧٦.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ل غ).

(٦) فتح الباري، ابن حجر ٥٨٠/٦.

(٧) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٧١٠.

(٨) رياض الصالحين ٧٦، انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٧٠.

(٩) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٩٠، وفتح الباري، ابن حجر ٥٨١/٦.

الشرح الأدبي

إن القصص في الحديث النبوي مسرح لأنواع النفوس وألوان التجارب التي تمر بالرجال والنساء، والأسلوب في هذه الأحاديث القصصية هو أسلوب القصة الذي يحلو فيه الأطناب، بتكرار بعض العبارات، ولكنه مع ذلك موجز محبوك، جيد الفصل والوصل، متماسك النظم، دقيق الإشارة، وجانب الإيحاء والرمز في القصص النبوي من أدق خصائصه، فهو لا يسهب في الوصف، ولا يُعني بتحديد الزمان ولا المكان، وإنما تصبح القصة أنموذجاً سلوكياً، يتكرر في كل زمان، وفي كل مكان، وثمرة القصة ونتيجتها ضوء إيماني يسير في وجهته من ينشد طريق الحق، وقد يتعظ به من اتبع هواه وشهواته، فهو تصوير لأدواء النفوس البشرية، وعلاج ناجع لهذه الأدواء في ظل المنهج الإسلامي السديد.

وحين نتأمل هذه القصة، التي يحكى وقائعها ويروي أحداثها رسول الله ﷺ، ندرك أنها سيقت للموعظة والهدى، واتخاذ الدروس النافعة من تجارب الحياة، وإدراك أن الناس مجزيون بأعمالهم: إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وعناصر القصة تكتمل في هذا الحديث النبوي الشريف، وهي: الشخصيات، والأحداث والمواقف ثم الحوار المصور للمواقف والأحداث، والمعبر عن حركة الشخصية ومعالم تطورها، ثم العقدة والحبكة، والحل أو لحظة التنوير.

والعنصران الزماني والمكاني ليسا ظاهرين في هذا الحديث السردي القصصي، ولكن عنصر الزمن تجلى عن طريق الإيحاء، والإشارة إلى بني إسرائيل، فهي قصة حدثت لثلاثة من بني إسرائيل، ولكن من هم؟ وفي أي مكان؟ وفي أي زمن؟ إن هذه التفصيلات لا تؤدي دوراً في الحديث لأن الدرس المستفاد عام، وهو يفيد أفراد الأمة في كل زمان ومكان.

وشخصيات القصة وردت بالصفات والملامح وليس بالأسماء فهم ثلاثة شخصيات يجمع بينهم المرض: أبرص، وأقرع، وأعمى. وهي أمراض حسية ظاهرة يراها الناس ولهم منها موقف. والشخصية الرابعة في هذه القصة هي شخصية "الملك". الذي بعثه الله

وأرسله لهؤلاء الثلاثة في صورة إنسان له هيئته الحسنة ووقاره، وتظهر عليه مخايل النعمة والجاه والثراء، لأن سياق القصة يفرض ذلك التفسير، فهو يسألهم عن أمنياتهم وهم لا يعرفون أنه ملك أرسله الله.

وقد حدد رسول الله ﷺ الهدف من هذه القصة الواقعية حين قال: "أراد الله أن يبتليهم" أي: يختبرهم، ليعرف الناس ويتعظ أصحاب الحاجات وذوو العاهات حين يمنّ الله عليهم بالشفاء والمال.

والأحداث لا تنفصل عن سلوك الشخصيات وتطور ملامحها ومعالمها، وتتحرك الأحداث في مرحلتين: فالمرحلة الأولى تمثل الوعود والأمنيات، وتحقق هذه الوعود حسب أمنية كل شخصية، ويبدأ الاختبار بالحوار بين الأبرص والملك الذي أتى في صورة إنسان مرتين، وقد تحققت أمنيته حيث أعطى لوناً حسناً وجلداً حسناً، وأصبح يملك وادياً من الإبل، ولكنه لم يشكر النعمة، ولم يعترف بالفضل، ونسي ماضيه ومرضه وفقره حين جاءه الملك مرة أخرى في هيئة رجل أبرص مسكين وكأنه يذكره بماضيه البائس وسأله المساعدة، ولكن الرجل تنكر وادّعى أن الحقوق كثيرة. وهنا تأتي المفاجأة في القصة وهى عقدة كذلك، قال له السائل وقد رآه يرسب في هذا الاختبار: "كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيراً فأعطاك الله؟ فقال مكابراً وجاحداً فضل الله "إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر". وقد صيغ هذا الادعاء في أسلوب القصر للتعبير عن مبالغة هذا الرجل في الكذب والادعاء، وتكتمل دائرة الحوار بين الملك (السائل) وذلك الجاحد فيقول له الملك موضحاً لحظة التنوير وحل العقدة "إن كنت كاذباً في دعواك، فصيرك الله إلى ما كنت". وقد كان أي: حدث ذلك. ولكن الحديث ألمح إلى ذلك في نهاية الحديث حين قال الملك للأعمى الذي ظهر في صورة الشاكر الحامد المعطي المعترف بفضل الله عليه: "فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك" أي: الأبرص والأقرع.

والمشهد نفسه يتكرر مع الأقرع ولكنه يرسب في هذا الاختبار وينال سخط ربّه.

والمشهد الثالث يتكرر مع الأعمى ولكن النتيجة تغاير مصير السابقين، وفي هذا

السرد يتجلى عنصر التشويق والإفادة والموعظة، وما أجمل الشكر! وما أعظم الاعتراف بالفضل! ولنتأمل موقف الأعمى في مقام الشكر حين يجيئه الملك في صورة رجل أعمى ويسأله العطاء ويذكره في سؤاله بماضيه قائلاً له: "أسألك بالذي رد عليك بصرك" فلا يتأفف الرجل ولا يتكبر، ولكن يزداد تواضعاً وشكراً ويعترف قائلاً في صدق وحمد "قد كنت أعمى فردّ الله إلى بصري" ثم يقول للسائل: "فخذ ما شئت ودع ما شئت".

ويتوج الحوار الجميل بهذه النتيجة المثمرة التي أضاءت الموقف وأثبتت أن الرجل أخلص النية لله وراقب الله في السر والعلن ولم يطغه المال، ولم يزده الثراء إلا تواضعاً وحمداً. قال له الملك في لحظة مفاجئة ولكنها سارة مضيئة: "أمسك عليك مالك" وكشف عن نتيجة الابتلاء والاختبار حيث فاز الأعمى الشاكر الحامد، وخسر الاثنان: الأبرص والأقرع، وعادا إلى هيئتهما وصورتهما الأولى: يقول الملك: "فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك".

وهذه القصة قد اكتملت أركانها وعناصرها الفنية من أشخاص وأحداث وحوار وأسلوب وعُقْدَة وحلّ وإشارات زمانية ومكانية. وهذه العناصر تمثل عاملاً مشتركاً بين جميع أنواع القصص، ولكن يضاف إليها في القصة النبوية الحقيقة المضيئة التي تضفي على عناصر القصة النبوية صيغة الجلال والجمال، وتعطيها مذاق الحقيقة، وواقعية الحدث، وقداسة المنبع والإيمان بالغيب، فالمصطفى ﷺ لا ينطق عن الهوى، وإنما يوحي إليه ربه ويلهمه أسرار البيان وروعة الكلام وعمق المعنى ودقة التصوير.

المضامين الدعوية

أولاً: من تاريخ الدعوة: الحديث عن بني إسرائيل للاعتبار.

- ثانياً: من أساليب الدعوة: التوكيد، التنويع، السؤال والجواب، الترهيب.

ثالثاً: من وسائل الدعوة: القصة.

رابعاً: من آداب الداعية: التعريض عند الحديث عن الأشخاص.

خامساً: من موضوعات الدعوة: تعرض الإنسان للبلاء والاختبار.

- سادساً: من موضوعات الدعوة: الحث على الرفق بالضعفاء وإكرامهم.

سابعاً: من موضوعات الدعوة: الحذر من الكذب والبخل.

- ثامناً: من موضوعات الدعوة التحدُّث بنعمة الله عز وجل وذمّ جحدها.
- تاسعاً: من موضوعات الدعوة: فضل الكرم والصدقة.
- **أولاً- من تاريخ الدعوة: الحديث عن بني إسرائيل للاعتبار:**
- يستنبط هذا من قول النبي ﷺ "إن ثلاثة في بني إسرائيل" والحديث عنهم إنما يأتي للاعتبار بالأمم الماضية، وما حدث لهم، وقد أذن النبي ﷺ بالحديث عنهم، كما في الحديث الشريف: ((بلِّغوا عني ولو آيةً، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرجَ، ومن كذَبَ عليَّ مُتعَمِّداً فليتَبوَّأْ مَقعدهُ منَ النار))(١).

قال ابن حجر: (أي لا ضيق عليكم في الحديث عنهم لأنه كان تقدم منه ﷺ الزجر عن الأخذ عنهم، والنظر في كتبهم ثم حصل التوسع في ذلك، وكأن النهي وقع قبل استقرار الأحكام الإسلامية والقواعد الدينية خشية الفتنة، ثم لما زال المحذور وقع الإذن في ذلك لما في سماع الأخبار التي كانت في زمانهم من الاعتبار)(٢).

هذا وقد جاء في مسند أحمد عن ابن أبي نملة أن أبا نملة الأنصاري أخبره أنه بينا هو جالس عند رسول الله ﷺ جاءه رجل من اليهود فقال: يا محمد، هل تتكلم هذه الجنازة؟ قال رسول الله ﷺ: "الله أعلم" قال اليهودي: أنا أشهد أنها تتكلم فقال رسول الله ﷺ: إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا: آمنا بالله وكتبه ورسله فإن كان حقاً لم تكذبوهم، وإن كان باطلاً لم تصدقوهم(٣). وضابط المسألة في التحديث عن بني إسرائيل أن يقال: "إن أخبار أهل الكتاب على ثلاثة أقسام:

---

(١) أخرجه البخاري ٣٤٦١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٦/٥٧٥.

(٣) أخرجه أحمد ٤/١٣٦ رقم ١٧٢٢٥، وقال محققو المسند: إسناده حسن. ٢٨/٤٦٠.

١- ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح.

٢- ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

٣- ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل، ولا من هذا القبيل فلا نؤمن به ولا نكذبه وتجوز حكايته[١] وعليه يصدق قوله ﷺ ((بلِّغوا عني ولو آيةً، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرجَ، ومن كذَبَ عليَّ مُتعَمِّداً فليتَبوَّأْ مَقعدهُ منَ النار))[٢].

ولا يرى أحمد شاكر التحديث عنهم في تفسير القرآن وما يتعلق بذلك، فيقول: (إن إباحة التحدث عن بني إسرائيل فيما ليس عندنا دليل على صدقه، ولا كذبه شيء، وذِكْرُ ذلك في تفسير القرآن و جعله قولاً أو رواية في معنى الآيات، أو في تعيين ما لم يعين فيها، أو في تفصيل ما أجمل فيها، شيء آخر لأن في إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله، ما يوهم أن هذا الذي لا نعرف صدقه ولا كذبه مبين لمعنى قول الله سبحانه، ومفصل لما أجمل فيه، وحاشا لله ولكتابه من ذلك، وإن رسول الله ﷺ إذ أذن بالتحدث عنهم أمرنا أن لا نصدقهم ولا نكذبهم، فأي تصديق لرواياتهم وأقاويلهم أقوى من أن نَقْرِنها بكتاب الله، ونضعها منه موضع التفسير أو البيان؟ اللهم غفراً)[٣].

وقد أخبر النبي ﷺ بخبر هؤلاء الثلاثة الذين ابتلاهم الله تعالى، وكانوا من بني إسرائيل، وذلك للاعتبار والتدبر وأهمية مراقبة الإنسان لنفسه وعدم الافتتان بالنعم، والغفلة عن فضل الله تعالى.

ثانياً- من أساليب الدعوة: التوكيد، التنويع، السؤال والجواب، والترهيب:

١- التوكيد: ويظهر هذا في قول النبي ﷺ "إن" ولاشك أن التوكيد له أثر في إقناع المدعو ويعطي دلالة أن الداعية لا يرتاب في ما يقول، ولكنه مستيقن منه.

٢- التنويع: ويتضح هذا من خلال ذكر قصة ثلاثة من بني إسرائيل، ثم ضرب المثل

---

(١) انظر: تعليق محققي مسند أحمد بن حنبل ٤٦١/٢٨.

(٢) أخرجه البخاري ٣٤٦١.

(٣) نقلاً عن تعليق محققي مسند أحمد ٤٦٢/٢٨.

وذلك في قوله "أتى الأبرص في صورته وهيئته" ومما لا يخفى أن التنويع في أساليب الدعوة يساعد على معالجة أحوال المدعوين، من خلال بيان عواقب الأمور، وهذا يختلف باختلاف الوقائع والأحداث.

٣- السؤال والجواب: وهذا ظاهر من خلال الحوار الذي جرى بين الملك والأبرص والأقرع والأعمى، والسؤال والجواب من أساليب الدعوة التي تعين على فهم الحقائق وكثيراً ما كان الرسول ﷺ يستخدم هذا الأسلوب مع الصحابة ليكون أدعى للانتباه، وأثبت في قلب السامع.

٤- الترهيب: حيث جاء في الحديث أن كلاً من الأبرص والأقرع عادا إلى حالتهما الأولى، وأن الله سخط عليهما، والنفس البشرية أحياناً لا ترعوي ولا تزدجر إلا عندما تشعر بسوء المصير والمنقلب، ولذا فإن الداعية الحصيف هو الذي يستخدم أسلوب الترهيب في موطنه لزجر النفوس عن المعاصي وعن مخالفة منهج الله تعالى.

ثالثاً- من وسائل الدعوة: القصة:

هذا واضح من سياق الحديث حين يحكى قصة ثلاثة من بني إسرائيل، والقصة وسيلة بيانية ولها دور رئيس في الدعوة إلى الله لأن فيها العبرة والعظة والاعتبار بحال السابقين قال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[1] وبعد الحديث عن أقوام عاد وثمود ونوح وشعيب قال الله عز وجل: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا﴾[2].

قال السعدي: (تلك القرى الذين تقدم ذكرهم نقص عليك من أنبائها ما يحصل به عبرة للمعتبرين، وازدجار للظالمين وموعظة للمتقين)[3] ويستطيع الداعية من خلال

---

(١) سورة يوسف، آية: ١١١.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٠١.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٢٦١.

القصة أن يقنع المدعوين، ويقدم لهم نماذج على ما يصيب الإنسان من خير إذا أطاع، وما يحيق به من سوء إذا عصى. (تمتاز القصة بأنها تصور نواحي الحياة، فتعرض لك الأشخاص، وحركاتهم وأخلاقهم وأفكارهم واتجاهات نفوسهم وبيئتهم الطبعية والزمنية تعرضهم عليك بعرض أعمالهم وتصرفاتهم ونقاشهم، فإذا رأيت هذه التصرفات والأعمال، ومضيت مع الحوار والنقاش، عرفت ما يستكن في النفوس من طباع، وما يهجس فيها من خواطر، وانشرح صدرك لأهل الخير منهم، وضقت ذرعاً بذوي النفوس المظلمة والوسائل الملتوية حتى لكأنك تراهم رأي العين، وتسمع منهم سمع الأذن، وتمتاز القصة بأن النفس تميل إليها بما في الإنسان من غريزة حب الاستطلاع، والقصة بهاتين الميزتين من خير الوسائل التي يتوسل بها الداعية لإبلاغ تعاليمه إلى أعماق القلوب)[(١)].

رابعاً- من آداب الداعية: التعريض عند الحديث عن الأشخاص:

يستنبط هذا من قول النبي ﷺ "إن ثلاثة في بني إسرائيل" هكذا بالتنكير بدون ذكر لأسمائهم، ذلك لأن الداعية لا يجرح المشاعر، وليس مهمته فضح الناس إنما التركيز يكون على مضمون القصة وما يستفاد منها، خاصة وأن ذكر الأسماء في القصة لا يفيد. يقول الإمام ابن حجر: (وفي الحديث جواز ذكر ما اتفق لمن مضى ليتعظ به من سمعه، ولا يكون ذلك غيبة فيهم، ولعل هذا هو السر في ترك تسميتهم، ولم يفصح بما اتفق لهم بعد ذلك، والذي يظهر أن الأمر فيهم وقع كما قال الملك)[(٢)].

خامساً- من موضوعات الدعوة: تعرض الإنسان للبلاء والاختبار:

يتضح هذا من الحديث "أراد الله أن يبتليهم" والإنسان في الحياة معرض للامتحان والاختبار، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[(٣)] وليس شرطاً أن يكون الابتلاء بالشر، فقد يكون الابتلاء بالخير، كالمال والولد لينظر هل

---

(١) تذكرة الدعاة، البهي الخولي، ص ٤٤، ٤٥.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٥٧٥/٦.

(٣) سورة الملك، آية: ٢.

يشكر أم يكفر كما حدث مع هؤلاء الثلاثة قال الله عز وجل: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[١] والمعنى (نختبركم بالشدة والرخاء والصحة والسقم، والغنى والفقر، وقيل: بما تحبون وما تكرهون "فتنة" ابتلاء لننظر كيف شكركم فيما تحبون، وصبركم فيما تكرهون)[٢]. ويستطيع الداعية من خلال هذا الموضوع توطين نفوس المدعوين على الصبر والشكر فيما تكره وتحب. ولقد أخبر القرآن الكريم عن حال الإنسان مع البلاء والاختبار بقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾[٣] وقال عز وجل: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾[٤] وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾[٥].

قال علي محفوظ: (إن الإنسان جُبل على الضعف والعجز والقلق وقلة الصبر، كما جُبل على الغرور والبطر والنسيان والتمرد والعتو فإذا نزل به البلاء حمله ضعفه وعجزه على كثرة الدعاء والتضرع وإظهار الخضوع والانقياد، وإذا زال عنه ذلك البلاء وحصل على الراحة استولى عليه النسيان، وغفل عن إحسان الله تعالى إليه، ووقع في الغيّ والعدوان، والجحود والنكران، وهذه الأحوال كلها من نتائج طبيعته إلا من رحم الله وعصمه من هذه الدنايا والنقائص وقليل ما هم، وهم الذين يرجعون إليه تعالى في جميع الأحوال موقنين بأنه وحده سبحانه هو المقدر للأمور حسب علمه وحكمته والمصرِّف لها وفق مشيئته وإرادته فلا جرم إذا أصابتهم السراء شكروا، وإن أصابتهم الضراء

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٣٥.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٣١٨/٥.

(٣) سورة يونس، آية: ١٢.

(٤) سورة المعارج، آية: ١٩-٢١.

(٥) سورة فصلت، آية: ٥١.

صبروا، وأفنوا إرادتهم في إرادته، وقبلوا حكمه ورضوا بقضائه)[(١)]. ولذا ينبغي للداعية أن يبين للمدعوين أن كل واحد معرض للابتلاء في هذه الحياة، سواء عن طريق النعمة أو النقمة، ولكن لابد من الشكر والصبر، وعدم الفتنة.

سادساً- من موضوعات الدعوة: الحث على الرفق بالضعفاء وإكرامهم:

يظهر هذا من الحديث "رجل مسكين وابن سبيل، انقطعت بي الحبال في سفري". يقول الإمام النووي: (وفي هذا الحديث الحث على الرفق بالضعفاء وإكرامهم وتبليغهم ما يطلبون ما يمكن، والحذر من كسر قلوبهم واحتقارهم)[(٢)].

وقد تضافرت النصوص الشرعية في الحث على الرفق بالضعفاء والمساكين، قال الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾[(٣)].

وقال النبي ﷺ ((من لا يَرحمُ لا يُرحَم))[(٤)] وهذا باب هام يجب أن يطرقه الداعية، ويحث المدعوين عليه. قال الشيخ السيد سابق: (إن غاية الإسلام أن يطهر المجتمع من الفقر، وأن يحفظ للفقراء قواهم البدنية بهذه الرعاية والكفالة فإن لهم أفواهاً ومِعىً وأجساداً، ولهم قلوب ومشاعر وعواطف، ولهم كرامة، ولابد من أن تصان هذه الأجسام، وأن تراعى هذه القلوب والمشاعر، وأن تحفظ هذه الكرامات وما ينبغي أن تهدر كرامة فقير، والفقر هو أعظم مهدر للكرامة، ولا أن ينظر إلى الفقراء نظرة ازدراء واحتقار فقد يكون لهم من الملكات والقدرات، ومن القوى العقلية ما يستطيعون بها أن يصلوا إلى القمة من السيادة والقيادة والعلم والعمل)[(٥)].

---

(١) هداية المرشدين إلى طريق الوعظ والخطابة، الشيخ علي محفوظ٣٤٧، ٣٤٨.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٧١٠.

(٣) سورة الكهف، آية: ٢٨.

(٤) أخرجه البخاري ٦٠١٣.

(٥) عناصر القوة في الإسلام ١٢٧.

ومما لاشك فيه أن الرفق بالضعفاء وإكرامهم هدف نبيل، وغاية عظمى من غايات الإسلام ومما أمر به الإسلام فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ابْغُونِي فِي ضُعَفَائِكُمْ، فَإِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضُعَفَائِكُمْ))[1].

سابعاً- من موضوعات الدعوة: الحذر من الكذب والبخل:

يظهر هذا في الحديث في قوله: "إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر" وهذا كذب وقوله: (الحقوق كثيرة) وهذا من دواعي البخل، ولاشك أن الكذب والبخل من المساوئ الأخلاقية التي حذر منها الشرع، والبخل يوصل إلى الكذب حتى يمنع صاحبه الخير عن الناس يقول الإمام ابن حجر: (وفي الحديث الزجر عن البخل لأنه حمل صاحبه على الكذب وعلى جحد نعمة الله تعالى)[2] وقال القرطبي: (حمله بخله على نسيان منّة الله تعالى، وعلى جحد نعمه وعلى الكذب، ثم أورثه ذلك سخط الله الدائم، وكل ذلك بشؤم البخل)[3]. وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[4] وفي الأمر بالصدق واجتناب الكذب قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[5] وينبغي للداعية أن يبين مساوئ الكذب والبخل، ويأمر المدعوين بالابتعاد عن الرذائل، والتحلي بالفضائل.

ثامناً- من موضوعات الدعوة التحدث بنعمة الله عز وجل وذمّ جحدها:

لقد تحدث الأعمى بنعم الله عليه فقال: "قد كنت أعمى فرد عليَّ بصري"، قال النووي: (فيه التحدث بنعمة الله وذم جحدها)[6] وقال القرطبي: (واعتبر بحال الأعمى لما اعترف بنعمة الله تعالى عليه، وشكره عليها وسمحت نفسه بها ثبتها الله عليه، وشكر

---

(١) أخرجه الترمذي ١٧٠٢، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٣٩٢).

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٥٨١/٦.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ١١٩/٧.

(٤) سورة التوبة، آية: ٣٤.

(٥) سورة التوبة، آية: ١١٩.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٧٨/١٨/٩.

فعله ورضي عنه، فحصل على الرتب الفاخرة وجمعت له نعم الدنيا والآخرة)[١]. وهذا الإقرار بنعمة الله عز وجل يكون سبباً في رضا الله، ووجه من وجوه الشكر. قال الإمام الراغب: (الشكر تصور النعمة وإظهارها ويضاده الكفر الذي هو نسيان النعمة وسترها فالشكر هو الامتلاء من ذكر المنعم عليه)[٢]. وقال ابن القيم: (الشكر ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناءً واعترافاً، وعلى قلبه شهوداً ومحبةً، وعلى جوارحه انقياداً وطاعةً)[٣].

وقد قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[٤] والمعنى (لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها ولئن كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها "إن عذابي لشديد" وذلك بسلبها عنهم، وعقابه إياهم على كفرها)[٥] وقال قتادة: (حق على الله أن يعطي من سأله، ويزيد من شكره، والله منعم يحب الشاكرين فاشكروا لله نعمه)[٦].

وقد قال ﷺ ((إنَّ للطاعِمِ الشاكِرِ من الأجرِ، مِثْلَ ما للصائمِ الصابرِ))[٧] وعلَّم النبي ﷺ معاذاً رضي الله عنه أن يدعو بالإعانة على ذكره وشكره ففي الحديث عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: ((يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ، يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ. فقال: أُوصِيكَ يا معاذ أَنْ لا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ، أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك))[٨]. وعن أنس رضي الله عنه أنه قال: قال رسول

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ١١٩/٧.

(٢) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني في غريب القرآن ٢٦٥.

(٣) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢٤٤/٢.

(٤) سورة إبراهيم، آية: ٧.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٧٩/٤.

(٦) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي في التفسير بالمأثور، الإمام السيوطي ٤٩١/٨.

(٧) أخرجه الترمذي ٢٤٨٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٠٢١).

(٨) أخرجه أبو داود ١٥٢٢، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٣٤٧).

الله ﷺ: ((إِنَّ اللّه لَيَرْضَىٰ عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا. أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا))[١].

جاء في موسوعة نضرة النعيم: (قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه إن النعمة موصولة بالشكر، والشكر يتعلق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد. وقال مطرف: لأن أعافى فأشكر، أحب إليَّ من أن أبتلى فأصبر. وقال الشعبي: الشكر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله، وقال الفُضَيل بن عياض: عليكم بملازمة الشكر على النعم فقلَّ نعمةٌ زالت عن قوم فعادت إليهم. وقال أيضاً: من عرف نعمة الله بقلبه، وحمده بلسانه لم يستتمَّ ذلك حتى يرى الزيادة، وإن من شكر النعمة أن يحدث بها[٢].

تاسعاً- من موضوعات الدعوة: فضل الكرم والصدقة:

يؤخذ هذا من قوله في الحديث "فخذ ما شئت ودع ما شئت" فكانت النتيجة "فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك" ولاشك أن الصدقة والإنفاق لهما أجر كبير وثواب جزيل قال الله تعالى في وصف المتقين: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾[٣] وقال رسول الله ﷺ ((قال الله عز وجل: يا ابن آدم أنفق أنفق عليك))[٤] وهذا موضوع دعوى واسع يمكن أن يفيد منه الداعية في توجيه المدعوين، وترغيبهم في أبواب الخير، وإعانة المحتاج والفقير، والتحلي بالكرم فقد قال النبي ﷺ في الحديث ((من كان يُؤمن بالله واليوم الآخِرِ فلْيُكرِم ضَيفَه))[٥] وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((المُؤْمِنُ غِرٌّ كَرِيمٌ، والفَاجِرُ خِبٌّ لَئِيمٌ))[٦].

---

(١) أخرجه مسلم ٢٧٣٤.

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٢٤١٥/٦-٢٤١٧ بتصرف. والقَرَنُ: الحبل الذي يقرن به البعير، الوجيز في (ق ر ن).

(٣) سورة الذاريات، آية: ١٩.

(٤) أخرجه مسلم ٩٩٣.

(٥) أخرجه البخاري ٦٠١٨، واللفظ له، ومسلم ٤٧.

(٦) أخرجه أبو داود ٤٧٩٠، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٠٠٦).

قال حكيم بن حزام: (ماأصبحت صباحاً قط فرأيت بفنائي طالب حاجة ضاق بها ذرعاً فقضيتها إلا كانت من النعم التي أحمد الله عليها، ولا أصبحت صباحاً لم أر بفنائي طالب حاجة إلا كان ذلك من المصائب التي أسأل الله عز وجل الأجر عليها)[١].

قال الإمام الماوردي: (وعلى من أسعد بجاهه ثلاثة حقوق يستكثر بها الشكر ويستمد بها المزيد من الأجر أحدها: أن يستسهل المعونة مسروراً، ولا يستثقلها كارهاً، فيكون بنعم الله متبرماً ولإحسانه متسخطاً ... الثاني: مجانبة الاستطالة، وترك الامتنان، فإنها من لؤم الطبع، وضيق الصدر، وفيها هدم الصنيع وإحباط الشكر ... الثالث: ألا يقرن بمشكور سعيه تقريعاً بذنب، ولا توبيخاً على هفوة ... وإن الكريم إذا وجد مصاباً بحوادث دهره: حثه الكرم وشكر النعم على الإسعاف فيها بما استطاع سبيلاً إليه، ووجد قدرة عليه ... وقد قيل لحكيم: هل شيء خير من الذهب والفضة؟ قال معطيهما)[٢].

---

(١) مكارم الأخلاق، ابن أبي الدنيا ١٠٧.

(٢) أدب الدنيا والدين، الماوردي ٣٢٢، ٣٢٣ بتصرف يسير.

الحديث رقم (٦٦)

٦٦- السَّابِعُ: عَنْ أبي يَعْلَى شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِما بَعْدَ الْموْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَه هَواهَا، وتمَنَّى عَلَى اللَّهِ**» رواه التِّرْمِذيُّ وقالَ حديثٌ حَسَنٌ[1].

ترجمة الراوي:

شداد بن أوس: هو شداد بن أوس بن ثابت بن المنذر بن حَرَام الأنصاري الخزرجي البخاريّ، وهو ابن أخي حسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ يكنى بأبي يَعْلى، ويقال: أبو عبدالرحمن المدني، وكان ﷺ من سادات الصحابة وفضلائهم وعلمائهم، له ولأبيه صحبة، وقد آتاه الله العلم والحلم، قال عبادة بن الصامت ﷺ: كان شداد بن أوس ممن أوتي العلم والحلم. كما كان كثير العبادة، والورع، والخوف من الله تعالى. قال أسد بن وداعة: كان شداد بن أوس بن ثابت إذا أخذ مضجعه من الليل، كان كالحبة على المقلى، فيقول: اللهم إن النار قد حالت بيني وبين النوم، ثم يقوم فلا يزال يصلي حتى يصبح، كما كان زاهداً، قال المُفَضَّل بن غسَّان الغَلابي: زهاد الأنصار ثلاثة: أبو الدرداء، وشداد بن أوس، وعمير بن سعد، وقال سعيد بن عبدالعزيز: فُضِّل شداد بن أوس الأنصاري بخَصلَتين: ببيانٍ إذا نطق، وبكَظْمٍ إذا غضب، نزل بالشام بناحية فلسطين ببيت المقدس وكان قد ولاه عمر إمارة حمص فلما قُتِل عثمان اعتزل وعكف على العبادة، توفي في أيام معاوية وعَقِبُه ببيت المقدس، وقبره ببيت المقدس، قاله ابن حبان.

أما تحديد سنة وفاته فقيل ٤١، وقيل ٦٤ وقيل ٥٨ وهو المشهور.

مات وهو ابن ٧٥ سنة[2].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٩). قال ابن طاهر في الذخيرة (٤٤١٩): رواه أبو بكر بن أبي مريم، عن ضمرة بن حبيب، عن شداد بن اوس، وأبوبكر: ضعيف. وقال الحافظ ابن حجر في هداية الرواة: إسناده ضعيف.

(٢) الطبقات، ابن سعد (٤٠١/٧)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (٣٢٩)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (٦١٣/٢، ٦١٤)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (٥٧٢، ٥٧٣)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي (٤٦٠/٢-٤٦٧)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (٣٦٧/٣، ٣٦٨)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (١٥٤/٢، ١٥٥)، والأعلام، خير الدين الزركلي (١٥٨/٣)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (١٠١٤/٢-١٠١٦).

غريب الألفاظ:

الكيس: العاقل[1].

دان نفسه: حاسبها[2].

الشرح الأدبي

يقدم هذا الحديث صورتين للإنسان وهو يخوض غمار الحياة: إحداهما إيجابية والأخرى سلبية، والصورتان تجيئان في قالب المفارقة التي تدعو إلى التأمل والتدبر، فالصورة الأولى تتشكل من قسماتها ملامح الإنسان العاقل الذي لا يعيش أسير شهواته، ولا تتملكه نفسه، فهو دائماً يحاسب نفسه اتباعاً لقول الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[3]، والمفارقة تتجسد في شبهة التضاد بين المبتدأ وهو "الكيس" والخبر وهو جملة "من دان نفسه"، فكيف يكون عاقلاً ويقوم بإدانة نفسه؟ ولكن العجب يزول حين يدرك الإنسان أنه مأمور بتشذيب رغبات النفس، لأن النفس أمارة بالسوء، وقد صور ذلك الشاعر المسلم حين قال:

والنفس كالطفل إن تهمله شب ... حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

ويقول الشاعر الآخر في تصوير النفس وكيفية كبح جماحها:

والنفس راغبة إذا رغبتها ... وإذا ترد إلى قليل تقنع

فالكيِّس في اللغة: معناه العاقل، والكيْس، بسكون الياء، العقل، والكيس خلاف الحمق، ومن معاني "الكيس": الخفة والتوقد، ولذلك المدلول صلة بحسن الإدراك، ومعرفة العواقب، والذكاء الإيماني هو الذي يبعد صاحبه عن الشبهات

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ك ي س).

(٢) رياض الصالحين ٧٦.

(٣) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠، ٤١.

ويجعله في حياته بمنأى عن مسالك الشيطان، ودروب العصيان، ويعمل لآخرته. وهذه هي الصفة الثانية "للكيس" الذي يعمل لآخرته كأنه يموت غداً، ويعمل لدنياه كأنما يعيش أبداً ويجعل عقله دائماً مستضيئاً بنور القيم الإسلامية، والتعاليم الربانية.

وأما الصورة الثانية للإنسان فهي تشكل ملامح العجز، وضعف الإرادة، وهي صورة مضادة للصورة الأولى الإيجابية، وما أبعد المسافة بين الصورتين! صورة "الكيس" المؤمن الفطن، وصورة "العاجز" الذي يظن نفسه منطلقاً في الحياة وقادراً على فعل ما تهواه نفسه. وفي الحقيقة إنه ضعيف الإرادة وعاجز عن مقاومة رغبات نفسه مستسلم لأهوائها وهى لا حدّ لها، إنها تقوده إلى مهاوي الردَّى، وما أجمل البيان النبوي في إيجازه وعظم دلالته وقوة تأثيره، حين يصف العاجز بأنه: "من أتبع نفسه هواها" ثم يأتي الوصف الثاني ممتزجاً بالسخرية من ذلك العاجز، الذي يتمنى على الله، ويرجو الفوز في الآخرة، وهو لم يقدم عملاً صالحاً يستحق به ذلك الفوز.

إن هذا الحديث يجري مجرى الحكمة وألفاظه قليلة ولكن معانيه جليلة ودلالاته تتعدد آفاقها. ومن جهات كثيرة يكون إشراقها، والعاقل من استضاء بنورها، والعاجز من عمى عن أسرارها.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، الترهيب.

ثانياً: من واجبات الداعية: توضيح الحقائق للمدعوين.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل الكياسة.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: اغتنام الحياة في العمل لما بعد الموت.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار، الترهيب:

١- الإخبار: ويستنبط هذا من قول النبي ﷺ "الكيس من دان نفسه" فهذا إخبار منه ﷺ عن الكيس، ولاشك أن الإخبار من أساليب الدعوة التي يستخدمها الداعية في سوق الحقائق إلى المدعوين، ومن أهم شروط الخبر: الصدق حتى يتقبله الناس بقبول حسن، وأخبار النبي ﷺ كلها صادقة، لذا فإن الداعية يعتمد بشكل أساسي على

الأسلوب الخبري في نقل الحقائق للمدعوين.

٢- الترهيب: ويستنبط هذا من قول النبي ﷺ: "والعاجز من أتبع نفسه هواها" حيث وصف الإنسان الذي يتبع هوى النفس ويؤجل التوبة، ويفرط في العمل الصالح بأنه عاجز ولاشك أن صفة العجز ينفر منها المؤمن الصادق، وفي الحديث ترهيب له من الوقوع في مصاف العاجزين باتباع الأهواء والشهوات.

ثانياً- من واجبات الداعية: توضيح الحقائق للمدعوين:

يظهر هذا من سياق الحديث حيث يجب أن يحرص الداعية على بيان الحقائق للمدعوين لما في ذلك من النصح لهم، وتوجيههم إلى الخير، خاصة وأن مهمة الداعية تقوم على البيان قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١].

يقول السعدي: (وأنزلنا إليك الذكر أي القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم الظاهرة والباطنة، وهذا شامل لتبيين ألفاظه، وتبيين معانيه)[٢].

وفي هذا الحديث بيان لواجب من واجبات الداعية: وهو توضيح الحقائق للمدعوين ويتمثل ذلك في بيان أن الكيس أي العاقل من حاسب نفسه وتدبر عواقب الأمور، وأعدّ العدة وتزود بالتقوى واستعد للقاء الله، والعاجز من غفل عن آخرته، وأطلق العنان لشهواته، ولم يحاسب نفسه، ولذا ينبغي للداعية أن يبين هذه الحقائق وأن يوضحها.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل الكياسة:

ليس الكيس الذي يسير في الدنيا يجمع المال، ويتبع الأهواء بدون النظر إلى عواقب الأمور، ولكن النبي ﷺ يبين أن الكيس الفطن الحقيقي هو (العاقل المتبصر في الأمور، الناظر في العواقب، وهو من دان نفسه أي حاسبها وأذلها واستعبدها وقهرها حتى

---

(١) سورة النحل: آية ٤٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٣٩٤.

صارت مطيعة منقادة لأوامر الله ورسوله ﷺ وعمل لما بعد الموت ليصير على نور من ربه فالموت عاقبة أمر الدنيا، فالكيس من أبصر العاقبة)[١]. وقد قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾[٢] والداعية الحصيف هو الذي يبين للمدعوين من هو الكيس الحقيقي ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٣].

وفي فضل العقل وحسن استخدامه قال الإمام الماوردي: (اعلم أن لكل فضيلة أساً، ولكل أدب ينبوعاً، وأس الفضائل وينبوع الآداب هو العقل الذي جعله الله تعالى للدين أصلاً، وللدنيا عماداً فأوجب التكليف بكماله، وجعل الدنيا مُدَبَّرة بأحكامه، وألف بين خلقه مع اختلاف هممهم ومآربهم، وتباين أغراضهم ومقاصدهم قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أصل الرجل عقله، وحسبه دينه، ومروءته خلقه، وقال الحسن البصري: ما استودع الله أحداً عقلاً إلا استنقذه به يوماً ما، وقال بعض الحكماء: العقل أفضل مرجو، والجهل أنكى عدو، وقال بعض الأدباء: صديق كل امرئ عقله، وعدوه جهله، وقال بعض البلغاء: خير المواهب العقل، وشر المصائب الجهل)[٤]؛ لذا يحسن بالعاقل أن يتدبر عواقب الأمور، وأن يتزود بالطاعات، ويحاسب نفسه قبل أن يحاسب، ويراقب نفسه مراقبة دقيقة حتى يكون أهلاً لرحمة الله.

رابعاً- من موضوعات الدعوة: اغتنام الحياة في العمل لما بعد الموت:

يظهر هذا من قول النبي ﷺ "وعمل لما بعد الموت" فواجب الإنسان الكيس العاقل أن يغتنم عمره في الأعمال الصالحة استعداداً للحياة الباقية بعد الموت ذلك لأن العمر يمضي، والموت آت لا محالة ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ﴾[٥].

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ٢/١٩٢١.

(٢) سورة القيامة: آية ١٤، ١٥.

(٣) سورة الشعراء: آية ٨٨، ٨٩.

(٤) أدب الدنيا والدين، الماوردي ١٩.

(٥) سورة آل عمران: ١٨٥.

قال ابن علان: (والحاصل أن الحزم الإتيان بواجب العبودية من أداء الخدمة، ومحاسبة النفس، حذر مجاوزة الحدود، وعدم الالتفات إلى ذلك بالقلب والركون إليه، بل يكون مع ذلك اعتماده على فضل مولاه سبحانه، وأما ترك أداء مقام العبودية فذلك من رعونات النفس الخفية لاسيما إن أوقعها في ميدان شهواتها الذي فيه هلكها ومحقها)[١].

وقال ابن القيم: (طالب الله والدار الآخرة لا يستقيم له سيره وطلبه إلا بحبسين: حبس قلبه في طلبه ومطلوبه، وحبسه عن الالتفات إلى غيره وحبس لسانه عما لا يفيد، وحبسه على ذكر الله وما يزيد في إيمانه ومعرفته، وحبس جوارحه عن المعاصي والشهوات، وحبسها على الواجبات والمندوبات، فلا يفارق الحبس حتى يلقى ربه فيخلصه من السجن إلى أوسع فضاء وأطيبه، ومتى لم يصبر على هذين الحبسين وفرَّ منهما إلى فضاء الشهوات أعقبه ذلك الحبس الفظيع عند خروجه من الدنيا: فكل خارج من الدنيا إما متخلص من الحبس وإما ذاهب إلى الحبس)[٢].

قال محمد عبدالعزيز الخولي: "فالعاقل حقيقة من قهر نفسه وأخضعها لحكمة عقله وشريعة ربه فهو يحاسبها على كل ما تأتي وما تذر. فإن خيراً ازداد منه وحمد الله وإن كان شراً أناب إليه وعاد على نفسه بالقهر والإذلال حتى تسلك الإمام[٣] المبين ولا تحيد عنه يمنة أو يسرة. وسلوكه بالقيام بالواجب عليه لربه ونفسه وأهله وقومه فذلك ما ينفع لما بعد الموت من بعث وحشر وحساب ونعيم، وعقاب، والحازم من يستعد لهذه الرحلة الطويلة ولذلك اليوم المشهود ولتلك الدار الباقية بنفس يطهرها وخلق طيب يتجمل به وعمل صالح يقدمه ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٤]، ذلك الكيس الحاذق.

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ١٧٩.

(٢) الفوائد المشوقة إلى علم القرآن وعلم البيان، ابن القيم ٥٤.

(٣) الإمام: الطريق الواسع الواضح، الوسيط في (أ م م).

(٤) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨ - ٨٩.

أما العاجز المقصر في الواجب فهو الذي لم يأتمّ بهواه فنفسه أسيرة شهواته كلما أهابت به لاقتراف فاحشة لبّى نداءها وكلما أخذت به عن سنن الحق سار وراءها غير مبالٍ بما هو صائر إليه ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾[1].

أما عقله ودينه فمقهوران لشهوته، فهي صاحبة الأمر تصرفه كما تريد فبحَقٍ ذلك هو الأحمق وإنه ليزيد حمقاً تمنيه على الله الأماني الكاذبة فهو يعلل نفسه بعفو الله ومغفرته وسعة رحمته أو باستدراك ما فاته آخر حياته، ولم يدر هذا العاجز أن رحمة الله كتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين يؤمنون بآيات الله ويتبعون الرسول النبي الأمي ﷺ. لم يدر هذا العاجز أن الموت غائب لا يدري متى يقدم وأنه قد يباغت الناس في ريعان الشباب حيث البنية سليمة والقوة موفورة، فالعاقل يجعل هواه خاضعاً لعقله ومن وراء إذن ربه.

والعاقل لا يتمنى من المكافآت إلا ما يتناسب مع عمله الذي قدمه إن كان له عمل والجنة ثمنها الإيمان والعمل الصالح ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾[2].

وفي الحكم:

إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصداً ندمت على التفريط في زمن البذر[3]

والقرآن يمنع التسوية بين الكيس والعاجز ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾[4].

قال الطيبي: (والعاجز الذي غلب عليه نفسه وعمل بما أمرته به نفسه، فصار عاجزاً لنفسه فأتبع نفسه، وأعطاها ما اشتهته. وقوبل الكيس بالعاجز والمقابل

---

(١) سورة القصص، آية: ٥٠.

(٢) سورة طه، آية: ٧٥.

(٣) الأدب النبوي ٢١٣ - ٢١٤.

(٤) سورة محمد: آية ١٤.

الحقيقي للكيس: السفيه الرأي، وللعاجز: القادر ليؤذن بأن الكيس هو القادر، والعاجز هو السفيه (وتمنى على الله الأماني) أي يذنب ويتمنى الجنة من غير توبة ولا استغفار)[١].

وقال ابن الجوزي: (اعلم أن مطلق الهوى يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر في عاقبة، ويحث على نيل الشهوات عاجلاً، وإن كانت سبباً للألم والأذى في العاجل، ومنع لذاتٍ في الآجل. فأما العاقل فإنه ينهى نفسه عن لذة تعقب ألماً، وشهوة تورث ندماً، وكفى بهذا القدر مدحاً للعقل وذماً للهوى، وبهذا القدر فُضِّل الآدمي على البهائم - أعني ملكة الإرادة- لأن البهائم واقفة مع طباعها، لا نظر لها إلى عاقبة، ولا فكر في مآل وإذا عرف العاقل أن الهوى يصير غالباً، وجب عليه أن يرفع كل حادثة إلى حاكم العقل فإنه سيشير عليه بالنظر في المصالح الآجلة، ويامره عند وقوع الشبهة باستعمال الأحوط في كف الهوى إلى أن يتيقن السلامة من الشر في العاقبة)[٢].

وقال ابن الجوزي أيضاً: "عن معاوية رضي الله عنه قال: المروءة ترك اللذة وعصيان الهوى، وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله فإن كان عمله تبعاً لهواه فيومه يوم سوء، وإن كان هواه تبعاً لعمله فيومه يوم صالح. وقال مالك بن دينار: من غلب شهوات الدنيا فذلك الذي يفرق الشيطان من ظله وقال أيضاً: بئس العبد عبدٌ همه هواه وبطنه. و قال الأصمعي: سمعت أعرابياً يقول: إذا أشكل عليك أمران لا تدري أيهما أرشد فخالف أقربهما من هواك فإن أكثر ما يكون الخطأ مع متابعة الهوى، وقال بشر: اعلم أن البلاء كله في هواك، والشفاء كله في مخالفتك إياه، وقال الفضيل بن عياض: من استحوذت عليه الشهوات انقطعت عنه مواد التوفيق)[٣].

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، حسين بن محمد الطيبي ٣٥٥/٩.

(٢) ذم الهوى، أبو الفرج بن الجوزي ص ١٣.

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه، ص ٢٢-٢٤ بتصرف.

الحديث رقم (٦٧)

٦٧- الثَّامِنُ: عَنْ أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: قالَ رسولُ اللَّه ﷺ: ((مِنْ حُسْنِ إسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَالاَ يَعْنِيهِ» حديثٌ حسنٌ، رواهُ التِّرْمذيُّ وغيرُهُ[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

يعنيه: يهمه[2].

الشرح الأدبي

جملة واحدة تستضيء حروفها بنور سنة المصطفى ﷺ، في هذا الحديث النبوي المحكم، وكلماته تتلاقى حول دلالة إسلامية تتموج آثارها، وتتضوأ كلماتها، وتقدم هذه الجملة الحديثية صورة متألقة للسلوك الإسلامي في حياة الناس، وهذا السلوك يعني بأوامر الشرع ونواهيه، ولا يُعني بأي أمر يشوه صورة المسلم أو يبدد طاقته أو يجلب له الهلاك أو يوقعه في الشبهات.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٧)، وقال: هذا حديث غريبٌ. وابن ماجه (٣٩٧٦) ولفظهما سواء. ورواه الترمذي برقم (٢٣١٨) عن الزهري، عن علي بن حسين، وقال: وهكذا روى غير واحد من أصحاب الزهريّ، عن علي بن حسين، عن النبي ﷺ نحو حديث مالك مرسلاً، وهذا عندنا أصحُّ من حديث أبي سلمة، عن أبي هريرة، وعلي بن حسين، لم يدرك علي بن أبي طالب. قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس (٢٨٧/١): وقد حسّنه المصنف، لأن رجال إسناده ثقات، وقرّة بن عبد الرحمن بن حيويل وثّقه قومٌ وضعفه آخرون، وقال ابن عبد البر: هذا الحديث محفوظٌ عن الزهري بهذا الإسناد من رواية الثقات، وهذا موافق لتحسين الشيخ له، وأما أكثر الأئمة، فقالوا: ليس هو بمحفوظ بهذا الإسناد، وإنما هو محفوظ عن الزهري، عن علي بن حسين، عن النبي ﷺ مرسلاً، كذلك رواه الثقات عن الزهري، منهم مالك في الموطأ، ويونس، ومعمر، وإبراهيم بن سعد، إلا أنه قال: (من إيمان المرء تركه ما لا يعنيه). وممن قال إنه لا يصحُّ إلا عن علي بن حسين مرسلاً: الإمام أحمد، ويحيى بن معين، والبخاري والدارقطني أهـ أورده المنذري في ترغيبه (٤٢٤٧).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٦٤٧.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف الموجز المحكم.

إن أول ظاهرة أسلوبية في هذا الحديث هي ظاهرة التقديم والتأخير؛ ففي الحديث عدول عن الترتيب المألوف للجملة: لأن قوله ﷺ: "من حسن إسلام المرء" في موقع الخبر، وقد جاء مقدماً على المبتدأ وهو "تركه ما لا يعنيه"، وتقديم الخبر يسمى في علم الأسلوب الحديث عدول أو انزياحًا عن الترتيب النمطي للجملة، لأن الثمرة المبتغاة هى الحرص على حسن إسلام المرء وحسن الإسلام عبارة عن كماله، وهو أن تستقيم نفسه في الإذعان لأمر الله تعالى والاستسلام لأحكامه، كما يقول صاحب كتاب: دليل الفالحين[1].

والجملة الثانية هي المبتدأ، وحقها أن تكون في أول الكلام، لأن المبتدأ له الصدارة، ولكن التأخير له سره البلاغي، وقيمته الأسلوبية، وهو أن ترك ما لا يعني الإنسان لابد أن يكون مصحوباً بالنية الخالصة التي تحرص على حسن الإسلام، والمراقبة التامة لكل سلوك.

وذلك هو السر في إدراج هذه الحديث الشريف في باب المراقبة، لأن الإنسان قد يترك ما لا يعنيه بدافع مذهبي أو اجتماعي أو فلسفي، ولا يكون ذلك بدافع من الحرص على التعاليم الإسلامية، ولذلك تأتي الإشارة الأسلوبية في التعبير بـ"من"، فهي تبعيضية أي: أن ترك ما لا يعني الإنسان هو جزء من التكوين الجمالي الذي يعطي الصورة الكلية للسلوك الإسلامي. ولنتأمل موجبات هذه العبارة القليلة في ألفاظها "تركه ما لا يعنيه". أي الذي لا يعنيه، فكل الأقوال والأفعال التي لا تشارك في بناء حياة المسلم يتضمنها هذا الترغيب في تركها؛ حفاظاً على صورة المسلم الصحيحة، لأن معنى يعنيه أنه تتعلق عنايته به ويكون من مقصده ومطلوبه، والعناية شدة الاهتمام بالشيء، يقال عناه يعنيه: إذا اهتم به وطلبه. وإذا حسن الإسلام اقتضى ترك ما لا يعني كله من المحرمات أو المشتبهات والمكروهات وفضول المباحات التي لا يحتاج إليها، فإن هذا كله لا يعني المسلم إذا كمل إسلامه وبلغ

---

(١) ص ١٧٩.

إلى درجة الإحسان، فمن عَبَدَ الله على استحضار قربه ومشاهدته بقلبه أو على استحضار قرب الله منه واطلاعه عليه، فقد حسن إسلامه، ولزم من ذلك أن يترك كل ما لا يعنيه في الإسلام، ويشتغل بما يعنيه فيه[1]. فإن العبد إذا شغل بما لا يعنيه فإنه يضيع زمانه ويحاسب على عمل لسانه ويحرم من نعيم الله ورضوانه.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانياً: من أهداف الدعوة: توجيه الناس إلى الخير.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: ترك المرء ما لا يعنيه أمارة على حسن إسلامه.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

جاء الحديث الشريف في أسلوب الإخبار "من حُسْن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه" ولعلَّ السبب في كون صياغة الحديث جاءت في ثوب الإخبار، لعل السبب في ذلك هو أن الحديث جاء ليقرر حقيقة تلقتها العقول والأفهام بالقبول والتسليم، فلا تحتاج إلى توكيد أو أمر أو نحو ذلك، وإنما يكفي في ذلك الإخبار بها، فيفهم المدعوون المراد بذلك، فيعملون بمقتضاها ويلتزمون بها. وهناك وجه آخر لبيان الحكمة من استخدام الإخبار، وهو أنه يناسب فتح باب التنافس واسعًا بين المدعوين، فمما لا شك فيه أن حسن الإسلام يختلف باختلاف المسلمين، فهناك من يكون إسلامه أحسن من غيره، وهكذا، وذلك على قدر طاعة كل مسلم وامتثاله، ومن ذلك تركه لما لا يعنيه، فجاء الإخبار ليحث المدعوين على ترك ما لا عناية لهم به، وكلما كانوا أصدق في ذلك كانوا أحسن إيمانًا، والله أعلم.

ثانياً- من أهداف الدعوة: توجيه الناس إلى الخير:

إن من أهداف الدعوة التي ترمي إلى تحقيقها: توجيه الناس إلى الخير، وتوجيههم إلى ما ينفعهم. وفي هذا الحديث يوجه النبي أمته إلى طريق من طرق حسن الإسلام من

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ص ٩٨.

خلال ترك ما لا يعنيهم، لأن ذلك يجعل المؤمن يهتم ويُعنى بما طلب منه من تكليفات، وينشغل بنفسه وتهذيبها عن الآخرين وهذا ما يهدف إليه الإسلام.

وقال القاري في معنى "تركه ما لا يعنيه" أي: (ما لا يهمه ولا يليق به قولاً وفعلاً، ونظراً وفكراً، وحقيقة ما لا يعنيه ما لا يحتاج إليه في ضرورة دينه ودنياه، ولا ينفعه في مرضاة مولاه بأن يكون عيشه بدونه ممكناً، وهو في استقامة حاله بغيره متمكناً، وذلك يشمل الأفعال الزائدة والأقوال الفاضلة)[1].

وإذا كان اشتغال الإنسان بما لا يعنيه من اللغو فإن الله وصف المؤمنين بأنهم معرضون عن اللغو ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾[2] ووصف عباد الرحمن بأنهم ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾[3] يقول القاسمي في تفسير آية سورة المؤمنون: (﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ أي: عن الفضول وما لا يعني من الأقوال والأفعال، معرضون في عامة أوقاتهم، لاستغراقهم بالجد)[4] ومن هنا وجب على الدعاة إلى الله توجيه الناس إلى ترك ما لا يعنيهم طلباً لحسن الإسلام. وتحذيراً لهم من حرمان الجنان.

قال الطوفي: "فإن قيل: فلم قال: من حسن إسلام المرء على التبعيض، ولم يقل: حسن إسلام المرء".

قلنا: لأن ترك ما لا يعني ليس هو كل حسن الإسلام، بل بعضه، وإنما جميع حسن الإسلام ترك ما لا يعني، وفعل ما يعني فإذا فعل ما يعنيه،وترك ما لا يعنيه فقد كمل حسن إسلامه.

فإن قيل: فلم قال: من حسن إسلامه، ولم يقل من إسلامه؟

قلنا: لأن ترك ما لا يعني ليس هو نفس الإسلام ولا جزءاً منه، بل هو وصفه وهو

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٥٠/٢.

(٢) سورة المؤمنون: آية ٣.

(٣) سورة الفرقان: آية ٧٢.

(٤) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي ٧١/١٢/٧.

حسنه، وحسن الشيء ليس هو ذاته ولا جزءه.

أما الإسلام نفسه فهو الانقياد لغة، والأركان الخمسة شرعاً فهو كالجسم، وترك ما لا يعني كالشكل واللون له.

واعلم أن كل شيء فإما أن يعني الإنسان أو لا يعنيه، وعلى التقديرين فإما أن يفعله أو يتركه فهي أربعة أقسام:

فعل ما يعني، وترك ما لا يعني، وهما حسنان، وترك ما يعني وفعل ما لا يعني وهما قبيحان.

والذي يعني الإنسان من أمر معاشه ما يشبعه من جوع، ويرويه من عطش، ويستره من ظهور عورته، ويعفه من زنا، وما تعلق بذلك على جهة دفع الضرر لا على جهة التلذذ والتمتع والاستكثار، والذي يعنيه من أمر معاده الإسلام والإيمان والإحسان، والإمعان في ذلك والاستكثار أولى من الإقلال والاختصار.

وهذا الحديث يرجع إلى قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾[1]، ونحوه لأن ذلك جميعه مما لا يعنيه. والله عز وجل أعلم بالصواب[2].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: ترك المرء ما لا يعنيه أمارة على حسن إسلامه:

قال ابن رجب: (وهذا الحديث يدل على أن ترك ما لا يعني المرء من حسن إسلامه، فإذا ترك ما لا يعنيه، وفعل ما يعنيه كله، فقد كمل حسن إسلامه، وقد جاءت الأحاديث بفضل من حسن إسلامه وأنه تضاعف حسناته وتكفر سيئاته، وكثرة المضاعفة تكون بحسب حسن الإسلام فعن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: ((إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلَامَهُ فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ. وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِمِثْلِهَا حَتَّى يَلْقَىٰ اللهَ))[3].

(١) سورة الأنعام، آية: ١٢٠.

(٢) التعيين في شرح الأربعين، نجم الدين الطوفي ص ١٢٢ - ١٢٣.

(٣) أخرجه مسلم ١٢٩.

فالمضاعفة للحسنة بعشر أمثالها لابدَّ منه، والزيادة على ذلك تكون بحسب إحسان الإسلام، وإخلاص النية والحاجة إلى ذلك العمل وفضله[١].

وقال أيضاً: "وهذا الحديث أصل عظيم من أصول الأدب، وقد حكى الإمام أبو عمرو بن الصلاح عن أبي محمد بن أبي زيد إمام المالكية في زمانه أنه قال: جماع آداب الخير وأزمته تتفرع من أربعة أحاديث قول النبي ﷺ: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت)[٢]، وقوله ﷺ (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)، وقوله ﷺ للذي اختصر له في الوصية: (لا تغْضَب)[٣]، وقوله ﷺ: (المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه)[٤].

ومعنى هذا الحديث: أن من حسن إسلامه ترك ما لا يعنيه من قولٍ وفعلٍ واقتصر على ما يعنيه من الأقوال والأفعال. ومعنى يعنيه: أنه تتعلق عنايته به ويكون من مقصده ومطلوبه، والعناية: شدة الاهتمام بالشيء. يقال: عناه يعنيه إذا اهتَّم به وطلبه، وليس المراد أنه يترك ما لا عناية له به ولا إرادة بحكم الهوى وطلب النفس، بل بحكم الشرع والإسلام، ولهذا جعله من حسن الإسلام فإذا حَسُنَ إسلامُ المرء تَرَكَ ما لا يعنيه في الإسلام من الأقوال والأفعال؛ فإن الإسلام يقتضي فعل الواجبات.

وإن الإسلام الكامل الممدوح يدخل فيه ترك المحرمات، كما قال النبي ﷺ: ((المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسانِهِ وَيَدِهِ))[٥]، وإذا حسن الإسلام اقتضى ترك ما لا يعني كله من المحرمات والمشتبهات والمكروهات، وفضول المباحات التي لا يحتاج إليها؛ فإن هذا كله لا يعني المسلم إذا كمل إسلامه وبلغ إلى درجة الإحسان، وهو أن يعبد الله تعالى كأنه يراه فإن لم يكن يراه، فإن الله يراه فمن عبدالله على استحضار

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٩٥/١.

(٢) أخرجه البخاري ٦١٣٦، ومسلم ٤٧.

(٣) أخرجه البخاري ٦١١٦.

(٤) أخرجه البخاري ١٣ واللفظ له، ومسلم ٤٥ مرفوعًا: (لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه).

(٥) أخرجه البخاري ١٠، ومسلم ٤٠.

قربه ومشاهدته بقلبه أو على استحضار قرب الله منه واطلاعه عليه، فقد حسن إسلامه ولزم من ذلك أن يترك كل ما لا يعنيه في الإسلام ويشتغل بما يعنيه فيه، فإنه يتولد من هذين المقامين الاستحياء من الله وترك كل ما يستحيي منه.

قال بعضهم: استحي من الله على قدر قربه منك، وخف الله على قدر قدرته عليك.

وقال بعض العارفين: إذا تكلمت فاذكر سمع الله لك، وإذا سكتّ فاذكر نظره إليك.

وقد وقعت الإشارة في القرآن العظيم إلى هذا المعنى في مواضع كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾[3].

وأكثر ما يراد بترك ما لا يعني حفظ اللسان من لغو الكلام كما أشير إلى ذلك في الآيات الأول التي هي في سورة (ق).

وقال عمر بن عبدالعزيز: (من عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه. وهو كما قال فإن كثيرًا من الناس لا يعد كلامه من عمله فيجازف فيه ولا يتحرى)[4].

وحسن الإسلام من وسائل تحقيقه: إمساك اللسان عن الخوض فيما لا يعنيه، فقد

---

(١) سورة ق، الآيات: ١٦ - ١٨.

(٢) سورة يونس، آية: ٦١.

(٣) سورة الزخرف، آية: ٨١.

(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٨٨/١ - ٢٩١.

قال ابن قدامة: "وآفات اللسان كثيرة متنوعة، ولها في القلب حلاوة، ولها بواعث من الطبع، ولا نجاة من خطرها إلا بالصمت، فالصمت يجمع الهمة ويفرغ الفكر.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما شيء أحوج إلى طول سجن من لساني.

وقال أبو الدرداء: انصف أذنيك من فيك، فإنما جعلت لك أذنان وفم واحد، لتسمع أكثر مما تتكلم به. وقال مخلد بن الحسين: ما تكلمت منذ خمسين سنة بكلمة أريد أن أعتذر منها.

ومن أولى آفات اللسان: الكلام فيما لا يعني.

فاعلم أن من عرف قدر زمانه وأنه رأس ماله، لم ينفقه إلا في فائدة، وهذه المعرفة توجب حبس اللسان عن الكلام فيما لا يعني لأنه من ترك ذكر الله تعالى واشتغل فيما لا يعني كان كمن قدر على أخذ جوهرة، فأخذ عوضها مَدَرة[1]، وهذا خسران العمر.

وقد قيل للقمان الحكيم: ما بلغ من حكمتك؟ قال: لا أسأل عما كفيته، ولا أتكلم بما لا يعنيني.

وقد روي أنه دخل على داود عليه السلام وهو يسرد درعاً، فجعل يتعجب مما رأى، فأراد أن يسأله عن ذلك، فمنعته حكمته فأمسك، فلما فرغ داود عليه السلام، قام ولبس الدرع ثم قال: نعم الدرع للحرب. فقال لقمان: الصمت حكم وقليل فاعله!![2].

وإذا كان حسن الإسلام له من الفضل والأجر الكثير فيجب على الداعية أن ينبه المدعوين إلى الأمور التي يكون بها حسن الإسلام والتي منها ترك المرء ما لا يعنيه.

---

(١) المدر: الطين اللَّزج المتماسك، والقطعة منه مَدَرة، الوسيط في (م د ر).

(٢) مختصر منهاج القاصدين ١٨٠ - ١٨١.

الحديث رقم (٦٨)

٦٨- التَّاسعُ: عَنْ عُمَرَ ﵁ عَنِ النَّبيِّ ﷺ قال: «**لا يُسْأَلُ الرَّجُلُ فيمَ ضَربَ امْرَأَتَهُ**» رواه أبو داود وغيرُه(١).

ترجمة الراوي:

عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١).

الشرح الأدبي

- إن هذا الحديث الشريف يعرض لقضية اجتماعية في ظل القيم الإسلامية الراشدة، وهذه القضية هي العلاقة بين الرجل وامرأته في الإسلام، وهي علاقة وطيدة الأركان متماسكة البنيان. وقد حرص الإسلام على ترسيخ هذه العلاقة، وعلى إقامتها على أسس قوية متينة؛ فجعلها من دلائل قدرة الله وآياته حيث قال عز وجل: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢).
- وفي خطبة حجة الوداع يوصي رسول الله ﷺ المسلمين جميعاً بضرورة رعاية النساء وأن يستوصي الرجال بهن خيراً، فقال وهو ينظم العلاقة الحميمة بين الرجل والمرأة في ظل التعاليم الإسلامية، وهو ينادي الناس جميعاً: «ألاَ واسْتَوْصُوا بالنِّسَاءِ خَيراً، فإنَّمَا هُنَّ عَوانٌ عِنْدَكمْ لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئاً غَيْرَ ذلِكَ، إلاَّ أَنَّ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ فَإِنْ فَعَلْنَ فَاهجُرُوهُنَّ في

---

(١) أخرجه أبو داود (٢١٤٧) واللفظ له، وابن ماجه (١٩٨٦). قال ابن كثير في مسند الفاروق (١/١٨٢): قال ابن المديني: هذا إسناد مجهول، وداود بن عبد الله الأودي لا أعلم أحدًا روى عنه إلا زهير، وأبو عوانة. وعبد الرحمن المسلي، ويكنى بأبي وبرة: لا أعلم روى عنه غير هذا.

(٢) سورة الروم: ٢٠-٢١ .

المضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبَرِّحٍ. فَإِنْ أطَعْنكُمْ فَلاَ تَبْغُوا علَيْهِنَّ سَبِيلاً. أَلاَ إنّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُم حَقّاً. ولِنسَائِكمْ عَلَيْكُمْ حَقاً. فَأَمَّا حَقكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ فَلاَ يُوطِئنَ فُرُشكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ ولاَ يَأْذَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ. ألاَ وحَقهُنَّ عَلَيْكُمْ أنْ تُحسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وطَعَامِهِن»(١).

إن هذه الوصايا النبوية الحكيمة ترشد كل عاقل إلى أن الأمور الزوجية، وأبعاد العلاقة بين الرجل وامرأته تظل في دائرة الكتمان والأمانة، ولا يجوز لمسلم أن يفشي أسرار بيته، وكذلك لا يجوز للمرأة المسلمة أن تذيع أسرار بيتها؛ حفاظاً على هذه الأمانة وحرصاً على أن تظل الحياة متوجة بسياج من السكن والمودة والرحمة، فهذه هي أهم معالم الروضة الزوجية وأهم ثمرات الحياة الأسرية.

- وفي ضوء هذه الأبعاد وهذه التعاليم يمكن أن نعلل السر الذي من أجله نفى رسول الله ﷺ سؤال الرجل: لم ضرب امرأته؟ وفي أي موقف؟ ولأي سبب كان هذا الضرب غير المبرح؟ لأنه وسيلة من وسائل إصلاح الحياة وإعادة العلاقة، وقد يكون السبب سراً من أسرار الحياة الزوجية لا يحسن ذكره، ومن هنا يجئ هذا الحديث في إشاراته وموحياته ليحافظ على جمال العلاقة بين الرجل وامرأته، ولتظل هذه الحياة بكل ملابساتها أمانة بين الزوجين حفاظاً على الأبناء ومستقبلهم، وضماناً لوأد الخلافات، وحرصاً على طاعة الزوجة.
- وقيل: إن السر في عدم السؤال احتمال أن يكون السبب مما يستحيا من ذكره، بل يترك ذلك إلى الزوج المسلم وإلى مراقبته لمولاه إلا إذا احتاج الأمر إلى جريان الأحكام والرفع إلى الحكام فتبين الأمور(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي ١١٦٣، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي،٩٢٩).

(٢) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٢١٢.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم ضرب الرجل زوجته تأديباً لها، وقد اتفق الفقهاء على أنه يجوز للزوج تأديب زوجته بالموعظة والهجر والضرب إن لم تستجب للأولين، على أن يكون الضرب خفيفاً يتقي فيه المقاتل والمهانة، كاللكزة ونحوها، وأن يقصد به زجر المرأة وعودتها إلى الحق، فإن فاءت لم يكن له أن يبغي عليها أو يضرب ثانية وإلا ضمن تلفها إن حدث، ويكون تأديب الزوج لزوجته لتركها حقه هو باتفاق الفقهاء كأن تخرج بغير إذنه أو تترك الزينة له مع القدرة عليها، أو تترك الاغتسال من الجنابة، أو لا تجيبه إلى الفراش إذا دعاها إليه، أما ضربها لحق الله تعالى كأن كانت لا تصلي فذهب الحنفية والشافعية إلى أنه لا يجوز له تأديبها لحق الله تعالى، وذهب المالكية والحنابلة إلى جواز تأديبها لحق الله تعالى[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النفي.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: المحافظة على خصوصيات الحياة الزوجية.

- ثالثاً: من موضوعات الدعوة: عدم التدخل في شؤون الغير.

أولاً- من أساليب الدعوة: النفي:

جاء الحديث في أسلوب النفي "لا يُسأل الرجل فيم ضرب زوجته" وهو بمعنى النهي، ولعل أسلوب النفي هنا يستنبط منه أن هذا الأمر مقرر وثابت فلا يحتاج معه زيادة في التنبيه، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه يستنبط منه دفع الرجل إلى مراقبةالله في

---

(١) تكملة البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٣٩٢/٨، ومجمع الأنهر لداماد أفندي ٦٣٢/٢، وأحكام القرآن لابن العربي ٢٦١/٤، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٧٢/٥، وتبصرة الحكام لابن فرحون ٣٤٠/٢، والغرر البهية للأنصاري ١٠٨/٥، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري ١٦٣/٤، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي ٧٩/٦، والمغني، ابن قدامة لابن قدامة ١٥٠/٩، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢١/١٠ وما بعدها.

تعامله مع زوجته، فإذا كان يسأل عن ضربه لزوجته، فهذا أدعى لأن يراقب الله فيها، فلا يعاملها إلا بالحسنى. لذا كان أسلوب النفي -في رأينا- هنا أبلغ من النهي، والله أعلم.

- **ثانياً- من موضوعات الدعوة: المحافظة على خصوصيات الحياة الزوجية:**
- يرغب الإسلام دائماً في قيام الحياة الزوجية على الستر فلا الزوجة تنشر سر زوجها، ولا الزوج ينشر سر زوجته وقد وصف الله العلاقة بينهما بأن كليهما لباس للآخر، واللباس إنما يتخذ للستر، قال الله تعالى: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾[1] وفي النهي عن سؤال الرجل فيم ضرب امرأته حفظ للستر؛ لاحتمال أن يكون السبب مما يستحيا من ذكره كالامتناع من التمكين ولذا دعا الإسلام إلى معالجة مشكلات الحياة الزوجية بين الزوجين في داخل البيت قال الله عز وجل: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾[2].
- وإن فشل هذا التدرج في معالجة المشكلة فلا مناص من الإخبار للغير ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾[3].
- يقول الطيبي: (وقوله: "لا يسأل" عبارة عن عدم التحرج والتأثم؛ لقوله تعالى:

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٧.

(٢) سورة النساء، آية: ٣٤.

(٣) سورة النساء، آية: ٣٥.

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾[١] أي أزيلوا عنهن التعرض بالأذى والتوبيخ والتنحي، وتوبوا عليهن، واجعلوا ما كان منهن كأن لم يكن)[٢].

- وبالجملة فهذا الموضوع من الموضوعات الدعوية الهامة التي يجب أن يفطن الدعاة إليه لتوجيه المدعوين إلى حفظ أسرار البيوت، وعدم نشر مشكلاتها حفاظاً على خصوصية الحياة الزوجية.
- **ثالثاً- من موضوعات الدعوة: عدم التدخل في شؤون الغير:**
- وهذا من توجيهات الإسلام لأفراد المجتمع وقد جاء في الحديث الشريف ((مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ ما لا يعْنِيهِ))[٣] ولهذا كان من الآداب الإسلامية ألا يتدخل المرء في شؤون الغير إلا إذا طلب منه ذلك بقصد الإصلاح وحل التنازع، وإبداء الرأي والمشورة، أو بالجملة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وأما التدخل في شؤون الغير لكشف الأسرار، ونشر المشكلات، والشماتة بالآخرين فهذا مما ينأى الإسلام بأتباعه عنه؛ لأنه ليس من خصال أهل الإسلام؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً﴾[٤]؛ فلا يتبع الإنسان الخاطر النفسي، والظن العقلي في الحكم على تصرفات الآخرين، قال ابن عاشور: (وهذا أدب خلقي عظيم، وهو أيضاً إصلاح عقلي جليل يعلم الأمة التفرقة بين مراتب الخواطر العقلية بحيث لا يختلط عندها المعلوم والمظنون والموهوم، ثم هو أيضاً إصلاح اجتماعي جليل يجنب الأمة من الوقوع والإيقاع في الأضرار والمهالك من جراء الاستناد إلى أدلة موهومة)[٥].

---

(١) سورة النساء، آية: ٣٤.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٦/٣٢٠.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٣١٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٨٨٦).

(٤) سورة الإسراء، آية: ٣٦.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور مج٦/١٥/١٠١.

إن المسلم مشغول بحال نفسه، ولا يقحم نفسه في شؤون غيره باحثاً عن عيوبهم، وقضاياهم، وما يعنيهم ومن ثمَّ يربي الإسلام أتباعه على قلة الكلام، وحفظ اللسان، حتى لا يقع فيما يخص الآخرين من أمور.

قال ابن حبان: (جاء عن الفضيل بن عياض أنه قال: شيئان يقسيان القلب: كثرة الكلام، وكثرة الأكل).

وقال سفيان الثوري: (أول العبادة الصمت، ثم طلب العلم، ثم العمل به ثم حفظه، ثم نشره).

قال الأحنف بن قيس: (الصمت أمان من تحريف اللفظ، وعصمة من زيغ المنطق، وسلامة من فضول القول، وهيبة لصاحبه).

قال أبو حاتم: الواجب على العاقل أن يلزم الصمت إلى أن يلزمه التكلم، فما أكثر من ندم إذا نطق، واقل من يندم إذا سكت، وأطول الناس شقاء وأعظمهم بلاء من ابتلي بلسان مطلق، وفؤاد مطبق.

واللسان فيه عشر خصال يجب على العاقل أن يعرفها، ويضع كل خصلة منها في موضعها: هو أداة يظهر بها البيان، وشاهد يخبر عن الضمير وناطق يرد به الجواب، وحاكم يفصل به الخطاب، وشافع تدرك به الحاجات، وواصف تعرف به الأشياء، وحاصد تذهب الضغينة، ونازع يجذب المودة، ومُسلٍ يذكي القلوب ومُعزٍ تردّ به الأحزان.

ولقد أحسن الذي يقول:

ان كان يعجبك السكوت فإنه ... قد كان يعجب قبلك الأخيارا

ولئن ندمتُ على سكوتٍ مرة ... فلقد ندمتُ على الكلام مرارا

ان السكوت سلامة ولربما ... زرع الكلام عداوة وضرارا

واذا تقرب خاسر من خاسر ... زادا بذلك خسارة وتبارا[1][2]

(١) التبار: الهلاك.

(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ٤٣.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

يهدف الإسلام إلى تنمية روح المراقبة والمحاسبة الذاتية التي تنبع من داخل الإنسان، وذلك من خلال عدد من المضامين التربوية التي يعمل على ترسيخها في النفس، وبيان المفاهيم الصحيحة والحقائق الإيمانية وأهمية ذلك في تربية النفس على مراقبة الله والخوف منه، ومراعاة حرماته، وحفظ حدوده، والاستعانة به سبحانه.

إن من أبرز المضامين التربوية التي يجدر ذكرها والمتعلقة بأحاديث باب المراقبة ما يلي:

أولاً: التكامل بين الإيمان والعمل الصالح:

من أبرز أهداف التربية الإسلامية العمل على إيجاد التكامل بين الإيمان والعمل الصالح، لأن طريقة عقد الصلة بين الإيمان والعمل الصالح من الطرق التي تتبعها التربية الإسلامية، كما تبدو في ضوء الحديث الشريف في معنى الإسلام والإحسان الذي ورد في الحديث الشريف حيث بيَّن الأصول الثابتة لطريقة التكامل بين الإيمان والعمل الصالح في التربية الروحية.

وفي هذا البيان تكامل الإيمان مع العمل، والتوجه بذلك نحو الخالق، فإحسان العمل عبادة لله، وهذا يشكل أساساً للتكامل، توحد فيه التربية الروحية الإسلامية بين سلوك الفرد "الخارجي الظاهر، وبين إيمانه الباطن وعقيدته الداخلية، بين التصديق بالقلب وعمل الجوارح، بين الإيمان والإسلام"(١). فالإيمان قول وعمل.

وعلى طريق التكامل بين الإيمان والعمل الصالح والإخلاص وأداء الواجب والإنتاج المثمر وإنكار الذات يتم عقد الصلة الدائمة بين الإنسان وبين الله في كل لحظة -في كل عمل وكل فكرة وكل شعور، وذلك عن طريق إثارة حساسية القلب برقابة الله الدائمة عليه وإثارة وجدان التقوى والخشية الدائمة لله، ومراقبته في كل عمل وكل فكرة وكل شعور(٢).

---

(١) التربية في الإسلام، د.أحمد فؤاد الأهواني، ص٧٧.

(٢) انظر: فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د.عبدالجواد سيد بكر، ١٨٦-١٩٧.

ثانياً: من وسائل التربية الإسلامية: التوجيه المباشر:

إن التوجيه المباشر وسيلة من وسائل العادة التعليمية التطبيقية، وهو طلب المربي المباشر والصريح من طلابه القيام بعمل معين، وهو بمثابة ممارسة العمل للمتعلم أمام مربيه أو العكس قيام المربي بممارسة العمل أمام المتعلم، ثم يتابعه المتعلم[١].

وقد قام النبي ﷺ بتوجيه أصحابه رضي الله عنهم توجيهاً مباشراً، ولم يكتف بمجرد ذلك، بل عمل على الربط بين الإيمان والعمل، وتنمية ملكة المراقبة للسلوك والعمل على إيجاد نوع من التوازن الإيجابي، وتلافي واستدراك جوانب النقص والسعي في تكميلها، ومن توجيهاته المباشرة قوله ﷺ لأبي ذر: ((اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ)).

ثالثاً: تربية النفس على امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه:

إن تعميق الامتثال لأوامر الله تعالى، والانتهاء عما نهى عنه سبحانه لمن أهم ما يجب أن يُربَّى عليه المؤمن، وإذا حفظ العبد ربه، فإن الله يحفظه في مصالح دينه ودنياه...

وإن العبد قد يحيطه الله تعالى بأنواع من الحفظ ولا يشعر بها، بل قد يكره ذلك، وهو لا يعلم أن في ذلك مصلحته.... ولا ينبغي أن ينسى العبد ربه في الرخاء ويذكره في الشدة، بل ينبغي أن يتعرف عليه ويراقبه في حال رخائه واطمئنانه، كما أوصى النبي ﷺ بقوله: ((تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشدَّةِ))[٢].

فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات وترك المحظورات، والصبر على المقدورات فإن القلم جف بما هو كائن، وإنه لا يقدر أحد على مضرة ونفع إلا إذا كتبه الله تعالى[٣].

إن من الأساليب التربوية التي تساعد في حمل النفس على الامتثال لأوامر الله أسلوب الترغيب، لأن التربية الإسلامية لا تغفل أية طريقة، أو أي أسلوب توجه به الإنسان وترشده إلى السلوك الذي يصلح لحياته، وهي بذلك تعطيه حقه من التربية،

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية ووسائلها، ٢٤٢. أساليب الدعوة والتربية، د. زياد محمود العاني، ٢٨٤.

(٢) رواه أحمد، ٣٠٧/١.

(٣) انظر: التربية الروحية والاجتماعية، د.أكرم ضياء العمري، ٦٤-٦٦.

فالإنسان حسب طبيعته الإنسانية التي حددها التصور الإسلامي فيه جانب الخير وجانب الشر[(١)].

وقد رغب النبي ﷺ في حفظ العبد لربه بطاعته، واجتناب معاصيه، بأن ذلك يكون سبباً في حفظ الله تعالى للعبد وتوفيقه له، ولاشك أن ذلك يؤثر في النفس تأثيراً إيجابياً، ويحملها على الطاعة طمعاً في تأييد الله وتوفيقه لعبده المؤمن.

رابعاً: تربية المسلم على ترك مالا يعنيه:

إن الأمور التربوية التي ربى الإسلام المسلم عليها: تركه مالا يعنيه لأجل الإفادة من وقته وطاقته وإمكاناته فيما ينفعه من أمور في الدنيا والآخرة، وليس معنى ذلك أن يكون الشخص نفعياً أو أنانياً لا يُعني إلا بما فيه مصلحته الشخصية، بل تربية المؤمن على أن يترك ما لا يعنيه، ولا ينشغل به لئلا يضيع وقته وجهده في أمور تتعلق بالآخرين، ولئلا يحاول التدخل في خصوصياتهم وشؤونهم الخاصة، مما يجلب النفرة والكراهية والعداوة، وهذا لا يتعارض مع مبدأ التعاون مع الآخرين، أو إغاثة الملهوف، بل إن ذلك مما يثاب المسلم على فعله ويأثم على تركه عند القدرة عليه.

إن الإسلام أراد تربية المسلم على تركيزه على ما طلب منه شرعاً وأن يُعني بما أنيط به من مسؤوليات ومهام وأدوار، حتى لا يكن همّه الأكبر في هذه الحياة تعقب الآخرين من أين جاءوا؟ وإلى أين سيذهبون؟... وما شابه ذلك من تدخلات سافرة، وكأنه ليس له قضية أو دور في هذه الحياة إلا معرفة أخبار الناس.

إن من عظمة التربية الإسلامية في المجال الفكري أنها ركّزت ورشّدت طاقات العقل في الأمور النافعة وعدم تبديد طاقاته، لقد كان النبي ﷺ ينهي الصحابة رضي الله عنهم عن الخوض في أمور غير واقعة، أو لا يترتب عليها عمل أو فائدة وكأن ينهاهم عن الأغلوطات وعضل المسائل وكثرة السؤال فيما لم يكن ولا فائدة منه[(٢)].

---

(١) فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د.عبدالجواد سيد بكر، ٣٤٥.

(٢) انظر: أسس العلم وضوابطه في السنة النبوية، د.فاروق حمادة، ٦٥-١٠٥.

وكان ﷺ يقول: ((اللَّهُمَّ إِنِي أَسْأَلُكَ عِلْماً نَافِعاً وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ))[1].

"إن العقل المسلم عندما فهم طبيعة الدور والمسؤولية المناطة به وعلم المجال الذي يعمل فيه -الكون بما فيه- واستنار بتوجيهات الوحي، ولم يقحم نفسه في الأمور الغيبية التي لا تعنيه، ولم يؤهل للبحث فيها.

عندئذ انطلق العقل المسلم يفكر ويحلل ويستنبط ويستوعب ويبدع....إلخ العمليات الفكرية التي تُرجمت إلى الواقع، فتمخضت عنها الحضارة الإسلامية"[2] التي أنتجتها العقول الإسلامية التي رباها الإسلام على ترك ما لا يعنيها من مجالات فكرية لا يُجدي البحث فيها مثل: مجال الغيب وغير ذلك من المجالات التي تبدد طاقات العقل مثل: المعارك الفكرية الطاحنة التي أضاعت الفرق الإسلامية طاقات العقول في المساجلات الفكرية فيها، كان من الممكن إثراء الفكر الإسلامي فيها.

ومن هنا جاءت التربية الإسلامية لتربي المسلم على تركه مالا يعنيه.

خامساً: التربية العقلية:

تُعنى التربية الإسلامية بتربية العقل أي تزويده بالمعلومات والمعارف التي تساعد على تكوين الإنسان المسلم العابد الصالح، كما أن عنايتها بتربية الجسد وتربية الروح بهدف خلق الشخصية المسلمة المتكاملة، التي تسهم في بناء المجتمع المسلم.

إن التربية الإسلامية ترمي إلى غرس عدد من القيم في نفس المسلم، ومن أبرز هذه القيم ما يلي:

- قيمة التأمل والتفكر.
- قيمة الدقة والتثبت العلمي.

ويمكن القول أن هناك العديد من القيم التي تتصل بتربية العقل مثل قيم حب البحث العلمي والتحري، ودقة الملاحظة والوصول إلى الحقائق، والنقد والترتيب.

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ١/٢٨٣، وابن أبي شيبة ١٠/١٨٥، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله، ١/١٩٥.

(٢) انظر: العلاقة بين العقل والوحي وأثرها على الفكر الإسلامي، د. محيي الدين عفيفي أحمد، ١١٢.

ويرتبط بكل ذلك قيم خلقية مثل التواضع، وقيم اجتماعية مثل مساعدة الآخرين.

إن من أهداف التربية العقلية التي تتضمنها فلسفة التربية الإسلامية ما يلي:

١- تربية الإنسان المسلم على أسلوب التفكير العلمي.

٢- تربية الإنسان المسلم على حب البحث والسعي وراء الحقيقة.

٣- تربية الإنسان المسلم على أسلوب التفكير التأملي والتعامل مع قوى الكون.

٤- تربية الإنسان المسلم على الاستفادة مما يتعلمه، وذلك باستخلاص النتائج والتطبيق، الذي يستفيد من نتائجه في نفع نفسه، ونفع مجتمعه.

٥- المحافظة على الطاقة العقلية للإنسان وعدم شغل عقله بالتفكير في الأمور الغيبية ليتفرغ للتفكير في أمور الطبيعة المادية[1].



(١) انظر: فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د.عبدالجواد سيد بكر، ١٩٨-٢٠١.

٦- باب التقوى

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[آل عمران: ١٠٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللّه مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن: ١٦]. وهذه الآية مبينة للمراد مِنَ الأُولى. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾[الأحزاب: ٧٠]، وَالآيات في الأمر بالتقوى كثيرةٌ معلومةٌ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾[الطلاق: ٢-٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[الأنفال: ٢٩] والآيات في البابِ كثيرةٌ معلومةٌ.

وأمَّا الأَحَاديثُ:

الحديث رقم (٦٩)

٦٩- فَالأَوَّلُ: عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قِيلَ: يا رسولَ اللَّهِ مَن أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قال: «**أَتْقَاهُمْ**» فقَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذا نَسْأَلُكَ، قَالَ: «**فيُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابن نَبِيِّ اللَّهِ ابن نَبيِّ اللَّهِ ابنِ خَلِيلِ اللَّهِ**». قَالُوا: لَيْسَ عن هَذَا نَسْأَلُكَ، قال: «**فعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَب تسْأَلُونِي**[١]؟ **خِيَارُهُمْ في الْجاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ في الإِسلامِ إِذَا فَقُهُوا**» متفقٌ عليه[٢].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

معادن العرب: أصولها التي ينسبون إليها ويتفاخرون بها[٣].

فقُهوا: بضم القاف على المشهور وحكي كسرُها: أي علموا أحكام الشرع[٤].

---

(١) لفظ البخاري: (تسألون).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٥٣)، ومسلم (٢٣٧٨/١٦٨) ولفظهما سواء.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع د ن)، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٢٠.

(٤) رياض الصالحين ٧٧.

الشرح الأدبي

- تَسْطع كلمة "أتقاهم" في أفق الحديث الشريف الذي جعله صاحب رياض الصالحين في صدارة باب التقوى، وجاءت صيغة التقوى في قالب: "أفعل التفضيل"، حيث سئل رسول الله ﷺ: "من أكرم الناس؟ فقال: أتقاهم"، فالسؤال ورد في صيغة أفعل التفضيل، وكذلك الجواب ورد مناظراً ومساوياً في المبنى والمعنى، وللكرم دلالات كثيرة ومنها: كثرة الخير ولكن رسول الله ﷺ، كما قال العلماء، أخبر بأكرم الكرم وأعمه، فالكرم ليس عطاءً مادياً فحسب، ولكنه أعم من ذلك وأشمل، وفي اللغة، الكريم: الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل[1].
- والتقوى من الوقاية وهي اتخاذ وقاية تقيك مما تخافه وتحذره، وللتقوى ثلاث مراتب: الأولى: التوقي عن العذاب المخلد بالتبري عن الشرك، والثانية: التجنب عن كل ما يؤلم من فعل أو ترك حتى الصغائر عند قوم، وهو المتعارف عليه باسم التقوى في الشرع، والثالثة: أن ينتزه عما يشغل سره عن الحق ويتبتل إليه، وهو التقى الحقيقي المطلوب بقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[2]. وفي هذه الدائرة الإيمانية تتحرك سمات ومعالم الذين عناهم الرسول ﷺ بقوله: أتقاهم، في توضيحه لمن هو أكرم الناس، وفي ذلك موافقة صريحة للنص القرآني: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[3].

وفي الحديث ظواهر فنية وأسلوبية كثيرة تفصح عن القيمة الأسلوبية والبيانية للحديث النبوي الشريف.

- والحوار التدريجي أول وسيلة من وسائل الإقناع والإفهام والتعليم، والحديث محاورة عظيمة تربوية توجيهية تعليمية بين الرسول ﷺ وبعض أصحابه،

---

(١) لسان العرب، ابن منظور في (ك ر م).

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٢.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٣.

ومن أسرار هذا الحديث أن السائل لم يحدد، وهم مجموعة وليسوا فرداً واحداً، وذلك يشير إلى أن هذه الأسئلة كانت تدور في خلد الكثيرين.

- وعلمهم رسول الله ﷺ عن طريق هذا الحوار، فكما أن للتقوى مراتب، فكذلك للكرم مراتب، وبدأ الرسول بأكرم الكرم وأعمه، فإن من كان متقياً كان كثير الخير في الدنيا، صاحب الدرجات العليا في الآخرة.
- والإجابة الثانية تتدرج في الكرم وتحدد المعالم الشخصية والروحية مع النسب الكريم، وفضل النبوة وكلها تجتمع في شخصية يوسف عليه السلام. وتكرار العبارات والألفاظ، وحذف بعض الجمل، والعطف بالفاء في ربط كلمات الحديث، كلها من وسائل التأثير والإفهام والإقناع، وأدرك الرسول ﷺ مقصد السائلين بعد أن أخبرهم بدرجات الكرم أشملها ثم أخصها، وأوضح أن المعدن الأصيل لا يصدأ، والكريم لا يكون خسيساً وكذلك الناس.

فقه الحديث

الجواب بحسب ما يظهر: قال القرطبي: (فيه [أي في الحديث] أن العالم يجوز له أن يجيب بحسب ما يظهر له، ولا يلزمه أن يستفصل السائل عن تعيين الاحتمالات، إلا إن خاف على السائل غلطًا أو سوء فهم فيستفصله)[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانياً: من واجبات المدعو: السؤال عن معالي الأمور.

ثالثاً: من صفات الداعية: حضور البديهة.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: فضل التقوى.

- خامساً: من موضوعات الدعوة: فضل نبي الله يوسف عليه السلام.
- سادساً: من موضوعات الدعوة: فضل التفقه في الدين.

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٦/٢٢٧.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

يظهر هذا من الحديث ((من أكرم الناس؟)) والسؤال والجواب من أساليب الدعوة التي يتوصل بها الداعية إلى تبليغ رسالته، ولا شك أن السؤال والجواب كأسلوب دعوي يجعل المادة الدعوية تثبت في أذهان المدعوين، ويعين على فهم المراد، ويحدث نوعاً من الحوار بين الداعية والمدعو. قال الدكتور عبدالكريم البكار: "إن أسلوب الحوار والمناقشة والمراجعة كان هو الأسلوب الأكثر انتشاراً في الحلقات العلمية في تراثنا القديم، وحين تراجعت جذوة حب المعرفة في نفوس المسلمين، ودخلوا في عصور التقهقر ساد أسلوب التلقين وصارت عملية الاتصال الدعوي تقوم على طرف واحد هو الداعية أو الخطيب أو المعلم، والمدعوون غير قادرين على المناقشة ومن أسباب ذلك عجز الداعية عن إثارة حماسة المخاطبين، واستخراج الفضول لديهم بسبب عدم اشتمال كلامه على الطارف الجديد الذي يستحق التساؤل والتحاور، ومن هنا كان لابد من تشجيع الناس على طرح الأسئلة"[1].

ثانياً- من واجبات المدعو: السؤال عن معالي الأمور:

كثير من الناس يحجم عن سؤال الداعية، أو يسأل فيما لا يعود بنفع، وفي هذا الحديث إرشاد للمدعوين أن يكون السؤال عن معالي الأمور وينفع في أمور الدين والدنيا فقد كان السؤال في هذا الحديث عن أكرم الناس. وقد علّم الله المؤمنين هذا الأدب فقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾[2] قال الإمام ابن كثير: (هذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين، ونهي لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها؛ لأنها إن ظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءتهم وشق عليهم سماعها)[3] وواجب المدعوين أن يلتزموا بهذا الأدب القرآني وأن يسألوا عن الأمور التي تنفعهم وتفيدهم في دنياهم وأخراهم.

---

(١) مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، د. عبدالكريم بكار ١٥٤.

(٢) سورة المائدة، آية: ١٠١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٠٣/٣.

ثالثاً- من صفات الداعية: حضور البديهة:

ويظهر هذا من الحديث من إجابة النبي ﷺ على سؤال من سأله، وتعدد إجاباته ﷺ وصولاً إلى مقصودهم، وهذا يدل على فطنته وحضور بديهته ﷺ، وهكذا يجب أن يكون الداعي حتى يتمكن من محاورة المدعوين وإقناعهم. "وإذا كان للإيمان ثمرات، وللعلم فاعليته ودوره فإن للذكاء والفطنة أهميتها التي لا تنكر، أو إيجابيتهما التي لا تخفى، وتوفر الذهن الوقاد والعقل السديد ميزة عظمى يتحلى بها الداعية فلا سذاجة تضيع بها معاني الريادة، ولا طيش ولا خفة تطمس معالم الهيبة، بل عقل فطن يرَّجحُ إذا اختلفت الآراء، ويحلل ويدلل إذا فقد الإدراك وغاب التصور ويتقن ترتيب الأولويات، واختيار الأوقات، وانتهاز الفرص والمناسبات، ويحسن التخلص من المشكلات، ويقوى على الرد على الشبهات، والتكيف مع الأزمات[(١)]. ومن الصفات الواجبة للرسل عليهم السلام الفطنة والذكاء، قال تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[(٢)].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: فضل التقوى:

هذا واضح من قول النبي ﷺ عندما سئل من أكرم الناس فقال: أتقاهم وهو موافق لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾[(٣)] وفي الأمر بالتقوى قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[(٤)] وقال ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾[(٥)] وفي بيان فضلها قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ﴾[(٦)] وقال جل

---

(١) مقومات الداعية الناجح، د. علي عمر بادحدح ص ٩٢.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٧٩.

(٣) سورة الحجرات: آية ١٣.

(٤) سورة آل عمران: آية ١٠٢.

(٥) سورة الأحزاب: آية ٧٠.

(٦) سورة الطلاق: الآيتان ٢، ٣.

شأنه: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾[١]. والمتقون لهم المكانة العالية عند الله والارتفاع فوق الكفرة والساخرين قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[٢]. والمتقون ينالون محبة الله قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٣]. والمتقون في معية الله سبحانه ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٤]، وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[٥]. والمتقون لهم الفلاح قال الله عز وجل: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٦]، والمتقون ينتفي عنهم الخوف والحزن ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٧]، والمتقون لهم الفوز والبشرى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٨]، والمتقون لهم حسن العاقبة قال تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[٩]، وقال جل شأنه: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١٠]، والمتقون تتنزل عليهم البركات ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[١١].

---

(١) سورة الأنفال: آية ١٩.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢١٢.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٧٦.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٩٤.

(٥) سورة النحل، آية: ١٢٨.

(٦) سورة المائدة، آية: ١٠٠.

(٧) سورة الأعراف، آية: ٣٥.

(٨) سورة يونس، الآيتان: ٦٣-٦٤.

(٩) سورة طه، آية: ١٣٢.

(١٠) سورة القصص، آية: ٨٣.

(١١) سورة الأعراف، آية: ٩٦.

خامساً- من موضوعات الدعوة: فضل نبي الله يوسف:

ذلك لأن النبي لما قالوا له: ليس عن هذا نسأل قال: "فأكرم الناس يوسف" يقول الإمام ابن حجر: (الجواب الأول من جهة الشرف بالأعمال الصالحة، والثاني من جهة الشرف بالنسب الصالح)[1] وهذا يدل على فضل نبي الله يوسف فهو ابن نبي الله يعقوب ابن نبي الله إسحاق بن نبي الله إبراهيم عليهم السلام. وقد قال له أبوه عليه السلام ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾[2].

قال القرطبي (الاجتباء اختيار معالي الأمور للمجتبى، وهذا ثناء من الله تعالى على يوسف عليه السلام، وتعديد فيما عدده عليه من النعم التي آتاه الله تعالى؛ من التمكين في الأرض، وتعليم تأويل الأحاديث، والسجود له، والنبوة)[3]. ولقد كان من دعائه عليه السلام ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[4]، وآتاه الله الحكم والعلم، قال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[5]، ومكن الله له في الأرض، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[6].

سادساً- من موضوعات الدعوة: فضل التفقه في الدين:

يظهر هذا من قول النبي ﷺ "إذا فقهوا" حيث جعل شرط الشرف في الإسلام بعد

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٤٧٧/٦.

(٢) سورة يوسف، آية: ٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٢٩/٥.

(٤) سورة يوسف، آية: ١٠١.

(٥) سورة يوسف، آية: ٢٢.

(٦) سورة يوسف، آية: ٥٦.

الشرف في الجاهلية بالفقه في الدين يقول ابن حجر: (إن الأفضل من جمع بين الشرف في الجاهلية والشرف في الإسلام، وكان شرفهم في الجاهلية بالخصال المحمودة من جهة ملائمة الطبع، ثم الشرف في الإسلام بالخصال المحمودة شرعاً، ثم أرفعهم منزلة ومرتبة من أضاف إلى ذلك التفقه في الدين)[١] وفي فضل الفقه في الدين قال النبي ﷺ: ((مَنْ يُرِدِ اللّهُ به خيراً يُفَقِّهْهُ في الدِّين))[٢] قال النووي: (وفي الحديث فضل العلم والتفقه في الدين والحث عليه وسببه أنه قائد إلى تقوى الله عز وجل)[٣].

وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾[٤]، قال ابن كثير: «أي ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم، وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم»[٥].

قال ابن القيم: «وأما فقهاء الإسلام ومن دارت الفتيا على أقوالهم بين الأنام الذين خصوا باستنباط الأحكام، وعنوا بضبط قواعد الحلال والحرام، فهم في الأرض بمنزلة النجوم في السماء، بهم يهتدي الحيران في الظلماء، وحاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب، وطاعتهم أفرض عليهم من طاعة الأمهات والآباء بنص الكتاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٦]».

قال ابن عباس في إحدى الروايتين عنه ومجاهد في إحدى الروايتين عنه وجابر بن عبدالله والحسن البصري وأبو العالية وعطاء بن أبي رباح والضحاك: أولوا الأمر هم العلماء وهو إحدى الروايتين عن أحمد[٧].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٤٧٧/٦.

(٢) أخرجه البخاري ٧١، ومسلم ١٠٣٧.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٥٦.

(٤) سورة التوبة، آية: ١٢٢.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٣٦/٢.

(٦) سورة النساء، آية: ٥٩.

(٧) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم ١٨.

الحديث رقم (٧٠)

٧٠- الثَّانِي: عَنْ أبي سَعيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الدُّنْيا حُلْوَةٌ خضِرَةٌ، وإنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا. فينْظُر كَيْفَ تَعْمَلُونَ. فَاتَّقوا الدُّنْيَا واتَّقُوا النِّسَاءِ. فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنةِ بَنِي إسْرَائيلَ كَانَتْ في النسَاء» رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

غريب الألفاظ:

خضرة: غضة ناعمة طرية[٢].

الشرح الأدبي

- هذه قطعة أدبية سامقة المعنى، رائعة التصوير، جليلة الألفاظ، جميلة الأداء، تتسم بالإيجاز الذي لا نقص فيه، وبالوضوح الذي لا ضعف في دلالاته ومبانيه، وكان ﷺ لا يستكره في بيانه معنى، ولا يند في لسانه لفظ، ولا تغيب عنه لغة، ولا تضرب له عبارة، ولا يشوبه تكلف، ولا يشق عليه منزع، وقد نُزه ﷺ عن جميع عيوب الفصاحة، وسلم كلامه من كل عيوبها، وخرج سبكه خالصاً لا شوب فيه. وكما يقول الرافعي: كأنما وَضَعَ يَدَه على قلب اللغة ينبض تحت أصابعه[٣].
- وفي ضوء هذه الخصائص الأسلوبية للبيان النبوي نستكشف جماليات الأداء الأسلوبي والتصويري في هذا الحديث الشريف، ففيه قوة الأسلوب ودقة التصوير، والهداية والإرشاد في إيحاء لا يشوبه غموض، ووضوح لا يعيبه

---

(١) برقم (٩٩/٢٧٤٨). أورده المنذري في ترغيبه (٤٧٠٥).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (خ ض ر)، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٠٥.

(٣) انظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، ٢/ ٢٨٦.

الإلف والفتور، وأول ما يلفت الانتباه هو عنصر التصوير الفني في الحديث الشريف، حيث صور الرسول ﷺ الدنيا بأنها "حلوة خضرة"، أي فاكهة جميلة المذاق جذابة وحسنة اللون، وهذا التصوير يوحي بسطوة إغراء الدنيا مذاقاً ورؤية، ويوحي كذلك بالتحذير من فتنتها، ويوحي كذلك هذا التشبيه بسرعة زوال هذا البريق الدنيوي وذلك المذاق الجميل لأن الفاكهة عمرها قصير، وسرعان ما تذبل وتصفر وتعطب.

والتأكيد في أول الحديث يضاعف من التحذير من هذا البريق المغري وذلك المذاق المفتن. والجملة صيغت في قالب الجملة الاسمية وفي ذلك إيحاء بثبات هذه الصفة المغرية الخادعة.

وتكرار التأكيد ثلاث مرات في الحديث الشريف يرشد إلى حرص النبي ﷺ على مصلحة الأمة، وإلى حتمية ترسيخ المعاني والإرشادات التي جاءت في الحديث الشريف.

والجملة الثانية ترد مؤكدة كذلك، وهي تنبه إلى حقيقة يجب أن لا نغفل عنها وهي أننا مستخلفون في الدنيا، ولسنا مخلدين فيها، والتعبير بالاستخلاف يرشد إلى أمرين: هما: ضرورة القيام بأعباء هذا الاستخلاف لأنه من الله، وأول الأعباء هو حمل الأمانة حملاً صحيحاً والقيام بأداء الواجبات الشرعية. والأمر الثاني: هو الإيحاء بعدم البقاء لأننا مستخلفون، أي جئنا بعد أقوام سابقين، وسيأتي بعدنا اللاحقون، وجملة: "فينظر كيف تعملون"، تحمل من المعاني والدلالات الكثير، وأي اختبار أقسى وأشد من هذا الاختبار الدنيوي الذي يراقبنا فيه الله عز وجل، ولا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، والتعبير "بكيف" غير "ماذا"، لأن كيفية أداء العمل والإخلاص والتقوى في الأداء هو السبيل إلى النجاة والنجاح في هذا الاختبار، ويتكرر الأمر بالتقوى: تقوى الدنيا وتقوى النساء؛ لأنهما بوابة الفتن ومصدر الإغراء. ويأتي الدليل على ذلك في نهاية الحديث، فبنو إسرائيل أهلكتهم فتنة النساء، وهذا تحذير وإنذار وتخويف من الفتن القادمة.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: حلاوة الدنيا ونضارتها.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: استخلاف الله للناس في الأرض.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: الابتلاء والاختبار.

خامساً: من أساليب الدعوة: التحذير من الانبهار بالدنيا.

سادساً: من أساليب الدعوة: الأمر.

سابعاً: من موضوعات الدعوة: الحذر من فتنة النساء.

ثامناً: من تاريخ الدعوة: فتنة بني إسرائيل بالنساء.

تاسعاً: من صفات الداعية: الشفقة على المدعوين.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

وهذا واضحٌ في قوله ﷺ: (إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها)، حيث أكد النبي ﷺ قوله بـ (إن) وذلك للاهتمام بالمؤكد، وتثبيت المعنى لدى المخاطب، قال القاسمي: (واعلم أنه لا تؤكد العرب إلا ما تهتم به، فإن من اهتم بشيء أكثر ذكره، وكلما عظم الاهتمام كثر التأكيد، وكلما خفّ التأكيد. وإن توسط الاهتمام توسط التأكيد)[1].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: حلاوة الدنيا ونضارتها:

إن من موضوعات الدعوة المستنبطة من هذا الحديث حلاوة الدنيا ونضارتها، حيث خلق الله تعالى الدنيا وجعلها حلوة خضرة كما ذكر ذلك رسول الله ﷺ في هذا الحديث، قال النووي: (ومعنى الدنيا خضرة حلوة يحتمل أن المراد به شيئان: أحدهما: حسنها للنفوس ونضارتها ولذتها كالفاكهة الخضراء الحلوة فإن النفوس تطلبها طلباً حثيثاً فكذا الدنيا. الثاني: سرعة فنائها كالشيء الأخضر في هذين الوصفين)[2].

---

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٢٥٧/١.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٠٥.

كثيراً ما يفتن الإنسان بالدنيا وبزخارفها، ويخلد إلى زينتها ومن ثم حذر الله تعالى منها، قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[٢].

وقال ابن كثير: (يقول الله تعالى موهناً أمر الحياة ومحقراً لها: (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد)، أي: إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا كما قال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[٣].

ثم ضرب الله مثل الحياة الدنيا في أنها زهرة فانية ونعمة زائلة (كمثل غيث)، وقوله: (أعجب الكفار نباته)، أي: يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث، وكما يعجب الزراع ذلك كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار، فإنهم أحرص شيء عليها، وأميل الناس إليها... ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة، وأن الآخرة كائنة لا محالة، حذّر من أمرها ورغب فيما فيها من الخير)[٤].

---

(١) سورة الكهف، آية: ٤٥.

(٢) سورة الحديد، آية: ٢٠.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٤.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٤/٨.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: استخلاف الله للناس في الأرض:

إن من موضوعات الدعوة في هذا الحديث: استخلاف الله للناس في الأرض وذلك في قوله ﷺ: (وإن الله مستخلفكم فيها).

فالله تعالى استخلف الإنسان في الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[١].

وقد كرم الله الإنسان وأسجد له الملائكة، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[٢].

وقد سخر الله تعالى المخلوقات للإنسان، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣].

وكرم الله بني آدم تكريماً يليق بمكانتهم واستخلافهم في الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[٤].

وإن الإنسان ليس غريباً عن الأرض، لأنه خلق منها، وهو أولى بالخلافة فيها لما لديه من خصائص التكوين[٥].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٣٠.

(٢) سورة ص، الآيتان: ٧١ - ٧٢.

(٣) سورة الجاثية آية: ١٣.

(٤) سورة الإسراء، آية: ٧٠.

(٥) انظر: الإنسان وجوده وخلافته في الأرض في ضوء القرآن الكريم، د. عبدالرحمن إبراهيم المطرودي، ص ٣٥٠ - ٣٦٧.

إن الله تعالى استخلف الإنسان في الأرض ليقيم شرع الله، ويسير على المنهج الذي رسمه له، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾[١].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: الابتلاء والاختبار:

إن من موضوعات الدعوة في هذا الحديث الابتلاء والاختبار فينظر كيف تعملون قال ابن علان: (ومعنى قوله: "فينظر كيف تعملون"، أي من إنفاقها في مراضيه فتثابون، أو في مساخطه فتأثمون، فإن الجزاء إنما يترتب على ما يبدو في عالم الشهادة من الأعمال أو فينظر كيف تعملون، أي أتعتبرون بحالهم وتتدبرون في مآلهم)[٢].

والابتلاء سنة من سنن الله في خلقه، لا بد من التمحيص والاختبار والصبر والمصابرة، قال تعالى: ﴿الم ۝ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[٣].

قال عبدالرحمن السعدي: (يخبر الله تعالى عن تمام حكمته، وأن حكمته لا تقتضي أن كل من قال أنه مؤمن وادعى لنفسه الإيمان أن يبقوا في حالة، يسلمون فيها من الفتن المحن، ولا يعرض لهم ما يشوش عليهم إيمانهم وفروعه، فإنهم لو كان الأمر كذلك لم يتميز الصادق من الكاذب والمحقّ من المبطل.

ولكن سنته تعالى وعادته في الأولين في هذه الأمة أن يبتليهم بالسراء والضراء والعسر واليسر والغنى والفقر ونحو ذلك من الفتن.

فمن كان عند ورود الشبهات يثبت إيمانه ولا يتزلزل، ويدفعها بما معه من الحق وعند ورود الشهوات الموجبة والداعية إلى المعاصي والذنوب، أو الصارفة عن ما أمر الله

---

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ٥٦، ٥٧.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٨٥.

(٣) سورة العنكبوت، الآيات: ١ - ٣.

به ورسوله، يعمل بمقتضى الإيمان، ويجاهد شهوته، دلّ ذلك على صدق إيمانه وصحته)[١]. إنه لا بد من الابتلاء والاختبار والمؤمن صادق الإيمان هو الذي يثبت في ذلك.

خامساً- من أساليب الدعوة: التحذير من الانبهار بالدنيا:

إن من أساليب الدعوة المستنبطة من هذا الحديث أسلوب التحذير، فينظر كيف تعملون فالنبي ﷺ يرهب أمته من الانبهار بالدنيا، والانخداع ببريقها وزينتها ومتعها ولذائذها الأمر الذي قد يورد صاحبه المهالك، خاصة إذا أخذ يرتع في الشهوات والملذات، ولذا فإن النبي ﷺ يحذر المسلم من الركون إلى الدنيا بل ينبغي أن يكون المسلم في حالة من اليقظة والحذر حتى لا يقع في تشرَكها.

وإن أسلوب التحذير يعد من الأساليب الدعوية النافعة في مثل هذه المواطن، حتى يكون رادعاً للإنسان، ولذا يقول الله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾[٢].

سادساً- من أساليب الدعوة: الأمر:

هذا واضحٌ في قوله ﷺ: (فاتقوا الدنيا واتقوا النساء) ولا شك أن أسلوب الأمر الصادر من النبي ﷺ له وقعه المؤثر في نفس المدعو، حيث إنّ النبي ﷺ يأمر باتخاذ الحذر والوقاية واجتناب فتنة الدنيا التي يمكن أن تهلك الإنسان لو أقبل عليها وأهمل الآخرة والعمل لها.

وكذلك الأمر بالحذر من فتنة النساء، واجتناب تلك الفتنة لأنها تورد الإنسان الهلاك، ولذا جاء الأمر من النبي ﷺ اتقاء لخطورة الدنيا إذا أقبل عليها الإنسان إقبالاً كلياً ينسيه آخرته، وكذلك للبعد عن فتن النساء، والوقوع في حبائلهن نظرًا للعواقب الوخيمة المترتبة على ذلك، ومن ثم فإن أسلوب الأمر يعد من الأساليب الدعوية

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٥٧٦.

(٢) سورة الحديد، آية: ٢٠.

المؤثرة في نفسية المدعو.

سابعاً- من موضوعات الدعوة: الحذر من فتنة النساء:

من موضوعات الدعوة المستمدّة من هذا الحديث الحذر من فتنة النساء حيث جاء في الحديث: (واتقوا النساء)، قال النووي: (... فاتقوا الدنيا ومعناه تجنبوا الافتتان بها وبالنساء، وتدخل في النساء الزوجات وغيرهن، وأكثرهن فتنة الزوجات ودوام فتنتهن وابتلاء أكثر الناس بهن)(١).

قال المباركفوري: ("واتقوا النساء" أي: كيدهن ومكرهن)(٢).

قال أبو العباس القرطبي: (أي واحذرا فتنة النساء، فإنهن أول فتنة بني إسرائيل، وفتنتهن على الرجال أشد من كل فتنة، والمحنة بهن أعظم من كل محنة، لأن النفوس مجبولة على الميل إليهن، وعلى اتباع أهوائهن مع نقص عقولهن، وفساد آرائهن، ومن ملّك قياده سفيه ناقص فجدّه ناكص)(٣).

وقال الدكتور الحسيني هاشم: (وأظهر مظاهر الفتنة في الدنيا النساء لجمالهن وإغرائهن وحنان الرجال الطبيعي لهن، فليحذر الرجال الوقوع في حبائلهن والسكوت على أخطائهن، والانجرار معهن أو بهن إلى المعاصي والحرمات، وفي الحديث الإشارة إلى فتن النساء من العرى وغيره، ووقوع الرجال في الذنب بالسكوت)(٤).

وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾(٥).

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٤٦/١٧/٩.

(٢) انظر: تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي، المباركفوري ١٧٧٨/٢.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٣١٣/٧.

(٤) شرح رياض الصالحين ٨٣.

(٥) سورة آل عمران آية: ١٤.

أخبر الله تعالى عن حالة الناس في إيثار الدنيا على الآخرة، وبيّن التفاوت العظيم والفرق الجسيم بين الدارين، فأخبر أن الناس زينت لهم هذه الأمور، فرمقوها بالأبصار واستحلوها بالقلوب، وعكفت على لذاتها النفوس، كل طائفة من الناس تميل إلى نوع من هذه الأنواع قد جعلها أكبر همهم ومبلغ علمهم وهي -مع هذا- متاع قليل[(١)].

قال ابن عثيمين: ("اتقوا النساء" أي: احذروهن، وهذا يشمل الحذر من المرأة في كيدها مع زوجها، ويشمل أيضاً الحذر من النساء وفتنتهن، ولهذا قال: "فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء". فافتتنوا في النساء فضلّوا وأضلوا -والعياذ بالله)[(٢)].

ثامناً- من تاريخ الدعوة: فتنة بني إسرائيل بالنساء:

إن مما يستنبط من هذا الحديث تاريخ الدعوة المتعلق بإخبار النبي ﷺ بأن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء، قال الشيخ محمد تقي العثماني: (وقوله: "فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء"، إشارة إلى ما وقع في أرض بلعام في عهد موسى عليه السلام حيث أشار بلعام على قومه بأن يرسلوا النساء إلى عسكر بني إسرائيل، ففعلوا، وزنى بهن بعض بني إسرائيل فابتلوا بالطاعون)[(٣)].

ولذلك نجد أعداءنا وأعداء ديننا أعداء شريعة الله عز وجل يركزون اليوم على مسألة النساء وتبرجهن واختلاطهن بالرجال ومشاركتهن للرجال في الأعمال حتى يصبح الناس كأنهم الحمير لا يهمهم إلا بطونهم وفروجهم -والعياذ بالله- وتصبح النساء كأنهن دمًى أي صور لا يهتم الناس إلا بشكلها، كيف يزينونها؟ وكيف يجملونها؟ وكيف يأتون لها بالمجملات والمحسنات وما يتعلق بالشعر وما يتعلق بالجلد ونتف الشعر والساق والذراع والوجه وكل شيء حتى يجعلوا أكبر همّ النساء أن تكون المرأة كالصورة من البلاستيك لا يهمها عبادة ولا يهمها أولاد.

---

(١) انظر: تيسر الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي ص ١٠٢.

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين ١/٢٤٩-٢٥٠.

(٣) تكملة فتح الملهم ١١/٤٧٢.

وإذا كان بنو إسرائيل ممن فضلهم الله على العالمين وآتاهم من الآيات والطيبات الكثير، إذا كان هذا حالهم فإنهم لما افتتنوا بالنساء وانشغلوا بهن، كان هذا بداية المعاصي والذنوب التي فعلوها واستحقوا بها الطرد من رحمة الله وغضبه، فكأن فتنتهم بالنساء هي أول حلقة طغيانهم وعتوهم وضلالهم، وكأنهم لما استهانوا بهذه الفتنة كان ما وراءها لهم أسهل فوقعوا في الذنوب الكبيرة والآثام المهلكات، وفي ذلك تحذير للمسلمين أن يتقوا فتنة النساء ولا يستهينوا بها حتى لا يصيبهم ما أصاب بني إسرائيل.

تاسعاً: من صفات الداعية: الشفقة على المدعوين

وتظهر تلك الصفة في هذا الحديث الذي نحن بصدده من خلال شفقة وتحذير النبي ﷺ لأمته من الركون إلى الدنيا والوقوع في فتنة النساء، لأن هذه الأمور تفسد على المؤمن دينه، وتؤدي إلى خسارته في الدنيا والآخرة، وتجعله أسيرًا للشهوات، ولذا كان النبي ﷺ مشفقًا على أمته من الوقوع في مثل هذه الفتن، ولذا يحسن بكل داعية أن يتأسى بالنبي ﷺ في ذلك وفي كافة الشؤون.

لأنه ينبغي أن يكون من أبرز صفات الداعية الخوف والشفقة على المدعوين، ومن ثم فهو ينصحهم ويحذرهم ويبين لهم عواقب الأمور، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

قال السعدي: (يمتن الله على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبي الأمي الذي من أنفسهم يعرفون حاله يتمكنون من الأخذ عنه، ولا يأنفون عن الانقياد له وهو ﷺ في غاية النصح لهم، والسعي في مصالحهم، ويشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ويعنتكم وهو حريص عليكم فيحب لكم الخير ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشر، ويسعى جهده في تنفيركم عنه، وهو شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم من والديهم)[2].

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٣١٣.

الحديث رقم (٧١)

٧١- الثالثُ: عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالْعَفافَ والْغِنَى**» رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

التقى: المفرد: التقاة وهي الخشية والخوف[٢].

العفاف: الكف عما لا يحلّ ولا يجمل من قول أو فعل[٣].

الشرح الأدبي

في ظلال هذا الحديث تتنسَّم مشاعرنا عبير المناجاة وتتذوق حلاوة الإيمان، وتتطلع أفئدتنا إلى رضوان الرحيم الرحمن، وأصداء هذا الدعاء الصاعد من قلب الحبيب المصطفى، والنبي المجتبى تسري في شرايين الكون، وتصافح الأحاسيس المؤمنة، فالدعاء يتفوه به لسان مَنْ أرسله الله رحمة للعالمين، وينبض به جنان خاتم المرسلين، وهو أقرب الأنبياء إلى ربه، وأشد المؤمنين تعلقاً بمولاه فهو لا يفتأ يدعوه في كل ساعة تمر، حتى ترك من أدعيته وابتهالاته الرائعة أدباً عالياً له سماته الجميلة من حرارة العاطفة وقوة الصدق وجمال التعبير.

- ورسول الله هو المثل الأعلى للمؤمن الحقيقي، وهو دائماً يذكر ربه في كل طرفة عين، ويتجه إليه مع كل خفقة قلب، فهو يسبحه ويدعوه إذا أصبح وإذا أمسى، وإذا نام، وإذا استيقظ، وإذا سافر، وإذا رحل، وإذا أكل، وإذا شرب، وإذا سمع الرعد، وإذا نزل المطر، وإذا هبت الريح، وإذا أشرقت

---

(١) برقم (٧٢/٢٧٢١). وسيكرره المؤلف برقم (١٤٧٠).

(٢) اللسان والوسيط في (و ق ى).

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٤٣، والوسيط في (ع ف ف).

الشمس، وإذا بزغ الهلال، وإذا مرض، وإذا عوفي، وإذا فزع، وإذا أمن، وله في ذلك، كما يقول د. محمد رجب البيومي، مأثورات رائعات مشهورات، ترددها كتب الصحاح، وهى من الأدب الصميم لبّ اللباب[(١)].

- وتشع كلمات هذا الحديث الشريف ببريق الحب الإلهي الذي يتوهج في هذه الضراعة الصادقة الخاشعة التي يتصدرها النداء الضارع إلى الله عز وجل، "اللهم" وهذا النداء أصله يا الله فحذف حرف النداء وعوض عنه الميم، وما أصدق هذا النداء! وما أجل وأعظم وأسرع الإجابة من الله عز وجل! والداعي والسائل هو خاتم النبيين وإمام المرسلين، ويأتي التأكيد بإن مقترناً بياء المتكلم، "إني" ليؤكد حرص الرسول ﷺ على الدعاء، والتصريح بقوله: "أسألك" فيه خطاب جليل من خاتم المرسلين إلى رب العالمين، وفيه إشعار بحاجة السائل إلى عون المسؤول عز وجل.
- ويسأل محمد ﷺ ربه مزيداً من الهدى والتقى والعفاف والغنى، لأن هذه الخصال من سماته.
- والهدى: تتحرك دلالته في مدارات متعددة والرشاد هو الجامع لكل هذه الدلالات المضيئة، وحين يهتدي الإنسان إلى حقيقة ما يبحث عنه تصبح التقوى منهجه في حياته، فهو في ظل الهداية يحرص على الوقاية من أي سلوك يدفع به إلى حمأة الباطل ومهاوي الردى، وهذا التصور في ظل النماذج البشرية العادية، ولكن في ظل دعاء المصطفى ﷺ يكون الدعاء لطلب المزيد من الهدى والتقى، وكذلك العفاف: وهو التنزه عما لا يباح والكف عنه، وكذلك الغنى وهو غنى النفس.

وهذه المطالب المرجوة يمكن أن يكون سؤال الرسول لربه أن يتحقق له المزيد منها، وأن يهيئ الله سبل تحقيقها لكل فرد من أبناء الأمة الإسلامية في كل زمان ومكان، لأن هذه الخصال الأربع تعد من المقومات الأساسية لتكوين معالم شخصية

---

(١) انظر: البيان النبوي، د. محمد رجب البيومي، ص ٢٠٠.

المسلم، وهنا تكمن قيمة الإيجاز والإيحاء في هذا الحديث الذي يمثل الدعائم الأساسية للشخصية الإسلامية.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص المؤمن على طلب الهدى والتقى.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الحث العفاف والغنى في حياة المؤمن.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: أهمية المال في حياة المؤمن.

رابعاً: من أساليب الدعوة: النداء والتوكيد.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص المؤمن على طلب الهدى والتقى:

لقد سأل النبي ﷺ ربه الهدى والتقى، قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث جواز أن يكون سأل الهدى لأمته إلى يوم القيامة، فإن الهدى مما قال الله عز وجل فيه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾[1]، وقد سأل ﷺ مع الهدى التقى، والتقوى نطق قد تكرر في القرآن، وأصل التقوى تقوى الشرك ثم ترتفع في الدرجات، فهي كلمة شاملة إلا أنها راجعة إلى الحذر)[2].

والمؤمنون يدعون ربهم قائلين: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[3] قال ابن القيم: (الهداية هي البيان والدلالة ثم التوفيق والإلهام وهو بعد البيان والدلالة، ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل، فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق، وجعل الإيمان في القلب وتحبيبه إليه وتزيينه في القلب وجعله مؤثراً له راضياً به راغباً فيه، وهما هدايتان لا يحصل الفلاح إلا بهما)[4].

---

(١) سورة الليل، آية: ١٢.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٢/١٢٨.

(٣) سورة الفاتحة، الآيتان: ٦، ٧.

(٤) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ١/٥٠-٥١.

وقال ابن تيمية: (والعبد مضطر دائماً إلى أن يهديه الله الصراط المستقيم فهو مضطر إلى مقصود هذا الدعاء، فإنه لا نجاة من العذاب ولا وصول إلى السعادة إلا بهذه الهداية، فمن فاته فهو إما من المغضوب عليهم وإما من الضالين، وهذا الهدى لا يحصل إلا بهدى الله)[١].

ويقول ابن الجوزي مبيناً الارتباط بين الهدى والتقى: (تأملت قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[٢] قال المفسرون: هداى: رسول الله ﷺ وكتابي، فوجدته على الحقيقة: أن كل من اتبع القرآن والسنة وعمل بما فيهما فقد سلم من الضلال بلا شك وارتفع في حقه شقاء الآخرة بلا شك إذا مات على ذلك، وكذلك شقاء الدنيا فلا يشقى أصلاً، ويبيّن هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾[٣])[٤].

وقال في موضع آخر: (ضاق بي أمر أوجب غماً لازماً دائماً وأخذت أبالغ في الفكر في الخلاص من هذه الهموم بكل حيلة وبكل وجه، فما رأيت طريقاً للخلاص، فعرضت لي هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾[٥] فعلمت أن التقوى سبب للمخرج من كل غم، فما كان إلا أن هممت بتحقيق التقوى فوجدت المخرج)[٦].

ويبيّن الله سبحانه الارتباط بين الهداية والتقوى في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٧] (فالمراد أن القرآن من شأنه الإيصال إلى المطالب الخيرية وأن

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٢٥٣/٧.

(٢) سورة طه، آية: ١٢٣.

(٣) سورة الطلاق، آية: ٢.

(٤) صيد الخاطر، ابن الجوزي، تحقيق: عبدالقادر عطا ١٩٨-١٩٩.

(٥) سورة الطلاق، آية: ٢.

(٦) صيد الخاطر، ابن الجوزي، تحقيق: عبدالقادر عطا ٢٧٣.

(٧) سورة البقرة، آية: ٢.

المستعدين للوصول به إليها هم المتقون، أي هم الذين تجردوا عن المكابرة ونزهوا أنفسهم عن حضيض التقليد للمضلين وخشوا العاقبة وصانوا أنفسهم من خطر غضب الله، والمراد بالمتقين المؤمنون الذين آمنوا بالله وبمحمد ﷺ وتلقوا القرآن بقوة وعزم على العمل به)[١].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الحث على العفاف والغنى في حياة المؤمن:

قد سأل النبي ﷺ ربه "العفاف والغنى"، قال ابن هبيرة: "ثم سأل ﷺ العفاف، والعفاف قد يكون منه العفاف عن الرذائل على كثرتها، ومنه العفاف عن أموال الناس، ومنه العفاف عن سؤال الأجر على تبليغ الحق. ومنه العفاف الذي يؤدي إلى العون عما لا يحل من النظر فما فوقه، ومنه العفاف عما جاوز الكفاية بالمعروف في كل معنى. ثم سأل ﷺ الغنى، وقد جاء عنه ﷺ أنه قال: ((الغَنى غِنى النفس))[٢]. وكذلك هو، وهو الذي سأله رسول الله ﷺ، لأن الغنى مطلق ينصرف إليه، إذ غنى الأعراض قد يكون فقراً من وجوه كثيرة، منها الاشتغال بها، والخدمة لها، والحاجة إلى دوامها وغير ذلك" [٣].

قال النووي: (أما العفاف والعفة فهو التنزه عما لا يباح والكف عنه، والغنى غنى النفس والاستغناء عن الناس وعما في أيديهم)[٤].

وقد كان النبي ﷺ يحض أصحابه ﵃ على العفاف وغنى النفس، فعن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: ((إنَّ نَاساً مِنَ الأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللّهِ، فَأَعْطَاهُمْ. ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ. حَتَّىٰ إِذَا نَفِدَ مَا عِنْدَهُ قَالَ: «مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ. وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللّهِ. وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللّهُ. وَمَنْ يَصْبِرْ يُصَبِّرْهُ اللّهُ. وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢٦/١/١.

(٢) أخرجه البخاري ٦٤٤٦، ومسلم ١٠٥١ من حديث أبي هريرة > مرفوعاً: (ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس).

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ١٢٨/٢.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٩٩.

عَطَاءٍ خَيْرٌ وَأَوْسَعُ مِنَ الصَّبْرِ))[١].

قال النووي: (في هذا الحديث الحث على التعفف والقناعة والصبر على ضيق العيش وغيره من مكاره الدنيا)[٢].

وقال النبي ﷺ: ((لأنْ يأخُذَ أحدكم حبلَهُ فيأتيَ بحُزْمَةِ الحطبِ على ظهرِهِ فيبيعَهَا فيَكفَّ اللّهُ بها وجهَهُ، خيرٌ لهُ من أنْ يسألَ الناسَ أعْطَوْهُ أو مَنَعُوهُ))[٣].

قال ابن حجر: (وفيه الحض على التعفف عن المسألة والتنزه عنها ولو امتهن المرء نفسه في طلب الرزق وارتكب المشقة في ذلك، ولولا قبح المسألة في نظر الشرع لم يفضل ذلك عليها، وذلك لما يدخل على السائل من ذل السؤال، ومن ذل الرد إذا لم يُعط ولما يدخل على المسؤول من الضيق في ماله إن أعطى كل سائل)[٤].

وقال الراغب الأصفهاني: (لا يكون الإنسان تام العفة حتى يكون عفيف اليد واللسان والسمع والبصر، فمن عَدَمِها في اللسان: السخرية والتحسس والغيبة والهمز والنميمة والتنابز بالألقاب. ومن عدمها في البصر: مد العين إلى المحارم وزينة الحياة الدنيا المولدة للشهوات الرديئة. ومن عدمها في السمع: الإصغاء إلى المسموعات القبيحة وعماد عفة الجوارح كلّها ألا يطلقها صاحبها في شيء مما يختص بكل واحد منها إلا فيما يسوغه العقل والشرع دون الشهوة والهوى)[٥].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: أهمية المال في حياة المؤمن:

فقد طلب النبي ﷺ من ربه الغنى، (والغنى -كما يقول النووي- غنى النفس والاستغناء عن الناس وعما في أيديهم)[٦] ولاشك أن أقوى ما يعين على ذلك أن يكون

---

(١) أخرجه البخاري ١٤٦٩، ومسلم ١٠٥٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٦٢.

(٣) أخرجه البخاري ١٤٧١.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٣/٣٩٤.

(٥) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني ص ٣١٩.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٩٩.

بين يدي المسلم من المال ما يجعله مستغنياً عن سؤال الناس والتعرض لهم. فقد قال سعيد بن المسيب: (لا خير فيمن لا يحب المال، يعبد به ربه، ويؤدي به أمانته، ويصون به نفسه، ويستغني به عن الخلق)[١].

وقال ابن الجوزي: (حضرنا بعض أغذية أرباب الأموال فرأيت العلماء أذل الناس عندهم، العلماء يتواضعون لهم ويذلون لموضع طمعهم فيهم، وهم لا يحفلون بهم، لما يعلمونه من احتياجهم إليهم... فالأولى للعالم أن يجتهد في طلب الغنى ويبالغ في الكسب)[٢].

(فلو أنه نظر -كما يقول ابن الجوزي أيضاً- في سير الرجال وابتلائهم وتأمل صحاح الأحاديث عن رؤسائهم، لعلم أن الخليل عليه الصلاة والسلام كان كثير المال حتى ضاقت بلدته بمواشيه. وكذلك لوط عليه الصلاة والسلام وكثير من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والجمع الغفير من الصحابة رضي الله عنهم. وإنما صبروا عند العدم، ولم يمتنعوا من كسب ما يصلحهم ولا من تناول المباح عند الوجود. وكان أبو بكر رضي الله عنه يخرج للتجارة والرسول ﷺ حيٌّ، وكان أكثرهم يخرج فاضلَ ما يأخذ من بيت المال، ويسلم من ذل الحاجة إلى الإخوان... فالواجب على العاقل أن يحفظ ما معه وأن يجتهد في الكسب ليريح مداراة ظالم أو مداهنة جاهل)[٣].

رابعاً- من أساليب الدعوة: النداء والتوكيد:

أما النداء فقوله ﷺ "اللهم"[٤] فهو ينادي ربه ويدعوه خاضعاً متذللاً مقبلاً خاشعاً، فناسب هذا النداء، وفي هذا دعوة للمدعوين إلى الالتزام بهذه الآداب والهيئات عند دعاء الله تعالى، فهو ﷺ قدوتهم يقتدون به في حلّهم وترحالهم وجميع أحوالهم،

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٥/١٥٥.

(٢) صيد الخاطر، ابن الجوزي، تحقيق: عبدالقادر عطا ٢٩٤-٢٩٥.

(٣) صيد الخاطر، ابن الجوزي، تحقيق: عبدالقادر عطا ٦٩-٧٠، وقال محققه: يعني يريح نفسه فلا يضطر إلى هذه المداراة أو المداهنة.

(٤) اللهمَّ: كلمة تستعمل في النداء مثل: يا الله، الوسيط (أ ل هـ).

ثم أتبع ﷺ النداء بالتوكيد "إني" ليؤكد حاجته الملحة وحاجة كل مسلم -دعاة ومدعوين- إلى الهدى والتقى والعفاف والغنى، فهي في الحقيقة ملاك أمر المسلم في دينه ودنياه، فهو مع الله مهدي متقٍ ومع الناس عفيف غنيٌّ عنهم، وقد بلغ من حرص بعض الصحابة رضي الله عنهم على العفاف أنه كان ((يَسْقُطُ سَوْطُ أَحَدِهِمْ. فَمَا يَسْأَلُ أَحَداً يُنَاوِلُهُ إِيَّاهُ))[1].

(١) أخرجه مسلم ١٠٤٢.

الحديث رقم (٧٢)

٧٢- الرَّابعُ: عَنْ أبي طَرِيفٍ عديٍّ بْنِ حاتمٍ الطائِيِّ ﷺ قال: سمعت رسولَ اللَّه ﷺ يقُولُ: «**مَنْ حَلَفَ عَلَى يمِينٍ ثُمَّ رَأَى أتقَى للَّهِ مِنْها، فَلْيَأْتِ التَّقْوَى**» رواه مسلم(١).

ترجمة الراوي:

عدي بن حاتم: هو عدي بن حاتم بن عبدالله بن سعد الطائي، كنيته: أبو طريف. ويقال: أبو وهب، رئيس قبيلة طيء في الجاهلية والإسلام، وأبوه حاتم الذي يضرب بن المثل في الكرم والجود.

كان نصرانياً وأسلم في السنة السابعة من الهجرة -وقيل بعد ذلك- بعد تمنعٍ، فأتى النبي ﷺ فأعلن إسلامه، وكان النبي يكرمه ويحترمه، قال: ما دخلت على النبي ﷺ قط إلا وسع لي أو تحرك لي. وقد دخلت عليه يوماً في بيته وقد امتلأ من أصحابه فوسع لي حتى جلست إلى جنبه(٢).

وحَسُن إسلامه فقال: ما أقيمت الصلاة منذ أسلمت إلا وأنا على الوضوء، وقال: وما جاء وقت صلاة قط إلا وقد أخذت لها أهبتها، وما جاءت إلا وأنا إليها بالأشواق.

وكان له في أيام الردة الموقف الجليل والعمل العظيم، فقد ثبت على إسلامه ومنع قومه من الردة وجاء بصدقة قومه إلى أبي بكر الصديق، فاستحق ثناء عمر بن الخطاب فيه إذ قال له: ((أسلمت إذ كفروا وأقبلت إذ أدبروا ووفيت إذ غدروا وعرفت إذ أنكروا))(٣) ((وإن أول صدقة بيضتْ وجه رسول الله ﷺ ووجوه أصحابه ﷺ صدقة طيء جئت بها إلى رسول الله ﷺ))(٤).

---

(١) برقم (١٦٥١/١٥).

(٢) أخرجه ابن عبدالبر في الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر وقال محققه: سنده حسن إن شاء الله.

(٣) أخرجه البخاري (٤٣٩٤).

(٤) أخرجه ٢٥٢٣.

وشارك في الفتوحات، فشهد فتوح العراق وشهد القادسية وفتح المدائن، وانتقل مع خالد بن الوليد من العراق إلى الشام حيث شارك في بعض الفتوحات، وبعثه خالد بخُمُس الغنائم إلى أبي بكر الصديق بالمدينة.

ونزل الكوفة وقاتل مع علي بن أبي طالب وكان من أمراء الجند، فشهد الجمل وصفين والنهروان وذهبت عينه في صفين. وقيل في الجمل.

كان سيداً شريفاً في قومه معظماً عندهم وعند غيرهم متواضعاً خطيباً حاضر الجواب، واشتهر بالكرم، بعث إليه الأشعث بن قيس يستعير منه قدوره، فبعثها إليه وقد ملأها طعاماً وقال له: إنا لا نعيرها فارغة.

وكان رحيماً رقيقاً: كان يفت الخبز للنمل ويقول: إنهن جارات ولهن حق.

روى ٦٦ حديثاً، وعاش طويلاً وعُمِّر فمات وهو ابن مائة وعشرين سنة وقيل أكثر. وتوفي سنة ٦٨هـ بالكوفة وقيل غير ذلك[1].

الشرح الأدبي

إن المؤمن صادق في أفعاله وأقواله، والقسم يؤكد صدق الإنسان، ويؤكد مصداقيته وموقعه في نفوس الناس، والمصطفى ﷺ يرسى قاعدة شرعية تحكم منهج المسلم وتوجه سلوكه، وهذا الحديث الشريف يرسي دعائم هذه القاعدة في صياغة لغوية تفصح عن المعنى المراد، حيث جاءت هذه القاعدة في أسلوب الشرط والجواب، والشرط يتكون من جزءين: [من حلف على يمين] والجملة المعطوفة المتعلقة بالشرط "ثم رأى أتقى لله منها"، ثم يأتي الجواب في صيغة الطلب مقترناً بالفاء وجوباً "فليأت التقوى"، وكأن هذه الصيغة اللغوية التي يجب فيها اقتران الجواب بالفاء لأن

(١) الطبقات، ابن سعد (٢٢/٦)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٥٧٧، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (٧/٤)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٨٩٦، والسير (١٦٢/٢)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (١٤٤/٥) وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٨٥/٣)، والأعلام، خير الدين الزركلي (٢٢٠/٤)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (١٣٣٢/٢).

جملة الجواب طلبية، كأنها ترشد إلى القاعدة الشرعية وهى وجوب العدول عن اليمين التي تتعلق بأمر فيه تقصير أو مخالفة، "كأن حلف ليتركن الصلاة أو ليشربن المسكر"، فيجب على هذا الحالف، الحنث والإتيان بما هو التقوى من فعل المأمور به وترك المنهي عنه[١].

ولنتأمل البناء اللغوي ونحاول إدراك دلالات المفردات اللغوية وما ورائها من أسرار تعبيرية تؤكد جماليات الأداء الأسلوبي في الحديث النبوي.

- فالحديث يتكون من جملة واحدة وهى الجملة الشرطية، وأداة الشرط "من" وهي للعاقل وفي إطارها تموج ملايين الأشخاص، وما لا يعد ولا يحصى من الحالات المماثلة، فكل فرد من أبناء الأمة الإسلامية، على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأماكنهم وأزمنتهم، يمكن أن يتعرض لمثل هذا الموقف الذي بينه رسول الله ﷺ وشخص المشكلة ثم حدد الحل، وهو أن يتجه المسلم إلى السلوك الذي من شأنه أن يكون صياغة عملية لصفة التقوى.
- وما أروع الإيجاز والإيحاء في قوله "فليأت التقوى"، وكأن التقوى تجسدت وأصبحت ملاذاً يحتمي به ذلك الذي وقع في شباك وبراثن "اليمين" التي يشوبها الابتعاد عن أفضل الأعمال، واليمين، كما يقول علماء اللغة، الحلف والقسم، وهى مؤنثة، والجمع: أيمن وأيمان وفي الحديث: "يمينك على ما يصدقك به صاحبك"[٢]. أي يجب عليك أن تحلف له على ما يصدقك به إذا حلفت له، وقال الجوهري: سميت اليمين بذلك، لأن العرب كانوا إذا تحالفوا ضرب كل امرئ يمينه على يمين صاحبه. وقال بعض اللغويين: قيل للحلف يمين باسم يمين اليد، وكانوا يبسطون أيمانهم إذا حلفوا وتحالفوا وتعاقدوا وتبايعوا، وجمع الرسول ﷺ بين الحلف واليمين وهما بمعنى واحد تأكيدًا للحلف وهو العقد بالعزم والنية، وحرف العطف "ثم" يوحي بالتأني بين الموقفين وتأمل الموقف الأول في ضوء متعلقات الموقف الثاني،

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٢١٨/١.

(٢) أخرجه مسلم ١٦٥٣.

والتعبير بالفعل "رأى" يفيد التحقق واليقين؛ لأن رأى هنا علمية وبصرية والمقصود أنه بعد التأمل والمشاهدة والعلم يرى موقفاً أتقى لله، وأفعل التفضيل في "أتقى" يوحي بأن الموقف كان في المباح، ولكنه رأى الأكثر ورعاً وتقوى وأبعد عن الشبهات والتعبير بقوله "لله" يرشد إلى أن تغير الموقف لا يكون بدافع شخصي أو هوى مذهبي أو كسب مادي، وإنما يكون لله عز وجل نية وقولاً وعملاً.

فقه الحديث

في الحديث من الفقه ما يلي:

أ- **اليمين التي يقع فيها الحنث:** لا خلاف بين الفقهاء في أن الحنث لا يقعُ إلا في اليمين المنعقدة وقد اتفقوا على أن اليمين تنعقد على المستقبل: كوالله لا أفعل كذا، أو لأفعلن كذا ونحو ذلك فيحنث في هذه اليمين بمخالفتها في المستقبل، فلا يكون الحنث إلا في اليمين التي قصد عقدها على المستقبل[١].

ب- **استحباب الحنث:** قال النووي: (في هذه الأحاديث [أي حديث الباب وغيره مما في معناه] دلالة على من حَلَف على فعل شيء أو تركه وكان الحنث خيرًا من التمادي على اليمين، استحبّ له الحنث وتلزمه الكفارة، وهذا متفق عليه)[٢].

ج- **الكفارةُ قبل الحنث:** اختلف الفقهاء في جواز الكفارة قبل الحنث، فقال

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني ١٥/٣، وشرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي بن يوسف الزرقاني ٥٧/٣، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري ٢٤٠/٤-٢٤١، وروضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي ٣/١١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٢٣٥/٦ (عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٦٧/١٨).

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩١/١١/٦، وانظر: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني ١٨/٣، وحاشية ابن عابدين ٦٢/٣، وروضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي ٢٠/١١-٢١، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري ٢٤٨/٤، والمغني، ابن قدامة ٦٨٢/٨، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٢٣٠/٦ (عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٦٧/١٨).

المالكية في المعتمد والشافعية: يستحبّ تأخير التكفير عن الحنث، ويجوز التكفير قَبْل الحنث، وقيد الشافعية ذلك بما لو كفّر بغير الصوم ولم يكن الحنث معصية، قال النووي: (جوزها مالك والأوزاعي والثوري والشافعي وأربعة عشر صحابيًا وجماعات من التابعين وهو قول جماهير العلماء لكن يستحب كَوْنها بعد الحنث)[(١)].

وقال الحنابلة: يجوز التقديم وإن كانت الكفارة صومًا ويستوي التقديم والتأخير في الفضيلة، وقال ابن أبي موسى: التأخير أفضل.

وعند الحنفية: وهو غير المعتمد للمالكية لا يجوز تقديم الكفارة على الحنث[(٢)].

وقال النووي: (ودليل الجمهور ظواهر هذه الأحاديث والقياس على تعجيل الزكاة)[(٣)].

د-**خصال الكفارة:** خصال الكفارة وردت في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ﴾[(٤)].

- قال ابن كثير: (فهذه خصال ثلاث في كفارة اليمين أيها فعل أجزأ عنه بالإجماع، وقد بدأ بالأسهل فالأسهل، فالإطعام أيسر من الكسوة، كما أن الكسوة أيسر من العتق، فرقى فيها من الأدنى إلى الأعلى، فإن لم يقدر

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩٢/١١/٦.

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني ٢٠/٣، وحاشية الدسوقي ١٣٤/٢، وجواهر الإكليل ٢٢٩/١، وروضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي ١٧/١١، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري ٢٩٥/٤-٢٩٦، والمغني، ابن قدامة ٧١٤/٨ (عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٦٨/١٨)، وانظر كذلك: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٤٨/٣٥-٥١.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩٢/١١/٦.

(٤) سورة المائدة، آية: ٨٩.

المكلف على واحدة من هذه الخصال الثلاث كفر بصيام ثلاثة أيام كما قال تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾[١] وقال ابن العربي: (وإنما اختلفوا الأفضل من خلالها، وعندي أنها تكون بحسب الحال، فإن علمت محتاجًا فالإطعام أفضل، لأنك إذا أعتقت لم ترفع حاجتهم وزدت محتاجًا حادي عشر إليهم، وكذلك الكسوة تليه، ولما علم الله غلبة الحاجة بدأ بالمهم المقدّم)[٢].

- وقال صالح الفوزان: (ويغلط كثير من العوام فيظنون أنهم مخيرون بين الصيام وبين بقية خصال الكفارة، فيصومون مع قدرتهم على الإطعام أو الكسوة، والصيام في هذه الحالة لا يجزئهم ولا يبرئ ذمتهم من كفارة اليمين، لأنه لا يجزئ إلا عند العجز من الإطعام أو الكسوة أو العتق، فيجب التنبيه لمثل هذا الأمر)[٣].

المضامين الدعوية

أولاً: من صفات الداعية: الرحمة والشفقة على المدعوين.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: يسر الشريعة الإسلامية.

ثالثاً: من صفات المدعو: إتيان الأفضل وفعله.

أولاً- من صفات الداعية: الرحمة والشفقة على المدعوين:

إن من أهم الصفات التي ينبغي أن يتصف بها الداعية: الرحمة والشفقة، نظراً لأهميتها في الدعوة إلى الله تعالى ومما يؤكد ذلك أمر النبي ﷺ من حلف على يمين وقد رأى أن الحنث في اليمين خير، وطريق إلى تقوى الله، فليأت ما يوصله إلى تقوى

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٢٧/٥.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٦٤٩/٢-٦٥٠، وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٤٠/٨-١٤١.

(٣) الملخص الفقهي ٤٨٢/٢.

الله ويدع ما حلف عليه، وفي هذا رحمة وشفقة بالحالف وبمن يحيط به ممن له علاقة باليمين، لأنّ في ذلك سوقاً للخير لهم، ففي رواية لمسلم ((فَرَأَىٰ غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا، فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَلْيَتْرُكْ يَمِينَهُ))[١].

ولحديث الباب قصتان توضحان ما سبق، ((جَاءَ سَائِلٌ إِلَىٰ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، فَسَأَلَهُ نَفَقَةً فِي ثَمَنِ خَادِمٍ أَوْ فِي بَعْضِ ثَمَنِ خَادِمٍ، فَقَالَ: لَيْسَ عِنْدِي مَا أُعْطِيكَ إِلاَّ دِرْعِي وَمِغْفَرِي، فَأَكْتُبُ إِلَىٰ أَهْلِي أَنْ يُعْطُوكَهَا، قَالَ: فَلَمْ يَرْضَ، فَغَضِبَ عَدِيٌّ، فَقَالَ: أَمَا وَاللّهِ لاَ أُعْطِيكَ شَيْئاً، ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ رَضِيَ، فَقَالَ: أَمَا وَاللّهِ لَوْلاَ أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ يَقُولُ: «مَنْ حَلَفَ عَلَىٰ يَمِينٍ ثُمَّ رَأَىٰ أَتْقَىٰ لِلّهِ مِنْهَا، فَلْيَأْتِ التَّقْوَىٰ» مَا حَنَّثْتُ يَمِينِي))[٢].

والقصة الثانية (أن رجلاً أتاه يسأله مائة درهم فقال: تسألني مائة درهم وأنا ابن حاتم؟ والله لا أعطيك ثم قال: لولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من حلف... فذكر الحديث وقال للرجل: ولك أربعمائة في عطائي)[٣]. فلمّا تراجع حاتمٌ عن المضي في يمينه وحنث فيها استفاد هذا السائل صلته وهبته.

وقد قال النبي ﷺ ((وَاللّهِ لأَنْ يَلَجَّ أَحَدُكُمْ بِيَمِينِهِ فِي أَهْلِهِ، آثَمُ لَهُ عِنْدَ اللّهِ مِنْ أَنْ يُعْطِيَ كَفَّارَتَهُ الَّتِي فَرَضَ اللّهُ))[٤].

قال النووي: (معنى الحديث أنه إذا حلف يميناً تتعلق بأهله ويتضررون بعدم حنثه ويكون الحنث ليس بمعصية فينبغي له أن يحنث فيفعل ذلك الشيء، ويكفّر عن يمينه، فإن قال: لا أحنث بل أتورع عن ارتكاب الحنث وأخاف الإثم فهو مخطئ بهذا القول، بل استمراره في عدم الحنث وإدامة الضرر على أهله أكثر إثماً من الحنث)[٥].

وقال ابن حجر: (ويستنبط من معنى الحديث أن ذكر الأهل خرج مخرج الغالب، وإلا

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٥١، ١٧.

(٢) أخرجه مسلم ١٦٥١، ١٥.

(٣) أخرجه مسلم ١٦٥١، ١٨.

(٤) أخرجه البخاري ٦٦٢٥، ٦٦٢٦، ومسلم ١٦٥٥. هذا ومعنى يلَجُّ أي يتمادى ويستمر، الوجيز في (ل ج ج)

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٥٥.

فالحكم يتناول غير الأهل إذا وجدت العلة، والله أعلم)[١].

وقال أبو العباس القرطبي: (والأصلح تارة يكون من جهة الثواب وكثرته، وهو الذي أشار إليه في حديث عدي حيث قال: "فليأت التقوى". وقد يكون من حيث المصلحة الراجحة الدنيوية التي يطرأ عليه بسبب تركها حرج ومشقة، وهي التي أشار إليها النبي ﷺ بقوله: "لأن يلج أحدكم بيمينه آثم له عند الله من أن يكفر"، يعني بذلك أن استمراره على مقتضى يمينه إذا أفضى به إلى الحرج -وهو المشقة- قد يفضي به إلى أن يأثم، فالأولى به أن يفعل ما شرع الله له من تحنيثه نفسه وفعل الكفارة)[٢].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: يسر الشريعة الإسلامية:

إن مما تميزت به الشريعة الإسلامية عن غيرها من الشرائع السابقة اليسر وعدم التشديد على الناس، ومن مظاهر اليسر في هذا الحديث الذي معنا أمر النبي ﷺ الحالف إذا رأى الخير في غير يمينه أن يأتي الخير ويدع يمينه، ولاشك أن هذا من يسر الشريعة ورفعها الحرج عن المكلفين، جاء في الموسوعة الفقهية: (رفع الحرج: إزالة ما في التكليف الشاق من المشقة برفع التكليف من أصله أو بتخفيفه أو بالتخيير فيه أو بأن يجعل له مخرج، كرفع الحرج في اليمين بإباحة الحنث فيها مع التكفير عنها أو بنحو ذلك من الوسائل، فرفع الحرج لا يكون إلا بعد الشدة خلافاً للتيسير...

واليسر وانتفاء الحرج صفتان أساسيتان في دين الإسلام وشريعته، والتيسير مقصدٌ أساسي من مقاصد الشريعة الإسلامية، ويدل على هذا الأصل آيات كثيرة في كتاب الله تعالى وأحاديث نبوية صحيحة وأجمعت الأمة عليه)[٣].

ومن الأمثلة التطبيقية لرفع الحرج ما رواه زهدم الجرمي قال: ((كُنَّا عِنْدَ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ، فَدَعَا بِمَائِدَتِهِ وَعَلَيْهَا لَحْمُ دَجَاجٍ، فَدَخَلَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَيْمِ اللَّهِ، أَحْمَرُ، شَبِيهٌ بِالْمَوَالِي، فَقَالَ لَهُ: هَلُمَّ فَتَلَكَّأَ فَقَالَ: هَلُمَّ فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَأْكُلُ مِنْهُ،

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٢٩٢٩/٣.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٦٣٢/٤.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢١٣/١٤، وانظر أيضاً: ٢٨٢/٢٢-٢٩١ في الموسوعة نفسها.

فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنِّي رَأَيْتُهُ يَأْكُلُ شَيْئاً فَقَذِرْتُهُ[١]، فَحَلَفْتُ أَنْ لاَ أَطْعَمَهُ، فَقَالَ: هَلُمَّ أُحَدِّثْكَ عَنْ ذٰلِكَ، إِنِّي أَتَيْتُ رَسُولَ اللّهِ فِي رَهْطٍ مِنَ الأَشْعَرِيِّينَ نَسْتَحْمِلُهُ، فَقَالَ: «وَاللّهِ لاَ أَحْمِلُكُمْ، وَمَا عِنْدِي مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ» فَلَبِثْنَا مَا شَاءَ اللّهُ، فَأُتِيَ رَسُولُ اللّهِ بِنَهْبِ إِبِلٍ[٢]، فَدَعَا بِنَا، فَأَمَرَ لَنَا بِخَمْسِ ذَوْدٍ غُرِّ الذُّرَى[٣]، قَالَ: فَلَمَّا انْطَلَقْنَا، قَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ: أَغْفَلْنَا رَسُولَ اللّهِ يَمِينَهُ[٤]، لاَ يُبَارَكُ لَنَا، فَرَجَعْنَا إِلَيْهِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللّهِ إِنَّا أَتَيْنَاكَ نَسْتَحْمِلُكَ، وَإِنَّكَ حَلَفْتَ أَنْ لاَ تَحْمِلَنَا، ثُمَّ حَمَلْتَنَا، أَفَنَسِيتَ؟ يَا رَسُولَ اللّهِ قَالَ: «إِنِّي، وَاللّهِ إِنْ شَاءَ اللّهُ، لاَ أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا، إِلاَّ أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَتَحَلَّلْتُ عَنْ يَمِينِي، فَانْطَلِقُوا، فَإِنَّمَا حَمَلَكُمُ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ))[٥].

قال ابن دقيق العيد: (وقد أكد النبي ﷺ في هذا الحديث الحكم المذكور باليمين بالله تعالى، وهو يقتضي المبالغة في ترجيح الحنث على الوفاء عند هذه الحالة، وهذا "الخير" الذي أشار إليه النبي ﷺ أمرٌ يرجع إلى مصالح الحنث المتعلقة بالمفعول المحلوف على تركه مثلاً)[٦] فكان هذا من رسول الله ﷺ مثالاً تطبيقيًا لبيان يسر الشريعة وسماحتها وانتفاء الحرج عنها.

ثالثاً- من صفات المدعو: إتيان الأفضل وفعله:

قال النووي: (في هذه الأحاديث دلالة على من حلف على فعل شيء أو تركه وكان الحنث خيراً من التمادي على اليمين استحبَّ له الحنث وتلزمه الكفارة وهذا متفق

---

(١) قال القرطبي في المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٦٢٧/٤: يعني به: أنه رأى الدجاج يأكل نجاسة فاستقذره، فحلف ألا يأكله لذلك، وظاهر قول هذا الرجل أنه كان يكره أكل ما يأكل النجاسات من الحيوانات، وقد اختلف في ذلك.

(٢) أي غنيمة: انظر شرح مسلم للنووي ١٠٥٠.

(٣) معناه أمر لنا بإبل بيض الأسنمة، شرح مسلم ١٠٤٩.

(٤) معناه: كنا سبب غفلته عن يمينه ونسيانه إياه وما ذكرناه إياها: أي أخذنا منه ما أخذنا وهو ذاهل عن يمينه، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٥٠.

(٥) أخرجه البخاري ٣١٣٣، ومسلم ١٦٤٩، ٩.

(٦) إحكام الأحكام، ص ٣٥١.

عليه)[١]. وما يدل على ذلك من حديث الباب "فليأتِ التقوى".

وهكذا حال المسلم دائماً يفعل الأحسن ويأتيه، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[٢] وقال عز وجل عن عباده ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾[٣] وقال عمرو بن العاص رضي الله عنهما: (ليس العاقل من يعرف الخير من الشر ولكن هو الذي يعرف خير الشرّين)[٤].

ولعله من الملائم هنا أن نذكر أن بعض أصحاب كتب القواعد الفقهية ذكروا ثلاثة أشياء هي نفل ولكنها أفضل من الفرض، فالفرض لاشك أفضل من النفل، لكن الفقهاء نصوا على أن هذه الثلاثة أفضل من الفرض، نظراً لما فيها من نفع وخير كثير، وهي[٥]:

١- إبراء المعسر مندوب أفضل من إنظاره الواجب، قال تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[٦].

٢- الابتداء بالسلام سنة أفضل من رده الواجب.

٣- الوضوء قبل الوقت مندوب أفضل من الوضوء بعد الوقت وهو الفرض.

وهكذا حال المدعو دائماً يحاول أن يفعل الأحسن والأفضل والأصلح، فإن كان أمامه فعلان أحدهما أفضل من الآخر، فإنه يفعل ما هو أفضل ويدع ما هو مفضول،

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٤٨.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٥٣.

(٣) سورة الزمر، آية: ١٨.

(٤) سير أعلام النبلاء، الذهبي ٧٤/٣.

(٥) انظر: الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية، السيوطي ص ١٦١، والأشباه والنظائر: ابن نجيم، زين الدين بن إبراهيم ص ١٥٧، وللتوسع انظر فقه الموازنات وأثره في المعاملات المالية، عطية حسين ص ١٢٢.

(٦) سورة البقرة، آية: ٢٨٠.

لأن هذا من باب الإحسان، والله يحبّ المحسنين، كما أنه مشعر بقوة إيمانه وبحبّه معالي الأمور وبشرف نفسه، يقول ابن القيم: (النفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها وأحمدها عاقبة)[1].

(١) الفوائد المشوقة إلى علم القرآن وعلم البيان، ابن القيم ٢٥٤.

الحديث رقم (٧٣)

٧٣- الْخَامِسُ: عنْ أبي أُمَامَةَ صُدَيٍّ بْنِ عَجْلانَ الْباهِلِيِّ ﷺ قال: سَمِعْتُ رسول اللّه ﷺ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوداع فَقَالَ: «**اتَّقُوا اللّه، وصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وصُومُوا شَهْرَكمْ، وأدُّوا زكَاةَ أمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا**[1] **أُمَرَاءَكُمْ، تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ**» رواه التِّرمذيُّ، في آخر كتاب الصلاةِ، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيح[2].

ترجمة الراوي:

أبو أُمامة الباهليُّ: هو صُدى بن عجلان بن وهب الباهليُّ.

صاحب النبي ﷺ، وسمع منه، وشهد حجّة الوداع وهو ابن ثلاثين سنة، أرسله النبي ﷺ إلى قومه فدعاهم إلى الإسلام، فكذبوه وردوه فقال: فانطلقت وأنا جائع ظمآن، فنمت، فأُتيتُ في منامي بشربة من لبن، فشربتُ ورويتُ وعَظُمَ بطني، فقال القوم: أتاكم رجل من أشرافكم وخياركم فرددتموه؟ قال: فأتوني بطعام وشراب فقلت: لا حاجة لي فيه. إن الله قد أطعمني وسقاني، فنظروا إلى حالي فآمنوا[3].

وكان كثير الصيام هو وامرأته وخادمه، وما كانوا يُلْقَوْن إلا صياماً وما ذلك إلا لقول النبي ﷺ لأبي أمامة ((عليك بالصَّوم، فإنَّه لا مِثْلَ له)) فكان إذا رُئي في داره دُخانٌ بالنهار، قيل: اعتراه ضيف أو نزل به نازل[4]. وكان كثير الذكر لله.

وقد جاء إليه رجل فقال له يا أبا أمامة، إني رأيتُ في منامي الملائكة تُصلّي عليك

---

(١) عند الترمذي زيادة: (ذا).

(٢) أخرجه الترمذي (٦١٦). وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٤٥٦٣)، وقال الحاكم (٩/١): هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولا نعرف له علة ولم يخرجاه، وقد احتج البخاري ومسلم بأحاديث سليم بن عامر وسائر رواته متفق عليهم.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٧٩/٨، ٨٠٧٣، ٨٠٧٤، والحاكم ٦٤١/٣-٦٤٢، ٦٧٦١، وقال الهيثمي في المجمع ٣٨٧/٩: رواه الطبراني بإسنادين، وإسناد الأولى حسن، وفيه أبو غالب وقد وثق.

(٤) أخرجه أحمد ٢٤٨/٥-٢٤٩ رقم ٢٢١٤٠، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٤٥٦/٣٦، وقد أخرجه النسائي ٢٢٢٢، ٢٢٢٣ مختصرًا.

كلما دخلت وكلما خرجتَ، وكلما قُمتَ، وكلما جلستَ. قال ﷺ: اللهم غُفْراً، دَعُونا عنكم، وأنتم لو شئتُم صلَّت عليكم الملائكةُ، ثم قرأ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۝ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[1].

وقد روى علماً كثيراً، وكان إذا حدث عن رسول الله ﷺ قال: إنّ هذه المجالس من بلاغ الله إيّاكم، وإن رسول الله ﷺ، قد بلغ ما أُرسل به إلينا فبلّغوا عنّا أحسن ما تسمعون.

سكن بالشام وتوفي في أرض حمص، وهو آخر من مات من الصحابة بالشام وقد توفي سنة ٨٦هـ وقيل ٨١هـ، وقد ناف على المائة سنة[2].

الشرح الأدبي

- هذا الحديث باقة من الهدى والرشاد، ومصباح من التعاليم يقود القلوب إلى النجاة في يوم المعاد، وهو نجمة تشرق في فضاء متوهج بالمبادئ والقيم التي أرساها الرسول ﷺ في خطبة حجة الوداع، وفي هذه الخطبة تتجلى معالم البيان النبوي وتتألق أبعاده، فالخطابة فن أدبي كاد يندثر في عصرنا الحديث، وما أحوجنا إلى تأمل النماذج العليا من هذا الفن الأدبي الراقي، إنه فن الإلقاء وفن صياغة الكلمة صياغة آسرة تؤثر في المتلقي، وتأسر أحاسيسه، وتثير انفعالاته وتمتع عقله، وتشبع عاطفته[3].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٤٣.

(٢) الطبقات، ابن سعد (٤١١/٧-٤١٢)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (٣٤٨)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (١٥/٣-١٦)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٦٠٦، وسير أعلام النبلاء، الذهبي (٣٥٩/٣-٣٦٢)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (٤٥١/٣-٤٥٢)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٢٠٩/٢-٢١٠)، والأعلام، الزركلي (٢٠٣/٣)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (١٠٤٧/٢-١٠٥٤).

(٣) انظر: الشرح الأدبي واللغوي لخطبة حجة الوداع في كتاب: الأدب الإسلامي بين التنظير والتطبيق، د. صابر عبدالدايم.

- وللخطابة النبوية خصائص وسمات فنية وأدائية لها دورها في التأثير والإقناع، فقد كان محمد ﷺ يخطب في العرب على هدي القرآن الكريم ليخرجهم من ظلمات الوثنية إلى نور الهداية السماوية، وقد أوتي من اللسن والفصاحة ما ملك به أزمَّة القلوب، وكأنما كانت المعاني موقوفة بشخوصها بين يديه ليختار منها ما تهش له الأسماع وتصغي له الأفئدة.
- ومن الخصائص الأدبية الأدائية لخطابة المصطفى عليه الصلاة والسلام، أنه كان يستعمل جميع فمه للتكلم ولا يقتصر على تحريك الشفتين، كما يقول هند بن أبي هالة "ويفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع من الكلم" وقد برأ الله سبحانه رسوله ﷺ من عيوب المنطق الخلقية التي لا تتفق مع جلال الرسالة ومهابة التبليغ، حيث برئ أسلوبه ونطقه من تنافر الحروف ومن التعقيد والمعاظلة ومن الغرابة المستكرهة ومن الألفاظ الوعرة الوحشية في غير قصد أو غرض، كما برئ منطق المصطفى ﷺ في خطابته وأحاديثه من عيوب النطق التي تصدر عن مبالغة وتكلف كسباً لرضا المستمعين واستجلاباً لثنائهم مثل التنطع والتملق والتفيهق وغيرها، وتتسم خطابة المصطفى ﷺ بالدقة والوضوح وعدم المبالغة، وهو عليه الصلاة والسلام في أسلوبه الخطابي بعيد عن الانفعال الذي ينأى بالخطيب عن دائرة الحقيقة، فكل ما يتفوه به في خطابته صدق وجد وترغيب وترهيب وإرشاد وتشريع وهداية وتبشير[1].

ولنتأمل في ضوء الخصائص والسمات السابقة للخطابة النبوية جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف، وهو جزء من الخطبة المباركة في حجة الوداع، وهذه الجماليات الأسلوبية تتمثل في الآتي:

السجع غير المتكلف: حيث عدل رسول الله ﷺ عن الأسلوب المرسل إلى صياغة

---

(١) انظر: الحديث النبوي، رؤية فنية جمالية، د. صابر عبدالدايم.

إيقاعية مؤثرة يؤدي السجع فيها دوراً عميقاً لجذب الأسماع معتمدا على تكرار كاف الخطاب الجمعي حيث تختم الجمل في الحديث بهذا الخطاب المتوازي والمتوازن مع عدم التكلف وعدم الإطناب، وأفعال الأمر نفسها التي تبتدئ بها الجمل وتنتهي جميعها بواو الجماعة في صياغة أقرب إلى السجع غير المقصود.

وحتى لا تطرأ شبهة تكلف السجع جاءت الجملة الأولى غير مسجوعة وهى "اتقوا الله" ثم تتوالى الجمل الأخرى على هذا النسق الإيقاعي الجميل المؤثر: "وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدُّوا زكاة أموالكم، وأطيعوا أمراءكم، تدخلوا جنة ربكم".

الإيجاز وتكثيف العبارة: فالحديث ألفاظه قليلة ولكنه يحض ويأمر بوجوب تنفيذ ثلاثة من أركان الإسلام، وفي رواية أخرى، أربعة أركان حيث قال، "وحجوا بيت ربكم".

- والجملة الأولى "اتقوا الله" مع بقية الحديث تتضمن شهادة التوحيد، وهى الركن الأول من أركان الإسلام، لأنه لن يؤدي هذه الأركان إلا من قال، "لا إله إلا الله محمد رسول الله" صادقاً مخلصاً، والمصطفى ﷺ يتوجه بهذا الخطاب الجمعي الواجب التنفيذ إلى المسلمين الموحدين الذين ينطقون بشهادة التوحيد ويؤدون كل موجباتها. وطاعة ولي الأمر فيما أحل الله لها دور بارز في استقرار الأمة وتثبيت دعائم أركانها وتقوية أواصر وحدتها والدفع بها إلى مجالات القوة المادية والروحية، وهذه القوة التي تقوم على أسس من التقوى والإيمان وإقامة أركان الإسلام ثمرتها العزة والنصر في الحياة الدنيا والفوز بالجنة في الآخرة، والحديث يشع ويموج بكل هذه المعاني الراشدة.
- أفعال الأمر المتوالية الصادرة من رسول الله ﷺ (اتقوا، وصلوا، وصوموا، وأدوا، وأطيعوا" هذه الصيغ اللغوية الآمرة تعلن عن وجوب القيام بهذه الأركان، وعدم التهاون في شأنها، والعطف بالواو يدل على مطلق الجمع

بين هذه الأمور ولكن ترتيب الأوامر يتفق مع حديث: "بني الإسلام على خمس ..." الحديث[1]، ويوحي بضرورة أداء هذه الأركان وعدم التهاون في أدائها على الوجه الأكمل. والصلاة لا تسقط عن المسلم العاقل البالغ في أي حالة يمر بها. ويمكن في حالة العجز التام أن يجري أركان الصلاة على قلبه طالما كان عقله سليماً يعي ويدرك ما حوله.

والصيام لا يجب إلا على القادر المكلف، والزكاة لا تجب إلا على من يملك النصاب، وطاعة ولي الأمر، ليست من الأركان ولكنه من الواجبات، ومن هنا ندرك سر هذا الترتيب في جمل الحديث الشريف.

ولم يأت العطف بالفاء؛ لأن أداء الأركان ليس منقطعاً ولا منفصلاً، فيمكن للإنسان المسلم الصوم والصلاة في وقت واحد، وكذلك الحج والصلاة، والزكاة تؤدي عن الإنسان أحياناً وهو يؤدي بعض الشعائر.

والبناء اللغوي في الحديث يدعونا إلى التأمل والتفكر في رصد أسرار البيان النبوي، فالحديث في ظاهره يتكون من ست جمل لغوية تفصيلاً، ولكنه في حقيقته جملة واحدة إجمالاً، لأن الحديث يتكون من الأمر وجواب الأمر، ولا يتم الكلام إلا إذا أتممنا قراءة الحديث، فجملة "اتقوا الله" هي البداية ثم عطف عليها أربع جمل أو خمس جمل، وهي ما بعدها، ثم تجئ الجملة الأخيرة، "تدخلوا جنة ربكم"، وهي بها تتم الفائدة لأن فعلها مجزوم في جواب الأمر، والجواب "وهو دخول الجنة" يحدد ثمرة وجزاء التقوى والصلاة والزكاة والصوم والطاعة.

وإضافة الجنة إلى ربكم يوحي بالفوز والأنس والطمأنينة فهي ليست جنة من جنان الدنيا وهى البساتين المثمرة، ولكنها "جنة الله" واختيار لفظ "ربكم" لتعميق الشعور بالاطمئنان ولترسيخ المفهوم الإيماني وهو أن الله يتولى تربية القلب والشعور والسلوك تربية إيمانية موافقة للفطرة التي فطر الله الناس عليها.

---

(١) أخرجه البخاري ٨، ومسلم ١٦.

ودلالة أفعال الأمر السابقة تشارك في تكوين الوجدان الإسلامي تكويناً صحيحاً حتى يتهيأ لدخول الجنة في ظل رعاية إلهية، وسلوك إيماني خالص، يقول عز وجل: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾[1].

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: فريضة الصلاة، وقد سبق ذكر حكمها أكثر من مرة ولا داعي للتكرار.

الثاني: فريضة الزكاة، وقد اتفق الفقهاء[2] على أن الزكاة في الإسلام فرض على القادر المالك للنصاب من الأموال وبالشروط المعتبرة لذلك شرعًا وهناك خلافات كثيرة حول ما يجب فيه الزكاة من الأموال وكيفية وجوبها وغير ذلك من مسائل لا يسمح المقام هنا بذكرها ومحلها كتب الفقه المتخصصة.

الثالث: فريضة الصيام، وقد اتفق الفقهاء[3] على أن صيام رمضان فرض على كل مسلم ومسلمة بالغ عاقل صحيح مقيم ليس به مانع شرعي.

الرابع: حكم طاعة أولي الأمر، وقد أجمع العلماء[4] على وجوب طاعة أولي الأمر

---

(١) سورة ق: ٣١-٣٤.

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني ٧٥/٢، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٢٧٦/٢، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي ٣٧٨/٢، وشرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ محمد بن أحمد بن محمد عليش ١٠٨/٢، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، الشربيني ١٤٠/٢، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين الرملي ١٤٨/٣، وشرح منتهى الإرادات ٤٦٩/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٣٠٨/٢.

(٣) الاختيار لتعليل المختار ١٦٤/١، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد النفراوي المالكي ٣٥١/١، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، الشربيني ٤٢٠/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٣٤٥/٢.

(٤) المغني، ابن قدامة ٣/٩، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ١٥٨/٦، وفتح الباري، ابن حجر ٨/١٣، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي للنووي ٢٢٩/١٢، ونيل الأوطار ٢٠٧/٧ وما بعدها، الدراري المضية للشوكاني ٥٠٦/١، الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٢٣/٢٨ وما بعدها.

من الأمراء والحكام، وأن الخروج عليه محرم، والخارج على الإمام باغ يعاقب بعقوبة البغي حتى يفيء إلى أمر الله، فإن ظهر من الإمام جور فهل يجوز الخروج عليه؟ قال الداودي: الذي عليه العلماء في أمراء الجور أنه إن قدر على خلعه بغير فتنة ولا ظلم وجب وإلا فالواجب الصبر، وعن بعضهم لا يجوز عقد الولاية لفاسق ابتداء فإن أحدث جورًا بعد أن كان عدلاً فاختلفوا في جواز الخروج عليه والصحيح المنع إلا أن يكفر فيجب الخروج عليه مع الإشارة إلى وجوب نصحه في الله تعالى حتى إن تعرض الناصح لأذى.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: تقوى الله والمحافظة على الصلوات وصيام رمضان وأداء الزكاة.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: طاعة ولي الأمر.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: جزاء الطائعين الجنة.

رابعاً: من فقه الداعية: ترتيب الأولويات.

خامساً: من أساليب الدعوة: الأمر والترغيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: تقوى الله والمحافظة على الصلوات وصيام رمضان وأداء الزكاة:

لقد حضّ النبي ﷺ على تقوى الله والصلاة وصوم شهر رمضان وأداء الزكاة. أما التقوى فقد جاءت آيات كريمة من القرآن تحض على التقوى فكثيرة تلك الآيات التي نصها ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾[1]. وقال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[2]، وقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[3]. وقال العز ابن عبدالسلام: (التقوى فعل الواجبات وترك المحرمات، وهي وصية الله في الأولين والآخرين)[4].

---

(١) انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم، رتبه حسان عبدالمنان ص ٦٤٢.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٩٤.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٠٢.

(٤) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال، العز بن عبدالسلام ص ٣٠٠.

أما الصلاة وصيام رمضان وأداء الزكاة فمن أركان الإسلام. قال النبي ﷺ: ((بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ. شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ الله، وَأَنَّ مُحَمَّدا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. وَإِقَامِ الصَّلاَةِ. وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ. وَصيام رَمَضَانَ وَحَجِّ الْبَيْتِ))(١).

قال النووي: (هذا الحديث أصل عظيم في معرفة الدين وعليه اعتماده وقد جمع أركانه)(٢).

ومن ذلك حديث طلحة بن عبدالله رضي الله عنه: ((جاءَ رَجُلٌ إلى رسولِ اللّهِ ﷺ مِنْ أهلِ نَجْدٍ ثائرَ الرأْسِ يُسمعُ دَوِيُّ صَوتِهِ ولا يُفْقَهُ ما يقولُ، حتى دَنا، فإذا هُوَ يَسْألُ عنِ الإسلام، فقال رسولُ اللّهِ ﷺ: خَمسُ صَلَواتٍ في الْيَوْمِ والليلةِ . فقال: هَل عَلَيَّ غَيْرُها؟ قال: لا ، إلاّ أنْ تَطَوَّعَ. وَصِيامُ شهر رَمَضانَ. قال: هلْ عَلَيَّ غَيرُهُ؟ قال: لا ، إلاّ أن تطَوَّعَ. وَذَكرَ له رسولُ اللّهِ ﷺ الزَّكاةَ، قال هلْ عَلَيَّ غيرُها؟ قال: لا ، إلاّ أن تَطَوَّعَ. قال فأدبرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يقولُ: وَاللّهِ لا أزِيدُ عَلَى هذا ولا أنقُصُ منه فقال رسولُ اللّهِ ﷺ: أفْلَحَ إنْ صَدَقَ))(٣). (والمقصود من العبادة تهذيب النفس بالتوجه إلى الله، والخضوع له والانقياد لأحكامه بالامتثال لأمره)(٤).

ثانياً- من موضوعات الدعوة: طاعة ولي الأمر:

لقد أمر النبي ﷺ المسلمين فقال: "وأطيعوا أمراءكم".

قال المباركفوري: (قال القاري: أي الخليفة والسلطان وغيرهما من الأمراء، أو المراد: العلماء أو أعم، أي كل من تولى أمراً من أموركم سواء كان السلطان -ولو جائراً أو متغلباً- وغيره من أمرائه وسائر نوابه إلا أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)(٥).

---

(١) أخرجه البخاري ٨، ومسلم ١٦.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩٠.

(٣) أخرجه البخاري ٢٤٦، ومسلم ١١.

(٤) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٥٧/٢٩.

(٥) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٨٦٠/١.

وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾[١]، قال ابن حجر: (واختلف في المراد بأولي الأمر في الآية[٢]، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "هم الأمراء" أخرجه الطبري وإسناده صحيح وأخرج عن ميمون بن مهران وغيره نحوه. وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: هم أهل العلم والخير. وعن مجاهد وعطاء والحسن وأبي العالية: هم العلماء. ومن وجه آخر أصح منه عن مجاهد قال: هم الصحابة رضي الله عنهم، وهذا أخص. وعن عكرمة قال: أبوبكر وعمر. وهذا أخص من الذي قبله، ورجّح الشافعي الأول واحتج له بأن قريشاً كانوا لا يعرفون الإمارة ولا ينقادون إلى أمير، فأمروا بالطاعة لمن ولي الأمر، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ((مَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي)) متفق عليه[٣]. واختار الطبري حملها على العموم وإن نزلت في سبب خاص)[٤].

وذكر العيني (لأولي الأمر منكم) أحد عشر قولاً ثم قال: (الحادي عشر: عام في كل من ولي أمر شيء وهو الصحيح وإليه مال البخاري بقوله: ذوي الأمر)[٥].

وقال ابن عثيمين: (وهذا يشمل أمراء المناطق والبلدان ويشمل الأمير العام، أي: أمير الدولة كلها، فإن الواجب على الرعية طاعتهم في غير معصية الله، أما في معصية الله فلا تجوز طاعتهم ولو أمروا بذلك، لأن طاعة المخلوق لا تُقدم على طاعة الخالق جل وعلا، ولهذا قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ فعطف طاعة ولاة الأمور على طاعة الله ورسوله، وهذا يدل على أنها تابعة، لأن المعطوف تابع للمعطوف عليه لا مستقل)[٦].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٢) انظر: الآثار في ذلك في جامع البيان، الطبري ١٧٧/٧ وما بعدها، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٤٢/٢ وما بعدها، والدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي ٥٠٢/٤ وما بعدها.

(٣) أخرجه البخاري ٧١٣٧، ومسلم ١٨٣٥.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ١٠٢/٨.

(٥) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، العيني ١٧٦/١٨.

(٦) شرح رياض الصالحين ٢٥٥/١.

وإنما أمر النبي ﷺ بطاعة أولي الأمر في غير معصية الله، حتى يحفظ على مجتمع المسلمين استقراره وأمنه، فإن في الخروج على أولي الأمر فساداً كبيراً وخطراً عظيماً.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: جزاء الطائعين الجنة:

قد جعل الله ثواب التقوى والصلاة والزكاة والصيام وطاعة أولي الأمر، دخول الجنة، قال المباركفوري: (قال الطيبي: حكمة إضافة هذا -صلوا خمسكم- وما بعده إليهم إعلامهم بأن ذوات هذه الأعمال بكيفيتها المخصوصة من خصوصياتهم التي امتازوا بها عن سائر الأمم وحثهم على المبادرة للامتثال بتذكيرهم بما خوطبوا به وتذكيرهم بأن هذه الإضافة العملية يقابلها إضافة فضلية هي أعلى منها وأتم وهي الجنة المضافة إلى وصف الربوبية المشعر بمزيد تربيتهم وتربية نعيمهم بما فارقوا به سائر الأمم)(١).

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾(٢)، وقال عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(٣).

وقال النبي ﷺ: ((كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ أَبَى، قالوا: يا رسولَ الله ومن يأبى؟ قال: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى))(٤).

"والجنة هي دار الثواب لمن أطاع الله، وقد أعد الله لأهل الجنة فيها من النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر"(٥).

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٨٥٩/١-٨٦٠.

(٢) سورة التوبة، آية: ١١١.

(٣) سورة الصف، الآيات: ١٠-١٢.

(٤) أخرجه البخاري ٧٢٨٠.

(٥) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء ٢٣٨.

رابعاً- من فقه الداعية: ترتيب الأولويات:

لقد بدأ النبي ﷺ بالحث على تقوى الله ثم الصلاة ثم صوم رمضان ثم أداء الزكاة ثم طاعة ولي الأمر. فلا شكّ أن التقوى هي الذروة من هذه الأعمال فهي المحركة لها والباعثة عليها ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[1] والتقوى أكثر ما يدخل الجنة فقد سئل الرسول: ((مَا أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: التَّقْوَى وَحُسْنُ الْخُلُقِ))[2]. ثم ثنى رسول الله ﷺ بالصلاة، وبعدها صوم رمضان وهكذا رتب النبي ﷺ هذه الخصال حسب أولويتها ودرجتها، فالصلاة عماد الدين وهي لا تسقط بحال عن المكلفين، فضلاً عن أنها عبادة يومية أدائها عمود الإسلام، لذا استحق تقديمها على غيرها، ولما كان عدد من تجب عليهم الزكاة أقل ممن يجب عليهم الصيام، قدم الصيام في الذكر..

كما ختم النبي ﷺ بالأمر بطاعة أولي الأمر، فإذا كانت التقوى وهذه العبادات توفر للإنسان الأمن النفسي، فإن طاعة أولي الأمر توفر الأمن الاجتماعي، ومن ثم يجتمع له الأمنان الداخلي والخارجي.

وكان النبي ﷺ يوجه دعاته إلى ترتيب الأولويات، فقد وجه معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن، وقال له: ((إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ. فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إلى أن يوحدوا الله تعالى. فَإِذَا عَرَفُوا ذلك، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الله فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ. فَإِذَا صلُوا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الله قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً أَمْوَالِهِمْ))[3].

خامساً- من أساليب الدعوة: الأمر والترغيب:

لقد أمر النبي ﷺ المؤمنين قائلاً لهم: "اتقوا الله..." وكان الموقف موقف خطبة فاستخدم النبي ﷺ الأمر ليكون أنسب في إيصال المراد مباشرة صريحاً واضحاً؛

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٩٧.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٠٠٤، وابن ماجه ٤٦٢٦، وحسنه الألباني (السلسلة الصحيحة ٩٧٧).

(٣) أخرجه البخاري ٧٣٧٢، ومسلم ١٩.

ليكون الامتثال أسرع، وبيّن ﷺ قيمة هذا الأمر بأن بين عاقبة امتثاله وهو دخول الجنة، فجمع النبي ﷺ بين الأمر والترغيب؛ ليجعل المدعوين أكثر استجابة وأشد امتثالاً لما أمرهم به.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

لقد اهتم الإسلام اهتماماً كبيراً بتربية المسلمين على التقوى والعمل على تأصيلها في القلوب، وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالتقوى، وقد كانت التقوى وصية الله للأولين والآخرين، ولذا فإن النبي ﷺ عمل على تنشئة أصحابه رضي الله عنهم وتربيتهم على تقوى الله، ومن ثم فقد وردت أحاديث كثيرة في الحث على تقوى الله والترغيب فيها والأمر بها وبيان فضلها، ومن جملة هذه الأحاديث ما ورد في هذا الباب -التقوى- الذي اشتمل على عدد من المضامين التربوية والتي من جملتها ما يلي:

أولاً: من أساليب التربية السؤال والجواب:

إن السؤال والجواب من أبرز وأهم أساليب التربية، حيث يبرهن السؤال برهنة عملية على رغبة المتعلم في المعرفة والتعلم ومعرفة ما يجهله من أمور، ولذا كان الصحابة رضي الله عنهم يسألون رسول الله ﷺ، وكان صدره يتسع لأسئلتهم، ويقوم بإجابتهم بأسلوب تربوي رائع، يعمل فيه على ترسيخ المعاني الإيمانية العظيمة، مثلما ما ورد في الحديث: من أكرم الناس؟ قال: أتقاهم.

وقد كانت إجابات النبي ﷺ شمولية وجامعة ومركزة وهادفة ومستوعبة للخلفيات الفكرية للسائل، وليس ذلك فحسب، بل تعمل على تعميق الفهم التربوي الواعي لعدد من الحقائق التي يحتاج الناس إلى معرفتها.

ومن الميادين التربوية التي تسعى إلى تزويد المتعلم بالمعرفة الدينية اللازمة له المدرسة: حيث لا ينبغي أن تقتصر مهمة التربية الدينية على إشباع حاجة التلميذ إلى المعرفة الدينية. وإنما ينبغي أن تسعى إلى تزويده بالمعرفة اللازمة له في مستقبل أمره، وإن لم يشعر في هذه اللحظة، أو في الوقت الحاضر بالحاجة إليها، إن التربية عموماً، والتربية الدينية خصوصاً، لا ينبغي أن تكون ضيقة النظرة، لا تتعدى نظرتها مواقع أقدامها، بل ينبغي أن تمد بصرها إلى الأمام فتعطي التلميذ ما يحتاجه في الغد القريب على الأقل، إن لم يكن في الغد البعيد، لأن المدرسة ينبغي أن يكون من أهدافها تعميق معرفة التلميذ بالعقائد الدينية، وبالشعائر الدينية والمعاملات مع الناس وأن تزيد من

فهمه لها، حتى ينمو معرفياً في هذه الجوانب، ولا يثبت عند وضع معين فيها، وإذا كانت هناك دراسة موضوعات بعينها، في مراحل التعليم المختلفة فهي تدرس بعمق معين في مرحلة ثم بعمق أكبر في المرحلة التي تليها وهكذا[١].

ثانياً: التربية على الزهد في الدنيا والحذر من الافتتان بها وبالنساء:

إن من المعالم التربوية التي أراد النبي ﷺ ترسيخها في نفوس أصحابه رضي الله عنهم أن الدنيا حلوة وخضرة ومبهجة وتغري بالافتتان بها، وما أكثر من يفتن بها ويقع في حبائلها، والأولى بالعاقل أن يدرك حقيقة الدنيا، وأنها إلى زوال وإلى فناء، فلا يكن ذلك باعثاً على الافتتان بها، بل يجب الحذر منها ومن مغرياتها مثل النساء.

ويمثل ذلك حلقة من حلقات التربية النبوية لأصحابه رضي الله عنهم، وكيف كان ﷺ يهتم بالتربية الشاملة، والحديث ليس دعوة للزهد في طيبات الحياة، ولكن دعوة إلى الاعتدال والتوازن في مجالات الحياة الدنيوية المتعددة، ودعوة إلى تقوية الصلة بالله، فلا تتهاوى النفس أمام زخارف الدنيا وزينتها، ولا تفقد اعتدادها بالقيم العليا[٢].

ثالثًا: التربية الروحية للإنسان:

تستهدف التربية الإسلامية: تربية الذات الإسلامية، وهي تربية شاملة ومستمرة، والتربية الإسلامية تعمل على أن ينتفع الإنسان بما يتعلمه، وتستمد تلك التربية شموليتها أو صلاحيتها للإنسان في كل زمان ومكان من شمولية الإسلام، لأن هدفها الإنسان بكيانه متكاملاً وبطاقاته وقدراته كلها، وهي بذلك تعني بالجانب العقلي والروحي والجسمي والخلقي والاجتماعي والجمالي وغير ذلك[٣].

إن هدف التربية الإسلامية هو تنمية وتكوين الإنسان العابد الصالح[٤].

---

(١) انظر: التربية الإسلامية وطرق تدريسها، د.إبراهيم محمد الشافعي، ص٥٤.

(٢) انظر: دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، د. محمد لقمان الأعظمي الندوي، ٤٢٦، ٤٢٧.

(٣) انظر: فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د.عبدالجواد سيد بكر ص ١٧٠-١٧٦.

(٤) من الأصول التربوية في الإسلام، د.عبدالفتاح جلال ص ٧٩.

-فلسفة التربية كما يحددها القرآن الكريم، علي خليل مصطفى ص ١٤٥.

-التربية في الإسلام، د. أحمد فؤاد الأهواني ص ٩.

وقد جمعت التربية الإسلامية بين تأديب النفس وتصفية الروح وتثقيف العقل وتقوية الجسم فهي تعني بالتربية الدينية والخلقية والعلمية والجسمية دون تضحية بأي نوع على حساب الآخر.

إن من أهداف التربية الروحية تقوية الجانب الروحي للإنسان، حيث حرص الإسلام على نقاء هذا الجانب وطهارته، بحيث يسمو الإنسان فوق رغائب وأغلال المادة[1].

ولذا فإن النبي ﷺ كان يقول: ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَىٰ وَالتُّقَىٰ، وَالْعَفَافَ وَالْغِنَىٰ))، وكان ﷺ يأمر بتقوى الله وأداء العبادات والتخلُّق بالأخلاق الحسنة مما يساعد على تحقيق تقوى الله وتزكية وتربية النفس.



(١) انظر: فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د.عبدالجواد سيد بكر ص ١٨٢-١٨٤.

٧- باب اليقين والتوكل

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾[الأحزاب: ٢٢]، وَقالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[آل عمران: ١٧٣-١٧٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾[الفرقان: ٥٨]، وَقالَ تعَالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[إبراهيم: ١١]، وَقالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّه﴾[آل عمران: ١٥٩]، والآيات في الأمرِ بالتوكلِ كثيرةٌ معلومةٌ. وَقالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[الطلاق: ٣]: أي كافِيهِ. وَقالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[الأنفال: ٢]، والآيات في فضل التوكل كثيرةٌ معروفةٌ.

وأمَّا الأحاديث:

الحديث رقم (٧٤)

٧٤- **فَالأوَّلَ**: عَن ابْن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**عُرِضَت عليَّ الأمَمُ، فَرَأيْت النَّبيَّ وَمعَه الرُّهيْطُ، والنَّبيَّ ومَعهُ الرَّجُل وَالرَّجُلانِ، وَالنَّبيَّ ولَيْسَ مَعهُ أحدٌ، إذ رُفِعَ لِي سوادٌ عظيمٌ فظننتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هذا موسى وقومه ولكن انظر إلى الأفق فإذا سواد عظيم فقيل لى انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هَذه أُمَّتُكَ، ومعَهُمْ سبْعُونَ أَلْفاً يَدْخُلُونَ الْجَنَّة بِغَيْرِ حِسَابٍ ولا عَذَابٍ**».

ثُمَّ نَهض فَدخَلَ منْزِلَهُ، فَخَاض النَّاسُ في أُولَئِكَ الَّذينَ يدْخُلُون الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حسابٍ وَلا عذابٍ، فَقَالَ بعْضهُمْ: فَلَعَلَّهُمْ الَّذينَ صَحِبُوا رسول اللَّه ﷺ، وقَال بعْضهم: فَلعلَّهُمْ الَّذينَ وُلِدُوا في الإسْلامِ، فَلَمْ يُشْرِكُوا باللَّه شيئاً وذَكَروا أشْياء، فَخرجَ علَيْهمْ رسول

اللّـه ﷺ فقَـالَ: «مَـا الّـذي تَخُوضونَ فِيهِ؟» فأخْبَرُوهُ فقَـالَ: «هُـمْ الّـذِينَ لا يرقُونَ، وَلا يَسْتَرْقُونَ، وَلاَ يَتَطيَّرُون، وَعَلَى ربِّهِمْ يتَوكّلُونَ» فقَامَ عُكّاشَةُ بنُ مُحْصِنٍ فقَالَ: ادْعُ اللّـه أنْ يجْعَلَني مِنْهُمْ، فقَالَ: «أنْت مِنْهُمْ» ثُمَّ قَـام رَجُلٌ آخَرُ فقَالَ: ادْعُ اللّـه أنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ فقال: «سَبَقَكَ بِهَا عُكّاشَةُ» متفقٌ عليه[1].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

الرهيط: بضم الراء تصغير رهط، وهم دون عشرة أنفس[2].

سواد عظيم: السواد هو الشخص والمقصود: أشخاص كثيرة[3].

الأفق: الناحية والجانب[4].

تخوضون: تتفاوضون[5].

يرقون: من الرقية وهي العوذة التي يُرقى بها صاحب الآفة كالحمى والصرع وغير ذلك من الآفات[6].

يسترقون: أي يطلبون الرقية[7].

يتطيرون: من الطِيَرة وهو التشاؤم. وأصلها أنهم كانوا في الجاهلية إذا قصدوا لأمر فإذا رأوا الطير طار يمنة تيمنوا بذلك واستمروا في الأمر، وإذا طار يسرة تشاءموا ورجعوا[8].

---

(١) رواه البخاري (٦٥٤١)، ومسلم (٣٧٤/٢٢٠) واللفظ له.

(٢) رياض الصالحين ٨٠.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٤١٥/١١، والوسيط في (س و د).

(٤) رياض الصالحين ٨٠.

(٥) الصحاح في (ف و ض).

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ر ق ي).

(٧) انظر: الوسيط في (ر ق ي).

(٨) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ط ي ر)، والمفصح المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ١٩٦، وفتح الباري، ابن حجر ٢٢٣/١٠، والوسيط في (ط ي ر).

عُكّاشه: بضم العين وتشديد الكاف وبتخفيفها، والتشديد أفصح[(١)].

الشرح الأدبي

- ما أجل البشارات التي يهديها المصطفى ﷺ إلى أمته وهي خير أمة أخرجت للناس! وما أعظم الدلائل والبراهين التي يقدمها المبعوث رحمة للعالمين على فضل أمة الإسلام وعلى إكرام الله لها وتفضيلها على سائر الأمم! ونقتبس من هذا الحديث الشريف ومضات متألقة تشع بالأفضلية والخيرية لهذه الأمة المباركة. والحديث يُصَدِّر به الإمام النووي باب اليقين والتوكل، وهو بهذا التصدير يعلن ويؤكد أن التوكل واليقين من ثمرات التقوى.
- وأول وصية في الحديث السابق هي: "اتقوا الله"، وجزاء التقوى وما يلزم عنها دخول الجنة، والتوكل على الله -في رأى بعض العلماء- وهو الثقة بالله والإيقان بأن قضاء نافذ واتباع سنة نبيه ﷺ والسعي فيما لا بد منه من مطعم ومشرب والتحرز من العدو كما فعله الأنبياء.

واليقين في اللغة: العلم الذي لا شك فيه.

وهذا الحديث النبوي الشريف يقدم صورة مشرقة من أساليب البيان النبوي، وهي تموج بالحركة والحوار والمناظرة والجدال بالتي هي أحسن.

- والنهج القصصي هو الوسيلة الفنية التي قدم في إطارها هذا الحديث الشريف، وأول مشهد من مشاهد هذه الصورة القصصية إخبار النبي ﷺ بما رآه في قوله: "عرضت على الأمم" وهذا العرض - كما قال العلماء- يحتمل أن يكون مناماً أي: رؤيا، أو يكون العرض في اليقظة ليلة الإسراء أو غيرها، والتعبير بقوله: "عرضت"، فيه سرّان من أسرار التعبير وهما: بناء الفعل للمجهول؛ لأن الفاعل معلوم وهو الله عز وجل: فهو الذي عرض عليه

(١) رياض الصالحين ٨٠.

مشاهد الأمم، والتعبير بمادة العرض يوحي بتعدد المشاهد وتعدد العروض، ويتضح ذلك من قوله ﷺ: "فرأيت النبي... والنبي ... والنبي..." وهذا التكرار يؤكد كثرة المشاهد.

- وليس الأمر إطناباً ولكن التكرار لإظهار الحقيقة، ففي المرة الأولى النبي معه الرهيط: وهو العدد من ثلاثة إلى عشرة أو ما دون العشرة، وفي المرة الثانية يرى النبي معه أقل من ذلك: "الرجل أو الرجلان"، وفي الثالثة النبي ليس معه أحد ولم يحدد الرسول أسماء هؤلاء الأنبياء، لأنهم كثيرون ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[1]. ولنتأمل قلة الاتباع، ومعاناة الأنبياء مع أقوامهم ولنشكر الحق سبحانه على أن جعل الناس يدخلون في دين الله أفواجا.
- والمشهد الرابع يخصه الرسول بالتفصيل والتوضيح "إذْ رفع لي سواد عظيم" أي أشخاص كثيرون فظن الرسول أنهم أمته. وفي هذا الظن رجاء وأمنيات أن يجعل أمته أكثر عدداً، ولكن توقع المصطفى ﷺ لم يتحقق وقيل له: "هذا موسى وقومه" وعندما يحكي رسول الله ﷺ لأصحابه هذه المشاهد فهو يشوقهم ويثير مشاعرهم ويهيئهم للبشرى بعد الظنون.
- والتعبير يقوله "ولكن" يصور ما جال بنفوس الصحابة وبنفس الرسول ﷺ، فهي للاستدراك وهو إثبات ما يتوهم نفيه، أو نفي ما يتوهم ثبوته، وما بعد "لكن" يوضح الموقف.

وما أجمل تصوير هذا المشهد الذي لم يره إلا الحبيب المصطفى والنبي المجتبي! هذا المشهد يتجلى في هذه المحاورة المبشرة البليغة الناطقة بالحقيقة الرامزة، "انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم" ويتابع المشهد الجليل، الذي يرويه البشير النذير، "فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر. فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك".

---

(١) سورة غافر، آية: ٧٨.

- فأي فضل أعظم من هذا؟ وأي كرم أفضل من هذا؟ وأي بشارة بالفوز لهذه الأمة أسمى من هذه البشارة؟ والسواد العظيم في الأفق، مشهد حقيقي ولكنه يرمز لحقائق ممتدة ومستقبل آمن، وقد تحققت هذه النبوءة، والفتوحات الإسلامية خير شاهد على ذلك، وقد اتسعت أرجاء الدولة في المشرق والمغرب. والأفقان في الحديث الشريف يوحيان بانتشار الدعوة الإسلامية في أرجاء المعمورة كلها شرقاً وغرباً وقد تحقق ذلك، ويعد ذلك من معجزاته ﷺ ونبوءاته التي أكرمه الله بها. والتعبير بلفظ الإشارة، "هذه أمتك" يدل على التحديد والتكريم لأن الله أضاف الأمة إلى كاف الخطاب والمخاطب هو سيد الخلق ﷺ، والمزيد من الكرم يتجلى في تخصيص الله أفراداً من أمة محمد الذين بيّن رسول الله ﷺ صفاتهم بعد ذلك، وهم يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب. والقسم الثاني من الحديث تدور فيه مناظرة أخرى ومجادلة بين أصحاب النبي ﷺ في تفسير وتأويل المراد بهؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وكان من الممكن أن يخبرهم الرسول بصورة مباشرة بهؤلاء ولكن البيان النبوي يلجأ إلى التشويق وإلى إثارة ما في نفوس الناس من آراء؛ ولذلك جاء الفاصل بين المحاورتين بـ"ثم" في قوله: "ثم نهض"، وكثير من الجمل عطفت بالفاء والواو، وثم جاءت مرتين فقط، والعطف بثم هنا يعطي مسافة للتفكير والحوار والتفسير والتأويل، ولذلك عبر بالفعل "خاض الناس" والمراد: الكلام المتشعب، وكأنهم تموج بهم الأحاديث من شدة اللهفة على معرفة الحقيقة، وبعد أن خاضوا وتأولوا وتعددت تفسيراتهم واتجهت إلى صحابة رسول الله أو الذين ولدوا في الإسلام، والكل يتمنى أن يكون من هؤلاء المقربين. ولكن المصطفى ﷺ يسألهم سؤالاً تقريرياً "ما الذي تخوضون فيه؟" فأخبروه. فتجيء إجابة المصطفى ﷺ تصحيحًا لمفاهيم كثيرة، وحين يحدد الذين يدخلون الجنة بغير حساب، لا يحصرهم في طائفة محددة، ولا في زمن

معين، فهم ليسوا من الصحابة فقط، وليسوا من الذين ولدوا في عصر البعثة فقط، ولكنهم يمكن أن تشملهم جميع العصور، وجميع الأمكنة في كل الأجيال كذلك؛ لأن صفاتهم هي المعيار والمقياس، فالذي تتحقق فيه هذه الصفات وتلك السلوكيات يكون من هؤلاء. وتكلم عنهم الرسول بصيغة الجمع المخبر عنهم فقال: "هم الذين" ثم أتى بثلاث صفات في صيغة النفي "لا يرقون ولا يسترقون، ولا يتطيرون" والصفة الرابعة هي الجامعة المانعة وفي صيغة الإثبات، وصيغة القصر عن طريق التقديم والتأخير "وعلى ربهم يتوكلون".

- والعنصر الصوتي المتمثل في السجع المتوالي وختام الأفعال المضارعة بواو الجماعة وثبوت النون، يوحي بقوة الأداء واستمرارية هذا السلوك، والمراد أنهم يتركون ما كان من رقى في الجاهلية أو بأية رقى غير شرعية لا تعتمد على الله ولا تفوض أمره إليه.

فقه الحديث

في الحديث من الفقه ما يلي:

أ- **إباحة المناظرة في العلم:** قال النووي: (قوله "فخاض الناس": أي تكلموا وتناظروا، وفي هذا إباحة المناظرة في العلم، والمباحثة في نصوص الشرع على جهة الاستفادة وإظهار الحق)[1].

ب- **الرقى:** اختلف الفقهاء في الرقى: فذهب الجمهور إلى جواز الرُّقْى من كلّ داء يصيب الإنسان بشروط ثلاثة:

أولها: أن يكون بكلام الله تعالى أو بأسمائه وصفاته.

ثانيها: أن يكون باللسان العربي أو بما يعرف معناه من غيره.

ثالثها: أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بإذن الله تعالى وقدرته، لما روى عوف

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي.

ابن مالك رضي الله عنه قال: (كنا نرقى في الجاهلية فقلنا: يا رسول الله كيف ترى في ذلك؟ فقال: "عرضوا على رقاكم، لا بأس بالرُّقى ما لم يكن فيه شرك")[١].

وعن جابر رضي الله عنه قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرقى فجاء آل عمرو بن حزم فقالوا: يا رسول الله إنه كانت عندنا رقية نرقى بها العقرب وإنك نهيت عن الرقى، قال: فعرضوها عليه، فقال: ((ما أرى بأسًا من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه))[٢].

وقال قوم من العلماء: لا تجوز الرقية إلا من العين واللدغة لقول عمران بن حصين رضي الله عنهما: ((لا رقية إلا من عين أو حمة))[٣].

وذهب بعض العلماء إلى أنه تكره الرقى حتى وإن كانت بكتاب الله أو أسمائه وصفاته؛ لأنها قادحة في التوكل على الله، واستدلوا بحديث الباب "هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون" ومن هؤلاء سعيد ابن جبير.

وذهب آخرون إلى كراهة الرقى إلا بالمعوذات.

وفرق قوم من العلماء بين الرقى قبل وقوع البلاء وبعد وقوعه، فقالوا: المنهي عنه من الرقى هو ما يكون قبل وقوع البلاء، والمأذون فيه ما كان بعد وقوعه)[٤].

---

(١) أخرجه مسلم ٢١٩٩، ٦٤.

(٢) أخرجه مسلم ٢١٩٩، ٦٢، ٦٣.

(٣) أخرجه البخاري ٥٧٠٥ موقوفًا على عمران بن حصين رضي الله عنهما، وأخرجه أبو داود ٣٨٨٤ عن عمران بن حصين رضي الله عنهما مرفوعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٢٨٩). وانظر: فتح الباري، ابن حجر ٢٥٣١/٣.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٢٥٣١/٣، شرح الحديث ٥٧٠٥، ٢٥٤٦/٣، شرح الحديث ٥٧٣٥، ٢٥٥٣/٣، شرح الحديث ٥٧٥٢، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤١/١٤/٧-١٤٢، والقوانين الفقهية ص ٤٥٣، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد النفراوي المالكي ٤٤٢/٢، وحاشية العدوي ٤٥٣/٢، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، الشربيني ١٣٧/١، والمغني، ابن قدامة لابن قدامة ٤٤٩/٢، وحاشية ابن عابدين ٢٣٢/٥، والموسوعة الفقهية ٩٦/٢٣-٩٨.

ج- التطير: جاء في الحديث عن صفات هؤلاء السبعين "ولا يتطيرون" (وأصل التطير أن العرب إذا خرج أحدهم لأمر قصد إلى عش طائر، فيهيجه فإذا طار الطير يمنةً تيمن به، ومضى في الأمر ويسمونه السانح. أما إذا طار يسرةً تشاءم به ورجع عما عزم عليه، وكانوا يسمونه "البارح" فأبطل الإسلام ذلك ونهى عنه، وأرجع الأمر إلى سنن الله الثابتة، وإلى قدره المحيط ومشيئته المطلقة)[١] وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعًا: ((من ردته الطيرة من حاجة فقد أشرك))[٢]. ونقل ابن حجر عن الحليمي: (وكان العرب يتطيرون بصوت الغراب وبمرور الظباء فسموا الكل تطيرًا؛ لأن أصله الأول)[٣].

أما عن الحكم التكليفي للتطير، فإن اعتقد المكلف أن الذي شاهده من حال الطير موجب لما ظنه مؤثر فيه، فقد كفر، لما في ذلك من التشريك في تدبير الأمور، أما إذا علم أن الله سبحانه وتعالى هو المتصرف والمدبر وحده ولكنه في نفسه يجد شيئًا من الخوف من الشرّ، لأن التجارب عنده قضت أن صوتًا من أصوات الطير أو حالاً من حالاته يرادفه مكروه، فإن وطن نفسه على ذلك فقد أساء، وإن استعاذ بالله من الشرّ وسأله الخير ومضى متوكلاً على الله، فلا يضره ما وجد في نفسه من ذلك، وإلا فيؤاخذ)[٤] لحديث معاوية بن حكم السلمي قال: قلت: يا رسول الله: منا رجال يتطيرون. قال: ((ذلك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنهم))[٥].

هذا وقد اتفق أهل التوحيد على تحريم التطير ونفي تأثيره في حدوث الخير أو الشر، لما في ذلك من الإشراك بالله في تدبير الأمور[٦]، والنصوص في النهي عن ذلك

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٢٥٥٣/٣، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٨٣/١٢.

(٢) أخرجه أحمد ٢٢٠/٢ رقم ٧٠٤٥ وقال محققو المسند: حديث حسن ٦٢٣/١١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٢٥٥٤/٣.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٢٥٥/٣، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٨٣/١٢.

(٥) أخرجه مسلم ٥٣٧.

(٦) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٨٣/١٢، وقال ابن مفلح: وقد ذكر بعض العلماء أن الطيرة من الكبائر، وما تقدم من أنها مكروهة ذكره غيرو احد من الأصحاب [من الحنابلة] والأولى القطع بتحريمها، ولعل مرادهم بالكراهة التحريم، الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٣٦٠/٣.

كثيرة منها حديث: "لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر"[١].

أما الفأل الحسن فهو جائز[٢]، وقد قال ابن عباس ﵄ كان رسول الله ﷺ يتفاءل ولا يتطيّر ويعجبه الاسم الحسن[٣]، وقال أنس بن مالك ﵁ أن النبي ﷺ قال: ((لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل الصالح "الكلمة الحسنة"))[٤].

قال البغوي: (الفأل قد يكون في ما يحسن ويسوء، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء، وإنما أحبّ النبي ﷺ الفأل، لأنه فيه رجاء الخير والعائدة، ورجاء الخير أحسن بالإنسان من البأس وأقطع الرجاء عن الخير)[٥].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: ما اختص به النبي ﷺ.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: فضل الأمة الإسلامية على الأمم السابقة.

ثالثاً: من مهام الداعية: تعريف المدعو بالحقائق الأساسية.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: فضل اليقين والتوكل.

خامساً: من صفات المدعو: السبق إلى تحصيل ما ينفعه في أخراه.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: فضل عكاشة بن محصن ﵁.

سابعًا: من فقه الداعية: الإجابة الحاسمة إذا اقتضى الموقف ذلك.

ثامناً: من أساليب الدعوة: الإخبار والتساؤل والتشويق والاستفهام.

أولاً- من موضوعات الدعوة: ما اختص به النبي ﷺ:

يتضح ذلك في قوله ﷺ "عُرِضَت عليّ الأُمم" وقد نصّ على ذلك ابن الملقن فذكر تحت ما اختص به ﷺ من الفضائل والكرامات (المسألة الثالثة والثلاثون: عرض عليه

---

(١) أخرجه البخاري ٥٧٠٧، ومسلم ٢٢٢٠.

(٢) حاشية ابن عابدين ١/٥٥٥.

(٣) أخرجه أحمد ١/٢٥٧ رقم ٢٣٢٨، وقال محققو المسند: حسن لغيره ٤/١٦٩.

(٤) أخرجه البخاري ٥٧٥٦، ومسلم ٢٢٢٤.

(٥) شرح السنة ١٢/١٧٥، وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٥/٣٢٨-٣٣٠.

الخلق كلهم من آدم إلى من بعده كما علم آدم أسماء كل شيء، ذكره العراقي في شرح المهذب)[١].

وفي صحيح ابن حبان عُنون هذا الحديث تحت عنوان "ذكر عرض الله جل وعلا الأمم على المصطفى"[٢].

وما اختص به النبي ﷺ أنواع:

(أ- الأحكام التكليفية التي لا تتعداه إلى أمته ككونه لا يورث، وغير ذلك.

ب- المزايا الأخروية، كإعطائه الشفاعة، وكونه أول من يدخل الجنة، وغير ذلك.

ج- الفضائل الدنيوية ككونه أصدق الناس حديثاً.

د- المعجزات كانشقاق القمر، وغيره.

هـ- الأمور الخَلْقية، ككونه يرى من خَلْفه ونحو ذلك)[٣].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: فضل الأمة الإسلامية على الأمم السابقة:

لقد فضل الله الأمة الإسلامية على سائر الأمم، وجعلها خير أمة أخرجت للناس، ومن الشواهد على ذلك ما ورد في قوله ﷺ "فنظرت فإذا سواد كثير قال: هؤلاء أمتك وهؤلاء سبعون ألفاً قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب" قال النووي: (فيه عظم ما أكرم الله سبحانه وتعالى به النبي ﷺ وأمته زادها الله فضلاً وشرفاً)[٤] وذكر ابن الملقن أن من خصائصه ﷺ أنه أكثر الأنبياء أتباعاً[٥].

وقد جاءت أحاديث في هذا المعنى، من ذلك قول النبي ﷺ: ((إنما بَقاؤكم فيمن سلَف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروبِ الشمس، أوتيَ أهل التوراةِ

---

(١) نهاية السول ٢٨٨، وانظر: فتح الباري، ابن حجر ١١/٤١٤-٤١٥.

(٢) صحيح ابن حبان ١٤/٣٣٩.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ، ٢/٢٥٧، وانظر روضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي للنووي، ٥/٣٣٤-٣٦٣.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٤٥.

(٥) نهاية السول، ابن الملقن، ٢٧٠.

التوراةَ فعملوا بها حتى إذا انتصف النهارُ عَجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أُوتيَ أهلُ الإنجيل الإنجيلَ فعملوا به إلى صلاة العصرُ ثم عَجزوا فأعطُوا قيراطاً قيراطاً، ثم أوتينا القرآنَ فعملنا به حتى غَرَبَتِ الشمسُ فأعطينا قيراطين قيراطيْن، فقال أهلُ الكتابين أي ربنا أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين وأعطتنا قيراطاً قيراطاً، ونحن كنا أكثر عملاً؟، قال الله: هل ظلمتكم من أجركم من شيء شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فهو فضلي أوتيهِ من أَشاء))[١].

وعن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: ((قَالَ لَنَا رَسُولُ اللّهِ : «أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» قَالَ فَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: «إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَسَأُخْبِرُكُمْ عَنْ ذٰلِكَ. مَا الْمُسْلِمُونَ فِي الْكُفَّارِ إِلاَّ كَشَعْرَةٍ بَيْضَاءَ فِي ثَوْرٍ أَسْوَدَ. أَوْ كَشَعْرَةٍ سَوْدَاءَ فِي ثَوْرٍ أَبْيَضَ))[٢].

وقال ابن كثير: (إنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يعطه نبياً قبله ولا رسولاً من الرسل، فالعمل على منهاجه وسبيله يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه)[٣].

ثالثاً- من مهام الداعية: تعريف المدعو بالحقائق الأساسية:

يضطلع الداعية بمهام أساسية في الدعوة إلى الله تعالى، ومن تلك المهام تعريف المدعو بالحقائق الأساسية التي ينبغي له التعرف عليها، فقد خرج عليهم النبي ﷺ وقال لهم: "ما الذي تخوضون فيه؟ فأخبروه فقال: "هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون"، فقد بين ﷺ صفات هؤلاء الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب بعد أن اختلفت اجتهاداتهم في تحديدهم فكان هذا منه ﷺ بياناً للحقائق الأساسية لهم.

---

(١) أخرجه البخاري ٥٥٧.

(٢) أخرجه البخاري ٦٥٢٨، ومسلم ٢٢١ واللفظ له.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٤٣/٣.

رابعاً- من موضوعات الدعوة: فضل اليقين والتوكل:

لقد ذكر النبي ﷺ أن صفات هؤلاء السبعين أنهم "لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون".

قال ابن القيم: (إن النبي ﷺ جعل الوصف الذي يستحق به هؤلاء دخول الجنة بغير حساب هو تحقيق التوحيد وتجريده، فلا يسألون غيرهم أن يرقيهم ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون، والطيرة نوع من الشرك، ويتوكلون على الله وحده لا غيره وتركهم الاسترقاء والتطير هو من تمام التوكل على الله)[(١)].

(ويحصل التوكل - كما نقل ابن حجر عن جمهور العلماء- بأن يثق [العبد] بوعد الله ويوقن بأن قضاءه واقع، ولا يترك اتباع السنة في ابتغاء الرزق مما لابد منه من مطعم ومشرب وتحرز من عدو بإعداد السلاح وإغلاق الباب ونحو ذلك، ومع ذلك فلا يطمئن إلى الأسباب بقلبه بل يعتقد أنها لا تجلب بذاتها نفعاً ولا تدفع ضراً، بل السبب والمسبب فعل الله تعالى والكلُ بمشيئته، فإذا وقع من المرء ركون إلى السبب قدح في توكله)[(٢)].

وقال ابن القيم: (التوكل نصف الدين والنصف الثاني الإنابة، فإن الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة والإنابة هي العبادة)[(٣)] وقال أيضاً: (واليقين قرين التوكل ولهذا فسر التوكل بقوة اليقين. والصواب أن التوكل ثمرته ونتيجته، ولهذا حسن اقتران الهدى به قال الله تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾[(٤)] فالحق

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، ابن القيم، ١٠٠. وقال ابن هبيرة: "فيه من الفقه أن الرقية جائزة وتركها توكلاً على الله تعالى أفضل منها، وكذلك الكي فإنه جائز وتركه أحسن. وأما الطيرة فلا تحلّ بحال"، الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٣/٦٥.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١١/٤١٧، وانظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ١/٤٦٧-٤٦٨.

(٣) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٢٥١.

(٤) سورة النمل، آية: ٧٩.

هو اليقين... ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ نوراً وإشراقاً، وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط وهم وغم فامتلأ محبة لله وخوفاً منه ورضي به وشكراً له وتوكلاً عليه وإنابة إليه، فهو مادة جميع المقامات والحامل لها)[١].

خامساً- من صفات المدعو: السبق إلى تحصيل ما ينفعه في أخراه:

إن المؤمن مأمور بالسبق لتحصيل ما ينفعه في أخراه، وذلك بالتزود بالأعمال الصالحة، ومن الشواهد على ذلك في هذا الحديث مسلك عكاشة بن محصن عندما قام وقال: ادع الله أن يجعلني منهم فقال ﷺ "أنت منهم ثم قام رجل آخر طلب ما طلبه عكاشة فقال النبي ﷺ: لا سبقك بها عكاشة" فقد سارع عكاشة إلى طلب أن يكون ممن يدخلون الجنة بغير حساب.

وقد وقع ذلك من الصحابة كثيراً، من ذلك سبق عُمير بن الحمام رضي الله عنه إلى الجنة يوم بدر، فقد سمع النبي ﷺ يقول: ((قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ قَالَ: يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ؟ قَالَ: نَعَمْ قَالَ: بَخْ بَخْ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخْ بَخْ قَالَ: لاَ. وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلاَّ رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا. قَالَ: فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ[٢]. فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ . ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ، إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ. قَالَ فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ. ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ))[٣].

قال ابن القيم: (قال بعض الزهاد: ما علمت أن أحداً سمع بالجنة والنار تأتي عليه ساعة لا يطيع الله فيها بذكر أو صلاة أو قراءة أو بإحسان)[٤].

---

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢٢١/٣.

(٢) جعبة النشاب والنبل، انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢١٨.

(٣) أخرجه مسلم ١٩٠١.

(٤) الفوائد المشوقة إلى علم القرآن وعلم البيان، ابن القيم ١٧٢.

سادسًا- من موضوعات الدعوة: فضل عكاشة بن محصن رضي الله عنه:

إن هذا يستنبط من مبادرته إلى سؤال رسول الله ﷺ أن يدعو له أن يكون من هؤلاء السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب، فأليست هذه المبادرة منه رضي الله عنه دليلاً على فضله؟ يؤيد ما ذهبنا إليه قول القرطبي: (ولقوة يقينه وشدة حرصه على الخير ورغبته فيما عند الله سبحانه، وسبق الصحابة كلهم بقوله: ادع الله أن يجعلني منهم، ولما لم يكن عند القائم بعده من تلك الأحوال الشريفة ما كان عند عكاشة قال له: "سبقك بها عكّاشة")[1] قال ابن كثير: (وكان من سادات الصحابة وفضلائهم)[2] وقال عنه ابن حجر: (كان من السابقين إلى الإسلام وكان من أجمل الرجال وكنيته أبو محصن وهاجر وشهد بدرًا وقاتل فيها، قال ابن إسحاق[3]: بلغني أن النبي ﷺ قال: ((خير فارس في العرب عكاشة)) وقال أيضًا[4]: قاتل يوم بدر قتالاً شديدًا حتى انقطع سيفه في يده فأعطاه رسول الله ﷺ جِزْلا[5] من حطب فقال: قاتل بهذا. فقاتل به فصار في يده سيفًا طويلاً شديد المتن أبيض، فقاتل به حتى فتح الله فكان ذلك السيف عنده حتى استشهد في قتال الردة مع خالد بن الوليد سنة اثنتي عشرة[6].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٤٦٩/١.

(٢) البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥٠١/٩.

(٣) السيرة النبوية، ابن هشام ٢٩١/١، بتحقيق الساق والإيباري وشلبي.

(٤) المرجع السابق ٢٩٠/٢، وانظر: دلائل النبوية للبيهقي ١٤٦/٥، والبداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١٤٦/٥.

(٥) الجزل: أصل الشجرة وغيرها بعد ذهاب الفرع، الوسيط في (ج ز ل). وهي ما عظم من الحطب ويبس، الوجيز في (ج ز ل).

(٦) فتح الباري، ابن حجر ٤١١/١١-٤١٢، وانظر ترجمته في: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٥٨٤، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٦٤/٤-٦٥، والسير ٣٠٧/١-٣٠٨، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٩٢٦.

لما سأل عكاشة بن محصن رضي الله عنه أن يدعو له النبي ﷺ أن يكون من هؤلاء السبعين ألفًا، قال له النبي ﷺ: "أنت منهم" ولما قام رجل آخر وطلب ما طلب عكاشة قال النبي ﷺ "سبقك بها عكاشة" وقد اختلف قول أهل العلم في بيان الحكمة من هذا الجواب النبوي الشريف، قال ابن حجر: (فتحصل لنا من كلام هؤلاء الأئمة على خمسة أجوبة والعلم عند الله تعالى)(١).

ومن هذه الأقوال ما رجحه أهل العلم، وهذا القول يذهب إلى أن النبي ﷺ قال: "سبقك بها عكاشة" حسمًا لمادة السؤال وإغلاقًا لباب الطلب، قال ابن الجوزي: (يظهر لي أن الأوّل سأل عن صدق قلب فأجيب، وأما الثاني فيحتمل أن يكون أريد به حسم المادة، فلو قال للثاني نعم، لأوشك أن يقوم ثالث ورابع إلى ما لا نهاية وليس كل الناس يصلح لذلك)(٢).

وقال القرطبي: (لما لم يكن عند القائم بعده من تلك الأحوال الشريفة ما كان عند عكاشة قال له: "سبقك بها عكاشة" وأيضًا فلئلا يطلب كل من هنالك ما طلبه عكاشة والرجل الآخر، ويتسلسل الأمر، فسدّ رسول الله ﷺ الباب بما قال لعكاشة وهذا أولى من قول من قال: إن ذلك الرجل كان منافقًا، لوجهين:

أحدهما: أن الأصل في الصحابة منحة الإيمان والعدالة، فلا يظن بأحد منهم شيء يقتضي خلاف ذلك الأصل، ولا يسمع ما لا يصح نقله، ولا يجوز تقديره.

والثاني: أنه قلّ أن يصدر مثل ذلك السؤال عن منافق، إذ ذلك السؤال يقتضي تصديقًا صحيحًا ويقينًا ثابتًا، والله أعلم)(٣).

وقال ابن حجر: (وإلى هذا جنح ابن تيمية)(٤).

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٤١٣/١١.

(٢) نقلاً عن فتح الباري، ابن حجر ٤١٢/١١.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٤٦٩/١.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٤١٢/١١.

ثامنًا- من أساليب الدعوة: الإخبار والتساؤل والتشويق والاستفهام:

أما الإخبار فقوله ﷺ "عُرِضَت عليّ الأُمم" ووظيفة الإخبار هنا بيان الحقيقة وتقريرها وجعلها مسلّمة لدى المدعوين.

أما التساؤل فواضح من رواية البخاري ((يا جبريلُ هؤلاء أمَّتي؟))[1] وذلك كان بعد أن رأى النبي ﷺ عدداً كبيراً من الناس، وذلك التساؤل يدل على حب النبي ﷺ لأمته. أما التشويق فكان دخول النبي ﷺ بيته بعد أن أخبر أن من أمته سبعين ألفاً يدخلون الجنة بدون حساب، فكان هذا التشويق دافعاً لأصحابه أن يجتهدوا في تحديدهم وتعيينهم فلما خرج عليهم سألهم "ما الذي تخوضون فيه؟" لكي يعلم ما يخوضون فيه ومن ثم أخبرهم فتشوق عكاشة أن يكون منهم فأخبره أنه منهم على حين أخبر الآخر أن عكاشة قد سبقه.

(١) صحيح البخاري ٦٥٤١.

الحديث رقم (٧٥)

٧٥- الثَّانِي: عَنْ ابْن عبَّاس رضي الله عنهما أيْضاً، أَنَّ رسول اللَّهِ ﷺ كانَ يقُولُ: «اللَّهُم لَكَ أسْلَمْتُ وبِكَ آمنْتُ، وعليكَ توَكَّلْتُ، وإلَيكَ أنَبْتُ، وبِكَ خاصَمْتُ. اللَّهمَّ[1] أعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لا إلَه إلاَّ أنْتَ، أنْ تُضِلَّنِي أنْت الْحيُّ الَّذي لا تمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ يمُوتُونَ» متفقٌ عليه[2]. وَهَذا لَفْظُ مُسْلِمٍ وَاخْتَصرهُ الْبُخَارِيُ.

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

أنبتُ: أقبلتُ ورجعتُ إليك بالتوبةِ[3].

خاصمت: نازعت[4]، و المراد: خاصمتُ ثقة في نصرك ومؤازرتك لي.

الشرح الأدبي

هذه الدعوات الصاعدة من قلب الحبيب محمد ﷺ يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، كما يقول الرافعي.

وجماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف تمتزج بجلال المعاني، وصدق المناجاة ووهج المحبة الإلهية، وشدة الحاجة إلى فيض القدرة الربانية.

وتتجلى هذه الجماليات الأسلوبية في الظواهر الآتية:

أ-التوازن في البناء اللغوي للحديث، حيث ترد الجمل الست الأولى في بناء متناسق متوازن لا أثر فيه للتكلف ولا للتصنع فهي لم تصنع ولكنها من الإحكام كأنها مصنوعة، ولم يتكلف لها وهي على السهولة بعيدة ممنوعة، والتوازن هنا ليس

---

(١) عند مسلم زيادة: (إنِّي).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣١٧)، ومسلم (٦٦/٢٧١٦) واللفظ له.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن و ب).

(٤) الوسيط في (خ ص م).

استعراضاً أسلوبياً وليس زخرفة لفظية وليس تهويماً في أودية الخيال ومسابح الظنون، بل هو حقائق تلبس أردية الجمال ووقائع تناصر فيها الأفعال الأقوال، والسجع والإيقاع الصوتي من مظاهر ذلك التوازن.

ب-أسلوب القصر عن طريق التقديم والتأخير "اللهم لك أسلمت، وبك آمنت..." وهذا المنحى الأسلوبي يعد من مظاهر التوازن والإيقاع في البناء اللغوي للحديث الشريف، ويؤكد أنه لا إسلام لغير الله ولا إيمان بغير الله ولا توكل على غير الله.

ج-تكرار كاف الخطاب في بداية كل جملة يؤكد الخشوع والحرص على إجابة الدعاء ، ويؤكد كذلك إخلاص النية وصدق اليقين والتوكل على الله عز وجل، وتنويع أدوات الجر مع مناسبة كل أداة للسياق والمعنى الذي قيلت فيه يرتبط بحسن مخاطبة الله عز وجل، ويفصح عن بلاغة الرسول التي خضعت الأفكار لآيتها وحُسرت العقول دون غايتها ، فالحرف له دلالة ولا يقلّ في تمثيله للمعنى عن الكلمة والجملة في سياق أداء المعنى والمقصد الكامل من الحديث النبوي الشريف.

ولنتأمل عدول الرسول عن التعبير بـ"في" إلى التعبير بقوله "وبك خاصمت" لأن الباء للإستعانة فهو يستعين على الخصم بالله، وذلك أبلغ من التعبير بـ"وفيك خاصمت". وفي ذلك إيحاء بغاية الورع والسمو في مخاطبة الله عز وجل.

أفعال الدعاء كلها ماضية (أسلمت – آمنت – توكلت – أنبت – خاصمت) لأن الإسلام والإيمان الصحيحان لا يتغيران فهما يسكنان قلب المؤمن ويضيئان وجهه ويصلحان أعماله، وكذلك التوكل عزيمة ثابتة تستقر في كيان المسلم لا يعتريها نقص ولا يشوبها خلل. والإنابة لا يتكرر حدوثها بل هي مستقرة متصلة بكل حرف وكل كلمة وكل فعل وكل حركة وكل سكون في حياة المصطفى ﷺ فهو في طاعة دائمة، وقول الرسول ﷺ "وبك خاصمت" فيه إيجاز وإيحاء بتأييد الله له عز وجل ومعنى "بك" أي بما أعطيت من البرهان والحجج القولية أو النصرة ونحوها من الحجج الفعلية، كما يقول صاحب دليل الفالحين.

وفي بداية القسم الثاني من الحديث يتكرر النداء: "اللهم"، وفي هذا الدعاء

استجارة بالله عز وجل واستغاثة بعد أن أقر بكل المبادئ والقيم السابقة في ظل توفيق الله ورعايته ونصرته.

ولنتأمل مقدمة الحديث في قول الصحابي: "إن رسول الله ﷺ كان يقول..." ولم يقل الراوي: "قال" إشارة إلى أن هذا القول وذلك الدعاء كان منهجاً متصلاً ومستقراً في حياة رسول الله ﷺ، فقد كانت هذه الأدعية تجري على لسانه وتنبع من قلبه في كل المواقف. والمصطفى ﷺ يستعيذ ويعتصم ويلتجئ إلى الله من الضلال ليس خوفاً من ذلك ولكن بدافع من الحرص على الطاعة الكاملة، ولذلك لم يقل "أن أضل" لأنه معصوم، ولكنه قال "من أن تضلني"، والجزء الأول من الحديث يعد برهاناً صادقاً على ابتعاد الرسول عن هذه الدائرة، ولكن كل شيء بأمر الله عز وجل، وهو قد أسلم أمره لله وآمن به وتوكل عليه، والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وزيادة من التمكين في الهداية يستجير الرسول بعزة الله عز وجل، ويقدم إقراره بالتوحيد تأكيداً لقدرة الله عز وجل وعزته وحمايته ونصرته للمصطفى ﷺ.

ولنتأمل ختام الحديث الشريف: إنه مناسب للسياق والمقام، وهو برهان على صدق التوجه وقوة الإرادة، وتمكن العقيدة الخالصة، فالله وحده هو الحي الذي لا يموت، ولذلك يجب التوجه إليه وحده لا غيره بالإسلام والإيمان والتوكل والإنابة، والدفاع عن دينه القويم. والجملتان الأخيرتان في الحديث بينهما مقابلة أي تضاد في المعنى ومفارقة في الدلالة والإيحاء ففيهما برهان ساطع على صدق التوكل على الله وحده واليقين بنصرته وعزته؛ فالجن والإنس يموتون، والله حي لا يموت، وهذه المقابلة توحي وترشد إلى عدم الاستعانة بغير الله عز وجل، لأن الذي يموت لا يقدر على حماية نفسه، فكيف يحمي غيره؟ والتعبير بالفعل المضارع في جملة: "والجن والإنس يموتون" يعطي دلالة استمرار حدوث الفناء في عالم الجن والإنس، فهم غير قادرين على حفظ حياة أنفسهم، ولا حفظ حياة غيرهم، ومن غيرهم، فالتوكل كما يعلمنا المصطفى ﷺ، إنما هو على الحي الذي لا يموت؛ فمن اعتز بغير الله ذل، ومن اهتدى بغير هدايته ضل، ومن اعتصم بالله تعالى وتوكل عليه عز وجل.

المضامين الدعوية

أولاً: من آداب الداعية: الاستعانة بالله تعالى وسؤاله واللجوء إليه والخضوع له والتوكل عليه.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الاستعاذة بالله من الضلال.

ثالثا: من موضوعات الدعوة: بيان فناء كل المخلوقات وبقاء الحي الذي لا يموت.

أولاً- من آداب الداعية: الاستعانة بالله تعالى وسؤاله واللجوء إليه والخضوع له والتوكل عليه:

فالحديث لوحة مشرقة للتوجه إلى الله والالتجاء إليه والخضوع له، فقوله ﷺ "اللهم لك أسلمت وبك آمنت" معناه: "لك انقدت وبك صدقت" وقوله: و"عليك توكلت" أي: "فوضت أمري إليك"[1].

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه أن الإسلام درجة أولى والإيمان مقام وراء ذلك، لأنه ﷺ قال: "لك أسلمت"، ثم أتبعه بقوله: "وبك آمنت" فلما بدأ بالإسلام ثم ثنى بالإيمان لم يبق حينئذ إلا تبيين ثمرة الإيمان، وهو التوكل على الله، فقال: و"عليك توكلت" ثم لما لم يخل بسر ما يقتضي الإنابة مع ذلك كله، قال بعده: "وإليك أنبت" ثم لما استقر ذلك كله جاء بالحب في الله والبغض في الله، فقال: "وبك خاصمت" وهذا أبلغ من قوله "وفيك خاصمت" لأن ذلك نوع تزكية للنفس، ودعوى قوله: "وبك خاصمت" يتضمن صدق التوكل: والمعنى: أنت مستندي وتفويض الانتصار بالله تعالى، وأنه خاصم في الله، بدليل أنه لا ينتصر إلا فيما يخاصم به فيه)[2].

والنبي ﷺ حاله مع ربه سبحانه هكذا دوماً، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ((كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلاَةِ قَالَ: وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٩٨.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٨٤/٣.

وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ. اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لاَ إِلهَ إِلاَّ أَنْتَ. أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ. ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعاً. إِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ. وَاهْدِنِي لأَحْسَنِ الأَخْلاَقِ. لاَ يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلاَّ أَنْتَ. وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا. لاَ يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلاَّ أَنْتَ. لَبَّيْكَ. وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ. وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ. أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ. تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ. أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ. وَإِذَا رَكَعَ قَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ. وَبِكَ آمَنْتُ. وَلَكَ أَسْلَمْتُ. خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي. وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصَبِي. وَإِذَا رَفَعَ قَالَ: اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءَ السَّمَاوَاتِ وَمِلْءَ الأَرْضِ وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ. وَإِذَا سَجَدَ قَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ. وَبِكَ آمَنْتُ. وَلَكَ أَسْلَمْتُ. سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ. تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ يَكُونُ مِنْ آخِرِ مَا يَقُولُ بَيْنَ التَّشَهُّدِ وَالتَّسْلِيمِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ. وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ. وَمَا أَسْرَفْتُ. وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي. أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ. لاَ إِلهَ إِلاَّ أَنْتَ))[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل قال: اللهم لك الحمدُ أنتَ نور السماوات والأرض، ولك الحمد ، أنت قَيَّامُ السمواتِ والأرضِ ولك الحمدُ ، أنت ربُّ السمواتِ والأرض ومَن فِيهنَّ، أنت الحقُّ، ووعدُك الحقُّ، وقولكَ الحقُّ ، ولقاؤكَ حقٌّ، والجنةُ حقٌّ، والنار حقٌّ، والساعةُ حقٌّ، اللهمَّ لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكلتُ، وإليك أنبت، وبك خاصمتُ، وإليك حاكمتُ، فاغفر لي ما قدَّمتُ وأخَّرتُ وأسررتُ وأعلنت أنت إلهي لا إله إلا أنتَ))[٢].

قال ابن هبيرة: "قوله: (بك آمنت) يجمع الإيمان بالله والاعتراف أنه لم يؤمن به إلا بتوفيقه"[٣].

قال النووي: (ومعنى سؤاله ﷺ المغفرة مع أنه مغفور له: أنه يسأل ذلك تواضعاً

(١) أخرجه مسلم ٧٧١.

(٢) أخرجه البخاري ١١٢٠ ، ومسلم ٧٦٩ واللفظ له.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ١٩/٣.

خضوعاً وإشفاقاً وإجلالاً، وليقتدى به ﷺ في أصل الدعاء والخضوع وحسن التضرع في هذا الدعاء المعين، وفي هذا الحديث وغيره مواظبته ﷺ في الليل على الذكر والدعاء والاعتراف لله تعالى بحقوقه والإقرار بصدقه ووعده ووعيده والبعث والجنة والنار وغير ذلك)[1].

وقال ابن حجر: (قال الكرماني: فيه الإشارة إلى النبوة وإلى الجزاء ثواباً وعقاباً ووجوب الإيمان والإسلام والتوكل والإنابة والتضرع إلى الله والخضوع له. انتهى وفيه زيادة معرفة النبي ﷺ بعظمة ربه وعظيم قدرته ومواظبته على الذكر والدعاء والثناء على ربه والاعتراف له بحقوقه والإقرار بصدق وعده ووعيده وفيه استحباب تقديم الثناء على المسألة عند كل مطلوب اقتداءً به ﷺ)[2].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الاستعاذة بالله من الضلال:

لقد استعاذ النبي ﷺ من الضلال فقال: "اللهم أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني"، قال ابن هبيرة: "قوله: (أعوذ بعزتك) العزة: تحتمل وجهين: أحدهما الامتناع. والثاني: ارتفاع القدرة، فهو عز وجل عزيز في قلوب أوليائه، فيجوز أن يكون الإضلال فعلاً للعزة، فيكون المعنى: أعوذ بك أن تضلني عزتك، أي تمنعني عظمتك واحتقاري لنفسي أن أسميك أو أصفك بما سميت به ووصفت به نفسك أو سماك ووصفك بك رسلك. ويجوز أن يكون الإضلال عائداً إلى الله تعالى، فقد قال الله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3][4].

فالله سبحانه وتعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾[5] وسبحانه ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص٥٢٤.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٨/١٣. وانظر: الفوائد، ابن القيم، ١٦٧-١٦٨.

(٣) سورة إبراهيم، آية: ٢٧.

(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٨٤/٣.

(٥) سورة النحل، آية: ٩٣.

ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾[١] ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴾[٢] لذا كان دعاء المؤمنين قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[٣].

وقد كان النبي ﷺ يستعيذ من أن يضل، فعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: ((مَا خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ بَيْتِي قَطُّ إلاَّ رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ فقالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ))[٤].

وقال ابن القيم: (قال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[٥]، والهدى منعه من الضلال، والرحمة منعه من الشقاء، وهذا هو الذي ذكره في أول السورة في قوله: ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾[٦]، فجمع له بين إنزال القرآن عليه ونفى الشقاء عنه، كما قال في آخرها في حق أتباعه: ﴿ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾، فالهدى والفضل والنعمة والرحمة متلازمات لاينفك بعضها عن بعض، كما أن الضلال والشقاء متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾[٧]، والسعر: جمع سعير، وهو العذاب الذي هو غاية الشقاء... ومن هذا أنه

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٧٨.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٩٧.

(٣) سورة الفاتحة، آية: ٦-٧.

(٤) أخرجه أبو داود ٥٠٩٤، وابن ماجه ٣٨٨٤ وصححه الألباني. صحيح سنن أبي داود، ٤٢٤٨.

(٥) سورة طه، آية: ١٢٣.

(٦) سورة طه، الآيتان: ١-٢.

(٧) سورة القمر، آية: ٤٧.

سبحانه يجمع بين الهدى وانشراح الصدر والحياة الطيبة، وبين الضلال وضيق الصدر والمعيشة والضنك، قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[١][٢].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: بيان فناء كل المخلوقات وبقاء الحي الذي لا يموت:

لقد أثنى رسول الله ﷺ على خالقه عز وجل بأنه "الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون".

قال ابن هبيرة: (وذلك أن كلّ حي سواه فحياته عارية، وهو الحي الدائم)[٣].

قال ابن حجر: (قوله "الجن والإنس يموتون" استدل به على أن الملائكة لا تموت ولا حجة فيه، لأنه مفهوم لقب[٤] ولا اعتبار له، وعلى تقديره فيعارضه ما هو أقوى منه وهو عموم قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[٥] مع أنه لا مانع من دخولهم في مسمّى الجن الجامع ما بينهم من الاستتار عن عيون الإنس)[٦].

وقد قال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[٧] (أي: كل من على الأرض من إنس وجن ودواب وسائر المخلوقات يفنى ويبيد ويبقى الحي الذي لا يموت)[٨] وقال ابن القيم: (الفناء في الآية الهلاك والعدم، أخبر سبحانه أن كل

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٣١.

(٢) الفوائد المشوقة إلى علم القرآن وعلم البيان، ابن القيم، تحقيق: محمد عثمان الخشت ص ١٩٦-١٩٧.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٨٥/٣.

(٤) مفهوم اللقب: هو إذا قيد الحكم أو الخبر بالاسم فهل يدل على نفي الحكم عما عداه. وهو ليس بحجة عند جمهور الأصوليين. انظر: المهذب في علم أصول الفقه المقارن، د. عبدالكريم بن علي النملة، مكتبة الرشد، الرياض، ط/١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ١٧٩٩/٤-١٨٠٢.

(٥) سورة القصص، آية: ٨٨.

(٦) فتح الباري، ابن حجر ٣٨٢/١٣.

(٧) سورة الرحمن، آية: ٢٦-٢٧.

(٨) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٧٧٠.

من على الأرض يعدم ويموت ويبقى وجهه سبحانه، قال الشعبي: إذا قرأت (كل من عليها فان) فلا تسكت حتى تقرأ: (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) وهذا من فقهه في القرآن وكمال علمه، إذ المقصود الإخبار بفناء من عليها مع بقاء وجهه سبحانه، فإن الآية سيقت لتمدحه بالبقاء وحده، ومجرد فناء الخليقة ليس فيه مدحه إنما المدح في بقائه بعد فناء خلقه)[١].

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٤/٢١٠.

الحديث رقم (٧٦)

٧٦- **الثَّالِثُ**: عن ابْنِ عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أيضاً قال: «حَسْبُنَا اللَّهُ ونِعْمَ الْوكِيلُ قَالَهَا إبْراهِيمُ عليه السلام حينَ أُلْقِى في النَّارِ، وَقالَهَا مُحمَّدٌ صلى الله عليه وسلم حينَ قَالُوا: «**إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إيماناً وقَالُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوكِيلُ**» رواه البخاري[1].

وفي رواية له عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: «**كَانَ آخِرَ قَوْل إبْراهِيمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم حِينَ أُلْقِي في النَّارِ «حسْبي اللَّهُ وَنِعمَ الْوَكِيلُ»**»[2].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

حسبنا: من حَسْب: اسم بمعنى كافٍ[3].

نِعْم: فعل غير متصرف لإنشاء المدح[4].

الشرح الأدبي

نقتبس من هذا الحديث موقفين جليلين من المواقف الإيمانية التي يتجلى فيها ثبات المؤمن وتوكله على الله ويقينه من نصرة الله له، والتوكل منزل من منازل الدين ومقام من مقامات الموقنين، بل هو من معالي درجات المقربين كما يقول صاحب إحياء علوم الدين.

- والموقف الأول هو موقف إبراهيم عليه السلام، حين ألقاه الكفار في النار بعد أن أورد عليهم الحجة القوية، كما جاء في سورة الصافات بقوله تعالى على لسانه: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[5]، فقال

---

(١) برقم (٤٥٦٣).

(٢) برقم (٤٥٦٤).

(٣) الوسيط ١٧١.

(٤) الوسيط ٩٣٥. والفعل غير المتصرف أي الجامد الذي لا يشتق منه مثل عسى وليس.

(٥) سورة الصافات، الآيتان: ٩٥، ٩٦.

الكفار بعد أن عجزوا عن الجواب: ﴿ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ﴾[١]، والجحيم هي النار العظيمة، كما قال الزجاج: كل نار بعضها فوق بعض فهي جحيم، فقال إبراهيم، كما يروي ابن عباس: حسبنا الله ونعم الوكيل، ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾[٢].

- وحين وكل إبراهيم أمره إلى ربه وأيقن أن الله كافيه، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾[٣]، وقال سبحانه: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾[٤]. والمعنى: أن في وقت المحاجة حصلت الغلبة له، وعندما ألقوه في النار فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل، فصرف الله عنه ضرر النار.
- وأما الموقف الثاني فهو موقف النبي محمد ﷺ وهو يواجه المشركين الذين أرادوا الكيد للإسلام والقضاء على المسلمين، وإذا كان إبراهيم الخليل قال: حسبنا الله ونعم الوكيل في موقف التصدي لعبّاد الأوثان وهو في قلب الجحيم أي النار العظيمة، فإن رسول الله ﷺ قالها بعد غزوة أحد وبعد أن عزم أبو سفيان على الانصراف من المدينة إلى مكة، نادى: يا محمد موعدنا موسم بدر الصغرى فنقتتل بها إن شئت، ولم يخش الرسول هذا التهديد، وخرج أبو سفيان في الموعد المحدد ولكن الله ألقى الرعب في قلبه، وقرر الرجوع بحجة أن العام عام جدب، ولكن نعيم ابن مسعود الأشجعي أخبره أن المسلمين يتجهزون، وقال للمسلمين يذكرهم بما حصل في أحد: أتوكم في دياركم وقتلوا أكثركم، فإن ذهبتم إليهم لم يرجع

---

(١) سورة الصافات، آية: ٩٧.

(٢) سورة الصافات، آية: ٩٩.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ٦٩.

(٤) سورة الصافات، آية: ٩٨.

منكم أحد، فوقع هذا الكلام في قلوب قوم منهم، ولكن كان للرسول موقف حاسم فيه يقين بالله وتوكل عليه وقال: ((والذي نفسي محمد بيده لأخرجن إليهم ولو وحدي))[١]. وخرج المسلمون إلى بدر الصغرى ولم يلقوا أحداً من المشركين، وباعوا واشتروا بسوق بدر الصغرى، وانصرفوا سالمين غانمين. وكل هذه الأحداث يقدمها هذا الحديث الشريف في إشارات مضيئة موحية تستمد إشعاعها الإيماني وبرهانها اليقيني من قولهم: "حسبنا الله ونعم الوكيل" والمراد بالناس: أبو سفيان وأصحابه ورؤساء عسكره، وكل من يتصدى للهجوم على أمة الإسلام. ومعنى "جمعوا لكم" أي: جمعوا الجموع. والعرب تسمى الجيش جمعاً ويجمعونه جموعاً أي جيوشاً، ولم يخش المسلمون هذه الجموع، وأودع الله قلوب الغالبين في أحد، وهم المشركون، الخوف والرعب، وأودع قلوب المغلوبين القوة والحمية والصلابة وزادهم إيمانا وقالوا في عزة ويقين: "حسبنا الله ونعم الوكيل" أي: كافينا الله. والوكيل، كما قال الفراء: الكفيل والكافي: لأن "نِعْمَ" يكون الذي بعدها موافقاً للذي قبلها، فتقدير الآية يكفينا الله ونعم الكافي"[٢] والله تكفل بنصر من ينصره ويؤمن به ويتوكل عليه فقال ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣].

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ٢٤٢/٦-٢٤٣، وفي إسناده عطية بن سعد العوفي صدوق يخطئ كثيرًا كان شيعيًا مدلسًا، تقريب تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٢٤/٢.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب للرازي، ج٤.

(٣) سورة الروم، آية: ٤٧.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الاستعانة بالله تعالى والالتجاء إليه.

ثانياً: من صفات الداعية: التوكل والاعتماد على الله وحده.

ثالثاً: من صفات الداعية: عدم الخوف والرهبة واليقين بنصر الله.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الاستعانة بالله تعالى والالتجاء إليه:

لا يستغنى العبد عن الاستعانة بخالقه، واللجوء إليه في كل الأحوال، وفي شتى الأمور يطلب منه العون والنصر، ويستغيث به في الشدائد. يظهر ذلك في قول ابن عباس رضي الله عنهما "حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ... الحديث" فقد بين الحديث استعانة والتجاء أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام ونبينا محمد ﷺ إلى الله تعالى، وهذا مما ينبغي أن يكون عليه المسلم في كل وقت وخاصة عند الشدة.

وقد أخبر سبحانه بأنه قريب من عباده فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[1] وأخبر عن نفسه تعالى بأنه يجيب دعوة المضطر فقال ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[2] وقد كان ذلك حال الأنبياء دائماً يلجأون إلى الله عند الشدائد ويستعينون به؛ فيونس عليه السلام لما التقمه الحوت ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3] وكان ذلك حال موسى عليه السلام ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾[4] وهذا نبي الله إبراهيم عليه السلام عندما لجأ إلى

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٦.

(٢) سورة النمل، آية: ٦٢.

(٣) سورة الأنبياء، الآيتان: ٨٧، ٨٨.

(٤) سورة الشعراء، الآيتان: ٦١، ٦٢.

الله واستعان به أنجاه من النار ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۝ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾(١) وهذا كان حال نبي الله ورسوله محمد ﷺ وأصحابه فكانوا يلتجئون إلى الله ويستعينون به، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۝ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾(٢).

وهذا ما يجب أن يكون عليه حال المؤمنين حتى ينجيهم من كل كربٍ وهَمٍّ ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾(٣). فينبغي على الداعية أن يدعو الناس إلى الاستعانة بالله والالتجاء إليه.

ثانياً- من صفات الداعية: التوكل والاعتماد على الله وحده:

إن من صفات الداعية التي تستنبط من عموم الحديث التوكل والاعتماد على الله وحده، وهذا يظهر في توكل واعتماد إبراهيم عليه السلام على الله وحده وكذلك محمد ﷺ.

وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكل والاعتماد عليه وحده فقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾(٤) أي: في أمورك كلها كن متوكلاً على الله الحي الذي لا يموت أبداً الذي ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٥) الدائم الباقي السرمدي الأبدي، الحي القيوم رب كل شيء ومليكه، اجعله ذخرك وملجأك، وهو الذي يتوكل عليه ويفزع

(١) سورة الأنبياء، آية: ٦٨، ٦٩.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ١٧٣، ١٧٤.

(٣) سورة الأنعام، الآيتان: ٦٣، ٦٤.

(٤) سورة الفرقان، آية: ٥٨.

(٥) سورة الحديد، آية: ٢.

إليه، فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك[١].

وقد جعل الله تعالى التوكل عليه من صفات المؤمنين فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[٢] وجعل سبحانه التوكل عليه كافي الإنسان فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[٣]، وقال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ فينبغي على الداعية التوكل والاعتماد على الله وحده فهو المعين وهو الكافي والقادر على كل شيء.

ثالثاً- من صفات الداعية: عدم الخوف والرهبة واليقين بنصر الله:

من صفات الداعية التي تظهر من عموم الحديث عدم الخوف والرهبة واليقين بنصر الله عز وجل، وهذا يظهر في عدم خوف إبراهيم عليه الصلاة والسلام من النار بل كان على يقين بنصر الله عز وجل، وكذلك رسول الله ﷺ لم يرهب جموع الأعداء بل كان على يقين من نصر الله عز وجل وهذا ما يجب أن يكون عليه الداعية وقد ورد في القرآن ما يؤيد ذلك في قصة موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾[٤].

قال القرطبي: (لما لحق فرعون بجمعه جمع موسى وقرب منهم، ورأت بنو إسرائيل العدو القوي والبحر أمامهم ساءت ظنونهم وقالوا لموسى على جهة التوبيخ والجفاء "إنا لمدركون" فرد عليهم قولهم وزجرهم وذكرهم وعد الله سبحانه له بالهداية والظفر "كلا" أي لم يدركوكم "إن معي ربي" أي بالنصر على العدو "سيهدين" أي سيدلني على طريق النجاة[٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١١٨/٦.

(٢) سورة إبراهيم، آية: ١١.

(٣) سورة الطلاق، آية: ٣.

(٤) سورة الشعراء، الآيتان: ٦١، ٦٢.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٠٦/١٣/٧.

فهذا كان حال أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام لا يرهبون عدو ويخافونه على يقين بنصر الله وإنصافه لهم.

وهذا ما يجب أن يكون عليه الداعية من التأسي برسل الله وأنبيائه في عدم الخوف والرهبة من شيء، واليقين والثقة بنصر الله فمهما حلك الظلام، واشتد الضيق، واجتمعت الكروب وتكالبت الأمم، لأن أمله بالله كبير ويقينه بأن العافية للمتقين، وأن المستقبل لهذا الدين[1].

فعدم الخوف واليقين في نصر الله المحرك الدائم لهمة الداعية حتى يعمل دون فتور أو كلال وأن يقاوم - في نفسه- نوازع التقاعد، والتخاذل إذا أحس بقوة الباطل وكثر أتباعه.

إنها صفة تجعل الداعية - في أحرج المواقف- يوقن بأن الباطل زهوق، وأن دولته ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة، ومن ثم فهو لا يدخر وسعاً في استغلال كل الطاقات والإمكانات لنصرة دعوته، فإن حدث ولم ير الداعية ثمرة عاجلة لدعوته لم يتسلل إليه اليأس والإحباط بل يوقن بأن الثمرة آتية لاريب فيها، في الوقت والمكان الذي يريده الله تعالى لا الذي يريده الدعاة[2].

---

(١) انظر: هذه أخلاقنا، محمود محمد الخزندار، ص ٣٥.

(٢) أخلاق الدعاة إلى الله تعالى (النظرية والتطبيق)، د. طلعت محمد عفيفي سالم، ص٨٦.

الحديث رقم (٧٧)

٧٧- **الرَّابعُ:** عَن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ عن النبي ﷺ **«يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أقْوَامٌ أفْئِدتُهُمْ مِثْلُ أفئدة الطَّيْرِ»** رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

أفئدتهم مثل أفئدة الطير: قيل: معناه متوكلون. وقيل: قلوبهم رقيقة[٢].

الشرح الأدبي

- ما أجمل البشرى في هذا الحديث الشريف! وما أصدق كلمات المصطفى ﷺ وما أوجزها! فالحديث جملة واحدة مفيدة تتآزر كلماتها في وحدة أسلوبية وموضوعية، فأنت لا تستطيع أن تسكت عند أي كلمة إلا بعد تمام الحديث، وقد صيغ في أسلوب خبري مبشر، واعتمد على تقديم الصورة الأدبية البليغة المناسبة للمقام، وهي واضحة وضوح ضياء الشمس في وسط النهار في ألفاظها ومدلولها، ولكن إيحاءها تتسع أرجاؤه وتتشعب أبعاده. وقد يتساءل بعض الناس: هل هذا الحديث مناسب لإدراجه في باب اليقين والتوكل؟ والإجابة: نعم، ونقتبس هذه الإجابة من بعض أشعة الحديث التي تسري في بيانه ﷺ، وتجعل من الأحاديث حدائق من الضياء والهدى واليقين، وكل ما تموج به هذه الحدائق البيانية من عطر كلمات المصطفى ﷺ يناصر بعضه بعضاً وتومض أجزاؤه بوميض الحق والرشاد، فإذا البيان كله شمس تتوهج بالهدي الإلهي والبيان النبوي.

---

(١) برقم (٢٧/٢٨٤٠).

(٢) رياض الصالحين ٨٠، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٧٥.

- وهذا الحديث يستضيء بإشراقة اليقين والتوكل في قوله ﷺ: "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطانا"(١) وهؤلاء الأقوام الذين يدخلون الجنة توكلوا على الله حق توكله، وهم في توكلهم وإخلاصهم وضعفهم وقلة حيلتهم مثل الطير، ولكنهم مطمئنون إلى أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الدال الموجز الذي تشكله صورة أدبية بليغة فالتعبير بالمضارع في قوله: "يدخل الجنة" دلالة على الاستقبال، والوعد الصادق: يدخلون الجنة، و"أل" في الجنة للعهد، فهي معروفة ومعدة، ولهم ما يشاءون فيها وقد أُعدت للمتقين، ولفظ "أقوام" جاء منكراً دلالة على الشيوع والكثرة والتنوع وأنهم يتواجدون في كل عصر وفي كل مكان. والأقوام جمع قوم: والمراد منه: الرجال والنساء على سبيل التغليب؛ لأن العرب يطلقون القوم على جماعة الرجال دون النساء، ولكن في القرآن الكريم أريد به الرجال والنساء في أغلب المواضع. ولنتأمل دلالة لفظ الأفئدة وكيف يمتزج المعنى بالمبنى في إعطاء الدلالة والإيحاء المراد من هذا اللفظ في الحديث الشريف، وهل لفظ مثل أنفسهم أو بطونهم أو ذواتهم كان يغني عن اللفظ المذكور؟ لا، لأن الأفئدة جمع الفؤاد والمراد به القلب، وفي أصله اللغوي يرتبط بالشعور والتوهج لأن التفؤد في اللغة هو التوقد، والفؤاد هو القلب لتفؤده وتوقده؛ فهؤلاء الأقوام تتوقد قلوبهم وتتوهج بالإيمان وتسكن وتطمئن إلى فضل الرحيم الرحمن، وقد شبه قلوب هؤلاء الأقوام بقلوب الطير في الصفاء والتوكل على خالق الأرض والسماء وفي ضعف الحال وقلة التدبير. ولكن الطير يسعى ويعمل، وعلى الإنسان أن يعتبر بهذه المخلوقات الضعيفة، ولكنها تقوى بفضل رعاية الكبير المتعال.

والصورة هنا واضحة تدعو إلى التأمل والنظر في خلق السماوات والأرض والاتعاظ والاهتداء، وهي ليست صورة جمالية لتزيين الكلام أو لإظهار الصنعة الفنية، ولكن للإقناع والتأثير والإيمان بأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين.

---

(١) أخرجه أحمد ٣٠/١ رقم ٢٠٥، وقال محققو المسند: إسناده قوي ٣٣٢/١.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: البشارة.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الترغيب.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: شدة الخوف من الله وحسن التوكل عليه.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: العلاقة بين حالة القلب ومصير الإنسان.

- **أولاً- من أساليب الدعوة البشارة:**
- إن من أساليب الدعوة التي تظهر في هذا الحديث أسلوب البشارة ويظهر هذا في قوله ﷺ "يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير" فبشر رسول الله ﷺ أصحاب القلوب الرقيقة بدخول الجنة.
- ويعد أسلوب التبشير بالخير من أساليب الدعوة المهمة، لما له من أثر في إقبال النفوس وابتهاجها، واشتياقها إلى الخير لما بشرت به؛ فالله سبحانه بعث النبيين مبشرين لأقوامهم حتى يقبلوا على دعوتهم ويسمعوها، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ﴾[1].
- وكان رسول الله ﷺ يستخدم أسلوب التبشير في دعوته وكان يبشر أصحابه بالخير وبشّر عدداً منهم بالجنة وقد أمر بالتبشير فقال: ((يَسِّروا ولا تُعَسِّروا، وبَشِّروا ولا تُنَفِّروا))[2]. فينبغي على الداعية أن يستخدم أسلوب التبشير في دعوته لجذب المدعوين إلى الدعوة وترغيبهم في قبولها.

ثانياً- من أساليب الدعوة: الترغيب:

يظهر ذلك من عموم الحديث حيث رغّب رسول الله ﷺ في ترقيق القلوب وعدم غلظتها وبيّن أن الذين يدخلون الجنة هم أصحاب القلوب الرقيقة لأنهم أسرع فهماً وقبولاً للخير وامتثالاً له.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢١٣.

(٢) أخرجه البخاري، ٦٩، ومسلم، ١٧٣٢.

وأسلوب الترغيب من أساليب الدعوة التي ينبغي على الداعية أن يفيد منها في دعوته حتى يرغّب المدعوين فيها ويجعلهم يقبلون عليها؛ فالترغيب يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه[1].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: التأكيد على شدة الخوف من الله وحسن التوكل عليه:

إن للجنة طرقًا تؤهل من يسلكها للظفر بفضل الله وإنعامه على عباده المؤمنين، ومن هذه الطرق شدة الخوف من الله وحسن التوكل عليه.

وهذا ما نص عليه الحديث في قوله ﷺ "يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير" قال القاضي عياض: (يحتمل أنه أراد: في رقتها وضعفها، كما قال لأهل اليمن: ((أرق قلوبًا، وأضعف أفئدة))[2] أي: أنها ذات خشية واستكانة سريعة الاستجابة والتأثير بقوارع التذكير، سالمة من الغلظ والشدة والقسوة التي وصف بها قلوب الآخرين[3]، فيحتمل أنه ﷺ أراد في قوله "مثل أفئدة الطير" الخوف والهيبة. فالطير أكثر الحيوان ذعرًا وفزعًا؛ ولهذا قالوا: أحذر من غراب، وكالطائر الحذر، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[4]، فكأنه يريد بذلك قومًا غلب عليهم الخوف، كما قد روى عن جماعة من السلف وغيرهم ممن أماتهم الخوف، وصدع قلوبهم الوعظ، وفاضت أنفسهم عند سماع الوعد والوعيد، وتذهلت عقولهم عند مشاهدة الهول والحادث الشديد[5].

قال الطيبي: (وقيل المراد بقوله ﷺ "مثل أفئدة الطير" أي: متوكلون كما ورد ((لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا

---

(١) انظر: أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ص: ٤٣٧.

(٢) أخرجه البخاري ٤٣٨٩، ومسلم ٥٢ واللفظ له.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٩.

(٤) سورة فاطر، آية: ٢٨.

(٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٣٧٣/٨.

وتروح بطانًا))[١] أقول: قد تقرر في علم البيان أن وجه الشبه إذا أضمر عم تناوله، فيكون أبلغ مما لو صرح به، فينبغي أن يحمل الحديث على المذكورات كلها، ومن ثم خص الفؤاد بالذكر دون القلب[٢].

إن المؤمن بحاجة إلى أن يكون شديد الخوف من الله تعالى حسن التوكل عليه، نظرًا لأن الخوف من الله تعالى يجعل المؤمن ممتثلاً لأوامر الله، حريصًا على مرضاته، ومتوكلاً عليه سبحانه وتعالى، وهذا مما يدل على صدق الإيمان.

رابعاً- من موضوعات الدعوة: العلاقة بين حالة القلب ومصير الإنسان:

من موضوعات الدعوة التي تستنبط من عموم الحديث العلاقة بين حالة القلب ومصير الإنسان، وذلك لأن القلب إذا استنار بنور التوحيد وأدرك ما ينفعه وما يضره انعكست آثاره على سلوك الإنسان، وسلوك الإنسان وعمله هو الذي يكون سبباً في سعادته أو شقاوته، لذلك قال تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾[٣] وقال ابن كثير: (أي: لقي الله يوم القيامة بقلب سليم منيب إليه خاضع)[٤].

وقال رسول الله ﷺ ((ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً : إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسدُ كله، ألا وهِيَ القَلْبُ))[٥]، قال ابن حجر: "وخص القلب بذلك لأنه أمير البدن، وبصلاح الأمير تصلح الرعية وبفساده تفسد، وفيه تنبيه على تعظيم قدر القلب، والحث على صلاحه"[٦]. فينبغي على الداعية أن يبين للمدعوين العلاقة بين حالة القلب ومصير الإنسان ويدعوهم إلى صفاء القلوب وسلامتها.

---

(١) أخرجه أحمد ٣٠/١، ٢٠٥، وقال محققو المسند: إسناد قوي، رجاله ثقات ٣٣٢/١.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢٤٤/١٠.

(٣) سورة ق، آية: ٣٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٠٦/٧.

(٥) أخرجه البخاري ٥٢، ومسلم ١٥٩٩.

(٦) فتح الباري، ابن حجر ١٥٦/١.

الحديث رقم (٧٨)

٧٨- **الْخَامِسُ**: عنْ جَابِرٍ ﵁ أَنَّهُ غَزَا مَعَ النَّبيِّ ﷺ قِبَلَ نَجْدٍ فَلَمَّا قَفَل رسول اللّه ﷺ قَفَل مَعهُمْ، فأدْركتْهُمُ الْقائِلَةُ في وادٍ كَثِيرِ الْعضاهِ، فَنَزَلَ رسولُ اللَّهِ ﷺ، وتَفَرَّقَ النَّاسُ يسْتظلُّونَ بالشجر، ونَزَلَ رسولُ اللَّه ﷺ تَحْتَ سمُرَةٍ، فَعلَّقَ بِهَا سيْفَه، ونِمْنَا نوْمةً، فإذا رسولُ اللَّهِ ﷺ يدْعونا، وإِذَا عِنْدَهُ أعْرابِيٌّ فقَالَ: «**إنَّ هَذَا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سيْفي وأَنَا نَائِمٌ، فاسْتيقَظتُ وَهُو في يدِهِ صَلْتاً، قالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ منِّي؟ قُلْتُ: اللَّه ثَلاثاً**» ولَمْ يُعاقِبْهُ وَجلَسَ، متفقٌ عليه[1].

وفي رواية: قَالَ جابرٌ: كُنَّا مع رسول اللّهِ[2] ﷺ بذاتِ الرِّقاعِ، فإذَا أتينا على شَجرةٍ ظليلة تركْنَاهَا لرسول اللَّه ﷺ، فَجاء رجُلٌ من الْمُشْرِكِين، وسيف رسول اللَّه ﷺ مُعَلَّقٌ بالشَّجرةِ، فاخْترطهُ فقال: تَخافُنِي؟ قَالَ: «**لا**» قَالَ: فمَنْ يمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَال: «**اللَّه**»[3].

وفي رواية أبي بكرٍ الإسماعيلي في صحيحِه[4]: قال: منْ يمْنعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: «**اللَّهُ**» قال: فسقَطَ السَّيْفُ مِنْ يدِهِ، فأخذ رسَول اللَّه ﷺ السَّيْفَ فَقال: «**منْ يمنعُكَ مِنِّي؟**» فَقال: كُن خَيْرَ آخِذٍ، فَقَالَ: «**تَشهدُ أنْ لا إلَه إلا اللَّهُ، وأنِّي رسولُ اللَّه؟**» قال: لا، ولكِنِّي أعاهِدُك أن لا أقَاتِلَكَ، ولا أكُونَ مع قوم يقاتلونك، فَخلَّى سبِيلهُ، فَأتى أصحابَه فقَالَ: جِئتكُمْ مِنْ عِندِ خيرِ النَّاسِ.

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩١٠ معلّقا) واللفظ له، ومسلم (٨٤٢/٣١٠).

(٢) لفظ البخاري في المواضع الثلاثة: (النبي).

(٣) أخرجه البخاري (٤١٣٦).

(٤) رواية أبي بكر الإسماعيلي أوردها الحميدي في الجمع بين الصحيحين (٣١٠/٢، عقب الحديث رقم ١٥٢٦)، وقال: وقد ذكر أبوبكر الإسماعيليّ متنه من حديث أبي عوانة، عن أبي بشر، عن سليمان بن قيس -هو اليشكري، والد فليح-، عن جابر.

غريب الألفاظ:

قفل: أي رجع[١].

القائلة: الظهيرة، أو النوم وقت الظهيرة[٢].

العِضاة: الشجر الذي له شوك[٣].

سمرة: السمرة -بفتح السين وضم الميم- الشجرة وهي العظام من شجر العضاة[٤].

اخترط السيف: أي سلّهُ وهو في يده[٥].

آخذ: آسِر[٦].

صلتاً: بفتح الصاد وضمها أي مسلولاً منتزعًا من غمده أو جرابه في رفق[٧].

ذات الرقاع: غزوة ذات الرقاع وقعت في المحرم ٥هـ، سار النبي ﷺ في ٤٠٠ من أصحابه يريد بني محارب وبني ثعلبة من غطفان الذين جمعوا لمحاربته، وسميت ذات الرقاع لعصب المسلمين أرجلهم بالخرق، ولقد كان كلُّ ستة نفر على بعير يعتقبونه، فدميت أرجلهم وجرحت، وهي عند نخل شمال خيبر، وقيل على بعد ١٠٠ كم فقط شمال المدينة المنورة[٨].

الشرح الأدبي

- هذا مشهد عظيم من مشاهد اليقين والتوكل التي تثبت شجاعة الرسول ﷺ في مواجهة أعدائه، وهذه الشجاعة مصدرها التوكل على الله عز

---

(١) رياض الصالحين ٨١.

(٢) الوسيط في (ق ي ل).

(٣) رياض الصالحين ٨١.

(٤) رياض الصالحين ٨١.

(٥) رياض الصالحين ٨١. أي أخرجه وانتزعه برفق.

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (أ خ ذ). خير من يأسر ويعاقب.

(٧) رياض الصالحين ٨١.

(٨) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ١٧٩.

وجل والإيمان به وإسلام الوجه لله. وهذه قصة واقعية تمثل مشهداً من مشاهد السيرة النبوية الحافلة بالمواقف البطولية الجليلة، والمشاهد الإنسانية النبيلة، هذه القصة تتكامل أركانها وأسسها وكأنها أعدت وصنعت وهى لم تعد ولم تصنع من قبل البشر، ولكنها من صنع الخلاق العليم، وفي هذه القصة الحقيقية تتجلى أهم العناصر: وهي الأشخاص، والأحداث والأماكن والبيئة والحوار والعقدة والمفاجأة والحل والنهاية أو لحظة التنوير.

- وشخصية رسول الله ﷺ هي التي تضئ آفاق هذه الواقعة وتقدم النموذج الأعلى في الشجاعة واليقين والتوكل على الله، لأن الأعرابي أخذ سيفه وهو نائم، ثم أيقظه وقال: من يمنعك مني؟ ولم يخف الرسول ﷺ ولم يخش الموت، بل قال لهذا الخائن: الله. ثلاث مرات، وحقاً وصدقاً منعه الله وأعزه وسقط السيف من يد الأعرابي، وهنا يحدث التحول وتبرق المفاجأة، يقول له رسول الله: من يمنعك مني؟ فيستسلم ذلك الأعرابي ويقول: كن خير آخذ. ويعرض عليه الرسول ﷺ الإسلام فيأبى ولكن يعاهد الرسول على عدم قتاله مع أي قوم ولا يدعو لقتاله، ويعفو عنه الرسول. وتأتي الثمرة: ثمرة العفو والتوكل على الله، يتحول الرجل إلى مشيد بالرسول ﷺ، ويقول لقومه: جئتكم من عند خير الناس. فأي موقف أعظم من هذا؟ وأي سلوك أجمل من هذا وأنبل؟
- وشخصية الأعرابي الذي حاول خيانة الرسول ﷺ ولكنه فشل، والرسول أراد أن يشهد أصحابه هذا الموقف وأن يعلمهم درساً في العفو والتوكل على الله. وشعر الرجل بالخزي والضعف، وشعر الصحابة بالقوة والثبات.
- والصحابة رضي الله عنهم، ومعهم جابر، هم الشاهدون على صدق هذا الموقف وهم المجاهدون الذين استظلوا بالشجر من حرارة الصحراء بعد رجوعهم من غزوة ذات الرقاع.
- والمكان يشارك في صنع وقائع هذه القصة الواقعية وهو ليس مكاناً مريحاً

وإنما هو واد ممتلئ بأشجار العِضاةَ: أي شجر كثير الشوك ضخم، ويختار الرسول ﷺ شجرة من الطلح، وهي السمرة، ليعلق بها سيفه.

- والبيئة قاسية، والحر شديد قائظ، والوقت في منتصف النهار القائلة أو القيلولة، والصحابة راجعون من الجهاد وهو مجهدون، ورسول الله كذلك، وفي خضم هذه المعاناة يحدث هذا الموقف العصيب وينجي الله نبيه الصادق الوعد الأمين، ويجعل له الغلبة والفوز ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[1].

ولكن الرسول في النهاية يعفو عفو القادرين ويصفح الصفح الجميل ويضرب الأنموذج الأعلى والمثل الأوفى في الأسوة الحسنة. والحوار في الحديث الشريف تكتمل أبعاده في الروايات الثلاث، ويتجلى في الرواية الثالثة وهو يفصح عن ثبات موقف الرسول ﷺ وهلع وفزع الأعرابي ثم شهادته واعترافه بفضل الرسول أمام قومه.

وهذا الحديث يعد من معجزات رسول الله التي وقعت أمام الناس للتأييد والتأسي والثقة في نصر الله لهذه الأمة.

- وعلى أمتنا في العصر الحديث أن تواجه أعداءها بهذا الثبات وذلك اليقين، فلله العزة ولرسوله والمؤمنين.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل الجهاد في سبيل الله.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل الصحابة في نشر العلم الذي تعلموه في هذه الرحلة وعدم كتمانه.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل التوكل على الله والاستعانة به.

رابعًا: من صفات الداعية: اليقين في الله وعدم الخوف.

خامسًا: من أساليب الدعوة: الحوار.

سادسًا: من صفات الداعية: العفو عند المقدرة.

---

(١) سورة الحج، آية: ٤٠ .

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل الجهاد في سبيل الله:

حيث خرج النبي ﷺ وخرج معه أصحابه ليكون دليلاً عمليًا على أن الجهاد يأتي بالعزة والتمكين.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: فضل الصحابة في نشر العلم الذي تعلموه في هذه الرحلة وعدم كتمانه:

حيث نقل جابر بن عبدالله رضي الله عنه هذه الواقعة بكل ما فيها من فوائد نفعت الأمة.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل التوكل على الله والاستعانة به:

يظهر هذا في قوله ﷺ لأصحابه عن الأعرابي " إنَّ هذا اخترَطَ سَيفي وأنا نائمٌ، فاستيقظتُ وهو في يدِهِ صلْتاً، فقال: من يمنَعُك منِّي؟ فقلتُ: الله -ثلاثاً-".

وفضل التوكل على الله والاستعانة به عظيم قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[1] قال السعدي: (من يتوكل على الله" في أمر دينه ودنياه، بأن يعتمد على الله في جلب ما ينفعه، ودفع ما يضره، ويثق به في تسهيل ذلك "فهو حسبه" أي: كافيه الأمر الذي توكل عليه فيه)[2].

والتوكل على الله له فضل عظيم على الإنسان قال رسول الله ﷺ ((لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ. تَغْدُو خِمَاصاً، وَتَرُوحُ بِطَاناً))[3]. هذا الحديث أصل في التوكل، وأنه أعظم الأسباب التي يستجلب بها الرزق قال بعض السلف: (بحسبك من التوسل إليه أن يعلم من قلبك حسن توكلك عليه فكم من عبد من عباده قد فوض إليه أمره، فكفاه منه ما أهمه)[4].

---

(١) سورة الطلاق، آية: ٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٨٠٦.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٣٤٤، وابن ماجه ٤١٦٤، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٩١١).

(٤) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس /٤٩٧.

والاستعانة تجمع أصلين: الثقة بالله، والاعتماد عليه. (والتوكل) معنى يلتئم من أصلين: من الثقة، والاعتماد. وهو حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[١]، وهذان الأصلان -وهما التوكل والعبادة- قد ذكر في القرآن في عدة مواضع، قرن بينهما فيها. هذا أحدها[٢].

فينبغي للداعية حث المدعوين على التوكل على الله، والاستعانة به، حتى يكون لهم معيناً وناصراً، ومخرجاً لهم، وقاضياً لحاجاتهم.

رابعًا- من صفات الداعية: اليقين في الله وعدم الخوف:

يظهر هذا في نومه ﷺ تحت الشجرة وكذلك عندما اخترط عليه الأعرابي السيف فلم يخف، ولكن كان على يقين في الله تعالى، وقال يمنعني منك الله.

فعلى الداعية أن يكون على يقين بالله عز وجل وفي نصره له، ولا يخشى من أحد غيره، وله القدوة والأسوة الحسنة في أنبياء الله عليهم السلام فقد كانوا في أشد المواقف وأصعبها ومع ذلك لم يخافوا ولم يجزعوا، بل كانوا على يقين في الله عز وجل، فهذا نبي الله إبراهيم عليه السلام يلقى في النار ومع ذلك لم يخف، ولم يتزعزع يقينه في الله فكان جزاؤه أن جعل الله النار برداً وسلاماً عليه قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[٣] وهذا نبي الله موسى عليه السلام كاد فرعون وجنوده أن يصلوا إليه ومن معه وخاف من معه وقالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[٤] فلم يخف ولم يرهب ولكنه ثابت على يقينه في الله وإنصافه له. ولنا في رسول الله ﷺ أفضل الأسوة والتآسي في يقينه بالله وعدم خوفه من أحد، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ

---

(١) سورة الفاتحة، آية: ٥.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم في شرح منازل السائرين، ابن القيم ابن القيم الجوزية، ١/١٦١.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ٦٩.

(٤) سورة الشعراء، الآيتان: ٦١، ٦٢.

قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾[١].

فعلى الداعية أن يكون على يقين بالله وثقة في نصره لهذا الدين، فهو يؤمن بأن الإسلام لابد أن ينتصر وتعلو رايته وينتشر في مشارق الأرض ومغاربها مهما مكر أعداء الله ومهما كادوا[٢]، فعلى الداعية ألا يخاف ولا يرهب إلا الله.

ثالثاً- من أساليب الدعوة: الحوار:

ويظهر هذا في حواره ﷺ مع الأعرابي الذي أراد قتله، والحوار فن وأسلوب من أساليب الحديث المشوقة للنفس والذي يدور حول فكرة أو موضوع محدد بين اثنين، للتوصل إلى نتيجة[٣].

فعلى الداعية أن يحاور المدعوين ويشوقهم إلى دعوته، ولا يكثر الجدل فيما لا فائدة منه، ولابد أن يكون متواضعاً في تحاوره متودداً للمدعوين، مقدراً لهم، حتى يستمعوا له ويقبلوا عليه.

رابعاً- من صفات الداعية: العفو عند المقدرة:

إن من صفات الداعية التي تظهر من الحديث العفو عند المقدرة ويظهر هذا من عفوه ﷺ عمن أراد قتله مع تمكنه منه وقدرته على قتله، ولكن لم يفعل لأن خلقه: العفو عند المقدرة. وقد أمره الله بالعفو والإعراض عن الجاهلين، قال تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾[٤].

وقد أمر الله نبيه أن يأمر بالمعروف، ويدخل في ذلك جميع الطاعات، وبالإعراض عن الجاهلين، وذلك وإن كان أمراً لنبيه ﷺ فإنه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم[٥].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٧٣.

(٢) انظر: الدعوة قواعد وأصول، جمعة أمين عبدالعزيز، ٦٣، ٦٤.

(٣) الدعوة الإسلامية الوسائل والأساليب، محمد خير رمضان يوسف، ص ١١٣.

(٤) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٥٣٢/٣.

ورسول الله ﷺ ضرب المثل الحي في العفو عند المقدرة ويتجلى ذلك في عفوه ﷺ عن أهل مكة بعد فتحها وهم الذين آذوه وكذبوه وأخرجوه منها وعذبوا أصحابه رضي الله عنهم وقاتلوه وكانوا يتربصون به وبالمسلمين الدوائر ومع ذلك بعد أن منّ الله عليه بفتح مكة وقدر على رد الإساءة والعقاب إليهم أضعاف ما فعلوه معه، ولكنه أبى ذلك وآثر العفو عنهم تكرماً فقال: (يا معشر قريش، ماترون أني فاعل بكم قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم؛ قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء)[1]. وهذا ما ينبغي أن يكون عليه الداعية فالدعاة هم ورثة الرسل فيجب عليهم أن يتأسوا بهم في دعوتهم.

(١) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ٤/٥٥.

الحديث رقم (٧٩)

٧٩- السادِسُ: عنْ عمرَ رضي الله عنه قال: سمعْتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقُولُ: «لَوْ أنَّكم[١] تتوكَّلونَ على اللَّهِ حقَّ تَوكُّلِهِ لرزَقكُم[٢] كَما يرزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِماصاً وتَرُوحُ بِطَاناً» رواه الترمذي، وقال: حديثٌ حسنٌ[٣].

ترجمة الراوي:

عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١).

غريب الألفاظ:

تغدو خماصاً وتروح بطاناً: معْناهُ تَذْهَبُ أوَّلَ النَّهَارِ خِماصاً: أي ضَامِرةَ الْبُطونِ مِنَ الْجُوعِ، وترْجِعُ آخِرَ النَّهَارِ بِطَاناً: أيْ مُمْتَلِئَةَ الْبُطُونِ[٤].

الشرح الأدبي

إن منهج المسلم في حياته هو إسلام الوجه لله والتوكل عليه والأخذ بالأسباب والسعي على الرزق وإتقان العمل وتشع كلمات هذه الحديث الشريف بهذه المعاني المشرقة وتتموج بكثير من الرؤى التي تصاحب حركة المسلم وتضيء سلوكياته في الحياة انطلاقاً من يقينه وتوكله على ربه. والتوكل كما قال العلماء ثلاث درجات: التوكل ثم التسليم ثم التفويض، فالمتوكل يسكن إلى وعده، والمُسلّم يكتفي بعلمه، وصاحب التفويض يرضى بحكمه، وصاحب التفويض يرضى بحكمه، وقال صاحب

---

(١) عند الترمذي زيادة: (كنتم).

(٢) عند الترمذي: (لرزقتم).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٤٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٧٣٠)، وقال الحاكم (٣١٨/٤): هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الحافظ ابن كثير في مسند الفاروق (٦٣٧/٢): رواه علي بن المديني، وقال: لم نجده إلا من هذا الوجه، وإسناده مصريٌّ ورجاله معروفون عند أهل مصر.

(٤) رياض الصالحين ٨٢.

"الإحياء" في بيان حقيقة التوكل: (أعلم أن العلم يورث الحال، والحال يثمر الأعمال، وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن، وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة، وهذا ظن الجهال، فإن ذلك حرام في الشرع، والشرع قد أثنى على المتوكلين).

والحديث الشريف فيه التوجيه السديد والمنهج الرشيد، ويرويه عمر بن الخطاب، وهو الذي أعطى السائل، ثم ضربه عندما رآه يصر على ذل السؤال، ويترك العمل ويعطل طاقاته ومداركه.

والحديث في صياغته الآسرة يموج بعدة ظواهر أسلوبية تفصح عن مقاصده الشريفة، ومعانيه اللطيفة: هذه الظواهر أنه يتكون من جملتين: جملة شرطية، وجملة حالية. وبينهما تتألق صورة تشبيهية لتقريب المعنى وتوضيح القضية، وأداة الشرط "لو"، تؤدي دوراً في الكشف عن طبيعة النفس البشرية في مقارفتها للأعمال الدنيوية، فالناس في أغلبهم لا يتجملون بصفة التوكل الحقيقي، ولذلك عبر المصطفى عليه الصلاة والسلام، بأداة الشرط "لو" وهي أداة امتناع لامتناع كما يقول النحويون، والبلاغة هي توخي معاني النحو بَيْن الكلم، فتأمل أخي المسلم كيف أفصحت هذه الأداة التي تتكون من حرفين عن المراد والمكنون، والتقدير، كما يقول العلماء، "لو تحقق توكلكم على الله" والجواب ممتنع لامتناع الشرط، لأن التوكل لم يتحقق عند الكثيرين، والرسول صادق الوعد، فلو تحقق التوكل الحقيقي لتحقق وعد الله بالرزق الحلال الفياض، ولنتأمل التأكيد في قوله: "لو أنكم"، ومع التأكيد يأتي الخطاب الجماعي الموجه إلى الأمة كلها، وهذا الخطاب ممتد عبر الزمن وموجه إلى كل مسلم في كل زمان ومكان، والتعبير بصيغة المضارع، "تتوكلون" يفصح عن هذا البعد الدلالي وعن صفة الاستمرار ما دامت الحياة ومادام الناس وزيادة في الحرص على مصلحة الأمة قيد الرسول التوكل بأنه "حق التوكل"، وهو التوكل مع العمل الصالح والسعي الحميد، وهذا السعي إما أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود كالكسب، أو لحفظ نافع هو موجود كالادخار، أو لدفع ضار لم ينزل بالعبد كدفع الصائل

والسارق والسباع، أو لإزالة ضار قد نزل بالعبد كالتداوي من المرض، فهذه كلها لا تنافي التوكل إذا أخلص الإنسان النية وأسلم أمره للخالق عز وجل.

ولنتأمل الصورة البلاغية التي تطمئن المسلم على رزقه في حاله توكله حق التوكل وهي صورة الطير، تغدو خماصاً حيث تتحرك وتسبح في الفضاء وتلتقط رزقها من ثمرات الأرض ومما تثمر الأشجار والبساتين وغيرها من الخيرات، وهذا حالها دائماً فحركة الطير ترشد إلى ضرورة العمل "تغدو وتروح"، وهكذا الإنسان يسعى ويتوكل على الله ويسلم أمره لله والله خير الرازقين.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: أثر التوكل الحقيقي.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: تكفل الله تعالى بالأرزاق.

ثالثاً: من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

رابعاً: من أساليب الدعوة: التشبيه.

أولاً- من موضوعات الدعوة: أثر التوكل الحقيقي:

يظهر هذا في قوله ﷺ "لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً" الحديث.

قال ابن رجب: (هذا الحديث أصل في التوكل، وأنه أعظم الأسباب التي يستجلب بها الرزق، قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[1] فلو حقق الناس التقوى والتوكل لاكتفوا بذلك في مصالح دينهم ودنياهم)[2].

فالتوكل على الله له أثره على حياة الإنسان لأن الإنسان المتوكل على الله يفوض

---

(١) سورة الطلاق، الآيتان: ٢، ٣.

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/٤٩٦، ٤٩٧.

أمره إلى الله، فهو يجعل الإنسان يرضى بقضاء الله وقدره ويترك الحرص الشديد على الطلب والتكالب على الرزق والشكوى من عدم التوفيق، وقد علمنا الله تعالى في أدعيتنا أن نخصه بالتوكل والاستعانة فلا نستعين بسواه، وذلك في كل صلاة بقوله تعالى في فاتحة الكتاب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1] كما أمر رسوله ﷺ بالتوكل عليه ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾[2] فالتوكل دليل الإيمان[3] ولازمه ومن خلا قلبه من التوكل خلا من الإيمان، لذلك وصف الله تعالى المؤمنين بأنهم ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[4] فينبغي على الداعية أن يبيّن للمدعوين أثر التوكل الحقيقي على الله، وإن المتوكل الحقيقي يعلم أن الله قد ضمن لعبده رزقه وكفايته فيصدق الله فيما ضمنه، ويثق بقلبه[5].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: تكفل الله تعالى بالأرزاق:

إن من موضوعات الدعوة التي تستنبط من عموم الحديث تكفل الله تعالى بالأرزاق فالله سبحانه وتعالى تكفل بأرزاق العباد وقد ورد ما يؤيد ذلك في كثير من الآيات والأحاديث.

قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[7]، قال ابن كثير: (أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات، من سائر دواب الأرض، صغيرها،

---

(١) سورة الفاتحة، آية: ٥.

(٢) سورة النمل، آية: ٧٩.

(٣) التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د. أكرم ضياء العمري، ص ٧٢.

(٤) سورة الأنفال، آية: ٢.

(٥) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/٥٠٨.

(٦) سورة الذاريات، آية: ٢٢.

(٧) سورة هود، آية: ٦.

وكبيرها، بحريها، وبريها)[١].

وقال رسول الله ﷺ ((فَإِنَّ نَفْساً لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا، وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ. خُذُوا مَا حَلَّ، وَدَعُوا مَا حَرُمَ))[٢] فما دام العبد حياً، فرزقه على الله، وقد يسره الله له بكسب وبغير كسب، فمن توكل على الله لطلب الرزق، فقد جعل التوكل سبباً وكسباً، ومن توكل عليه لثقته بضمانه، فقد توكل عليه ثقة به وتصديقاً[٣].

فينبغي على الداعية تذكير المدعوين بأن الله سبحانه متكفل بأرزاقهم.

ثالثاً- من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

ويظهر ذلك في بيانه ﷺ حقيقة التوكل على الله وأنه من أعظم الأسباب في استجلاب الرزق وأن الله سبحانه قد تكفل بأرزاق العباد، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[٤] قال السعدي: (الباري تبارك وتعالى تكفل بأرزاق الخلائق كلهم، قويهم وعاجزهم)[٥] وهذا ما ينبغي أن يكون عليه الداعية مع المدعوين فيبين لهم حقيقة الأشياء ويطمئنهم إلى ما يثق بوجوده من نعم الله لعباده.

رابعاً- من أساليب الدعوة: التشبيه:

ويظهر ذلك في تشبيهه ﷺ التوكل الحقيقي الصادق وأثره في جلب الرزق بتوكل الطير، يظهر ذلك في قوله ﷺ (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير) وأسلوب التشبيه أسلوب جميل في الدعوة حيث إنه يقرب المعنى، ويجعله

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٠٥/٤.

(٢) أخرجه ابن ماجه برقم ٢١٤٤، وصححه الألباني. (صحيح سنن ابن ماجه، ١٧٤٣).

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٥٠٨/٢.

(٤) سورة العنكبوت، آية: ٦٠.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٥٨٤.

واضحاً للمدعوين في صورة هي من واقع الحياة يرونها ويعرفونها، وهذا له تأثير بالغ على المدعوين وإقبالهم على الدعوة.

فينبغي على الداعية استخدام أسلوب التشبيه في دعوته، بما يوضح المعنى ويظهر الخفاء مما يساعد في بيان الحقائق.

الحديث رقم (٨٠)

٨٠- السَّابعُ: عن أبي عُمَارةَ الْبراءِ بْنِ عازِبٍ ﵄ قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**يا فُلان إذَا أويتَ إلَى فِرَاشِكَ فَقُل: اللَّهمَّ أسْلَمْتُ نفْسي إلَيْكَ، ووجَّهْتُ وجْهِي إلَيْكَ، وفَوَّضْتُ أمري إلَيْكَ، وألْجأْتُ ظهْرِي إلَيْكَ. رغْبَة ورهْبةً إلَيْكَ، لا ملجأ ولا منْجى مِنْكَ إلاَّ إلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذي أنْزَلْتَ، وبنبيِّكَ الَّذي أرْسلت، فَإنَّكَ إنْ مِتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ مِتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ، وإنْ أصبحْتَ أصَبْتَ خيْراً**» متفقٌ عليه[1].

وفي رواية في الصَّحيحين[2] عن الْبرَاء قال: قال لي رسول اللَّه ﷺ: «**إذَا أتَيْتَ مضجعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ للصَّلاَةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأيْمَنِ**» (وقُلْ: وذَكَر نحْوَه)[3]: ثمَّ قال: «**وَاجْعَلْهُنَّ آخرَ ما تَقُولُ**»[4].

ترجمة الراوي:

البراء بن عازب: هو ابن الحارث أبو عُمارة الأنصاريُّ.

صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه، أسلم وهو فتىً مع أبيه، وأراد أن يشارك في غزوة بدر، فردَّه النبي ﷺ لصغر سنه. وقد قال في ذلك استصغرني رسول الله ﷺ يوم بدر أنا وابن عمر، فردَّنا، فلم نشهدها وكنت أنا وابن عمر لِدةً.

وقال: غزوت مع رسول الله ﷺ خمس عشرة غزوة، وسافرتُ مع رسول الله ﷺ ثمانية عشر سفراً، فلم أرَهُ ترك ركعتين قبل الظهر.

وكان البراء ﵁ قائداً ومن أصحاب الفتوحات، افتتح الريّ (بفارس) سنة أربع وعشرين، ولما ولي عثمان بن عفان ﵁ جعله أميراً عليها، فغزا أبهر (غربي قزوين) وفتحها ثم قزوين فملكها، وانتقل إلى زنجان فافتتحها عنوة، وشهد غزوة تُسْتر مع أبي

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٨٨) واللفظ له، ومسلم (٥٦/٢٧١٠). أورده المنذري في ترغيبه (٨٧٣).

(٢) قال الحميدي في الجمع بين الصحيحين (٥٢١/١): وأخرجاه من حديث سعد بن عُبيدة، عن البراء.

(٣) هذا قول الحميدي في جمعه.

(٤) أخرجه البخاري (٢٤٧) واللفظ له، ومسلم (٥٦/٢٦١٠). وسيكرره المؤلف برقم (١٤٦٤) بتمامه. أورده المنذري في ترغيبه (٨٧٣).

موسى رضي الله عنه، وشهد مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه الجملَ وصفّين، وقتال الخوارج.

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم جملة أحاديث بلغت ٣٠٥ حديثاً. وروى أيضاً عن أبي بكر وعمر، وأبي أيوب، وبلال، وغيرهم رضي الله عنهم. وعاش إلى أيام مصعب بن الزبير، فسكن الكوفة واعتزل الأعمال. وتوفي في زمنه سنة ٧٢هـ وهو ابن بضع وثمانين سنة[1].

غريب الألفاظ:

أويت إلى فراشك: أي دخلت فيه[2].

أسلمت نفسي إليك: أي استسلمت وانقدت وجعلت نفسي منقادة لك طائعة لحكمك[3]. ألجأتُ ظهري: أسندتُه، والمراد: توكلتُ عليك.

الفطرة: أي الحالة الأولى التي خلق الخلق عليها وهي التوحيد والإسلام[4].

الشرح الأدبي

ما أحوج المسلم إلى الشعور بالاطمئنان في كل حركاته وسكناته! وما أكثر حاجته! إلى تسليم أمره إلى من بيده مقاليد السماوات والأرض، والتضرع والمناجاة من سمات منهج المسلم في حياته: في صحوه ونومه، في حركته وسكونه، في شدته ورخائه، في صباحه وإمسائه، في يقظته وإغفائه.

---

(١) الطبقات، ابن سعد (١٧/٦)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (٨٠-٨١)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (٣٦٢/١-٣٦٣)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (١١٤-١١٥)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي (١٩٤/٣-١٩٦)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (٣٣٢/١)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٢١٥/١-٢١٦)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (٥١٥/١).

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١١٧/١١.

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٩٦، وفتح الباري، ابن حجر ١١٤/١١، اللسان والوسيط في (ل ج أ).

(٤) المفصح المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٣٣٧، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ف ط ر)، وانظر: فتح الباري، ابن حجر ١١٥/١١.

والمصطفى ﷺ يعطينا مفاتيح الاطمئنان في هذه العبارات التي تعبق بطيوب الإيمان.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا البيان النبوي الفائق الصادق في معانيه ومبانيه.

أ- والنداء في أول الحديث يعد شعاعاً يضيء الذاكرة، وينبه كل من يحب الله ورسوله، والله ورسوله أحب إليه مما سواهما، والمنادى غير محدد، فالرسول عليه الصلاة والسلام يقول: "يافلان"، وعدم التحديد يوحي بأن هذا التوجيه عام لكل مسلم يسمع هذا النداء أو يقرؤه أو يحفظه في كل زمان ومكان؛ وقيل المنادي: هو أسيد بن حضير، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهذه الأدعية تلهج بها الألسنة، وتنبض بها القلوب المؤمنة في كل مساء، والتعبير بأداة الشرط "إذا" في قوله: "إذا أويت إلى فرشك فقل" يكشف عن بلاغة البيان النبوي، لأن "إذا" للتحقق، ولا تغني عنها أداة غيرها، لأن الكل يأوى إلى فراشه ولا مجال للشك في ذلك.

ب- العنصر الإيقاعي والتوازي الأسلوبي في صياغة الحديث يزيد من جمال لغة الحديث، ويعمق التأثير، ويؤدي إلى سرعة الحفظ؛ لأنها أدعية تقال إذا أوى الإنسان إلى فراشه، ومن مظاهر هذا الإيقاع الصوتي أن الأفعال في العبارات الأربع ماضية ومتوازية في بنائها اللغوي المتناسق، "أسلمت، وجهت، فوضت، ألجأت"، والأفعال كلها تقترن بتاء الفاعل المضمومة، والمعاني لا تتكرر، ولكن كل عبارة لها ظلالها وإشعاعها، وأصداؤها، فإسلام النفس لله يعني إسلام الذات كلها قلباً ونفساً وروحاً وعقلاً، كناية عن التسليم المطلق. وتوجيه الوجه لله كناية عن عدم الانحراف عن الطريق المستقيم والتمسك بالطريق القويم. وتفويض الأمر كناية عن التوكل على الله في جميع الشؤون الدنيوية والأخروية، وألجأت الظهر إليه: كناية عن الاستناد إلى الله والاحتماء بعزته بعد تفويض الأمر إليه، والسجع الجميل بين التراكيب له تأثير عجيب.

ج- تكرار لفظ "إليك" ست مرات لم يحدث رتابة ولا إسهاباً ولكنه لزيادة تأكيد التوكل على الله والتعلق به، لأن كاف الخطاب يتوجه بها إلى من له الكبرياء في

السماوات والأرض ومن يقول للشيء كن فيكون، ويضيف هذا التكرار بعداً صوتياً إيقاعياً يساعد على الحفظ مع الإحساس بشرف وعظمة الانتماء لله عز وجل.

د- الإيجاز البليغ في قوله: "رغبة ورهبة إليك" فالرغبة طمعاً في الثواب، والرهبة خوفا من العقاب. وقيل في هذه الجملة لف ونشر مرتب: فالرغبة تتعلق بتفويض الأمر، والرهبة تتعلق بإلجاء الظهر رهبة من العقاب.

هـ- أسلوب القصر في قوله: لا ملجأ ولا منجا منك إلا اليك، وهذا الأسلوب يؤكد الإخلاص في الدعاء والاعتراف بفضل الله عز وجل، وفي العبارة سجع وجناس وهما من جماليات الأداء الأسلوبي.

و- ختام الحديث يتوافق مع بدايته في البناء اللغوي حيث بدأ بأسلوب الشرط، وختم بأسلوب الشرط، ولكن في الختام جاءت أداة الشرط "إن" وهي احتمالية وليست يقينية، لأن الأعمار بيد الله عز وجل، فالتعبير بـ"إن" أوفق وأدل على صدق وقوة البيان النبوي الجميل.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى ما يستحب للمرء فعله عند الاستعداد للنوم سواء أكانت أذكاراً أم أفعالاً ليكون في معية الله في اليقظة والمنام.

وقد ذكر الفقهاء[1] أنه يستحب للنائم حين يضع جسده على الفراش أن يتوضأ، وأن يضطجع على شقه الأيمن، وأن يقرأ ما تيسير له من كتاب الله تعالى وخاصة آية الكرسي وآخر آيتين من سورة البقرة وسورة الإخلاص والمعوذتين، وأن يقول الدعاء الوارد في هذا الحديث، فإن نام على هيئته هذه ومات مات على الفطرة وإن استيقظ أصبح في خير وأصاب خيراً.

---

(١) انظر في ذلك: المدونة ١٣٥، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي شرح الموطأ ٢٦٠/٧، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٨/٢، ٣٤٥/٤، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ١٩٤/٨، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح والمنح المرعية ٢٤١/٣، وغذاء الألباب شرح منظومة الآداب، الإسفراييني شرح منظومة الآداب ٣٧٩/٢.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: التعليم.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: النداء، والأمر.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: أهمية وفضل التوكل على الله تعالى.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الذكر.

أولاً- من وسائل الدعوة: التعليم:

لا شك أن التعليم من الوسائل الدعوية المهمة التي يستطيع الداعية من خلالها توضيح أمور الدين والآداب التي ينبغي أن يحرص عليها المسلم، يظهر هذا في تعليم رسول الله ﷺ البراء بن عازب رضي الله عنهما ما ينفعه حيث أوصاه النبي ﷺ أن يقول عند نومه: (إذا آوى إلى فراشه، اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك.. إلخ الحديث) وهذا الدعاء يتضمن تفويض الإنسان أمره إلى ربه وأنه معتمد على الله في ظاهره وباطنه ومفوض أمره إليه.

وأمره النبي ﷺ أن يضطجع على الجنب الأيمن؛ لأن ذلك هو الأفضل، وقد ذكر الأطباء أن النوم على الجنب الأيمن أفضل للبدن وأصح من النوم على الجنب الأيسر[١]، والاضطجاع على الجنب الأيمن أسرع إلى الانتباه والقلب متعلق إلى جهة اليمين فلا يثقل في النوم[٢]، كما أمره بالوضوء حتى يبيت على طهارة لئلا يبغته الموت فيكون على هيئة كاملة، ويؤخذ منه الندب إلى الاستعداد للموت بطهارة القلب لأنه أولى من طهارة البدن[٣].

وهذا يدل على حرص رسول الله ﷺ على تعليم البراء ما ينفعه وهذا كان شأنه ﷺ مع المسلمين، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين ٢٦٨/١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١١٣/١١.

(٣) المرجع السابق ١١٣/١١.

عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[١]، قال السعدي: (... وهو ﷺ في غاية النصح لهم والسعي في مصالحهم "حريص عليكم" فيحب لكم الخير، ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشر، ويسعى جهده في تنفيركم عنه)[٢]، وهذا مما ينبغي أن يحرص عليه الداعية في تعليم المدعوين ما ينفعهم.

ثانياً- من أساليب الدعوة: النداء، والأمر:

يظهر أسلوب النداء في قوله ﷺ: "يا فلان..."، وأسلوب الأمر في قوله ﷺ: "... فقل... فتوضأ... ثم اضطجع... وقل... واجعلهن آخر ما تقول"، وأسلوب النداء من أساليب الدعوة التي تجذب انتباه المدعو وتعلمه أن الدعوة موجهة إليه فينتبه ويهتم بما يُنادى لأجله.

وأسلوب الأمر من الأساليب الدعوية المهمة التي يتمكن الداعية من خلالها إلى بيان أهمية المأمور به وما يتضمنه من حقائق وفوائد دينية ودنيوية كما في هذا الحديث.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: أهمية وفضل التوكل على الله تعالى:

يظهر ذلك من قول رسول الله ﷺ للبراء رضي الله عنه فقل: (اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك.. الحديث)، وكل ذلك يدعو إلى التوكل على الله تعالى، ويدل على أهمية وفضل التوكل عليه سبحانه، وقد كان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه حقيقة التوكل[٣]، ففي صحيحي البخاري ومسلم كان يقول في دعائه: ((اللّهمَّ لكَ أسلمتُ، وبكَ آمنتُ، وعليكَ تَوكلتُ))[٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[٥]، أي: من فوض إليه أمره كفاه ما أهمه[٦].

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٣١٣.

(٣) التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د. أكرم ضياء العمري، ص ٧٢.

(٤) أخرجه البخاري ١١٢٠، ومسلم ٧٦٩.

(٥) سورة الطلاق، آية: ٣.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي مج ١٦١/١٨/٩.

والتوكل على الله عاصم من الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[1]، والإيمان بالله تعالى يقتضي التوكل عليه، قال تعالى: ﴿... وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2].

فينبغي للداعية أن يدعو الناس إلى التوكل على الله، ويبين لهم فضل التوكل عليه سبحانه.

قال ابن القيم: ("التوكل" نصف الدين. والنصف الثاني "الإنابة"؛ فإن الدين استعانة وعبادة؛ فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة.

ومنزلته: أوسع المنازل وأجمعها، ولا تزال معمورة بالنازلين، لسعة متعلق التوكل، وكثرة حوائج العالمين، وعموم التوكل، ووقوعه من المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، والطير والوحش والبهائم. فأهل السماوات والأرض -المكلفون وغيرهم- في مقام التوكل وإن تباين متعلق توكلهم، فأولياؤه وخاصته يتوكلون عليه في حصول ما يرضيه منهم وفي إقامته في الخلق، ويتكلون عليه في الإيمان، ونصرة دينه، وإعلاء كلمته، وجهاد أعدائه، وفي محابة وتنفيذ أوامره.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في استقامته في نفسه، وحفظ حاله مع الله، فارغاً عن الناس.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في معلوم يناله منه، من رزق أو عافية أو نصر على عدو، أو زوجة أو ولد، ونحو ذلك.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في حصول ما لا يحبه ويرضاه من الظلم والعدوان وحصول الإثم والفواحش، فإن أصحاب هذه المطالب لا ينالونها غالباً إلا باستعانتهم بالله، وتوكلهم عليه، بل قد يكون توكلهم أقوى من توكل كثير من أصحاب الطاعات؛ ولهذا يلقون أنفسهم في المتالف، والمهالك معتمدين على الله أن يسلمهم، ويظفرهم بمطالبهم.

---

(١) سورة النحل، آية: ٩٩.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢٣.

ومن صدق توكله على الله في حصول شيء ناله فإن كان محبوباً له مرضياً كانت له فيه العاقبة المحمودة، وإن كان مسخوطاً مبغوضاً كان ما حصل له بتوكله مضرة عليه، وإن كان مباحاً حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه إن لم يستعن به على طاعاته"[(١)].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الذكر:

حيث حرص النبي ﷺ أن يعلم صاحبه ذكر الله عز وجل لما فيه من العطاء والمنح "فاذكروني أذكركم" وفي الحديث القدسي "أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه".

---

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٢٥٢ - ٢٥٣.

الحديث رقم (٨١)

٨١- **الثَّامِنُ:** عنْ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه عبدِ اللَّه بنِ عثمانَ بنِ عامِرِ بنِ عُمَرَ بن كعب بن سعد بْنِ تَيْمِ بْن مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْن لُؤيٍّ بْنِ غَالِب الْقُرَشِيِّ التَّيْمِيِّ رضي الله عنه وهُو وأبُوهُ وَأُمُّهُ صحابَةٌ رضي الله عنهم، قال: نظرتُ إلى أقْدَامِ الْمُشْرِكِينَ ونَحنُ فِي الْغَارِ وهُمْ علَى رؤوسنا. فقلتُ: يا رسولَ اللَّهِ لَوْ أَنَّ أحَدَهمْ نَظرَ تَحتَ قَدميْهِ لأبصرَنا[1]، فقال[2]: «**مَا ظَنُّك يا أبا بكرٍ باثْنَيْنِ اللَّهُ ثالثُهمْا**» متفقٌ عليه[3].

ترجمة الراوي:

أبو بكر الصديق: هو عبدالله بن عثمان القرشي، ولد بمكة بعد عام الفيل بسنتين وستة أشهر، وكان رضي الله عنه أبيضًا نحيفًا خفيف العارضين معروق الوجه ناتئ الجبهة يخضب بالحناء والكتم. وهو أول من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم من الرجال، وأول الخلفاء الراشدين، وأول من جمع المصحف الشريف، وأول من أقام للناس حجّهم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعده، صحب النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وسبق إلى الإيمان، فكان أول القوم إسلاماً وأكملهم إيماناً وأعظمهم عناءً، وأفضلهم مناقب، وأكثرهم سوابق، وأرفعهم درجة، وأشبههم برسول الله صلى الله عليه وسلم هدياً وخلقاً وسمتاً وفعلاً، وهو أبو عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم وقد رافق النبي صلى الله عليه وسلم في الهجرة وفي الغار وفي المشاهد كلها.

وكان رجلاً مألوفاً لقومه محبباً سهلاً وكان تاجراً، ذا خلق وكان رجلاً بكاءً لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن، وكان أنسب قريش لقريش وأعلمهم مما كان منها من خير أو شر، أسلم على يديه عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيدالله، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمن بن عوف رضي الله عنهم وغيرهم كثير، وأعتق بلالاً رضي الله عنه ولُقب بالعتيق والصديق لتصديقه النبي صلى الله عليه وسلم في خبر الإسراء.

---

(١) هذا لفظ البخاري، ولفظ مسلم: (أبصرنا تحت قدميه).

(٢) عندهما زيادة: (يا أبا بكر).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).

قال فيه النبي ﷺ ((إن من أمَنِّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبوبكر، ولو كنتُ متخذاً خليلاً غير ربِّي لاتخذتُ أبابكر خليلاً، ولكن أخوَّة الإسلام ومودَّته، لا يبقين في المسجد بابٌ إلا سُدّ إلا باب أبي بكر))[1].

وصلى بالمسلمين في حياة النبي ﷺ عندما اشتد المرض برسول الله ﷺ بعد أن قال النبي ﷺ ((مُرُوا أبابكر فيصلِّ بالناس))[2].

وكان ثابت العقل، شديد البأس، له رصانة عقل في أشد المواطن وأحكمها، فشهد الحروب واحتمل الشدائد، وبذل الأموال، وبويع للخلافة يوم وفاة النبي ﷺ، فحارب المرتدين والممتنعين عن الزكاة، وافتتحت في أيامه الشام وقسم كبير من العراق.

وقال فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كان أبوبكر سيدنا وخيرنا، وأحبنا إلى رسول الله ﷺ وخطب علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوماً فقال: "أنشدكم الله أمؤمن آل فرعون خيرٌ أم أبوبكر؟ فسكت القوم فقال: ألا تجيبون؟ فوالله لساعة من أبي بكر خيرٌ من مثل مؤمن آل فرعون؛ ذاك رجلٌ كتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه".

ومناقب أبي بكر رضي الله عنه عنه كثيرة جدًا، وكان من أعظمها قول الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[3] فإن المراد بصاحبه أبو بكر لا نزاع ومن مناقبه رضي الله عنه أن كان له أربعون ألفًا فأنفقها في سبيل الله وأعتق سبعة كلهم يعذب في الله أعتق بلالاً وعامر بن فهيرة وزنيرة والنهدية وابنتها وجارية بني المؤمل وأم عبيس.

وكانت مدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر ونصف الشهر. وله في كتب الحديث ١٤٢ حديثاً.

---

(١) أخرجه البخاري ٤٦٦، ٣٦٥٤.

(٢) أخرجه مسلم ٤١٨.

(٣) سورة التوبة، آية: ٤٠.

وتوفي في ١٣هـ بالمدينة وهو ابن ثلاث وستين سنة(١).

الشرح الأدبي

- هذا المشهد جليل من مشاهد الهجرة النبوية المباركة، يرويه أبو بكر الصديق في ثقة وفخر واعتزاز، ولِمَ لا وقد شرف الصديق بصحبة خير رفيق وأكرم صديق وهو الصادق الوعد الأمين خاتم الأنبياء وسيد المرسلين: محمد ﷺ. والحديث نجوى إيمانية بين اثنين هما أعظم من عرفت البشرية صدقاً وبراً ومودة ورحمة وشجاعة وتقوى، وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه الصديق المخلص المعين والمحب الأمين خير الأمة بعد رسولها ﷺ. ومكان هذه النجوى الحوارية غار ثور، وهو الملاذ الذي لجأ إليه الصاحبان محمد ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه، للاستعداد إلى التوجه إلى المدينة المنورة؛ ليبدأ عهد جديد من أطوار الدعوة الإسلامية، وقبلها نشأ النبي ﷺ في مكة استتبئ على رأس الأربعين من سنة، وقضى ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الله قبل أن يهاجر إلى المدينة، فلم يكن في الإسلام أول بدأته إلا رجل وامرأة وغلام، أما الرجل فهو رسول الله ﷺ، وأما المرأة فزوجه خديجة، وأما الغلام فعليٌّ ابن عمه أبي طالب، ثم كان أول النمو في الإسلام بحرٍّ وعبد، أما الحر فأبو بكر، وأما العبد فبلال، ثم اتسق النمو قليلاً ببطء الهموم في سيرها، وصبر الحر في تجلده وكأن التاريخ واقف لا يتزحزح، ضيق لا يتسع، جامد لا ينمو، وكأن النبي ﷺ أخو الشمس يطلع كلاهما وحده كل يوم.

---

(١) الطبقات، ابن سعد (٣/٥٤، ١٧٠، ٣٤٣، ٥/١٨٧)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (٧٧٩-٧٨٠)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (٣/٣١٠-٣٣٢)، الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٨٠٤-٨٠٥، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٤/٢٠٥-٢٠٦، تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٢/٢٨٣-٢٨٤، الأعلام، الزركلي (٤/١٠٢)، سير أعلام النبلاء، الذهبي ١/٣١٥-٣٣٠، موسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ١/٢٦٥-٢٨٩.

- حتى إذا كانت الهجرة من بعد فانتقل الرسول إلى المدينة بدأت الدنيا تتقلقل، كأنما مر بقدمه على مركزها فحركها وكانت خطواته في هجرته تخط في الأرض، ومعانيها تخط في التاريخ، وكانت المسافة بين مكة والمدينة، ومعناها بين المشرق والمغرب[١].

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا المشهد الجليل من مشاهد الهجرة المباركة، وكان أبو بكر فصيحاً بليغاً وأُعطى رسول الله جوامع الكلم. والتعبير بالفعل، "نظرت" في مادته اللغوية "نظر" أعم من "شاهدت" لأن النظر يشمل المشاهدة والنظر المصحوب بالتفكير والتأمل، فماذا يكون مصيرهما إذا رآهما المشركون؟.

وتحديد النظر إلى أقدام المشركين يرشد إلى وصولهم ووقوفهم على باب الغار، وبأنهم لم يَرَوا الصاحبين، حيث لم تلتق وجوههم، وإنما رأى أقدامهم، لأن الله صرفهم عن النظر داخل الغاز بما نسج حول باب الغار من نسيج العنكبوت، وأغصان الشجر وهى من المعجزات الإلهية، التي أيد الله بها رسوله ونصره وحماه.

وجملة "وهم على رؤوسنا" تصف حال المشركين وموقعهم، وقبلها جملة، "ونحن في الغاز" تصف حال النبي ﷺ وصاحبه، وبينهما مفارقة تدعو إلى التأمل والدهشة والاستغراب، فالصاحبان المهاجران محاصران داخل الغار، والمشركون على باب الغار يقفون على الصخور وهي مسافة قصيرة، ومساحة قليلة ولكن كما يقول الشاعر:

عناية الله أغنت عن مضاعفة ... من الدروع وعن عال من الأطم

ويقول أحمد شوقي في الإشادة بهذه المعجزة وذلك التأييد الإلهي:

سلْ عصبةَ الشِّركِ حولَ الغار سائمةً ... لولا مطاردةُ المختار لم تُسم

هل أَبصروا الأثر الوضَّاءَ، أَم سمِعوا ... همْسَ التسابيحِ والقرآن من أَمَم؟

وهل تمثّل نسيجُ العنكبوتِ لهم ... كالغابِ، والحائماتُ الزُّغْبُ

---

(١) انظر: من وحي القلم للرافعي ج٢، مقالة من وحي الهجرة.

فـــأَدبروا، ووجـــوهُ الأَرضِ تلعـــنُهم كباطـلٍ مـن جـلالِ الحـق منهـزِم
لـولا يـدُ اللّـهِ بالجـارَيْنِ مـا سـلِما وعينُـه حـولَ ركـنِ الـدين؛ لم يقـم[1]

وما أصدق الحوار في القسم الثاني من الحديث! حيث ينادي أبو بكر قائلاً: "يا رسول الله" فناداه بما اختصه الله به من الرسالة والنبوة، والهجرة من أجل حماية الرسالة، ومواصلة طريق الدعوة، وحماية الله له وتأييده لأنه رسول الله وخاتم النبيين.

- ويجيء كلام المصطفى ﷺ ثابتاً راسخاً واثقاً في تأييد الله ونصرته: فيطمئن حبيبه الصديق قائلاً "وما ظنك يا أبا بكر باثنين، الله ثالثهما؟" وهذا الاستفهام لتقرير الحقيقة الثابتة وهي تأييد الله. وحمايته لرسوله الكريم وحفظه للدعوة الإسلامية، لأنه وعد رسوله بذلك.
- وفي هذا الجواب الذي صيغ في قالب الاستفهام تسكين لما حصل للصديق حينئذ من القلق على رسول الله ﷺ: يقول الله عز وجل: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2].

المضامين الدعوية

أولاً: من صفات الداعية: اليقين والثقة بالله مع الأخذ بالأسباب.

ثانياً: من تاريخ الدعوة: الهجرة.

ثالثاً: من صفات الداعية: التفاؤل والبشر.

رابعاً: من ميادين الدعوة: الغار.

---

(١) انظر: ديوان شوقي، ٦٢٦/١: توثيق وتبويب وشرح وتعقيب د. أحمد محمد الحوفي.

(٢) سورة التوبة، آية: ٤٠.

أولاً- من صفات الداعية: اليقين والثقة بالله مع الأخذ بالأسباب:

إن من أهم الصفات التي ينبغي أن يتصف بها الداعية: اليقين والثقة بالله. يتضح ذلك في قول النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: (ما ظنك باثنين الله ثالثهما).

قال النووي: (معناه: ثالثهما بالنصر والمعونة، والحفظ، والتسديد وهو داخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[1])[2].

قال ابن كثير: (أي معهم بتأييده ونصره ومعونته، وهذه معية خاصة كقوله: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾[3] وقوله لموسى وهارون: ﴿لا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[4] وقول النبي ﷺ للصديق رضي الله عنه وهما في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[5])[6].

واليقين والثقة بالله تعالى والتوكل عليه من الأسباب التي تُنال بها الإمامة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾[7].

واليقين والثقة بالله تعالى هو حال المؤمنين دائماً فهم ثابتون على يقينهم بعون الله ونصره، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾[8].

وإن اليقين والثقة بنصر الله تتجلى في قوله ﷺ: (ما ظنك يا أبا باكر باثنين الله

---

(١) سورة النحل، آية: ١٢٨.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٤٥٩.

(٣) سورة الأنفال، آية: ١٢.

(٤) سورة طه، آية: ٤٦.

(٥) سورة التوبة، آية: ٤٠.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦١٥/٤.

(٧) سورة السجدة، آية: ٢٤.

(٨) سورة الأحزاب، آية: ٢٢.

ثالثهما؟)، وكان يقين رسول الله ﷺ وثقته بنصر الله لا يتزعزع، وقد ورد عنه كثير من الأحاديث التي تدل على يقينه وثقته بنصر الله، منها:

حديث سهل بن حنيف عن صلح الحديبية قال: فجاءَ عمرُ رضي الله عنه فقال: يا رسول الله أَلَسْنا على الْحقِّ، وهم على الباطل؟ أَلَيْس قَتْلانا في الْجنَّة، وقتلاهم في النّار؟ قال: فقال بَلَى فقال: ففيم نعْطي الدَّنيَّةَ في دِيننا، ونرْجعُ، ولمّا يحكمِ اللهُ بَيْننا؟ فقال: ((يا ابن الْخَطاب: إني رسولُ الله، ولن يُضيِّعني الله أبداً))[1]. ومع يقين الرسول ﷺ بالنصر والثقة في الله تعالى أخذ بالأسباب فأحسن التخطيط بكل خطوات الهجرة بدءًا من استبقاء أبي بكر وعلي ثم أمره أبا بكر بشراء الإبل التي سيركبونها واختيار الدليل والغار وغير ذلك ليعلم الدعاة الأخذ بالأسباب مع حسن الإعداد وتمام اليقين.

قال رسول الله ﷺ: ((إنَّ اللَّهَ عز جَلّ قال: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، إنْ ظَنَّ خَيراً فَلَهُ، وَإنْ ظَنَّ شَراً فَلَهُ))[2]، فليوقن الداعية بنصر الله وعونه ليكون مثالاً وقدوة للمدعوين.

ثانياً- من تاريخ الدعوة: الهجرة:

إن من تاريخ الدعوة في هذا الحديث: الهجرة، وهي من أهم الأحداث في تاريخ الدعوة الإسلامية، ذلك لأنه عندما اشتد بالمسلمين الأذى، وضيقت قريش على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه رضي الله عنهم الخناق، حتى أصبحوا يحاربونهم في أرزاقهم، ويحملون قريشاً على مقاطعتهم على وسائل الحياة، ودبّروا لرسول الله ﷺ مؤامرة ليقتلوه وإن كان تدبير الله فوق تدبيرهم: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾[3]، حين ذاك أذن الله له بالهجرة ومعه صاحبه أبو بكر رضي الله عنه فأنجاهما الله من مكرهم، وكان له في الهجرة خير نصير على

---

(١) أخرجه البخاري ٤٨٤٤، ومسلم ١٧٨٥.

(٢) أخرجه أحمد ٢/٣٩١ رقم ٩٠٧٦، وقال محققو المسند: حديث صحيح ١٥/٣٦.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٣٠.

إعلاء الدين، وحماية الحق[1]. ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾[2]، فبعد الهجرة انتشرت الدعوة الإسلامية في أرجاء المعمورة وتنفس المسلمون الصعداء وعلت مكانة الدين وقوي المسلمون.

ثالثاً- من صفات الداعية: التفاؤل والبشر:

يظهر هذا في قوله ﷺ: (ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟)، عندما قال له أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا فلم يتشاءم بل تفاءل وبشر أبا بكر رضي الله عنه بمعية الله لهما.

فرسول الله ﷺ كان دائماً مبشراً ويحب الفأل ويكره التشاؤم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[3]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْجِبُهُ الْفَأْلُ الْحَسَنُ، وَيَكْرَهُ الطِّيَرَةَ))[4]، فينبغي على الداعية أن يكون متفائلاً مبشراً بالخير محذراً من اليأس والتشاؤم. فيبدأ الناس بالأخبار السارة المروحة للنفوس، المزيلة للهموم فتشحذ منهم العزائم، وتعلو الهمم، فيقبلون على الأعمال الطيبة[5].

رابعاً: من ميادين الدعوة: الغار

يظهر ذلك في قول أبي بكر رضي الله عنه: ونحن في الغار، والغار من ميادين الدعوة المشهورة في الدعوة الإسلامية وبداية انتشار الدين الإسلامي، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ

---

(١) انظر: دعوة الرسل، محمد أحمد العدوي، ص ٤١٥ - ٤١٦.

(٢) سورة النساء، آية: ١٠٠.

(٣) سورة الإسراء، آية: ١٠٥.

(٤) أخرجه ابن ماجه ٣٥٣٦، وقال الألباني: حسن صحيح، (صحيح سنن ابن ماجه ٢٨٤٨).

(٥) انظر: الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ص ١٠٣ - ١٠٤.

هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ...﴾[١]، أي: عام الهجرة لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه[٢].

قال القاسمي: (وقوله تعالى: "فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا" يعني كفار مكة حين مكروا به، فصاروا سبب خروجه، فخرج ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه "ثاني اثنين" حال من ضميره صلى الله عليه وسلم أي: أحد اثنين "إذ هما في الغار" بدل من "إذ أخرجه" بدل البعض، إذ المراد به زمان متسع. والغار نقب في أعلى ثور، وهو جبل في الجهة اليمنى من مكة على مسيرة ساعة، مكثا فيه ثلاثاً، ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهما، ثم يسيرا إلى المدنة "إذ يقول" بدل ثان، أي رسول الله صلى الله عليه وسلم "لصاحبه" أي أبي بكر "لا تحزن")[٣].

وكان الغار من ميادين الدعوة التي علّم بها الداعية الأول رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمة في الأخذ بالأسباب، وأخذ أسباب النجاة من وسائل الحذر، وذلك في إيوائه وصاحبه إلى الغار وكذلك علّم الأمة أهمية اليقين والثقة بالله عز وجل، فعندما جزع أبو بكر وخاف من المشركين قال له: (ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما).

وهذا ما ينبغي أن يكون عليه الداعية فلا يترك ميداناً من الميادين إلا ويستثمره في الدعوة إلى الله تعالى.

فهذا نبي الله يوسف عليه السلام لم يترك الدعوة حتى في السجن.

إن من المواقف الدعوية التي أبرزتها سورة يوسف، ذلك الموقف الفريد الذي تبناه نبي الله يوسف عليه السلام مع صاحبي السجن، ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا

(١) سورة التوبة، آية: ٤٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤/١٥٥.

(٣) محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، ٥/٨/٥٦-٢١٧.

نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[1].

فهذا الموقف بكل تفاصيله: هناك رجلان يدخلان السجن، ويريان في المنام رؤيا عجيبة، فيتوقان إلى الإطلاع على الحقيقة التي تنطوي عليها هذه الرؤيا، فيريان يوسف عليه السلام بين هؤلاء السجناء، الرجل الوحيد الذي يمكن أن يسعفهم بالحاجة، فيعرضان عليه، وهما يكنّان له كلّ الإجلال والإكبار، والتقدير والإعجاب، ولكن يوسف عليه السلام لا يسرع في الإجابة، ولا يكتفي بإرضاء الحاجة، ولا يستغل هذه الفرصة في تضخيم شخصيته أمام أعينهما، أو في كسب إعجابهما، أو في نيل المصالح الذاتية، بل يقدر هذه اللفتة الكريمة الثمينة من الرجلين، فيستخدمها في نشر الدعوة.

وينفذ إلى الغرض من خلال الأسلوب الذي ينمّ عن أن الكلام الدعوي تفرع من صميم الحديث الذي بدأ فيه من أجل تأويل رؤياهما، ولم يقصده تواً، مما يدل على أمرين مهمين:

الأول: أنه ينبغي للداعي أن يترقب الفرصة المناسبة لنشر الدعوة، ترقّب الفلاحين لنزول المطر، واعتدال الجوّ، ومواتاة الطقوس.

---

(١) سورة يوسف، الآيات: ٣٦ - ٤١.

الثاني: أنّه إذا أتاح الله له فرصة ما، تلائم عرض الدعوة، فلا يجوز له أن يدعها تضيع هدراً، بل يبادر في استعمالها في أكبر غاية وأعظم هدف"[١].

لقد استثمر يوسف عليه السلام هذا الموقف؛ لكونه صاحب هدف سام، ودعوة ربانية، فإنّ الفتيين -لما تقرر عند يوسف عليه السلام أنهما رأياه بعين التعظيم والإجلال، وأنه محسن معلم- ذكر لهما أنّ هذه الحالة التي أنا عليها، كله من فضل الله وإحسانه؛ حيث منّ عليَّ بترك الشرك، وباتباع ملة آبائي، فبهذا وصلت إلى ما رأيتما، فينبغي لكما أن تسلكا ما سلكت.

ثم صرّح لهما بالدعوة: أأرباب عاجزة ضعيفة، لا تنفع ولا تضر، لا تعطي ولا تمنع وهي متفرقة، ما بين أشجار، وأحجار، وملائكة، وأموات، وغير ذلك من أنواع المعبودات التي يتخذها المشركون، أم من له صفات الكمال في ذاته وأفعاله فلا شريك له في شيء من ذلك، بل هو القهار الذي انقادت الأشياء لقهره، وسلطانه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن[٢].

ومن المعلوم أنّ من هذا شأنه وووصفه، خيرٌ من الآلهة المتفرقة التي هي مجرد أسماء، لا كمال لها، ولا فعال لديها[٣].

وفي هذه دلالة على أهمية استثمار الفرص في الدعوة إلى الله وتوظيفها التوظيف الإيجابي المثمر في مجال الدعوة.

---

(١) منهج الدعوة إلى الله، أمين أحسن إصلاحي ص ٩٣ وما بعدها.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٣٩٨.

(٣) المرجع السابق ٣٩٨.

الحديث رقم (٨٢)

٨٢- **التَّاسِعُ**: عَنْ أُمِّ المُؤمِنِينَ أُمِّ سلَمَةَ، واسمُهَا هِنْدُ بنْتُ أبي أُمَيَّةَ حُذَيْفَةَ المخزومية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إذَا خَرجَ مِنْ بيْتِهِ قالَ: «[**بِسْمِ اللَّهِ، توكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ**] [1]، **اللَّهُمَّ إِنِّي أعوذُ بِكَ أنْ أَضِلَّ او أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أوْ أُزلَّ، أوْ أظلِمَ أوْ أُظلَم، أوْ أَجْهَلَ أو يُجهَلَ عَلَيَّ**» حديثٌ صحيحٌ رواه أبو داود والتِّرمذيُّ وَغيْرُهُمَا بأسانيدَ صحيحةٍ. قالَ التِّرْمذي: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، وهذا لَفظُ أبي داودَ[2].

ترجمة الراوي:

أم سلمة: هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبدالله القرشية المخزومية بنت عمّ خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولدت في مكة قبل البعثة بنحو سبع عشرة سنة.

وهي من المهاجرات الأول إلى الحبشة وأول المهاجرات إلى المدينة وكانت قبل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند أخيه من الرضاعة: أبي سلمة بن عبدالأسد المخزومي.

تزوجها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سنة أربع من الهجرة وكانت من أجمل النساء وأشرفهن نسباً، وأوفرهن عقلاً، وكان عمرها قريباً من خمس وثلاثين سنة.

ولقد صحبت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوات كثيرة، فكانت معه في غزوة خيبر، وفي فتح مكة وفي حصار الطائف، وفي غزوة هوازن وثقيف، ثم صحبتهُ في حجة الوداع وكانت قد أشارت عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمشورة أنجت بها أصحابهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من غضب الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) هذه الزيادة عند الترمذي برقم (٣٤٧٢)، ولا توجد عند أبي داود.

(٢) أخرجه أبوداود (٥٠٩٤)، والترمذي (٣٤٢٣) ولفظهما سواء، إلا قوله: (كان إذا خرج من بيته) فهو لفظ الترمذي. وقال الحاكم (٥١٩/١): هذا حديث صحيح على شرطهما ولم يخرجاه، وربما توهم متوهم أن الشعبيَّ لم يسمع من أم سلمة، وليس كذلك فإنه دخل على عائشة وأم سلمة جميعًا ثمَّ أكثر الرواية عنهما جميعًا. وقد خالف ذلك في علوم الحديث (ص: ١١١) له، فقال: لم يسمع الشعبي من عائشة، وقال علي بن المديني في كتاب العلل: لم يسمع الشَّعبي من أم سلمة. قال الحافظ ابن حجر في نتائج الأفكار (١/١٦٠): وعلى هذا فالحديث منقطعٌ. فلعل من صحّحه سهّل الأمر فيه؛ لكونه من الفضائل، ولا يقال: اكتفى بالمعاصرة؛ لأن محل ذلك أن لا يحصل الجزم بانتفاء المتعاصرين إذا كان النافي واسع الاطلاع مثل ابن المديني.

وذلك حين أعرضوا عن امتثال أمره في صلح الحديبية، فعندما فرغ رسول الله ﷺ من إتمام صلح الحديبية قال: لأصحابه رضي الله عنهم: ((قوموا فانحروا ثم احلقوا)) فما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحدُ دخل على "أم سلمة" فذكر لها ما لقي من الناس من عدم الاستجابة. فقالت رضي الله عنها يا نبي الله!! أتحب ذلك؟ أي: أن يُطيعك أصحابك فيما تأمرهم به؟! فأومأ إليها -أي نعم- قالت أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنكَ، وتدعو حالقك فيحلُقك، فخرج ﷺ فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك -نحر بدنة- ودعا حالقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً[1].

وقد بلغ مسندها ثلاث مائة وثمانية وسبعين حديثاً، واتفق البخاري ومسلم لها على ثلاثة عشر.

وتوفيت في شوال، سنة ٥٩هـ[2].

غريب الألفاظ:

أزل أو أُزل: من الزلل وهو الخطأ والذنب، والمعنى: أن أفعل ذنباً أو أُدفع إلى فعله[3].

أجهل أو يجهل عليّ: أي أفعل بالناس فعل الجهال من الإيذاء وإيصال الضرر إليهم أو يفعل بي الناس مثل ذلك[4].

---

(١) أخرجه البخاري، رقم ٢٧٣٢.

(٢) الطبقات، ابن سعد لابن سعد (٨٦/٨)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر لابن عبدالبر (٩٤١)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير لابن الأثير (٢٧٨/٧)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني (١٨٠٧، ١٨٠٨)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي للذهبي (٢٠١/٢-٢٠٢)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (٥٨٢/٨-٥٨٣)، والأعلام، الزركلي (٩٧/٨-٩٨)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (١٤٤-١٤٥).

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ز ل ل)، وشرح الطيبي ١٧٦/٥، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢١٧٦.

(٤) انظر: شرح الطيبي، الطيبي ١٧٧/٥، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢٤٤٩.

الشرح الأدبي

هذا الحديث تتوهج كلماته وعباراته بأشرف المعاني وأجمل المباني، وهذه الأدعية النابعة من قلب المصطفى ﷺ شموس تضيء آفاق السلوك الإنساني وتنشر أشعة الخير والمودة والرحمة في كل أرجاء الحياة، وتربط حياة الإنسان على الأرض بتوجيه وقدرة خالق الأرض والسماء. وهذه الدعوات من المأثورات التي ينبغي على كل مسلم أن يتفوه بها وأن تكون صاعدة من قلبه مع ترجمتها إلى سلوك إيماني قويم اقتداء بسنة المصطفى ﷺ وعملاً بسنته القولية والعملية، وهي مصابيح إيمانية تنير لكل مسلم طريقه في الحياة وتضيء قلبه بأنوار الهداية، وتنجيه من دروب المفاسد والغواية، وإذا التزم بها المسلمون استقامت أمور حياتهم، وأشرقت بالأخوة آفاق مجتمعهم.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا البيان النبوي الهادي الرشيد، البليغ الموجز.

إنها أدعية يتحصن بها المسلم من مغريات الفتن، ومزالق الشيطان، وما أحوج المسلمين إلى مثل هذه الأدعية وهم يخوضون غمار الحياة، ويصارعون أمواج الشهوات، وطوفان الإغراءات، والمعصوم محمد ﷺ كان يستجير ويدعو ربه مع أنّه قد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[1].

وقوله "بسم الله توكلت على الله": علم المسلم المنهج السديد، فكل عمل لا يبدأ باسم الله فهو أبتر، وهنا بلاغة الحذف، والتقدير: "أتحصن باسم الله" ولا يضر مع اسمه شيء، وقوله: "توكلت على الله" أي: أفوض أمري إليه، وأطلب الاستعلاء بالله تعالى على كل ما نبتغيه في هذه الحياة، وبعد هذا الثناء الذي يبدأ به رسول الله الدعاء وهو يخرج من البيت، يتوجه إلى الله بعد أن تحصن باسمه وتوكل عليه، وينادي: "اللهم" ثم يؤكد الدعاء حيث يلجأ إلى الله ويعتصم به فيقول: "اللهم إني أعوذ بك ..." وكل

---

(١) سورة الفتح، آية: ٢.

عبارة تتضمن دعاءً موجزاً تكمن وراءه نجاوي وابتهالات ومطالب كثيرة، تتكاثر بمقدار الداعين والطالبين حماية الله، والعائذين به، وكم بكت قلوب، وفاضت عيون، وخشعت نفوس وهي تجأر بهذه الأدعية النبوية الفياضة بالحب والصدق والخشوع والإيمان والتوحيد. وكل دعاء يحمل تحذيراً وإدانة: التحذير من أهواء النفس، ونزعات الهوى، والإدانة لكل مؤثر خارجي يسلب الإنسان نزعة الإخلاص، والتمسك بحبل الطاعة، وهناك بعد ثالث توحي به هذه الأدعية: وهو الخوف من التحول عن طريق الهداية إلى طريق الغواية، وما أجمل إيقاع الكلمات! وما أعظم التأثير الذي يحدثه الجناس والمشاكلة بين الألفاظ! والصيغ اللغوية، مع ضبط الكلمات يحدث تغيراً في المعنى، وتأثيراً في النفس، وشمولاً في الرؤية والموقف؛ فالمصطفى يدعو ربه أن يحميه من الضلال والإضلال، وما أحوج كل مسلم إلى هذا الدعاء! وما أحوجه إلى عون ربه وتأييده! فلا يَزل ولا يُزل، ولا يَظلم ولا يُظلم، ولا يَجهل ولا يُجهل عليه، ونسأل الله إجابة الدعاء في كل صباح ومساء.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من موضوعات الدعوة: أهمية المحافظة على الأذكار.

ثانياً: من صفات الداعية: ملازمة الصلة بالله تعالى.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل التوكل على الله والاستعاذة به من كافة الشرور.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: أثر التوكل على الله.

أولاً- من موضوعات الدعوة: أهمية المحافظة على الأذكار:

يظهر ذلك من فعله ﷺ الذي أخبرت به أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها من أنه كان إذا خرج من بيته قال: "بسم الله توكلت على الله..." الحديث، وكذلك حديث أنس رضي الله عنه في قوله ﷺ: "من قال يعني إذا خرج من بيته: بسم الله توكلت على الله.. الحديث".

فهذان الحديثان يدلان على أهمية المحافظة على الأذكار وذلك لأن الأذكار من

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث - ٨٢ - مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٨٣).

الأشياء التي يرغب فيها الإسلام، والله يثني على الذاكرين والذاكرات، قال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾(١)، ولا شيء يزيل الغفلة عن القلب ويحيى فيه اليقظة الدائمة مثل دوام ذكر الله تعالى حيث تحلّ بالذكر خشية الله ومخافته في قلب الإنسان فإذا همّ بظلم أحد أو بمعصية، فذكر الله ترك ما هم به، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾(٢)، وقد وعد الله هؤلاء الوجلين الخائفين الجنة فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾(٣).

كما أنّ ذكر الله يلين القلب ويمنع قسوته ويملؤه بالتواضع والسكون والطمأنينة والخشوع قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾(٤)، والذكر يصل الإنسان بخالقه ويعمل على دوام الصلة القلبية بالله عز وجل، ويمنع قسوة القلب، ويزيل ما يعتريه من الغفلة، ويغسل عنه الران، ويملؤه بحب الله ورسوله وحب الإيمان، ويرغّبه في التقرب إلى الله بشتى الطاعات.

ودوام الأذكار من الأشياء التي كان يحرص عليها رسول الله ﷺ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ الله عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ))(٥).

أي في حال قيامه ومشيه وقعوده واضطجاعه، وسواء كان على طهارة أو لم يكن(٦).

ولفضل الأذكار وأهميتها شبه رسول الله ﷺ من يذكر ربه بالحي أما من لا يذكره فهو ميت، فقال ﷺ: ((مَثَلَ الذي يَذكرُ ربَّه والذي لا يَذْكرُ ربه مَثَلُ الحي والميِّت))(٧).

---

(١) سورة الاحزاب، آية: ٣٥.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٢.

(٣) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠ - ٤١.

(٤) سورة الرعد، آية: ٢٨.

(٥) أخرجه مسلم ٣٧٣.

(٦) انظر: التربية الروحية، د. أكرم ضياء العمري ص ٨٧ - ٨٨.

(٧) أخرجه البخاري ٦٤٠٧.

فالذكر له فضائل كثيرة منها ما ذكره رسول الله ﷺ في قوله: ((لاَ يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ إلاَّ حَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ))[١].

فينبغي على الداعية بيان أهمية المحافظة على الأذكار وفضل ذلك.

ثانياً- من صفات الداعية: ملازمة الصلة بالله تعالى:

من صفات الداعية التي تظهر من هذين الحديثين: ملازمة الصلة بالله تعالى وهذا يظهر من فعله ﷺ في المحافظة على الأذكار إذا خرج من بيته وأمره بها.

فالداعية مرشد إلى الخير وموجه نحو الهدى، وكل هدفه: تعريف الناس بخالقهم، ليفوزوا بسعادة الدارين، وعليه أن يُمتّن صلته بالله، لتكون دعوته نابعة من قوله وفعله[٢].

وقد كان إمام الدعاة -قدوتنا محمد ﷺ- شديد الصلة بالله، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تفطّر رجلاه، قالت عائشة رضي الله عنها: يَا رَسُولَ اللّهِ أَتَصْنَعُ هذا، وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَقَالَ: ((يَا عَائِشَةُ أَفَلاَ أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً؟))[٣]، فعلى الدعاة ملازمة الصلة بالله والاجتهاد في الطاعات حتى يكونوا أهلاً للدعوة ومحلاً للاقتداء بهم.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل التوكل على الله والاستعاذة به من كافة الشرور:

من موضوعات الدعوة التي تظهر من هذين الحديثين فضل التوكل على الله والاستعاذة به من كافة الشرور؛ وذلك لأن من توكل على الله كفاه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[٤].

---

(١) أخرجه مسلم ٢٧٠٠.

(٢) صفات الداعية، د. حمد بن ناصر العمار، ص ٢٧.

(٣) أخرجه البخاري ٤٧٣٧، ومسلم ٢٨٢٠.

(٤) سورة الطلاق، آية: ٦٥.

ومن استعاذ بالله من الشيطان كفه عنه ورد كيده عنه، قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[١].

فينبغي على المسلم التوكل على الله في أمره كله والاستعاذة به من الشر كله، فقد كان رسول الله ﷺ يستعيذ كثيراً من عذاب النار ومن عذاب القبر[٢]، وأمر المسلمين أن يستعيذوا في تشهدهم من: ((عَذَابِ الْقَبْرِ. وَعَذَابِ النَّارِ. وَفِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، ومن شَرِّ فتنة الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ))[٣].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: أثر التوكل على الله:

يظهر هذا في حديث أنس رضي الله عنه قوله ﷺ: (من قال ... بسم الله توكلت على الله... يقال له: هُديت وكُفيت وتنحّى عنه الشيطان)، أي: يناديه ملك فيقول له: هُديت إلى طريق الحق، وكُفيت ما أهمك، ووقيت أي حُفظت من السوء وابتعد عنك الشيطان[٤]، وهذا من آثار التوكل على الله، فينبغي على الداعية أن يدعو المدعوين إلى التوكل على الله تعالى ويبين لهم أثر هذا التوكل في حياتهم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[٥].

قال ابن كثير رحمه الله ("وعلى ربهم يتوكلون"، أي: لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك، وحده لا

---

(١) سورة فصلت، آية: ٣٦.

(٢) أخرجه البخاري ٨٣٢.

(٣) أخرجه مسلم ٥٨٨.

(٤) انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢١٧٧، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢٤٤٨/٢.

(٥) سورة الأنفال، آية: ٢.

شريك له، ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب، ولهذا قال سعيد بن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان)[1].

وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[3].

قال السعدي: ("الله لا إله إلا هو"، أي: هو المستحق للعبادة والألوهية فكل معبود سواه باطل، (وعلى الله فليتوكل المؤمنون)، أي: فليعتمدوا عليه في كل أمر نابهم وفيما يريدون القيام به، فإنه لا يتيسر أمر من الأمور إلا بالله، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالاعتماد على الله، ولا يتم الاعتماد على الله، حتى يحسن العبد ظنه بربه، ويثق به في كفايته الأمر الذي يعتمد عليه به، وبحسب إيمان العبد يكون توكله، قوة وضعفاً)[4].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ("حسبنا الله ونعم الوكيل"، قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل)[5].

إنه التوحيد الراسخ رسوخ الجبال، فالأول إبراهيم عليه السلام عرض على النار ورأى هولها، ونظر إليها وهي مشتعلة عالية، وأجلسوه في المنجنيق الذي من خلاله يقذفونه في النار، فما كان منه إلا أن قال: حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلب بنعمة من الله وفضل لم يمسه سوء جزاء توحيده الذي جعله يثق بربه كل هذه الثقة ووطد نفسه على ذلك، علم أن الله معه ولن يضيعه فأوكل أمره إليه، فكان جلّ وعلا نعم الوكيل فأمر ناره

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٢/٤.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢٣.

(٣) سورة التغابن، آية: ١٣.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٨٠٤.

(٥) أخرجه البخاري ٤٥٦٣.

أن تكون على عبده برداً وسلاماً حتى لا يؤذيه بردها وهل الجزاء إلا من جنس العمل فقوة التوكل أثمرت هذه المعجزة.

والثاني رسول الله ﷺ حين علم بتوعد الناس له بالجمع وتكثير الأعداء لإرهابه وتخويفه وصده عن نشر دينه، فما اكترث لذلك، وما تزعزعت ثقه وتوكله على الله قيد أنملة، كيف ذلك وهو الذي علّم أصحابه الشجاعة والإقدام وشدة البأس عند ملاقاة أعداء الله، وعلمهم أن النصرة على الأعداء إنما تكون بقوة الإيمان، وحسن التوكل عليه، وأن العدد والعدة لا تفعل شيئاً بدون تجريد التوحيد له عز جل، والتوكل على الله من أهم لوازم التوحيد، فما أجمل مقولة الصديق رضي الله عنه: (أحرصوا على الموت توهب لكم الحياة).

وفي هذا الحديث درس للدعاة إلى الله تعالى، بأن جميع العقبات التي تواجههم في الدعوة إلى الله تعالى لا يملك إزاحتها من طريقهم إلا هو سبحانه، وكفّ هذه العوائق عنا يستلزم تحقيق التوحيد، وصدق اللجوء والتوكل على الله تبارك وتعالى، حتى يقينا شر هذه العوائق والمضايقات وإن لم تزل، يرزقنا الثبات، وأن لا تزيدنا إلا إصراراً في المضي قُدما في هذا الطريق الذي اصطفانا لأجله[1].

---

(١) التوحيد وأثره على العبيد، خميس السعيد محمد ص ١١٨ - ١١٩.

الحديث رقم (٨٣)

٨٣- **الْعَاشِرُ**: عنْ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ قَالَ يعنِي إذا خَرَج مِنْ بيْتِهِ: بِسْمِ اللَّهِ توكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، ولا حوْلَ ولا قُوةَ إلاَّ باللَّهِ، يقالُ لهُ هُديتَ وَكُفِيت ووُقِيتَ، وتنحَّى عنه الشَّيْطَانُ**» رواه أبو داودَ والترمذيُّ، والنِّسائِيُّ وغيرُهم: وقال الترمذيُّ: حديثٌ حسنٌ[١].

زاد أبو داود[٢]: «**فيقول: يعْنِي الشَّيْطَانَ لِشَيْطانٍ آخر: كيْفَ لك بِرجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفي ووُقِي**»؟.

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

الحوْل: الحركة، يقال: حال الشخص يحول إذا تحرك[٣].

الشرح الأدبي

تتماوج أصداء الحديث السابق في محيط هذا الحديث العذب، إن بداية الحديثين صيغة واحدة وهى: "بسم الله توكلت على الله"، والمكان الذي يستحب فيه هذا الدعاء هو "باب البيت" وقت الخروج لسفر أو قضاء مصلحة، والصيغ في الحديث السابق متعددة وشاملة، ولكن هذا الحديث يتضمن بارقة من بوارق البيان النبوي وهي "ثمرة الدعاء"، فإذا أخلص المسلم في الدعاء، وصدق في مناجاة ربه "يقال: له هُديت، وكُفيت، ووقيت، وتنحى عنه الشيطان". وبناء الفعل "يقال له" للمجهول، ليس للجهل بالقائل، ولكن لتكريم ذلك الداعي المبتهل الذي حدده رسول الله بأحد أنواع المعرفة

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٩٥)، والترمذي (٣٤٢٦) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (عمل اليوم والليلة ٩٨٣٧) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب. وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٨٢٢)، وقال الحافظ ابن حجر في نتائج الأفكار (١٦٤/١): هذا حديثٌ حسنٌ اهـ. أورده المنذري في ترغيبه (٢٣٨٩).

(٢) في الحديث نفسه في آخره (٥٠٩٥).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح و ل).

وهو اسم الموصول مَنْ "من قال" وذلك لتميزه ولأجل أن تكون قاعدة تطبق على ملايين القائلين من المسلمين هذا الدعاء في كل زمان وفي كل مكان، وصيغة البناء للمجهول في "يقال له" توحي بشمول الجزاء واستمراره ودوامه، ولم يقل: "قيل له"، وكأنه كلما تكرر القول تكرر الجزاء، وضوعف الثواب، والله يضاعف لمن يشاء.

وصيغة "لا حول ولا قوة إلا بالله" تنطوي على أسرار بلاغية كثيرة، ومنها أسلوب القصر الذي يفيد تسليم المؤمن بأن الحركة وتغير الأحوال، ومصدر القوة من الله سبحانه وتعالى وليست من مصدر آخر، فالحول في اللغة: "من حال الرجل يحول حولاً" إذا احتال، والحول هو التحرك، وحال الشيء واستحال أى تغير لونه[1]، فالمؤمن عندما يقر بهذه الصيغة فهو يؤمن بأن أي حركة في حياته، وأى تغير في مصيره وأي قوة تأتيه من أي جهة ولأي سبب، لابد أن يكون كل ذلك بأمر الله وإرادته ومشيئته.

وتأتي الأفعال التي تعد من ثمرات الدعاء في صيغة المبني للمجهول، وهي: "هديت وكفيت ووقيت" لترشد إلى أن الجزاء من جنس العمل: فالمؤمن أسلم أمره لله فجزاؤه الهداية والكفاية والوقاية من الشيطان لأنه تحصن باسم الله.

وهداه في اللغة معناه: تقدمه كما يتقدم الهادي المهدي، فعناية الله تسبق خطا المؤمن وتهديه إلى السبيل القويم، ويقال له: كفيت كل همم دنيوي وأخروي: وهذا المعنى يتلاقى مع قول إبراهيم عليه السلام: "حسبنا الله ونعم الوكيل"، ونتيجة الهداية والكفاية تكون الوقاية من حبائل الغواية. وهمزات الشياطين. ويختم الحديث بأعظم الثواب، وأطيب الثمار في قوله ﷺ: "وتنحى عنه الشيطان" والتعبير بالماضي يوحي بأن المؤمن حريص على مقاومة الشياطين، وأن الشيطان لا يستطيع التغلب عليه؛ لأن التحصن باسم الله من أسباب الفوز والنجاة.

المضامين الدعوية[2]

(١) انظر: أساس البلاغة للزمخشري ٢/٢٠٨.

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٨٤)

٨٤- وَعنْ أنَسٍ ﷺ قال: كَان أخوانِ عَلَى عهْدِ النبيِّ ﷺ، وكَانَ أَحدُهُما يأْتِي النبيَّ ﷺ، والآخَرُ يحتَرِفُ، فَشَكَا الْمُحْتَرِفُ أخَاهُ للنبيِّ ﷺ فقال: «**لَعلَّكَ تُرْزَقُ بِهِ**» رواه التِّرْمذيُّ[١] بإسناد صحيح على شرط مسلمٍ.

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

يحترف: يكتسب ويتسبب[٢].

الشرح الأدبي

يرصد هذا الحديث قضية من أخطر قضايا الحياة، وهي العلاقة بين العبادة والعمل، ويظن بعض الجاهلين أن العمل الدنيوي يتنافى مع العبادة وأداء الشعائر على الوجه الأكمل، وهذا وَهْمٌ وسوءُ فَهمٍ للعبادة الصحيحة، والعمل الصالح، فالعبادة عمل تكليفي تشريعي، والعمل الدنيوي ينبغي على كل مسلم في إطار السعي على الرزق والكسب الحلال، والعمل في نظر الإسلام هو الذي ينتج ويأتي بالخير الوافر، ولذا تتجه الوصايا النبوية الكثيرة إلى الحض على العمل، ويتحدث القرآن الكريم عن العمل في آيات كثيرة بلغ عددها ٣٦٠ "ثلاثمائة وستين آية"، ومِنْ أحبِّ ما يقرّبُ العبدَ إلى ربه أن يتقن العمل الذي يؤديه مهما كان نوعه ((إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه))[٣][٤].

---

(١) برقم (٢٣٤٥) وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. قال الحاكم (٩٤/١): هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ورواته عن آخرهم أثبات ثقات، ولم يخرجاه.

(٢) رياض الصالحين ٨٣.

(٣) أخرجه أبو يعلى ٤٣٨٦، وقال الهيثمي في المجمع ٩٨/٤: فيه مصعب بن ثابت وثقه ابن حبان وضعفه جماعة أهـ. وقد صححه الألباني في الصحيحية ١١١٣، فلينظر تصحيحه.

(٤) انظر: التكافل الاجتماعي في الإسلام، د. عبدالعال أحمد عبدالعال، ص ٢٠٨، ٢٠٩، الشركة العربية للنشر والتوزيع: القاهرة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

ولا تعارض في الحقيقة بين العبادة والعمل الدنيوي؛ لأن العبادة عمل، وإتقانها طريق إلى إتقان العمل الدنيوي، والسَّعي على الرزق سعياً متسلحاً باليقين والتوكل والعلم والخبرة والمعرفة.

- وقصة هذا الحديث تصور نموذجين بشريين وأخوين، لكل منهما طبيعته واهتماماته، أما أحدهما فكان متفقهاً في دينه، يحب أن يستمع إلى رسول الله ﷺ، وهذا الاستماع يعد عَمَلاً عِلْمياً ودينياً لأنه سَيَفْقِه دينَه، وسيفقه أحاديث رسول الله ﷺ، وربما يكون من المحدثين والرواة، وقد قال رسول الله ﷺ: ((رحم الله من سمع مني حديثاً، فبلغه، كما سمعه، فرب مبلِّغ أوعى له من سامع))[1].
- ولذلك نجد موقف المصطفى ﷺ موقفاً حكيماً يعطي للمعرفة قيمتها، وللعمل الدنيوي واليدوي قيمته، وحينما شكا المحترف أى صاحب الحرفة: وهى الصناعة وجهة الكسب، أخاه الذي يأتي النبي ويستمع إلى أحاديثه، ويغشى مجالسه، ولا يشارك أخاه الحرفة، قال له النبي ﷺ قولةً فيها إيناس وترضية وتسلية، وتأييد لهذا المنقطع إلى مجالس النبي ﷺ، قال: "لعلك ترزق به" وهذا رجاء من رسول الله ﷺ أن يرزق الله الأخ صاحب الحرفة بسبب جدّه وإخلاصه، وبسبب معاونته لأخيه الذي تفرغ لتحصيل الهداية والمعرفة، وربما لم تكن لديه الخبرة العملية، أو ربما كانت قواه الجسمية لا تساعده، أو ربما كان انقطاعه لمجالس الرسول عليه الصلاة والسلام، فيه فائدة لغيره من المسلمين، وذلك من صالح الأعمال، وما أشبه ذلك الموقف: بمن يرصد الأموال الضخمة للإنفاق على طلاب العلم، وفي حديث آخر إشارة إلى ذلك التوجه الحضاري في الإسلام حيث يقول: "وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم"[2].

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٦٥٧، وابن حبان ٦٦-٦٩ وهذا لفظه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري ٢٨٩٦ مرسلاً، ورواه النسائي موصولاً، انظر: فتح الباري، ابن حجر ١/١٤٢٠.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: القصة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل تعلم العلم.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل العمل والاحتراف.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: فضل إعانة الغير وكفالة طلاب العلم.

خامساً: من واجبات المدعو: سؤال أهل العلم عن الحلول لبعض المشكلات.

سادساً: من صفات الداعية: التبشير وتقديم حلول للمشكلات.

أولاً- من أساليب الدعوة: القصة:

في الحديث نقل لنا أنس بن مالك رضي الله عنه قصة ذينك الأخوين الذين كان يحترف أحدهما ويأتي الآخر النبي ﷺ: (كان أخوان على عهد النبي ﷺ وكان أحدهما يأتي النبي ﷺ والآخر يحترف، فشكا المحترف أخاه للنبي ﷺ فقال: لعلك ترزق به) والقصة سواء في القرآن أو السنة لا يقصد بها سرد الوقائع وإنما المراد بها الاعتبار والعظة، لذا كانت القصة من أهم الأساليب الدعوية الناجحة، لذا ينبغي على الداعية ألا يهمل أسلوب القصة في دعوته لما يملكه هذا الأسلوب دائماً من الإثارة والجاذبية ما يأخذ بمجامع القلوب ويحرك الفكر إلى النظر تحريكاً ويهز النفس للاعتبار هزاً[1].

ولقد حفل القرآن الكريم بالكثير من قصص السابقين، كقصة ذي القرنين وأصحاب الكهف وقصة ابني آدم عليه السلام، وكثير من قصص الأنبياء عليهم السلام، وغير ذلك من القصص[2].

قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾[3].

وذكر القرآن أنّ من أهداف القصة العظة، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ

---

(١) انظر: الدعوة الإسلامية "أصولها ووسائلها"، د. أحمد أحمد غلوش ص ٢٩٣، ٣١٤.

(٢) انظر: القصة في القرآن الكريم، د. مريم عبدالقادر السباعي ص ٣٥.

(٣) سورة يوسف، آية: ٣.

ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[١].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل تعلم العلم:

لقد أكد متن الحديث ونصه على عِظم وشرف طلب العلم، وضرورة التفاني في تحصيله، فبعد أن اشتكى "المحترف" إلى النبي ﷺ في عدم مساعدة أخيه إياه في حرفته وفي كسب آخر لمعيشته[٢]، نظرًا لطلبه للعلم والمعرفة، وذلك في قول أنس رضي الله عنه "كان أخوان على عهد رسول الله ﷺ فكان أحدهما يأتي النبي ﷺ والآخر يحترف، فشكا المحترف أخاه إلى النبي ﷺ" قال له ﷺ: "لعلك ترزق به".

قال المباركفوري: (أي: أرجو وأخاف أنك مرزوق ببركته)[٣].

ويكفي بهذا بيان لأهمية طلب العلم وتعلمه، وكيف لا!!! وهو قمة العبادة؛ لأن نفع العلم يتعدى إلى الناس كافة، والعبادة مقصورة على صاحبها، والبون شاسع واسع.

وقد تداول هذا المفهوم في عقول سلف الأمة الصالح، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلى من إحيائها، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: الدراسة صلاة، وعن أبي هريرة رضي الله عنه: لأن أجلس ساعة فأفقه في ديني أحب إلي من أن أحيي ليلة إلى الصباح، وعن الحسن البصري قال: العالم خير من الزاهد في الدنيا، المجتهد في العبادة، وقال كذلك، من طلب العلم يريد به ما عند الله كان خيرًا له مما طلعت عليه الشمس[٤]؛ فالعلم أشرف ما رغب فيه الراغب، وأفضل ما طلب وجد فيه الطالب، وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب[٥].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل العمل والاحتراف:

ورد ذلك في الحديث من خلال بيان أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: "كان أخوان على

---

(١) سورة هود، آية: ١٢٠.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٦٣/٢.

(٣) المرجع السابق ١٨٦٣/٢.

(٤) أسس العلم وضوابطه في السنة النبوية، د. فاروق حمادة، ١١١-١١٢.

(٥) أدب الدنيا والدين، الماوردي، ٤٠.

عهد رسول الله ﷺ فكان أحدهما يأتي النبي ﷺ والآخر يحترف"، أي: يكتسب أسباب المعيشة [١].

وقد حثّ الإسلام أتباعه على الكسب والعمل، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [٢]، فهو سبحانه جعل الأرض ذلولاً، والذلول: المنقاد من كل شيء والمعنى جعلها لكم سهلة لا يمتنع المشي فيها لحزونتها وغلظها فامشوا في مناكبها: جوانبها وطرقها وأطرافها ونواحيها فهو سبحانه سهل لكم السلوك فيها وكلوا مما خلقه الله لكم [٣].

وبيّن رسول الله ﷺ أن العمل والكسب عن طريق أي عمل مباح وحتى ولو كان ممتهناً عند بعض الناس خير للإنسان من أن يتكفف الناس، فعن الزبير بن العوام رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((لأنْ يأخُذَ أحدكم حبلَهُ فيأتيَ بحُزْمةِ الحطبِ على ظهرِهِ فيبيعَها فيَكفَّ اللّهُ بها وجهَهُ، خيرٌ لهُ من أنْ يسألَ الناسَ أعطَوْهُ أو منَعُوه)) [٤].

قال النووي: (فيه الحث على الصدقة والأكل من عمل يده والاكتساب بالمباحات) [٥].

وعاب القرآن الكريم على من ضاقت عليهم السبل وقترت الأرزاق فاستكانوا لتلك الحال ولم يتحركوا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ [٦].

إن الإسلام دين العمل والإنتاج، ودين السعي والكسب، والمؤمن مأمور أن يمشي

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٦٣/٢.

(٢) سورة الملك، آية: ١٥.

(٣) انظر: تفسير الخازن المسمى التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين الخازن ٢٩١/٤.

(٤) أخرجه البخاري ٣٩٣.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٣١.

(٦) سورة النساء، آية: ٩٧.

في مناكب الأرض، ويبحث عن سبل العمل،وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾(١).

والمراد بالعمل بذل المجهود والأخذ بأسباب الإنتاج ووسائله. وقد اقتضت سنة الله في الخلق أن لا ينال الإنسان شيئاً مما على الأرض، أو مما في باطنها من نعم وأرزاق وأقوات إلا بجهد يُبذل، وعمل يؤدى.

والعمل نوع من العبادة بمعناها العام، وقد خلق الله الإنسان ليعمر هذه الأرض كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(٢).

ولكن اقتضت حكمة الله في الخلق أن هذه الأرزاق التي ضمنها والمعايش التي ينشرها لا تناسب إلا بعد أداء الشعائر التعبدية، وبعد مراعاة الأولوية كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٣).

هذا هو الترتيب والتوازن الذي يتسم به المنهج الإسلامي، التوازن بين مقتضيات الحياة في الأرض من عمل وكد ونشاط وكسب، وعزلة الروح فترة عن هذا الجو وانقطاع القلب وتجرده للذكر، وهي ضرورة لحياة القلب، لا يصلح بدونها للاتصال والتلقي والنهوض بتكاليف الإمامة الكبرى، وذكر الله لا بد منه في أثناء ابتغاء المعاش، والشعور بالله هو الذي يحول نشاط المعاش إلى عبادة، وإذا اختل التوازن وطغت المادة على الروح يجب محاسبة النفس، وإعادة أمور الترتيب والتوازن إلى ميزان الشرع.

ويشير القرآن الكريم إلى ذلك: وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا

---

(١) سورة الملك، آية: ١٥.

(٢) سورة هود، آية: ٦١.

(٣) سورة الجمعة، آية: ١٠.

عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾[١].

وفي الآية تلميح لهم بما عند الله، وأنه خير من اللهو ومن التجارة، وتذكير لهم بأن الرزق من عند الله، فلا بد من مراعاة الأولوية في العبادة، ولا بد من مراعاة معاني الاعتدال والتوازن في الأمور كلها، وقد يختل هذا التوازن حتى في أحسن الأحوال وأبرك زمان، فعن جابر رضي الله عنه قال: (أقبلت عير ونحن نصلي مع النبي ﷺ الجمعة فانفض الناس إلا اثني عشر رجلاً فنزلت هذه آية: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ... ﴾[٢]، وهذا الحادث يكشف عن مدى الجهد الذي بذل في التربية وبناء النفوس حتى تجلت معاني الاعتدال، وحتى انتهت إلى إنشاء الجماعة المباركة التي تشبعت بروح الإسلام، وأدركت معاني التشريع وأسراره والمفاهيم الأولية وترتيبها في العبادات والمعاملات، فسادت وانقاد لها الجميع وتحقق بها الرقي للبشرية جمعاء.

والحادث يصور النفس البشرية بخيرها وشرها ويكشف عن مدى صلاحيتها للفلاح والتزكي بلا حدود مع الصبر والفهم والإدراك والثبات، وهي قابلة بأن تتخلى عن عاداتها البيئية، وتتقبل أحكام وتوجيهات الشريعة عندما تجد الموجه المخلص المتأسي برسول الله ﷺ.

ومن الناس من يحقر بعض الحرف ويستهين بها كما كان الحال عند كثير من العرب الذين يحتقرون الحرف والعمل اليدوي، فلما جاء الإسلام بدل هذه المفاهيم المغلوطة، ورفع من قيمة العمل أياً كان نوعه، وحقر من شأن البطالة والاتكال على الآخرين"[٣].

ومن أبرز الأحاديث في ذلك المقام ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((لأنْ يَحتَطِبَ أحدُكم حُزمةً على ظَهرِهِ خيرٌ مِن أن يَسألَ أحداً فيُعطِيَهُ أو

(١) سورة الجمعة، آية: ١١.

(٢) سورة الجمعة، آية: ١١.

(٣) دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، د. محمد الأعظمي، ص ٢٥٩ - ٢٦١.

يَمنعَه))[1]. وبعد هذا الحديث الموجز عن فضل العمل والاحتراف المستنبط من الحديث الذي نحن بصدد بيان مضامينه الدعوية، حيث أقر النبي ﷺ هذا "المحترف" الذي جاء يشكو أخاه الذي لا يعمل، وقال ﷺ مواسيًا له "لعلك تُرزق به" وفي هذا إقرار وتشجيع وبيان لفضل العمل والاحتراف الذي يُعد من أبرز و أهم أسباب صيانة كرامة المؤمن وتعففه عن مسألة الناس، وبيان لمكانة العمل والاحتراف التي لا تقل شأنًا في بعض الأحيان عن طلب العلم، لأن صيانة كرامة المؤمن، مسألة عظيمة يجب الحفاظ عليها واليد العليا خير من اليد السفلى.

رابعاً- من موضوعات الدعوة: فضل إعانة الغير وكفالة طلاب العلم:

في الحديث بيّن رسول الله ﷺ أنّ أصحاب الأموال والأعمال يرزقون بالضعفاء وذوي الحاجة، ومن لهم شاغل عن الاكتساب كطلب علم وغيره، وكما جاء في الحديث: (كان أخوان على عهد النبي ﷺ وكان أحدهما يأتي النبي ﷺ - أي لطلب العلم والمعرفة [2] - الآخر يحترف، فشكا المحترف أخاه إلى النبي ﷺ فقال: لعلك تُرزق به) أي: أرجو أنك مرزوق ببركته لأنه مرزوق بحرفتك فلا تمنن عليه بصنعتك[3].

وبيّن النبي ﷺ أن إعانة الغير سبب الرزق والنصر، خاصة إذا كانوا من العاجزين عن الكسب، ويلحق بهم من اشتغل عن الكسب بعلم نافع وغيره، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ابْغُوني في الضُّعَفَاءَ ؛ فَإِنَّمَا تُنْصَرُونَ، وَتُرْزَقُونَ بِضُعَفَائِكُمْ))[4].

وفي ذلك توجيه للمسلمين بتحمل القادرين منهم مسؤولية العاجزين، وتدعيم الأخوة

---

(١) أخرجه البخاري ٢٠٧٤.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٦٣/٢.

(٣) المرجع السابق ١٨٦٣/٢.

(٤) أخرجه أبو داود ٢٢٦٠، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٥٩٤).

في الإسلام، وتقرير للمسؤولية الاجتماعية، ورفع لمكانة المسلمين[١].

خامساً- من واجبات المدعو: سؤال أهل العلم عن الحلول لبعض المشكلات:

يظهر ذلك في سؤال وشكاية الأخ المحترف أخاه إلى رسول الله ﷺ ليفصل بينهما أو يحث الآخر على العمل أو غير ذلك، مما دار في خلد ذلك المحترف، (فشكا المحترف أخاه للنبي ﷺ)، وقد أمرنا الله بالرجوع لأهل العلم إذا جهل الإنسان شيئاً أو استغلق عليه فهمه أو ما شاكل ذلك، فقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢]، قال القاسمي: "وفي الآية دليل على وجوب الرجوع إلى العلماء فيما لا يُعلم"[٣]، فإن العبد محتاج إلى معرفة الحق الذي يرضي الله في كل حركة ظاهرة وباطنة، فإذا عرفها فهو محتاج إلى من يلهمه قصد الحق، فيجعل إرادته في قلبه، ثم إلى من يُقدِّره على فعله، ومعلوم أن ما يجهله العبد أضعاف أضعاف ما يعلم، فهو مضطر كل وقت إلى هداية تتعلق بالماضي وبالحال والمستقبل[٤].

سادساً- من صفات الداعية: التبشير وتقديم حلول للمشكلات:

يتضح ذلك من خلال إجابة النبي ﷺ ذلك الأخ المحترف بما يبشره أن إعالته لأخيه طالب العلم سبب للرزق وجلب له، وفي ذلك الجواب من رسول الله ﷺ حل لمشكلة كان من الممكن أن تقع بين الأخوين، وقد ظهر من بوادرها ما جال في صدر الأخ المحترف وإقدامه على سؤال النبي ﷺ.

وفي رجوع الصحابة رضي الله عنهم إلى رسول الله ﷺ وإجابته لهم عما يسألون، حث للداعية على التواصل مع المدعوين، ومساعدتهم في حلّ مشكلاتهم وتقديم البُشرى لهم مما يضاعف هممهم في عمل الخير والتعاون على البر والتقوى.

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، د. الحسيني عبدالمجيد هاشم، ص ٢١٨ - ٢١٩.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٣) محاسن التأويل، القاسمي مج٦/١٠/١١٣.

(٤) فضل العلم والعلماء، ابن قيم الجوزية ص ٢٥٧ - ٢٥٨.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: تربية النفس على اليقين والتوكل على الله:

إن الإسلام يهدف إلى تهذيب النفس الإنسانية وتربيتها على الإيمان الراسخ والثقة في الله تعالى والاطمئنان إلى رحمة الله تعالى من خلال ما يترسخ في النفس من معالم إيمانية تعمل على تنمية ملكات الخير لدى الإنسان من خلال استعراض بعض النماذج البشرية التي سمت على أنفسها من خلال تلك التربية الروحية التي عملت على ترسيخ اليقين والتوكل على الله وعدم التشكك، أو الاستسلام للقلق النفسي الذي يكون نتيجة لضعف الإيمان، مما يعمل على تسرب اليأس والوساوس إلى النفوس.

ولذا فإن النبي ﷺ يذكر في الحديث: الأمم التي عُرضت عليه فكان النبي من الأنبياء السابقين معه الرهيط، والنبي معه الرجل والرجلان...

ثم بين النبي ﷺ كثرة سواد أمته وهذا الصنف الذي أخبر ﷺ عنه أنه يدخل الجنة بغير حساب، وبيّن ﷺ حيثيات دخولهم الجنة بهذه الحالة -بغير حساب- لأن هؤلاء الذين تربّت أنفسهم على اليقين والتوكل على الله مما رسخ في نفوسهم الإيمان القوي، وقد أثار ذلك روح التنافس لدى الصحابة رضي الله عنهم فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: "أنت منهم".

ثانياً: التربية بالتوجيه غير المباشر:

إن التوجيه غير المباشر هو دفع المربي أتباعه لعمل ما دون التصريح به، ولقد كان هذا الأسلوب من أكثر الأساليب التي اعتمدها الرسول ﷺ في تربيته لأصحابه رضي الله عنهم، بل لا تكاد تخلو أحاديثه وتوجيهاته وأقواله من هذا الأسلوب لما له من فوائد جمّة قد لا تتوفر في غيره، ومن فوائده:

١- أن الرسول ﷺ أراد أن يكون الدافع للعمل ذاتياً خالياً من ضغط العوامل الأخرى كالحياء والرياء والعاطفة والمجاملة.

٢- أن ينمّي عند الفرد المسلم القدرة على التصرف السليم واتخاذ القرار الصحيح المناسب.

٣- أن ينشئ الفرد على الثقة بالنفس واستقلال الشخصية حتى إذا فُقد المربي، استطاع المسلم الاستمرار بالعمل الصالح، وأن يشقّ طريقه بنفسه.

٤- ربما توجد بعض النفوس التي تتثاقل من قبول النصيحة المباشرة، ويصيبها الخجل والإحباط إذا حصل التصريح بالتوجيه والإرشاد، فكان التوجيه غير المباشر دافعاً لما قد يحصل من ذلك.

٥-وقد يكون هناك من الأفراد من يستعظم عدم رضا مربيه، لاسيما إذا كان له مكانة في قلبه مثل رسول الله ﷺ، فيكون التوجيه المباشر ذا أثر سلبي على نفسيته قد يوقعه في القنوط[1].

إن النبي ﷺ كان يحرص دائماً على تربية أصحابه رضي الله عنهم وأمته على اليقين والتوكل على الله تعالى، وذلك من خلال عدد من الوسائط التربوية المناسبة لكل فئة من الناس. فقد كان ﷺ يحرص على الذكر والدعاء بقوله: ((....اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ. وَبِكَ آمَنْتُ. وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ. وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ...)).

وكان يعلم أصحابه ما يقولونه عند مواجهة الشدائد، مما يقوي عزيمتهم، ويعمق اليقين والتوكل في نفوسهم.

إن التربية الإسلامية تعمل على إشباع حاجة الإنسان إلى معرفته الحقيقية بالله تعالى وتنمية قيم اليقين والتوكل والاستعانة بالله تعالى في كل الأحوال.

لقد حرص النبي ﷺ على توجيه أصحابه رضي الله عنهم إلى أهمية الاعتماد على الله تعالى، وذلك من خلال موافقة العملية وأقواله المباشرة وغير المباشرة، ففي حرصه ﷺ على ملازمة الدعاء والاستسلام والتوكل على الله نوع من التوجيه التربوي غير المباشر لأهمية هذا الأمر وملازمته والحرص عليه، لما له من آثار طيبة في حياة المسلم، لأنه بحاجة إلى تأييد الله ونصرته، وهذا مما يقوي العزيمة، ويدفع إلى الجد والاجتهاد وعدم الخوف وعدم التخاذل، فما أكثر ما يواجهه الإنسان في حياته، ويحتاج إلى اليقين والتوكل.

---

(١) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني، ٢٨٩.

ثالثاً- من أهداف التربية الإسلامية: تعميق معاني التوكل في النفوس:

إن تعميق معاني التوكل على الله في النفوس من الأهداف الرئيسة للتربية الإسلامية حيث يؤدي ذلك إلى علاج كثير من المشكلات التي يعانيها الإنسان في حياته، لأنه يبدد القلق ويبعث على الجد والاجتهاد في سائر الأمور، خاصة فيما يتعلق بأمور المعاش في الدنيا، والنبي ﷺ في الحديث يعمق معنى التوكل على الله في أمور الرزق، ويضرب مثالاً بالطير التي تصدق في توكلها فيرزقها من واسع فضله، تغدو خماصاً وتروح بطاناً.

وحديث ((لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ)) يدل على أن الناس إنما يؤتون من قلة تحقيق التوكل ووقوفهم على الأسباب الظاهرة بقلوبهم، فلذلك يُتعبون أنفسهم في الأسباب، ويجتهدون فيها غاية الاجتهاد، ولا يأتيهم إلا ما قدر لهم، فلو حققوا التوكل على الله بقولهم لساق الله تعالى إليهم أرزاقهم؛ بأدنى سبب، كما يسوق الطير إلى أرزاقها بمجرد الغدو والرواح، وهو نوع من الطلب أو السعي، لكنه سعي يسير.

والحديث لفتة عجيبة ولمحة نبوية لحقيقة التوكل وبيان لأثره. ومعنى قوله: ((لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ)) أي تعلموا يقيناً أن لا فاعل إلا الله، وأن لا معطي ولا مانع إلا هو، ثم يأتي بعد ذلك سعيكم تجاه سبل العيش، من باب اتخاذ الأسباب لا من باب أن الأسباب هي التي تنشئ النتائج فيُتّكل عليها.

فاتخاذ الأسباب عبادة وطاعة وتحقيق النتيجة قدر من الله، وبذلك يتحرر شعور المؤمن من التعبد للأسباب والتعلق بها، حينئذ يُرزق كما يرزق الطير، والمؤمن يدرك جيداً أن المقصود بها ليس إهمال الأرض وأسبابها؛ لأنه مكلّف بإحيائها وتعميرها، وإنما المقصود أن لا يعلّق نفسه بها، وأن لا يغفل عن الله في عمارتها ليعمل في الأرض وهو يتطلّع إلى السماء وليأخذ بالأسباب وهو يستيقن أنها ليست هي التي ترزقه، فرزقه مقدّر في السماء ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[1].

(١) سورة الذاريات، آيتان: ٢٢، ٢٣.

والمسلم الحق هو الذي يفهم حقيقة التوكل الذي هو جزء من إيمانه وعقيدته، وعليه أن يتخذ من كافة الأسباب طريقاً لتحقيق هذه الغاية.

فالتوكل عند المسلم إذن هو تفويض وعمل مع هدوء قلب وطمأنينة نفس، واعتقاد جازم بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

فالمؤمن يعيش آمناً على رزقه؛ لأن الأرزاق في ضمان الله الذي لا يخلف وعده ولا يضيع عبده، وقد خلق الأرض مهاداً وفراشاً وبساطاً، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها، وجعل فيها معايش، ووعد عباده فيها بكفالة الأرزاق، وكرر وأكد وأقسم عليه ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾(١)، ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾(٢).

بهذه الضمانات يعيش المؤمن حياته آمنًا على رزقه، مطمئناً إلى أن الله لن يهلكه جوعاً.

هكذا كان ﷺ يربي أمته على مفاهيم التوكل المطلوب، ثم يختار لذلك مثالاً بديعاً من حياة الطيور وتحركاتها نحو مجالات الحياة، فهي تستيقظ في الصباح الباكر تسبح وتغرد ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾(٣).

وبعد هذه العبادة المحببة تنطلق الطيور من أوكارها إلى ساحات الرزق من المزارع والبساتين، وإلى أماكن الحبوب والغلات، تنشط في البحث عن قوتها طوال النهار، وعندما تبدأ الشمس تميل إلى الغروب تعود إلى أعشاشها في أسراب وصفوف ممتلئة البطون ومنفذة لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾(٤)، فحياة

---

(١) سورة هود، آية: ٦.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٦٠.

(٣) سورة الإسراء، آية: ٤٤.

(٤) سورة النبأ، آيتان: ١٠، ١١.

الطيور تمتاز بالانتظام في معاني التوكل، وباتخاذ الأسباب، وبالنشاط الدائب. هكذا المؤمن إذا اتخذ الأسباب وأدى الأمانة المطلوبة من العبادات والواجبات وانطلق نشيطاً دؤوباً مؤمناً بربه متوكلاً عليه واثقاً بوعده فيرزق كما يرزق الطير التي تغدو خماصاً وتروح بطاناً[١].

رابعاً: التربية بالترغيب:

ما أكثر أنواع التربية الإسلامية -التي تسهم في صياغة وبناء شخصية المسلم- ومن تلك الأنواع: التربية الترغيبية التي من خلالها تتم عملية تربية الإنسان بالترغيب في ثمرة العمل، مما يقوي الدافعية للعمل المُرغّب فيه، والنبي ﷺ رغّب الصحابة رضي الله عنهم والأمة من بعدهم في اليقين والتوكل وقد ورد ذلك في عدد من أحاديث باب اليقين والتوكل مثل قوله ﷺ: ((لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ)).

وقوله ﷺ: ((يَا فُلَانُ إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَقُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ....)).

إنه لمّا كان الإسلام هداية للناس جميعاً وواقعياً في جوانبه العملية كانت الواقعية فيه تتطلب إيجاد عُنصر الترغيب في وسائله التربوية للناس، وذلك في كل ما يهديهم إليه من خير، ويدعوهم إليه من فضيلة، وما ذاك إلا لكي يكفل استقامة النشء على طريق الإيمان ودلهم على ما يجب عليهم في هذا السبيل، فهنا يبدو جُهْدُ الآباء والموجّهين في الأسرة في تبصير ذرياتهم بطريق الإيمان وتزيينه أمامهم، ثم يأتي دور الأبناء في الاتباع عن يقين والاستقامة عن بيِّنه، لا تقليداً ومحاكاة، بل إقناعاً واعتقاداً، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[٢].

وليس بغريب - الأمر كذلك- أن تكون التربية الترغيبية هي الأساس والعنصر

---

(١) انظر: دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، د.محمد لقمان الأعظمي، ٩٤-٩٦.

(٢) سورة الطور، آية: ٢١.

الـذي يقـوم عليـه الإصـلاح الإسـلامي في الأسـرة، وفي المدرسـة، وفي المجتمـع الكـبير مجتمع الأمة الإسلامية، فهي تعتبر أساساً محدداً لبناء شخصية الفرد، تلك الشخصية التي تهب نفسها لله تعالى في قيامها وجلوسها، في نومها ويقظتها، في غضبها ورضاها، في صداقتها وعداوتها، في بيعها وشرائها، في عملها وراحتها، في أفكارها وآرائها، في توجيهها وإرشاداتها، في نصائحها وتحذيراتها، في كل نفس تتنفسه أو طرفة عين تطرفها.

وتبرز أهمية التربية الترغيبية من كونها أسلوب رائع يساعد على نشر مكارم الأخلاق[1].



(١) تربية الأبناء والبنات في ضوء الكتاب والسنة، خالد عبدالرحمن العك، ١٨٧.

٨- باب في الاستقامة

قَالَ اللّٰه تَعَالَى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[هود: ١١٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾[فصلت: ٣٠-٣٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأحقاف: ١٣-١٤].

الحديث رقم (٨٥)

٨٥- وَعَنْ أبي عمرو، وقيل أبي عمْرة سُفْيانَ بنِ عبد اللّه رضي الله عنه قال: قُلْتُ: يا رسول اللّهِ قُلْ لِي في الإِسلامِ قَولاً لا أَسْأَلُ عنْه أَحدًا غيْركَ[١]. قال: «**قُلْ: آمَنْت باللّهِ: ثُمَّ اسْتَقِمْ**» رواه مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

سفيان بن عبدالله الثقفي: وهو سفيان بن عبدالله بن أبي ربيعة بن الحارث الثقفي الطائفي، ويكنى بأبي عمرو، أو بأبي عَمْرَة.

حارب مع قومه في غزوة حنين ضد المسلمين إلا أن الله نجاه من القتل ثم مَنَّ عليه بالإسلام بعدها حيث أسلم مع ممن أسلم في وفد ثقيف.

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وكان حريصًا على السؤال عما ينفعه، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن جامع أوصاف الإسلام فأجاب عليه النبي صلى الله عليه وسلم بإجابة هي من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم كما ورد في نص حديث الباب؛ ففي صحيح مسلم عن سفيان بن عبدالله الثقفي، قال: قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا بعدك، وفي حديث أبي

---

(١) زاد مسلم: (وفي حديث أبي أسامة: غيرك).

(٢) برقم (٦٢/٣٨).

أسامة "غيرك" قال: ((قل آمنت بالله ثم استقم))[(١)].

وكان ممن وهبه الله حكمة وحنكة في سياسة الأمور وإدارة الأعمال فولاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الطائف[(٢)].

غريب الألفاظ:

استقم: قال العلماء: معنى الاستقامة لزوم طاعة الله تعالى[(٣)].

الشرح الأدبي

هذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ، وقال العلماء في بيان قيمة هذا الحديث ومعرفة فضله وأثره الحميد في تهذيب السلوك، وصحة العقيدة، مع الإيجاز الشديد، يقولون: هذا أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام.

وذلك لأن هذا الحديث مع إيجازه الشديد أرشد إلى كل ما في الإسلام من عقائد وعبادات ومعاملات؛ لأن الإيمان والاستقامة ينطويان ويومضان بكل هذه الأبعاد.

- ويقدِّم الجاحظ معالم فنية دقيقة للبيان النبوي، وهذا الحديث يعد شاهدًا تطبيقيًا على هذه المعالم، حيث يقول الجاحظ محددًا سمات البيان النبوي: "هو الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة، ونزه عن التكلف وألقى الله المحبة عليه، وغشاه بالقبول، وجمع بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام"[(٤)].
- وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في ضوء الحديث ندرك أن وصف الجاحظ دقيق وعميق، وصادق وشائق، فالحديث سؤال وجواب، والسؤال

---

(١) أخرجه مسلم ٣٨.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (٢٩٥)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (٤٩٦/٢، ٤٩٧)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (٥١٤)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (٢٢١/٣)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٥٨/٢، ٥٩).

(٣) رياض الصالحين ٨٤ الباب (٨).

(٤) البيان والتبيين.

يبدو في ظاهرة أنه يحتاج إلى إجابة مطوّلة، وإلى كلام كثير، ولكن المصطفى ﷺ الذي أُعطي جوامع الكلم أعطى الجواب المقنع، والدواء الشافي في جملتين قصيرتين لكنهما تحتاجان إلى شروح مطوّلة، وإلى مجاهدة ومقاومة لكل المغريات والمثبطات.

- وأسلوب الحوار هو الصيغة المقنعة في كثير من الأحاديث النبوية، والحوار بين أبي عمرو سفيان بن عبدالله ورسول الله ﷺ، ويبدأ الحوار بهذا النداء الجميل الذي يفصح عن رغبة السائل وطالب النصيحة في المعرفة، والوصول إلى الحقيقة الساطعة التي لا تحجبها غيوم الحيرة والشك، وهذا النداء "يا رسول الله" يؤكد محبة هذا السائل للرسول ﷺ، بصفته رسولاً ونبيًا وكذلك محبته لشخصه وذاته، والشاهد أنه قال: "قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا بعدك"، وفعل الأمر "قل" ليس على حقيقة الأمر النحوي ولكنه التماس ورغبة في المعرفة والهداية، ولذلك قال: "قل لي" وتحديد القول بأنه يؤكد حاجته الشديدة إلى فهم الإسلام فهمًا صحيحًا. والإيجاز البلاغي يفصح عنه قوله "في الإسلام"، أي: في دينه وشريعته، و"في" تفيد الرغبة في التعمق والفهم، ولذلك لم يقل "عن الإسلام"، وتنكير قولاً يعطي الأهمية لهذا القول: لأنه قول جامع لكل معاني الإسلام في العقائد والعبادات والمعاملات، ويؤيد هذا التفسير: قوله: لا أسأل عنه أحدًا غيرك، أى: لا أحتاج إلى توضيح ولا إلى مزيد من التصريح بعد التلميح، ويجئ الجواب في صيغة الأمر "قل" والأمر يفصح عن الوجوب، وقوله "آمنت بالله" مقول القول، وهو الإقرار بكل متعلقات الإيمان وشروطه التي لابد أن تتحقق، فالإيمان هو التصديق بالجنان، والإقرار باللسان، والعمل والأركان، والاستقامة تترجم الإيمان إلى سلوك يتضمن كل ألوان النشاط العملي. ولذلك جاءت الصيغة اللغوية في أسلوب الأمر "ثم استقم". والعطف بـ"ثم" وراءه سر من أسرار النظم في البيان النبوي، وهو أن ترجمة الأقوال

والمعتقدات القلبية إلى سلوك عملي في كل مناحي الحياة تحتاج إلى تأنٍّ ومجاهدة وتفكر وتدبر وصبر واحتساب؛ ولذلك جاء العطف بـ"ثم" لتربط بين الجملتين الجامعتين المانعتين، ولم يقل "واستقم" أو "فاستقم"؛ لأن آفاق المعنى في الحديث تتسع وتمتد إلى ما لا نهاية، ولا بد من الإيمان أولاً ثم تطبيق هذا الإيمان وترجمته إلى سلوك إسلامي رشيد.

- وأصل الاستقامة استقامة القلب على التوحيد، كما فسر أبو بكر الصديق وغيره قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَـٰمُواْ﴾[1]. بأنهم لم يلتفتوا إلى غيره[2]، فمتى استقام القلب على معرفة الله وعلى خشيته وإجلاله ومهابته ومحبته وإرادته ورجائه ودعائه، والتوكل عليه والإعراض عما سواه، استقامت الجوارح كلها على طاعته ...، وأعظم ما يراعى استقامته بعد القلب من الجوارح اللسان، فإنه ترجمان القلب والمعبر عنه، ولهذا لما أمر النبي ﷺ بالاستقامة -في بعض الروايات[3]- وصاه بعد ذلك بحفظ لسانه[4]، وفي مسند الإمام أحمد: عن أنس عن النبي ﷺ قال: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه»[5][6].

---

(١) سورة فصلت، آية: ٣٠ .

(٢) انظر: تفسير الطبري: "جامع البيان" ٤٢٣/٢٠.

(٣) وهذه الروايات ذكرها ابن رجب في جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٥٠٦/١ وعزاه لمن أخرجها من المحدثين أصحاب الكتب.

(٤) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ص ١٧٩.

(٥) أخرجه أحمد ١٩٨/٣، وابن أبي الدنيا في الصمت ٩، وضعّفه محققو المسند: ٣٤٣/٢٠، ١٣٠٤٨.

(٦) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٥١٢/١ بتصرف يسير.

المضامين الدعوية

أولاً: من واجبات المدعو: الاستفسار والسؤال عما يعنيه.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية التعرف على القضايا الأساسية في الدين.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل الإيمان بالله.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الاستقامة.

خامسًا: من أساليب الدعوة: الأمر.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: مراعاة الأولويات.

أولاً- من صفات المدعو: الاستفسار والسؤال عما يعنيه:

إن من أهم ما يجب أن يقوم به المؤمن الاستفسار والسؤال عما يعنيه، وقد ظهر ذلك في سؤال سفيان بن عبد الله رضي الله عنه في سؤاله وطلبه من رسول الله ﷺ أن يقول له في دين الله وشريعته قولاً جامعًا لمعاني الدين، واضحًا في نفسه لا يحتاج إلى تفسير غيره[١]، قائلاً: (قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا غيرك)، وحتى يتسنى له عبادة الله والدعوة إليه على علم وبصيرة: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾[٢]، أي: قل يا محمد هذه الدعوة التي أدعو إليها، والطريقة والسنة والمنهاج الذي أنا عليه، على بصيرة ويقين منه أنا ومن اتبعني[٣].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية التعرف على القضايا الأساسية في الدين:

إن أول ما ينبغي التعرف عليه في الدين قضاياه الكلية والأساسية التي لا يقوم الدين بدونها، ونرى ذلك في الحديث في سؤال سفيان بن عبد الله لرسول الله ﷺ عن الإسلام ككل: قل لي في الإسلام قولاً، وإجابة الرسول ﷺ له مركزًا له على الإيمان والاستقامة عليه: "قل آمنت بالله ثم استقم"، فإن أول ما ينبغي على المسلم أن

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ٢٠٩.

(٢) سورة يوسف، آية: ١٠٨.

(٣) انظر: زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج بن الجوزي ٤/٢٩٥.

يتعرف على الإسلام، مصادره وأصوله وأركانه، وأن تكون معرفته به معرفة يقينية عميقة، لا سطحية مضطربة[١]. حتى يتسنى للمؤمن معرفة أصول الدين التي تتبني عليها الفروع ولا شك أن أصول الدين وأسسه إذا كانت صحيحة وواضحة ومستقرة وراسخة في العقل والقلب فإنها تثمر ثمارًا طيبة في مجال السلوك والأعمال مما يؤدي إلى استقامة حياة المؤمن.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل الإيمان بالله:

مما يدل على فضل الإيمان ما جاء في الحديث من أمر رسول الله ﷺ به، وتقديمه على غيره: "قل آمنت بالله ثم استقم" وفي ذلك دليل على أن من شرط صحة الأعمال الصالحة وقبولها أن تكون مبنية على الإيمان، فلو أن الإنسان عمل بظاهره على ما ينبغي ولكن باطنه خراب، وفي شك واضطراب، أو في إنكار وتكذيب فإن ذلك لا ينفعه[٢].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الاستقامة:

أشار الرسول ﷺ إلى فضل الاستقامة في الحديث بذكرها والأمر بها بعد الإيمان؛ (قل آمنت بالله ثم استقم)، فالاستقامة كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدين، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد[٣]، وقد أمرنا الله بالاستقامة في كثير من الآيات منها قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾[٤]، وهي سلوك المستقيم وهو الدين القيم من غير تعريج عن يمنة ولا يسرة ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها، الظاهرة والباطنة وترك المنهيات كلها كذلك، فصارت الوصية بالاستقامة جامعة لخصال الدين كلها[٥].

---

(١) انظر: ثقافة الداعية، د. يوسف القرضاوي ص ٩.

(٢) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين ١/ ٢٧٣.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/ ٥١٠.

(٤) سورة فصلت، آية: ٦.

(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/ ٥١٠.

وأصل الاستقامة: استقامة القلب على التوحيد، كما فسر أبو بكر الصديق رضي الله عنه وغيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾[1]، بأنهم لم يلتفتوا إلى غيره، فمتى استقام القلب استقامت الجوارح كلها على طاعة الله، فإن القلب هو ملك الأعضاء وهي جنوده فإذا استقام الملك استقامت جنوده ورعاياه[2].

قال القرطبي في شرحه لهذا الحديث: (قوله: "قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا بعدك" أي: علمني قولاً جامعًا لمعاني الإسلام، واضحًا في نفسه؛ بحيث لا يحتاج إلى تفسير غيرك، أعمل عليه وأكتفي به، وهذا نحو مما قاله له الآخر: علمني شيئًا أعيش به في الناس ولا تكثر علي فأنسى، فقال: ((لا تغضب))[3]، وهذا الجواب، وجوابه بقوله: "قل آمنت بالله ثم استقم"، دليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم، واختصر له القول اختصارًا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم مخبرًا بذلك عن نفسه.

فروي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((أُوتيتُ جَوامِعَ الكَلِمِ...))[4]. فإنه عليه الصلاة والسلام جمع لهذا السائل في هاتين الكلمتين معاني الإسلام والإيمان كلها. فإنه أمره أن يجدد إيمانه متذكرًا بقلبه وذاكرًا بلسانه. ويقتضي هذا استحضار تفصيل معاني الإيمان الشرعي بقلبه، وأمره بالاستقامة على أعمال الطاعات، والانتهاء عن جميع المخالفات؛ إذ لا تتأتى الاستقامة مع شيء من الاعوجاج فإنها ضده. وكأن هذا القول منتزع من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾[5]، أي: آمنوا بالله ووحدوه، ثم استقاموا على ذلك وعلى طاعته إلى أن توفوا عليها، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: استقاموا والله على طاعته، ولم يروغوا

---

(١) سورة الأحقاف، آية: ١٣.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/٥١٠.

(٣) أخرجه البخاري ٦١١٦.

(٤) أخرجه مسلم ٥٢٣.

(٥) سورة فصلت، آية: ٣٠.

روغان الثعالب. وملخصه: اعتدلوا على طاعة الله تعالى عقدًا وقولاً وفعلاً، وداموا على ذلك)[١].

خامسًا- من أساليب الدعوة: الأمر:

ورد هذا الأسلوب في الحديث في أمر رسول الله ﷺ بالإيمان والاستقامة: "قل آمنت بالله ثم استقم"، وأسلوب الأمر من الأساليب الدعوية المفيدة لما فيه من حمل المدعو على الاستجابة لما دُعي إليه، خاصة إذا كان المدعو يكنّ احترامًا للداعي وقبولاً لدعوته.

سادسًا- من موضوعات الدعوة: مراعاة الأولويات:

يتضح ذلك من خلال أمر رسول الله ﷺ بالإيمان الذي هو أس الدين ودعامته ثم الأمر بالاستقامة: "قل آمنت بالله ثم استقم"، لذا ينبغي على الدعاة والمسلمين عامة أن يراعوا الأولويات في دعوتهم وحياتهم، فعلى الداعية أن يبدأ بالأهم ثم المهم، أن يبدأ بالعقيدة قبل العبادة، وبالعبادة قبل مناهج الحياة، وبالكليات قبل الجزئيات، ومما يؤكد هذه الأهمية دعوة النبي ﷺ إلى ما هو أهم عما هو مهم في الفترة المكية، ففي هذه الفترة ركز على الإيمان والوحدانية، والتعرف على الله، والرد على مزاعم الدهريين ومنكري البعث وإقامة الحجة عليهم ودحض مفترياتهم حتى إذا دخل القوم حظيرة الإسلام، وخالط الإيمان بشاشة قلوبهم، جاءت مرحلة المهم، ألا وهي التزام القوم الإسلام على أنه أصول المعاملة، ومبادئ حكم، ومناهج حياة وغير ذلك، وهذا ما ركز عليه في الفترة المدنية[٢].

---

(١) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ١/ ٢٢١ - ٢٢٢.

(٢) انظر: كيف يدعو الداعية، د. عبدالله ناصح علوان، ص ٤٦ - ٤٩.

الحديث رقم (٨٦)

٨٦- وعنْ أبي هُرِيْرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : قال قال رسول اللّه ﷺ : «**قَارِبُوا وسدِّدُوا، واعْلَمُوا أَنَّه لَنْ ينْجُو أحدٌ منْكُمْ بعملهِ**» قَالوا : ولا أنْت يَا رسُولَ اللّه؟ قال: «**ولا أنَا إلا أنْ يتَغَمَّدني اللّه برَحْمةٍ منْه وَفضْلٍ**» رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

قاربوا : المقاربة: القصد الذي لا غُلُوَّ فيه ولا تقصير[٢].

سدِّدوا : السداد : الاستقامة والإصابة[٣].

يتغمدني: يلبسنيها ويسترني بها، مأخوذ من غِمْدِ السَّيف وهو غلافه، يُقال: غمدتُ السَّيف وأغمدتُه[٤].

الشرح الأدبي

من إشراقات هذا الحديث الشريف نقتبس بعض الإشعاعات التي تنير لنا طريق الهداية وتأخذ بيدنا إلى واحة النجاة والفوز في الدارين: الدنيا والآخرة.

والحديث يثير تساؤلات كثيرة حول حقيقة العمل الصالح الذي به ينجو الإنسان من مزالق الفتن.

- والإنسان مهما بالغ في أداء الواجبات فإنه لن يصل إلى درجة الكمال، ولن

---

(١) برقم (٧٦/٢٨١٦). وأخرجه أيضًا البخاري (٦٤٦٣). انظر: الجمع للحميدي (١٠٢/٣، رقم ٢٢٩٤). تنبيه: لعل الحديث اشتبه على المؤلف بحديث آخر لأبي هريرة ولفظه: (قاربوا وسددوا، ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها، والشوكة يشاكها) رواه مسلم (٢٥٧٤) وأورده المنذري في ترغيبه (٥٠٢٤).

(٢) رياض الصالحين ٨٤، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق ر ب).

(٣) رياض الصالحين ٨٤، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (س د د).

(٤) رياض الصالحين ٨٤، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (غ م د).

يستطيع بهذه الأعمال شكر الله عز وجل على نعمه التي لا تُحصى. وفي هذا الحوار بين النبي وصحابته، يعلم المصطفى ﷺ المنهج السديد في أداء العبادة والقيام بالتكاليف فيقول في صيغة الأمر الواجب تنفيذه: "قاربوا وسددوا"، والمقاربة تكون في العبادة والسلوكيات العملية في ضوء المنهج الإسلامي، وهو منهج وسط لا غلو فيه ولا تقصير، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، والسداد: "الإصابة في جميع الأقوال والأعمال والمقاصد" وهذا التعبير "سددوا" فيه تصوير بلاغي، ونزوع إلى التشبيه فالمسلم في عمله مثل الذي يرمي إلى غرض فيصيبه، والمادة اللغوية لهذا الفعل تؤكد هذه الدلالة التي توجه إلى إصابة الغرض، ومن معاني المقاربة التي يرشد إليها الحديث في منهج المسلم (أن يصيب ما قرب من الغرض إذا لم يصب الغرض نفسه، ولكن بشرط أن يكون مصممًا على قصد السداد، وإصابة الغرض، فتكون مقاربته عن غير عمد)[1]، ويدل عليه قول النبي ﷺ في حديث الحكم بن حزن الكُلَفي: ((أيها الناس إنكم لن تطيقوا –أو لن تفعلوا– كل ما أمرتكم به ولكن سددوا وأبشروا))[2].

- والإيجاز في الحديث يحتاج إلى تأمل وتفكر وتدبر، فالمقاربة والسداد في كل ما أمرنا به الله ورسوله يحتاج الكلام فيهما إلى بسط القول وشرح آراء العلماء كلٌّ حسب مذهبه ومنهجه، ولكن البيان النبوي واضح كالشمس، سائغ كالماء العذب الفرات، ولذلك لم يسأل الصحابةُ عن كيفية المقاربة وكيفية السداد، ولم يسألوا عن حدود ومجالات كل منهما، ويكفي أن المقاربة هي القصد الذي لا غلو فيه ولا تقصير، وأن السداد هو الاستقامة والإصابة، ولذلك استفهم الصحابة وقالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ وهنا إيجاز ورغبة في المعرفة، أي: ولا أنت ناج بعملك يا رسول

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي ٥١١/١.

(٢) أخرجه أبو داود ١٠٩٦، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود، ٩٧١).

الله، أو لا تنجو أنت، والاستفهام هنا حقيقي لكنه يفصح عن الدهشة والحيرة، ويجيب المصطفى في صدق ومحبة وإخلاص قائلاً: "ولا أنا"، والتعبير بقوله: "يتغمدني" فيه تصوير أدبي يفصح عن المعنى ويجعل الرحمة كأنها غمد، وتوحي برحمة الله الواسعة وعفوه الكريم فيغمر الله عباده، وأولهم المصطفى ﷺ برحمته وعفوه وجوده.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل المقاربة والتسديد.

ثالثًا: من مهام الداعية: إعلام المدعوين بالحقائق.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: حاجة الإنسان إلى فضل الله تعالى.

خامسًا: من أساليب الدعوة: الحوار.

سادسًا: من واجبات المدعو: الاستفسار والسؤال عما يعنيه.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر:

إن الأمر من الأساليب الدعوية التي تستخدم لحمل المدعوين على الاستجابة لأمر من الأمور التي ينتفعون بها في دنياهم وأخراهم، وقد ورد هذا الأسلوب في الحديث في قوله ﷺ: "قاربوا وسددوا واعلموا"، وأسلوب الأمر من الأساليب الدعوية الناجحة لما فيه من توجيه المدعوين إلى ما فيه الخير وحملهم عليه وترغيبهم فيه.

وقد ورد تكرار أسلوب الأمر كثيرًا في الآيات القرآنية والسنة النبوية المطهرة، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1]، (وأسلوب الأمر أسلوب يتسابق المؤمنون لتحقيقه والوفاء بالمراد

---

(١) سورة الحج، آية: ٧٧.

منه، فلا تأخر ولا تلكؤ ولا تراجع، وهذا هو مقتضى الإيمان، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، والاستجابة لأوامر الله تحقيقًا لعبودية الله وطاعته"[١].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل المقاربة والتسديد:

من مميزات الإسلام أنه راعى في تشريعاته طبيعة الإنسان، وراعى الطاقة المحدودة له، وطبيعة الملل في الإنسان[٢]، فلم يأمره بعبادة لا يطيقها، ولم يأمره بالإكثار منها كثرة تمل منها النفوس وإنما أمر بالمقاربة والتسديد، وكما في الحديث قوله ﷺ: (قاربوا وسددوا)، أي: سددوا في الأعمال؛ أي: اعملوها مسددة لا غلو فيها ولا تقصير، وقاربوا في أزمانها بحيث لا يكون فيها تقصير، ولا تطويل، وأبشروا على ذلك بالثواب الكثير والخير الجزيل[٣]، فالسداد هو الصواب وهو بين الإفراط والتفريط، وقوله (قاربوا) معناه: اطلبوا السداد والصواب واعملوا به، وإن عجزتم عنه فقاربوه أي اقربوا منه[٤]، فإن الإنسان مهما بلغ من التقوى، فإنه لا بد أن يخطئ وتلك طبيعته، فعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((كلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاء، وَخيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ))[٥]، فالإنسان ليس مطالبًا بمثالية مطلقة، وإنما هو مأمور أن يقارب ويسدد بقدر ما يستطيع[٦].

وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾[٧]، إشارة إلى أنه لا بد من تقصير في الاستقامة المأمور بها، فيجبر ذلك بالاستغفار المقتضي للتوبة والرجوع إلى الاستقامة[٨]، والمقاربة والتسديد.

---

(١) العهد والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر بن سليمان العمر، ص ٥٠ - ٥١.

(٢) انظر: الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، ص ١٦٣ - ١٦٥.

(٣) المفهم، القرطبي ١٣٩/٧.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٦٥٠.

(٥) أخرجه الترمذي ٢٤٩٩، وحسنه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ٢٠٢٩).

(٦) انظر: شرح رياض الصالحين ٢٧٤/١.

(٧) سورة فصلت، آية: ٦.

(٨) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٥١٠/١.

ثالثًا- من مهام الداعية: إعلام المدعوين بالحقائق:

إن مما يضطلع به الداعية من مهام إعلام المدعوين بحقائق دينهم، حتى يعبدوا الله على بصيرة وبينة مثلما أمر النبي ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه لما بعثه إلى اليمن بقوله: ((فادعهم... فأعلمهم... الحديث))[1]، وفي هذا الحديث بيّن الرسول ﷺ أهمية المقاربة والتسديد في العمل، والاجتهاد قدر الطاقة والوسع، وبيّن ﷺ الحقيقة الساطعة: أنه لن ينجو أحدٌ بعمله، حتى النبي ﷺ؛ إلا أن يتغمده الله برحمته، وهذا يُعد من أمانة الدعوة والداعية في كشف الحقائق وبيانها حتى لا يغتر الإنسان بعمله.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: حاجة الإنسان إلى فضل الله تعالى:

إن الاعتماد على الله وحده والتسليم إليه في كل الأمور من سمات المتقين، وعلامات الصابرين، وهو سبيل النجاة والفوز بالسعادة، إذا صاحبه العمل بما أمر الله، والنهي عما نهى عنه، فمهما بلغ مقدار العمل، ومهما عظمت قيمة المجاهدة، فإنها لا تؤهل صاحبها لدخول الجنة، أو النجاة من النار، إذا غفل العبد عن الله في عمله، أو ادعى أن له استحقاقًا بهذا العمل، فالنعم كلها من الله، ومنها نعمة التوفيق إلى عمل الخير والمعاونة على إتمامه وإكماله. فلا يرهقن العبد نفسه فوق طاقتها، ولا يبالغ في كمية العبادة وحسابها دون اعتبار بكيفيتها وروحها، وليخلص لله عمله، ولا يعتمد على مجرد العمل في الوصول إلى غايته المقصودة وأمله المرجو. ورحمة الله هي المقصود الأعظم من العمل ليعطي ثمرته، وفضل الله الواسع سبيل النجاة، وبدونه لا نجاة. فليطلبها العبد من ربه وليعمل قدر جهده[2].

وقد بيّن النبي ﷺ في الحديث حاجة الإنسان إلى فضل الله ورحمته فقال: (واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل)، أي: إن أعمال العباد الصالحة ليست مما تقتضي دخول الجنة؛ إذ ليست في أنفسها على صفاتٍ تقتضي ذلك، ولا يستحق المكلّف على

---

(١) أخرجه البخاري ١٤٥٨.

(٢) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ص ٩٢ - ٩٣.

الله تعالى بسببها شيئًا؛ إذ لا منفعة له فيها ولا غرض؛ فإنه الغني بذاته؛ الذي لا يستغنى عنه. وكأن هذا نص في الرد على أهل البدع، والمعتزلة في قولهم في قاعدتي التحسين والتقبيح، والاستحقاق العقليين.

وقولهم: "ولا أنت؟" كأنهم وقع لهم: أن النبي ﷺ لعظيم معرفته بالله، وكثرة عباداته؛ أنه يُنجيه عمله، فردّ النبي ﷺ ذلك بأن قال: "ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة وفضل"، فسوى بينه وبينهم في ذلك المعنى، وأخبر أنه عن فضله ورحمته لا يُستغنى)[1].

فهو سبحانه يكرم المطيعين والصالحين من عباده ويدخلهم الجنة، فضلاً منه ومنّة، فهو الذي فرض الأعمال ويوفقه إليها ويهدي للإخلاص فيها، ويقبلها برحمة منه وفضل[2]، فالعمل وحده لا يبلغ ما يجب لله عز وجل من الشكر وما يجب على عباده من الحقوق، والإنسان مهما بلغ من المرتبة والولاية فإنه لن ينجو بعمله ولكن يتغمده الله سبحانه العبد برحمته فيغفر له[3].

خامسًا- من أساليب الدعوة: الحوار:

يُعد الحوار من الأساليب الدعوية النافعة التي تعمل على إثراء العملية الدعوية، وتفتح الطريق أمام الداعية والمدعو لتقليب الرأي والتعرف على الأدلة في الموضوع الذي يتناوله الحوار، وقد أتاح النبي ﷺ الحوار لأصحابه رضي الله عنهم، في مسألة "كون العمل منفردًا لا يؤهل صاحبه لدخول الجنة" حيث ورد في الحديث: "واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل"، والحوار: مناقشة بين طرفين أو أطراف، بقصد تصحيح كلام، وإظهار حجة، وإثبات حق، ودفع شبهة، والغاية منه إقامة الحجة، ودفع الشبهة، فهو تعاون على معرفة الحقيقة والتوصل إليها ليكشف كل طرف ما خفي على صاحبه منها، والسير بطرق

---

(١) المفهم، القرطبي ١٣٩/٧ - ١٤٠.

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٤٩.

(٣) انظر: شرح رياض الصالحين ٢٧٤.

الاستدلال الصحيح للوصول إلى الحق[1].

سادسًا: من واجبات المدعو: الاستفسار والسؤال عما يعنيه:

إنه مما ينبغي على المدعو الاستفسار والسؤال عما يعنيه، طلبًا لزيادة في العلم وفقه في الدين، فإن لسان حال ومقال المسلم دائمًا طلب العلم، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[2]، دعاءً وطلبًا للتفقه في الدين وتعلمه وتعليمه، بل إن الله ليعدل طلب العلم بالجهاد بأن أمر المسلمين أن تنفر طائفة منهم للجهاد وأخرى للعلم، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[3][4]، ولهذا وغيره وجدنا حرص الصحابة على سؤال النبي ﷺ كما في الحديث الذي معنا: (واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل).

ولا شك أن استفسار المدعو وسؤاله عما يعنيه، يؤدي إلى نوع من القناعة وتصحيح المفاهيم السائدة والمستقرة في ذهنه والتي قد يشوبها بعض الخطأ، ومن ثم فإن المدعو ينتفع انتفاعًا كبيرًا من خلال تلك الاستفسارات والأسئلة التي تجعله على بينة من أمره.

---

(١) معالم في منهج الدعوة، صالح بن عبد الله بن حميد ص ٢١٢ - ٢١٣.

(٢) سورة طه، آية: ١١٤.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٢٢.

(٤) انظر: فضل العلم والعلماء، ابن قيم الجوزية ص ١١٣ - ١١٤.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- من أهداف التربية الإسلامية: الربط بين القول والعمل:

إن من أبرز الأهداف الرئيسة للتربية الإسلامية الربط بين القول والعمل، لأن المؤمن حينما يتربى على هذا الأمر، يتحلى بالمصداقية والشفافية في التعامل، حتى يُعوِّل في حياته على العمل المطابق لما يعتقده ويؤمن به، ولا يكترث بالشعارات الرنانة، ومن هنا جاءت التربية الإسلامية لتؤكد على أهمية الترابط بين القول والعمل، ولذا لما سُئل النبي ﷺ من أحد الصحابة رضي الله عنهم حيث قال للنبي ﷺ: "قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا غيرك، قال: قل آمنت بالله ثم استقم".

لقد أكد النبي ﷺ في تربيته لأصحابه رضي الله عنهم على أهمية الترابط بين القول والعمل حتى يتحول الإيمان إلى سلوك وواقع يعيشه المؤمن ويتربى عليه المجتمع.

ثانيًا- التربية على ملازمة الطاعات والطمع في رحمة الله وفضله:

إن التربية الإسلام تتميز بالواقعية والصدق، حيث تحث المسلم على المقاربة في الأعمال وعدم الغلو والتنطع، وتنأى بالمسلم عن المشقة التي تؤدي إلى الانصراف عن العمل، والزهد فيه، ولذا فإن التربية الإسلامية تُعَمِّق في النفوس معاني الاستقامة على المنهج الإسلامي الصحيح، وفي الوقت ذاته تطالب بالوسطية وعدم الغلو، وتربي المسلم على ملازمة الأعمال الصالحة والاستمرار عليها، وعدم التقصير فيها.

وإن من أبرز ما تُعنى به التربية الإسلامية: عدم التعويل المحض على الأعمال وحدها، بل لابد أن يكون واضحًا في نفس المسلم أنه مع قيامه وملازمته للأعمال الصالحة، فإن الأمل في رحمة الله والطمع في فضله هو الأساس في القبول والنجاة والفوز في الدنيا والآخرة، ولذا فقد ربّى النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم على ذلك حيث قال: "قاربوا وسددوا، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل" كل ذلك ليؤكد ﷺ على الحقائق التي يجب أن يتربى عليها المسلم وتتربى عليها الأمة الإسلامية، حتى تكون المعالم واضحة في الأذهان.

٩- باب في التفكر في عظيم مخلوقات الله

وفناء الدنيا وأهوال الآخرة وسائر أمورهما وتقصير النفس وتهذيبها وحملها على الاستقامة

قال اللَّه تعالى: ﴿إنَّمَا أعِظُكُمْ بوَاحِدةٍ أنْ تقُومُوا للَّهِ مَثْنَى وفُرادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾[سبأ: ٤٦] وقال تعالى: ﴿إنَّ فِي خَلْقِ السَّمواتِ والأرْضِ واخْتلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الألْبَابِ الَّذينَ يَذْكُرونَ اللَّه قِياماً وَقُعُوداً وعَلَى جُنُوبِهِمْ ويَتَفَكَّرون فِي خَلْق السَّمواتِ وَالأرْضِ ربَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطلاً سُبْحَانَك﴾ الآيات [آل عمران ١٩٠، ١٩١]. وقال تعالى: ﴿أفلا ينْظُرونَ إلَى الإبلِ كيْفَ خُلِقَتْ وإلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعتْ وإلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبتْ وَإلى الأرضِ كيْفَ سُطِحتْ فَذَكِّرْ إنما أنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ١٧، ٢١]. وقال تعالى: ﴿أفلَمْ يَسيروا فِي الأرْضِ فَيَنْظُروا﴾[محمد: ١٠]. الآية والآيات في الباب كثيرةٌ. ومِنْ الأحَاديث الحديث السَّابق:

«**الْكَيِّس مَنْ دَانَ نَفْسَه**»[1].

---

(١) تقدم تخريجه برقم (٦٦).

١٠- باب في المبادرة إلى الخيرات

وحثّ من توجّه لخير على الإقبال عليه بالجدّ من غير تردّد

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[البقرة: ١٤٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران: ١٣٣].

وأما الأحاديث:

الحديث رقم (٨٧)

٨٧- **فالأوَّل:** عَنْ أبي هريرة رضي الله عنه أن رسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قال: «**بادِروا بالأعْمالِ الصَّالِحةِ، فستكونُ[١] فِتَنٌ كقطعِ اللَّيلِ المُظْلمِ يُصبحُ الرجلُ[٢] مؤمناً ويُمْسِي كافراً، و[٣] يُمسِي مُؤْمناً ويُصبحُ كافراً، يبيع دينه بعَرَضٍ من الدُّنْيا**» رواه مسلم[٤].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

بادروا بالأعمال: سابقوا وسارعوا[٥].

كقطع الليل المظلم: قطع الليل: طائفة منه وجزء، أراد فتناً مظلمة سوداء؛ تعظيماً لشأنها[٦].

عَرَض من الدنيا: العَرَض: متاع الدنيا وحُطامها قلّ أو كثر[٧].

---

(١) قوله: (الصالحة، فستكون) لا يوجد عند مسلم، ولفظه: (بادروا بالأعمال فتنًا).

(٢) عند مسلم زيادة: (فيها).

(٣) لفظ مسلم: (أو) بدل الواو.

(٤) برقم (١١٨/١٨٦). أورده المنذري في ترغيبه (٤٩١١).

(٥) المفصح المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٥١.

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق ط ع).

(٧) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والوسيط في (ع ر ض).

الشرح الأدبي

تتصاعد من كلمات هذا الحديث أشعة كالشظايا تتناثر في فضاءات النفس، وتنذر بالكثير من الشهب التي ستصيب الذين لم يأخذوا حذرهم، ولم يبادروا بفعل الصالحات المنجِّيات من الأعمال، ويتصدر هذا الحديث باب المبادرة إلى الخيرات، والإقبال على الخير بجد من غير تردد.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث المنذر الذي ينبه الناس إلى عدم الاستكانة، وعدم الغفلة.

ويبدأ الحديث بفعل الأمر الجماعي "بادروا بالأعمال الصالحة" وهذا الأمر كلمة واحدة، ولكنها تتوجه إلى الملايين من أمة الإسلام في كل زمان ومكان، والأمر للوجوب، والمبادرة هي الإسراع والتنفيذ، والأعمال الصالحة، ما مقياسها، وما حدودها، وما شروطها؟ إنها كلمة موجزة، ولكنها كالشمس تصدر أشعتها في كل مكان، وتشمل بآثارها كل المنجزات في أي زمان، فالأعمال الصالحة تتسع لتشمل كل ما يقوم به المؤمن من إنجاز دنيوي يكسبه قوة علمية واقتصادية وحضارية، وكل ما يلتزم من أداء العبادات وجميع التكاليف الشرعية: في ظل إخلاص النية، وسلامة القصد، وقوة الإرادة.

والقسم الثاني من الحديث تشخيص وتوصيف لما سيحدث من فتن تذر الحليم حيران، ولذلك جاء التعبير بالفعل المضارع المقترن بالسين "ستكون" ليدل على ما سيحدث في المستقبل من مفاجآت وأهوال. واختيار المادة اللغوية "تكون" له أثر في تأكيد وقوع هذه الفتن، فهي كائنة وثابتة وليست توقعاً أو ظناً، وإنما هي حقيقة كائنة، وعلى الأمة جميعها اليقظة، والمبادرة بالأعمال الصالحة، وتنكير كلمة، "فتن" دلالة على عدم تحديد نوع هذه الفتن أو مكانها، وإنما هي عامة شائعة: لاندري من أين تأتي، ولا كيف تقع، والمادة اللغوية "فتن" تؤكد الخطر الذي تحدثه "الفتن".

ويصور المصطفى ﷺ الفتن كأنها قطع الليل المظلم، وما أروع هذا التشبيه، وما أصدقه، لأنه ينبئ عن توالي الفتن وتجددها: فتن السراء، وفتن الضراء، وهي تحجب

الرؤية الصحيحة، وتعطل الفكر الصائب وتقود الإنسان إلى القلق والاضطراب، ومن أقسى مظاهر هذه الفتن التحول من الإيمان إلى الكفر وهو يحدث للذين لم يبادروا بالأعمال الصالحة؛ فالشيطان يفتنهم في دينهم، ويزين لهم الشهوات؛ فيبيعون دينهم بمتاع الدنيا القليل. والطباق بين الزمنين "يصبح ويمسي" وبين الصفتين "المؤمن والكافر" يحدث مقابلة في الموقف تدعو للتأمل واليقظة والحذر والحرص على النجاة.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: أهمية المبادرة إلى الأعمال الصالحة.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: الحذر والاحتراز من الفتن.

خامساً: من أساليب الدعوة: التشبيه.

سادساً: من تاريخ الدعوة: وقوع الفتن.

سابعاً: من واجبات الداعية: تحذير المدعوين من الفتن.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر:

من أساليب الدعوة الناجحة أسلوب الأمر، وقد جاء في الحديث حيث أمر النبي ﷺ وحث على اغتنام الأعمال الصالحة قبل ظهور ما يمنعها[١] قائلاً: (بادروا بالأعمال)، منتهجاً في إرشاده أسلوب الأمر لما فيه من لفت نظر المدعو إلى أهمية المأمور به، وعدم التفريط به.

ويأتي الأمر في القرآن والسنة لتعظيم شأن المأمور به، وتنبيهاً على وجوب الوفاء به وعدم الإخلال بمقتضاه تحقيقاً لعبودية الله وطاعته[٢]، ومن أوامر القرآن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٣].

---

(١) تطريز رياض الصالحين، فيصل بن عبد العزيز آل مبارك ص ٨٣.

(٢) العهد والميثاق، د. ناصر بن سليمان العمر ص ٥١.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢١.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: أهمية المبادرة إلى الأعمال الصالحة:

لقد أرشد النبي ﷺ المؤمنين وحثهم على المبادرة إلى الأعمال الصالحة فقال: (بادروا بالأعمال، فستكون فتن كقطع الليل المظلم) أي قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة[1]، وفائدة المبادرة بالعمل إمكانه قبل شغل البال والحشد بالفتن، وقطعها عن العمل[2].

وقد ورد الأمر بالمسارعة والمسابقة في كثير من آيات القرآن منها قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[3]، وقوله: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[4]، ففي هذه الآية ندب الله عباده إلى المسابقة إلى ما يوجب المغفرة من التوبة والعمل الصالح فإن ذلك سبب الجنة، فقال "سابقوا" أي: سارعوا مسارعة السابقين بالأعمال الصالحة[5]، وقد طبق السلف الصالح ما جاء في الآية من المسابقة تطبيقاً عملياً في كل شيء.

قال ابن رجب الحنبلي: (وفي قوله: "سابقوا إلى مغفرة من ربكم"، قال مكحول: التكبيرة الأولى مع الإمام، وقال غيره: التكبيرة الأولى والصف الأول[6]، قال الشوكاني: وهذا من جملة ما تصدق عليه الآية صدقاً شمولياً أو بدلياً)[7].

ثالثاً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

جاء هذا الأسلوب ضمنياً في الحديث حيث أمر النبي ﷺ بمبادرة الأعمال الصالحة ويحمل الأمر في مضمونه ترهيباً من تأخير العمل الصالح خشية أن يحول بينه

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٦٨، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٥٢/١٠.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٤٠٥/١.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٣٣.

(٤) سورة الحديد، آية: ٢١.

(٥) فتح القدير، الشوكاني ١٧٥/٥.

(٦) تفسير ابن رجب الحنبلي ٣٨٦/٢.

(٧) فتح القدير، الشوكاني ١٧٥/٥.

وبينه بما يحدث من الفتن، والترهيب من أساليب الدعوة المؤثرة في المدعوين، فكما تقاد النفس عن طريق الرغبة تقاد عن طريق الرهبة[١].

وقد وصف الله عباده بالخوف والرهبة منه وأنهم في عباداتهم وتوجههم إلى ربهم يجمعون بين الخوف والرجاء، قال تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٢]، وقد أمر سبحانه باستحضار جانب الخوف من الله خاصة في العبادة، قال تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾[٣]، قال مجاهد: (من القنوت: الركوع والخشوع وغض البصر، وخفض الجناح من رهبة الله، وبين الله تبارك وتعالى أن الرهبة من الله وخشية جانبه إنما يكون نتاجاً للعلم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٤]، قال قتادة: كفى بالرهبة علماً)[٥].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: الحذر والاحتراز من الفتن:

لقد حذر النبي ﷺ من الفتن، وأمر بالتسلح لها والاعتضاد بالعمل الصالح، خشية فوات العمل الصالح على الإنسان، ومن ناحية أخرى لا تتقلب عليه الفتن كهذا الإنسان الذي إذا ما نزلت الفتن به يصبح مؤمناً ويمسي كافراً أو عكسه، فقال ﷺ: "بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا"، أي: سابقوا بالأعمال الصالحة هجوم المحن المانعة منها، السالبة لشرطها، المصحح لها الإيمان، كما قال: "يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً"، ولا إحالة ولا بُعد في حمل هذا الحديث على ظاهره؛ لأن المحن والشدائد إذا توالت على القلوب أفسدتها بغلبتها عليها، وبما تؤثر فيها من

---

(١) مع الله "دراسات في الدعوة والدعاة"، محمد الغزالي ص ٣١٦.

(٢) سورة السجدة، آية: ١٦.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٣٨.

(٤) سورة فاطر، آية: ٢٨.

(٥) جامع البيان، الطبري ١/١٩٩.

القسوة، ومقصودُ هذا الحديث الحض على اغتنام الفرصة، والاجتهاد في أعمال الخير والبر عند التمكن منها قبل هجوم الموانع.

وقوله: "يبيع دينه بعرض من الدنيا"، عرض الدنيا بفتح العين والراء: هو طمعها وما يعرض منها، ويدخل فيه جميع المال. قاله الهروي. فأما العرض بإسكان الراء: فهو خلاف الطول، ويقال على أمور كثيرة، والعرض بكسر العين وسكون الراء: هو نسب الرجل وجسمه وذاته. ومقصود هذا الحديث الأمر بالتمسك بالدين، والتشدد فيه عند الفتن، والتحذير من الفتن، ومن الإقبال على الدنيا وعلى مطامعها"[١].

وقال النووي في شرح الحديث: (وصف النبي ﷺ نوعاً من شداد تلك الفتن وهو أن يمسي مؤمناً ثم يصبح كافراً أو عكسه، وهذا لعظم الفتن ينقلب الإنسان في اليوم الواحد هذا الانقلاب)[٢].

"فلا تتباطأ في العبادة ولا تتغافل عن الأعمال الصالحة ولا تُفرط في ساعات الفراغ، بل استغلها فيما يقرب إلى الله من ذكر أو عبادة، فإنك لا تدري ما يحدث في المستقبل، إن الأيام قد تتغير والظروف قد تتبدل، والفتن قد تزداد حلكتها، ويشتد سوادها، فلا يتبين فيها الإنسان وجه الحق، أو لا يستطيع الصبر فيها على الحق، بل قد ينحرف عن دينه، ويكفر بعد إيمانه انسياقاً مع المغريات، وخوفاً من تحمل التبعات والمشقات، وقد يبيع الإنسان بعض أمور الدين في سبيل الكسب المادي، فيغش أو يخون أو يغدر أو يستغل، ليجمع الدنيا ويخسر دينه وليحقق أسباب الهناء المادي الجسدي على حساب روحه ونفسه ودينه وآخرته. فلنحذر الفتن ولنستغل أوقات الأمان"[٣].

خامساً- من أساليب الدعوة: التشبيه:

استعمل النبي ﷺ هذا الأسلوب حيث شبه الفتن بقطع الليل المظلم، فقال: "بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم" فأخبر أنه ستوجد فتن كقطع الليل المظلم،

---

(١) المفهم، القرطبي ١/٣٢٦.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٨.

(٣) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ص ٩٤.

يعني أنها مدلهمة مظلمة لا يرى فيها النور -والعياذ بالله- ولا يدري الإنسان أين يذهب؟ يكون حائراً ما يدري أين المخرج؟)[١]، فالتشبيه يقرب المعاني ويضع صورتها مثيرة لدى المستمع[٢]، ويشبه الأمور المعنوية الخفية بأمور محسوسة تقربها للأذهان بل تكاد تظهرها للعيان[٣].

فضرب الأمثال من وسائل التربية التي اعتبرها الشرع الحنيف وأكثر القرآن من ذكرها، كما قال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[٥]، (فمن تدبير الله لعباده أن ضرب لهم الأمثال من أنفسهم لحاجتهم إليها ليعقلوا بها فيدركوا ما غاب عن أبصارهم وأسماعهم الظاهرة فمن عقل الأمثال سماه الله تعالى في كتابه عالماً)[٦]، قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾[٧].

سادساً- من تاريخ الدعوة: وقوع الفتن:

إن العلم بتاريخ الدعوة يظهر للإنسان ثقل وحجم الشيء الذي يخبر به، ترغيباً أو ترهيباً، فيكون أدعى ما يكون إلى الاستجابة، ومما ورد الإشارة إليه في الحديث وقوع الفتن، قال ابن عثيمين: (والفتن منها ما يكون في الشبهات وهي كل فتنة تبنى على جهل ومن ذلك ما حصل من أهل البدع، ومنها ما يكون من الشهوات بمعنى أن الإنسان يعرف أن هذا حرام ولكن يفعله استجابة واتباعاً لهوى نفسه)[٨]، بل يصل

(١) شرح رياض الصالحين ٢٨٩/١.
(٢) انظر: الدعوة الإسلامية "أصولها ووسائلها"، د. أحمد أحمد غلوش، ص ٢٥٥.
(٣) انظر: تذكرة الدعاة، البهي الخولي، ص ٩٣.
(٤) سورة النور، آية: ٣٥.
(٥) سورة إبراهيم، آية: ٤٥.
(٦) الأمثال من الكتاب والسنة، أبي عبدالله محمد بن علي الحكيم الترمذي ص ١٦ - ١٧.
(٧) سورة العنكبوت، آية: ٤٣.
(٨) انظر: شرح رياض الصالحين ٢٨٧/١ - ٢٨٨.

الحال بالبعض إلى أن يتنازل عن دينه أو شيء منه مقابل عرض من أعراض الدنيا كما في الحديث: (يبيع دينه بعرض من الدنيا).

سابعاً- من واجبات الداعية: تحذير المدعوين من الفتن:

إنه مما يجب على الداعية تجاه المدعوين أن يحذرهم من الفتن، وأن يبين لهم ماهيتها، وسبل البعد عنها واجتنابها، وأن يدعوهم إلى عدم التلبس بأسبابها ووسائلها، حتى يكون المدعوون على بينة منها فيأخذوا حذرهم نتيجة تحذير الداعية لهم تنفيذاً لأمر الله عز وجل: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1]، واقتداءً برسول الله ﷺ الذي كثيراً ما حذر من الفتن، وبيّن كيفية التعامل معها إذا وقعت، ومن ذلك ما جاء في الحديث الذي معنا: "بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم"، ومن ذلك أيضاً ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ستكونُ فِتَنٌ القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائم خيرٌ منَ الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي، مَن تَشَرَّفَ لها تَستشرِفْه، فَمن وَجَدَ ملجأً أو معاذاً فَليَعُذْ بِهِ))[2]، "أي: من وجد ملجأ يلتجئ إليه من شرها أو معاذاً فليعتزل فيه ليسلم من شر الفتن"[3].

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٢.

(٢) أخرجه البخاري ٧٠٨٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١٣/٣٤.

الحديث رقم (٨٨)

٨٨- **الثَّاني:** عنْ أبي سِرْوَعَةَ بكسرِ السين المهملةِ وفتحها عُقبةَ بنِ الْحارِثِ ﷺ قال: صليت وراءَ النَبيِّ ﷺ بالمدينةِ الْعصْرَ، فسلَّم ثُمَّ قَامَ مُسْرعاً، فتَخَطَّى رِقابَ النَّاسِ إلى بعض حُجَرِ نسائِهِ، فَفَزِعَ النَّاس من سرعَتِهِ، فخرج عَليهِمْ، فرأى أنَّهُمْ قدْ عَجِبوا منْ سُرْعتِه، قالَ: «**ذكرتُ شيئاً من تبْرٍ عندَنا، فكرِهْتُ أن يحبسَنِي، فأمرْتُ بقسْمتِه**» رواه البخاري[١].

وفي رواية له[٢]: «**كنْتُ خلَّفْتُ في الْبيتِ تِبراً من الصَّدقةِ، فكرِهْتُ أنْ أُبَيِّتَه**».

ترجمة الراوي:

أبو سروعة النوفلي: وهو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف القرشي المكنى بأبي سروعة النوفلي، وسروعة ضبطها بفتح السين وإسكان الراء عند الأكثر، وقيل بكسر السين مع إسكان الراء. وهو من عداد أهل الحجاز.

وقد اختلط نسبه على البعض فظنوه عقبة بن عامر، وهذا ليس بصحيح كما جزم الكثير، فهو ليس هو وإنما هو أخو عقبة بن عامر لأمه.

وهو الذي قتل خبيباً بن عديّ، ثم شاء الله له بعد ذلك الهداية فأسلم عام الفتح، مات في خلافة الزبير[٣].

غريب الألفاظ:

تَخَطَّى رقاب الناسِ: مشى خُطْوَةً[٤] قاطعًا صفوف المسلمين بعد صلاتهم.

---

(١) برقم (٨٥١).

(٢) رواها البخاري (١٤٣٠) وزاد في آخرها: (فقسمته).

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (٨١٨)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (١٣١/٦، ١٣٢)، الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (٩١٩)، (١٤٨١)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (٣١٧/٨)، تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (١٢١/٣، ١٢٢)، (٥٢٦/٤).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (خ ط و).

التبر: الذهب والفضة قبل أن يُضربا دنانير ودراهم، وقد يُطلق على غيرهما من المعدنيات كالنحاس والحديد والرصاص، وأكثر اختصاصه بالذهب[١].

يحبسني: أي يشغلني التفكر فيه عن التوجه والإقبال على الله تعالى[٢].

الشرح الأدبي

هذا موقف عظيم من مواقف النبوة، ومشهد جليل من مشاهد الرسالة، لا ينسب في مقام العظمة والورع إلا لنبي، ولا يشار إليه في سياق التفرد والقدوة إلا لرسول يبلغ عن ربه.

ومحمد ﷺ، هو المثل الأعلى في كل شيء، في الأخلاق، ونقاء الأصول، والشجاعة، والصدق، والفطانة، والبيان المشرق، والسلوك الأمثل، والعطاء والجود والكرم. وقد خلق محمد بن عبدالله -كما يقول العقاد- ليكون رسولاً مبشراً بدين، وإلا فلأي شيء خلق؟ ولأي عمل من أعمال الحياة ترشحه كل هاتيك الصفات والتوفيقات، وكل هاتيك المناقب والصفات؟ وما من أحد قد أعد في هذه الدنيا لرسالة دينية إن لم يكن محمد قد أعد لها أكمل إعداد[٣].

وهذا الحديث يصور موقفاً عملياً من مواقف الأسوة الحسنة التي يضيء بها رسول الله ﷺ حياة كل مسلم، ويضع أمامه النموذج الأمثل للسلوك الإسلامي القويم.

فالصلاة مناجاة بين العبد وربه، ولكن آثارها تضبط السلوك، وتنهي عن الفحشاء والمنكر، وهذا الأثر الإيماني في تقويم السلوك: هو الدرس الذي نتعلمه من هذا الموقف العظيم، ويروي عقبة بن الحارث وتأتي روايته لهذا الموقف في صيغة الأفعال الماضية، لأنه يسرد حدثاً من الأحداث المؤثرة التي لا تنساها الذاكرة الإسلامية، فالرسول من صفاته التريث والسكينة والهدوء، فلماذا اليوم يصلي ثم يقوم مسرعاً ويتخطى رقاب الناس؟ أمر يدعو للعجب، فأي أمر حدث؟ ولنتأمل هذه الأفعال: "صليت، فسلم، ثم قام

---

(١) رياض الصالحين ٨٦، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ت ب ر).

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٢/٣٩٣.

(٣) عبقرية محمد للعقاد، وانظر: مطلع النور للعقاد، المجلد السابع الأعمال الكاملة، ص ٢١٥-٢١٦.

أو فقام، فتخطى رقاب الناس ففزع الناس، فخرج، فرأى، فقال، فكرهت فأمرت إن الأفعال الماضية المتوالية وحرف العطف، الفاء، يدلان على سرعة الحركة، وعلى المبادرة المصحوبة بالنية الخالصة، والعمل الصالح. ولنتأمل هذه العبارة "فتخطى رقاب الناس" وهو رسول الله ﷺ و"تخطى" تعبير يحدد أن الناس ما زالوا جالسين، بعد انتهاء الصلاة للدعاء وللذكر، أما إذا كانوا واقفين فيقال خرق الصفوف، لكل من يمشي بين الناس.

وكان إسراع النبي ﷺ ليعلم الأمة الإسراع في فعل الخير، ويفسر الرسول ﷺ هذا الموقف الذي أفزع الناس بأنه ذكر بعض أموال الصدقة لم يقسم، فخاف أن يشغله ذلك عن التوجه والإقبال على الله سبحانه وتعالى، والعطف بالفاء في كل جمل الحديث يومئ إلى سرعة الحركة، وحرص الرسول ﷺ على تقسيم الصدقة، يقول: "فكرهت أن أبيته" أي: أتركه في البيت ولا أعطيه لمستحقيه، إنه درس في القيادة والمسؤولية والورع والتقوى، فهل يتعلم ولاة أمور الإسلام؟ وهل يستيقظون؟.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: حكم المكث في المسجد بعد الصلاة، وقد ذكر الفقهاء[1] أن المكث بعد الصلاة ليس بواجب، وإن كان مستحباً المكث فيه قليلاً بعد الفرائض.

الثاني: حكم تخطي الناس في المسجد، وقد ذكر الفقهاء[2] أن التخطي يختلف حكمه باختلاف الأحوال فهو في يوم الجمعة جائز للإمام، إن لم يكن له طريق غيره،

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٢/٣٣٧، والتاج والإكليل ٢/٤٣٧، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ٢/٣٦٥، وتحفة المحتاج ٢/١٠٧.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٢/٣٣٧، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي ١/٢٠٣، والأم، الإمام الشافعي ١/٢٢٨، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤/٤١٨ وما بعدها، والمغني، ابن قدامة ٢/١٠٠، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي ٢/٤١٠، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١١/٤٧.

وأما غير الإمام فقد ذكر الحنفية والمالكية: أنه يجوز لمن رأى فرجة أن يتخطى إليها ما لم يؤذ أحداً، ويجوز تخطي رقاب من يجلسون على باب المسجد، أما التخطي للحاجة كأن جلس في مكان، أو بدت له حاجة وأراد التخطي لها فهو مباح في الجمعة وغيرها من الصلوات.

الثالث: حكم التفكير في الصلاة في أمر لا يتعلق بها، وقد ذكر الفقهاء(١) أن التفكير في الصلاة في أمر لا يتعلق بها لا يفسدها ولا ينقص من كمالها وإن كان ذلك مكروهاً.

الرابع: إنشاء العزم في أثناء الصلاة على الأمور الجائزة لا يضر(٢).

الخامس: حكم الاستنابة مع القدرة على المباشرة، وقد ذكر الفقهاء(٣) أن العبادات المالية المحضة، كالزكاة، والصدقات، والكفارات تجوز فيها الاستنابة سواء مع القدرة على المباشرة أو العجز عنها، أما العبادات البدنية المحضة، كالصلاة، والصيام فلا تجوز فيها الاستنابة حال الحياة.

المضامين الدعوية

أولاً: من واجبات الداعية: المسارعة في التحلل من المسؤوليات وأداء الأمانات.

ثانياً: من صفات الداعية: التفرس في أحوال المدعوين.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: أهمية إبراء الذمة.

أولاً- من واجبات الداعية: المسارعة في التحلل من المسؤوليات وأداء الأمانات:

إن المسارعة في التحلل من المسؤوليات وأداء الأمانات أمر بالغ الأهمية ويستوجب المسارعة

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٢/ ٣٣٧، وشرح الخرشي ١/ ٢٩٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٢/ ٣٣٧.

(٣) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي ٢/ ٨٥، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي ٢/ ٥٤٣، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي ٢/ ٦٣، ٩٤، وأنوار البروق ٢/ ٢٠٥، وفتح الباري، ابن حجر ٢/ ٣٣٧، وقواعد الأحكام ٢/ ١٧٢، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي ٥/ ٣٦٠، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢/ ٣٣٤.

إليه، وهذا واضح في الحديث من خلال مسارعته ﷺ لدرجة فزع منها الناس، فكما روي عن عقبة: (صليت وراء النبي ﷺ بالمدينة العصر، فسلم ثم قام مسرعاً فتخطى رقاب الناس إلى بعض حجر نسائه، ففزع الناس من سرعته فخرج عليهم، فرأى أنهم عجبوا من سرعته فقال: "ذكرت شيئاً من تبر عندنا فكرهت أن يحبسني فأمرت بقسمته"، وهذا الذي وقع للنبي ﷺ من جنس ما كان يقع لعمرَ؛ فإن مال الصدقة تشرعُ المبادرة بقسمته بين أهله ومستحقيه، فكان من شدة اهتمام النبي ﷺ بذلك يتذكره في صلاته، فيقوم عقب ذلك مسرعًا حتى يقسمه بين أهله. وهذا كله من اجتماع العبادات وتداخلها، وليس هو من باب حديث النفس المذموم[1]، وقد أمر الله سبحانه وتعالى بأداء الأمانات إلى أهلها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾[2].

يقول ابن كثير رحمه الله ي هذه آية: (يخبر الله تعالى أنه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها، وهذا يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان، من حقوق الله عز وجل على عباده، من الصلوات والزكوات وغيرها، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك مما يأتمنون به، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أُخذ منه ذلك يوم القيامة)[3]، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ))[4].

إن الأمانة من علامات استقامة الفطرة وسلامتها من اتباع الهوى، والأمانة لا تقتصر عند مجرد الحفاظ على الودائع وردّها إلى أصحابها وإنما يتسع معناها لأكثر من ذلك فتشمل جميع وظائف الدين والحياة قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٤٣٤/٦.

(٢) سورة النساء، آية: ٥٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٣٨/٢ - ٣٣٩.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٨٢. هذا والشاة الجلحاء هي التي انحسر شعرها من جانبي رأسها، الوجيز في (ج ل ح)، والقرناء هي التي التقى طرفا حاجبيها، الوجيز في (ق ر ن).

وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[١].

قال القرطبي رحمه الله (والأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال)[٢]، كما يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾[٣]، (والأمانة والعهد: يجمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولاً وفعلاً، وهذا يعم معاشرة الناس، والمواعيد، وغير ذلك. وغاية ذلك حفظه والقيام به)[٤].

وحين يعم التعامل بالأمانة يؤدي الذي اؤتمن أمانته، سواء اؤتمن على قنطار أو دينار، لأن الله أمر بأداء الأمانات إلى أهلها، ونهى عن خيانة الله والرسول، وخيانة الأمانات، وجعل من صفات المفلحين أنهم يرعون عهودهم وأماناتهم. والنفوس البشرية بفطرتها تميل إلى الناصح الأمين، وتثق بالقوي الأمين، حتى غير المسلمين يؤثرون الأمين، فقد روي في قصة أهل نجران لما وافقوا على دفع الجزية أنهم قالوا: (إنّا نعطيك ما سألتَنا، وابعَثْ معنا رجُلاً أميناً، ولا تبعَثْ معنا إلاّ أميناً. فقال: لأبعثَنَّ معكم رجلاً أميناً حقَّ أمين)[٥]، وأرسل معهم أبا عبيدة.

إن من أغلى ما يرزقه الله للعبد، ولا يحزن بعده على أي عرض من الدنيا، ما جاء في الحديث: ((أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلاَ عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا: صِدْقُ الْحَدِيثِ، وَحِفْظُ الأَمَانَةِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ، وَعِفَّةُ مَطْعَم))[٦]، فالأمانة ركن من هذه الأركان الأخلاقية الأربعة، التي لا يعدلها شيء في الدنيا، بل قد تكون سبباً في إقبال الدنيا على العبد لما يجده الناس فيه.

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٧٢.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣٠٨/٤.

(٣) سورة المؤمنون، آية: ٨.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي مج ٧٣/١٢/٦.

(٥) أخرجه البخاري ٤٣٨٠.

(٦) أخرجه أحمد ١٧٧/٢ رقم ٦٦٥٢، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٧٣٣، وصحيح الجامع ٨٨٦.

والأمانة صفة مميزة لأصحاب الرسالات، فقد كان كل منهم يقول لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[(١)].

وكانت تلك شهادة أعدائهم فيهم، كما جاء في حوار أبي سفيان وهرقل، حيث قال هرقل: (سألتُك ماذا يأمُرُكم؟ فزعمتَ أنهُ يأمرُ بالصلاةِ والصِّدق والعفاف والوفاءِ بالعَهدِ وأداءِ الأمانة، قال: وهذه صِفَةُ نبيّ)[(٢)]، وفي موضع آخر في صحيح البخاري: (..وسألتُكَ هل يَغدِرُ؟ فزَعمتَ أن لا، وكذلكَ الرُّسُلُ لا يغدرون...)[(٣)].

ولئن كانت هذه صفة أصحاب الدعوات فإن أتباعهم كذلك متميزون ولذلك اقترن تعريف المؤمن بسلوكه المميز، حيث قال ﷺ: ((وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ))[(٤)].

وإذا تمكنت صفة الأمانة من صاحبها تعامل بها مع القريب والبعيد، والمسلم، والكافر. يقول ابن حجر: (الغدر حرام باتفاق، سواء كان في حق المسلم أو الذمي)[(٥)]، وكذلك حال المؤمن حتى مع من عُرف بالخيانة، واشتهر بالغدر كما في الحديث: ((أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ))[(٦)]، وذلك لأن خطورة السقوط في الخيانة، وفساد الفطرة بنقض العهد، أشد من مجرد مقابلة الخائن بمثل فعله، ولأن السقوط مرة قد تستمرئه النفس وتواصل في منحدر الخيانة.

ثانياً- من صفات الداعية: التفرس في أحوال المدعوين:

إن من الصفات العقلية التي ينبغي أن تتوفر في الداعية الكياسة والفطنة والفراسة وغيرها، وفي الحديث: (فخرج عليهم فرأى أنهم قد عجبوا من سرعته)، ففطنته ﷺ

---

(١) سورة الشعراء، آية: ١٦٢.

(٢) أخرجه البخاري ٢٦٨١.

(٣) أخرجه البخاري ٢٩٤١.

(٤) أخرجه الترمذي ٢٧٧٥، والحديث حسن صحيح انظر: (صحيح سنن الترمذي ٢١١٨).

(٥) فتح الباري، ابن حجر ٢١٣/٧.

(٦) أخرجه أبو داود ٣٥٣٥، والحديث حس صحيح، انظر: (صحيح سنن أبي داود ٣٠١٩).

لذلك الأمر: جعلته يزيل هذا العجب في حينه، بقوله ﷺ: "ذكرت شيئًا من تبر عندنا فكرهت أن يحبسني، فأمرت بقسمته" والصفات العقلية والنفسية تجعل الداعية أهلاً لدعوته، واطمئنان الناس إليه، قال الأبشيهي: (قد يخص الله تعالى بالطاقة الخفية من يشاء من عباده فيفيض عليه من خزائن مواهبه ورزانة عقله وزيادة معرفة)[١]، وذلك مما يرفه حسه ويدقق نظره، فالفراسة منحة ربانية يمنحها الله من يشاء من عباده، وهي من صفات الكمال البشرى للإنسان.

وبالفطنة والفراسة تتميز القدرات الفردية، وتتجلى القدرات العقلية عند الداعية ويتميز به على غيره، وسلفنا الصالح امتلأ تاريخهم بالنماذج التي حباها الله الفطنة وأتحفها بالفهم والفقه، ومن الأمثلة على ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان عمرُ بن الخطابِ رضي الله عنه يُدني ابنَ عبّاسٍ، فقال له عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ: إنَّ لنا أبناءً مثلَهُ، فقال : إنهُ من حيث تعلم، فسأل عمرُ ابنَ عبّاسٍ عن هذه آية: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾[٢] فقال: أجلُ رسولِ اللهِ ﷺ أعلَمهُ إياه، قال: ما أعلم منها إلا ما تعلم)[٣].

إن إيضاح الحقائق وإزالة اللبس الذي يلحق بعض المدعوين في بعض المواقف له كبير الأثر في نجاح الدعوة، لما في الغموض واختلاط الأفهام من أثر سلبي للدعوة وفي الحديث تطبيق عملي لهذا: (فخرج عليهم فرأى أنهم عجبوا من سرعته، فقال: ذكرت شيئاً من تبر عندنا فكرهت أن يحبسني فأمرت بقسمته)، لذا ينبغي على الداعية أن يكون متهيئاً لأي موقف في كل لحظة [٤]، ويكون عنده من القدرة ما يزيل به اللبس ويكشف الغموض، ويصحح الأفهام.

---

(١) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٣١٢٥/٨.

(٢) سورة النصر، آية: ١.

(٣) أخرجه البخاري ٤٤٣٠.

(٤) مواقف الدعوة التعبيرية، د. عبدالله ناصح علوان، ص ١٣٤.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: أهمية إبراء الذمة:

إن إبراء الذمة أمام الله تعالى من أهم الأولويات التي يجعلها الإنسان نصب عينيه، ومن الأمور التي ينبغي المسارعة فيها، وكما نجد ذلك في الحديث: (فسلم ﷺ ثم قام مسرعاً فتخطى رقاب الناس إلى بعض حجر نسائه، ففزع الناس من سرعته فخرج عليهم فرأى أنهم قد عجبوا من سرعته، قال: ذكرت شيئاً من تبر عندنا فكرهت أن يحبسني فأمرت بقسمته)، قال ابن عثيمين: (وفي هذا الحديث المبادرة إلى فعل الخير وإبراء الذمة، فالإنسان لا يدري متى يفاجئه الموت فيفوته الخير)[1]، والإنسان ينبغي أن يكون كيساً فلا يجعل رقبته رهينة لأحد.

(١) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين ١/٢٩١ - ٢٩٢.

الحديث رقم (٨٩)

٨٩- **الثَّالث:** عن جابر رضي الله عنه قال: قال رجلٌ[1] للنبيِّ ﷺ يومَ أُحُدٍ: أرأيتَ إنْ قُتلتُ فأينَ أَنَا؟ قال: «فِي الْجنَّةِ» فألْقى تَمراتٍ كنَّ في يَدِهِ، ثُمَّ قاتل حتَّى قُتلَ. متفقٌ عليه[2].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

يوم أحد: أي غزوة أحد، وأحد: الجبل الذي كانت عنده الغزوة التي وقعت ٣هـ، وهو جبل أحمر بينه وبين المدينة المنورة قرابة ميل في شماليها، والميل يساوي ١٦٠٩م[3].

الشرح الأدبي

إن المبادرة في الخيرات من صفات المؤمن ومن سمات سلوكه في الحياة، ورسول الله ﷺ هو الأسوة الحسنة في هذا الميدان الذي يتسع ليشمل كل محاور الحياة وصولاً إلى الفوز بسعادة الدارين، العطاء الدنيوي، والنعيم الأخروي، والمبادرة إلى فعل الخيرات لا تُحْصر في العطاء المادي فقط، ولكنها تظل تتسامى، وتتسع في مجالاتها حتى تصل إلى ذروة العطاء، وهو الجود بالنفس، والإقبال على ميدان الجهاد، والقتال في سبيل الله من أجل إعلاء كلمة التوحيد، وحماية العقيدة، وصيانة الأعراض والأموال والأنفس.

---

(١) المعلوم أن عمير بن الحمام قتل يوم بدر وحديث مسلم ينص على ذلك "باب ثبوت الجنة للشهيد" وممن نص على ذلك الذهبي في تاريخه ص ٦٥ "المغازي" وقد أزال الحافظ ابن حجر هذا الإشكال فقال: "لم أقف على اسمه وزعم ابن بشكوال أنه عمير بن الحمام وسبق إلى ذلك الخطيب، ... لكن وقع التصريح في حديث أنس أن ذلك كان يوم بدر والقصة التي في الباب وقع التصريح في حديث جابر أنها كانت يوم أحد فالذي يظهر أنهما قصتان وقعتا لرجلين، فتح الباري، ابن حجر ٤٠٤٧.

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٤٦) واللفظ له، ومسلم (١٨٩٩/١٤٣). وسيكرره المؤلف برقم (١٣٢٣).

(٣) انظر: أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٢٣، وأطلس السيرة النبوية، د. شوقي أبو خليل ١١٩، والوسيط ٨٩٤.

والذين يقتلون في سبيل الله أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله.

ويشع هذا الحديث بأنوار الشهادة، وفيوضات العطاء، ونسائم التضحية في سبيل الله عز وجل من خلال ذلك الحوار القصير في معركة أحد، ورحى الحرب دائرة، والشهداء يشتاقون إلى الفردوس الأعلى، والمجاهدون المقاتلون يتشوقون إلى إحدى الحسنيين إما النصر، وإما الشهادة. ويوم أحد، كان يوم بلاء ومصيبة وتمحيص اختبر الله به المؤمنين ومحق به المنافقين، ممن كان يظهر الإيمان بلسانه، وهو مستخف بالكفر في قلبه، وكان يوماً أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته[1]، ومنهم حمزة بن عبدالمطلب، وعمرو بن الجموح وغيرهما.

ومن هؤلاء الذي أكرمهم الله بهذه الشهادة أيضاً ذلك الرجل الذي يقال إنه: عمير بن الحُمام بن الجموح بن حرام الأنصاري، وقيل: غيره.

هذا المسلم الشهيد يحاور المصطفى ﷺ ويسأله: أرأيت إن قتلت فأين أنا؟ فالسؤال عن المصير، وليس عن النجاة: فأي شجاعة هذه ؟ وأي إيمان بالله ورسوله يفوق ذلك؟، فيبشره المصطفى ﷺ بأنَّ مصيره "الجنة" ونعم المصير، ونعم الدار دار القرار.

ويبادر الرجل إلى الخير الحقيقي ولا ينتظر حتى ينتهي من أكل تمرات كن في يده، بل يسرع ويقاتل أعداء الإسلام يوم أحد وأصاب الكثيرين، وقاتل وقتل، ثم قُتِل، والتعبير بقوله: "حتى قُتل" يرشد إلى أنه ظل يقاتل وقتاً طويلاً، ويبلي بلاء حسناً في سبيل الله حتى مَنَّ الله عليه بالشهادة والفوز العظيم وأصبح مع الذين أنعم الله عليهم، ومن الذين شهد لهم رسول الله وبشرَّهم، حيث يروى أن رسول الله ﷺ لما أشرف على القتلى يوم أحد، قال: "أنا شهيد على هؤلاء، إنه ما من جريح في الله، إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمي جرحه، اللون لون دم، والريح ريح مسك، وانظروا أكثر هؤلاء جمعاً للقرآن، فاجعلوه أمام أصحابه في القبر"[2]، وعلى الرغم من هزيمة المسلمين في أحد فإن

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام ٣٤/٣.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، ١٠٣/٣-١٠٤، وانظر: البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤٣٣/٥-٤٣٤ فقد جمع المؤلف بين الحديثين فليرجع بتوسع.

الحق سبحانه وتعالى بشرهم بالنصر، وعدهم بالفوز والتأييد وصدق وعده، وهزم الأحزاب وحده، وكان مما أنزل الله تبارك وتعالى في يوم أحد من القرآن ستون آية من آل عمران، وفيها مواساة للمسلمين، وإرشاد إلى المنهج الصحيح، ومنها قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الاستفهام.

ثانياً: من آداب المدعو: السؤال والعناية بمصيره.

ثالثاً: من صفات المدعو: الحرص على المسارعة إلى بلوغ الجنة.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: فضل الجهاد في سبيل الله.

خامساً: من موضوعات الدعوة: فضل الصدق مع الله.

أولاً- من أساليب الدعوة: الاستفهام:

الاستفهام والبحث وراء المعلومة من الأساليب الدعوية الناجحة، وقد ورد هذا الأسلوب في الحديث في استفهام رجل للنبي ﷺ يوم أحد: (أرأيت إن قُتِلتُ فأين أنا؟) ففي أسلوب الاستفهام حرص على طلب العلم إضافة إلى ما يدل على الاستجابة للداعية وقبول دعوته.

ثانياً- من آداب المدعو: السؤال والعناية بمصيره:

إن من أهم ما ينبغي أن يتحلى به المؤمن من آداب الحرص على السؤال عما يعنيه في مصيره، وقد أعطانا هذا الرجل صورة حية لما ينبغي أن يكون عليه الإنسان من معرفة بأموره وعناية بمصيره: (أرأيت إن قُتِلتُ فأين أنا؟)، وهذا دليل على حرص الصحابة

(١) سورة آل عمران: ١٣٩-١٤١.

رضي الله عنهم على معرفة مصيرهم والعناية بمآلهم، وليس أدل على ذلك من حديث عائشة رضي الله عنها: أنه جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنك لأحب إلي من نفسي، وأحب إلي من أهلي، وأحب إلي من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإن دخلت الجنة خشيت ألا أراك. فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزلت الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[1])[2]؛ فالصحابة رضي الله عنهم كان من عاداتهم أنهم لا يفوتون الفرصة حتى يسألون النبي ﷺ، لأنهم يستفيدون من هذا علماً وعملاً، فإن العالم بالشريعة قد مَنَّ الله عليه بالعلم، ثم إذا عمل به فهذه مِنّة أخرى[3].

ثالثاً- من صفات المدعو: الحرص على المسارعة إلى بلوغ الجنة:

وردت الإشارة إلى ذلك في الحديث من خلال فعل ذلك الرجل: "فألقى تمرات في يده ثم قاتل حتى قتل"، دلالة على ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من حب نصر الإسلام والرغبة في الشهادة ابتغاء مرضاة الله[4]، وفي الحديث أيضاً الإرشاد إلى المبادرة بالخير، وألا يشغل عنه بحظوظ النفس[5]، وفي الحديث تطبيق عملي من هذا الصحابي الجليل لمثل قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[6]، وقوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[7]،أي: بادروا وسارعوا إلى ما يوجب المغفرة وهي الطاعة[8]، وقال:

---

(١) سورة النساء، آية: ٦٩.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط ٣٢٠٨، وقال الهيثمي في المجمع ٧/٧: "رجاله رجال الصحيح غير عبدالله بن عمران وهو ثقة".

(٣) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٢٩٣/١ - ٢٩٤.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٤١١/٧.

(٥) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢١٧.

(٦) سورة الحديد، آية: ٢١.

(٧) سورة آل عمران، آية: ١٣٣.

(٨) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٠٣/٤/٢.

﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[(١)]، بادروها[(٢)]، حرصاً على مصادفة الخير والإكثار منه[(٣)].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: فضل الجهاد في سبيل الله:

لقد أدرك الصحابة رضي الله عنهم فضل الجهاد، فحرصوا عليه، وسارعوا إلى ميادينه، وقد ورد في هذا الحديث ما يؤكد ذلك: (قال رجل للنبي ﷺ يوم أحد أرأيتَ إن قُتلتُ فأين أنا؟ قال: في الجنة، فألقى تمرات كنّ في يده، ثم قاتل حتى قتل)، فالجهاد ذروة الإسلام وقبته، ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة، كما لهم الرفعة في الدنيا فهم الأعلون في الدنيا والآخرة[(٤)]، ولبيان أهمية الجهاد ذكر القرآن أن الجهاد سبب للبقاء والعزة[(٥)]، فوصف المؤمنين بقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾[(٦)]، ودليل صدق الإيمان: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[(٧)]، والجهاد أجلّ القُرَب وأقدس العبادات لما فيه من الحفاظ على حق الله والتمكين لدينه.

خامساً- من موضوعات الدعوة: فضل الصدق مع الله:

إن الصدق مع الله من أرفع الدرجات وأعلى المراتب، فمن صدق الله صدقه الله، وفي الحديث ما يدلُ على صدق الرجل في طلب الشهادة حيث صدقه الله فأعطاه إياها، قال رجل للنبي ﷺ يوم أحد: "أرأيت إن قتلت فأين أنا؟ قال: في الجنة، فألقى تمرات كن في يده، ثم قاتل حتى قتل"، فإن صدق النية مع الله يبلّغ بالإنسان ثواب العمل حتى

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٤٨.

(٢) زاد المسير، أبو الفرج بن الجوزي ١٥٩/١.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤٤/٢/١.

(٤) زاد المعاد، ابن قيم الجوزية ٥/٣.

(٥) موسوعة نضر النعيم ١٤٨٨/٤.

(٦) سورة المائدة، آية: ٥٤.

(٧) سورة الحجرات، آية: ١٥.

وإن لم يدرك العمل، كما روى عن سهل بن حنيف عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: ((مَنْ سَأَلَ اللّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَّغَهُ اللّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ))[١][٢]. قال النووي: (والمعنى: إذا سأل الشهادة بصدق أعطي ثواب الشهداء وإن كان على فراشه، وفيه استحباب سؤال الشهادة واستحباب نية الخير)[٣].

وأخبر تعالى أن من صدقه فهو خير له فقال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾[٤] أي: فلو أخلصوا النية وصدقوا الله فيها لكان خيرًا لهم[٥].

وقد تكفل الله وأوجب على نفسه مِنَّةً وتفضلاً أن من خرج مجاهداً في سبيله صادقاً النية في ذلك أن يؤتيه إحدى الحسنيين إما دخولاً الجنة أو رجوعاً إلى أهله سالماً غانماً بما نال من أجر وغنيمة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((تَضَمَّنَ اللّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لاَ يُخْرِجُهُ إلاَّ جِهَاداً فِي سَبِيلِي، وَإِيمَاناً بِي، وَتَصْدِيقاً بِرُسُلِي. فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ. أَوْ أَرْجِعَهُ إلَىٰ مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ. نَائِلاً مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللّهِ، إلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ، لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ وَرِيحُهُ مِسْكٌ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلاَ أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، مَا قَعَدْتُ خِلاَفَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللّهِ أَبَداً. وَلَـٰكِنْ لاَ أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ. وَلاَ يَجِدُونَ سَعَةً. وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللّهِ فَأُقْتَلُ. ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ. ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ))[٦].

بهذه الصورة الرائعة يصور الرسول الكريم ﷺ أجر الغازي والمجاهد في سبيل الله، ذلك الإنسان الذي ضحى بنفسه وماله في سبيل رفعة شأن الدين، وإعزاز كلمة الله، وأي أجر أعظم بل أية منزلة أسمى من تلك المنزلة الرفيعة التي خص الله عز وجل

---

(١) أخرجه مسلم ١٩٠٩.

(٢) فقه السيرة، محمد الغزالي، ص ٢٠٩.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٢١.

(٤) سورة محمد، آية: ٢١.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣١٧/٧.

(٦) أخرجه البخاري ٣٦، ومسلم ١٨٧٦ واللفظ له.

بها المجاهدين في سبيله؟ حين قال عنهم: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ۝١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[١].

إنها الحياة الأبدية السرمدية في جنان الخلد ودار النعيم، هي بعض ما أكرمهم الله عز وجل به، عدا ما أعد لهم من الذكر الحسن في الدنيا، حيث تخلّد أسماؤهم في سجل الخالدين، فهم أحياء حتى بعد مماتهم، ذكرهم على كل لسان، وحبهم في كل قلب، وهذا هو السر في نهينا عن القول في الشهداء بأنهم أموات، لأن الله عز وجل خلّد ذكرهم، ويكفي ذلك شرفاً وفخراً لهم.. وقد بيّن هذا الحديث النبوي الشريف أن الله عز وجل قد تكفل بالجنة لمن جاهد في سبيل الله، مخلصاً عمله لله، مؤمناً برسله، مصدقاً بوعد الله تبارك وتعالى، وليس هذا الجزاء العظيم إلا للمجاهد الذي يبتغي من وراء جهاده إعلاء كلمة الله، وإعزاز شأن الدين، ولقد سئل الرسول ﷺ عن الرجل الذي يقاتل للشهرة ليعرف أنه شجاع، أو يقاتل للمغنم، أو يقاتل حمية لعشيرته فقال كلمته الرائعة المأثورة: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله...)[٢].

وقد ختم عليه الصلاة والسلام حديثه بالقسم بأنه لولا أن يقع المسلمون في ضيق وحرج، ولولا المشقة التي ستلحق بالمؤمنين لما تخلّف عن الخروج في غزوة من الغزوات أبداً، ولكنه لشفقته ﷺ على أمته ترك الخروج في بعض الغزوات.

ولقد تمنى صلوات الله وسلامه عليه أن يقتل في سبيل الله، ثم تعود إليه الحياة فيجاهد، ثم يقتل، وهكذا لما يعرف من ثواب الشهادة في سبيل الله؛ فأكرم به من قائد وزعيم.

اللهم اجعلنا ممن جاهد في سبيلك ابتغاء مرضاتك[٣].

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٦٩ - ١٧٠.

(٢) أخرجه البخاري ١٢٣، ومسلم ١٩٠٤.

(٣) من كنوز السنة، محمد علي الصابوني، ص ١٧٥ - ١٧٦.

الحديث رقم (٩٠)

٩٠- **الرابع:** عن أبي هُريرةَ ﷺ قال: جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ، فقال: يا رسولَ اللّهِ، أيُّ الصَّدقةِ أعْظمُ أجْراً؟ قال: «**أنْ تَصدَّقَ وأنت صحيحٌ شَحيحٌ تَخْشى الفقرَ، وتأْمُلُ الغنى، ولا تُمْهِلْ حتَّى إذا بلَغتِ الحُلقُومَ. قُلت: لفُلانٍ كذا ولفلانٍ كَذَا، وقَدْ كان لفُلان**» متفقٌ عليه[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

شحيح: بخيل[٢].

تمهل: تؤخر[٣].

الحلقوم: مجرى النفس، أي: إذا بلغت الروح الحلقوم حال الموت[٤].

الشرح الأدبي

إن المسلمين في تعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، والمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً.

وفي ظلال هذه المعاني تتضوأ كلمات هذا الحديث الشريف، ومن ألق البيان النبوي نقتبس بعض الأضواء الهادية الراشدة التي تتوهج بمعاني التكافل الاجتماعي.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث النبوي الكريم: وأول ما يدعو إلى التأمل في أسلوب هذا الحديث هو صيغة الحوار عن طريق السؤال والجواب، وهذه

---

(١) أخرجه البخاري (١٤١٩)، ومسلم (١٠٣٢/٩٣) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٥١١٤).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ش ح ح).

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والوسيط في (م هـ ل).

(٤) رياض الصالحين ٨٧.

الصيغة تموج بها كثير من أحاديث المصطفى ﷺ؛ لأن طبيعة الحديث أن يتكون من متحدث ومستمع، ومن أدوات تأثيره والتلاحم بين الطرفين الحوار والمناقشة، وكل حديث يعد رسالة توجيهية إرشادية لها أركانها التي تشارك في إقامة بنيانها اللغوي والدلالي والتأثيري، وهذه الأركان تمثل مقومات الخطاب الشرعي والأدبي حيث يتكون من: مُرْسِل، ومرسل إليه، وسياق، ورسالة، وهذه العناصر الأربعة يتضمنها كل حديث من أحاديثه ﷺ.

وهذا الحديث يبدأ بنداء صادق من أحد الصحابة، وقيل هو أبو ذر الغفاري رضي الله عنه، والنداء بحرف الياء وكأنه نداء للبعيد، ورسول الله ليس بعيداً عنه ولكن ذلك للمهابة والتوقير والتعظيم "يا رسول الله"، ثم بعد النداء يأتي الاستفهام الحقيقي عن المبادرة إلى الخير: وعن الصدقة التي تكون أعظم أجراً؟ وهذا السؤال ألا ينبئ عن البحث عن الأفضل؟ فليس كل من يتصدق يأخذ الثواب الكامل، ولذلك جاء أفعل التفضيل في تحديد نوع الصدقة الأكمل: "أعظم أجراً" فماذا قال النبي ﷺ؟ قال: "أن تصدق وأنت صحيح شحيح" والتضعيف في الفعل "تصدَّق" يوحي بثقل الأمر لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، والعرب يجعلون من الألفاظ صورة للأحداث، والطباق بين صحيح وشحيح، يوحي مع السجع بتآلف اللفظين، في تشخيص حالة المتصدق، لأن الشح غالب في حال الصحة، فإذا سمح فيها وتصدق كان أصدق في نيته وأعظم لأجره، بخلاف من أيس من الصحة ورأى مصير المال إلى غيره، فإن صدقته ناقصة بالنسبة إلى حالة الصحة[1].

والشح أعم من البخل، وقيل الشح بخل مع حرص، والطباق بين "الفقر والغنى" وبين "تخشى وتأمل" يصور موقفين يتحدان في حالة التصدق وهو الانتصار، على هاجس الفقر، ووهم الغنى، فما نقص مال من صدقة.

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١/ ٢٥٤.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم تصرفات المريض في المرض المخوف، وقد اتفق الفقهاء[1] على أن الشخص له حرية التصرف في ماله بالبيع والهبة والوصية وما يشاء في حال صحته، فإذا كان مريضاً مرضاً مخوفاً تعلقت حقوق الورثة بهذا المال، ومن ثم ينفذ من تصرفات المريض مايحتاج إليه في معيشته من مأكل ومشرب ودواء وغير ذلك، أما التصرفات الضارة بالورثة كالصدقات والعطايا فإنها تأخذ حكم الوصية، لا ينفذ منها ما يزيد عن الثلث، فإن تصرف تصرفاً نافعاً لأحد الورثة لم ينفذ منه شيء، لأنه يكون محاباة له ولا يصح احتسابه من الثلث لأن الوارث لا وصية له.

وفي هذا الحديث دليل على أن الصدقة في الصحة أفضل من الصدقة في المرض وإن كان لصدقة المرض ثوابها أيضاً.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب، والنهي.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: فضل الصدقة مع الصحة والشح.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: أهمية المبادرة إلى فعل الخيرات.

رابعاً: من واجبات الداعية: حث المدعوين على فعل الخير.

خامساً: من واجبات المدعو: السؤال عما ينفعه.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب، والنهي:

١- **السؤال والجواب:** حيث جاء في الحديث "أيُّ الصدقة أفضل" فأجاب ﷺ بـ"أن تصدق

---

(١) المبسوط، السرخسي ٢٧/٤، ٢٧/١٢، ٩٧، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني ١٣٣/٤، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي ١٥٥/٢، وحاشية الدسوقي ٤١٢/٤، وبلغة السالك للصاوي ٥٦٧/٤، ط دار المعارف، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري ١٧٧/٢، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ٢٠٨/٦، وإحكام الإحكام ٣٢١/٢، والمغني، ابن قدامة ١٠٠/٦، ٣٠٤/١٠، ٣٠٦، وشرح منتهى الإرادات ٥٩١/٢، وإعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم ٢٢٩/٣، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٣/٧.

وأنت صحيح شحيح" ومما لاشك فيه أن أسلوب السؤال والجواب من الأساليب الدعوية المهمة، لأنه يفتح قناة حوار بين الداعية والمدعو، ويصل فيه المدعو إلى الإجابة عن سؤاله مباشرة، ومن أمثلة هذا الأسلوب في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى﴾[2] ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾[3].

٢- **النهي**: حيث جاء في الحديث "ولا تمهل" أي الصدقة، وقد أفاد النهي في هذا الحديث خطورة تأخير التصدق والتسويف حتى فوات الأوان وهناك لا ينفع الندم.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: فضل الصدقة مع الصحة والشح:

حيث جاء في الحديث "أن تصدق وأنت صحيح شحيح" قال النووي: (ومعنى الحديث أن الشح غالب في حال الصحة، فإذا سمح فيها وتصدق كان أصدق في نيته، وأعظم لأجره، بخلاف من أشرف على الموت وآيس من الحياة، ورأى مصير المال لغيره فإن صدقته حينئذ ناقصة بالنسبة إلى حال الصحة والشح رجاء البقاء وخوف الفقر)[4].

وقال ابن حجر: (لما كانت مجاهدة النفس على إخراج المال مع قيام مانع الشح دالاً على صحة القصد، وقوة الرغبة في القربة، كان ذلك أفضل من غيره)[5].

ولقد جاءت النصوص الشرعية لتحث على الإنفاق والصدقة ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[6] وقوله سبحانه: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢١٩.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.

(٣) سورة الكهف، آية: ٨٣.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٥٤.

(٥) فتح الباري، ابن حجر ٣/٣٣٥.

(٦) سورة البقرة، آية: ٢٦١.

وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[١] وقوله سبحانه: ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾[٣].

وقد جعل الرسول ﷺ من يتصدق من السبعة الذين يظلهم الله في ظله ففي الحديث ((سَبعةٌ يُظِلُّهم اللهُ في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ: ...، ورجلٌ تَصدَّقَ بصدقة أخفاها حتى لا تَعلمَ شِمالُه ما تُنفِقُ يمينُه))[٤].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: أهمية المبادرة إلى فعل الخيرات:

حيث جاء في الحديث "حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان" ولا يخفى أن المسلم يجب عليه أن يبادر إلى الخيرات والعمل الصالح والصدقة فإنه لا يعرف أجله قال تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ﴾[٥] قال ابن كثير: (يحث الله عباده المؤمنين على الإنفاق في طاعته فكل مفرط يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ولو شيئاً يسيراً، يستعتب ويستدرك ما فاته، وهيهات! كان ماكان، وأتى ما هو آت، وكل بحسب تفريطه، والله عز وجل لا ينظر أحداً بعد حلول أجله وهو أعلم وأخبر بمن يكون صادقاً في قوله وسؤاله ممن لو رد لعاد إلى شر مما كان عليه)[٦].

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٢٦.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٧٧.

(٣) سورة الحديد، آية: ١٨.

(٤) أخرجه البخاري ٦٦٠، ومسلم ١٠٣١.

(٥) سورة المنافقون، آية: ١٠، ١١.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٣٢/٨.

والإنسان الحصيف يقدم لآخرته من العمل الصالح: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ﴾(١).

رابعاً- من واجبات الداعية: حث المدعوين على فعل الخير:

حيث وجه النبي ﷺ في الحديث إلى فضل الصدقة حال الصحة والشح "وهذا من الواجبات الملقاة على عاتق الداعية وهي: دلالة المدعوين على أبواب الخير وحثهم على فعله، وقد أمر الله أن يكون في الجماعة المؤمنة من يدعو إلى الخير قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾(٢).

قال القرطبي: (والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان واجباً في الأمم المتقدمة وهو فائدة الرسالة وخلافة النبوة، وهو الفارق بين المؤمنين والمنافقين، وأخص أوصاف المؤمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورأسها الدعاء إلى الإسلام والقتال عليه)(٣)، ولا شك أن حث المدعوين على فعل الخير من أولويات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد قال ﷺ ((مَنْ دَلَّ علىٰ خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ))(٤).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحُ لِلْخَيْرِ مَغَالِيقُ لِلشَّر، وَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحُ لِلشَّر مَغَالِيقُ لِلْخَيْرِ، فَطُوبَىٰ لِمَنْ جَعَلَ اللَّهُ مفَاتِيحَ الْخَيْرِ عَلَى يَدَيْهِ، وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَ اللَّهُ مَفَاتِيحَ الشَّر عَلَى يَدَيْهِ»(٥). وعن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «مَنْ عَلَّمَ عِلْماً فَلَهُ أَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهِ لاَ يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِ الْعَامِلِ»(٦).

قال السيد سابق: (والخير الذي ندب الله إليه ينتظم كل بر، ويشمل كل عمل

---

(١) سورة المزمل، آية: ٢٠.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٤٧/٤.

(٤) أخرجه مسلم ١٨٩٣.

(٥) أخرجه ابن ماجه ٢٣٧، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٩٤).

(٦) أخرجه ابن ماجه ٢٤٠، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجة ١٩٦).

صالح فطاعة الله خير، وممارسة الفضائل خير، والإحسان إلى الناس خير وكل عمل ينهض بالفرد، ويرقى بالجماعة فهو خير، والفطر السليمة تهتدي إلى الخير وتشعر به وتنجذب إليه، فالخير هو الكمال الذي تنشده وتسعد به، والدلالة على الخير، وإرشاد الإنسان غيره إلى الحق، لا يقل أهمية عن ممارسة الخير والنهوض به)[1].

خامساً- من واجبات المدعو: السؤال عما ينفعه:

حيث جاء في الحديث "جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: أي الصدقة أعظم أجراً" وهذا بلا شك من أهم واجبات المدعو، وبهذا أمر الله في القرآن، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2] وعلى المدعو أن يتجنب السؤال عما لا يفيد ولا ينفع ففي الحديث ((إنَّ اللّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلاَثاً: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ))[3].

---

(١) إسلامنا، ١٣٤-١٣٥.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٣) أخرجه البخاري ١٤٧٧، ومسلم ٥٩٣.

الحديث رقم (٩١)

٩١- **الخامس:** عن أنس ﷺ، أَنَّ رسول الله ﷺ أَخذَ سيْفاً يوم أُحدٍ، فقَالَ: «**مَنْ يأْخُذُ منِّي هَذا؟**» فبسطُوا أَيديهُم، كُلُّ إِنْسانٍ منهمْ يقُول: أَنا أَنا. قَالَ: «**فمنْ يأْخُذُهُ بحقِهِ؟**» فَأَحْجمِ الْقومُ، فقال أَبُو دجانة ﷺ: أَنا آخُذه بحقِّهِ، فأَخَذهُ ففلَقَ بهِ هَامَ الْمُشْرِكينَ». رواه مسلم[1].

اسم أبي دجانة: سماكُ بْنُ خرشة[2].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

أحجم القوم: أي توقفوا[3].

فلق به: أي شق[4].

هام المشركين: أي رؤوسهم[5].

الشرح الأدبي

يصور هذا الحديث مشهداً من مشاهد البطولة في الإسلام، وينقل للأجيال المعاصرة موقفاً جليلاً مهيباً من مواقف الفداء والمبادرة إلى التضحية بالنفس في سبيل الله، وما أعظمها من تضحية! وما أكرمه من فداء!

ورسول الله يأخذ سيفاً ويقول لأصحابه: "من يأخذ مني هذا؟" والاستفهام هنا لإثارة الحمية والتحدي، وإشعال وهج التنافس والمبادرة إلى نيل هذا الشرف، وأي شرف بعد

---

(١) برقم (٢٤٧٠/١٢٨).

(٢) ورد اسمه هكذا في رواية مسلم.

(٣) رياض الصالحين ٨٧.

(٤) رياض الصالحين ٨٧.

(٥) رياض الصالحين ٨٧.

أن يأخذ مجاهد السيف من رسول الله ﷺ؟ وقوله: "مني" لزيادة عنصر المنافسة: فليس السيف من شخص عادي. واسم الإشارة "هذا" يفيد التحديد والتمييز وتعظيم أمر السيف وما يتعلق بكل هذا الموقف.

وما أجمل هذا التصوير الحركي الذي ينقل إلينا المشهد! وكأننا نراه رأى العين، والصحابة يتنافسون في فعل الخير، ويبادرون إلى أخذ السيف للقتال يوم أحد "فبسطوا أيديهم، كل إنسان منهم يقول أنا أنا" ولكن السيف لن يأخذه إلا واحد، فمن هو؟ ويضع الرسول شرطاً وقيداً حين أعاد السؤال مرة أخرى: "فمن يأخذه بحقه" ويعني بهذا الحق أن يقاتل بالسيف، إلى أن يفتح الله على المسلمين أو يموت الذي يقاتل به شهيداً[1]؛ وعندما عرف الذين بسطو أيديهم ذلك "أحجم بعضهم". رهبة وخشية وخوفاً، كل حسب طبيعة نفسه، وقوة إيمانه. وأما أبو دجانة فبادر وقال: "أنا آخذه بحقه" وهو يعلم مصيره، ولكن هذا المصير تكريم له، وقبول ما بعده قبول، عند الله عز وجل.

وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب إذا كانت، وكان إذا أعلم بعصابة له حمراء فاعتصب بها، علم الناس أنه سيقاتل، فلما أخذ السيف من يد رسول الله ﷺ أخرج عصابته تلك فعصب بها رأسه، وجعل يتبختر بين الصفين، ويروى أن رسول الله ﷺ حين رأى أباً دجانة يتبختر قال: ((إنها لمشية يبغضها الله، إلا في مثل هذا الموطن))[2].

وكان أبو دجانة يحمي الرسول بنفسه، وكان النبل يقع في ظهره، وهو منحنٍ عليه، حتى كثر فيه النبل.

ويروى أن الزبير ابن العوام وجد في نفسه حين سأل الرسول السيف، فمنعه إياه وأعطاه أبا دجانة، وهو ابن عمته صفية، ومن قريش، وقال والله لأنظرن ما يصنع أبو دجانة، قال: "فاتبعته، فأخرج عصابة له حمراء فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار:

---

(١) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٦/٣٨٥.

(٢) أخرجه ابن إسحاق بدون إسناد كما في سيرة ابن هشام ٣/٧١ بتحقيق: السقا والإبياري وشلبي.

أخرج أبو دجانة عصابة الموت" وقيل: "إن أبا دجانة جعل لا يلقى أحداً إلا قتله"[١]، وقد روى عنه ابن هشام هذه الأبيات في السيرة النبوية بعد أن أخذ السيف وأخرج عصابة الموت:

أنا الذي عاهدني خليلي ... ونحن بالسفح لدى النخيل

ألا أقوم الدهر في الكيُّول[٢] ... اضرب بسيف الله والرسول[٣]

ويوجز الحديث هذه المواقف في عبارة موجزة حيث يقول: الراوي: "فأخذه ففلق به هام المشركين، وهكذا تكون البطولة في الإسلام شجاعة وحباً وفداءً ودفاعاً عن رسول الله وعن عقيدة التوحيد رغبة في الفوز بدار الخلود.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: إثارة اهتمام المدعوين.

ثانياً: من تاريخ الدعوة: غزوة أحد.

ثالثاً: من مهام الداعية: ضبط الأمور وتحديد المسؤوليات.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: فضل أبو دجانة رضي الله عنه بين الصحابة رضي الله عنهم.

أولاً- من أساليب الدعوة: إثارة اهتمام المدعوين:

لقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يشحذ همم أصحابه رضي الله عنهم وأن يثير اهتمامهم، فأخذ سيفاً ثم قال "من يأخذ مني هذا؟" ولاشك أن حمل السيف وتوجيه السؤال إليهم مما يثير انتباه المدعو، ويعد هذا من الأساليب الدعوية المهمة (وعلى الداعية أن يتبع أفضل الطرق في الدعوة وينتهج أحسن الأساليب التي تثير في المدعوين انتباههم وتجدد لهم نشاطهم ليتوجهوا إلى فكرته، ويتقبلوا مبادئ دعوته)[٤].

---

(١) انظر البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥/٣٥٦-٣٥٧.

(٢) الكيُّول: مؤخر الصفوف، البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥/٣٥٦-٣٥٧.

(٣) السيرة النبوية، ابن هشام ٣/٣٢.

(٤) مواقف الداعية التعبيرية، عبدالله ناصح علون، ص ٧١.

ومما يعكس اهتمام المدعوين أن الموطن الذي وجه الرسول فيه السؤال هو مكان للقتال في غزوة أحد مما يجعل المدعوين أشد انتباهاً وتأثراً (فلاشك أن للمكان أثراً على المتلقين مما ينعكس على عملية التلقي والاستيعاب سواء أكان ذلك سلباً أو إيجاباً فعلى الداعية الانتباه لهذا الأمر)[١].

ثانياً- من تاريخ الدعوة: غزوة أحد:

ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ أخذ سيفًا يوم أُحد، ولاشك أن غزوة أحد تمثل معلماً بارزاً في تاريخ الدعوة (وقد كانت وقعة أحد في شوال سنة ثلاث من الهجرة، وكان سببها أن المشركين حين قتل من قتل من أشرافهم يوم بدر، ورجع قَفلُهُم إلى مكة قال أبناء من قتل، ورؤساء من بقي: يا معشر قريش، إن محمدًا قد وتركم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا، ففعلوا، وخرجت قريش بحدها وحديدها وأحابيشها في قريب من ثلاثة آلاف، حتى نزلوا قريبًا من أحد تلقاء المدينة)[٢]، (واستشار رسول الله ﷺ الناس: أيخرج إليهم أم يمكث بالمدينة؟ فأشار عبدالله بن أُبي بالمقام بالمدينة، وأشار آخرون من الصحابة رضي الله عنهم ممن لم يشهد بدرًا بالخروج إليهم فنزل رسول الله ﷺ على رأيهم، وسار ﷺ في ألف من أصحابه، فلما كان "بالشوط"[٣] رجع عبدالله بن أُبي في ثلث الجيش مغضبًا لكونه ﷺ لم يرجع إلى قوله، وتهيأ رسول الله ﷺ للقتال وهو في سبعمائة من أصحابه، والرماة يومئذ خمسون رجلاً)[٤] فقال لهم: ((انضحوا الخيل عنا، ولا نؤتين من قبلكم. والزموا مكانكم إن كانت النوبة لنا أو علينا، وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم))[٥] فلاح النصر للمسلمين، وتخلف الرماة عن أمر النبي ﷺ،

---

(١) عدة الداعية المسلم، د. حمدان الهجاري، ص ٣٠.

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام، ٣/٢٣، ٢٤.

(٣) وهو اسم حائط من بساتين المدينة، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤٩٥.

(٤) البداية والنهاية، ابن كثير، ٥/٣٣٨.

(٥) أخرجه ابن إسحاق في سيرة ابن هشام ٣/٢٩.

فانتهز خالد بن الوليد - قبل إسلامه- الموقف، وحقق التفافًا جعل المسلمين في موقف حرج، واستشهد حمزة، ومصعب بن عمير رضي الله عنهما "وبلغ من استشهد من المسلمين يوم أحد سبعين" وعلى الرغم من الانتصار العسكري لقريش، إلا أنها لم تستطع استئصال المسلمين. وقد كسرت فيها رباعية النبي ﷺ وشُجَّ في وجهه)[1] لأجل هذا كانت غزوة أحد علامة بارزة في تاريخ الدعوة الإسلامية.

ثالثاً- من مهام الداعية: ضبط الأمور وتحديد المسؤوليات:

يتضح هذا في اشتراط النبي ﷺ على من يأخذ السيف أن يأخذه بحقه: (قال القرطبي: يعني بهذا الحق أن يقاتل بذلك السيف إلى أن يفتح الله على المسلمين أو يموت، ولذلك أحجم القوم لما فهموا ذلك فأما أبو دجانة رضي الله عنه: أخذ السيف، وقام بشرطه، ووفى بحقه، وهو يقول:

نضربُ بالسُّيوفِ رؤوسَ قومٍ أَزَلْنا هامَهُنَّ عن المقيل

والمقيل: أصول الأعناق)[2]. قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه استحباب توصل الإمام إلى كل ما يشد به عزائم المجاهدين، ويحمي به أنوفهم للحق...، وفيه أيضًا أن المستحب للإمام أن يختار أجود السلاح لأجود الرجال، ولا يترك السلاح الأجود مع الرجل الأدون حتى إن كان ملكًا للرجل، فرأى الإمام أنه لا يغني به صاحبه شيئًا، وغيره يغني به الغناء الواسع وليس ذا سلاح، أمر صاحب السلاح أن يدفع سلاحه إلى هذا الأعزل قصدًا بذلك مصلحة الجميع متوصلاً إلى طيب نفس صاحبه في ذلك، فإنه الأولى كما كان يقول لمن مرّ به انشر كنانتك لأبي طلحة)[3] إن النبي ﷺ بعد أن جعل الأمور لعموم الناس: حدد مسؤولية من يأخذ هذا السيف، حتى لا يقدم عليه أي أحد. وهذا مما يحتاجه الدعاة في العصر الحاضر مما تتطلبه القيادة الناجحة.

---

(١) انظر: البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣٣٧/٥.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٢١٨.

(٣) الإفصاح ٣٧٦/٥.

رابعاً- من موضوعات الدعوة: فضل أبي دجانة رضي الله عنه بين الصحابة رضي الله عنهم:

وهذا الحديث يدل على فضل أبي دجانة قال ابن سعد في الطبقات: (وأبو دجانة اسمه سماك بن خرشة، وآخى رسول الله بين أبي دجانة وعتبة بن غزوان وشهد بدراً، وكانت عليه يوم بدر عصابة حمراء، وهو الذي أخذ سيف رسول الله يوم أحد، وارتجز يقول:

أنــــا الــــذي عاهــــدني خليلــــي بالــــشعب ذي الــــسفح لــــدى النخيــــل

ألا أكــــون آخــــر الأفــــول اضــــرب بــــسيف الله والرســــول

وعادوه يومًا وهو مريض، وكان وجهه يتهلل، فقيل له ما لوجهك يتهلل، قال ما من عمل شيء أوثق عندي من اثنتين: أما إحداهما فكنت لا أتكلم فيما لا يعنيني، وأما الأخرى فكان قلبي للمسلمين سليماً. وقتل أبو دجانة شهيداً في سنة ١٢هـ في خلافة أبي بكر الصديق)[١].

وقال ابن حجر: (وأبو دجانة الأنصاري سماك بن خرشة متفق على شهوده بدراً، ولما التحم القتال في أُحد ذبّ عنه مصعب بن عمير حتى قتل مصعب، وأبو دجانة كثرت فيه الجراحة وهو ممن شارك في قتل مسيلمة الكذاب، وثبت ذكره في صحيح مسلم ولما سأل النبي عن حق السيف قال له: لا تقتل به مسلماً ولا تفر به من كافر)[٢].

(١) انظر: الطبقات، ابن سعد الكبرى ٥٥٦/٣.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ١٤٦٣.

الحديث رقم (٩٢)

٩٢- **السَّادس:** عن الزُّبيْرِ بنِ عديٍّ قال: أَتيْنَا أَنس بن مالكٍ ﷺ فشَكوْنا إليهِ ما نلْقى من الْحَجَّاجِ. فقال: «**اصبْروا فإنه لا يأْتي زمانٌ إلاَّ والَّذي بعْده شَرٌّ منه حتَّى تلقَوا ربَّكُمْ**» سمعتُه منْ نبيِّكُمْ ﷺ. رواه البخاري(١).

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

إن بناء هذا الحديث، وطريقة ترتيب روايته غير مألوف، فالحوار الذي دار بين الزبير بن عدي، ومن معه وبين أنس بن مالك، لم يكن في حضرة الرسول ﷺ، ولم يكن في المدينة، وإنما كان بعد وفاة رسول الله ﷺ وفي البصرة حيث مات أنس بن مالك، سنة اثنتين وقيل ثلاث وتسعين، وقد جاوز المائة، والشكوى من الحجاج بسبب ظلمه وتعسفه فقد كان والياً على العراق في عهد، الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان، والحديث لم يبدأ بـ "قال" رسول الله ﷺ، وإنما بدأ بشكوى الزبيريين وأصحابه إلى أنس بن مالك من بطش الحجاج، وقوته وعنفه، وقد كان الحجاج على أشد ما تكون القوة في مواجهة الأحزاب المناوئة لبنى أمية مثل: الزبيريين، والشيعة، والخوارج وغيرهم.

ولم يرع حرمة بعض الصحابة أو التابعين، ولم يحفظ لهم سابقتهم في الإسلام، وتشرفهم بصحبة رسول الله ﷺ.

وقد اقتدى الحجاج في قوته وعنفه بزياد بن أبيه الذي كان والياً على البصرة في عهد معاوية ويزيد، وهو صاحب خطبة "البتراء"، وهي التي احتذاها الحجاج وواجه أهل الكوفة بمثلها وأعنف منها، وقال، وهو متقلد سيفه، ومتنكب قوسه، ويضع اللثام على وجهه، وبعد صمت طويل قال:

---

(١) برقم (٧٠٦٨).

أنــا ابــن جــلا وطــلاع الثنايــا متــى أضــع العمامــة تعرفــوني

ثم قال: "يأهل الكوفة إني لأرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها، وكأني أنظر إلى الدماء ترقرق بين العمائم واللحي، أما والله لألحونكم[1] لحو العصا، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، أما والله لتستقيمن على طريق الحق، أو لأدعن لكل منكم، شغلاً في جسده".

وقال أبو الحسن المدائني: (قال الحسن: أوعد عمر فعفا، وأوعد زياد فابتلى، وقال الحسن أيضاً: تشبه زياد بعمر فأفرط، وتشبه الحجاج بزياد فأهلك الناس)[2].

ويقول أنس بن مالك ناصحاً الأمة وكل من يذوق الهول من جور الطغاة والمستبدين أمثال الحجاج: "أصبروا" أي اثبتوا وقاوموا ولا تيأسوا وتواصو بالحق وتواصوا بالصبر، فالنصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، فالصبر هنا ليس استسلاماً ولكنه صمود وثبات ومقاومة وقوة ومواجهة متسلحة بالإيمان والتقوى والصبر، ويعلل أنس بن مالك ما يلاقيه الناس من عنت الولاة والحكام، وبطشتهم بأن هذا ما أنبأ عنه رسول الله ﷺ، وأتى بهذه النبوءة في صيغة القصر والتأكيد "فإنه لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه" حتى يوم القيامة. ثم حدد مصدر هذا التعليل بأنه سمعه من النبي ﷺ، وهذا الواقع لا يدعو إلى التشاؤم واليأس، ولكن يحتاج إلى صبر؛ لأنه لا يمضي زمن فيه نقص لشيء من السنة أو ابتلاء بشيء من المحن إلا والذي بعده أَشرُّ منه، في ذلك، وهذا واقع دائم، ويحتاج إلى صبر وثبات وتمسك بالعقيدة الصحيحة.

---

(١) لحاه يلحوه شتمه ولحا الشجرة: قشّرها. القاموس المحيط، مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي في (ل ح و).

(٢) انظر: البيان والتبيين للجاحظ.

المضامين الدعوية

أولاً: من واجبات الداعية: تسلية ومواساة المدعوين.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: تقلب الأيام والأحوال.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: أهمية الصبر على الأذى والفتن.

خامساً: من موضوعات الدعوة: إخباره ﷺ بفساد الأحوال.

سادسًا: من مهام الداعية: فقه أحاديث النبي ﷺ.

أولاً- من واجبات الداعية: تسلية ومواساة المدعوين:

يظهر هذا من الحديث لما أتوا أنس بن مالك رضي الله عنه فشكوا إليه ما يلقون من الحجاج فقال: "اصبروا" وهذا واجب الداعية أن يشارك الناس في أفراحهم وأتراحهم ويكون كرجل منهم يتألم لألمهم، ويفرح لفرحهم، ولقد كان هذا من هدى رسول الله ﷺ فعن عثمان بن عفان في خطبة له قال: (إنا والله قد صحبنا رسول الله ﷺ في السفر والحضر فكان يعود مرضانا، ويتبع جنائزنا، ويغزو معنا، ويواسينا بالقليل والكثير)[١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (إن النبي ﷺ ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير "يا أبا عُمير ما فعل النغير)[٢].

وفي هذا الحديث الذي معنا تتضح أهمية تسلية ومواساة المدعوين، ليشعروا بقرب الداعية منهم قال السيد سابق: (جاء الإسلام ليجمع القلب إلى القلب، ويضم الصف إلى الصف مستهدفاً إقامة كيان موحد ومتقياً عوامل الفرقة والضعف، وليكون لهذا الكيان الموحد القدرة على تحقيق الغايات السامية والمقاصد النبيلة، والأهداف الصالحة فلا بد من تكوين روابط وصلات بين أفراد المجتمع)[٣].

---

(١) أخرجه أحمد ١/٧٠، رقم ٥٠٤، وقال محققو المسند: إسناده حسن ١/٥٣٢.

(٢) أخرجه البخاري ٦١٢٩، ومسلم ٢١٥٠.

(٣) عناصر القوة في الإسلام، السيد سابق ص ١٨١.

ثانياً- من أساليب الدعوة: الأمر:

حيث جاء في الحديث "اصبروا" ولاشك أن أسلوب الأمر يشعر المدعو بأهمية المأمور به، ويحفز المدعوين على الاستجابة، خاصة وأن الداعاة من أبرز ما يناط بهم الأمر بالخير والمعروف والنهي عن الشر والمنكر، وأسلوب الأمر من أساليب القرآن ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾(١) وقوله: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾(٢).

ثالثا- من موضوعات الدعوة: تقلب الأيام والأحوال:

يظهر هذا من الحديث "فإنه لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه" والمؤمن يجب أن يوطن نفسه على أن دوام الحال من المحال قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾(٣) وقال سبحانه: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾(٤) قال السعدي: (ومن حكمة الله سبحانه أن هذه الدار يعطي الله منها المؤمن والكافر، والبر والفاجر فيداول الله الأيام بين الناس، يوم لهذه الطائفة ويوم للطائفة الأخرى، لأن هذه الدار الدنيا منقضية فانية، وهذا بخلاف الدار الآخرة، فإنها خالصة للذين آمنوا)(٥) والمسلم عند تقلب الدنيا وظهور الفتن فيها الواجب عليه أن يكثر من العبادة ففي الحديث ((الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ، كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ))(٦).

قال النووي: "والمراد بالهرج: الفتنة واختلاط أمور الناس، وسبب كثرة فضل العبادة فيه أن الناس يغفلون عنها ويشتغلون عنها، ولا يتفرغ لها إلا أفراد"(٧).

---

(١) سورة البقرة، آية: ٤٣.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٢.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٤٠.

(٤) سورة النور، آية: ٤٤.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن اللويحق ص ١١٧.

(٦) أخرجه مسلم ٢٩٤٨.

(٧) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٧٠٥.

رابعاً- من موضوعات الدعوة: أهمية الصبر على الأذى والفتن:

حيث جاء في الحديث "اصبروا" ومما لاشك فيه أن الصبر مطلب للمسلم في حياته وقد أمر الله به نبيه محمداً ﷺ، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾(١) وقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾(٢) وقوله سبحانه: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾(٣) وبيّن جزاء الصابرين فقال جلّ شأنه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٤) وبيّن أنه يحبهم إذا صبروا على البلاء والأذى فقال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(٥) وبيّن سبحانه أنه معهم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(٦).

قال ابن عثيمين: (وفي هذا الحديث وجوب الصبر على ولاة الأمور فمع الصبر يحصل اطمئنان النفس والثبات، وانتظار الفرج عبادة تتعبد لله به)(٧). وقد أمر الله المؤمنين بالصبر فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٨) وقد أمر النبي ﷺ بالصبر فقال في الحديث ((اصبروا حتى تلقَوْني على الحَوْضِ))(٩) قال ابن القيم: (الصبر حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس

---

(١) سورة النحل، آية: ١٢٧.

(٢) سورة الروم، آية: ٦٠.

(٣) سورة الأحقاف، آية: ٣٥.

(٤) سورة الزمر، آية: ١٠.

(٥) سورة آل عمران، ١٤٦.

(٦) سورة البقرة، آية: ١٥٣.

(٧) شرح رياض الصالحين ٢٩٩/١.

(٨) سورة آل عمران، آية: ٢٠٠.

(٩) أخرجه البخاري ٢٧٩٢، ومسلم ١٨٤٥.

اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش، وهو صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على امتحان الله)[١].

خامساً- من موضوعات الدعوة: إخباره ﷺ بفساد الأحوال:

حيث جاء في الحديث "إنه لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه" قال الإمام ابن حجر: (قال ابن بطال: هذا الخبر من أعلام النبوة لإخباره ﷺ بفساد الأحوال، وذلك من الغيب الذي لا يُعلمَ بالرأي، وإنما يُعلَم بالوحي)[٢]، ولا شك إن إخبار أنس رضي الله عنه بما سمعه من النبي ﷺ من فساد الأحوال وتدنّي الأمور، نتيجة الفتن والاستبداد وضعف الإيمان في النفوس وغير ذلك مما أخبر به ﷺ في هذا المضمار، إن معرفة مثل هذه الأحوال والتغيرات تستوجب التمسك بالمنهج الصحيح المستمد من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والبعد عن كافة مظاهر الغلو والتطرف والتنطع وكل ما من شأنه أن يؤدي إلى انفراط عقد المسلمين، وانتشار الفتن وكثرة الهرج، فما أحوج المسلم إلى البعد عن سبل الضلال، والحذر من الانزلاق في التيارات المنحرفة.

سادسًا- من مهام الداعية: فقه أحاديث النبي ﷺ:

إن أحاديث "الفتن" وما يتعلق بما يسمى "آخر الزمان" أو "أشراط الساعة" يكثر فيها سوء الفهم، ولذا ينبغي التأمل الطويل في معانيها، حتى لا يتخذها الناس وسيلة لقتل كل بذرة للأمل، ووأد كل محاولة للإصلاح والتغيير. وحديث الباب من جنس هذه الأحاديث التي وردت فيه أفهام خاطئة، مما يستدعي أهمية تصحيح هذا الفهم.

فبعض الناس يتخذ من حديث أنس رضي الله عنه "... فإنه لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم ..." إلخ تُكَأة للقعود عن العمل ومحاولةِ الإصلاح والإنقاذ، مُدَّعيًا أن الحديث يدل على أن الأمور في تدهور دائم، وسقوط مستمر وهوى متتابع، من دَرْك إلى درك أسفل منه، ومن سوء إلى ما هو أسوأ منه. حتى تقوم الساعة على شرار الناس ويلقى الناس ربهم.

---

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٤٢٦.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١٣/٢٣.

وآخرون توقفوا في قبول الحديث - بالرغم من صحته-، وربما تعجل بعضهم فردَّه، لأنه في ظنه يدعو:

أولاً: إلى اليأس والقنوط.

ثانياً: إلى السلبية في مواجهة الطغاة من الحكام المنحرفين.

ثالثًا: يعارض فكرة التطور التي قام عليها نظام الكون والحياة.

رابعًا: ينافي الواقع التاريخي للمسلمين.

وخامسًا: يعارض الأحاديث التي جاءت في ظهور خليفة يملأ الأرض عدلاً "وهو الذي عرف باسم المهدي" وفي نزول عيسى بن مريم عليه السلام، وإقامته لدولة الإسلام وإعلاء كلمته في الأرض كلها(١).

وقد بين ابن حجر ما كان عليه السابقون من استشكال لهذا الحديث فبدء بذكر قول ابن بطال: إن هذا الخبر من أعلام النبوة لإخباره ﷺ بفساد الأحوال، وذلك من الغيب الذي لا يعلم بالرأي وإنما يعلم بالوحي انتهى.

ثم بين استشكال الإطلاق في فهم عموم الحديث بأن كل زمن شر من الذي قبله، وذلك لأن بعض الأزمنة تكون في الشر دون التي قبلها، ولو لم يكن في ذلك إلا زمن عمر بن عبدالعزيز وهو بعد زمن الحجاج بيسير، وقد اشتهر الخبر الذي كان في زمن عمر بن عبدالعزيز، بل لو قيل أن الشر اضمحل في زمانه لما كان بعيدًا فضلاً عن أن يكون شرًا من الزمن الذي قبله.

وقد أجابوا عن هذا بعدة أجوبة:

أ- فالحسن البصري حمل الحديث على الأكثر الأغلب، فقد سئل عن عمر بن عبدالعزيز بعد الحجاج، فقال: لابد للناس من تنفيس.

ب- وقد ذهب البعض إلى تفضيل مجموع عصر الحجاج على مجموع عصر عمر بن العزيز، لكثرة الصحابة في عصر الحجاج، لأن الزمان الذي فيه الصحابة رضي الله عنهم أفضل من الزمن الذي بعده.

---

(١) المبشرات بانتصار الإسلام، د. يوسف القرضاوي، ١٣١.

ج- ثم صحح ابن حجر الرأي الثالث بقول: ثم وجدت عن عبدالله بن مسعود التصريح بالمراد وهو أولى بالاتباع، والذي ذكر فيه "لا يأتي عليكم يوم إلا وهو شر من اليوم الذي كان قبله حتى تقوم الساعة، لست أعني رخاء من العيش يصيبه ولا مالاً يفيده ولكن لا يأتي عليكم يوم وإلا وهو أقل علمًا من اليوم الذي مضى قبله، فإذا ذهب العلماء استوى الناس فلا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر فعند ذلك يهلكون" وفي لفظ عنه من هذا الوجه وما ذاك بكثرة الأمطار وقلتها ولكن بذهاب العلماء، ثم يحدث قوم يفتون في الأمور برأيهم فيُثْلمون الإسلام ويهدمونه[١].

وذهب د. القرضاوي إلى أن ذلك لا ينفي الاستشكال من أساسه، فالنصوص تدل على أن في الغيب أدوارًا للإسلام ترتفع فيها رايته وتعلو كلمته، ولو لم يكن إلا زمن المهدي والمسيح في آخر الزمان لكفى.

والتاريخ يثبت أنه قد جاءت فترات ركود وجمود في العالم أعقبتها أزمنة حركة وتجديد، ويكفي أن نذكر مثلاً مَنْ ظهر في القرن الثامن من العلماء والمجدِّدين -بعد سقوط الخلافة الإسلامية في بغدد، وتدهور الأوضاع في القرن السابع- مثل ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وسائر تلاميذه في الشام، والشاطبي في الأندلس، وابن خلدون في المغرب، وغيرهم ممن ترجم لهم ابن حجر في كتابه "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة".

وفي العصور التي تلت ذلك نجد مثل ابن حجر، والسيوطي في مصر، وابن الوزير في اليمن، والدهلوي في الهند، والشوكاني والصنعاني في اليمن، وابن عبدالوهاب في نجد، وغيرهم من العلماء الأجلاء المجتهدين والأئمة المجدِّدين[٢].

وهذا ما جعل ابن حبان في صحيحه يرى أن حديث أنس رضي الله عنه ليس على عمومه، مستدلاً بالأحاديث الواردة في المهدي، وأنه يملأ الأرض عدلاً، بعد أن ملئت جورًا[٣].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٣/٢٣-٢٤.

(٢) المبشرات بانتصار الإسلام، د. يوسف القرضاوي، ١٣١-١٣٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١٣/٢٤.

قال د. يوسف القرضاوي: ولهذا أرى أن أرجح التفسيرات لهذا الحديث ما ذكره الحافظ في "الفتح" بقوله: (ويحتمل أن يكون المراد بالأزمنة المذكورة أزمنة الصحابة، بناء على أنهم هم المخاطبون بذلك، فيختص بهم، فأما مَنْ بعدهم فلم يُقصد في الخبر المذكور، لكن الصحابي فَهِمَ التعميم؛ فلذلك أجاب من شكا إليه الحجاج بذلك وأمرهم بالصبر، وهم -أو جلهم- من التابعين)[1].

(١) المبشرات بانتصار الإسلام، د. يوسف القرضاوي، وفتح الباري، ابن حجر ٢٤/١٣.

الحديث رقم (٩٣)

٩٣- **السَّابع**: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «**بادروا بالأعْمال سبعاً، هل تَنتَظرونَ إلاَّ فقراً مُنسياً، أَوْ غنيّ مُطْغياً، أَوْ مرضاً مُفسداً، أَو هرماً مُفْنداً أَو موتاً مُجهزاً أَوِ الدَّجَّال فشرٌّ غَائب يُنتَظر، أَوِ السَّاعة فالسَّاعةُ أَدْهى وأَمر**» رواه الترمذي وقال: حديثٌ حسن[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

بادروا بالأعمال: سابقوا وسارعوا[٢].

هَرَماً مفنداً: الهَرَمُ: الكبَر. والفَنَد: الخَرَفُ وإنكار العقل لهرم أو مرض والخطأ في القول والرأي وهَرِمَ الرجل هَرَمًا بلغ أقصى الكبر وضعف فهو هَرِمٌ[٣].

مجهزاً: يأتي بغتة من غير أن يُقدر معه على توبة ووصية[٤].

أمرّ: أكثر مرارة من جميع ما يكابده الإنسان في الدنيا من الشدائد[٥].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٠٦) وقال: هذا حديث حسن غريب. قال المنذري في ترغيبه (١٤٥/٤): فيه محرر، ويقال محرز بالزاي، وهو واهٍ. أورده المنذري في ترغيبه (٤٩١٣). وسيتكرر برقم (٥٨٣).

(٢) المفصح المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٥١.

(٣) انظر: النهاية: في (ج هـ ز)، والقاموس المحيط، مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي في (ف ن د). والوجيز في (هـ ر م).

(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١٧٦، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٤٤.

(٥) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٤٤.

الشرح الأدبي

إن البيان النبوي يتسم ببراعة اللفظ وجودة العبارة، وجمال المعنى، وفخامة المبنى، ويقول القاضي عياض: في كتابه "الشفا" في معرض إشادته بفصاحة المصطفى ﷺ: "فجمع له بذلك ﷺ قوة عارضة البادية وجزالتها، ونصاعة الحاضرة، ورونق كلامها، إلى التأييد الإلهي الذي مدده الوحي الذي لا يحيط بعلمه بشر، وقالت أم معبد[١] في وصفها لرسول الله ﷺ: (حلو المنطق، فصل لا نزر ولا هذر، كأن منطقه خرزات نظمن، وكان جهير الصوت، حسن النغمة ﷺ)[٢].

وفي ضوء هذه المعالم للبيان النبوي نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الذي يحض على المبادرة إلى الأعمال الصالحة.

وفي قوله ﷺ: "بادروا بالأعمال سبعاً"، فيه توجيه إلى أن الأمر سباق بين الخير والشر، وبين الصلاح والفساد، والحديث السابق يصور ذلك الصراع بين الأعمال الصالحة، والفتن التي ستكون كقطع الليل المظلم[٣]، وهذا الحديث يعدد مظاهر هذه الفتن المتراكمة كظلمات بعضها فوق بعض، ويبدأ الحديث بفعل الأمر "بادروا بالأعمال سبعاً" والأمر للوجوب، والمؤمن لا يجب عليه إلا فعل العمل الصالح، ولذلك عرف الأعمال بأل، وهي للعهد، ويقصد بها الأعمال الصالحة، كما ورد في الحديث السابق، وكأن الأفعال غير الصالحة لا تستحق هذه الصفة، صفة العمل، لأنها لا تثمر شيئاً ذا بال، ولا تقدم نفعاً لأي إنسان بل إنها تضر وتفسد وتظلم الحياة وتنزع منها النور والضياء.

والاستفهام الذي يتصدر بيان هذه المظاهر: "يثير الانتباه واليقظة، وينعى هؤلاء المقصرين الذين لا ينتظرون إلا ما يضرهم، "هل تنتظرون إلا...". والتعبير بالفعل المضارع

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة.

(٢) الشاف ١/١٦٤ ط/ دار الفكر، بيروت.

(٣) هو الحديث رقم ٨٧ وهو أول حديث في هذا الباب.

في صيغة الجمع يعلن عن استمرار هذا الانتظار الذي لا يجنون من ورائه ثمرة نافعة. وتأتي صيغة المضارع: تجئ صيغة: "القصر" لتعلن أنه لا فائدة ولا ثمرة من هذا الانتظار إلا الوقوع في براثن الفتن.

وهذه المظاهر السبعة للفتن تتسم صياغتها بالتوازي الأسلوبي ومراعاة النظير في حسن تقسيم العبارات في المظاهر الخمسة الأولى، وتنكير الألفاظ الدالة على مظاهر الفتن يدل على عدم التقليل من شأنها، أو التهوين من قيمتها (فقرًا - غنى -مرضاً - هرماً- موتاً" ولفظ "الدجال" و"الساعة" جاءا مُعرفين لأنهما لن يتعددا، وأما المظاهر السابقة فتتعدد حالات كل منها، بتعدد الأشخاص، وتغير المواقف، وإتحاد صيغة الوصف مع الإيقاع الصوتي الذي يحدثه الترنم في التنوين يضاعف من التأثير في نفس السامع، ويحدث الخشية المطلوبة، فالأوصاف كلها جاءت في صيغة اسم الفاعل: الفقر المنسي والغنى المطغي، والمرض المفسد، والهرم المفند أي الذي يؤدي إلى الكذب والخرف والموت الذي أتي بغتةً سريعًا.

وفي ذلك إسناد الفعل إلى المعاني والأحوال المقصودة على سبيل المجاز المرسل× لأنها من أسباب وقوعها، فالفقر بلا إيمان ورضا، يؤدي إلى الجحود والنسيان، والغنى بلا تقوى وشكر، يؤدي إلى الطغيان وجحود النعمة، وإنكار فضل الله عز وجل، والمرض الذي لا يصاحبه صبر واحتساب واستسلام لأمر الله يفسد حياة الإنسان وعقله وبدنه ويمنعه من أداء العبادة على الوجه الأكمل، والهرم وهو كبر السن، يُسلم الإنسان إلى الخرف، والتيه والأوهام والكذب. والموت يقضي على آمال الإنسان وطموحاته، ويخسر كل شيء إن لم يبادر بالأعمال الصالحة.

وكل مظهر من هذه المظاهر السابقة يحتاج إلى عرض أبعاده، وسبر أغواره، وتحليل أسبابه، ورصد نتائجه، ومن هنا ندرك أسرار الإيجاز وبلاغته في هذا الحديث وفي البيان النبوي عامة.

ومن أسرار الجمال التعبيري في هذا الحديث ترتيب أحوال ومظاهر الفتن وكأن بعضها يؤدي إلى البعض الآخر.

والعبارتان الأخيرتان تنفردان بإيقاع خاص، حيث يتغير السجع (غائب ينتظر، أدهى وأمرّ يجئ لفظا الدجال، والساعة معرفين غير منكرين مثل الظواهر الخمسة الأولى، لأنهما - كما قلت سابقاً- لا يتكرران، فالدجال أمره معروف، وهو من علامات اقتراب الساعة، والساعة أماراتها معروفة، وفصلتها السنة النبوية. وأوجز الحديث بعض آثارها: فجاء بفعلي التفصيل: "أدهى وأمر"، أي أنها أدهى وأمر من أمر الدجال، ومن كل المظاهر السابقة: فهى أشد مرارة من عذاب الدنيا وأهوالها، وفي وبداية سورة الحج تحديد لبعض مظاهر هذا الهول، حيث يقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر، والترهيب.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: أهمية المبادرة إلى الأعمال الصالحة.

ثالثاً: من واجبات الداعية: تحذير المدعوين مما يمنعهم من الطاعة وتخويفهم من الغفلة.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر، والترهيب:

١- **الأمر**: حيث جاء في الحديث "بادروا" ومما هو معلوم أن أسلوب الأمر يشعر المدعو بأهمية المأمور به، ووجوب تنفيذه خاصةً إذا صدر من الرسول الكريم ﷺ فإنه لا ينطق عن الهوى، وقد كثر في القرآن استخدام أسلوب الأمر لحث المدعوين على الطاعة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[2] وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾[3] وقوله جل شأنه: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ

---

(١) سورة الحج: ١-٢.

(٢) سورة الحديد، آية: ٢١.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٧٠.

يَأْتُوكَ رِجَالاً ﴾[(١)] إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي جاء بها أسلوب الأمر.

٢- **الترهيب**: لقد ورد الترهيب من عدد من الأمور التي قد تحول بين الإنسان وقيامه بالأعمال الصالحة، ومن تلك الأمور التي ورد الترهيب منها: الفقر، أو الغنى، أو المرض، أو الهرم، أو الموت أو الدجال. "فشر غائب ينتظر أو الساعة فالساعة أدهى وأمر" وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة الناجعة التي تخوف النفس البشرية من الوقوع في المحاذير الشرعية (والترهيب هو كل ما يخيف المدعو ويحذره من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله، وكما يكون الترغيب بنيل رضى الله ورحمته فإن الترهيب يكون بالتخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة)[(٢)] أما عن هدف الترهيب فإن (الترهيب القولي يهدف إلى إنشاء الخوف في قلوب الناس ويستطيع الداعية من خلال الترهيب أن يجعل القلوب ترق وتذوق طعم الإيمان وترى السعادة في عبادة مولاها وطاعته وترى الحرمان في البعد عنه سبحانه)[(٣)].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: أهمية المبادرة إلى الأعمال الصالحة:

حيث جاء في الحديث "بادروا بالأعمال سبعاً" قال المباركفوري: (أي سابقوا وقوع الفتن بالاشتغال بالأعمال الصالحة، واهتموا بها قبل حلولها، قال القاري: خرج هذا مخرج التوبيخ على تقصير المكلفين في أمر دينهم، أي متى تعبدون ربكم، فإنكم إن لم تعبدوه مع قلة الشواغل، وقوة البدن فكيف تعبدونه مع كثرة الشواغل وضعف القوى؟ لعل أحدكم ما ينتظر إلا غنى مطغياً. والقصد من الحديث الحث على البدار بالعمل الصالح قبل حلول شيء من ذلك)[(٤)].

هذا وقد دلت النصوص الشرعية على فضل المبادرة إلى الأعمال الصالحة، قال الله

---

(١) سورة الحج، آية: ٢٧.

(٢) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ٤٣٧.

(٣) الترهيب في الدعوة، د. رقية بنت نصر الله بن محمد نياز، ٨٩.

(٤) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٤٤/٢.

تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[1] وقال جل شأنه: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾[2] وقال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾[3] ووصف الله من أنبياءه زكريا ويحيى عليهما السلام بقوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾[4] وبعد أن بين الله نعيم الجنة وما أعده للذين يعملون الصالحات قال: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾[5] وحث الله سبحانه على الإنفاق والطاعة قبل حلول الموت فقال: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[6] وفي نفس المعنى جاء قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[7].

ثالثاً- من واجبات الداعي: تحذير المدعوين مما يمنعهم من الطاعة وتخويفهم من الغفلة:

حيث جاء في الحديث "هل تنتظرون إلا فقراً منسياً أو غنى مطغياً..." ولاشك أن الداعي من أهم واجباته أن يحذر المدعوين من المخالفات الشرعية، ومما يحول بينهم وبين الطاعة وقد وصف الله رسوله في القرآن بقوله: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٣٣.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٤٨.

(٣) سورة المؤمنون، آية: ٦١.

(٤) سورة الأنبياء، آية: ٩٠.

(٥) سورة المطففين، آية: ٢٦.

(٦) سورة المنافقون، آية: ١٠، ١١.

(٧) سورة البقرة، آية: ٢٥٤.

أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾[١] وقد بين النبي ﷺ أن الإنسان مسؤول أمام الله إن تكاسل ففي الحديث ((لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعن عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وعن مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفيمَ أَنْفَقَهُ، وعن جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاَهُ))[٢].

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٢) أخرجه الترمذي، ٢٤١٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ١٩٦٩).

الحديث رقم (٩٤)

٩٤- **الثامن:** عنه أَن رسولَ اللَّه ﷺ قال يوم خيْبر: «**لأعطِينَّ هذِهِ الراية رجُلا يُحبُّ اللَّـه ورسُوله، يفتَح اللَّـه عَلَى يديـهِ**» قـال عمـر رضي الله عنه : مـا أَحببْـت الإِمـارة إلاَّ يومئـذٍ، فتساورْتُ لهَا رجَاءَ أَنْ أُدْعـى لهَا، فدعا رسول اللَّـه ﷺ عليَ بن أبي طالب رضي الله عنه، فأَعْطَاه إِيَّاهـا، وقالَ: «**امش ولا تلْتَفتْ حتَّى يَفتح اللَّه عليكَ**» فَسار عليٌّ شيئاً، ثُمَّ وقف ولم يلْتفتْ، فصرخ: يا رسول اللَّه، على ماذَا أُقاتل النَّاس؟ قال: «**قاتلْهُمْ حتَّى يشْهدوا أَنْ لا إلـه إلاَّ اللَّه، وأَنَّ مُحمَّداً رسول اللَّه، فَإِذا فعلوا ذلـك فقدْ منعوا منْك دماءَهُمْ وأَموالهُمْ إلاَّ بحَقِّها، وحِسابُهُمْ على اللَّهِ**» رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

فتساورت: هو بالسين المهملة: أي وثبت متطلعاً[٢].

الشرح الأدبي

هذا المشهد الواقعي من مشاهد الصراع بين المسلمين واليهود، يرويه أبو هريرة في أمانة وصدق؛ ليظل نبراساً ومنهاجاً للبطولة الإسلامية، وليقدم درساً عملياً في التنافس والمبادرة إلى فعل الخيرات في كل ميادين الحياة، وميدان الجهاد هو الأولى بالتضحية والشجاعة والفداء.

وغزوة خيبر إحدى حلقات الصراع المستمر إلى يومنا هذا بين المسلمين واليهود الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، والذين قالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾[٣].

وفي خيبر تحدث معجزات كثيرة، ويستجيب الله لحبيبه محمد ﷺ في مواقف متعددة.

---

(١) برقم (٣٣/٢٤٠٥).

(٢) رياض الصالحين ٨٨.

(٣) سورة المائدة، آية: ٦٤.

وأحداث هذه الغزوة وقعت بعد صلح الحديبية، حيث رجع الرسول ﷺ من الحديبية في ذي الحجة وخرج في بقية المحرم إلى خيبر، كما يروي ابن إسحاق[١]، ومن مظاهر التأييد والبشارة في هذه الغزوة أن بني سهم من أسلم أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: والله يا رسول الله، لقد جهدنا وما بأيدينا من شيء، فلم يجدوا عند رسول الله شيئاً يعطيهم إياه، فقال: "اللهم قد عرفت حالهم، وأن ليست بهم قوة، وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إياه، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناء وأكثرها طعاماً ووَدَكا، فغدا الناس ففتح الله عز وجل حصن الصعب بن معاذ، وما بخيبر حصن كان أكثر طعاماً وودكاً منه[٢].

وحين امتنعت بعض الحصون على بعض القواد من الصحابة: قال رسول الله ﷺ: "لأعطين هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه"، وهذا الوعد يتحصن بالقسم والتأكيد فالتقدير: "والله لأعطين" واسم الإشارة "هذه" فيه تعظيم للراية، وتحديد لها، فهي سواها؛ لأنها راية الإسلام التي يحب أن تظل خفاقة نابضة بالتوحيد، والقوة. ولفظ "رجلاً" جاء في ثوب النكرة للتعميم والتشويق ولفظ "رجلاً" يوحي بالقوة وتحمل المسؤولية والإيمان القوي؛ ولذلك وصف هذا الرجل بأنه يحب الله ورسوله، والله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وهذه الصفة يشترك فيها كثير من الصحابة، ولكن العبارة الثانية وهي: "يفتح الله على يديه" تمثل خصوصية لحال ذلك الرجل الذي يحب الله ورسوله، وقد تنبأ الرسول بأنه يفتح الله على يديه عض حصون خيبر. وقد تحقق هذه الوعد، ونصر الله عبده، وأعز جنده، ويروى أن رسول الله ﷺ: بعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه برايته وكانت بيضاء، إلى بعض حصون خيبر فقاتل، فرجع ولم يكن فتح، وقد جهد، ثم بعث الغد عمر بن الخطاب فقاتل، فرجع ولم يكن فتح، وقد جهد، ثم قال رسول الله ﷺ: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله[٣].

---

(١) أخرجه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ٣/٣٤٦ وفي سنده مجهول.

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام ٣/٢٨٢ بتحقيق: السقا والإبياري وشلبي.

(٣) أخرجه ابن إسحاق كما في السيرة النبوية ٣/٣٤٩.

وما أصدق التنافس في الخير بين الصحابة! وعمر رضي الله عنه يتمنى أن يكون هو ذلك الرجل، ويحاول أن يظهر نفسه لرسول الله حيث وثب متطلعاً حباً في التضحية والدفاع عن الإسلام، فيقول: "ما أحببت الإمارة إلا يومئذ" وهو الذي رفض أن يكون ابنه خليفة من بعده، ويختار رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب، ولا يغضب عمر، ولا يغضب غيره من كبار الصحابة، ويحدد الرسول لعلي المنهج ويصدر أمره الصارم، حيث يقول له: "امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك"، أي لا يشغلك أي شاغل عن الجهاد[1]، ويشير الرسول إلى الفتح من عند الله. في قوله: "حتى يفتح الله عليك".

ولنتأمل هذا المشهد الإيماني المنهجي، ويصرخ علي متسائلاً ولم يلتفت: "على ماذا أقاتل الناس؟" وهذا السؤال يرشد إلى ضرورة اقتناع الجندي بما يفعل، وإلى ضرورة أن تكون هناك قضية يدافع عنها، ويوضح له الرسول المنهج وهو أن الجهاد يكون من أجل الإقرار بالتوحيد وإعلاء راية الإسلام، وتحقق النصر المبين.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم عصمة الأنفس والأموال بنطق كلمة التوحيد، وقد اتفق الفقهاء[2] على أن الكافر إذا قال لا إله إلا الله فقد عصمت نفسه وماله إلا بحقه، وقد نقل ابن المنذر الإجماع على ذلك فقال: أجمع كل من نحفظ عنه من أهل العلم على أنه إذا قال الكافر أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله

---

(١) انظر: دليل الفالحين، ص ٢٢١-٢٢٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٢١/٧ وما بعدها، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٥٠/١، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي ٢٤٣/٣، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني ١٠٠/٧، وشرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ محمد بن أحمد بن محمد عليش ١٤٤/٣ وما بعدها، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين الرملي ٦٤/٨، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، الشربيني ٣١/٦، وشرح منتهى الإرادات ٦٢٦/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٤٠/٣، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٣٨/٣٠ وما بعدها.

وأن كل ما جاء به محمد حق وأبرأ من كل دين يخالف دين الإسلام وهو صحيح العقل أنه مسلم، فهو محمول على حكم الظاهر دون الباطن.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التشويق، الأمر والنهي.

ثانياً: من واجبات المدعو: التطلع لإدراك الفضل.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: فضل ومنزلة علي بن أبي طالب >.

رابعاً: من واجبات المدعو: الاستفسار والسؤال عن الأمور المهمة.

خامساً: من موضوعات الدعوة: الجهاد لإعلاء كلمة الله.

سادساً: من موضوعات الدعوة: حرمة الدماء في الإسلام.

سابعاً: من تاريخ الدعوة: فتح خيبر.

أولاً- من أساليب الدعوة: التشويق، الأمر والنهي:

١- **التشويق**: ويظهر هذا من قول النبي ﷺ: (لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه)، وفي هذا الإبهام للرجل، وبيان أنه يحب الله ورسوله تشويق للمدعو للفت انتباهه، "وعلى الداعية أن يكون حسن الأداء، ومن حسن الأداء التشويق، ونعني به قدرة الداعية على جعل الحديث مشوقا بحيث يستمر المدعو في متابعته للداعية لما يرى ويجد فيه من جودة تجذبه إليه فمتى استطاع الداعية أن يستثير اهتمام المدعوين فإنه قد استحوذ على مشاعرهم وتمكن من جذبهم إليه"(١).

٢- **الأمر والنهي**: حيث جاء في الحديث: (امش)، و(لا تلتفت)، ومما لا شك فيه أن الأمر والنهي أسلوب من أساليب الدعوة، وهو أسلوب له دوره الرئيس في شد انتباه المدعوين وإشعارهم بأهمية المأمور به أو المنهي عنه، ومن أساليب الأمر في القرآن الكريم ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾(٢)، وقوله جل شأنه: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾(٣)،

---

(١) انظر: عدة الداعية المسلم، د. حمدان الهجاري، ص ٣٢ - ٣٣.

(٢) سورة البقرة، آية: ٤٥.

(٣) سورة سبأ، آية: ١٢.

ومن أساليب النهي في القرآن قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾[(١)]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾[(٢)].

ثانياً- من واجبات المدعو: التطلع لإدراك الفضل:

يظهر هذا من قول عمر رضي الله عنه: (ما أحببت الإمارة إلا يومئذٍ فتساورت لها رجاء أن أدعى لها)، قال الإمام النووي: (إنما كانت محبته لها لما دلت عليه الإمارة من محبته لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ومحبتهما له والفتح على يديه، وقوله: فتساورت لها، أي: تطاولت لها، أي: أظهرت وجهي وتصديت لذلك ليتذكرني)[(٣)]، والمدعو يجب أن تكون همته عالية لإدراك معالي الأمور، وشرف الأحوال، وهذا تعليم نبوي حميد فقد جاء في الحديث: ((فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ))[(٤)].

ومما هو معلوم أن (علو الهمة خلق رفيع وغاية نبيلة، تتعشقه النفوس الكريمة، وتهفو إليه الفطر القويمة، وعلو الهمة من الأسس الأخلاقية الفاضلة ومن ظواهره الجد في الأمور، والترفع عن الصغائر والدنايا، والطموح إلى المعالي، وإنما تعلو قيمة المرء، وتسمو مكانته بقدر نصيبه من علو الهمة؛ ذلك أن علو الهمة يستلزم الجد والإباء، ونشدان المعالي وتطلاب الكمال، والهمة العالية لا تزال بصاحبها ترفعه من أدنى دركات الحضيض إلى أعلى مقامات المجد والسؤدد، وعظيم الهمة يشتد حرصه على الشرف، حتى لا يكاد يشعر بما يلاقيه في سبيله من أنكاد وأكدار، وعظيم الهمة لا يشغل باله أمر صغير، ولا يقلق فكره عمل يسير، بل يقوم بجلائل الأعمال التي تتعصى على أولي القوة من الرجال:

---

(١) سورة النور، آية: ٦٣.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٣٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤٧٠.

(٤) أخرجه البخاري ٧٤٢٣.

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتكبر في عين الصغير صغارها ... وتصغر في عين العظيم العظائم

فلقد جرت سنة الله في خلقه ألا ينهض بالمقاصد الجليلة، والغايات البعيدة غير النفوس التي عظم حجمها، وكبرت هممها)[1].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: فضل ومنزلة علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

حيث جاء في الحديث: "فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأعطاه إياها"، ولا شك أن هذا يدل على فضل ومنزلة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال الإمام ابن حجر: (هو أول الناس إسلامًا في قول كثير من أهل العلم ولد قبل البعثة بعشر سنين فربي في حجر النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يفارقه، وشهد معه المشاهد إلا غزوة تبوك، وكان اللواء بيده في أكثر المشاهد ولما آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه قال له أنت أخي ومناقبه كثيرة حتى قال أحمد لم ينقل لأحد من الصحابة ما نقل لعلي رضي الله عنه)[2].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي رضي الله عنه: ((أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى؟))[3]، وقد دلت الكثير من الأحاديث والآثار على فضل علي رضي الله عنه.

ومن ذلك ما جاء في الحديث أن علياً رضي الله عنه كان يقول: (والله إِنَّهُ لَعَهْدُ النبي الأمي إِلَيَّ أَنْ لاَ يُحِبَّنِي إِلاَّ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يُبْغِضَنِي إِلاَّ مُنَافِقٌ)[4]، ولما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن وهو شاب ليقضي بينهم قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ لاَ أَدْرِي مَا الْقَضَاءُ فَضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم صَدْرَهُ وَقَالَ: ((اللَّهُمَّ اهْدِ قَلْبَهُ وَسَدِّدْ لِسَانَهُ)) فَقَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه: فَوَاللَّهِ مَا شَكَكْتُ بَعْدُ فِي قَضَاءٍ بَيْنَ اثْنَيْنِ)[5]، وعن راذان قال: سمعت عليا في الرحبة وهو ينشد الناس: مَنْ

---

(١) الهمة العالية "معوقاتها ومقوماتها"، محمد بن إبراهيم الحمد ص ١٠٧ - ١٠٩ بتصرف.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني في تمييز الصحابة ٦٣٩.

(٣) أخرجه البخاري ٣٧٠٦، ومسلم ٢٤٠٤.

(٤) أخرجه مسلم ٧٨.

(٥) أخرجه ابن ماجه ٢٣١٠، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٨٦٩).

شَهِدَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ، وَهُوَ يَقُولُ مَا قَالَ؟ فَقَامَ ثَلاَثَةَ عَشَرَ رَجُلاً، فَشَهِدُوا أَنَّهُمْ سَمِعُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: ((مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاَهُ)) [١].

وعن عمرو بن حبش قال: خطبنا الحسن بن علي بعد قتل علي رضي الله عنه فقال: (لَقَدْ فَارَقَكُمْ رَجُلٌ بِالأَمْسِ، مَا سَبَقَهُ الأَوَّلُونَ بِعِلْمٍ، وَلاَ أَدْرَكَهُ الآخِرُونَ، إِنْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيَبْعَثُهُ وَيُعْطِيهِ الرَّايَةَ، فَلاَ يَنْصَرِفُ حَتَّى يُفْتَحَ لَهُ، وَمَا تَرَكَ مِنْ صَفْرَاءَ، وَلاَ بَيْضَاءَ، إِلاَّ سَبْعَمِئَةِ دِرْهَمٍ مِنْ عَطَائِهِ، كَانَ يَرْصُدُهَا لَخَادِمٍ لأَهْلِهِ)[٢].

رابعاً- من واجبات المدعو: الاستفسار والسؤال عن الأمور المهمة:

يتضح هذا من موقف علي رضي الله عنه عندما صرخ وقال: (يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟) ومما لا شك فيه أن الاستفسار والسؤال مطلب قرآني، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٣]، قال السعدي: (ويجب السؤال في كل مسألة من مسائل الدين، أصوله وفروعه إذا لم يكن عند الإنسان علم منها، أن يسأل من يعلمها ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه، وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم نهي عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم، ونهي له أن يتصدى لذلك)[٤]، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾[٥]، وبناء على هذا كان من أهم واجبات المدعو أن يستفسر عن الأمور المهمة، وواجب الداعية أن يوجهه إلى الصواب، ويجيبه على ما سأل.

---

(١) أخرجه أحمد ٨٤/١، رقم ٦٤١، وقال محققو المسند: صحيح لغيره، ٧١/٢.

(٢) أخرجه أحمد ٢٠٠/١، رقم ١٧٢٠، وقال محققو المسند: حديث حسن، ٢٤٧/٣.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ٧.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٤٦٨.

(٥) سورة الفرقان، آية: ٥٩.

خامساً- من موضوعات الدعوة: الجهاد لإعلاء كلمة الله:

يتضح هذا من قول النبي ﷺ: "قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله"، والجهاد له فضل عظيم وشرف كبير، وهذا ما دلت عليه النصوص الشرعية ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾[١]، وقال سبحانه وتعالى آمراً بالجهاد: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾[٢]، وبيّن ثواب المجاهدين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[٣].

وبيّن أن الجهاد في سبيل الله هو التجارة الرابحة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٤]، وجعل الرسول الكريم ﷺ الجهاد في سبيل الله من أفضل الأعمال، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ سُئِلَ: أَيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ؟ فقال: ((إيمانٌ باللّهِ ورَسوله)). قيل: ثم ماذا؟ قال: ((الجهاد في سبيل الله)). قيل: ثُمَّ ماذا؟ قال: ((حَجٌّ مَبْرور))[٥].

وهذه النصوص السابقة تبين فضل الجهاد في سبيل الله، (ولما كان الجهاد هو الحجة والبرهان على صدق الإيمان كانت منازل الناس عند ربهم في الدنيا والآخرة حسب ما يقومون به من جهاد، وما يقدمونه من تضحيات، فمن حاز قصب السبق منه

---

(١) سورة التوبة، آية: ١١١.

(٢) سورة الحج، آية: ٧٨.

(٣) سورة التوبة، آية: ٢٠.

(٤) سورة الصف، الآيتان: ١٠ - ١١.

(٥) أخرجه البخاري ٢٦، ومسلم ٨٣.

وجب على المجتمع المسلم أن يرفعه ويكرمه، ومن فترت همته عنه، لم يجز تسويته بالمجاهدين، فالجهاد قيمة عليا من القيم التي يتعامل بها المجتمع المسلم، ولقد جاهد النبي ﷺ في الله حق جهاده من حين بعث إلى أن توفاه الله، وجاهد بقلبه، وجنانه، ودعوته وبيانه، وسيفه وسنانه، وكانت ساعاته وأيامه وعمره موقوفة جميعها على الجهاد، وينبغي على المسلم أن يجاهد في الله حق جهاده بأن يستعمل جميع ما أوتي من طاقة في جهاد نفسه وشيطانه وأهل الكفر والنفاق والمنكر في الأرض)[1].

سادساً- من موضوعات الدعوة: حرمة الدماء في الإسلام:

حيث جاء في الحديث: "فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها"، ويدل هذا على حرمة دم المسلم وبهذا جاءت النصوص الشرعية وتوعدت من يقتل مؤمناً متعمداً بالعذاب الأليم، قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[2]، وجعل من يقتل نفساً فكأنما قتل الناس جميعاً: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[3].

وبيّن الرسول ﷺ أن الدماء أول ما يقضى فيها، ففي الحديث: ((أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فِي الدِّمَاءِ))[4]، وفي الحديث أيضاً: ((إنَّ الله تعالى حَرَّمَ دِمَاءَكُمْ وأموالَكُمْ وأَعْرَاضَكُمْ إلاَّ بحقِّهَا كَحُرْمَةِ يَوْمِي هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، في شَهرِكُمْ هذا..))[5].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((أَكْبَرُ الكبائرِ الإشراكُ بالله،

---

(١) الجهاد ميادينه وأساليبه، د. محمد نعيم ياسين ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

(٢) سورة النساء، آية: ٩٣.

(٣) سورة المائدة، آية: ٣٢.

(٤) أخرجه البخاري ٦٥٣٣، واللفظ له، ومسلم ١٦٧٨.

(٥) أخرجه البخاري ٦٧٨٥.

وقتلُ النفسِ، وعقوقُ الوالدينِ، وقولُ الزورِ))، أَوْ قالَ: ((شَهَادَةُ الزورِ))[١]، وعن الأحنف بن قيس قال: ذَهبتُ لأنْصُرَ هذا الرَّجُلَ، فلَقِيَني أبو بَكرةَ فقال: أينَ تُريدُ؟ قلتُ: أنصُرُ هذا الرَّجُلَ: قال: ارْجِعْ، فإنّي سَمِعْتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يقول: ((إذا الْتقَى المُسْلِمان بسَيْفَيْهما فالْقاتِلُ والمقتولُ في النار)). فقلتُ: يا رسولَ اللّهِ هذا القاتِلُ، فما بالُ المقتول؟ قال: ((إنه كان حَريصاً على قتلِ صاحبه))[٢].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ. وَقِتَالُهُ كُفْرٌ))[٣]، وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللّه أنْ يَغْفِرَهُ إلاَّ مَنْ مَاتَ مُشْرِكاً أوْ مُؤْمِنٌ قَتَلَ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً))[٤]، وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: ((لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ))[٥]، ومن خلال هذه النصوص القرآنية والنبوية الكريمة يتبين حرمة الدماء في الإسلام، فيجب على الداعية الحصيف أن يسوق هذه النصوص للمدعوين ويذكرهم لإظهار رعاية الإسلام لحرمة دم المسلم.

سابعاً- من تاريخ الدعوة: فتح خيبر:

حيث جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: (يوم خيبر)، ويعتبر فتح خيبر من المعالم البارزة في تاريخ الدعوة إلى الله، "وكانت غزوة خيبر في المحرم سنة (٧ هـ) وهي مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على بعد ستين أو ثمانين ميلاً من المدينة المنورة في جهة الشمال، وكانت خيبر لها ثمانية حصون، وكان الفتح فيها على يدي علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغنم المسلمون منها مغانم كثيرة"[٦].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٨٧١ واللفظ له، ومسلم ٨٨.

(٢) أخرجه البخاري ٦٨٧٥ واللفظ له، ومسلم ١٨٨٨.

(٣) أخرجه البخاري ٧٠٧٦، ومسلم ٦٤.

(٤) أخرجه أبو داود ٤٢٧٠، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٥٨٨).

(٥) أخرجه النسائي ٣٩٨٧، وصححه الألباني (صحيح سنن النسائي ٣٧٢٢).

(٦) انظر: الرحيق المختوم، للمباركفوري ٣٦٤.

قال ابن عبدالبر: (وكان الفتح في خيبر على يد عليّ ﷺ، قال ابن إسحاق: وآخر ما افتتح رسول الله ﷺ من حصونهم الوطيح والسّلالم، وقال موسى بن عقبة: حاصر رسول الله ﷺ حصون خيبر بضع عشرة ليلة، وكان بعضها صلحاً وأكثرها عنوة، وقال ابن إسحاق: وقسم رسول الله ﷺ أرض خيبر كلها لأنه غلب على جميعها عنوة. وحاصر رسول الله ﷺ أهل خيبر في حصنهم الوطيح حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوه أن يسيرهم وأن يحقن لهم دماءهم ففعل)[١].

وقال محمد الغزالي معقباً على فتح خيبر: (ولا ريب أن الهزيمة التي أصابت بني إسرائيل في خيبر قضت على كيانهم العسكري في الجزيرة قضاءً تاماً، ومدَّ الإسلام رواقه على هذه الأرض، بعد أن ظلت حيناً من الدهر في أيدي اليهود، يعيشون عليها كما يشتهون، والعظة التي نستخلصها من هذه المعارك وما أعقبها من جلاء أن الأرض لله يورثها من يشاء، وهو لا ينتزعها من قوم، ويعطيها آخرين محاباة، كلا، ولكن الأمة التي تفسد على النعمة تسلبها، ثم تساق النعمة إلى من يقدرها ويشكر الله عليها، والأمة التي تتكبر مع الحرية، وتتبطر، تفقد امتلاكها لنفسها وحقها وأمرها، لتقع في إسار الآخرين فيصرفون شؤونها كما يشتهون، وقد طبق هذا القانون بقسوة على بني إسرائيل عندما أهدروا أحكام التوراة وتبعوا الهوى، وطبق بعد ذلك على المسلمين يوم سدروا في الغواية وجحدوا ما لديهم من هداية)[٢].

---

(١) الدرر في اختصار المغازي والسير ٢٠٠.

(٢) فقه السيرة ٣٤٨ - ٣٤٩.

المضامين التربوية في أحاديث الباب[1]

مدخل:

إرادة السبق فطرة بين الناس، وما من إنسان إلا وهو حريص على أن يسبق غيره في ميادين شتى، ومن هذه الميادين ما لا خير فيه ولا نفع، وقد غلب - في زمن العولمة الثقافية - اللهو على غيره من وسائل السبق.

والإسلام حريص على أن يكون السبق في ميدان الخير الذي يعود على الفرد والمجتمع بالخير ووردت الكلمة بصيغة العموم لتذهب النفس فيها كل مذهب فاستبقوا الخيرات ولهذا رأينا منهج الإسلام في الآتي:

أولاً- غرس قيمة المبادرة إلى فعل الخيرات:

إن الآجال قدرها الله تعالى، فهي مجهول للناس، ولذا فإن أجل الإنسان ليس معلومًا، وكذلك فإن الصحة والمال وكل أعراض الدنيا ربما تزول سريعاً، ولهذا فقد حرص النبي ﷺ على تربية صحابته على اغتنام الفرصة لعمل الخير والمسارعة إليه، ولهذا فقد جسَّد النبي ﷺ هذه القيمة قولاً وفعلاً، يقول ﷺ: «بادروا بالأعمال....»، ويقول في الصدقة: «وَلاَ تُمْهِلَ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ».

ويقول محذرًا من ضياع الفرصة، وانتهاء الأجل وقيام الساعة: "بادروا بالأعمال سبعًا...."، وأما أفعاله فمنها أنه ﷺ: «صلى العصر ثم انطلق إلى إحدى زوجاته ثم خرج مسرعاً، وعندما سُئل عن ذلك قال: "كنتُ خَلّفتُ في البيتِ تِبراً منَ الصَّدَقةِ، فكرِهتُ أنْ أُبيِّتَه".

تلك هي روح الإسلام وتنشئته لأبنائه؛ إنها تنشئة على اغتنام فرصة الغني قبل الفقر، والصحة قبل المرض، والفراغ قبل الشغل، والحياة قبل الموت، وإن من يستشعر هذه الروح فإنه سيكون مقداماً إلى الخيرات، ومتولياً عن الآثام، وسرعان ما يتراجع الظالم عن ظلمه؛ إذا علم أن الحياة قد تنتهي وهو على ظلمه، وكذلك فإن العابد

---

(١) رقم (٩، ١٠).

الشاكر يزداد في عبادته وشكره؛ لأنه على يقين بأن كل شيء قد ينتهي في لحظة واحدة، بالمرض أو الفقر أو الموت أو الساعة.

فالشخصية الإسلامية لتيقّنها أن الدنيا دار سعي وعمل، ومدتها محدودة قليلة، والآخرة دار حساب وجزاء، وهي حياة أبدية، فإننا نجدها تسارع في هذه الدنيا إلى كل عمل طيب، سبّاقة إلى كل فعل خير، وما ذلك إلا ليكون لها زاداً تتزود بها إلي يوم القيامة، وتحصل به على الثواب العظيم من الله عز وجل[(١)].

ثانياً- التربية بالمواقف والأحداث:

ويبدو ذلك جلياً من خلال موقفه ﷺ حين خرج مسرعاً يتخطى رقاب الناس إلى بعض حجر نسائه، حتى إن الناس قد فزعوا من سرعته ﷺ، فلمّا عاد سُئل عن ذلك، فقال: "ذَكَرْتُ شيئاً مِنْ تِبرٍ عندنا فكرهتُ أنْ يحبِسَني ..."، وذلك تربية لصحابته بالموقف وليس بمجرد الكلام المباشر فحسب.

ولهذه الطريقة فائدة كبيرة في العملية التربوية؛ فإن المتلقي حين يرى هذا الموقف من أستاذه، وكيف أسرع بعد الصلاة مباشرة، وكيف تركهم ولم يفسِّر لهم الموقف إلا بعد عودته، كل ذلك فيه غرس للمبدأ أو القيمة المراد غرسها بكفاءة تفوق مجرد الوعظ، فإن المرء قد يتذكر الموقف العملي أكثرمن تذكره للكلام المجرد؛ ويكون التقويم أقرب إلى النفع للمتربي إذا اقترن الموقف بالتوجيه والتفسير، مثلما رأينا في هذا الحديث.

إن الناشئ "يتأثر بالمربي من خلال قيامه بأداء العبادات وحرصه عليها واهتمامه بها بطريقة غير مباشرة، بحيث يكون ذلك حافزًا وحاثًا له على أن يختار هذا السلوك لنفسه، ما دام مربيه الذي يحبُّه ويكبره يفعل ذلك ويحرص عليه"[(٢)].

---

(١) الشخصية ومنهج الإسلام في بنائها ورعايتها، د. ناصر التركي، ص٣٦٢.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبو لاوي، ص٧٦.

ثالثاً- التربية على خلق الكرم والعطاء:

لقد دعا الإسلام مراراً إلى تغلب الإنسان على حرصه وشُحِّه ببذل ما يستطيع بذله للمحتاجين، متصدِّقاً عليهم، ورافعاً من حالهم من الفقر إلى سدِّ الحاجات الضرورية لهم، ولهذا فقد ربَّى النبي ﷺ صحابته الكرام على البَذْل والعطاء، حتى في حال الفقر، يقول ﷺ: "أن تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى".

تلك من سمات المسلم الحق، والجود والكرم من أساسيات التربية الإسلامية؛ لأن الإنسان "إذا ما اتصف بالسَّخاء زكت نفسه، ولانت عريكتُه، وقاده ذلك إلى أن يترقى في مكارم الأخلاق، ومدارج الفضيلة، فالكريم قريب من كل خير وبر، ولهذا فقد كان الأكابر يبادرون إلى تلك الخصلة، ويحرصون كل الحرص على اكتسابها، ويوصون غيرهم بأن يتحلى بها"[١].

رابعاً- التربية على عُلُوِّ الهمَّة:

إن النبي ﷺ حرص على تربية أصحابه رضي الله عنهم وتنشئتهم على علوّ الهمة، وسمو أنفسهم لبلوغ معالي الأمور، فليس يكفي المسلم إلا أعلى الدرجات، وليس يقنعه الفتات، إنما تراه دائماً سامقاً إلى العلا، طالباً بجده واجتهاده وهمته العالية الثريا، وهذا رسول الله ﷺ في إحدى غزواته يأخذ سيفه ويقول: «من يأخذ هذا مني؟»، فيتبادر الصحابة إلى تناوله، ولكنه قال: «فمن يأخذه بحقه؟»، فأحجم الجميع، ولكن أبا دجانة رضي الله عنه بعلو همته أبى إلا أن يكون صاحب هذا السيف، فأخذه وقاتل وقتل المشركين.

وفي فتح خيبر عندما أخبر ﷺ أنه معط الراية لرجل «يُحِبُّ اللّهَ وَرَسُولَهُ...» يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «مَا أَحْبَبْتُ الإِمَارَةَ إِلاَّ يَوْمَئِذٍ . قَالَ: فَتَسَاوَرْتُ لَهَا رَجَاءَ أَنْ أُدْعَى لَهَا»، حرصاً منه على أن يبلغ أعلى الدرجات في الدنيا والآخرة.

وإنما تعلو قيمة المرء وتسمو مكانته بقدر نصيبه من علو الهمة، ذلك أن علو الهمة

---

(١) رسائل في التربية والأخلاق والسلوك، محمد إبراهيم الحمد، ص٥٢٥.

يستلزم الجد والإباء، ونشدان المعالي، والترفع عن الدنايا والصغائر ومحقرات الأمور[١].

خامساً: غرس خلق الصبر في نفوس المتربين:

إن غرس الصبر في النفوس من المبادئ التربوية التي أمر بها الإسلام؛ فعندما يُصاب الإنسان بمكروه فإنه يحتاج إلى الصبر، وعندما يحرم خيراً فإنه كذلك يحتاج إلى الصبر، إن العبادات أيضاً تحتاج إلى الصبر، يقول النبي ﷺ: «اصبروا، لاَ يَأْتِي زَمَانٌ إِلاَّ وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، حتى تلقوا ربكم». وليس في ذلك دعوة للتشاؤم بالأيام المقبلة؛ بل هو توطين للنفوس على تحمل المكاره، والصبر عليها، وذلك من واقعية التربية الإسلامية.

إن النبي ﷺ أخبر بأن الشر يتفاقم وينمو كلما مرَّت الأيام، وأمر صحابته الكرام بالتحلي بخلق الصبر، الذي يستطيعون به العبور عبر لجج الابتلاءات، وحمأة المكاره في أيام الظلمات.

قال أبو حامد الغزالي في الصبر وضرورته في جميع الأحوال: "اعلم أن جميع ما يلقى العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين: أحدهما: هو الذي يوافق هواه، والآخر: هو الذي لا يوافقه بل يكرهه، وهو محتاج إلى الصبر في كل واحد منهما، وهو في جميع الأحوال لا يخلو عن أحد هذين النوعين أو عن كليهما، فهو إذن لا يستغنى قط عن الصبر"[٢].

سادساً: نشر روح هدي النبي ﷺ في التربية والتعليم، إخبار الإنسان من يحبه بأنه يحبه:

وفي هذا سبيل لتقوية الروابط بين المسلمين وإعلاء قدر أهل الخير "لأعطين الراية غداً لرجل يحب الله ورسول ويحبه الله ورسوله.

سابعاً: من الأسس العلمية التعليمية ما يلي:

١- توجيه المنهج من المعلم إلى المتعلم.

---

(١) الهمة العالية، محمد إبراهيم الحمد، ص١٠٧.

(٢) تزكية الأنفس، سعيد حوى، ص٣١٠.

٢- قبول المتعلم نصح معلمه وموجهه.

٣- سؤال المتعلم عما أشكل عليه، فعليّ رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ على ماذا أقاتل الناس؟

٤- من حق كل إنسان أن ينال شرف الذكر بالخير، وأن يكون صاحب الفضل في موطن الفضل، ولا يعد هذا أثرةً، بل هو من باب قول الحق: "وفي ذلك فليتنافس المتنافسون".



١١- باب المجاهدة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت: ٦٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[الحجر: ٩٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾[المزمل: ٨]: أي انْقَطِعْ إِلَيْه، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾[الزلزلة: ٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾[المزمل: ٢٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٧٣] والآيات في الباب كثيرة معلومة.

وأما الأحاديث:

الحديث رقم (٩٥)

٩٥- **فالأول:** عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إنَّ اللَّه تعالى قال: منْ عادى لي وليًّا. فقدْ آذنتهُ بالْحرْب. وما تقرَّبَ إلَيَ عبْدِي بشْيءٍ أَحبَّ إلَيَ مِمَّا افْتَرَضْت عليْهِ: وما يَزالُ عبدي يتقرَّبُ إلى بالنَّوافِل حتَّى أُحِبَّه، فَإذا أَحبَبْتُه: كُنْتُ سمعهُ الَّذي يسْمعُ به، ويَصره الذي يُبصِرُ بِهِ، ويدَهُ التي يَبْطِش بِهَا، ورِجلَهُ التي يمْشِي بها، وَإنْ سأَلَنِي أَعْطيْتَه[١]، ولَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَّنه**» رواه البخاري[٢].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

آذنته: أعلمته بأني محارب له[٣].

افترضت: أوجبت[٤].

---

(١) لفظ البخاري: (لأعطينه).

(٢) برقم (٦٥٠٢).

(٣) رياض الصالحين ٨٩.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (و ج ب).

النوافل: المفرد: النفل: وهو ما كان زائدًا عن الواجب صدقة كان أم صلاة أم صيامًا أم غير ذلك[١].

استعاذني: روي بالنون والباء[٢]، أي لجأ إلي واعتصم بي[٣].

الشرح الأدبي

من إشراقات هذا الحديث القدسي تنبعث أشعة الهداية وأنوار الولاية، وفيوضات القرب من الله عز وجل، ويعلن الحق سبحانه وتعالى حمايته لأوليائه. والحديث يحدد علامات الولي الذي يستحق دفاع ربه عنه، فمحصلات الولاية أنه لا يُقَرِّب من الله إلا أداء الفرائض الظاهرة، كالصلاة، والزكاة، وترك الفواحش، وأكل أموال الناس بالباطل، والفرائض الخفية: الباطنة كالعلم بالله والتوكل عليه.

ونقتبس من الحديث مظاهر الولاية وعلامة صاحبها، فالولي هو الذي يتعلق بالخالق لا بالمخلوق، وهو الذي يطلب الفضل من الله لا من الناس، وهو الذي يملأ سمعه بذكر الله، وبصره بما يرضى الله، ويبطش بيده في سبيل الله، ويمشي إلى بيوت يذكر فيها اسم الله[٤]، ولا يرتاد أماكن الخنا واللهو والفجور، ولا يسعى في حرام ولا إلى حرام، وهو مستجاب الدعاء، متحقق الرجاء، ينعم بحماية العزيز الجبار، الكبير المتعال.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث القدسي الشريف؛ والحديث تسمو كلماته، وتشرف معانيه، وتسمق مبانيه، وتشع أصداؤه بالهدى الإلهي لأنه صادر عن الله عز وجل، وكل ألفاظ الحديث يتكلم بها الله سبحانه، وشاهد ذلك أن في الحديث أربعة عشر موضعًا فيها ضمائر: ضمير ياء المتكلم أو ضمير هاء الغيبة أو تاء

---

(١) معجم لغة الفقهاء ٤٥٦.

(٢) رياض الصالحين ٨٩.

(٣) الوسيط في (ع و ذ).

(٤) انظر: المنهل العذب الفرات من الأحاديث الأمهات، د. عبد العال أحمد عبد العال ٦/ ٢٣.

المتكلم، وهي تمثل شرايين الحديث، وأنفاسه ونبضه الحي، الذي يشد السامع، ويؤثر في النفوس المؤمنة. وتكرّر لفظ عبدي مرتين، تكريمًا للمؤمن الذي حظي بمرتبة الولاية والحماية من الله عز وجل. ولفظ "ولي" يمكن تفسيره حسب دلالته اللغوية: فهو إمّا على وزن فعيل بمعنى مفعول، وهو من تولى الله أمره، فلم يكله إلى نفسه كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1]. وإما على وزن فاعل وهو من تولى عبادة الله وطاعته، وكلا الوصفين واجب، حتى يكون الولي وليًا، فمن شرط الولي أن يكون محفوظًا وأن يكون قائمًا بحقوق الله على وجه الاستقصاء والاستيفاء، والجار والمجرور لي متعلق بمحذوف حال من "وليا" أي حالة كونه وليًا لي: أي الله، وأصله صفة للولي قدمت عليه[2].

وهذه الجملة المشعة بحماية الله عز وجل لأوليائه صيغت في قالب الشرط والجزاء، ويوحي ذلك بتحقيق الجواب، وهو إعلان الحرب على من يعادي أولياء الله، ومن حاربه الله أهلكه، لأنه لا يغلبه غالب، وأطلق الإيذان بالحرب، وأكد ذلك بقد، ولكن أريد لازمة من باب الكناية بوسائط، لأن من كره حبيب الله خالف الله، ومن خالف الله عانده، ومن عانده أهلكه، وإذا ثبت هذا في جانب المعاداة، ثبت في جانب الموالاة، فمن والى أولياء الله أكرمه الله، وفي ذلك تهديد شديد للمعادي، وإكرام بالغ للموالي.

والتعبير بالفعل "عادى لي وليًا" وهو يفيد المفاعلة، أي المعاداة من الجانبين، ويوحي بأن الولي يعادي مع أن شأنه الحلم والصفح عمن يجهل عليه، وهذا الإيحاء ليس على إطلاقه، لأن المعادلة لا تنحصر في الخصومة الدنيوية التي تتسم بها معاداة من يعادي الأولياء، فالمعاداة من الولي تكون لله تعالى، وفي الله أي من أجل حماية الدين، والدفاع عن القيم والأخلاق الإيمانية، أما الجانب الآخر فهو غير ذلك، وقيل إن "فاعل" هنا وهى

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٩٦ .

(٢) انظر: المنهل العذب الفرات من الأحاديث الأمهات، د. عبد العال أحمد عبد العال ٢١/٦.

وزن الفعل "عادى" بمعنى فعل: كراقب وآخذ، فتكون العداوة من جانب واحد، كما تكون المراقبة والمؤاخذة من جانب واحد.

وتكرار لفظ "إليّ" ثلاث مرات في الجملتين الثانية والثالثة يرشد إلى عظم هذه القربات، وقد تكررت مرتين في الجملة الخاصة بالفرائض، ومرة واحدة في الجملة الخاصة بالنوافل، وفي ذلك إرشاد وإفادة بأن الفرائض أحب الأعمال إلى الله، والفرض كالأصل والأساس، والنفل كالفرع والبناء، وفي الإتيان بالفرائض على الوجه المأمور به امتثال للأمر، وتبجيل لأمر الله وتعظيم له، وانقياد إليه، فكان التقرب بذلك أعظم العمل، فالفرائض تنتج القرب، والنوافل تكمله، ولذلك قيل: من شغله الفرض عن النفل فهو معذور، ومن شغله النفل عن الفرض فهو مغرور، وروي "أن ثواب الفرض يفضل ثواب النفل بسبعين درجة"[(١)].

ولأن التقرب إلى الله يحتاج إلى مجاهدة ومكابدة فقد جاءت لغة الحديث موافقة لذلك وموحية به، في قوله: "وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه" فالفعل "ما يزال" يفيد الاستمرار ولذلك لا بد من المداومة على النوافل وهي التطوعات من جميع أصناف العبادات الظاهرة: كقراءة القرآن، والصلوات، والذكر الدائم، والباطنة كالزهد والورع والتوكل والرضا، ولذلك أضاف الله لفظ عبد إلى نفسه "عبدي" تشريفًا وتكريمًا، ويزداد الشرف بما يوحيه لفظ إليّ، حيث يرشد إلى إخلاص النية والصبر والمجاهدة في سبيل ذلك، ولفظ "حتى" يدل على الغاية، ويرشد إلى أن حب الله للعبد لا يأتي إلا بعد مجاهدة وتقرب وإخلاص والتزام بأداء الفرائض، وإكثار من النوافل الظاهرة والباطنة، ولفظ "حتى" يتوهج بكل هذه المعاني والإيحاءات.

وعندما يفوز العبد بمحبة خالقه يحصل على أعظم الجزاء، وقد صيغ هذا المعنى في قالب الشرط والجواب، وما أعظم ذلك الثواب الذي لا يعدله ثواب آخر! ولنتأمل جمال الأداء الأسلوبي المشع بكثير من المعاني والفيوضات: "كنت سمعه الذي يسمع به،

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١ /٢٦٢.

وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها".

وتتعدد الدلالات في تفسير المراد من هذه العبارات المشرقات بمحبة الله لعباده المقربين، فالسمع في الحديث بمعنى المسموع، والبصر بمعنى المبصر، فحواس الإنسان الظاهرة بفضل محبة الله تراقب الله عند السمع، وتذكره عند البصر، وتخشاه عند البطش، وتتقيه عند المشي كأنها تراه. وقيل: في الكلام مضاف محذوف والأصل: "كنت حافظ سمعه، وحافظ بصره، وحافظ يده ورجله: فلا يسمع، ولا يرى، ولا يعمل، ولا يسعى إلا فيما أحله الله وشرعه" وما أجمل ختام الحديث بهاتين الجملتين المتناسقتين بناء نحويًا، وإيقاعًا صوتيًا، وتأكيدًا على إكرام أولياء الله وعباده المقربين! فالله يعطيهم إذا سألوا ويعينهم ويجيرهم إذا استجاروا به.

والحديث كله في صيغة الإفراد إرشاد إلى أن كل إنسان مسؤول عن نفسه، فكل نفس بما كسبت رهينة، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى. فاللهم اجعلنا من عبادك المقربين وأوليائك المحبين، آمين.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم فعل الفرائض والنوافل، وقد ذكر الفقهاء[1] أن الأصل المطرد أن الفرض أفضل من النفل، واستثنوا من ذلك صورًا كان النفل فيها أفضل، عدّها بعضهم ستًا ومنها: إبراء المعسر، فهو نفل، ولكنه أفضل من إنظاره الذي هو فرض، ورد بأن الإبراء يشمل الإنظار وزيادة، فلم يفضل فيه النفل الفرض، ومنه أيضًا ابتداء السلام فهو سنة، ورده فرض، ومع ذلك كان الابتداء أفضل، وكذا الأذان سنة، وهو أفضل من الإمامة التي هي فرض كفاية أو فرض عين على ما رجحه النووي في هذا الشأن، والوضوء قبل الوقت سنة، وفي الوقت فرض، وهو قبل الوقت أفضل منه في الوقت وغير ذلك.

---

(١) الأشباه والنظائر للسيوطي ص ١٤٥ وما بعدها، غمز العيون والبصائر ٤٤٨/٤، أنوار البروق ١٢٢/٢ وما بعدها، غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، الإسفراييني ٢٨٦/١، تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي ١٢٥/١.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حب الله تعالى لأوليائه.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

ثالثا: من موضوعات الدعوة: فضل التقرب إلى الله بالنوافل.

رابعًا: من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حب الله تعالى لأوليائه:

يظهر هذا من قوله في الحديث: "من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب"، قال ابن حجر: (المراد بولي الله: العالم بالله المواظب على طاعته المخلص في عبادته، قال الفاكهاني: وفي الحديث تهديد شديد، لأن من حاربه الله أهلكه، وهو من المجاز البليغ، لأن من كره من أحب الله خالف الله ومن خالف الله عانده ومن عانده أهلكه، وإذا ثبت هذا في جانب المعاداة ثبت في جانب الموالاة، فمن والى أولياء الله أكرمه الله، وقال الطوفي: لما كان ولي الله من تولى الله بالطاعة والتقوى، تولاه الله بالحفظ والنصرة)[1].

هذا وقد دلت النصوص الشرعية على حب الله تعالى لأوليائه، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2]، وبيّن سبحانه وتعالى أنه خص المؤمنين بولايته: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[3]، وأخبر سبحانه أنه يدافع عن المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾[4]، وبيّن محبته وولايته للصالحين: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[5]، وطمأن المؤمنين بقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[6]، ولحب

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ١١/٣٥٠.

(٢) سورة يونس، آية: ٦٢.

(٣) سورة محمد، آية: ١١.

(٤) سورة الحج، آية: ٣٨.

(٥) سورة الأعراف، آية: ١٩٦.

(٦) سورة المائدة، آية: ٥٥.

الله لأوليائه بشر المؤمنين المطيعين بأن الملائكة تنزل لبشارتهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾[1].

وفي بيان معنى المولى الذي يستحق هذا الثواب والفضل من الله، قال ابن القيم: (ومن فناء خواص الأولياء والمقربين أن الولي لا يحب إلا في الله، ولا يبغض إلا فيه، ولا يوالي إلا فيه، ولا يعادي إلا فيه، ولا يعطي إلا له ولا يمنع إلا له، ولا يرجو إلا إياه، ولا يستعين إلا به، فيكون دينه كله ظاهرًا وباطنًا له، ويكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، فلا يُوادُّ من حادّ الله ورسوله، ولو كان أقرب الخلق إليه بل:

يعادي الذي عادى من الناس كلهم ... جميعًا ولو كان الحبيب

وحقيقة ذلك: فناؤه عن هوى نفسه وحظوظها بمراضي ربه وحقوقه، والجامع لهذا كله: تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، علمًا، ومعرفة، وعملاً، وحالاً، وقصدا"[2].

ومن خلال ما سبق يتضح حب الله تعالى لأوليائه المطيعين له المستجيبين لأمره، الواقفين عند حدوده، الملتزمين بالفرائض والنوافل.

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

حيث جاء في الحديث: "فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به..."، وهذا مما يرغب الإنسان في طاعة الله ومرضاته، لينال حب الله، ومما لا شك فيه أن أسلوب الترغيب من الأساليب الدعوية المهمة؛ لأن النفس البشرية بطبيعتها تميل إلى المنفعة والثواب، وأسلوب الترغيب يشجع الإنسان على الطاعة أملاً في ثواب الله، "والمقصود بالترغيب في الشرع: كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه، وهو يأتي حسب الأحوال، والنفوس، والمواقف، فمن النفوس من ترغب في الخير، وتهفو إلى الهدى وتشتاق إلى النور ذكر

---

(١) سورة فصلت، الآيتان: ٣٠ - ٣١.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ١/٣١٤ - ٣١٥.

الخير يرغبها، ودعوة الإحسان تدفعها ونور الحق يدفئها"(١)، ولذا فعلى الدعاة استخدام هذا الأسلوب في الدعوة والموازنة بينه وبين أسلوب الترهيب.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل التقرب إلى الله بالنوافل:

حيث جاء في الحديث: "وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه"، قال ابن حجر: (وفي هذا الحديث أن من أتي بما وجب عليه وتقرب بالنوافل، لم يُردّ دعاؤه لوجود هذا الوعد الصادق المؤكد بالقسم، وأن العبد ولو بلغ أعلى الدرجات حتى يكون محبوبًا لله، لا ينقطع عن الطلب من الله لما فيه من الخضوع له وإظهار العبودية)(٢)، وما من شك في أن هذا الحديث يشير إلى أن كثرة نوافل العبادات بعد الفرائض كالصلاة النافلة ونحوها، وصوم التطوع والصدقات المستحبة ونموها من نوافل العبادات، تؤدي إلى إجابة دعاء هذا المتقرب إلى ربه بالنوافل بعد الفرائض.

"لقد شرع رسول الله ﷺ سنن الصلوات الرواتب، ورغّب المصلين فيها، وحثهم على المواظبة عليها بقوله وفعله، والحقيقة أن العناية بها، والحرص عليها لدليل على الاهتمام الكبير بشأن الفروض الخمسة التي جعلها الله على المؤمنين كتابًا موقوتًا، والعكس بالعكس فإن التهاون بها، والتفريط فيها وسيلة إلى التقصير في الفرائض، أو الإضاعة لها لأن دعوة الشيطان مرحلية، ذلك بأن يأتي إلى المصلى، ويزهده في السنن الرواتب بحجة أنها لا يترتب على تركها عقاب، حتى إذا أقنعه بذلك واقتنع، انتقل به قطعًا إلى تأخير الفرائض عن أوقاتها المحددة، وصلاتها في البيوت، ولا يزال به حتى يقطع الصلة التي بينه وبين الله"(٣).

رابعًا- من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم:

حيث جاء في الحديث فضل النوافل، وأنها توصل إلى محبة الله، ويعتبر من أولى مهام الداعية إرشاد المدعوين إلى ما فيه نفعهم ومصلحتهم، وقد قال النبي ﷺ في

---

(١) الدعوة إلى الله "الرسالة - الوسيلة - الهدف"، د. توفيق الواعي ص ١٩٩.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١١/٣٥٣.

(٣) المنهج القويم في التأسي بالرسول الكريم، زيد محمد هادي مدخلي، ص ١٨٨.

الحديث: ((مَنْ دَلَّ على خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ))[1].

ولقد بيّن النبي ﷺ في الحديث الذي معنا ما فيه نفع المدعوين من خلال بيان فضل التقرب بالنوافل والمداومة عليها، "ومن الفوائد الجليلة والمقاصد الحسنة الدنيوية والأخروية للمحافظة على الفرائض والنوافل أن فاعلها ينال رعاية الله حفظه، ومعيته ومحبته، وفاعلها ينال الرضا من الله، ودخول جنته في تلك الرياض الناضرة والأنهار الجارية، وفوق ذلك كله النظر إلى وجه الكريم الرحمن فإن نوافل الصلاة من القربات التي ترفع العبد درجات، وتكفر عنه السيئات والخطيئات"[2].

والواجب على الدعاة الهداة إلى الله: الاقتداء بالنبي ﷺ في الحرص على نفع المدعوين وإرشادهم إلى ما فيه الخير لهم في الدنيا والآخرة، فإن من طبيعة الداعي أنه حريص على قومه وعلى منفعتهم، قال الله تعالى عن إمام الدعاة ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

---

(١) أخرجه مسلم ١٨٩٣.

(٢) المنهج القويم في التأسي بالرسول الكريم، زيد محمد هادي مدخلي، ص ١٩٠.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

الحديث رقم (٩٦)

٩٦- **الثاني:** عن أَنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيمَا يرْوِيهِ عنْ ربهِ عزَّ وجَلَّ قال: «**إِذَا تقرب الْعبْدُ إِليَّ شِبْرًا تَقرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِراعًا، وإِذَا تقرَّب إِلَيَّ ذراعًا تقرَّبْتُ منه باعًا، وإِذا أَتانِي يَمْشِي أَتيْتُهُ هرْوَلَة**» رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

انس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

باعًا: الباع في اللغة: مسافة ما بين الكفين إذا انبسطت الذراعان يمينًا وشمالاً[2].

هرولة: يقال في اللغة: هرول: أي أسرع: بين العدو (الجري) والمشي[3].

الشرح الأدبي

إن من أمارات صحة الإيمان وصدقه أن يكون الله ورسوله أحب للمؤمن مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله. وحين نتأمل هذا الحديث القدسي، ونسبح في أنواره، ندرك أنه ثمرة إيمانية نقتطفها من حديقة الحديث السابق الذي حدد الطريق إلى محبة الله عز وجل، وهو أداء الفرائض والنوافل على الوجه الأكمل، والمؤمن بذلك يسلك الطريق المستقيم حيث يستحق موالاة الله عز وجل ويكون من أوليائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

والحديث في بنائه اللغوي يتكون من ثلاث جمل، يجمع بينها التناسق العجيب، والبناء المحكم. وهذا الاستواء في الشكل اللغوي يؤازره المعنى المبشر، والوعد الصادق بمضاعفة الثواب، وازدياد القرب من المعطي الوهاب. وهذه الجمل الثلاث وعود ربانية،

---

(١) برقم (٧٥٣٦).

(٢) الوسيط في (ب و ع).

(٣) وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والوسيط في (هـ ر و ل)، وفتح الباري، ابن حجر ٥٢٢/١٣.

وبشارات إلهية، يعد الله عباده الصالحين بتحققها، ومما يدل على هذا التحقق صياغتها اللغوية، حيث جاءت كلها في قالب الشرط والجواب، وهي في مضمونها تقدم الجزاء المضاعف على العمل المتقن الخالص لوجه الله عز وجل، وأداة الشرط "إذا" تشارك، باختيارها لتكون أداة للشرط، في تحقق الوعد لأنها تفيد ذلك، والسياق الذي ترد فيه يكون محاطًا بالتحقق، والشواهد اللغوية والقرآنية والحديثية تنهض بذلك، واختيار لفظ "العبد" وتكراره في هذا السياق الذي يشع بهالات القرب من الله عز وجل يرشد إلى أن الطريق إلى محبة الله عز وجل هو الإقرار بالعبودية، والقيام بكل متعلقاتها.

وفي الحديث إشارات لغوية تنبض بأمارات الحب الإلهي، وبعظمة الإحساس لدى العبد برعاية الله له ويتجلى ذلك في تكرار هذه الألفاظ (إليَّ، إليه، إليّ، منه، أتاني، أتيته).

ومما يؤكد رعاية الله سبحانه لعباده المؤمنين المقربين تكرار مادة التقرب أربع مرات، للترغيب في محبة الله والعمل على التقرب الدائم إلى الله عز وجل، وما أعظم كرم الخالق في إثابة المخلوق! فالثواب مضاعف.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله تعالى على عبده المؤمن.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: قرب الله من عباده.

ثالثًا: من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الشرط والترغيب والتشويق.

أولاً- من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله تعالى على عبده المؤمن:

إن من أبرز موضوعات الدعوة في هذا الحديث، بيان فضل الله تعالى على عبده المؤمن، فقد أخبر النبي ﷺ عن ربه عز وجلّ أنّه يعامل عبده بما هو أهله من الفضل والكرم (فدليل مبلغ كرامته سبحانه وتعالى لمن أدمن على طاعته أن ثوابه على عمل

العبد الضعف، وأن الكرامة مجاوزة حده إلى ما يثيبه الله تعالى)[١].

وقال ابن تيمية: (وهو سبحانه يحب من يحبه، لا يمكن أن يكون العبد محبًا لله، والله تعالى غير محب له، بل بقدر محبة العبد لربه يكون حب الله له. وإن كان جزاء الله لعبده أعظم، كما في الحديث الصحيح الإلهي عن الله تعالى أنه قال: "من تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا، ومن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة")[٢].

وقد جاءت آيات كثيرة وأحاديث عديدة توضح فضل الله تعالى على عبده المؤمن، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[٣] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[٤] ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[٥].

وقال الله تعالى مخاطبًا المؤمنين ومذكرًا بحالهم يوم بدر وتفضله عليهم بالنصر والعزة بعد أن كانوا في ذلة وهوان قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[٦].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل قال: ((إنَّ الله

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٥٢٢/١٣ بتصرف يسير.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٢٩١/٥.

(٣) سورة الحديد، آية: ٢٩، الجمعة، آية: ٤.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٤٣، غافر، آية: ٦١.

(٥) سورة النساء، آية: ١١٣.

(٦) سورة آل عمران، الآيات: ١٢٣-١٢٦.

كتبَ الحسناتِ والسيِّئات ثم بينَ ذلك، فمن همَّ بحسنةٍ فلم يَعملْها كتبها اللّهُ له عندَهُ حسنَةَ كاملة، فإن هوَ هم بها فعَمِلها كتبها اللّه له عنده عشرَ حسنات إلى سبعمائةِ ضعف إلى أَضعافٍ كثيرة ومن هم بسيِّئةٍ فلم يعملها كتبها اللّهُ له عِنْدَهُ حسنة كاملة، فإن هو هَمَّ بها فعملَها كتبها اللّه له سيئة واحدة))[1].

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال ابن بطال: في هذا الحديث بيان فضل الله العظيم على هذه الأمة، لأنه لولا ذلك كاد لا يدخل أحد الجنة؛ لأن عمل العباد للسيئات أكثر من عملهم الحسنات)[2].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: قرب الله من عباده:

وهذا واضحٌ من الحديث. قال ابن تيمية: (وهذه الزيادة تكون على الوجه المتفق عليه، بزيادة تقريبه للعبد إليه جزاء على تقربه باختياره. فكلما تقرب العبد باختياره، قدر شبر زاده الله قربًا إليه حتى يكون كالمتقرب بذراع، فكذلك قرب الرب من قلب العابد، وهو ما يحصل في قلب العبد من معرفة الرب والإيمان به. وهو المثل الأعلى، وهذا -أيضًا- لا نزاع فيه، وذلك أن العبد يصير محبًا لما أحب الرب، مبغضًا لما أبغض مواليًا لمن يوالي، معاديًا لمن يعادي، فيتحد مراده مع المراد المأمور به الذي يحبه الله ويرضاه. وهذا مما يدخل في موالاة العبد لربه، وموالاة الرب لعبده. فإن الولاية ضد العداوة، والولاية تتضمن المحبة والموافقة، والعداوة تتضمن البغض والمخالفة)[3].

وقال كذلك: (ثم قرب الرب من عبده، هل هو من لوازم هذا القرب؟ كما أن المتقرب إلى الشيء الساكن كالبيت المحجوج والجدار والجبل، كلما قربت منه قرب منك. أو هو قرب آخر يفعله الرب، كما أنك إذا قربت إلى الشيء المتحرك إليك تحرك أيضًا إليك، فمنك فعل ومنه فعل آخر، هذا فيه قولان لأهل السنة)[4].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٤٩١، ومسلم ١٣١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١١/٣٣٦.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٣/٢٠٤.

(٤) المرجع السابق ٣/٣٥٠.

وقال أيضًا: (وقوله: "من تقرب إليّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا ومن تقرب إليّ ذراعًا تقربت إليه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة" فقرب الشيء من الشيء مستلزم لقرب الآخر منه، لكن قد يكون قرب الثاني هو اللازم من قرب الأول، ويكون منه أيضًا قرب بنفسه، فالأول: كمن تقرب إلى مكة أو حائط الكعبة، فكلما قرب منه قرب الآخر منه، من غير أن يكون منه فعل، والثاني: كقرب الإنسان إلى من يتقرب هو إليه كما تقدم في هذا الأثر الإلهي، فتقرب العبد إلى الله، وتقريبه له نطقت به نصوص متعددة مثل قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾[1] ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾﴾[2] ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾[3] ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾[4].

((وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افتَرَضْته عليه))[5] الحديث. وفي الحديث ((أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ العَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الآخِرِ))[6].

وفي الحديث الصحيح: ((إن الله يدنو عشية عرفة))[7] الحديث. فهذا القرب كله خاص، وليس في الكتاب والسنة قط قرب ذاته من جميع المخلوقات في كل حال، فإذا تبين ذلك، فالداعي والساجد يوجه روحه إلى الله، والروح لها عروج يناسبها، فتقرب من الله تعالى بلا ريب بحسب تخلصها من الشوائب، فيكون الله عز وجل منها قريبًا قربًا يلزم من قربها، ويكون منه قرب آخر كقربه عشية عرفة وفي جوف الليل وإلى من تقرب منه شبرًا تقرب منه ذراعًا[8].

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٥٧.

(٢) سورة الواقعة، آية: ٨٨.

(٣) سورة المطففين، آية: ٢٨.

(٤) سورة النساء، آية: ١٧٢.

(٥) أخرجه البخاري ٦٥٠٢.

(٦) أخرجه الترمذي ٣٥٧٩، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٨٣٣).

(٧) أخرجه مسلم ١٣٤٨.

(٨) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٤٨/٣-١٤٩.

ثالثًا- من مهام الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

لقد بيّن النبي ﷺ في الحديث فضل الله العظيم على عباده المؤمنين، فإنه سبحانه يجازي على العمل القليل بالثواب العظيم، وأن العمل الصالح يقرب العبد من ربه فيرضى عنه سبحانه ويجتبيه. ومن هذا القبيل حديث التبكير إلى صلاة الجمعة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((مَن اغتسَلَ يومَ الجمعةِ غُسلَ الْجنابةِ ثم راحَ فكأنَّما قرَّب بَدَنَةً، وَمَن راح في الساعةِ الثانيةِ فكأَنما قرَّبَ بقرةً، ومن راح في الساعةِ الثالثةِ فكأَنما قرَّب كَبشًا أَقْرَنَ، ومن راح في الساعةِ الرابعةِ فكأَنما قرَّب دَجاجةً، ومن راح في الساعةِ الخامسةِ فكأَنما قرَّبَ بيضةً. فإذا خرجَ الإمامُ حَضَرَتِ الملائكةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكر))[١].

ومن ذلك قوله ﷺ في وصف المسيح الدجال: ((إن ربكم ليسَ بأعور، وإنه أعورُ العينِ اليمنى كأنَّ عينَهُ عنبةٌ طافية))[٢].

كما من قبيل بيان الحقائق قول النبي ﷺ عن دم الحيض الذي يصيب النساء: ((هَذَا أَمْرٌ كَتَبَهُ اللّهُ عَلَىٰ بَنَاتِ آدَمَ))[٣]، قال ابن عثيمين: (الحيض دم طبيعة، ليس دمًا طارئًا أو عارضًا، بل هو من طبيعة النساء، لقول النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها: (إن هذا أمر كتبه الله على بنات آدم) أي كتبه قدرًا، بخلاف الاستحاضة فهي دم طارئ عارض كما قال النبي ﷺ في الاستحاضة: ((إنَّهَا دَمُ عِرْقٍ))[٤]، فإذا عرف الإنسان مكتوب عليه وعلى غيره، فإنه يهون عليه"[٥].

---

(١) أخرجه البخاري ٨٨١ واللفظ له، ومسلم ٨٥٠.

(٢) أخرجه البخاري ٤٤٠٢، ومسلم.

(٣) أخرجه البخاري ٢٩٤، ومسلم ١٢١١.

(٤) أخرجه البخاري ٣٢٧، ومسلم ٣٣٣.

(٥) الشرح الممتع على زاد المستقنع، محمد بن صالح العثيمين، اعتنى به وخرّج أحاديثه: عمر بن سليمان الحفيان ١/٥٥٤.

رابعًا- من أساليب الدعوة: الشرط والترغيب والتشويق:

لقد ورد الشرط في الحديث في لفظة "إذا" وذلك ليبين الجزاء المترتب على فعل الشرط، ومن ثمَّ يجعل المدعو منتبهًا مشدودًا إلى معرفة جواب الشرط، فإذا عرفه ازداد إقبالاً على إقبال، ومسارعة على مسارعة، لأن الجزاء يكون تقرب الله سبحانه وتعالى إليه، وفي هذا ترغيب ما بعده ترغيب، وتشويق ما بعده تشويق للامتثال، فالجزاء ليس ملذات حسية ونعمًا مادية، وإنما هو قرب الله سبحانه وتعالى، وهذا جزاء ما أعظمه وما أجمله وما أحلاه.

الحديث رقم (٩٧)

٩٧- **الثالث:** عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : «**نِعْمتانِ مغبونٌ فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**» رواه البُخَارِيُّ[1].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

مغبون: الغبن: أن تبخس صاحبك في معاملة بينك وبينه بضرب من الإخفاء[2]، والمراد: أن من لا يستعملها فيما ينبغي فقد غُبن لكونه باعهما ببخسٍ.

الشرح الأدبي

هذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ، فهو قليل المبنى، كثير المعنى. والإيجاز هو: تأدية المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة - كما يقول الأديب أحمد حسن الزيات- ثم يقول: "والإيجاز غالب على أسلوب الرسول؛ لأن الإيجاز قوة في التعبير، وامتلاء في اللفظ، وشدة في التماسك، وهذه صفات تلازم قوة العقل، وقوة الروح، وقوة الشعور، وهذه القوى كلها على أكمل ما تكون في الرسول ﷺ، ومن هنا شاعت جوامع الكلم في خطبه[3] وفي أحاديثه.

وفي ضوء هذه القيمة البلاغية والأدبية للإيجاز في الحديث النبوي نتأمل بعض أسرار الجمال التعبيري في هذا الحديث النبوي الشريف، والحديث متماسك البناء، فهو في رأي بعض العلماء جملة واحدة، مكونة من مبتدأ وخبر، وبدل ومبدل منه، فالمبتدأ "نعمتان"، والنطق بهذه الكلمة يحتاج إلى تكملة المعنى، وتوضيحه وإضاءته،

---

(١) برقم (٦٤١٢).

(٢) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ٣٥٧، وشرح الطيبي ٢٨٣/٩.

(٣) انظر: وحى الرسالة: أحمد حسن الزيات ١٩/٣: وانظر البيان النبوي د. محمد رجب البيومي، ص ٧٥.

فما هاتان النعمتان؟ وقبل أن تأتي الإجابة على السؤال يضع المصطفى ﷺ توصيفًا لهاتين النعمتين بأنهما "مغبون فيهما كثير من الناس".

والأمر يحتاج إلى توضيح وجلاء فكيف يتفق وصف النعمة مع الغبن؟ والنعمتان هما الصحة والفراغ. إن جملة "مغبون فيهما كثير من الناس" جملة جزئية تدور أشعتها داخل دائرة الجملة الكبرى: فـ"مغبون" خبر مقدم، وكثير مبتدأ مؤخر، وهذه الجملة المكملة، هي المعنى المشع بتمام فائدة الكلام، و"الصحة والفراغ" بدلان من قوله "نعمتان" وهما تفصيل بعد الإجمال. وقيل هي: جملة مستقلة، ولكنها تدور في دائرة الجملة الكبرى؛ لأن المعنى لا يتم إلا بدونها، والتقدير "هما الصحة والفراغ"، فالجملة -هنا وفق هذا الرأي- استئناف لبيان النعمتين، ففيه كذلك التفصيل بعد الإجمال.

وفي ضوء هذا التحليل للتركيب اللغوي ندرك أن البيان النبوي متين السبك، ولا يجور فيه المبنى على المعنى، ويتسم بالوحدة الموضوعية والعضوية في كثير من شواهده، وللنعمة دلالات كثيرة، فهي تشع بالمعاني التي تغمر الناس بنعم الله عز وجل، وقيل: النعمة عبارة عن المنفعة المفعولة على وجه الإحسان إلى الغير.

ودلالة كلمة "مغبون" - تتسع حسب اشتقاقها اللغوي- لتشمل الدلالة الحسية المحدودة، والدلالة المعنوية التي تتسع لكثير من التفسيرات: فمغبون إما مشتق من الغبْن بسكون الباء، وهو النقص في البيع، وإما من الغبَن بفتح الباء، وهو النقص في الرأي، فكأنه قال: هذان الأمران "الصحة والفراغ"، إذا لم يستعملا فيما ينبغي، فقد غبن صاحبهما فيهما: أي باعهما ببخس لا تحمد عاقبته، فإن الإنسان إذا لم يعمل الطاعة في زمن صحته ففي زمن المرض من باب أولى، وكذلك شأنه في الفراغ[1] واستثمار الوقت.

وما أدق الصورة الأدبية في الحديث الشريف! وهذه الصورة تتشكل من دلالة كلمة "مغبون"، وكأن الدنيا سوق: فمن باع دينه بعرض من الدنيا فهو الخاسر والمغبون، ومن بادر إلى الأعمال الصالحة، واستثمر صحته ووقته في إنجاز كل مفيد لنفسه ولغيره مع الإيمان الصادق، فهو الرابح، وهو الفائز في دنياه وآخرته.

---

(١) انظر: المنهل العذب الفرات، د. عبدالعال أحمد عبدالعال، ٤/٦.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: أهمية استشعار نعمة الصحة والفراغ.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: مسؤولية الإنسان عن صحته وفراغه.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الإخبار.

أولاً- من موضوعات الدعوة: أهمية استشعار نعمة الصحة والفراغ:

هذا ما أكده نص الحديث، وفي بيان ذلك قال ابن حجر: (وقوله "نعمتان" تثنية نعمة وهي الحالة الحسنة، وقيل هي: المنفعة المفعولة على جهة الإحسان للغير "والغبن"[(١)] بالسكون وبالتحريك، وقال الجوهري: هو في البيع بالسكون وفي الرأي بالتحريك، وعلى هذا فيصح كل منهما في هذا الخبر فإن من لا يستعملهما فيما ينبغي فقد غبن لكونه باعهما ببخس ولم يحمد رأيه في ذلك.

قال ابن بطال: معنى الحديث أن المرء لا يكون فارغًا حتى يكون مكفيًا صحيح البدن فمن حصل له ذلك، فليحرص على أن لا يغبن، بأن يترك شكر الله على ما أنعم به عليه، ومن شكره: امتثال أوامره واجتناب نواهيه، فمن فرط في ذلك فهو المغبون. وأشار بقوله "كثير من الناس" إلى أن الذي يوفق لذلك قليل. وقال ابن الجوزي: قد يكون الإنسان صحيحًا ولا يكون متفرغًا لشغله بالمعاش، وقد يكون مستغنيًا ولا يكون صحيحًا، فإذا اجتمعا فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون، وتمام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة، وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة، فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط، ومن استعملهما في معصية الله فهو المغبون، لأن الفراغ يعقبه الشغل والصحة يعقبها السقم، ولو لم يكن إلا الهرم كما قيل:

يسر الفتى طولُ السَّلامةِ والبقا ... فكيف ترى طولُ السلامة يفعلُ؟

يرد الفتى بعد اعتدالٍ وصحّةٍ ... يَنُوءُ إذا رَامَ القيامَ ويحْمَلُ[(٢)]

---

(١) والغبن في اللغة: الغلب الخدع والنقص، وفي الاصطلاح: عبارة عن بيع السلعة بأكثر مما جرت العادة أن الناس لا يتغابنون بمثله إذا اشتراها كذلك. انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٣٨/٣١، ومصادرها.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٢٣٤/١١.

وفي هذا المعنى قال ابن هبيرة: (أراد ﷺ أن من أصح الله جسمه، وفرغه من شواغل هذه الدنيا، فلم ينفق صحته الواقعة في طرف من الزمان فارغ عن شاغل له في أربح التجائر، وأعلى المكاسب من معاملة الله سبحانه وتعالى في أعلى المقامات التي وعد عليها سبحانه بأنه يحب أهلها، ويكرمهم، ويقدمهم منه، فإنه مغبون. وفيه دليل على أن الصحة نعمة فلا ينبغي أن يختار عليها البلاء.

وفيه أيضًا دليل على أن الفراغ نعمة، فإذا فتح به فلا ينبغي أن يختار عليه عمل دنيا، فإذا أنعم الله تعالى على عبد من عباده بصحة في بدنه، وفراغ في وقته، فلم ينفق هذه الصحة في هذا الفراغ لله سبحانه فقد غبن، ومن ذلك أنه إذا خلا في وقت دون وقت، فينبغي له أن ينفق ذلك الوقت الفارغ من شغل الدنيا في شغل الآخرة، ولا ينتظر بعمل الآخرة أن يتفرغ له في كل أوقاته، ولذلك فإن أعوزته الصحة التامة فلينفق مما آتاه الله منها، ولا يقفل بقية النعمة عنده)[1].

قال ابن حجر: (وقال الطيبي[2]: ضرب النبي ﷺ للمكلف مثلاً بالتاجر الذي له رأس مال، فهو يبتغي الربح مع سلامة رأس المال، فطريقه في ذلك أن يتحرى فيمن يعامله ويلزم الصدق والحذق لئلا يغبن، فالصحة والفراغ رأس المال، وينبغي له أن يعامل الله بالإيمان، ومجاهدة النفس وعدو الدين، ليربح خيري الدنيا والآخرة وقريب منه قول الله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3] الآيات. وعليه أن يجتنب مطاوعة النفس، ومعاملة الشيطان لئلا يضيع رأس ماله مع الربح. وقوله في الحديث "مغبون فيهما كثير من الناس" كقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[4] فالكثير في الحديث في مقابلة القليل في الآية.

---

(١) الإفصاح، عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٣/٢١٣.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٩/٢٨٤.

(٣) سورة الصف، آية: ١٠.

(٤) سورة سبأ، آية: ١٣.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي: اختلف في أول نعمة الله على العبد فقيل: الإيمان، وقيل: الحياة، وقيل: الصحة، والأول: أولى، فإنه نعمة مطلقة، وأما الحياة والصحة: فإنهما نعمة دنيوية، ولا تكون نعمة حقيقة إلا إذا صاحبت الإيمان وحينئذ يغبن فيها كثير من الناس أي يذهب ربحهم أو ينقص، فمن استرسل مع نفسه الأمارة بالسوء الخالدة إلى الراحة فترك المحافظة على الحدود والمواظبة على الطاعة فقد غبن، وكذلك إذا كان فارغًا فإن المشغول قد يكون له معذرة بخلاف الفارغ فإنه يرتفع عنه المعذرة وتقوم عليه الحجة)(١).

وإذا كان الغبن في المعاملات المادية (يمكن تداركه وتعويضه)(٢)، إلا أن الغبن في الصحة والفراغ لا يمكن تداركه البتة، مما يدفع ذلك إلى الغيرة على الوقت والتمسك بكل دقيقة ممكنة وإنفاقها فيما ينفع الإنسان في دنياه وأخراه، بحيث يكون الوقت نافعًا له لا ضارًا، قال ابن القيم: (إن الغيرة على وقت فات هي غيرة قاتلة، فإن الوقت وحيُّ التقضي -أي سريع الانقضاء- أبيُّ الجانب، بطيء الرجوع، والوقت عند العابد هو وقت الأوراد، وعند المريد هو وقت الإقبال على الله، والجمعية عليه، والعكوف عليه بالقلب كله، والوقت أعز شيء عليه، يغار عليه أن ينقضي بدون ذلك، فإذا فاته الوقت لا يمكنه استدراكه البتة، لأن الوقت الثاني قد استحق واجبه الخاص، فإذا فاته وقت فلا سبيل له إلى تداركه)(٣)، ومن أجل ذلك حرص السلف على حفظ الزمان واتقاء إضاعته فيما لا فائدة فيه من الزيارات ونحوها.

قال ابن مفلح: (قال ابن الجوزي: رأيت العادات قد غلبت على الناس في تضييع الزمان، فهم يتزاورون فلا ينفكون عن كلام لا ينفعُ وغيبة، وأقله ضياع الزمان. وقد كان القدماء يحذرون من ذلك، قال الفضيل: أعرف من يعد كلامه من الجمعة إلى الجمعة.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ١١/٢٣٤-٢٣٥.

(٢) انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣١/١٤١.

(٣) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٣/٤٩.

ودخلوا على رجل من السلف، فقالوا: لعلنا شغلناك، فقال: أصدقكم، كنت أقرأ فتركت القراءة لأجلكم.

وأوصى بعض السلف أصحابه فقال: إذا خرجتم من عندي فتفرقوا؛ لعل أحدكم يقرأ القرآن في طريقه، ومتى اجتمعتم تحدثتم[(١)].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: مسؤولية الإنسان عن صحته وفراغه:

هذا ما يستفاد من سياق الحديث الشريف، وقد بين الحق تبارك وتعالى إن الإنسان سيسأل يوم القيامة عن النعم التي أنعم الله بها عليه، فقال: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾[(٢)] (أي: لتسئلن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك)[(٣)]، وفي ذلك قال النبي ﷺ ((إِنّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ القيامَةِ - يَعْنِي العَبْد مِنَ النَّعِيمِ- أَنْ يُقَالَ له أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ ونُرْوِيكَ مِنَ المَاءِ البَارِدِ))[(٤)]، وقال ﷺ: ((لاَ تَزُولُ قَدَمَاَ عبد يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عن عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وعن علمه فيما فعل وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعن جسمه فيما أبلاه))[(٥)]، وفي ذلك بيان على قيام مسؤولية الإنسان عن صحته وفراغه.

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الإخبار:

جاء الحديث بصيغة الإخبار ليبين للمدعوين حقيقة معروفة ومشهورة بينهم لا يكادون يختلفون عليها، وهي أن كثيرًا من الناس يضيعون أوقاتهم ويفرطون في استخدام ما وهبهم الله من صحة وقوة، فتجدهم ما بين وقت ضائع، وجسم كسلان لا يكاد يتحرك إلا إلى الشهوات الحيوانية، كالطعام والشراب ونحو ذلك، ومن بلاغة

---

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٣/٤٥٦-٤٥٧.

(٢) سورة التكاثر، آية: ٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٨/٤٧٤.

(٤) أخرجه الترمذي ٣٣٥٨، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٦٧٤).

(٥) أخرجه الترمذي ٢٤١٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٩٧٠).

الرسول ﷺ أن صاغ هذه المعاني بصيغة الإخبار، ويستفاد من ذلك حث المدعوين أصحاب القلوب الحية والضمائر اليقظة على عدم التفريط في نعم الله العظيمة، وآلائه الجليلة، واستخدامها في إرضاء الرب سبحانه وتعالى وفيما يعود عليهم بالنفع والفائدة في أخراهم ودنياهم.

لوم أصحاب القلوب البليدة والضمائر الغافلة على تفريطهم في نعمتي الوقت والفراغ، كما يلزم عن هذا إنذارهم بما يترتب على هذا التفريط من خسران وهلاك، وندم وقت لا ينفع الندم، ولا يفيد التحسر.

الحديث رقم (٩٨)

٩٨- **الرابع:** عن عائشة رضي الله عنها أَنَّ النَّبيَّ ﷺ كَان يقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حتَّى تتفطَرَ قَدمَاهُ، فَقُلْتُ لَهُ، لِمْ تصنعُ هذا يا رسولَ اللَّهِ، وقدْ غفرَ اللَّه لَكَ مَا تقدَّمَ مِنْ ذَنبِكَ وما تأخَّرَ؟ قال: «**أَفَلاَ أُحِبُّ أَنْ أكُونَ عبْدًا شكُورًا؟**» متفقٌ عليه[1]. هذا لفظ البخاري.

ونحوه في الصحيحين من رواية المُغيرة بن شُعْبَةَ[2].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

المغيرة بن شعبة: هو المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي، ولد في الطائف، وأسلم قبل عمرة الحديبية وشهدها، وبيعة الرضوان، كنّاه النبي بأبي عيسى[3].

اشتهر بالدهاء والرأي، كان يقال له: مغيرة الرأي. وقال الشعبي والزهري: كان من دهاة العرب. وقال الطبري: كان لا يقع في أمر إلا وجد له مخرجًا.

ووقف في عمرة الحديبية يحمي النبي ﷺ، ويراقب من حوله من الوافدين، فجاء عروة بن مسعود الثقفي، وكلم النبي ﷺ، فكلما تكلم كلمة أخذ بلحيته، والمغيرة معه السيف، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال له: أخِّرْ يدك عن لحية رسول الله ﷺ[4].

وكان يحمل الإناء الذي فيه وضوء النبي ﷺ، فكان يصب الماء للنبي ﷺ وهو يتوضأ[5].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٣٧)، واللفظ له، ومسلم (٢٨٢٠/٨١). أورده المنذري في ترغيبه (٩٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩/٧٩).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٦٣) وقال الألباني حديث حسن صحيح (صحيح سنن أبي داود ٤١٥٢).

(٤) أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٥) أخرجه البخاري ١٨٢، ومسلم (٧٥-٢٧٤).

شارك في الفتوحات، وشهد فتوح الشام والعراق، وذهبت عينه في معركة اليرموك.

ونظرًا لكفاءته التفاوضية والإدارية والقيادية: كان رسولاً للخلفاء، والقواد، وسفيرًا لهم، أو واليًا.

ولاه عمر بن الخطاب على البصرة، ففتح عدة بلاد حولها وعزله ثم ولاه الكوفة وأقره عثمان على الكوفة.

وهو أول من وضع ديوان البصرة، فكتب أسماء أهلها من أجل العطاء. كما كان أول من سلّم عليه بلقب الأمير في الإسلام.

ولما حدثت الفتنة بين علي ومعاوية اعتزلها، وحضر مع الحكمين أبي موسى الأشعري، وعمرو بن العاص، وبعد أن اجتمع الناس على معاوية بايعه فولاه الكوفة، فلم يزل بها حتى مات سنة ٥٠هـ. يبلغ مسنده ١٣٦ حديثًا[١].

غريب الألفاظ:

تتفطر قدماه: أي تتشقق[٢].

الشرح الأدبي

ما أعظم هذا الحوار الإيماني العميق بين أم المؤمنين عائشة ﵂ ورسول الله ﷺ! وما أجل الدروس التي يتعلمها المسلمون من ذلك الحوار المشحون بكل طاقات الصدق والصبر، والمجاهدة والشكر! فالمؤمن في ضوء إيمانه بخالقه، سائر دائمًا في طريق الخير والرشاد بين منارتي الشكر والصبر.

وبداية الحديث تصوير لمشهد واقعي من حياة الرسول ﷺ وهو "التهجد"، حيث كان يقوم ﷺ من الليل في صلاة التهجد حتى تنشق قدماه، وتتورم، وذلك ليس في

---

(١) الطبقات، ابن سعد (٢٨٤/٤) والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٦٦٥ وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (٢٣٨/٥) والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ١٢٨٠ والسير (٢١/٣) وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (١٩٥/٧) وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (١٣٤/٤)، والأعلام، خير الدين الزركلي (٢٧٧/٧)، وموسوعة عظماء حول الرسول ﷺ (١٨٢٤/٣).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ف ط ر).

ليلة واحدة ولكن التعبير يدل على مداومة الرسول ﷺ على هذا القيام، وعلى هذه المجاهدة في العبادة، فالفعل "يقوم" يدل على الاستمرار، والتعبير "بحتى" يرشد إلى بلوغ الغاية، وكأنه كان لا يكف عن التهجد إلا بعد أن يشعر بالألم، ويظهر ذلك في بدنه من خلال تشقق القدمين، وتتعجب عائشة رضي الله عنها، وتسأله في أدب ووقار ورغبة في معرفة المزيد من الأمر وتقول: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ لأن النبي ﷺ معصوم، وكل الأنبياء معصومون كذلك، ويقول القاضي عياض، فيما يختص بالأمور الدينية، والكلام في عصمة نبينا وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، اعلم أن الطوارئ من التغيرات والآفات على آحاد البشر لا يخلو أن تطرأ على جسمه أو على حواسه بغير قصد واختيار أو بقصد واختيار: كالأمراض والأسقام أو تطرأ بقصد واختيار، وكله في الحقيقة عمل وفعل، ولكن جرى رسم المشايخ أي العلماء بتفصيله إلى ثلاث أنواع، عقد بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح، وجميع البشر تطرأ عليهم الآفات والتغيرات، بالاختيار وبغير الاختيار في هذه الوجوه كلها، والنبي ﷺ، وإن كان من البشر يجوز على جبلته، ما يجوز على البشر، فقد قامت البراهين القطعية، وتمت كلمة الإجماع على خروجه عنهم وتنزيهه عن كثير من الآفات التي تقع على الاختيار أي لعصمة الله تعالى له ولجميع الأنبياء منها، وعلى غير الاختيار: أي لكرامتهم على الله سبحانه فيها[1].

وإجابة النبي ﷺ وقد تضمنت والاستفهام وفاء السببية، والتعبير بالفعل "أحب" وتحديد العبودية في لفظ "عبْد" وصيغة المبالغة في "شكور"، والمصدر الصريح "أن أكون"، وكل هذه الظواهر أسلوبية أشرقت بها إجابة المصطفى ﷺ. لتؤكد محبة النبي لربه وشكره له ولتعلم المسلمين درسًا عميقًا في استقبال النعم التي أنعم الله بها عليهم وهي لا تعد ولا تحصى، فاللهم اجعلنا من الشاكرين.

(١) انظر: شرح الشفا للقاضي عياض، الملا علي القاري ٢/١٧٤.

فقه الحديث

يتعرض هذا الحديث إلى حكم صلاة التطوع في الليل، وأنها لا حد لها، وإنما تترك لمقدرة كل شخص، ولما كان النبي ﷺ أعبد الناس فقد اختلف الفقهاء في فرض قيام الليل عليه، فقيل: إنه كان فرضًا عليه دون أمته وهو ما عليه أكثر أهل العلم، ومنهم الشافعي في قول، وكثير من المالكية، والطبري، وذهب بعض العلماء ومنهم مجاهد بن جبر والشافعي في قول إلى أن قيام الليل لم يكن فرضًا عليه ﷺ[1].

أما باقي المسلمين فقد اتفق الفقهاء على مشروعية صلاة الليل، وأنها ليست فرضًا عليهم، بل هي: سنة عند الحنفية والحنابلة، ومندوب عند المالكية، ومستحب عند الشافعية، والتطوع في صلاة الليل غير محدد بوقت ولا عدد ركعات معين، ولذا اختلف الفقهاء في عدد ركعاته، فذهب الحنفية إلى أن منتهى ركعاته ثمان ركعات، وذهب المالكية: إلى أنها عشر ركعات وقيل اثنتا عشرة، وقال الشافعية: لا حصر لعدد ركعاته، وقيل: غير ذلك[2].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/٢٩٠ وما بعدها، ٤/٣٥٥، الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢/٢٥٧ وما بعدها.

(٢) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم لابن نجيم ٢/٤١، وما بعدها، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني للكاساني ١/٢٩٠ وما بعدها، مواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي ٢/٦٦ وما بعدها، شرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ محمد بن أحمد بن محمد عليش ١/٣٣٩ وما بعدها، المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣/٥٣٥، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين الرملي للرملي ٢/١٠٥ وما بعدها، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، الشربيني ١/٤٥٨ وما بعدها، شرح منتهى الإرادات للبهوتي ١/٢٤٧ وما بعدها، المغني، ابن قدامة ١/٤٤٠ وما بعدها، كشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ١/٤٣٥ وما بعدها.

المضامين الدعوية

أولاً: من صفات الداعية: الحرص على أداء النوافل.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: حرص النبي ﷺ على قيام الليل وشكره لله.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: حرص عائشة رضي الله عنها على سؤال النبي ﷺ عن اجتهاده في قيام الليل.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: حقيقة الشكر.

أولاً- من صفات الداعية: قيام الليل وشكر الله تعالى:

إن من أبرز الصفات التي ينبغي أن يتصف بها الداعية: حرصه على أداء النوافل والتي من جملتها قيام الليل والتقرب إلى الله تعالى بأنواع القُرب. وفي هذا الحديث تطبيق عملي للحرص على التقرب إلى الله تعالى بالنوافل، وبيان أن شكر الله لا يتوقف عند مجرد التلفظ به وإنما لا بد أن يتجسد عمليًا كما قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾[1]، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت له: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبدًا شكورا)، إن قيام الليل الوقود الأساسي في موكب الدعوة إلى الله، فصلاة الليل لا يعدلها زاد ولا مدد، فهي تمد الدعاة وترفدهم وتزودهم بطاقات وإمكانات فوق مستوى التصور والتقدير، فصلاة الليل تعد الداعية ليكون عبدًا ربانيًا، موصولاً بالله، مشرق النفس، نيِّر القلب، حاضر الذهن، متقد الفكر[2].

إضافة إلى ما في قيام الليل من استجلاب محبة الله تعالى، وقد جاء ذلك في الحديث القدسي: ((وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدٌ بِشَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ))[3].

---

(١) سورة سبأ، آية: ١٣.

(٢) قوارب النجاة في حياة الدعاة، فتحي يكن ص ١٨٠، وص ١٠١.

(٣) أخرجه البخاري ٦٥٠٢.

فالفرائض هي رأس المال، فإذا استكمل العبد فرائضه، وأراد أن يترقى في درجات الإيمان وولاية الرحمن عز وجل يفتح على نفسه أبواب النوافل، والنوافل هي ما عدا الفرائض من أجناس الطاعات.

إن أداء النوافل من دلائل إخلاص العبد لله تعالى، فالنوافل لا عقوبة في تركها، فإذا ما فعلها العبد، فإنه يفعلها بإخلاص نية التقرب والتحبب إلى الله عز وجل، (فلما خلصت النية في النوافل كانت هي السبب الموصل إلى محبة الله عز وجل دون الفرائض. فينبغي على المربي أن يهتم بتحبيب العبادات إلى الشباب، بترغيبهم في قيام الليل،وتلاوة القرآن، والأذكار الموظفة، وغير الموظفة والصيام، وقضاء حوائج الناس، وطلب العلم النافع حتى يكون ذلك شغلهم الشاغل. والنفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل؛ فاللسان إذا لم يتحرك بذكر الله عز وجل، تحرك بالغيبة والنميمة، والبذاءة واللغو وغير ذلك، وإذا لم تشغل الجوارح والأوقات بالطاعات شغلت بالمعاصي والعثرات، فلا شك في أن شجرة الإيمان في قلب العبد تروى بالصيام والقيام وتلاوة القرآن، تتفرع فروعها في أرجاء قلبه، وتثمر الثمرات اليانعة الطيبة، فيجد العبد حلاوة الإيمان ومحبة الرحمن)[1].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: حرص النبي ﷺ على قيام الليل وشكره لله:

لقد تضافرت الأخبار في بلوغه ﷺ في عبادة ربه ما لم يبلغه غيره، فكانت طاعته لربه وشدة عبادته على قدر علمه بربه عز وجل[2]، وفي الحديث دليلُ مدى مبالغته ﷺ في عبادته لربه: (كان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه)، أي: حتى تتشقق قدماه"[3].

وعندما سألته عائشة رضي الله عنها عن مبالغته في العبادة مع ما قد غفر له من ذنبه، أجابها بقوله: (أفلا أكون عبدًا شكورًا؟)، فلقد تصورت عائشة رضي الله عنها أن المغفرة سبب لتخفيف

---

(١) التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، ص ١٥٦ - ١٥٧.

(٢) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، محمد الخضري، ص ١٨٠.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١٩/٣.

العبادة، فبين لها ﷺ أن المغفرة لا ينبغي أن تكون سببًا للتقليل من العبادة بل هي السبب في الإكثار منها، قال ابن حجر: (في قوله: "أفلا أكون عبدًا شكورًا، الفاء في قوله: أفلا أكون للسببية، وهي محذوف تقديره أأترك تهجدي فلا أكون عبدًا شكورًا، والمعنى أن المغفرة سبب لكون التهجد شكرًا فكيف أتركه؟ ففي الحديث ما كان عليه النبي ﷺ من الاجتهاد في العبادة لربه والخشية منه والشكر له)[1].

إن شكر الله سبحانه لا يقتصر على مجرد التلفظ باللسان، بل لا بد أن تظهر آثاره على جوارح الإنسان وأركانه ولذا كان أمر الله لداود وآله بقوله: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[2].

قال ابن قدامة: (الشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح. أما بالقلب فهو أن يقصد الخير ويضمره للخلق كافة. وأما باللسان: فهو إظهار الشكر لله بالتحميد، وإظهار الرضى عن الله تعالى. وأما الجوارح: فهو استعمال نعم الله في طاعته، والتوقي من الاستعانة بها على معصيته فمن شكر العينين أن تستر كل عيب تراه للمسلم، ومن شكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه)[3].

وقال ابن القيم: (والشكر على ثلاثة أضرب:

أ- شكر القلب وهو تصور النعمة.

ب- وشكر اللسان وهو الثناء على المنعم.

ج- وشكر الجوارح وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقه، وقوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾[4]، معناه: اعملوا ما تعملونه شكرًا لله، وقيل: شكرًا مفعول لقوله: "اعملوا" وذكر اعملوا ولم يذكر اشكروا لينبه على التزام الأنواع الثلاثة من الشكر

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٢/ ٢٠.

(٢) سورة سبأ، آية: ١٣.

(٣) مختصر منهاج القاصدين ٢٧٧.

(٤) سورة سبأ آية: ١٣.

بالقلب واللسان وسائر الجوارح)[١].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: حرص عائشة ﵂ على سؤال النبي ﷺ عن اجتهاده في قيام الليل:

لقد كان صحابة رسول الله ﷺ خاصة أزواجه والمقربين إليه أحرص ما يكونون على سؤال النبي ﷺ عن كل ما يعن لهم، ويرونه من أحواله ﷺ، وفي سؤال عائشة ﵂ عن سر اجتهاده في العبادة مثال لذلك، فقالت له: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟

فلقد كانت أم المؤمنين عائشة ﵂ مجبولة على حب العلم، شغوفة بسؤال رسول الله ﷺ عن كل ما لا تعلمه، ومن دلائل ذلك ما روي عن ابن أبي مليكة أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت لا تسمع شيئًا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي ﷺ قال: ((مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ)) قالتْ عائشةُ فقلتُ: أوَليسَ يَقولُ اللهُ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[٢] فقال: ((إنَّما ذلك العَرضُ، ولكنْ مَنْ نُوقِشَ الحِسابَ يَهلِكْ))[٣]، وفي ذلك تعليم وبيان أن الأصل في المسلم أن يسأل عما لا يعلم، فلقد كان الصحابة ﵃ يسألون رسول الله ﷺ عن كل ما يعنُّ لهم في شؤون الدين، بل في الكثير من أمور الدنيا وذلك مما غرسه الإسلام في أتباعه، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٤]. وذلك إيجاب على طلاب العلم والمعرفة أن يسألوا ويستوضحوا حتى يكونوا على بينة من أمر دينهم[٥].

---

(١) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ، الراغب الأصفهاني، ص ٢٦٥ - ٢٦٦.

(٢) سورة الانشقاق آية: ٨.

(٣) أخرجه البخاري ١٠٣، ومسلم ١٨.

(٤) سورة الأنبياء، آية: ٧.

(٥) أصناف المدعوين وكيفية دعوتهم، د. حمود بن أحمد الرحيلي، ص ١٨.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: حقيقة الشكر:

جاء في الحديث البيان العملي لرسول الله ﷺ لمعنى الشكر وذلك باجتهاده في عبادة ربه، وعندما سألته عائشة رضي الله عنها عن ذلك قائلة: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبدًا شكورًا؟، قال ابن حجر: (وفيه أن الشكر يكون بالعمل كما يكون باللسان)[١].

وقال القرطبي رحمه الله: (ظن من سأله عن سبب تحمله المشقة في العبادة أنه إنما يعبد الله خوفًا من الذنوب وطلب للمغفرة والرحمة فمن تحققه أنه غفر له لا يحتاج إلى ذلك، فأفادهم أن هناك طريقًا آخر للعبادة وهو الشكر على المغفرة وإيصال النعمة لمن لا يستحق عليه فيها شيئًا فيتعين كثرة الشكر على ذلك، والشكر الاعتراف بالنعمة والقيام بالخدمة، فمن كثر ذلك منه سمي شكورًا، ومن ثم قال الله عز وجل: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[٢]، أي: قلنا لهم اعملوا شكرًا على ما أنعم به عليكم في الدنيا والدين وفي ذلك دليل على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول وبالنية)[٣].

ولقد كانت حياة رسول الله ﷺ وعباداته مثلاً تطبيقيًا لحقيقة الشكر، الذي يجمع بين شكر الجنان والأركان والأقوال، ومن ذلك ما جاء في الحديث: (إن كان النبي ﷺ ليقوم أو ليصلي حتى ترم قدماه أو ساقاه فيقال له فيقول: أفلا أكون عبدًا شكورًا)، وما روي عن أبي بكرة نفيع بن الحارث رضي الله عنه قال: ((كَانَ رسول الله ﷺ إذَا جَاءَهُ أمْرُ سُرُورٍ أوْ بُشّرَ بهِ خَرّ سَاجِدًا شاكِرًا لله))[٤].

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يدعو يقول: ((رَبِّ أَعِنّي وَلاَ تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْني وَلاَ تَنْصُرْ عَلَيَّ وَامْكُرْ لِي وَلاَ تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِني وَيَسِّرْ هُدَايَ إِلَيَّ،

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٣/٢٠.

(٢) سورة سبأ، آية: ١٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦/٥٠٠.

(٤) أخرجه أبو داود ٢٧٧٤، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٥١٦).

وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ. اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي لَكَ شَاكِرًا، لَكَ ذَاكِرًا، لَكَ رَاهِبًا، لَكَ مِطْوَاعًا، إِلَيْكَ مُخْبِتًا أَوْ مُنِيبًا. رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي))[1].

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: فَقَدْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَيْلَةً مِنَ الْفِرَاشِ، فَالْتَمَسْتُهُ، فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ، وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ، وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ، وَهُوَ يَقُولُ: ((اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ. وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ. وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ. لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ. أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ))[2].

(١) أخرجه أبو داود ١٥١٠، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٤٥٢).

(٢) أخرجه مسلم ٤٨٦.

الحديث رقم (٩٩)

٩٩- **الخامس:** عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان رسولُ اللَّه ﷺ إذَا دَخَلَ الْعشْرُ أحيا اللَّيْلَ، وأيقظ أهْلَهْ وجدَّ، وشَدَّ المِئْزَرَ» متفقٌ عليه[1].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

العشر: المراد: العشر الأواخر من شهر رمضان[2].

شدّ المئزر: المئزر: الإزار وهو كناية عن اعتزال النساء، وقيل: المراد تشميره للعبادة يقال: شددت لهذا الأمر مئزري: أي تشمرت وتفرغت له[3].

الشرح الأدبي

وفي ظلال هذا الحديث يضوع عبير النبوة، وتهب نسائم المجاهدة وبشائر القوة، وقوة الإيمان هي ما يطمح، إليه المسلم، وهى الغاية المنشودة، والمنارة المرجوة.

إن أم المؤمنين عائشة: الصديقة بنت الصديق تروي مشهدًا مضيئًا من مشاهد السيرة النبوية العطرة، وهذا المشهد نموذج واقعي من نماذج السنة العملية، فهاهو ذا رسول الله ﷺ - وهو الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر- يقابل هذا الإكرام الإلهي الجليل بالشكر الجميل والجزيل، والشكر ليس كلمات تقال، لكنه أفعال تؤكد وتجمل الأقوال.

وللعشر الأواخر فضل عظيم، فهي ختام شهر الصوم، ورمضان توّجه الله بالفضل والإحسان فقال عز وجل: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾[4]. وأي فضل أعظم من

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٢٤)، ومسلم (١١٧٤/٧) واللفظ له. وسيكرره المؤلف برقم (١٢٢٥).

(٢) رياض الصالحين ٩٠.

(٣) المرجع السابق ٩٠.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٨٥.

هذا؟ ومَنْ غير رسول الله ﷺ يدرك أسرار وفضائل الصوم؟ ومن غيره ﷺ يحرص على إحياء ليالي العشر الأواخر من رمضان؟ ولا غرو فقد (جعل الله الصوم حصنًا لأوليائه وجُنَّة، وفتح لهم به أبواب الجنة، وعرفهم أن وسيلة الشيطان إلى قلوبهم الشهوات المستكنة، وأن بقمعها تصبح النفس المطمئنة ظاهرة الشوكة في قصم خصمها، قوية المنَّة)(١).

والأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف يصور حرص المصطفى ﷺ على العبادة وإحياء الليل، ومداومة الذكر، والاعتكاف، واجتناب كل ما يصرف الإنسان عن العبادة والاستعداد لها في هذه الليالي التي شرفت بليلة القدر، وهي خير من ألف شهر، والتعبير بأداة الشرط "إذا" يفيد التكرار والمداومة والمواظبة، وأنه لا يدع العشر الأواخر دون أ، يجدّ في العبادة ويجتهد.

والأفعال المتوالية في تتابع وتجمع بينها حروف العطف، ترشد إلى الحركة والنشاط في العبادة. وعبارة إحياء الليل، فيها تصوير أدبي يومئ إلى أن الليل بدون العبادة كأنه كائن ميت منقطع الأثر، فالليل بالعبادة تدب فيه الحياة، ومن سمات هذه الحياة: إيقاظ الأهل، والجد، وشد المئزر، والتعبيرات توحي بمعان كثيرة، وترشد إلى أمور عدة. ومنها: التفرغ للعبادة في العشر الأواخر، وعدم التكاسل والتهاون، وعبارة وشد المئزر، قالوا: هي كناية عن اعتزال النساء في هذه الأيام المباركة، وقيل المراد: التشمير للعبادة، والتفرغ لها، والمصطفى ﷺ هو القدوة الحسنة، وعلى كل مسلم أن يقتدي بهذا السلوك النبوي الرشيد؛ لأن الصوم من العبادات التي اختصها الله بالفضل، ونسبها لنفسه، وهذا الفضل يرجع إلى أمرين - كما يقول صاحب الإحياء- أحدهما: أن الصوم كف وترك، وهو في نفسه سر ليس فيه عمل يشاهد، وجميع أعمال الطاعات بمشهد من الخلق ومرأى، والصوم لا يراه إلا الله عز وجل، والثاني: أنه قهر لعدو الله عز وجل، فإن وسيلة الشيطان، لعنه الله الشهوات وإنما تقوى الشهوات بالأكل، ولما كان الصوم على الخصوص قمعًا للشيطان استحق التخصيص بالنسبة

---

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ١/٤٢٢.

إلى الله عز وجل[1]. وهذه قمة المجاهدة، ومحمد ﷺ هو المثل الأعلى في كل شيء.

فقه الحديث

أشار الحديث إلى فضل العشر الأواخر من شهر رمضان وأنها من أفضل أيام العبادة، ولذا كان رسول الله ﷺ يجتهد في العبادة فيها فيقوم الليل ويكثر من الصدقات وقراءة القرآن والتهجد ويوقظ أهله ليتهجدوا.

وقد اتفق الفقهاء[2] على أنه يستحب زيادة الاجتهاد في العبادة والطاعات في العشر الأواخر من رمضان، بالإكثار من الصلاة والصدقات وقراءة القرآن تأسيًا بالنبي ﷺ فقد كان يجتهد فيها ويحث على ذلك، ولأنها في قرب خروج العبادة، والأعمال بخواتيمها.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: القدوة الحسنة.

ثانيًا: من واجبات الداعية: العمل على تعهد أهله بفعل الطاعات.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: اغتنام الأوقات المباركة.

أولاً- من وسائل الدعوة: القدوة الحسنة:

إن القدوة الحسنة تعد من أبلغ وسائل الدعوة، وأشدها تأثيرًا في النفوس، وقد كان النبي ﷺ قدوة حسنة لكافة المؤمنين، ومن الشواهد على ذلك في ذلك الحديث قول عائشة ﵂: "كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر أحيا الليل وأيقظ أهله، وجدّ وشد المئزر".

---

(١) إحياء علوم الدين ٤٢٤/١.

(٢) المدخل لابن الحاج ٢٩٤/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي للنووي ٤٢٣/٦، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري للأنصاري ٤٢٠/١، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين الرملي للرملي ١٨٤/٣، وسبل السلام للصنعاني ٥٩٣/١، ونيل الأوطار، الشوكاني ٣٢٠/٤، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١١٦/٣٠ وما بعدها.

فالنبي ﷺ قدوة للمسلمين ومثل للسائرين إلى رب العالمين، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[1] والنبي ﷺ حث المسلمين ورغبهم في قيام رمضان فقال لهم: ((مَنْ قامَ رَمَضانَ إيمانًا واحْتِسابًا، غُفِرَ له ما تَقدَّم مِنْ ذَنْبِه))[2].

فكان ﷺ أول القائمين المحتسبين، ولم يكتفِ بذلك فحسب، بل إنه ﷺ أيضًا اجتهد اجتهادًا كبيرًا وجدّ في العمل واشتدّ فيه. فأحيا ليله -وهو وقت النوم والخلود إلى الراحة- بالطاعة من صلاة وذكر ونحو ذلك. فكان ذلك أبلغ في إنجاح دعوته.

وهكذا حال الداعية فالناس معلقة أبصارهم به، فإن صدّق عملُه قوله استجابوا له وأذعنوا، وإن خالف لم يلتفتوا إلى قوله، بل كان من دعاة السوء الذين قال فيهم ابن القيم: (جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم فكلما قالت أقوالهم للناس هلمُّوا قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم؛ فلو كان ما دعوا إليه حقًا كانوا أول المستجيبين له، فهم في الصورة أدلاء وفي الحقيقة قطاع الطرق)[3].

أما النبي ﷺ فقد ضرب لنا القدوة والمثل الأعلى في موافقة العمل القول، وذلك في شأنه كله، وسنكتفي بضرب مثال واحد يدل على المقصود، فقد حث أصحابه على قتال الأعداء وجهادهم، فكان وهو القائد أول المقاتلين وأقربهم إلى العدو، وأثبتهم في لقائه، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ((كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ، وَلَقِيَ الْقَوْمُ الْقَوْمَ، اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَمَا يَكُونُ مِنَّا أَحَدٌ أَدْنَى إِلَى الْقَوْمِ مِنْهُ))[4].

ويوم حنين ثبت وتقدم نحو الأعداء وقت أن ولى المسلمون هاربين. قال العباس بن عبد المطلب: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين... فلما التقى المسلمون والكفار ولَّى

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٢) أخرجه البخاري ٣٧، ومسلم ٧٥٩.

(٣) الفوائد المشوقة إلى علم القرآن وعلم البيان، ابن القيم، تحقيق: محمد عثمان الخشت ص ٩٤.

(٤) أخرجه أحمد ١٥٦/١ رقم ١٣٤٧، وأبو يعلى ٣٠٢، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٤٥٤/٢.

المسلمون مُدبرين فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قِبَلَ الكفار[١].

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وكان أجود الناس وكان أشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق ناس قبل الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعًا، وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرس لأبي طلحة عُرْي، في عنقه السيف وهو يقول: لم تراعوا"[٢].

يتجلي ذلك في قول عائشة رضي الله عنها: "وأيقظ أهله" (أي: للصلاة والعبادة ليئلا تفوتهم فضيلة هذه المواسم المباركات، وهذا من كمال نصحه لهم، فينبغي لقيّم البيت أن ينشّط أهله ويرغبهم في العبادة لا سيما في المواسم الفاضلة)[٣]. فإذا كان النبي ﷺ يرغب أصحابه رضي الله عنهم في قيام رمضان من غير أن يأمرهم فيه بعزيمة[٤]، إلا أنه كان مع أهله يوقظهم، ولا يترك أحدًا منهم قَدَرَ على القيام إلا أيقظه، قالت زينب بنت أبي سلمة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا بقي من الشهر عشرة أيام لم يذر أحدًا من أهله يطيق القيام إلا أقامه[٥].

وذلك لأن الناس تنظر إلى أهل الداعية كما ينظرون إليه، لأنهم ألصق الناس به، وأولاهم وأجدرهم بأن يعملوا مثل ما يعمل، فكانوا هم الاختبار الأول لنجاح الداعية، كما أن الداعية يتحمل المسؤولية عنهم فيجب أن يقوم بها ((كُلّكم راعٍ وكلكم مَسؤولٌ عن رَعيّتهِ))[٦]. وعلى هذا النحو نزلت بعض آيات القرآن، قال تعالى مخاطبًا النبي: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[٧] قال القرطبي: (أمره تعالى بأن يأمر أهله

---

(١) أخرجه مسلم ١٧٧٥.

(٢) أخرجه البخاري ٢٩٠٨، ومسلم ٢٣٠٧.

(٣) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٣/٢٢١.

(٤) أخرجه مسلم (٧٥٩).

(٥) أخرجه محمد بن نصر المروزي: مختصر قيام الليل ص ٢٤٧ وفي إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف. وقد ذكره ابن حجر في الفتح ٤/٣١٦ وعزاه له وللترمذي.

(٦) أخرجه البخاري ٨٩٣ ومسلم ١٨٢٩.

(٧) سورة طه، آية: ١٣٢.

بالصلاة ويمتثلها معهم، ويصطبر عليها ويلازمها، وهذا الخطاب للنبي ﷺ ويدخل في عمومه جميع أمته وأهل بيته على التخصيص)[١]، وخاطبه الله تعالى فقال: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾[٢] فقام ﷺ فدعا قريشًا فاجتمعوا فعمّ وخصّ فقال: ((يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيَ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ...))[٣].

كما خاطب الله تعالى المؤمنين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾[٤].

ولهذا استحق التعاون بين الأهل على العمل الصالح، استحق الثناء من النبي ﷺ والدعاء، فقال ﷺ: ((رَحِمَ الله رَجُلاً قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا المَاءَ. ورَحِمَ الله امْرَأَةً قامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ المَاءَ))[٥].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: اغتنام الأوقات المباركة:

يستنبط ذلك من قول عائشة رضي الله عنها: "كان رسول الله إذا دخل العشر أحيا الليل..." فشهر رمضان من الأوقات المباركة، ففيه نزل القرآن، ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾[٦]، كما أن النبي ﷺ أخبر - كما مر قريبًا- أن من قامه إيمانًا واحتسابًا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، مج٦/١١/٢٦٣.

(٢) سورة الشعراء، آية: ٢١٤.

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٤).

(٤) سورة التحريم، آية: ٦.

(٥) أخرجه أبو داود ١٣٠٨، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١١٦٠).

(٦) سورة البقرة، آية: ١٨٥.

غفر له ما تقدم من ذنبه، فضلاً عن أن فيه ليلة القدر التي نزل فيها القرآن ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ ﴾[1] التي هي ﴿ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ﴾[2].

كما أن النبي ﷺ أخبر أن ((من قامَ ليلةَ القَدْرِ إيمانًا واحْتِسابًا غُفِرَ لهُ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِهِ))[3]، ولهذا كان النبي ﷺ يغتنم هذه الأوقات لفضلها وبركتها، فكان يعتكف ابتغاء ليلة القدر، قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: ((اعتَكفَ رسولُ اللهِ ﷺ عَشْرَ الأُوَلِ من رَمضانَ واعتَكَفْنا معَهْ، فأتاهُ جبريلُ فقال: إنَّ الذي تَطلُبُ أَمامَكَ. فاعتَكَفَ العَشْرَ الأوسَطَ فاعتَكفْنا معَهُ، فأتاهُ جبريلُ فقال: إنَّ الذي تَطلُبُ أمامَك. قام النبيُّ ﷺ خطيبًا صَبيحةَ عِشرينَ مِن رمضانَ فقال: مَن كان اعتكَفَ معَ النبيِّ ﷺ فليَرجِعْ فإنِّي أُرِيتُ ليلةَ القَدْرِ، وإني نُسِّيتُها، وإنها في العَشْرِ الأواخِرِ في وِترٍ))[4].

لذا كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر مالا يجتهد في غيره[5]، ومن مظاهر هذا الاجتهاد الاعتكاف، فكان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان[6]، وفي حديث عائشة رضي الله عنها: ((أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ اعْتَكَفَ أَزْوَاجُهُ بَعْدَهُ))[7] وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه ((فلما كان العامُ الذي قُبِضَ فيه اعتكَفَ عشرينَ يومًا))[8].

قال عبدالله البسام: (نلخص خصائص هذه العشر المباركات [أي العشر الأواخر من رمضان] بهذه الفقرات بدون أدلتها فهي معروفة وقريبة ولله الحمد:

---

(١) سورة الدخان، آية: ٣.

(٢) سورة القدر، آية: ٣.

(٣) أخرجه البخاري ١٩٠١، ومسلم ٧٦٠.

(٤) أخرجه البخاري ٨١٣، ومسلم ١١٦٧.

(٥) أخرجه مسلم ١١٧٥.

(٦) أخرجه البخاري (٢٠٢٥) ومسلم ١١٧١.

(٧) أخرجه البخاري ٢٠٢٦، ومسلم ١١٧٢.

(٨) أخرجه البخاري ٢٠٤٤.

أولاً: كان ﷺ يجتهد فيها بالعمل أكثر من غيرها، والاجتهاد فيها لا يختص بعبادة خاصة، بل يشمل الاجتهاد في جميع أنواع العبادة من صلاة وتلاوة وذكر وصدقة وغيرها.

ثانيًا: كان ﷺ يوقظ فيها أهله للصلاة والذكر، حرصًا على اغتنام هذه المواسم الطيبات، فإنها غنيمة لا ينبغي للمؤمن العاقل أن يفوتها ويهملها فتذهب عليه سدى.

ثالثًا: كان يعتكف في هذه العشر، ليتمتع بهذه الخلوة لله تعالى، ويسعد بلذيذ مناجاته، ويبتعد عن كل ما يشغله ويقطعه عن هذهالخلوة بربه تعالى.

رابعًا: أرجى ما تكون ليلة القدر في هذه العشر المباركات، لذا كان ليلها أفضل ليالي العام، فينبغي تلمسها في هذه الليالي عسى أن يوفَّق لها المؤمن، فيحصل له الخير الوفير، فهي "ليلة مباركة" وهي "خير من ألف شهر".

والقصد أن هذه الليالي المباركات التي هي الختام المسكي لصوم الشهر ليال عظيمة، وفوائدها وعوائدها جسيمة، ولا يفرط فيها إلا المحروم من الخير، ممن سفه نفسه، وأكبر من ذلك أن يقضيها بالمجالس المحرمة والاجتماعات الآثمة، نسأل الله تعالى السلامة)[1].

---

(١) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله البسام ٣/٢٢١ - ٢٢٢.

الحديث رقم (١٠٠)

١٠٠- **السادس:** عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**المُؤمِن القَوِيُّ خيرٌ وَأَحبُّ إِلى اللَّهِ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وفي كُلٍّ خيرٌ. احْرِصْ عَلَى مَا ينْفَعُكَ، واسْتَعِنْ باللَّهِ وَلاَ تَعْجَزْ. وإنْ أصابَك شيءٌ فلاَ تقلْ: لَوْ أنِّي فَعلْتُ كانَ كَذَا وَكذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قدَّرَ اللَّهُ، ومَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ: (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**» رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

تكمن قيمة الإنسان المسلم في قوة إيمانه، وثبات جنانه، وعفة لسانه. والمصطفى عليه الصلاة والسلام يرسى قاعدة إسلامية في الجملة الأولى من هذا الحديث، وهذه القاعدة تتمثل في معيار القوة في الإسلام، وهى: قوة الإيمان، والتي بها يشتد عزم المؤمن، وتقوى إرادته، ومما يرشد إلى ثبات هذه القاعدة أنها صيغت في أسلوب خبري، والجملة اسمية، وهى غير مرتبطة بزمن ينتهي، ولكنها توحي بأن المؤمن القوي في كل شيء قوله وعمله، وإرادته، وبنيانه، وتفكيره وتخطيطه لمعالم حياته واقعًا ومستقبلاً، هذا المؤمن القوي معالمه واضحة وثابتة في كل زمان ومكان، وهو يستحق التكريم من الله عز وجل فهو خير عند الله من المؤمن الضعيف، وهو كذلك أحب وأقرب إلى الله من المؤمن.

وفي القسم الثاني من هذا الحديث الشريف يتحول نوع الأسلوب من الخبر إلى الإنشاء، والشرط والجواب.

وكأن سائلاً سأل: وكيف تتحقق القوة في حياة المؤمن؟ وتأتي الإجابة من المصطفى ﷺ مشعة بالمنهج الإسلامي السديد، حيث يقدم لنا عدة قواعد تشريعية تصلح من أمر دنيا المسلم، وتقوده إلى النجاة والفوز في الآخرة، وهذه القواعد الأربعة،

---

(١) برقم (٣٤/٢٦٦٤).

تصدر في صيغة فعل الأمر في ثلاثة منها، والقاعدة الرابعة تصاغ في أسلوب الشرط والجواب، ثم تصاغ متعلقاتها في صيغة تجمع بين الخبر والإنشاء، لتوحي بتكامل منهج المؤمن وشموليته.

والقاعدة الأولى تتوهج دلالتها وتنبثق من كلمات هذه الجملة "احرص على ما ينفعك" وهي جملة موجزة ولكنها تشمل منابع القوة ومصادرها فالحرص أي بالطلب بوعى وخبرة وعلم، واتخاذ كل الوسائل الشرعية والعلمية لتحقيق النفع العام، واستحضار كل ما يقوى الإنسان في مجال دينه ودنياه، ويجب أن لا يفرط في ذلك. والقاعدة الثانية توثق علاقة المؤمن بربه وهو يحصل ما ينفعه في دنياه وآخرته "استعن بالله ولا تعجز" فالاستعانة بالله تصاغ في قالب فعل الأمر، فهي أمر واجب التنفيذ. وحتى لا يقع المسلم فريسة للتواكل والكسل ينهاه الرسول ﷺ عن العجز والضعف، وترك الأمور تسير هكذا بدون عمل، لأن العمل والسعي من مصادر القوة، والتوكل على الله يضع العمل في دائرة المنهج الإيماني السديد، وتأكيدًا لهذا المنهج الرباني في تقوية المؤمن وإعداده لمجابهة الحياة ومتقلباتها، ينهى المصطفى ﷺ المؤمن من تسرب الشك والقلق والوهم إلى نفسه، ولكن عليه أن يقابل الأحداث بالرضا والإيمان بالقضاء والقدر، وعليه أن يفكر في استعادة الثقة بنفسه، وتجديد قدراته، وإغلاق جميع المنافذ التي يتسرب منها الشيطان إلى نفسه، ولفظ "لو" وما يتعلق به شرطه وجوابه يفتح للشيطان الطريق إلى نفس المؤمن، ويتسرب الضعف إلى كيانه، كله، فإن لو تفتح عمل الشيطان، أعاذنا الله منه ومن شره.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل قوة الإيمان.

ثانيًا: من مهام الداعية: بذل النصح للمدعوين.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: التسليم بقضاء الله وقدره.

رابعًا: من مهام الداعية: سد الذرائع المؤدية إلى الشر.

خامسًا: من أساليب الدعوة: الترغيب والأمر والنهي والتعليل.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل قوة الإيمان:

إن من موضوعات الدعوة المستنبطة من هذا الحديث، فضل قوة الإيمان التي ينبغي أن تتوافر في المؤمن فتمده بالزاد الروحي العظيم الذي يستطيع من خلاله أن يستعلي على الأمور الدنيوية ويتزود لآخرته، ومن الشواهد على ذلك ما ورد في هذا الحديث في قوله ﷺ "المؤمن القوى خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف" والمراد بالقوة هنا قوة الإيمان التي تؤدي إلى فضائل الأعمال وأحسنها وأعلاها، قال النووي: (المراد بالقوة هنا عزيمة النفس والعزيمة في أمور الآخرة فيكون صاحب هذا الوصف أكثر إقداماً على العدو في الجهاد، وأسرع خروجًا إليه وذهابًا في طلبه وأشد عزيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى في كل ذلك واحتمال المشاق في ذات الله تعالى وأرغب في الصلاة والصوم والأذكار وسائر العبادات وأنشط طلبًا لها ومحافظة عليها ونحو ذلك)(١).

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث ما يدل على أن من المؤمنين القوي والضعيف؛ فإن في كلٍ خير؛ إلا أن المؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وذلك لأن المؤمن القوي ينفع نفسه وينفع غيره؛ وربما تعدَّت منفعته إلى أهله وقومع وأمته). والمؤمن الضعيف قد يقتصر على نفسه، وأخاف على ضعفه أيضًا أن يضعف عن حفظ نفسه؛ ولأن المؤمن القوي يعرض له أن يكسر حزب الشيطان بقوله إذا قال، وبفعله إذا فعل.

والمؤمن الضعيف أخاف عليه في مواطن يضعف فيها، فيكون كاسرًا لحزب الحق، والقوة في الإيمان أن يعمل المؤمن بعزائم الشرع في مواطنها، وأن لا يجبن عن الأخذ برخص الشرع في مواطنها، وأن لا يترك المسلمين من يده، حافظًا لدينهم، ومهتمًا بهم، ذَكَرهم وأنثاهم، عالمهم وجاهلهم، مهتمًا بتدبير العامة، عالمًا بأسرار الخاصة، إن كان ذا أمرٍ، وإلا قال لكل ذي لبٍّ إنه يصلح أن يكون ذا إمرة. وأما المؤمن الضعيف فعلى ضدّ ذلك قانعًا بأن يسلم بنفسه)(٢).

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٧٧.

(٢) انظر: الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٤٤/٨.

ولـذلك تجـد المـؤمن القـوي عـالي الهمـة صـلب العزيمـة شـديد المسارعة إلى فعـل الخيرات فيكون له في المواقف الخطيرة اليد العليا والقدح المعلى وقصب السبق، مثال ذلك ما فعله بلال بن رباح رضي الله عنه، قال ابن مسعود رضي الله عنه: ((أوَّل مَنْ أظهـرَ إسـلامَهُ سَبْعَةٌ: رسولُ اللهِ، وأبو بكـرٍ، وعمـارٌ، وأمُّـهُ سُميةُ، وصُهَيْبٌ، وبـلالٌ، والمِقْـدَادُ، فأمـا رسـولُ اللهِ فمنَعَهُ اللهُ بعمِّهِ أبي طالب، وأما أبو بكـرٍ فمَنَعَهُ اللهُ بقومِهِ، وأما سائرُهُمْ فأخذهُم المشركونَ، وأُلبِسوا أَدراعَ الحَديدِ، وصَهَرُوهُمْ في الشَّمْسِ، فما مِنهمْ أحدٌ إلا وَاتـاهُمْ علـى مـا أَرادُوا إلا بـلال، فإنَّـه هَانَتْ عليـهِ نفسُهُ في اللهِ، وهـانَ علـى قومِهِ، فأخـذُوهُ، فَأعطَوْهُ الوِلْدانَ، فجَعَلُوا يَطُوفونَ بهِ في شِعَابِ مكةَ، وهو يقولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ))[1].

ومثال ذلك أيضًا أبوبكـر رضي الله عنه، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا أن نتصدق، فوافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أسبقُ أبابكـر إن [أي ما] سبقته يومًا. فجئت بنصف مـالي، فقـال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مـا أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله. وأتـى أبوبكـر رضي الله عنه بكل ما عنده، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: مـا أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله. قلت: لا أسابقك إلى شيء أبدًا[2].

ثانيًا- من مهام الداعية: بذل النصح للمدعوين:

يستنبط ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم: "احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجـز" فالنبي صلى الله عليه وسلم نصح المسلم -والدين النصيحة- بأن يكون شديد الحرص على ما ينفعه في الدنيا والآخرة مع طلب العون والإعانة من الله، وألا يكـون عـاجزًا عـن فعل الطاعـة، قـال النووي: (معناه: احرص على طاعة الله تعالى، والرغبة فيما عنده وطلب الإعانة من الله تعالى على ذلك ولا تعجز ولا تكسل عن طلب الطاعة ولا عن طلب الإعانة)[3].

قال ابن هبيرة: (أما قوله: (ولا تعجز) فإنه لا يحسن بالمؤمن أن يعجـز؛ وقد بقـى في الأمر مطلع لاحتيال)[4].

---

(١) أخرجه أحمد ٣٨٣٢/٦، وابن ماجه ١٥٠، وابن حبان ٧٠٨٣ وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٢٢).

(٢) أخرجه أبو داود ١٦٧٨، والترمذي ٣٦٧٥، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٤٧٢).

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٧٧.

(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٤٤/٨.

ولذلك كان النبي ﷺ يستعيذ من العجز لضرره الشديد على المسلم وإسلامه، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ يقول: ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْهَرَمِ، وَالْبُخْلِ))(١) قال النووي مبينًا ضرر العجز والكسل: (أما العجز فقيل: هو ترك ما يجب فعله والتسويف، وأما الكسل فهو عدم انبعاث النفس للخير وقلة الرغبة مع إمكانه.. واستعاذته ﷺ من هذه الأشياء لتكمل صفاته في كل أحواله، وشَرَعَه أيضًا تعليمًا)(٢).

ولهذا روي عن النبي ﷺ وصف العاجز بأنه من اتبع هوى نفسه وأطلق لها العنان تفعل ما تفعل من الشهوات والملذات ومع ذلك هو يتمنى أن يعفو الله عنه ويدخله الجنة فقال: ((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ))(٣) كما حث على أن يكون المسلم متصدقًا ولا يعجز عن ذلك إن هو استطاع، فقال: ((الأَيْدِي ثَلاَثَةٌ: فَيَدُ اللهِ الْعُلْيَا، وَيَدُ الْمُعْطِي الَّتِي تَلِيهَا، وَيَدُ السَّائِلِ السُّفْلَى، فَأَعْطِ الْفَضْلَ وَلا تَعْجِزْ عَنْ نَفْسِكَ))(٤).

وقال ابن القيم رحمه الله: (طالبُ الله والدار الآخرة لا يستقيم له سيره وطلبه إلا بحبسين: حبس قلبه في طلبه ومطلوبه، وحبسه عن الالتفات إلى غيره. وحبس لسانه عما لا يفيد، وحبسه على ذكر الله وما يزيد في إيمانه ومعرفته. وحبس جوارحه عن المعاصي والشهوات، وحبسها على الواجبات والمندوبات.

فلا يفارق الحبس حتى يلقى ربه، فيخلصه من السجن إلى أوسع فضاء وأطيبه. ومتى لم يصبر على هذين الحبسين، وفرّ منهما إلى فضاء الشهوات، أعقبه ذلك الحبس الفظيع عند خروجه من الدنيا؛ فكل خارج من الدنيا إما متخلص من الحبس، وإما ذاهب إلى الحبس"(٥).

---

(١) أخرجه البخاري ٢٨٢٣، ومسلم ٢٧٠٦.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٩٤.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٤٥٩، وابن ماجه ٤٢٦٠، وضعفه الألباني (ضعيف سنن ابن ماجه ٩٣٠).

(٤) أخرجه أبو داود ١٦٤٩ صححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٤٥١).

(٥) الفوائد المشوقة إلى علم القرآن وعلم البيان، ابن القيم، تحقيق: محمد عثمان الخشت ص ٨٣.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: التسليم بقضاء الله وقدره:

إن مما يبعث على السكينة والراحة النفسية التسليم بقضاء الله وقدره، وتفويض الأمر لله تعالى ومن الشواهد على ذلك من الحديث قوله ﷺ: ((وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا ولكن قل: قدّر الله وما شاء فعل) فقدر الله نافذ لا رادّ له، وواقع بالعباد لا محالة (رفعت الأقلام وجفت الصحف)[1]، فكان من خلق المؤمن الصالح التسليم بقضاء الله وقدره (وهو إرادة الله إيجاد الأشياء على وجه مخصوص ثم إيجادها فعلاً على وفق المراد)[2] فهو يستحضر دائمًا قول النبي ﷺ: ((وَلَوْ كَانَ لَكَ مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا أَوْ مِثْلُ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَبًا تُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا قَبِلَهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ. فَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ. وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ. وَأَنَّكَ إِنْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هذَا دَخَلْتَ النَّارَ))[3].

وإنما طولب المسلم بالإيمان بالقضاء والقدر لما في ذلك من المنافع الجمة التي تعود عليه، يوضح ذلك ابن رجب الحنبلي فيقول: (إن العبد إذا علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له من خير وشر ونفع وضر وأن اجتهاد الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد البتة، علم حينئذٍ أن الله وحده هو الضار النافع المعطي المانع، فأوجب ذلك للعبد توحيد ربه عز وجل وإفراده بالطاعة وحفظ حدوده، فإن المعبود إنما يقصد بعبادته جلب المنافع ودفع المضار، ولهذا ذمّ الله من يعبد من لا ينفع ولا يضر ولا يغني عن عابده شيئًا، فمن علم أنه لا ينفع ولا يضر، ولا يعطي ولا يمنع غير الله، أوجب له ذلك إفراده بالخوف والرجاء والمحبة والسؤال والتضرع والدعاء، وتقديم طاعته على طاعة الخلق جميعًا، وأن يتقي سخطه ولو كان فيه سخط الخلق جميعًا وإفراده بالاستعانة والسؤال له وإخلاص الدعاء في حال الشدة والرخاء)[4].

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٥١٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٠٤٣).

(٢) العقيدة الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حسن حبنكة، ط/٢، دار القلم، بيروت: ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ٧٣٠.

(٣) أخرجه أبو داود ٤٦٩٩، وابن ماجه ٧٧، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٦٢).

(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/٤٨٤-٤٨٥.

لذا كان الرضا بالقضاء والقدر طريقًا إلى رضا الله عز وجل، أما السخط فلا يؤدي إلا إلى غضبه سبحانه وتعالى: ((فَمَنْ رَضِيَ، فَلَهُ الرِّضَا. وَمَنْ سَخِطَ، فَلَهُ السُّخْطُ))[1]، وقد ورد عن علي بن أبي طالب قوله: ((مَنْ رَضِيَ بِقَضَاءِ اللَّهِ جَرَىٰ عَلَيْهِ، وَكَانَ لَهُ أَجْرٌ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ بِقَضَاءِ اللَّهِ جَرَىٰ عَلَيْهِ، وَحَبِطَ عَمَلِهِ))[2].

لذا كان الإيمان؛ بالقضاء والقدر له من الثمار الطيبة الكثير، من ذلك:

١- الاعتماد على الله تعالى عند فعل الأسباب لأنه مقدر الأسباب والمسببات.

٢- راحة النفس وطمأنينة القلب إذا أدرك العبد أن كل شيء بقضاء الله وقدره.

٣- طرد الإعجاب بالنفس عند حصول المراد لأن حصول ذلك نعمة من الله بما قدّره من أسباب ذلك الخير والنجاح، فيشكر الله ويدع الإعجاب.

٤- طرد القلق والضجر عند فوات المراد أو حصول المكروه، لأن ذلك بقضاء الله وقدره، فسيصبر على ذلك ويحتسب"[3].

ولذا كان هذا الموضوع من الموضوعات المهمة التي يجب أن يعالجها الداعية ويوضحها للمدعوين، لما في ذلك من سعادة لهم في الدنيا والآخرة.

رابعًا- من مهام الداعية: سد الذرائع المؤدية إلى الشر:

إن من أبرز المهام التي ينبغي أن يضطلع بها الداعية سد الذرائع المؤدية إلى الشر ويستنبط ذلك من قوله ﷺ "فإنّ لو تفتح عمل الشيطان"، فالإنسان عندما يقع له ما يكره فإنه في الغالب يسترجع الأحداث ويفكر في الوقائع، ومن ثم يحدّث نفسه بأنه لو فعل كذا لوقع الأمر على خلاف ما حدث، وهذا باب واسع يأتي من قبله الشيطان للإنسان، فيوسوس له، ومن ثم قد يحمله على عدم التسليم بالمقدور، فضلاً عن كونه ينشغل بالماضي فلا يستطيع الخروج من أسره. فجاء الشرع فسدَّ هذا الباب.

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٣٩٦، وابن ماجه ٤٠٣١، حسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٢٥٦).

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق كما في كنز العمال ٨٥٣٩.

(٣) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء ٢٤٨ - ٢٤٩.

أما من سلّم بالقدر وفكّر فيما وقع ليأخذ العبرة والعظة، ويستدرك ما فاته ويجتهد في فعل الطاعات واجتناب المعاصي، ويتزود بتقوى الله تعالى، فهذا لا بأس به ولا يدخل في النهي.

قال السبكي: (وقد تأملت اقتران قوله ﷺ "احرص على ما ينفعك" بقوله: ((إِيَّاكَ وَاللَّوْ))[١] فوجدت الإشارة إلى محل "لو" المذمومة وهي نوعان: أحدهما في الحال ما دام فعل الخير ممكنًا فلا يترك لأجل شيء آخر، فلا تقول "لو أن كذا كان موجودًا لفعلت" مع قدرته على فعله ولو لم يوجد ذاك، بل يفعل الخير ويحرص على عدم فواته. والثاني: من فاته أمر من أمور الدنيا فلا يشغل نفسه بالتلهف عليه، لما في ذلك من الاعتراض على المقادير وتعجيل تحسر لا يغني شيئًا، ويشتغل به عن استدراك ما لعله يجدي، فالذم راجع فيما يئول في الحال إلى التفريط وفيما يئول في الماضي إلى الاعتراض على القدر وهو أقبح من الأول)[٢].

ومن هذا القبيل نهى الشرع عن بيع الغرر[٣]، لأن ذلك قد يئول إلى المنازعة والتخاصم والاختلاف بين المتبايعين، فالغرر ما يحتمل الوجود أو عدمه[٤]. مثل بيع الثمار قبل بدو صلاحها، وذلك لأنه قد يحتمل أن تهلك الثمرة قبل ذلك فيقع التنازع بين البائع والمشتري، فالبائع يقول قد بعت ثمرتي وقد كانت على الشجر. والمشتري يقول: دفعت مالاً دون أن أقبض السلعة، فسدًا لهذا الباب نهى النبي ﷺ عن بيع الثمرة قبل بدو صلاحها[٥].

خامسًا- من أساليب الدعوة: الترغيب والأمر والنهي والتعليل:

فأما الترغيب ففي قوله ﷺ "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف"

---

(١) أخرجه ابن ماجه ٤١٦٨، صححه الألباني (صحيح ابن ماجه ٣٣٦١).

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٢٤٣/١٣ ونقله ابن حجر ملخصًا.

(٣) أخرجه مسلم ١٥١٣ عن أبي هريرة رضي الله عنه: (نهى رسول الله ﷺ عن بيع الحصاة عن بيع الغرر).

(٤) انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٤٩/٣١.

(٥) أخرجه البخاري ٢١٩٤، ومسلم ١٥٣٤.

فهذا إخبار عن أن القوة في الإيمان يحبها الله، ومن معايير التفاضل بين المؤمنين عند الله تعالى، وهذا دافع لكل مؤمن أن يكون قويًا في إيمانه حتى ينال الدرجات العليا من حب الله تعالى.

وأما الأمر: فقوله ﷺ "احرص، واستعن بالله، قل" لينبه المسلم على أهمية ما يؤمر به من الحرص على ما ينتفع به في الدنيا والآخرة، والاستعانة بالله تعالى في كل الأحوال والأفعال والأوقات والتسليم بقضاء الله وقدره. وأما النهي فقد ورد في قوله ﷺ: "ولا تعجز" لينبه المخاطب إلى أن يحذر من هذا الأمر لما في ذلك من الضرر الذي يلحق به من العجز والقعود والكسل.

وأما التعليل فقوله ﷺ "فإن لو تفتح عمل الشيطان" وذلك ليقنع المخاطب بفائدة ما أمره به أو نهى عنه، فيزداد حرصًا على حرص على الامتثال والطاعة.

الحديث رقم (١٠١)

١٠١- السابع: عنه أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قال: «**حُجِبتِ النَّارُ بالشَّهَوات، وحُجِبتْ الْجَنَّةُ بَالمكَارِهِ**» متفقٌ عليه[١].

وفي رواية لمسلم[٢]: «حُفَّت» بَدلَ «حُجِبتْ» وهو بمعناهُ: أيْ: بينهُ وبيْنَهَا هَذا الحجابُ، فإذا فعلَهُ دخَلها.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

حجبت: بمعنى حفت: أي بينه وبينها هذا الحجاب فإذا فعله دخلها[٣].

حُفَّت: أحيطت[٤].

الشرح الأدبي

تموج كلمات هذه الحديث الشريف بإشعاعات لا متناهية من الإرشادات، والتوجيهات، ولكنها كامنة في جملتي الحديث كما تكمن الأنوار في "أسلاك الكهرباء" فالناظر يراها مصمتة جامدة، ولكنها تمور بشحنات من الطاقة لا يطيقها أي إنسان، فهذا الحديث يتكون من ست كلمات، ولكنها تفتح أمام المسلم جميع المجالات، وتضعه أمام طريقين لا ثالث لهما: إما النار فيكون الخسران والبوار، وإما الجنة فيكون الفوز ونعم الفوز بدار القرار، ويرى القرطبي أن هذا الحديث، من الكلام البليغ الذي انتهى في البلاغ نهايته، وذلك أنه مَثَّل المكاره بالحفاف في رواية

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٨٧)، واللفظ له، ومسلم (١٨٢٢/١).

(٢) تنبيه: أورد مسلم الحديث بإسنادين، ساق لفظ الأول وفيه: (حفت) بدل: (حجبت) في الموضعين، وفي الموضع الثاني لم يسق اللفظ بل قال: بمثله.

(٣) رياض الصالحين ٩١.

(٤) الوسيط في (ح ف ف).

مسلم، وبمعناها هنا "الحجاب" وهو الدائر بالشيء المحيط به الذي لا يتوصل إلى ذلك الشيء إلا بعد أن يُتَخَطَّى، ثم يقول موضحًا قيمة الصورة الأدبية التي تتسع مدلولاتها، وتتكاثف أشعتها في هذا الحديث الموجز: وفائدة هذا التمثيل، أي التشبيه التمثيلي: أن الجنة لا تُنال إلا بقطع مفاوز المكاره وبالصبر عليها، وأن النار لا يُنَجَّي منها إلا بترك الشهوات وفطام النفس عنها(١).

وتتسم لغة الحديث بالمفارقة التي تثير الحس، وتلفت الانتباه، وتدعو للتأمل والتفكر والتدبر.

فالنار مرتبطة بالعذاب والهلاك، ولكنها في الحديث تُصوَّر بأنها محاطة بسياج من الرغبات والأهواء والمتع التي يحبها الإنسان؛ وذلك يدعو إلى التعجب والحذر واليقظة، والجنة أمل كل إنسان طائع ملتزم بما أمر الله تعالى ولكنها في الحديث يحوطها ويحف بها سياج من المكاره. وهى المعاناة والمجاهدة والمشقة والصبر على أداء الطاعات، وذلك أمر يدعو إلى قوة التحمل والاستعداد لمواجهة كل العقبات والتحديات والإغراءات، ولنتأمل هذه الإشعاعات التي تصدر من هذه الكلمة "الشهوات" إنها الأشياء المشتهيات، وما أكثر ما يشتهيه الإنسان في حياته، وسميت بذلك على الاستعارة للتعلق والاتصال، كما يقال للمقدور قدر، وللمرجو رجاء، وللمعلوم علم، وفي تسميتها بهذا الاسم فائدتان: أنه جعل الأعيان التي ذكرت في آية ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾(٢) شهوات: مبالغة في كونها مشتهاة محروصًا على الاستمتاع بها، وثانيتهما، أن الشهوة صفة مسترذلة مذمومة، والمكاره التي حُفَّت بها الجنة ليست مذمومة، ولكنها أمور تحتاج إلى المجاهدة والمعاناة والصبر والالتزام، وقد وعد الله تعالى المتقين بالفوز بنعيم الجنة، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾(٣).

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان، ٢٦٩.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٤.

(٣) سورة النبأ، الآيات: ٣١ - ٣٦.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: من خصائص النبي ﷺ: جوامع الكلم.

ثانيًا: من صفات الداعية: بذل النصح للمدعوين.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: حبس النفس عن الشهوات.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: من خصائص النبي ﷺ: جوامع الكلم:

يستنبط هذا من قوله ﷺ: "حجبت النار بالشهوات وحجبت الجنة بالمكاره". قال ابن حجر: (وهو من جوامع كلمه ﷺ وبديع بلاغته في ذم الشهوات وإن مالت إليها النفوس والحض على الطاعات وإن كرهتها النفوس وشق عليها)(١). وقد فضل الله عز وجل رسوله ﷺ بجوامع الكلم، فقال ﷺ: ((فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ...))(٢) ومعنى جوامع الكلم: (أنه ﷺ كان يتكلم بالقول الموجز القليل اللفظ الكثير المعاني)(٣). قال الزهري: (جوامع الكلم -فيما بلغنا- أن الله يجمع له الأمور الكثيرة التي كانت تكتب في الكتب قبله، في الأمر الواحد والأمرين ونحو ذلك)(٤).

وقال القاضي عياض: (وأما كلامه المعتاد وفصاحته المعلومة وجوامع كلمه وحكمه المأثورة فقد ألّف الناس فيها الدواوين، وجمعت في ألفاظها ومعانيها الكتبُ ومنها ما لا يُوازى فصاحةً ولا يبارى بلاغةً)(٥).

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٣٢٧/١١، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٥٢.

(٢) أخرجه مسلم (٥٢٣).

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٢٦١/١٣.

(٤) ذكره البخاري في صحيحه إثر الحديث ٧٠١٣. وانظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٥٣/١.

(٥) الشفا بتعريف حقوق المصطفى: القاضي عياض بن موسى اليحصبي ٥٤٤هـ ١٦٣/١. وانظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٤٥٩/١-٤٦١.

وقال ابن رجب الحنبلي: "فجوامع الكلم التي خص بها النبي ﷺ نوعان:

أحدهما: ما هو في القرآن: كقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِ﴾[١]. قال الحسن: (لم تترك هذه الآية خيرًا إلا أمرت به ولا شرًا إلا نهت عنه)[٢].

والثاني: ما هو في كلامه ﷺ وهو منتشر موجود في السنن المأثورة عنه)[٣].

ثانيًا: من مهام الداعية: بذل النصح للمدعوين

إن من مهام الداعية المستنبطة من هذا الحديث: بذل النصح للمدعوين، ففي قوله ﷺ "حجبت" نصحٌ، فهذا إخبار عن حقيقة، أو يحتمل أن يكون خبرًا قصد به النهي[٤]. وعلى كلا التقديرين فإن المقصود بذل النصيحة للمدعوين، بأن يحذروا من اتباع الشهوات وارتكابها، بالرغم من ميل النفس إليها وتمتعها بذلك، لأن من فعل ذلك فهو آخذ بطريقه إلى النار. وأما من أراد الجنّة فعليه فعل المكاره والصبر عليها وإن كانت شاقة على النفوس صعبة عليها، ولما كان هذا الأمر يلتبس على بعض الناس نبّه ﷺ عليه ونصح به، وعلى ذلك يحمل قوله ﷺ: ((مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الْجَنَّةُ))[٥].

قال ابن حجر: (فكأنه ﷺ قال: لا يوصل إلى الجنة إلا بارتكاب المشقات المعبر عنها بالمكروهات ولا إلى النار إلا بتعاطي الشهوات، وهما محجوبتان فمن هتك الحجاب اقتحم)[٦].

---

(١) سورة النحل، آية: ٩٠.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ١٤٠، وانظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي ١٠٣/٩.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٥٥/١.

(٤) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٣٢٨/١١.

(٥) أخرجه الترمذي ٢٤٥٠، صححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٩٩٣).

(٦) فتح الباري، ابن حجر ٣٢٨/١١.

فكان ﷺ - وهو إمام الدعاة- مبصرًا للمدعوين بما ينفعهم وبما يضرهم، فمثله ﷺ كمثل الوالد الشفيق مع ولده. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((إنما أنا لَكُمْ مِثْلُ الوالِدِ، أُعَلِّمُكُمْ))(١).

وصدق الله تعالى إذ وصف حال النبي ﷺ -وهو سيد الدعاة- مع المدعوين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(٢).

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: حبس النفس عن الشهوات:

إن النفس البشرية كما وصفها الله سبحانه وتعالى على لسان امرأة العزيز: ﴿لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾(٣)، لذا فهي تنزع وتميل إلى الشهوات والملذات مع أن مآلها الهلاك والبوار والخسران. أما المرء العاقل فهو من حبس نفسه عن اقتراف الشهوات وتجنبها وتجنب الطرق المؤدية إليها، وسارع إلى الخيرات وصبر عليها وجاهد نفسه على فعلها.

لذا كان طريق الجنة -كما أخبر النبي ﷺ- الصبر على المكاره، وطريق النار الوقوع في الشهوات والانغماس فيها.

قال ابن هبيرة: (قوله: "حفت الجنة" أي: أحيطت بالمكاره، وذلك أن المكاره هي ما يكرهه الآدمي من خروج مال عن يده في صدقه، أو فجعة بحميم له، أو خروج نفسه بالجهاد في سبيل الله أو ذهاب عِرضه مع من يعضُه(٤)، أو صبر على لذة محرمة لأجل الله، أو احتساب طعام وشراب وفراق زوجة في صيام لأجل الله تعالى، أو رغبة عن وطء

---

(١) أخرجه أبو داود ٨، والنسائي ٤٠، وابن ماجه ٣١٣، صححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٢٥٢).

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.

(٣) سورة يوسف، آية: ٥٣.

(٤) يعضه: يقذفه بالباطل، الوسيط في (ع ض هـ).

أهل بقصد إلى الحج، أو صبر على برد ماء في إسباغ وضوء في شدة برد لأجل الله تعالى، إلى غير ذلك.

كما (حفت النار) أي أحيط بها (بالشهوات)، فجعل جانب منها يدخل إليه من شهوة الزنا، وجانب يدخل إليها بأكل الربا، وجانب منها بشرب الخمر، وجانب منها بالغدر، وجانب بالنميمة، وجانب بالغيبة إلى غير ذلك"(١).

وفي المقابل فإن من اتبع الشهوات استحق أن يطلق عليه العاجز، كما روي عن النبي ﷺ: ((والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني))(٢).

لذا فإنه يحرم من النعمة في الآخرة إذا عجل باقتراف المحرم في الدنيا، قال ﷺ: ((مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَشْرَبْهَا فِي الآخِرَةِ. إِلاَّ أَنْ يَتُوبَ))(٣) وفي رواية عند مسلم "حُرِمها في الآخرة فلم يسقها" وقال ﷺ: ((لاَ تَلْبَسُوا الْحَرِيرَ. فَإِنَّهُ مَنْ لَبِسَهُ فِي الدُّنْيَا، لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الآخِرَةِ))(٤)، وقال ﷺ كذلك: ((من لبس الذهب من أمتي فمات وهو يلبسه حرم الله عليه ذهب الجنة))(٥).

أما من أمسك نفسه عن الشهوات وجاهدها -مع شدة هذه المجاهدة- فإنه يكون من الصادقين في إيمانهم، ومن أصحاب الدرجات العليا، فهذا النبي يوسف عليه السلام، يمتنع على امرأة العزيز، وقد دعته إلى نفسها فاستحق ثناء الله عليه، بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾(٦). وهذا هو الرجل الذي يكرمه الله يوم القيامة، فيظله الله في ظلّه يوم لا ظل إلا ظله. وذلك لأنه كفَّ نفسه عن الحرام، خوفًا من الله، قال ﷺ:

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٥/٣٨٨.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٤٥٩، وابن ماجه ٤٢٦٠، ضعفه الألباني، (ضعيف سنن ابن ماجه ٩٣٠).

(٣) أخرجه البخاري ٥٥٧٥ ومسلم ٢٠٠٣ واللفظ له.

(٤) أخرجه البخاري ٥٨٣٤ ومسلم ٢٠٦٩.

(٥) أخرجه أحمد ٢/١٦٦، ٦٥٥٦، وقال محققو المسند: إسناده صحيح.

(٦) سورة يوسف، آية: ٢٤.

"سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظلّ إلا ظلّه" فذكر منهم ((ورجلٌ دعَتْهُ امرأةٌ ذاتُ مَنصِبٍ وجَمالٍ فقال: إني أخافُ اللَّهَ))[1].

قال ابن القيم: (قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾[2] علّق سبحانه الهداية بالجهاد؛ فأكملُ الناس هدايةً أعظمهم جهادًا.

وأفرض الجهاد: جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا. فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سُبُل رضاه الموصلة إلى جنته. ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد.

قال الجنيد: والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سُبُل الإخلاص، ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطنًا، فمن نُصر عليها نُصر على عدوه، ومن نُصرت عليه نُصر عليه عدوه)[3].

رابعًا- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

وذلك بذكر الجنة والنار، فحذر ﷺ من الشهوات المحرمة التي تؤدي إلى النار، ورغب ﷺ في فعل المأمورات التي يشق فعلها على النفس فذكر أنها تؤدي إلى الجنة وتوصّل إليها. وذلك ليهون على النفوس احتمال المشقة في إتيانها، ويعظم من أمر المحرمات وإن سهل على النفس اقترافها.

ولا شك أن أسلوب الترغيب والترهيب من الأساليب الدعوية المهمة التي يحسن بالداعية أن يفيد منها في دعوته، لما في ذلك من آثار إيجابية محمودة تؤثر في نفوس المدعوين.

إن الترهيب والترهيب من الأساليب الدعوية المجدية والتي لها أكبر الأثر في قبول الدعوة والامتثال بها، لماله من فوائد دعوية عدة منها:

---

(١) أخرجه البخاري ٦٦٠، ومسلم ١٠٣١.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٦٩.

(٣) الفوائد المشوقة إلى علم القرآن وعلم البيان، ابن القيم ٩١.

١- أن الترغيب (يجعل العبد يتوق إلى ما أعده الله للطائعين فيزداد طاعة وتقوى، كما أن الترهيب يورث الخوف من عذاب الله عز وجل، ويولد الرهبة حتى تصير طبعًا في الإنسان توصله إلى تقوى الله عز وجل.

٢- أن الترغيب يولد الأمل ويبعث على النشاط والعمل للآخرة، والترهيب يعجل بتوبة التائبين حتى لا يدركهم الموت وهم عصاة.

٣- الترغيب يحبب إلى المسلم الطاعات وينأى به عن المعاصي، ويدفع به إلى مقاومة الشيطان، والترهيب يزود المؤمن بما يدفع به إغواء الشيطان فيقلع عن المعاصي)[١].

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٢١٥٦/٦، ٢١٩٥.

الحديث رقم (١٠٢)

١٠٢- **الثامن:** عن أبي عبد الله حُذَيْفةَ بن اليمانِ رضي الله عنه ، قال: صلَّيْتُ مع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ذَاتَ ليْلَةٍ، فَافَتَتَحَ الْبقرة، فقلْت يرْكَعُ عِندَ المائة، ثُمَّ مضى، فَقُلْت يُصلِّي بهَا في رَكْعةٍ، فمَضَى. فقُلْت يَرْكَع بهَا، ثم افْتتَح النِّساءَ، فقرأهَا، ثم افْتتح آلَ عِمْرانَ فقرَأهَا، يَقرُأُ مُترَسِّلاً، إذا مرَّ بآيَةٍ فِيها تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وإِذا مَرَّ بِسؤالٍ سَأل، وإذَا مَرَّ بتَعوذٍ تَعوَّذَ، ثم ركع فجعل يقُول: «**سُبحانَ ربِّيَ الْعظِيم**» فَكَانَ ركُوعُه نحْوا مِنْ قِيامِهِ ثُمَّ قَالَ: «**سمِع اللَّهُ لِمن حمِدَه، ربَّنا لك الْحمدُ**» ثُم قَام قِيامًا[1] طوِيلاً قَريبًا مِمَّا ركَع، ثُمَّ سَجَدَ فَقالَ: «**سبحان ربِّيَ الأعلَى**» فَكَانَ سُجُوده قَرِيبًا مِنْ قِيامِهِ» رواه مسلم[2].

ترجمة الراوي:

حذيفة بن اليمان: هو حذيفة بن حُسَيْل العبسي.

من نُجبَاء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو صاحبُ سِرِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أسلم رضي الله عنه مع أبيه، وأراد شهود بدرٍ، فصدّهما المشركون، وقالوا: إنكم تريدون محمدًا صلى الله عليه وسلم ، فقالا: ما نُريدُ إلا المدينة، فأخذوا العهد عليهما: على أن ينصرفا إلى المدينة ولا يقاتلا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبرا النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال: ((نَفي بعهدهم، ونستعين الله عليهم)) صلى الله عليه وسلم[3].

وشهد أُحدًا وما بعد ذلك من المشاهد، ولقد قُتِل أبوه يوم أحد بعد أن أخطأ به المسلمون، فجعل حذيفة رضي الله عنه يقول لهم: أبي، أبي، فلم يفهموا حتى قتلوه، فقال حذيفة رضي الله عنه : يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، فزادت حذيفة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرًا، وتصدق حذيفةُ عليهم بديته.

---

(١) (قيامًا) لا توجد عند مسلم.

(٢) برقم (٢٠٣/٧٧٢). وسيكرره المؤلف برقم (١١٨٢).

(٣) أخرجه مسلم، رقم (١٧٧٨).

وقد آخى رسول الله ﷺ بين حذيفة وعمَّار رضي الله عنهما، وكان رضي الله عنه يسأل رسول الله ﷺ عن الشر مخافة أن يدركه، وقد أسرَّ النبي ﷺ إليه أسماء المنافقين، وضبط عنه ﷺ الفتن الكائنة في الأمة، وقد ناشده عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال له: أأنا من المنافقين؟ فقال حذيفة رضي الله عنه: لا، ولا أُزكي أحدًا بعدك[1].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا مات ميّت، يسأل عن حذيفة رضي الله عنه، فإن حضر الصلاة عليه، صلى عليه عمر، وإن لم يحضر حذيفة الصلاة عليه لم يحضر عمر.

وقد ولاه عمر رضي الله عنه على المدائن "بفارس" وكانت عادته إذا استعمل عاملاً كتب في عهده (وقد بعثتُ فلانًا وأمرته بكذا) فلما استعمل حذيفة كتب في عهده (اسمعوا له وأطيعوا).

وكان رضي الله عنه من الشجعان الفاتحين، شهد الحرب بنهاوند، فلما قُتِلَ النعمان بن مقرن أمير ذلك الجيش أخذ الراية، وكان فتح همذان والريّ والدينور على يده، وشهد فتح الجزيرة وقال فيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ذاك امرؤ عَلِمَ المعضلات والمفصّلات وعلم أسماء المنافقين، إن تسألوه عنها تجدوه بها عالمًا.

بلغت أحاديثه عن النبي ﷺ ٢٥٥ حديثًا.

وفي وفاته قال: اللهم إني لم أحب الدنيا لحفر الأنهار ولا لغرس الأشجار؛ ولكن لسهر الليل وظمأ الهواجر، وكثرة الركوع والسجود، والذكر لله عز وجل كثيرًا، والجهاد في سبيله، ومزاحمة العلماء بالركب.

وتوفي سنة ٣٦هـ بالمدائن[2].

---

(١) أخرجه مسلم ١٧٨٨.

(٢) الطبقات، ابن سعد (٣١٧/٧)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (١٣٨)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (٧٠٦/١)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (٢٦٢)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي (٣٦١/٢)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (٧٣/٢)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٣٦٧/١)، والأعلام، الزركلي (١٧١/٢)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (٦٢٥/١-٦٣٢).

غريب الألفاظ:

مترسلاً: يقال ترسل الرجل في كلامه ومشيه: إذا لم يعجل[١].

نحوًا: مِثْلاً[٢].

الشرح الأدبي

إن الصلاة عماد الدين: من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين، وهى الركن العملي الأول بعد شهادة "أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله"، ويقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾[٣]. ونقتبس من هذا الحديث الشريف ومضات من سنة المصطفى ﷺ ونتعلم كيف كان يصلي صلاة التهجد ، وكيف كان دائم الابتهال والتضرع إلى الله عز وجل.

والمشهد الذي يرويه حذيفة بن اليمان في هذا الحديث مشهد واقعي، وليس موعظة قولية، وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تروي في حديث سابق أن النبي ﷺ: كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، وراوي الحديث مشهود له بالصدق والورع، فهو أحد الرقباء النجباء، وأحد الفقهاء أهل الفتوى، وصاحب سر رسول الله ﷺ، وفي الحديث إشارة إلى أن الصلاة هنا صلاة التهجد، لأنه قال: "ذات ليلة"، ولم يحدد فرضًا محددًا، وما أعظم هذه القدوة التي يقدمها رسول الله ﷺ في طاعته لربه، وفي مناجاته لخالقه، وفي التقرب إلى الله تعالى بالفرائض والنوافل، ويقول القاضي عياض في معرض الإشادة برسول الله ﷺ، وخوفه من ربه، وطمعه في ثوابه: وأما خوفه من ربه، وطاعته له، وشدة عبادته فعلى قدر علمه بربه: أي بمقدار معرفته بعظمته، ومَن مِن الخلق، أجمعين أعظم معرفة بالله وأكثر وأشمل محبة لله تعالى من حبيبه ومصطفاه محمد بن عبدالله.

---

(١) حاشية السيوطي على سنن النسائي ٣/ ٢٥٠ وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ر س ل)، ومعجم لغة الفقهاء ١٠٧، والوسيط في (ر س ل).

(٢) انظر: الوسيط ٩٠٨.

(٣) سورة النساء: ١٠٣.

ﷺ، ويروي أبو ذر عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((إني أرى ما لا ترون، وأسمع مالا تسمعون))[١]، أي أبصر ما لا تبصرون من عجائب الملكوت، وأسمع ما لا تسمعون من غرائب أخبار عالم الجبروت[٢].

وفيوضات هذا الحديث تتجلى وتموج بالزهد والورع والتقوى والخشية والرهبة والأسوة الحسنة.

وحذيفة بن اليمان، يُصوِّر صلاة رسول الله ﷺ تصويرًا واقعيًا ممتزجًا بالمحبة والدهشة والتأمل، والصياغة تعتمد على التشويق، وتنبئ عن محبة حذيفة بن اليمان لرسول الله ﷺ، فهو يصغى في خشوع إلى تلاوة رسول الله ﷺ حين افتتح بسورة البقرة، وكان الراوي صادقًا مع نفسه وشعوره حين قال، فقلت: يركع عند المائة، أي الآية المائة، لأن هذا الحد من القراءة يناسب طاقة المسلم المتهجد ذي الطاقة الإيمانية المألوفة، ولكن إيمان رسول الله ﷺ، ومحبته لربه. لا يعلمها إلا خالقه، ولا يكافئها إلا رازقه.

ويظل: حذيفة بن اليمان، يحدث نفسه، قائلاً: ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها.

ويصف القراءة قائلاً: "يقرأ مترسلاً، أي مرتلاً بتبيين الحروف وأداء حقها، وهذه الخاصية من خصائص البيان النبوي، ومن سمات النطق عند رسول الله ﷺ، فمن صفاته أنه كان ضليع الفم، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه، وكان يستعمل جميع فمه إذا تكلم، ولقد كانت العرب تتمادح بسعة الفم وتذم بصغره، لأن السعة أدل على امتلاء الكلام، وتحقيق الحروف، وجهارة الأداء، وهذه الخصائص كلها تتبعث أشعتها من قوله "يقرأ مترسلاً"، ويسهب حذيفة في وصف طريقة الأداء عملاً وقولاً في صلاة رسول الله ﷺ وطريقة قراءة القرآن، فهو يسبح ويتعوذ، ويسأل: كلما قرأ آية تشع بالتسبيح والتعوذ والسؤال: وهذا يرشد إلى التفكر في آيات الله تعالى وتدبر

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٣١٢، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٨٨٢).

(٢) انظر: شرح الشفا للقاضي عياض، شرح: الملا على القاري، ٢١٢/١ – ٢١٣.

معانيها، ويصف طريقة الركوع والسجود مع ما فيهما من أقوال، وهذا الحديث نموذج لمحبة النبي لربه وطاعته لخالقه، والمجاهدة الخالصة في العبادة والتقرب إلى الله تعالى.

فقه الحديث

أ- الترتيب بين السور في القراءة في الصلاة وغيرها:

قال النووي: (وقوله "ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران" قال القاضي عياض: (فيه دليل لمن يقول: إن ترتيب السور اجتهاد من المسلمين حين كتبوا المصحف وأنه لم يكن ذلك من ترتيب النبي ﷺ بل وكّله إلى أمته بعده، قال: وهذا قول مالك وجمهور العلماء واختاره القاضي أبو بكر الباقلاني، قال ابن الباقلاني: هو أصح القولين مع احتمالهما. قال: والذي نقوله: إن ترتيب السور ليس بواجب في الكتاب ولا الصلاة وفي الدرس ولا في التلقين والتعليم. وإنه لم يكن من النبي ﷺ ذلك نص ولا حدٌّ تحرم مخالفته، ولذلك اختلف ترتيب المصاحف مصحف عثمان. قال: واستجاز النبي ﷺ والأمة بعده في جميع الأعصار ترك ترتيب السور في الصلاة والدرس والتلقين قال: وأما على قول من يقول من أهل العلم أن ذلك بتوقيف من النبي ﷺ حدوه لهم كما استقر في مصحف عثمان، وإنما اختلفت المصاحف قبل أن يبلغهم التوقيف والعرض الأخير، فيتأول قراءته ﷺ النساء أولاً ثم آل عمران هنا على أنه كان قبل التوقيف والترتيب. وكانت هاتان السورتان هكذا في مصحف أبي. قال: ولا خلاف أنه يجوز للمصلي أن يقرأ في الركعة الثانية سورة قبل التي قرأها في الأولى، وإنما يكره ذلك في ركعة ولم يتلو في غير صلاة. قال: وقد أباحه بعضهم وتأول نهي السلف عن قراءة القرآن على من يقرأ من آخر السورة إلى أولها. قال:ولا خلاف أن ترتيب آيات كل سورة بتوقيف من الله تعالى على ماهي عليه الآن في المصحف، وهكذا نقلته الأمة عن نبيها ﷺ هذا آخر كلام القاضي عياض، والله أعلم)[1].

ب- الترسل في القراءة والتسبيح إذا قرأ آية فيها تسبيح سبح، والسؤال إذا مر بآية

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٢٦-٥٢٧.

فيها سؤال والتعوذ إذا مرّ بآية فيها تعوذ.

قال النووي: (وقوله "يقرأ مترسلاً إذا مر بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مرّ بسؤال سأل، وإذا مرّ بتعوذ تعوذ" فيه استحباب هذه الأمور لكل قارئ في الصلاة وغيرها ومذهبنا استحبابه للإمام والمأموم والمنفرد)[1].

ج- قول سبحان ربي العظيم في الركوع: وقول سبحان ربي الأعلى في السجود.

قال النووي: (قوله "ثم ركع فجعل يقول سبحان ربي العظيم وقال في السجود سبحان ربي الأعلى" فيه استحباب تكرير سبحان ربي العظيم في الركوع وسبحان ربي الأعلى في السجود، وهو مذهبنا ومذهب الأوزاعي وأبي حنيفة والكوفيين وأحمد والجمهور. وقال مالك لا يتعين ذكر الاستحباب)[2].

د- تطويل الاعتدال عن الركوع: قال النووي: (قوله "ثم قال سمع الله لمن حمده" ثم قام طويلاً قريبًا مما ركع ثم سجد" فيه دليل لجواز التطويل عن الركوع وأصحابنا يقولون لا يجوز ويبطلون الصلاة)[3].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على تتبع أحوال النبي ﷺ، والاقتداء به.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: آداب تلاوة القرآن الكريم.

ثالثًا: من صفات الداعية: الخشوع والخضوع لله وحمده والثناء عليه.

رابعًا: من وسائل الدعوة: التعليم.

---

(١) المرجع السابق ٥٢٧.

(٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٣) المرجع السابق، الصفحة نفسها، وانظر لمزيد من التفصيل: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٣٢/٢٣، ٢١٠/٢٤، ومراجعها الإكليل ٥١/١، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد النفراوي المالكي ٢٠٩/١، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، الشربيني ١٦٤/١، ١٦٥، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤١١/٣-٤١٢.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على تتبع أحوال النبي ﷺ والاقتداء به:

وذلك في قول حذيفة رضي الله عنه: "صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة..." فالنبي ﷺ قدوة وأسوة ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1] وطاعته من طاعة الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[2].

ومن ثم حرص الصحابة رضي الله عنهم على تتبع أحوال النبي ﷺ للاقتداء به، فعن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ[3].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهي من عوالي المدينة وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ: ينزل يومًا وأنزل يومًا، فإذا نزلتُ جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك[4].

قال ابن حجر: (وفيه أن الطالب لا يغفل عن النظر في أمر معاشه ليستعين على طلب العلم وغيره، مع أخذه بالحزم في السؤال عما يفوته يوم غيبته)[5].

وقال ابن هبيرة: (وإنما فعل ذلك لأنهما كانا يقضيان من الكسب فرضًا واجبًا، ويتعلمان من العلم فروضًا لازمة، ففعلا بحسن تدبيرهما أن يقضي هذا وقتًا في كسبه، ويخلفه هذا في تعلم العلم والإتيان بخبر الوحي، ويفعل الآخر مثل فعل صاحبه، فيقضيان الفرضين ويدركان الأمرين)[6].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: رقدت في بيت ميمونة ليلة كان النبي ﷺ عندها؛

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٢) سورة النساء، آية: ٨٠.

(٣) أخرجه البخاري ٥٠٦٣، ومسلم ١٤٠١.

(٤) أخرجه البخاري ٨٩، ومسلم ١٤٧٩.

(٥) فتح الباري، ابن حجر ٢٢٤/١، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩٣٣.

(٦) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ١٢٨/١.

لأنظر كيف صلاة النبي ﷺ بالليل[١].

ذكر ابن حجر من فوائد هذا الحديث أن فيه (بيان فضل ابن عباس رضي الله عنهما وقوة فهمه وحرصه على تعلم أمر الدين، وحسن تأتِّيه في ذلك)[٢].

وقالت عائشة رضي الله عنها: ((أنَّ رسولَ اللَّهِ خَرَجَ في جَوْفِ الليلِ، فصلَّى في المسجدِ، فصلَّى رِجَالٌ بصلاتِهِ، فأصبحَ الناسُ يتحدَّثُونَ بذلكَ، فاجتَمعَ أكثرُ منهمْ، فخرجَ رسولُ اللَّهِ في الليلَةِ الثَّانيةِ فصلَّى، فَصلَّوْا بصلاتِهِ، فَأَصْبَحَ الناسُ يَتذاكَرُونَ ذلكَ، فَكَثُرَ أهلُ المَسْجِدِ في الليلةِ الثالثةِ، فَخَرَجَ فَصلَّى بِهِمْ، فَصلَّوْا بصلاتِهِ، فلمّا كانتِ الليلةُ الرّابعةُ عَجَزَ المسجدُ عن أهلِهِ...))[٣].

أما ابن عمر رضي الله عنهما فقال عنه الزبير بن بكار: كان يحفظ ما سمع من رسول الله ﷺ ويسأل من حضر إذا غاب عن قوله وفعله، وكان يتبع آثاره في كل مسجد صلّى فيه، وكان يعترض براحلته في طريق رأى رسول الله ﷺ عرض ناقته، وكان لا يترك الحج، وكان إذا وقف بعرفة يقف في الموقف الذي وقف فيه رسول الله ﷺ[٤].

فعلى المسلم أن يحرص أشد الحرص على تتبع أحوال النبي ﷺ؛ ليقتدي به في حياته وأمره كله، كما كان الصحابة رضي الله عنهم يفعلون، وهم خير القرون.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: آداب تلاوة القرآن الكريم:

وذلك في قول حذيفة: "يقرأ مترسلاً، إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مرّ بسؤال سأل وإذا مرّ بتعوذ تعوذ".

فالقرآن كلام الله عز وجل، لذا كان على قارئه أن يتحلى بآداب تلاوته، التي شرعت من أجل تعظيمه وإجلاله[٥]، ومن أهم هذه الآداب التدبر والتفهم، قال

---

(١) أخرجه البخاري ٧٤٥٢، ومسلم ٧٦٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٥٦٣/٢.

(٣) أخرجه البخاري ٩٢٤ واللفظ له، ومسلم ٧٦١.

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني في تمييز الصحابة، ابن حجر ٨١٠.

(٥) انظر: الأذكار، يحيى بن شرف النووي١٢٧-١٣٤، والتبيان في آداب حملة القرآن، له كذلك، والبرهان في علوم القرآن: محمد بن عبدالله الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ٤٤٩/١/١-٤٦٧، والإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم٢٩٢/١-٣١٣، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٥٠/١٣-٢٦٠.

السيوطي: (وتسن القراءة بالتدبر والتفهم، فهو المقصود الأعظم، والمطلوب الأهم، وبه تنشرح الصدور، وتستنير القلوب، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾[1] وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[2]، وصفة ذلك أن يشغل قلبه بالتفكر في معنى ما يَلْفِظُ به، فيعرف معنى كل آية، ويتأمل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك، فإن كان مما قصر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مرّ بآية رحمة استبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوذ، أو تنزيه نزه وعظم، أو دعاء تضرع وطلب)[3].

ثالثًا- من صفات الداعية: الخشوع والخضوع لله وحمده والثناء عليه:

يستنبط ذلك من قول حذيفة رضي الله عنه: "فافتتح البقرة... إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبّح..." ثم ركع فجعل يقول سبحان ربي العظيم... ثم قال: سمع الله لمن حمده..." فإن ذكر الله من صفات أولي الألباب: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾[4].

قال ابن هبيرة: (وفيه أيضًا من الفقه أنه إذا كان في صلاة فمرت به آية رحمة فشاء أن يسألها الله تعالى مغتنمًا ما في القرآن من مناسبة الطلب سألها، فإن القرآن وحي مجدد، وإذا مرّ به بآية فيها تسبيح الله تعالى فإنه يسبح الله بما روي في الأخبار، وليعلم أنه في مقام كريم لا يلائمه المطالب الدنيا، وإذا مرّ بآية عذاب للكافرين استعاذ بالله تعالى من مثل أن يقرأ قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾[5]، فيقول الحديث المروي[6] وهو: ((اللّهمَّ إني ظَلَمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يَغفِرُ الذُّنوبَ إلاّ أنتَ، فاغفِرْ

---

(١) سورة ص، آية: ٢٩.

(٢) سورة محمد، آية: ٢٤.

(٣) الإتقان ١/٢٩٩-٣٠٠، وانظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد ٣/٩٠٩-٩١٥.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٩١.

(٥) سورة غافر، آية: ٥٥.

(٦) هكذا في المطبوع من الإفصاح، والغالب على الظن أن هناك سقطًا، ويحتمل أن يكون: "وإذا مرّ بآية عذاب استعاذ بالله تعالى من العذاب، ومثل أن يقرأ قوله عز وجل "واستغفر لذنبك" فيقول الحديث المروي ... ".

لي مَغفِرةً من عِندكَ، وارحمني إنك أَنتَ الغفور الرَّحيم))[١]، ومثل أن يأتي قوله عز وجل: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾[٢]، فيقول ههنا: "اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك"، وفي مثل قوله سبحانه في ذكر تسبيحه -سبحانه وتعالى-: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾[٣]، وقد سبق أن معنى قولنا: "سبحان الله" أنه تنزيه له عز وجل عن كل ما لا يجوز عليه، ثم يقول: "وبحمده" أي وبحمده سبحتُه، ولذلك يقول: "سبحان الله العظيم". وهذا فلا أراه إلا في النافلة.

فأما الفريضة فيقصرها على أذكارها مع التفكر في كل ذكر من أذكارها، فإنها حاوية شاملة جامعة، وليكن في إنجازه بها مبادرًا الوسواس.

وفي هذا الحديث من الفقه جواز تطويل الركوع والسجود، وهذا فإنما يستحب مع أمن الضرر فيه، فإن خاف ضررًا يؤول إلى أذًى في سمعه أو بصره أو رأسه أو بدنه فلا يستحب له ذلك"[٤].

وكان ﷺ خاشعًا خاضعًا لله حامدًا إياه مثنيًا عليه حق الثناء، ومن الشواهد على ذلك ما روى عبدالله الشخير رضي الله عنه قال: "رأيت رسول الله ﷺ يصلي وفي صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء"[٥].

وقال ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه: كنت أبيت عند باب النبي ﷺ فأعطيه وضوءه فأسمعه الهَوى من الليل[٦] يقول: سمع الله لمن حمده، وأسمعه الهوى من الليل يقول: الحمد لله رب العالمين[٧].

---

(١) أخرجه البخاري ٨٣٤، ومسلم ٢٧٠٥.

(٢) سورة نوح، آية: ١٣.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ٢٠.

(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٢/٢٣٧.

(٥) أخرجه أبو داود ٩٠٤ وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٧٩٩).

(٦) الهوى: الحين الطويل من الزمان، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (هـ و ا).

(٧) أخرجه الترمذي ٣٤١٦، وابن ماجه ٣٨٧٩ وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣١٢٩).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما واصفًا صلاة النبي ﷺ في الاستسقاء: إن رسول الله ﷺ خرج متبذلاً متواضعًا متضرعًا حتى أتى المصلّى فلم يخطب خطبتكم هذه، ولكن لم يزل في الدعاء والتضرع والتكبير"[1].

فما أجدر أن يتحلى الداعية بالخشوع والخضوع لله رب العالمين، فهذا من علامات صدق الإيمان ومن طرق النجاح في دعوته[2].

رابعًا- من وسائل الدعوة: التعليم:

ويمكن أن نلحظ ذلك في قول حذيفة "يقرأ مترسلاً، إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبح..." فقد تعلّم حذيفة هذه الآداب عن طريق فعل النبي ﷺ إياها في الصلاة.

فرأينا حذيفة رضي الله عنه يضرب لنا المثل الحي وفيما يجب أن يمتثل به التلميذ وطالب العلم من حسن استماع وتتبع لما يقوله أستاذه وما يسوقه إليه من معلومات سواء أكان ذلك بأسلوب مباشر كالتلقين أو بأسلوب غير مباشر عن طريق الممارسة العلمية، كما نجد ذلك في الحديث حيث صلى النبي ﷺ وقراءته القرآن وعمله بمقتضى الآيات من تسبيح وتحميد واستغفار ونحو ذلك.

لقد اهتم الإسلام بالعلم وتعليمه اهتمامًا لا نظير له، لذا كان التعليم أهم الأسس الفعلية التي تقوم عليها الدعوة الإسلامية.

(إن الأمة الإسلامية: إذا جاز أن تسمى بأسماء معينة توضح جوانبها وتفسر حقيقتها وتبين أهدافها، فإن من أهم الأسماء التي تبرز وتعلو وترتفع أمام الإنسان، إنها أمة العلم وأمة التربية القويمة، بل أمة الأستاذية في هذا المجال، وصدق الله العظيم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[3].

وليس عجيبًا بعد ذلك، أن يعرف الإنسان، أن الإسلام قد أعلن دعوته منذ اليوم

---

(١) أخرجه الترمذي ٥٥٨، وابن ماجه ١٢٦٦ وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٠٤٦).

(٢) انظر: نضرة النعيم ١٧٥٣/٣-١٧٨١، ١٨٢٤-١٨٣٧، ١٩٦١-٢٠١٣.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

الأول بل منذ اللحظة الأولى، بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[(١)][(٢)].

---

(١) سورة العلق، الآيات: ١-٥.

(٢) انظر: الدعوة إلى الله، الرسالة، الوسيلة، الهدف، د. توفيق الواعي، ص ٢١٥.

الحديث رقم (١٠٣)

١٠٣- التاسع: عن ابن مسعودٍ ﷺ قال: صلَّيْت مع النَبيِّ ﷺ لَيلَةً، فَأَطَالَ القِيامَ حتَّى[١] هَمَمْتُ أَنْ أجْلِسَ وَأدعَهُ. متفقٌ عليه[٢].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

الشرح الأدبي

هذا الحديث الشريف، درس نبوي جديد في الخشوع والخضوع، ومنارة إيمانية من منارات الهدى والرشاد.. التي أضاءها بخُلُقه وعبادته المبعوث رحمة للعالمين، وراوي الدرس من الصحابة الأخيار، والكرام الأبرار، عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، صاحب المآثر الجليلة في تاريخ الدعوة الإسلامية، وهذا الدرس يعيد ذاكرتنا إلى الحديث السابق الذي يرويه، حذيفة بن اليمان رضي الله عنه؛ حيث فصل وأوضح سر التطويل في صلاة التهجد التي كان يصليها رسول الله ﷺ، حيث قرأ سورة البقرة، ثم سورة النساء، ثم سورة آل عمران، وإذا كان القرآن يفسر بعضه بعضًا، كما قال العلماء، فإن الحديث النبوي الشريف يوضح بعضه بعضًا، ويجب على المسلم أن يتأمل النصوص الحديثية المتشابهة.. والتي تدور أشعتها الهادية في فلك واحد، وقضية واحدة، فإن الأحاديث يكمل بعضها بعضا، والروايات المتعددة للحديث: من شأنها أن تزيل اللبس أحيانًا وتوضح الغموض أو التناقض الظاهري الذي ينشأ من اختلاف بعض الروايات في الألفاظ والعبارات والموازنة بين الروايات في تأنٍ وروِيَّة تؤدي إلى نتائج علمية وشرعية دقيقة.

ولنتأمل ما وراء كلمات ابن سعود من معان وأدب مع رسول الله ﷺ، إنه يصف صلاة رسول الله ﷺ بقوله: فأطال القيام، والوصف ليس ناشئًا عن حكاية أو رواية، ولكنه كان مشاركًا في الصلاة: حيث يقول: "صليت مع النبي ﷺ ليلة"، وفي هذا

---

(١) عند البخاري ومسلم زيادة: (هممتُ بأمر سوء، قلنا: وما هممت؟ قال).

(٢) أخرجه البخاري (١١٣٥)، ومسلم (٧٧٣/٢٠٤). وسيكرره المؤلف برقم (١١٧٦).

إشارة وتنبيه إلى أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يشاركون رسول الله ﷺ صلاة التهجد، أحيانًا مثل حذيفة بن اليمان، وعبدالله بن مسعود، وعائشة رضي الله عنها بدليل قولها: "أحيا الليل وأيقظ أهله".

وحين يثقل القيام على ابن مسعود لطول الوقت يهم بالجلوس نظرًا لتعبه، ولكنه لا يفعل، ويظل قائمًا متحملاً المشقة، ويصف تفكيره في الجلوس بأنه أمر سوء أي فعل سيئ ، أي فاسد، وقيل: كان ابن مسعود قويًا محافظًا على الاقتداء بالنبي ﷺ، وما همَّ بالقعود إلا بعد طول كثير ما اعتاده، ولم يقعد تأدبًا مع رسول الله ﷺ.

وهذه الإطالة في الصلاة قد تكون خصوصية لرسول الله ﷺ ولا يطيقها غيره، ولكنها تشير وترشد إلى ضرورة الخشوع في الصلاة، وأمارات ودلائل الخشوع متعددة وبغيرها لا تؤتى الصلاة فائدتها، ولا يجني المصلي ثمرتها، ومن هذه الدلائل -كما يقول صاحب كتاب إحياء علوم الدين- حضور القلب، والتفهم، والتعظيم والهيبة والرجاء والحياء، وحضور القلب في الصلاة المراد منه: أن يفرغ القلب عن غير ما هو ملابس له، ومتكلم به، فيكون العلم بالفعل والقول مقرونًا بهما، ولا يكون الفكر جائلاً في غيرهما، والتفهم هو اشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ، فالمصلى عليه استحضار بعض ما توحي به المعاني في الصلاة. لأن ذلك هو السبيل إلى التعظيم والهيبة والرجاء والحياء، وهكذا كانت صلاة رسول الله ﷺ: فهو يقرأ مترسلاً: ويسبح ويسأل ويتعوذ: ويطيل الركوع والسجود، رزقنا الله محبته ومحبة سنته.

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى أكثر من حكم فقهي:

الأول: مخالفة المأموم للإمام في فعله، وأنها معدودة في الأمور السيئة، كما ذكر ابن حجر[١]، ولكن إذا شق على المقتدي القيام في فريضة أو نافلة وعجز عنه جاز له

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٩/٣.

باتفاق العلماء القعود في الصلاة، لأن التكليف بقدر الطاقة ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها[(١)].

الثاني: أنه ينبغي الأدب مع الأئمة والكبار وألا يخالفوا بقول أو فعل ما لم يكن حرامًا[(٢)].

الثالث: تطويل صلاة الليل، ففي الحديث دليل على استحباب تطويل صلاة الليل[(٣)].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل قيام الليل.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: إجلال الصحابة رضي الله عنهم للنبي ﷺ.

ثالثًا: من واجبات المدعو: السؤال عما خفي عليه.

رابعًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل قيام الليل:

يستنبط ذلك من قول ابن مسعود رضي الله عنه: "صليت مع النبي ﷺ ليلةً...". وقد تضافرت الآيات والأحاديث على الترغيب في قيام الليل وبيان فضله؛ فمن الآيات قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[(٤)] وقال تعالى في وصف المتقين: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾[(٥)] (أي كانوا يهجعون زمانًا قليلاً من

---

(١) المبسوط، السرخسي ٢١٨/١، والعناية للبابرتي ٣/٢، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي ٣/٢، والتاج والإكليل ٦٨/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٠١/٤، ٢٠٧، والغرر البهية ٣٠٤/١، والفروع ٤٥/٢، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي ٣٠٥/٢، والمحلى ٩٠/٣، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦١/٦.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٣/٦، وإحكام الأحكام ٦٠/٢، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح والمنح المرعية ٢٥٦/٣ وما بعدها.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١٩/٣، وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٦٣/٦.

(٤) سورة الإسراء، آية: ٧٩.

(٥) سورة الذاريات، آية: ١٧.

الليل، ولاشك أن هذا وصف للمتقين بأنهم عاملون مخلصون؛ فالليل وإن كان وقت راحة ونوم، فهم لا يهجعون فيه إلا قليلا، ويكابدون العبادة في أوقات الراحة والبعد عن الناس، وعند سكون النفس، وعدم اشتغالها بالدنيا)[١].

أما الأحاديث فهي كثيرة، من ذلك قول النبي ﷺ: ((أَفْضَلُ الصَّلاَةِ، بَعْدَ الْفَرِيضَةِ، صَلاَةُ اللَّيْلِ))[٢]. وقد ورد في السيرة النبوية ما يدل على حب الصحابة لقيام الليل، قال جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنهما خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع، فأصيبت امرأة من المشركين، فلما انصرف رسول الله ﷺ قافلاً، وجاء زوجها وكان غائبًا، فحلف ألا ينتهي حتى يهريق دمًا في أصحاب محمد ﷺ، فخرج يتبع أثر النبي ﷺ، فنزل النبي ﷺ منزلاً فقال: "من رجل يكلؤنا ليلتنا هذه؟" فانتدب رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار، فقالا: نحن يا رسول الله. قال: فكونوا بفم الشِّعْب قال: وكانوا نزلوا إلى شعب من الوادي.

فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب قال الأنصاري للمهاجري: أي الليل أحب إليك أن أكفيكه: أوله أو آخره؟ قال: اكفني أوَّله. فاضطجع المهاجري، فنام وقام الأنصاري يصلي وأتى الرجل فلما رأى شخص الرجل عرف أنه ربيئة القوم[٣] فرماه بسهم فوضعه فيه فنزعه فوضعه وثبت قائمًا. ثم رماه بسهم آخر فوضعه فيه، فنزعه فوضعه، وثبت قائمًا. ثم عاد له بثالث فوضعه فيه فنزعه فوضعه ثم ركع وسجد ثم أهبَّ صاحبه[٤] فقال: اجلس فقد أُتيتُ، فوثب. فلما رآهما الرجل عرف أن قد نذروا به[٥] فهرب، فلما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدماء قال: سبحان الله ألا أهببتني قال: كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى

---

(١) التفسير الواضح، مج٣/٢٧/٨٦-٨٧.

(٢) أخرجه مسلم ١١٦٣.

(٣) الربيئة: العين والطليعة الذي ينظر للقوم، لئلا يدهمهم عدو. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣٣٨.

(٤) أي: أيقظه. حاشية السندي على مسند أحمد بن حنبل ٥٣/٢٣.

(٥) أي: علموا وأحسوا بمكانه. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٩٠٩.

أنفذها، فلما تابع الرمي ركعت فأريْتُك، وايم الله لولا أن أضيّع ثغرًا أمرني رسول الله ﷺ بحفظه، لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذها[1].

قال العز بن عبدالسلام: (أسباب قيام الليل مخافة أو رجاء أو محبة أو مهابة مانعة من النوم، وكذلك تتجافى جنوبهم عن المضاجع، فمن لم يكن عنده شيء من ذلك ثقل عليه قيام الليل)[2].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: إجلال الصحابة للنبي ﷺ:

يستنبط ذلك من قول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: "حتى هممت بأمر سوء" قال النووي: (فيه أنه ينبغي الأدب مع الأئمة والكبار، وأن لا يخالفوا بفعل وقول ما لم يكن حرامًا، واتفق العلماء على أنه إذا شق على المقتدي في فريضةٍ أو نافلةٍ القيامُ وعجز عنه جاز له القعود وإنما لم يقعد ابن مسعود للتأدب مع النبي ﷺ)[3].

وقد ورد في القرآن الأمر لأصحاب النبي ﷺ بتبجيله وإجلاله، من ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾[4] فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا حدّث النبي ﷺ حدّثه كأخي السرار لم يُسمعه حتى يستفهمه[5].

وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه: ((وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلاَ أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ، إِجْلاَلاً لَهُ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ، لأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ))[6].

---

(١) أخرجه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ٢١٨/٣-٢١٩ ومن طريقه أبو داود ١٩٨، وأحمد في المسند ١٤٧٠٤/٢٣، وابن خزيمة ٣٦ والدارقطني ٢٢٣/١-٢٢٤ والحاكم ١٥١/١-١٥٧، والبيهقي في السنن ١٤٠/١، ١٥٠/٩، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٨٢).

(٢) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال، ٣١٥.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٢٧.

(٤) سورة الحجرات، آية: ٢.

(٥) أخرجه البخاري ٤٨٤٥، ٧٣٠٢.

(٦) أخرجه مسلم (١٢١).

فالصحابة رضوان الله عليهم كانوا محبين للنبي ﷺ مجلّين له، وهم خير القرون والقدوة لغيرهم[(١)].

قال القاضي عياض: "واعلم أن حرمة النبي ﷺ بعد موته وتوقيره وتعظيمه لازم كما كان حال حياته، وذلك عند ذكره ﷺ وذكر حديثه وسنته، وسماع اسمه وسيرته ومعاملة آله وعترته، وتعظيم أهل بيته وصحابته"[(٢)].

ثالثًا- من واجبات المدعو: السؤال عما خفي عليه:

وذلك في سؤال أصحاب ابن مسعود رضي الله عنه: "وما هممت به؟" قال ابن حجر: (وفيه تنبيه على فائدة معرفة ما بينهم من الأحوال وغيرها، لأن أصحاب ابن مسعود ما عرفوا مراده من قوله: "هممت بأمر سوء" حتى استفهموه عنه، ولم ينكر عليهم استفهامهم عن ذلك)[(٣)].

ومن مواقف السيرة التي تدل على ذلك: سؤال الحباب بن المنذر رضي الله عنه رسول الله ﷺ يوم بدر عن منزله الذي نزله فقال: ((يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال، بل هو الرأي والحرب والمكيدة))[(٤)].

إن من أكبر أبواب العلم، وأعظم أسبابه: السؤال عما يخفى على الإنسان، وقد أمر الله تعالى من وقف عليه شيء أو لم يكن له سابق علم بالسؤال عما يجهل والاستيضاح عما يشكل، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[(٥)].

قال السعدي: (وهذه الآية وإن كان سببها خاصًا بالسؤال عن حالة الرسل

---

(١) انظر: حياة الصحابة: محمد يوسف الكاندهلوي ١٣٨٤هـ ص ٤٥٠ وما بعدها.

(٢) الشفا ٢/٤٠٢، وانظر: أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء ص ١٧٦.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٣/٢٤.

(٤) أخرجه ابن إسحاق في السيرة ٢/٢٧٢ بإسناد منقطع، وانظر: الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٢٤٤ ترجمة الحباب رضي الله عنه.

(٥) سورة الأنبياء، آية: ٧.

المتقدمين من أهل الذكر، وهم أهل العلم، فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين، أصوله وفروعه، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها، أن يسأل من يعلمها، ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يُؤمر بسؤالهم، إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه.

وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم، نهيٌ عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم، ونهيٌ له أن يتصدى لذلك)[1].

رابعًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

من الأساليب الدعوية المفيدة التي تثري العملية الدعوية، وتعمل على تجلية موضوعات الدعوة، أسلوب السؤال والجواب، حيث تكون الفرصة مواتية للمدعو أن يسأل عما خفي عليه، أو ما احتاج إلى مزيد بيان وإيضاح فيه، فيتمكن الداعية من الإجابة التي تلبي حاجة نفس المدعو.

وفي هذا الحديث الذي نحن بصدده ورد السؤال لابن مسعود رضي الله عنه حيث قيل له: "وما هممت به؟". فأجاب رضي الله عنه: "هممت أن أجلس وأدعه".

إن أسلوب السؤال والجواب من الأساليب الرئيسة في تبليغ الدعوة إلى الناس وتأثيرها فيهم، (وما أكثر الأساليب الحوارية والاستجوابية التي انتهجها الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه رضي الله عنهم حين كان يدعوهم إلى الله ويربيهم التربية المثلى، ومن ذلك: ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أتدرون من المفلس؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه ثم طرح في النار)[2].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٤٦٨.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٨١.

وما هـذا الأسـلوب الحـواري الـذي انتهجـه نبينـا محمـد ﷺ مـع مـن يلتقـي بهـم ويدعوهم إلا ليثير انتباههم ويحرك فطنتهم وذكائهم، ويذهب مللهم وسآمتهم، ويصب في مشاعر أحاسيسهم معين المعرفة وسلسبيل الهدى[1].

(1) صفات الداعية، د. حمد بن ناصر العمار، ص ٩٧.

الحديث رقم (١٠٤)

١٠٤- العاشر: عن أنس رضي الله عنه عن رسول اللهِ ﷺ قال: «**يتْبعُ الميْتَ ثلاثةٌ: أهلُهُ ومالُه وعملُه، فيرْجِع اثنانِ ويبْقَى واحِدٌ:** [1]**يرجعُ أهلُهُ ومالُهُ، ويبقَى عملُهُ**» متفقٌ عليه[2].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

إن رحلة الإنسان في هذه الحياة تظل متوزعة بين ثلاثة دوائر، حيث تتحرك اهتمامات الإنسان، وحيث تتجه مناشطه وأهواؤه ومنازعه، وهذه الدوائر أجملها البيان النبوي في الأهل والمال والعمل، وكل دائرة من هذه الدوائر الحياتية تتضمن ضروبًا من التفكير.. والنشاط... والتخطيط والإعداد: تفني عمر الإنسان، وتحصد أيامه.

وبمقدار ما أرشد القرآن الكريم والرسول ﷺ إلى العناية بالأهل.. وحسن رعايتهم، بما فيهم الزوجة والأبناء .. وكل من يعولهم المسلم، وكذلك أولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض، بمقدار ما حذر من فتنة الأولاد، لأنهم يكونون أحيانًا من أسباب الغفلة واللهو ونسيان العبادة، كما قال الله عز وجل عن المنافقين: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾[3]، وقال الله سبحانه: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[5].

---

(١) لفظ البخاري ويبقى معه واحد، وعنده وعند مسلم زيادة بعد ذلك: "يتبعه أهله وماله وعمله".

(٢) أخرجه البخاري (٦٥١٤)، ومسلم (٥/٢٩٦٠) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٤٧٢٧).

(٣) سورة الفتح، آية: ١١.

(٤) سورة التغابن، آية: ١٤.

(٥) سورة التغابن، آية: ١٥.

والمال من أعظم مظاهر الافتتان بعرض الدنيا، ومن أخطر الأبواب التي تغري الإنسان بالولوج إلى عوالم الغرور والإغراء. والجحود، والمسلم يطهر ماله بالصدقة، ويحصنه بالزكاة وفي أموالهم حق معلوم: للسائل والمحروم.

والعمل الصالح هو الميزان الحقيقي الذي يضبط حركة الحياة، وهو المقياس الصحيح في رعاية الأهل وحسن تنشئة الأبناء، والمداومة على صلة الرحم وذوي القربى.

وفي ظل هذه المعاني المشرقات تتحرك كلمات هذا الحديث الشريف، وتسبح أطياف معانيه الباهرات، وتتطلق أصداء إشعاعاته الراشدات الهاديات.

ولنتأمل المشهد الأخير في كتاب الحياة: حيث يصوره الحديث الشريف وكأنه مشاهد أمامنا.

وهو مشهد يتكرر ملايين المرات بقدر عدد الموتى إلى يوم الدين، وما أجمل هذا التشخيص الذي لجأ إليه المصطفى ﷺ، فالأهل والمال والعمل، كلهم متساوون في الحركة والتبعية، وهم يشاركون في جنازة الميت، وهم يشاهدون جميعًا ساعة الدفن، والميت يوارى في ظلام القبر، وكأن المال كائن حي يتحرك ويسمع ويعي، ويستحضر: كيف جمعه صاحبه؟، وفيم أنفقه؟، وأين ركزه؟ ولماذا كنزه؟ والمفارقة التي تتشكل من عناصرها حياة الإنسان تتجسد في هذا المشهد الأخير، فالأهل الذين ضيَّع الميت حياته من أجلهم، وخاض غمار الحياة، وخلط العمل الصالح بالآخر السيئ ويتمتعون بما تركه من إرث ويتركون الميت وحيدًا في ظلام القبور! والمال كذلك لا يدفن مع صاحبه ولكن يرجع ليستقر في أيدي الآخرين من الورثة وغيرهم، والتعبير بالفعل "يرجع" له دلالته التي تتبه كل إنسان، وترشده إلى مصيره، وبأن المال عرض زائل يصاحب الأحياء ولا يصحبهم إلى قبورهم بعد الموت، وقد تكرر الفعل "يرجع" مرتين لتأكيد معنى زواله عن صاحبه، وتكرر الفعل "يبقى" مرتين لتأكيد بقاء العمل: وهو ما يقدمه الإنسان في حياته من سلوك طيب وفعل حسن، وحرص على اكتساب المال من مصدر حلال، واتقاء الله تعالى في رعاية الأهل، فبالعمل الصالح ينجو الإنسان ويفوز بالجنة.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، والتفصيل بعد الإجمال.

ثانيًا: من واجبات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الحث على تحسين العمل.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: مجاهدة النفس.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأخبار، والتفصيل بعد الإجمال:

أ- **الإخبار:** ويتبين ذلك في الحديث من خلال إخبار النبي ﷺ بما سيحدث للميت من اتباع أهله وماله وعمله له، ويرجع الكل باستثناء عمله، وذلك الإخبار يجعل المدعو على بينة من أمره، وبصيرة من أحواله، فيصحح أوضاعه ويحاسب نفسه ويعقد مصالحة مع ربه، ويتزود بالعمل الصالح، ويستعد لهذا الأجل المحتوم واليوم الذي سيلقى فيه ربه.

ب- **التفصيل بعد الإجمال:** فالرسول ﷺ أجمل في الحديث ما يتبع الميت بقوله "يتبع الميت ثلاثة"، ثم فصل بقوله: "أهله وماله وعمله"، أجمل في قوله "فيرجع اثنان ويبقى واحد" ثم فصل ذلك على سبيل الاستئناف البياني ((يرجع أهله وماله ويبقى عمله)) ليكون أقر في النفس وأمكن لأنها يجيئها التفصيل وقد اشتاقت إليه)[1].

ثانيًا: من واجبات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

إن من أهم واجبات الداعي أن يُبيّن الحقائق للمدعوين؛ حتى تكون الفرصة سانحة لهم لاستدراك ما فاتهم، والاستعداد لهذا اليوم، ففي الحديث بيّن الرسول ﷺ ما يحدث للميت بعد موته من انصراف كل شيء عنه إلا عمله وما قدمت يداه (فالإنسان إذا مات تبعه المشيعون له من أهل وولد، وما أعجب الدنيا وأخسها وما أدناها، يتولى دفن الإنسان مَنْ هو أحب الناس إليه، ثم ما يلبث ويرجع تاركًا له بلا أنس، ولا يبقى معه إلا عمله ينفرد به إلى يوم القيامة)[2].

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان، ص ٢٣٣.

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٣٢٨/١.

وفي هذا الحديث دليل على أن الدنيا - كل زينة الحياة الدنيا ترجع، ولا تبقى معك في قبرك، المال والبنون زينة الحياة الدنيا ترجع، من الذي يبقى؟ فقط العمل، فعليك يا أخي أن تحرص على الصاحب الذي يبقى ولا ينصرف مع من ينصرف، وعليك أن تجتهد حتى يكون عملك عملاً صالحًا يؤنسك في قبرك إذا انفردت به عن الأحباب والأهل والأولاد.

كما أن فيه حث على تحسين الإنسان العمل؛ ليكون أنيسًا له بعد الموت، وأن العاقل يُعِدُّ للآخرة، ويُؤثر أمورها على الدنيا، كما يحمل الحديث في طياته الدعوة إلى عدم التعلق الشديد بالدنيا[1].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الحث على تحسين العمل:

يستنبط من هذا الحديث الدعوة إلى تحسين العمل ليكون أنيس الإنسان في قبره، فإن كان صالحًا فنعم الأنيس، وإن كان غير ذلك فبئس الجليس، وقد جاء هذا المعنى في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الطويل في صفة المسألة في القبر، وفيه "إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة... ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح، فيقول أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير فيقول أنا عملك الصالح".

وقال في حق غير المؤمن ((وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلائِكَةٌ سُودُ (الْوُجُوهِ) مَعَهُمُ الْمُسُوحُ حتى يَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ» «ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ أُخْرُجِي إِلَى سَخَطِ اللَّهِ وَغَضَبِهِ، قَالَ: فَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، قَالَ: فَتَخْرُجُ فَيَنْقَطِعُ مَعَهَا الْعُرُوقُ وَالْعَصَبُ، كَمَا تُنْزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُوهَا فَإِذَا أَخَذُوهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حتى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، فَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلاَ يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلإٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ إِلاَّ قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلاَنُ ابْنُ فُلاَنٍ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي

---

(١) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ص ١٠٢.

كَانَ يُسَمَّىٰ بِهَا فِي الدُّنْيَا حتى يَنْتَهِي بِهَا إلى سَمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتِحُونَ فَلاَ يُفْتَحُ لَهُ»،ثم قرأ رسول الله ﷺ: «﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ﴾(١)» قال: «فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي سِجِّين فِي الأَرْضِ السُّفْلَى وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا» قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ «﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾(٢)» قال: «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ وَيَأْتِيهِ الْمَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هاها، لاَ أَدْرِي، فَيَقُولاَنِ لَهُ: وَمَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هاها لاَ أَدْرِي، قَالَ: فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: افْرُشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ وَأَلْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ عَلَيْهِ أَضْلاَعَهُ وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ وَقَبِيحُ الثِّيَابِ مُنْتِنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ))(٣).

فالأهل والمال نفعهم قاصر على الحياة الدنيا، وفي الآخرة وعقب الموت يجد الإنسان نفسه وحيدًا فريدًا لا أنيس يؤنسه ولا صاحب يواسيه ويسليه إلا عمله وما قدمت يداه، فليحرص على تحسين عمله، والتزود بصالح الأعمال.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: مجاهدة النفس:

ففي الحديث إشارة من النبي ﷺ أن عمل الإنسان هو الباقي له، وذلك في قوله ﷺ: (يتبع الميت ثلاثة: أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان، ويبقى واحد، يرجع أهله وماله ويبقى عمله)، وذلك دعوة إلى طلب العمل الصالح وهذا يوجب مجاهدة النفس، بأن يشتغل المرء بامتثال الأوامر واجتناب المنهيات، فإذا أمر بأمر، أو نهي عنه فيتعين عليه

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٤٠.

(٢) سورة الحج، آية: ٣١.

(٣) أخرجه أحمد ٢٨٧/٤، ٢٨٨، رقم ١٨٥٣٤، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٥٠٣/٣٠.

الاعتناء به والاهتمام في فهمه والوقوف على معانيه يعبد ربه على بينة من أمره، وأن يبذل قصارى جهده في الاجتهاد في فعل ما يستطيعه من الأوامر واجتناب ما ينهى عنه، ويصرف همته إلى ذلك لا يدع لنفسه ثغرة أو مدخلاً يتسرب إليه منها السآمة أو الملل.

ويتذكر أنه لن يأخذ من الدنيا شيئًا، ولا يخرج منها بشيء إلا بعمله، فإذا نسيت أيها الإنسان الموت وشناعته والفراق وصعوبته، وغرتك الحياة الدنيا ونعيمها، فتذكر من سبقك بها، وتلذذ بها، وغره نعيمها، وخدعه حسنها. هل خلد فيها، هل دامت له؟ هل ذهب بشيء؟ تذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب، تذكر صورهم وكيف أخذهم الموت من مناصبهم وأحوالهم، وكيف محا التراب محاسن صورهم، وكيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم، وكيف رملوا نساءهم، ويتموا أولادهم، وضيعوا أموالهم، وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم، وانقطعت آثارهم، وقد كانوا يؤملون في طول العيش والبقاء، ونسوا أنهم زرع الفناء.

ركنوا إلى قوة الشباب، ومالوا إلى الضحك واللهو، وغفلوا عن الموت وأهواله، والقبر وأحواله، فإذا هم بعد القوة تهدمت أرجلهم، وبعد النطق أكل الدود ألسنتهم، وبعد الضحك أكل التراب أسنانهم، تذكر الموت قبل أن تندم فلا يفيدك ندمك، وقبل أن تزل قدمك، ويسلمك أهله وخدمك، ويفارقك حبيبك وقريبك، ويتخلى عنك ولدك ونسيبك، فلا أنت للدنيا عائد، ولا في حسناتك زائد، فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة(1).

إن هذه المعاني تجعل المؤمن يحرص أشد الحرص على مجاهدة نفسه والاستعداد للقاء الله بالعمل الصالح، والإيمان الصادق والتوبة النصوح.

إن جهاد النفس مقدَّم على غيره، وأصل له، فإذا لم يجاهد الإنسان نفسه أولاً لتفعل ما أُمرت به وتترك ما نهيت عنه ويحاربها في الله، لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج، فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصاف منه، وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له، متسلط عليه، لم يجاهده ولم يحاربه في الله، بل لا يمكنه الخروج إلى عدوه حتى

---

(1) كتاب "الله" أهل الثناء والمجد، د. ناصر بن مسفر الزهراني، ص ٥٩٥.

يجاهد نفسه على الخروج.

وجهاد النفس أربع مراتب:

إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى، ودين الحق الذي لا فلاح لها، ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها علمه، شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا علم إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمه من لا يعلمه وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات، ولا ينفعه علمه، ولا ينجيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله، وأذى الخلق، ويتحمل ذلك كله لله، فإذا استكمل هذه المراتب الأربع، صار من الربانيين، فإن السلف مجمعون على أن العالِمَ لا يستحق أن يُسمى ربانيًا حتى يعرف الحق، ويعمل به، ويعلمه، فمن علم وعمل وعلَّم فذاك يُدعى عظيمًا في ملكوت السماوات[1].

---

(١) انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، ٣/٥-١٠.

الحديث رقم (١٠٥)

١٠٥- الحادي عشر: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: **«الجنة أقَربُ إلى أَحدِكُم مِنْ شِراكِ نَعْلِهِ، والنَّارُ مِثْلُ ذلِكَ»** رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

شراك نعله: سير النعل على ظهر القدم[2].

الشرح الأدبي

إن المصطفى ﷺ في خطابه لأمته حريص عليها، وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم.

ومن دلائل هذه الحرص على مصلحة كل فرد في هذه الأمة إرشادهم إلى صلاح دينهم ودنياهم، وإلى طرق النجاة من مزالق الدنيا وأبواب جهنم، والفوز بالحسنى في الآخرة وبجنة عرضها السموات والأرض: أعدت للمتقين.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث النبوي الموجز، إنه قليل الكلمات كثير المعاني، ليس في ألفاظه غموض، ولكنه عميق الدلالة، دقيق الإشارة، فائق العبارة.

فأي ترغيب للمؤمن أجمل من هذا التشويق إلى الجنة؟ وإلى تلمس الطريق إلى الفوز بها، وأي وضوح أكثر إشراقًا من هذا التعبير "الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله".

وهذا التعبير من قبيل الكناية: وهو كناية عن القرب واليسر، ووجه الأقربية أن يسيرًا من الطاعة قد يكون سببًا في دخول الجنة، ومثله من المعصية يكون سببًا في،

---

(١) برقم (٦٤٨٨). أورده المنذري في ترغيبه (٤٩٠٦).

(٢) الوسيط في (ش ر ك).

والكناية من أبدع المسالك البيانية، والطرق الأسلوبية التي يعبر بها المنشئ عن المعنى تعبيرًا هادفًا موجزًا يخفي تحت ظلاله لطائف مراده[١].

وربما يتساءل البعض: ما سر إدراج هذا الحديث في باب المجاهدة؟، وإجابة السؤال تكشف عن الأسرار الكامنة في قلب كلمات هذا الحديث الشريف: لأن المجاهدة لا تكون بالمبالغة في العبادة فقط، ولكنها تكون أكثر ما تكون في مجاهدة النفس، ومجاهدة الوساوس، ومجاهدة الإحساس بعدم جدوى بعض الأعمال، ومجاهدة الخواطر التي تنأى بالإنسان عن طريق العمل الصالح، ونحن نقتبس من الحديث كثيرًا من الومضات الراشدة، وفي مقدمتها أنه لا ينبغي للمرء ألا يزهد في قليل من الخير أن يأتيه، ولا في قليل من الشر أن يجتنبه، فإنه لا يعلم الحسنة التي يرحمه الله تعالى بها، ولا السيئة التي يسخط عليه بها، وأشار بعض العلماء إلى سر آخر من أسرار هذا التعبير المجازى لقرب الجنة، وقرب النار فقال: أراد قرب الجنة لمن كان كافرًا فأسلم، وقرب النار لمن عكس ذلك[٢]. وهذا التفسير ليس هو المراد فقط من بلاغة الرسول ﷺ في الحديث، وإنما هو من المعاني والدروس المستفادة من هذا البيان النبوي البليغ.

والمعجم اللغوي هنا مشتق من البيئة، وقريب من الفهم، وهو لا يستعصى على فهم الآخرين، وإنما يفهمه كل من يسمعه، ولذلك جاء الخطاب عامًا غير محدد بفئة في قوله: "الجنة أقرب إلى أحدكم"، وما أروع الإيجاز في هذا البيان النبوي البليغ، فالناس جميعًا في كل زمان وفي كل مكان لا يخرجون عن أحد الطريقين، إما طريق الجنة، أو طريق النار، فتأمل كيف أوجز المصطفى ﷺ مصير كل هذه الملايين من الأمم المتعاقبة في هذه الكلمات القليلة المشعة بالدلالات العظيمة والجميلة، وتأمل هذا التبشير الفياض بالترغيب في جنة عرضها السموات والأرض، والترهيب من نار لا تبقي لا تذر، ولم يصرح بلفظ القرب في سياق الحديث عن النار للإيحاء بالتنفير والكراهة والترهيب.

---

(١) انظر: الحديث النبوي: من الوجهة البلاغية، د. عز الدين السيد، ص ١٦٦

(٢) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان، ١/٢٧٢ - ٢٧٣.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانيًا:من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الطاعة موصلة إلى الجنة، والمعصية مقربة إلى النار.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: عدم احتقار القليل من الخير أو احتقار القليل من الشر.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: الجزاء من جنس العمل.

سادسًا: من مهام الداعي: حسن العرض للدعوة.

أولاً- من أساليب الدعوة الإخبار:

يتضح ذلك في الحديث من إخبار النبي ﷺ بقرب الجنة والنار، وسهولة الوصول إليهما، وأن أقل العمل الصالح موصل إلى الجنة، وأن القليل من العمل السيئ قد يكون سببًا في تردي صاحبه في النار، فقال ﷺ: "الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك؛ حيث أخبر النبي ﷺ أن الجنة والنار قريبتان من الإنسان، وأنهما أقرب إليه من شراك نعله، وأسلوب الإخبار هنا جاء مناسبًا جدًا، وذلك لأن النبي ﷺ يقرر حقائق ثابتة ليس المجال هنا مجال إثبات وتدليل لأن هذا مقرر مسلم به، وإنما المقام هنا ترغيب وتحذير، أي مقام عمل وامتثال لا تدليل وبرهان، كل هذا ليرغب في عمل الجنة، ويحذر من عمل أهل النار؛ لأن من مهام الداعي بيان الحقائق للمدعوين وإخبارهم بها، وتصحيح المفاهيم الخاطئة، ويُثمر عن ذلك تحفيز الهمم وشد الأرز، والدفع إلى طاعة الله واجتناب معاصيه". وذلك من أهم الأمور الواجبة المنوطة بالداعية ومهمته؛ إذ أن الإعلام بدين الله تعالى وإخبار الناس به ودعوتهم إليه فريضة مستمرة ينهض بها العلماء، ويضطلع بأعبائها المسلمون في تكاتف وتعاون يجعل من عملهم استمرارًا لعمل رسول الله ﷺ وجهاده في سبيل الدعوة[1]، التي أذن الله باكتمالها

---

(١) مشكلات الدعوة والدعاة، د. محمد حسين الذهبي، مطابع دار الشعب، بدون ذكر رقم الطبعة وتاريخها، القاهرة، ص ٩.

وأوجب إبلاغها للناس، قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[١].

إن الإسلام ليس ملكًا لنا، وإنما هو أمانة الله في أعناقنا، ومن الوفاء بالأمانة تبليغها وإعلام الناس بها، فالإعلام بشرع الله ودينه إلى الناس كافة أمانة عظيمة، والمسلمون جميعًا -خاصة الدعاة إلى الله- مطالبون بالوفاء بهذه الأمانة وتأديتها على الوجه الذي يرضي الله سبحانه وتعالى)[٢].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

حيث ورد ذلك في قوله ﷺ: "الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله" فشراك النعل قريب جدًا من الإنسان، ويضرب به المثل في القرب، وترهيبًا في الجملة الثانية "والنار مثل ذلك" وذلك أن الإنسان ربما يتكلم الكلمة الواحدة من رضوان الله تعالى فتكون سببًا في دخول الجنة، وربما يتكلم الكلمة لا يلقي لها بالاً وهي من سخط الله، فتكون سبب في أن يهوى في نار جهنم[٣]. وكما جاء في صريح قوله ﷺ: ((إنَّ العبدَ ليتكلمُ بالكلمة من رِضوانِ اللهِ لا يُلقي لها بالاً يرفعُه اللهُ بها درجات، وإن العبدَ ليتكلمَ بالكلمة من سَخَط الله لا يُلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم))[٤].

ولما كان للترغيب والترهيب من أثر بالغ في استجابة النفوس واستقامتها كان أهم وأعظم أساليب الدعوة إلى الله تعالى، إذ أن (النفس لا ترغب إلا فيما فيه سعادتها وصلاح أمرها، وما جاء به الشرع الحنيف كله - بعد الإقرار بالوحدانية وصدق الرسول ﷺ- لا يعدو أن يكون ترغيبًا في الخيرات وترهيبًا من المعاصي والموبقات، وثمرة ذلك حثُّ المؤمن على الرغبة فيما عند الله تعالى والرهبة من عقابه)[٥].

---

(١) سورة المائدة، آية: ٣.

(٢) انظر: وظيفة الإخبار في سورة الأنعام، د. سيد محمد ساداتي الشنقيطي، ص ١٠١-١٠٦.

(٣) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ١/٣٢٩.

(٤) أخرجه البخاري ٦٤٧٨، ومسلم ٢٩٨٨.

(٥) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، د. صالح بن عبدالله بن حميدة وآخرون، ٦/٢١٢٧.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الطاعة موصلة إلى الجنة والمعصية مقربة إلى النار:

وشبه ﷺ قربهما بقرب شراك النعل من الإنسان، فقال "الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله وكذلك النار" فطلبهما ليس صعب المنال، وليس هناك من المشقة ما يحول بين الإنسان وبين مصيره، قال ابن مالك: ووجه الأقربية أن يسير الطاعة قد يكون سببًا لدخول الجنة ومثله من المعصية في النار، وقال السعد الكازوروني في شرح المشارق: أراد قرب الجنة لمن كان كافرًا فأسلم، وقرب النار لمن عكس، وكذا لمن أتى الكبائر(١).

وقال ابن بطال: وفي الحديث أن الطاعة موصلة إلى الجنة وأن المعصية مقربة إلى النار، وأن الطاعة و المعصية قد تكون في أيسر الأشياء، فينبغي للمرء أن لا يزهد في قليل من الخير أن يأتيه ولا في قليل من الشر أن يجتنبه؛ فإنه لا يعلم الحسنة التي يرحمه الله بها، ولا السيئة التي يسخط عليه بها، وقال ابن الجوزي: معنى الحديث أن تحصيل الجنة سهل بتصحيح القصد وفعل الطاعة، والنار كذلك بموافقة الهوى وفعل المعصية(٢).

فهذا الحديث يتضمن ترغيبًا وترهيبًا، يتضمن ترغيبًا في الجملة الأولى، وهو قوله: "الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله"، وشراك النعل هو السير الذي يكون على ظهر القدم، وهو قريب من الإنسان جدًا ويضرب به المثل في القرب، وذلك لأنه قد تكون الكلمة الوحدة سببًا في دخول الجنة، فقد يتكلم الإنسان بالكلمة الواحدة من رضوان الله عز وجل لا يظن أنها تبلغ ما بلغت، فإذا هي توصله إلى جنة النعيم.

ومع ذلك فإن الحديث أعم من هذا، فإن كثرة الطاعات واجتناب المحرمات من أسباب دخول الجنة، وهو يسير على من يسره الله عليه، فأنت تجد المؤمن الذي شرح الله تعالى صدره للإسلام يصلي براحة وطمأنينة وانشراح صدر ومحبة للصلاة، ويزكي كذلك، ويصوم كذلك، ويحج كذلك، ويفعل الخير كذلك، فهو يسير عليه سهل

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان، ص ٢٣٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٣٢٩/١١.

قريب منه، وتجده يتجنب ما حرمه الله تعالى عليه من الأقوال والأفعال وهو يسير عليه.

وأما -والعياذ بالله- من قد ضاق بالإسلام ذرعًا، وصار الإسلام ثقيلاً عليه، فإنه يستثقل الطاعات، ويستثقل اجتناب المحرمات، ولا تصير الجنة أقرب إليه من شراك نعله.

وكذلك النار، وهي الجملة الثانية في الحديث وهي التي فيها التحذير، يقول النبي ﷺ: (والنار مثل ذلك)، أي أقرب إلى أحدنا من شراك نعله، فإن الإنسان ربما يتكلم بالكلمة لا يلقى لها بالاً وهي من سخط الله فيهوي بها في النار كذا وكذا من السنين، وهو لا يدري وما أكثر الكلمات التي يتكلم بها الإنسان غير مبال بها، وغير مهتم بمدلولها، فترديه في نار جهنم، نسأل الله العافية(١).

رابعًا- من موضوعات الدعوة: عدم احتقار القليل من الخير أو احتقار القليل من الشر:

إن فعل الطاعات من أسباب دخول الجنة كما أنّ فعل المعاصي واقتراف الذنوب يكون سبباً في دخول النار، ومن ثم كان على المدعو ألا يزهد في قليل الطاعة، ولا يستهين بالقليل من الشر، وهذا ما يبيّنه الحديث. قال ابن حجر: (قال ابن بطال: فيه أن الطاعة موصلة إلى الجنة وأن المعصية مقربة إلى النار، وأن الطاعة والمعصية قد تكون في أيسر الأشياء... فينبغي للمرء ألا يزهد في قليل من الخير أن يأتيه ولا في قليل من الشر أن يجتنبه، فإنه لا يعلم الحسنة التي يرحمه الله بها ولا السيئة التي يسخط عليه بها)(٢).

وجاء هذا الحديث في صحيح ابن حبان تحت عنوان: "ذكر الإخبار عما يجب على المرء من ترك استحقاره اليسير من الطاعات والقليل من الجنايات"(٣).

قال المناوي: (قيل: وجه الأقربية أن يسيراً من الخير قد يكون سبباً لدخول الجنة وقليلاً من المنكر قد يكون سبباً للنار. فينبغي الرغبة في كل أسباب الجنة وتجنب

---

(١) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين ١/ ٣٢٩.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٣٢٩.

(٣) صحيح ابن حبان ٦٦١.

جميع أسباب النار، وعلى هذا فالقرب معنوي وإلا فالجنة فوق السماوات السبع قال تعالى: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾[١] وثبت أن سدرة المنتهى فوق السماء)[٢].

ويمكن الاستئناس في هذا الموضع بحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "إن العبد ليتكلم بكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم"[٣].

قال ابن حجر: قال ابن عبدالبر[٤]: (الكلمة التي يهوى صاحبها بسببها في النار هي التي يقولها عند السلطان الجائر وزاد ابن بطال: بالبغي أو بالسعي على المسلم فتكون سبباً لهلاكه وإن لم يرد القائل ذلك لكنها ربما أدت إلى ذلك فيكتب على القائل إثمها. والكلمة التي ترفع بها الدرجات ويكتب بها الرضوان هي التي يدفع بها عن المسلم مظلمة أو يفرج بها عنه كربة أو ينصر بها مظلومًا)[٥].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: الجزاء من جنس العمل:

إن من حكمة الشرع أن جعل الجزاء من جنس العمل، فمن عمل خيراً وجد الخير، ومن عمل الشر وجده، وهذا واضح من الحديث. قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه تمكين الله عز وجل عبده من العمل للجنة والنار، وأنه في حالة قرب من الدارين،

---

(١) سورة النجم، الآيتان: ١٤، ١٥.

(٢) فيض القدير ٣/٣٦٠.

(٣) أخرجه البخاري، ٦٤٧٨، واللفظ له ومسلم، ٢٩٨٨، مختصراً.

(٤) التمهيد ٢٣/٣٩٧ موسوعة شروح الموطأ، ونص كلامه: "أنها الكلمة عند السلطان الجائر الظالم ليرضيه بها فيما يُسخط الله عز وجل، ويزين له باطلاً يريده من إراقة دم أو ظلم مسلم ونحو ذلك مما ينحط به في حبل هواه، فيبعد من الله وينال سخطه؛ وكذلك الكلمة التي يرضى بها الله عز وجل عند السلطان الجائر، ليصرفه عن هواه ويكفه عن معصية يريدها، يبلغ بها أيضاً من الله رضواناً لا يحسبه".

(٥) فتح الباري، ١١/٣١٧، وقد ذكر ابن حجر أقوالاً أخرى لعلماء آخرين فلتنظر وينظر كذلك شرح مسلم، ٧١٧.

فإن أطاع الله فالجنة أقرب إليه من شراك نعله، وإن عصى الله تعالى فالنار أقرب إليه من شراك نعله)[١].

قال ابن حجر: (قال ابن الجوزي: معنى الحديث أن تحصيل الجنة سهل بتصحيح القصد وفعل الطاعة والنار كذلك بموافقة الهوى وفعل المعصية)[٢].

وقال الطيبي: (ضرب العرب مثلاً بالشراك[٣]، لأن سبب حصول الثواب والعقاب، إنما هو بسعي العبد ويجري السعي بالأقدام، وكل من عمل خيراً استحق الجنة بوعده، ومن عمل شراً استحق النار بوعيده، وما وعد وأوعد منجزان فكأنهما حاصلان)[٤].

وقال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾[٥].

قال القرطبي: (المعنى إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ليجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. وقيل: هي لام العاقبة "أي في ليجزي": أي ولله ما في السموات وما في الأرض. أي وعاقبة أمر الخلق أن يكون منهم مسيء ومحسن، فللمسيء السوءى وهي جهنم، وللمحسن الحسنى وهي الجنة"[٦].

وقال النبي ﷺ: ((حُفَّتِ النَّارُ بالشَّهَوَاتِ، وَحُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ))[٧].

قال ابن حجر: (وقوله "حفت" من الحفاف وهو ما يحيط بالشيء حتى لا يتوصل إليه

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٨٩/٢.

(٢) فتح الباري، ٣٢٩/١١.

(٣) وقد نقل الطيبي قول ابن الأثير في النهاية: الشراك أحد سيور النعل التي تكون على وجهها. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤٧٧.

(٤) شرح الطيبي على المشكاة ١٢٣/٥-١٢٤.

(٥) سورة النجم، آية: ٣١.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، ١٧/٩/ ١٠٥-١٠٦، بتصرف يسير. وانظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٢٠/٢٧.

(٧) أخرجه البخاري ٦٤٨٧، ومسلم ٢٨٢٢ واللفظ له.

إلا بتخطيه، فالجنة لا يتوصل إليها إلا بقطع مفاوز المكاره والنار لا ينجي منها إلا بترك الشهوات)[١].

سادسًا- من مهام الداعية: حسن العرض للدعوة:

ففي الحديث نجد أن الرسول ﷺ قدم ما يتعلق بالجنة على ذكر ما يتعلق بالنار، جذبًا للنفوس وتأليفًا للقلوب، وهذا المنهج واضح أيضًا في غالب آيات القرآن، يقدم الجنة على النار ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۝ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾[٢] يقدم المغفرة على العقوبة ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾[٣]، يقدم الخير على الشر ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[٤] فينبغي على الداعي أن ينحو هذا المنحى تأليفًا للقلوب ورغبة في نشر الدعوة، فإن الحديث إذا بدأ بالخير سكن إليه القلب وأقبلت عليه النفس ويُعد ذلك لونًا من ألوان حسن عرض الدعوة وترغيب المدعوين.

إن حسن العرض يجعل ما يقوله الداعية يستقر في نفوسهم، ويتغلغل في سلوكهم وحياتهم اليومية، دون شعور بالكلفة أو العناء.

إن القيم الخيرة –عامة– لا تُفرض على الناس فرضًا، لكنها تجذبهم إليها جذبًا، فيتمثلونها، ويضحون في سبيلها عن طيب خاطر وخضوع تام، وجاذبية الداعية تكمن في التكامل بين جوانب شخصيته وأسلوبه وموضوعه، والظرف الذي يتحدث فيه وشعور الناس بالحاجة والارتياح لما يقال[٥].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٣٢٨/١١.

(٢) سورة القارعة، الآيات: ٦-١١.

(٣) سورة غافر، آية: ٣.

(٤) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧، ٨.

(٥) انظر: مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، د. عبدالكريم بكار ، د. عبد الكريم بكار، ص ١٥٧.

الحديث رقم (١٠٦)

١٠٦- **الثاني عشر**: عن أبي فِراس رَبيعةَ بنِ كَعْبٍ الأسْلَمِيِّ خادِم رسولِ اللَّهِ ﷺ، ومِنْ أَهْلِ الصُفَّةِ رضي الله عنه قال: كُنْتُ أبيتُ مع رسول اللَّه ﷺ، فآتيهِ بِوَضوئِهِ، وحاجتِهِ فقال: «**سلْني**»[١] فقُلْت: أسْألُكَ مُرافَقَتَكَ في الجنَّةِ. فقالَ: «**أوَ غَيْرَ ذلِك؟**» قُلْت: أسْألُكَ مُرافَقَتَكَ في الجنَّةِ. فقالَ: «أوَ غَيْرَ ذلِك[٣]؟» قُلْت: هو ذاك. قال: «**فأَعِنِّي على نَفْسِكَ بِكَثْرةِ السجُودِ**» رواه مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

ربيعة بن كعب الأسلمي: وهو أبي فراس بن كعب الأسلمي.

كان من أهل الصُفّة، خدم النبي ﷺ، وكان يلزم رسول الله ﷺ في السفر والحضر، وصَحِبه قديمًا، وعُمِّر بعده، ونزل بعد موته في بلاد أسلم على بريدٍ من المدينة، وبقي إلى أيام الحرة.

وله في الكتب حديثًا واحدًا، يسأل فيه النبي ﷺ مرافقته في الجنة، وتوفي بالحرة، سنة ٦٣هـ من ذي الحجة[٤].

غريب الألفاظ:

أهل الصفة: الصفة مكان مُظلل في مسجد رسول الله ﷺ في المدينة المنورة، إبان العصر النبوي بعد الهجرة يأوى إليه فقراء المهاجرين ينامون فيه[٥].

---

(١) لفظ مسلم: (سَلْ).

(٢) عند مسلم مرّة واحدة فقط، وقد ورد مكررًا عند البيهقي في السنن الكبرى (٤٨٦/٢).

(٣) برقم (٤٨٩/٢٢٦). أورده المنذري في ترغيبه (٥٥٢).

(٤) الطبقات، ابن سعد ٣٧٦/٢، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٢٣٢، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٢٦٨/٢-٢٦٩، الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٤٠٤، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي ٤٧٣/٢، تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٦٠٠/١.

(٥) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٢٣٧.

وضوئه: الماء الذي يتوضأ به [١].

الشرح الأدبي

ما أجمل ذلك الحوار الإنساني بين الرسول ﷺ وخادمه، ربيعة بن كعب الأسلمي، إنه حوار توجيهي إرشادي، يتعلم منه المسلمون وغيرهم كيفية معاملة العامل والأجير والخادم، وهذا سلوك حضاري يرسى قاعدته رسول الله ﷺ ولقد وضع عليه الصلاة والسلام دستورًا كريمًا في معاملة العمال، ورعايتهم والسهر على مصالحهم، والتكافل معهم بكل الطرق التي تدفعهم إلى العمل بإخلاص ودقة، وطلب مساعدتهم فيما يشق عليهم بقدر المستطاع أيا كانت منزلتهم في مختلف طبقاتهم دون استعلاء عليهم ولا تعاظم: إذ يقول: "إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم" [٢].

والحوار هنا يتسم بالعطف والرعاية من جانب الرسول ﷺ لخادمه، ويتسم كذلك بالصدق والسمو في طلب المكافأة والأجر من جانب ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه.

والعطف بالفاء في جمل الحديث المتابعة يوحي بحرص كل من المتحاورين على إرضاء الآخر حبًا ومودة واحترامًا : ويبدأ الحوار من جانب رسول الله ﷺ ليكافئ خادمه على إخلاصه وصدقه فيقول له: "سلني" وفعل الأمر هنا ليس على حقيقته : لأن الرسول ﷺ، يريد أن يكافئه فطلب منه أن يحدد ما يريد من أجر أو عطاء، وتأتي إجابة ربيعة على غير ما يتوقع السامع، فهو لم يطلب درهمًا ولا دينارًا، وإنما تسامى في طلبه، واتسعت أمنياته، وتجاوزت أفق الأجر المادي إلى أفق أعلى من الرغبات، وهو أفق صحبة رسول الله ﷺ ومرافقته في الجنة مثلما كان يرافقه في الدنيا، وتحديد لفظ

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (و ض أ).

(٢) أخرجه البخاري ٣٠، ومسلم ١٦٦١.

المرافقة فيه إيحاء بالقرب فهو كناية عن الاقتراب من رسول الله ﷺ في الجنة، ولذلك لم يقل أكون معك، وزيادة في الأنس والاطمئنان والحرص على تلبية رغبة ربيعة ابن كعب يعاود الرسول ﷺ الحوار فيقول: "أو غير ذلك" وهذا ليس ضنًا بالمطلب السابق، ولكنه الحرص على ذلك الخادم المحب: لأن مرافقة رسول الله ﷺ تحتاج إلى مجاهدة ومشقة... وعبادة متواصلة.

وفي التعبير إيجاز بالحذف والتقدير أترجع عن سؤالك هذا لأنه مُشقٌ لا تطيقه وتسأل غيره.

والتعبير باسم الإشارة ذلك يوحي بأن هذا المطلب عزيز وبعيد المنال ... ولا ينال بالعمل اليسير.

ويدرك: ربيعة مغزى محاورة الرسول ﷺ له، ويصر على مطلبه الأسمى، ورجائه الأعلى، ولا يغير منه شيئًا، ويقول: هو ذاك، واسم الإشارة هنا للقريب: وفيه إيحاء بأن الأمر يسير وأن ربيعة سيتحمل كل التبعات والتكاليف حبًا في مرافقة رسول الله ﷺ، ويستجيب الرسول له، ولا يعده وعدًا مجردًا من العمل: ولكن يفتح أمامه سبيل الوصول لهذه المرتبة فيقول في بلاغة ومحبة وصدق "أعني على نفسك بكثرة السجود".

فقه الحديث

فيه دليل على أن السجود أفضل من القيام[1] وسيأتي تفصيل المسألة في الحديث التالي (١٠٧).

---

(١) نيل الأوطار ٩٢/٣.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم وتفانيهم في خدمة الرسول ﷺ.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: كرم وسخاء الرسول ﷺ.

ثالثًا: من صفات المدعو: التطلع إلى معالي الأمور.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: جهاد النفس.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: الحث على التقرب إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم وتفانيهم في خدمة الرسول ﷺ

يتضح ذلك من خلال قول خادم رسول الله ﷺ، وهو: أبو فراس ربيعة بن كعب الأسلمي: "كنت أبيت مع رسول الله ﷺ" أي: "على باب بيته لأداء خدمته"[(١)]، ومن قوله "فآتيه بوضوئه وحاجته" إذ أنه لم يوجد على وجه البسيطة مَنْ أحبه أصحابهُ مثل ما أحب الصحابةُ رسول الله ﷺ، هذا الحب دفعهم دفعًا إلى أن يحرصوا على خدمته متفانين فيها، ومنهم راوي هذا الحديث أبو فراس ربيعة بن كعب الأسلمي، فكان من الملازمين لخدمة رسول الله ﷺ.

وإذا كان الله تعالى قد أراد بأصحاب رسول الله ﷺ خيرًا، بأن يسّر لهم صحبته وخدمته ورعاية حقوقه، فإن ذلك لا ينقطع بوفاته ﷺ، فالقيام بحقه والتأدب معه قائم إلى قيام الساعة من محبته ودفاع عن سنته ونشر لدعوته، (فمن الأدب معه ﷺ محبته وتقديم ذلك على محبة الناس أجمعين حتى النفس والولد والوالد، ومن الأدب معه تعظيمه بغير غلو، وتعظيم سنته وامتثال أمره وخفض الصوت عند قبره ﷺ وسماع سنته، وتصديق فيما أخبر واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع، والاعتقاد الكامل بأن هديه أكمل الهدي، وأن الشرع الحنيف أكمل الشرائع، والاعتقاد بأنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان، ص ٢٣٤.

أتاه اليقين، والدفاع عن شريعة الإسلام، وعن هديه ﷺ بكل القوى الممكنة من الحجج والبراهين والأدلة والمال والعلم وغير ذلك، وعدم السكوت عمن انتقص شخصيته الكريمة أو سلوكه القويم أو شريعته السمحة وعدم تقديم قول أحد من المخلوقين أو فعله على قوله ﷺ)[١].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: كرم وسخاء الرسول ﷺ:

ويتجلى ذلك في قوله ﷺ لأبي فراس ربيعة بن كعب: "سلني" على إطلاقها بما تحتويه الكلمة من إطلاق وعموم لجميع مطالب الدنيا والآخرة، الحسية والمعنوية، وذلك إرادة منه ﷺ في مكافئته على خدمته، فهو ﷺ أكرم الخلق وأجودهم القائل: ((مَن صَنَعَ إِلَيْكُم مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فإِنْ لَم تَجِدُوا ما تُكَافِئُوا بِهِ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُم قَدْ كَافأْتُمُوهُ))[٢] فدل ذلك على أفضلية الكرم والجود والاعتراف بالجميل والثناء عليه، كل ذلك وغيره من الصفات الحسنة التي ينبغي للداعية أن يتجمل بها، وأن تكون سجية له مما يكون له بالغ الأثر في تأليف قلوب المدعوين وقبولهم لدعوته، وأن يتأسى في ذلك برسول الله ﷺ.

لقد كان ﷺ قدوة في الجود والكرم والسخاء وغير ذلك من الأخلاق الحميدة لا يُوازى ولا يُبارى، وصفه بهذا كل من عرفه، روي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أنه قال: ((مَا سُئِلَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ فَقَالَ: لاَ))[٣].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ((كَانَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ. وكان إذا لقيه جِبريلُ عليه السلام أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ))[٤].

---

(١) انظر: موسوعة الآداب الإسلامية، عبدالله بن محمد المعتاز، ص ١٨، ١٩.

(٢) أخرجه أبو داود ١٦٧٢، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٤٦٨).

(٣) أخرجه البخاري ٦٠٣٤، ومسلم ٢٣١١.

(٤) أخرجه البخاري ٥، ومسلم ٢٣٠٨.

وقالت خديجة رضي الله عنها في صفته ﷺ مخاطبة له: ((وتحملُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المَعْدومَ))(١).

لقد أوتي نبينا ﷺ خزائن الأرض، ومفاتيح البلاد، وأُحلت له الغنائم، وفتح عليه في حياته بلاد الحجاز واليمن وجميع جزيرة العرب، وما دانى ذلك من الشام والعراق، وجُلب إليه كثير من أخماسها وجزيتها وصدقاتها، وأهدى إليه، فما استأثر بشيء منه، ولا أمسك منه درهمًا، بل صرفه مصارفه، وأغنى به غيره، وقوى به المسلمين، وقال: ((مَا يَسُرُّنِي أَنَّ لِي أُحُدًا ذَهَبًا. تَأْتِي عَلَيَّ ثَالِثَةٌ وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ. إِلاَّ دِينَارٌ أُرْصِدُهُ لِدَيْنٍ عَلَيَّ))(٢).

وأتته دنانير فقسّمها، وبقيت منها بقية فدفعها لبعض نسائه، فلم يأخذه نوم حتى قام فقسمها، ومات ودرعه مرهونة في نفقة عياله(٣)، واقتصر في نفقته وملبسه ومسكنه على ما تدعوه ضرورته إليه، وزهد فيما سواه، فكان يلبس ما وجده، فيلبس في الغالب الشملة والكساء الخشن، والبُرد الغليظ، ويقسم على من حضره أقبية الديباج المخوصة بالذهب، ويرفع لمن لم يحضره، فأنت ترى رسول الله ﷺ حاز فضيلة المال بالزهد فيه وإنفاقه على مستحقيه(٤).

ثالثًا- من المدعو: التطلع إلى معالي الأمور:

ونرى ذلك ونلمسه في قول أبي فراس لرسول الله ﷺ "أسألك مرافقتك في الجنة" فمع أن النبي ﷺ حباه بقوله "سلني" على إطلاقها الذي يشمل حوائج الدنيا والآخرة إلا أنه لم يُلقِ لحوائج الدنيا بالاً، وتطلع إلى الآخرة، وأنه لم يكتف بمجرد طلب دخول الجنة وإنما طلب أجمل ما فيها، وهو مرافقة رسول الله ﷺ، دفعه إلى ذلك ما غرسه النبي ﷺ في نفوس الصحابة من توجيه أنظارهم وأفئدهم إلى معالي الأمور، من هذه

---

(١) أخرجه البخاري ٣، ومسلم ١٦٠.

(٢) أخرجه البخاري ٦٤٤٤ ومسلم ٩٤.

(٣) أخرجه البخاري ٢٩١٦.

(٤) انظر: نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، محمد الخضري، ص ٢٧٢ - ٢٧٥.

التوجيهات قوله ﷺ ((في الجنةِ مائةَ درجةٍ أعدَّها الله للمجاهدينَ في سَبيلِ الله ما بينَ الدرجتين كما بينَ السماءِ والأرض فإذا سألتمُ اللهَ فاسألوهُ الفِردَوسَ فإنهُ أوْسَطُ الجنة وأعلى الجنة))[١].

إن التطلع إلى الأفضل ومعالي الأمور وعلو الهمة من الأخلاق الرفيعة والغايات النبيلة، قال ابن الجوزي: (فينبغي للعاقل أن ينتهي إلى غاية ما يمكنه، فلو كان يتصور للآدمي صعود السماوات لرأيت من أقبح النقص رضاه بالأرض، ولو كانت النبوة تحصل بالاجتهاد رأيت المقصر في تحصيلها في حضيض، غير إنه إذا لم يمكن ذلك فينبغي أن يطلب الممكن. والسيرة الجميلة عند الحكماء خروج النفس إلى غاية كمالها الممكن لها في العلم والعمل)[٢].

(إن الإسلام دين العزة والكرامة، ودين السمو والارتفاع، ودين الجد والاجتهاد، فليس دين ذلة ومسكنة، ولا دين كسل وخمول ودعة.

ولذلك فالإسلام يحض على علو الهمة، ويحث المسلمين على التحلي بهذا الخلق، ويوجههم إلى طرق اكتسابه، ويحرص على تربيتهم عليه، ويبين لهم جميع الطرق الموصلة إليه)[٣].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: جهاد النفس:

يستنبط ذلك من قول الرسول ﷺ "أعني على نفسك" إذ أن النفس البشرية ليست سهلة الطاعة والانقياد، وإنما تحتاج إلى جهاد هو من أعلى مراتب الجهاد وأشار إلى ذلك ابن القيم ذاكرًا مراتب جهاد النفس بأنها أربع:

إحداها: أن يجاهدها على التعلم، ثانيها: أن يجاهدها على العمل به، ثالثها: أن يجاهدها على الدعوة إليه، رابعها: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله،

---

(١) أخرجه البخاري ٧٤٢٣.

(٢) صيد الخاطر، ابن الجوزي، تحقيق: عبدالقادر عطا ٣٣٥.

(٣) الهمة العالية: معوقاتها ومقوماتها، محمد بن إبراهيم الحمد، ص ١١٩.

فإن استكملها صار من الربانيين)[1].

إن من كياسة الإنسان وفطنته أن يجاهد نفسه، وأن يحاسبها، ولا يترك لها الحبل على الغارب فتورده موارد التهلكة ومواطن الشرور، والإسلام عندما يأمر بمجاهدة النفس إنما يريد تكوينًا صالحًا للفرد وبناء فاضلاً للمجتمع وتغتمر السعادة وتنتظم أفراده المحبة والأخوة والوئام.

إنها تربية الإسلام المجيدة، التي تعتني بالفرد، تعتني بسلوكه وأخلاقه، تعتني بنزعاته ورغباته، بميوله واتجاهاته، فتوجهه الوجهة الصالحة، التي تكفل له السعادة في الدنيا، والراحة في الآخرة، وتجعل منه عضوًا نافعًا في المجتمع، وإنسانًا مثاليًا يعيش بين إخوانه وأقرانه عيشة الشرفاء، الذين يعرفون ما لهم وما عليهم، فلا يظلمون ولا يعتدون... ولا يحاولون أن يسلكوا الطريق الملتوية التي يزينها لهم الشيطان!!

والناس في تعاملهم مع نفوسهم ينقسمون إلى صنفين اثنين:

أولهما: صنف عرف غاية وجوده في هذه الحياة، فجدّ واجتهد وكافح وناضل، وحاسب نفسه على ما قدمت من أعمال، فزجرها عن الشر ودفع بها نحو الخير وسما بها إلى درجات الكمال.. وهذا الصنف من البشر هم الصفوة، هم الأخيار الأطهار، هم "العقلاء" الذي أدركوا سر هذه الحياة، فتزودوا من دنياهم لآخرتهم، ووقفوا عند حدود الله، فكفوا جوارحهم عن الآثام والموبقات، وابتعدوا عن المحرمات والشهوات، ونظروا إلى الدنيا نظرة البصير العاقل، الواعي المتدبر، الذي لم تؤثر فيه عواصف المدنية الهوجاء، ولا أساليبها الماكرة الخادعة. وهناك مَنْ أدركوا حقارة الدنيا الفانية، فأقبلوا على الآخرة بصدق إخلاص، وإيمان ويقين، وأجهدوا أنفسهم في طاعة الله تعالى، فكانوا من السعداء الأبرار!

والصنف الآخر هم الذين أخطأوا الفهم الصحيح للحياة... ولم يدركوا سر وجودهم فيها فساروا مع أهوائهم، وعاشوا لشهواتهم، وظنوا الحياة خالدة لهم، فلم يعرفوا من الدنيا إلى التمتع باللذائذ والشهوات، ولم يدركوا منها إلا كما يدرك الحيوان الأعجم

---

(١) انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية ٣/١٠.

من العيش في سبيل الطعام، والشراب، والشهوة ولسان حالهم يقول:

إنما الدنيا طعام وشراب ومنام

فإذا ما فات هذا فعلى الدنيا السلام

إنهم (عبيد) البطون، و(عبيد) الشهوات، الذين أصبح لهم نسب عريق مع البهائم والحيوانات ﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾[1]... وصدق الله: ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[2].

هؤلاء هم الذين يسيرون مع أهوائهم، لا يفكرون في حساب ولا عقاب، ثم يطمعون في رحمة الله تعالى مع أنهم لم يقدموا لآخرتهم شيئًا. لقد عاشوا لشهواتهم، وعاشوا لبطونهم، لا يعرفون سرًا للحياة إلا التمتع بشهواتها الفانية غير مفكرين بمستقبل أو مصير. وهؤلاء - لعمر الحق- هم الخاسرون النادمون، الذين فرطوا في جنب الله، فأساءوا إلى أنفسهم وأوردوها موارد الهلكة... فيا لهم من بلهاء، ويا لهم من أناس مغفلين!![3].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: الحث على التقرب إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة:

إن الإكثار من التقرب إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة مطلب عظيم، وقد أمر به النبيُّ ﷺ في قوله: "أعني على نفسك بكثرة السجود" أي الصلاة ليزداد من القرب ورفعة الدرجات حتى يقرب من منزلته وإن لم يساوه فيها، ولا يُعترض هذا بقول النبي ﷺ فيما رواه حذيفة ليلة الأحزاب ((ألا رجل يأتيني بخبر القوم الله معي يوم القيامة))[4] لأن هذا مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾[5] لأن هذه المعية

(١) سورة محمد، آية: ١٢.

(٢) سورة الفرقان، آية: ٤٤.

(٣) من كنوز السنة، محمد علي الصابوني، ص ١٤١ - ١٤٢.

(٤) أخرجه مسلم ١٧٨٨.

(٥) سورة النساء، آية: ٦٩.

هي النجاة من النار، والفوز بالجنة، إلا أن أهل الجنة على مراتبهم ومنازلهم بحسب أعمالهم وأحوالهم)[١].

وإنما كان السجود والإكثار منه يرتفع بصاحبه إلى تلك الدرجات العلا، لأن (السجود غاية التواضع والعبودية لله تعالى وفيه تمكين أعز أعضاء الإنسان وأعلاها، وهو: وجهه من التراب الذي يداس ويمتهن)[٢].

والأمر بكثرة السجود في الحديث موافق لمثل قول الله عز وجل ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ أي صَلِّ لله، فالسجود يُعبِّر به عن الصلاة، واقترب أي تقرب إلى الله جل ثناؤه بالطاعة والعبادة، وإذا سجدت فاقترب من الله بالدعاء، إذ أن أقرب ما يكون الإنسان لربه وهو ساجد قال العلماء: وإنما كان ذلك لأنها نهاية العبودية والذلة، ولله غاية العزة وله العزة التي لا مقدار لها فكلما بَعُدتَ من صفته قربت من جنته ودنوت من جواره في داره لله در القائل:

وإذا تـــذللت الرقـــاب تواضـــعًا منـــا إليـــك فعزهـــا في ذلهـــا[٣]

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، ٩٤/٢.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٣٨٨.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢٨/٢٠/١٠.

الحديث رقم (١٠٧)

١٠٧- **الثالث عشر:** عن أبي عبد الله ويُقَالُ: أبُو عبْدِ الرَّحمنِ ثَوْبانَ موْلى رسولِ اللَّهِ ﷺ قال: سمِعْتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقول: «**عليكَ بِكَثْرةِ السُّجُودِ**[١]**، فإنَّكَ لَنْ**[٢] **تَسْجُد للَّهِ سجْدَةً إلاَّ رفَعكَ اللَّهُ بِهَا درجةً، وحطَّ عنْكَ بِهَا خَطِيئَةً**» رواه مسلم[٣].

ترجمة الراوي:

ثوبان بن بُجْدُدٍ: هو أبو عبدالله، مولى رسول الله ﷺ، سُبِيَ من أرض الحجاز فاشتراهُ النبي ﷺ وأعتقه، فلزم النبي ﷺ، وصَحِبَه وحفظ عنهُ كثيرًا من العلم، وطال عُمره، واشتهر ذِكْرُه.

وأصله من أهل السَّراة، وهي: موضع بين مكة واليمن، وقيل من حمير من اليمن.

وكان لا يسألُ أحدًا شيئًا، بعد أن سمع النبي ﷺ يقول: ((من تكفلَ أنْ لا يسأل أحدًا شيئًا فأتكفل لهُ بالجنة)) فقال له أنا يا رسول الله[٤] وقد روى عن النبي ﷺ جُلة أحاديث بلغت ١٢٨ حديثًا.

وبعد أن توفي النبي ﷺ خرج ثوبان رضي الله عنه إلى الشام، فنزل الرّملة (في فلسطين) وابتنى بها دارًا، ثم انتقل إلى حمص فابتنى فيها دارًا وتوفي بها سنة ٥٤هـ[٥].

---

(١) عند مسلم زيادة: (لله).

(٢) لفظ مسلم: (لا).

(٣) برقم (٤٨٨/٢٢٥). أورده المنذري في ترغيبه (٥٤٩).

(٤) أخرجه أحمد ٢٧٥/٥ رقم ٢٢٣٦٦، وقال محققو المسند: حديث صحيح ٥٠/٣٧.

(٥) الطبقات، ابن سعد (٤٠٠/٧)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (١٠٨)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ١٦٢، وسير أعلام النبلاء، الذهبي (١٥/٣-١٨)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (٤٨٠/١-٤٨١)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (٤١٨/١)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٢٧٦/١)، والأعلام، الزركلي (١٠٢/٢)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (٥٤٧/١-٥٤٨).

غريب الألفاظ:

الدرجة: المنزلة(١).

حَطَّ عنك خطيئة: وضعها وأنزلها(٢).

الشرح الأدبي

إن الصلاة لوقتها من أحب الأعمال إلى الله عز وجل، وإن السجود من علامات الخشوع والخضوع، فهو مظهر من مظاهر الانقياد والتسليم، والمحبة والتعظيم.

والحديث الشريف هنا يضع علامات الهدى والرشاد أمام المؤمن وهو سائر في طريق الطاعة والمجاهدة، وثوبان مولى رسول الله ﷺ يروي ما سمعه، وهو مثل أنس بن مالك وربيعة الأسلمي... وغيرهم من الذين كانوا يَشْرُفُون بخدمة النبي ﷺ يقدمون القدوة الحسنة: حيث لا يقتصر عملهم على أداء واجباتهم المنوطة بهم تجاه رسول الله ﷺ ولكنهم من الصحابة، ويقومون بدورهم في رواية أحاديث رسول الله ﷺ، خدمة للدعوة.

وكان ثوبان رضي الله عنه يوضح بعض المسائل للناس حين يسأل عن مسألة أو أمر ما، ومن خلال ما سمعه من رسول الله ﷺ كان يجيب ويوضح، وهذا الحديث شاهد على ذلك، فقد روى: أن معدان بن طلحة قال: أتيت ثوبان: فقلت: أخبرني بعمل أعمل به يدخلني الله به الجنة، أو قال: بأحب الأعمال إلى الله، فسكت، ثم سأله فسكت، ثم سأله الثالثة، فقال: سألت عن ذلك رسول الله ﷺ فقال عليك بكثرة السجود...(٣) الحديث.

والحديث يبدأ: بقوله: "عليك" وهو اسم فعل بمعنى خذ وهو يفيد الوجوب والإلزام، وكاف الخطاب تفيد التحديد والمسؤولية الشخصية عن العمل المؤدي، والتعبير بـ"على"

---

(١) اللسان والوسيط في (د ر ج).

(٢) اللسان والوسيط في (ح ط ط).

(٣) أخرجه مسلم ٤٨٨.

يرشد إلى تحمل المسؤولية كذلك، ودلالة اللفظ ووظيفته يرشدان أن الأمر والوجوب، و"كثرة السجود" تعبير يوحي بأن الكثرة في السجود مع الإخلاص والإتقان ضرورة للمؤمن، وطريق لخلاصه من الأوضار والذنوب، وقوله بكثرة السجود: أبلغ وأدل على المراد من التعبير بقوله: بالسجود الكثير، وثمرة كثرة السجود تصاغ في أسلوب القصر.. ، ويتصدر الجملة التأكيد المصحوب بكاف الخطاب، إنك، والقصر هنا أداته: النفي والاستثناء، وتتوهج هذه الجملة بكثير من البشارات والثواب المضاعف، فإنك لن تسجد لله: سجدة إلا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة.

وقوله: "لله" فيه توجيه وإرشاد إلى أن السجود لا يكون لا لله عز وجل، خالصًا متقنًا، لا يشوبه نفاق أو رياء أو شرك، وقوله سجدة بالإفراد يرشد إلى مضاعفة الثواب، لأنه أمر بكثرة السجود ومع كل سجدة واحدة يرفع الله المؤمن درجة، ويحط عنه خطيئة، وترغيبًا في الثواب والأجر، وضمانًا له يحدد الرسول ﷺ مانح الدرجة وهو الله عز وجل، والممنوح له وهو الساجد حيث قال: "رفعك" محددًا كاف الخطاب، وحدد مصدر وسبب المنح، وهو السجدة في قوله: بها: أي بسببها: والبديع في الأسلوب يضفي عليه بهاءً وزينة وزخرفًا وجلاء للمعنى من خلال المقابلة بين الموقفين والمقامين: مقام الإكرام والإثابة: ورفع الدرجة، ومقام الغفران والصفح حيث يحط عنه خطيئة مع كل سجدة، وللسجود فضائل لا تحصى، ويرى أن عليًا بن عبدالله بن عباس كان يسجد في كل يوم ألف سجدة، وكان عمر بن عبدالعزيز لا يسجد إلا على التراب، وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه: "ما آسى على شيء في الدنيا إلا على السجود".

فقه الحديث

يشير هذا الحديث إلى حكم السجود، وأنه من أعظم القربات إلى الله تعالى، ولذا فقد اختلف الفقهاء هل التطويل في القراءة في النفل أفضل أم كثرة السجود أفضل على ثلاثة أقوال:

القول الأول: ذهب جمهور الفقهاء من الحنفية[١] والمالكية في قول[٢]، والشافعية في الأصح[٣] والحنابلة في وجه[٤] إلى أن التطويل في القراءة والقيام أفضل من كثرة الركوع والسجود في صلاة النفل لفعله ﷺ.

القول الثاني: ذهب محمد بن الحسن في رواية نقلت عنه[٥] والمالكية في قول هو الأظهر[٦] والحنابلة[٧] والشافعية في وجه[٨] إلى أن كثرة السجود أفضل مستدلين بهذا الحديث.

القول الثالث: هما سواء، وروي هذا عن جماعة.

وتوقف الإمام أحمد في المسألة ولم يقض فيها بشيء[٩].

قال ابن حجر[١٠]: والذي يظهر أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال.

---

(١) المبسوط، السرخسي ١٥٨/١، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني ٢٩٥/١، وأحكام القرآن للجصاص ٢٦/١، ٣١١/٣، وشرح معاني الآثار ٢٨٣/١.

(٢) شرح الخرشي ١٦/٢، وحاشية الدسوقي ٣١٩/١، وبلغة السالك ٤١٤/١.

(٣) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٤٠/٣، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري ١٥٦/١، ٢٠٠.

(٤) كشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٤٤٠/١، وشرح منتهى الإرادات ٢٤٧/١.

(٥) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم ٥٩/٢، ودرر الحكام شرح غرر الأحكام، محمد بن فراموز الحنفي منلا خسرو ١١٦/١.

(٦) شرح الخرشي ١٦/٢، وحاشية الدسوقي ٣١٩/١، وبلغة السالك ٤١٤/١.

(٧) كشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٤٤٠/١، وشرح منتهى الإرادات ٢٤٧/١.

(٨) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٤٠/٣.

(٩) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٠٠/٤، و نيل الأوطار٩١/٣.

(١٠) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١٩/٣.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر، والحصر والقصر، والتوكيد.

ثانيًا: من واجبات الداعية: تعهّد الأهل والأقربين بالموعظة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الحث على التقرب إلى الله عز وجل.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر، والحصر والقصر، والتوكيد:

لقد تضمن هذا الحديث عددًا من الأساليب الدعوية مثل: الأمر في قوله: "عليك بكثرة السجود" والحصر والقصر في استخدامه للفظتي "لن" و"إلا" في قوله: "لن تسجد لله سجدة إلا" إضافة إلى ذلك تأكيده بإنَّ التي تفيد التوكيد، ولاشك أن هذه الأساليب الدعوية تدل على حب الخير للمدعو، وأهمية ما أمر به الرسول ﷺ من كثرة السجود، لبيان فضل السجود في رفع الدرجات وحطّ الخطايا.

ثانيًا- من واجبات الداعية: تعهّد الأهل والأقربين بالموعظة:

يتضح ذلك من توجيه النبي ﷺ هذه النصيحة لثوبان مولاه، ومن النص السابق لأبي فراس ربيعة بن كعب الأسلمي خادمه، فإذا كان الداعي مكلفًا بأن يدعو الناس جميعًا فالأجدر به أن يبدأ بدعوة أهله وذويه إلى الله تعالى ويحثهم على الاستجابة لأوامر الله تعالى، والانتهاء عما نهى عنه سبحانه، وانطلاقًا من قول الله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[1] وقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[2].

(أي: حث أهلك على الصلاة وأزعجهم إليها من فرض ونفل، والأمر بالشيء، أمر بجميع ما لا يتم إلا به فيكون أمرًا بتعليمهم ما يصلح الصلاة، ويفسدها، ويكملها.

"واصطبر عليها" أي: على الصلاة بإقامتها، بحدودها، وأركانها، وخشوعها، فإن

---

(١) سورة الشعراء، آية: ٢١٤.

(٢) سورة طه، آية: ١٣٢.

ذلك مشق على النفس، ولكن ينبغي إكراهها وجهادها على ذلك، والصبر معها دائمًا، فإن العبد إذا أقام صلاته على الوجه المأمور به، كان لما سواها من دينه أحفظ وأقوم، وإذا ضيعها كان لما سواها أضيع، ثم ضمن تعالى لرسوله الرزق، وأن لا يشغله الاهتمام به عن إقامة دينه فقال: "نحن نرزقك" أي: رزقك علينا، قد تكفلنا به، كما تكفلنا بأرزاق الخلائق كلهم، فكيف بمن قام بأمرنا، واشتغل بذكرنا؟! ورزق الله عام للمتقي وغيره. فينبغي الاهتمام، بما يجلب السعادة الأبدية، وهو: التقوى، ولهذا قال: (والعاقبة) في الدنيا والآخرة (للتقوى) فمن قام بها، كان له العاقبة)[1].

إن تعهد الأهل والأقربين بالموعظة وحثهم على طاعة الله عز وجل من مظاهر قيام المؤمن بتلك المسؤولية الملقاة على عاتقه تجاه أهله وأسرته، كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عنه رعيته، قال: وحسبت أن قد قال "والرجل راع في مال أبيه ومسؤول عن رعيته، وكلكم راعٍ ومسؤول عن رعيته"))[2].

إن أهم ما يواجه الآباء بالنسبة للأبناء مسؤوليتهم عن تنشئتهم على العقيدة الصحيحة، والالتزام بأحكام الدين والخلق الكريم وأداء العبادة، ويأتي بعد ذلك تعليمهم العلوم التي يحتاجون إليها في شؤون دينهم ودنياهم، وسبب فساد الولد يعود إلى عاملين هما:

- إهمال تربيته وتركه للعوامل الخارجية.
- أو فساده بتلقينه مبادئ الهدم وتنشئته عليها.

إن الطفل عجينةً بيد والده، يشكلها كيفما شاء. إن المعارف التي يمكن أن

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٤٦٦.

(٢) أخرجه البخاري ٨٩٣، ومسلم ١٨٢٩.

يتعلمها الإنسان لا يحصرها حدٌّ، فعلى الوالدين أن يختاروا لأولادهما أهمها وأنفعها في الدنيا والآخرة، وليس هذا الكلام مقصورًا على الأولاد، بل إنه يشمل كل من يكون في ولاية الرجل من زوجة وإخوة وأم وتلاميذ ومرؤوسين[١].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الحث على التقرب إلى الله عز وجل:

الحث على التقرب إلى الله تعالى، من الموضوعات التي يجب أن يُركز عليها في الدعوة إلى الله تعالى ومن شواهد ذلك قوله ﷺ "فإنك لن تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة".

قال القاضي عياض: (وقوله لثوبان: "سل" فسأله مرافقته في الجنة فقال له: "أو غير ذلك؟": قيل: لعله عليه السلام فَهِم من المساواة معه في درجته وذلك ما لا ينبغي لغيره، فلذلك قال له: "أو غير ذلك" أي سل غير هذا، فلما قال له الرجل: هو ذاك، قال له: "أعني على ذلك بكثرة السجود" ليزداد من القرب ورفعة الدرجات حتى يقرب من منزلته وإن لم يساوه فيها فإن السجود معارج القرب، ومدارج رفعة الدرجات، قال تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾[٢]، وقال ﷺ: (لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة) ولأن السجود غايته التواضع لله، والعبودية له، وتمكين أعز عضو في الإنسان وأرفعه وهو وجهه من أدنى الأشياء وأخسها وهو التراب، والأرض المدوسة بالأرجل والنعال[٣].

والحديث فيه دليل على أن كثرة السجود أفضل من طول القيام وهي مسألة اختلف العلماء فيها: فذهبت طائفة إلى ظاهر هذا الحديث، وذهبت طائفة أخرى إلى أن طول القيام أفضل؛ متمسكين بقوله ﷺ: ((أَفْضَلُ الصَّلاَةِ طُولُ الْقُنُوتِ))[٤]، وفسروا

---

(١) انظر: من هدي النبوة، تأملات في عدد من جوامع الكلم، د. محمد بن لطفي الصباغ ص ٢٨٨-٢٩٠.

(٢) سورة العلق، آية: ١٩.

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٢/٤٠٣.

(٤) أخرجه مسلم ٧٥٦.

القنوت بالقيام كما قال تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾[١]، ذكر هذه المسألة والخلاف فيها الترمذي، والصحيح من فعل النبي ﷺ: أنه كان يطول في قيام صلاة الليل، وداوم على ذلك إلى حين موته، فدلّ: على أن طول القيام أفضل. ويحتمل أن يقال: إن ذلك يرجع إلى حال المصلي. فربّ مصل يحصل له في حال القيام من الحضور والتدبر والخشوع ما لا يحصل له في السجود، ورب مصل يحصل له في السجود من ذلك ما لا يحصل له في القيام، فيكون الأفضل في هذه الحال التي حصل له فيها ذلك المعنى الذي هو روح الصلاة[٢].

لقد وضع النبي ﷺ في الحديث الجزاء والثواب نصب عين المخاطب وأودعه في ذهنه ليكون دافعًا له على المسارعة إلى الخيرات، فأرشده إلى التقرب إلى الله بكثرة السجود، وهو موافق لقول الله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾[٣] أي اسجد لربك واقترب منه في السجود وغيره من أنواع الطاعات والقربات فإنها كلها تدني من رضاه وتقرب منه[٤] وبين ﷺ ماذا يحدث للإنسان من الأجر فيما إذا سجد وهو أن يحصل له فائدتان عظيمتان:

الفائدة الأولى: أن الله يرفعه بها درجة، يعني منزلة عنده وفي قلوب الناس، ويزيده في الثواب.

والفائدة الثانية: أن الله يحط بها ويكفر الخطايا.

والإنسان يحصل له الكمال بزوال ما يكره، وحصول ما يحب، فرفع الدرجات مما يحبه الإنسان، والخطايا مما يكره الإنسان، فإذا رفع له درجة وحط عنه بها خطيئة فقد حصل على مطلوبه، ونجا من مرهوبه[٥].

(١) سورة البقرة، آية: ٢٣٨.

(٢) المفهم، القرطبي ٢/٩٢ - ٩٣.

(٣) سورة العلق، آية: ١٩.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٨٦٠.

(٥) انظر: شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين ١/٣٣٢.

الحديث رقم (١٠٨)

١٠٨- **الرابع عشر:** عن أبي صَفْوانَ عبدِ اللَّه بن بُسْرٍ الأسلَمِيِّ ﷺ، قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**خَيْرُ النَّاسِ مَن طَالَ عمُرُه وَحَسُنَ عملُه**» رواه الترمذي، وقال حديثٌ حسنٌ[1].

«بُسْر»: بضم الباءِ وبالسين المهملة.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن بُسْر: وهو عبدالله بن بُسْر المازِنيّ من مازن بن منصور بن عكرمة، الأنصاري، يكنى أبا بُسْر، ويقال أبو صفوان له صحبة ورواية، له في كتب الحديث (٥٠) حديثًا، صلى إلى القبلتين، وضع النبي ﷺ يده على رأسه ودعا له، صحب النبي ﷺ هو وأبوه وأمه وأخوه عطية، وأخته الصمَّاء، زارهم النبي ﷺ وأكل عندهم، ودعا لهم، فعن عبدالله بن بُسر المازني ﷺ قال: بعثني أبي إلى رسول الله ﷺ أَدْعوه إلى طعام، فجاء معي، فلما دنوت من المنزل أسرعت، فأعلمت أبويَّ فخرجا فتلَقَّيا رسولَ الله ﷺ ورحبا به، ووضعنا له قطيفة كانت عندنا زِئْبُرِيَّة فقعد عليها، ثم قال أبي لأمي: هات طعامك، فجاءت بقصعة فيها دقيق قد عَصَدَته بماء وملح، فوضعته بين يدي رسول الله ﷺ فقال: ((خذوا باسم الله من حواليها وذروا ذروتها، فإن البركة فيها، فأكل رسول الله ﷺ وأكلنا معه، وفضل منا فضلة، ثم قال رسول الله ﷺ اللهم اغفر لهم وارحمهم، وبارك عليهم، ووسع عليهم في أرزاقهم[2].

وبشره النبي ﷺ بطول العمر حتى مائة سنة، فعن أبي عبدالله الحسن بن أيوب الحضرمي قال أراني عبدالله بن بُسر شامة في قرنه، فوضعت إصبعي عليها، فقال: وضع رسول الله ﷺ إصبعه عليها، ثم قال: لتَبْلُغَنَّ قَرْنًا" قال أبو عبدالله: وكان

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٣٠) وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

تنبيه: الحديث اختصره المؤلف. أورده المنذري في ترغيبه (٤٩٢٥).

(٢) أخرجه أحمد ٤/١٨٨ رقم ١٧٦٧٨، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم.

ذا جُمَّة))[١].

وكان يصفر رأسه، ولحيته، وهو حاسر عن رأسه، ولم يُر عليه عمامة ولا قلنسوة شتاءً ولا صيفًا، قال جرير بن عثمان: رأيت ثياب عبدالله بن بسر مشمَّرة، ورداءه فوق القميص، وكان إذا مرَّ بحجرٍ على الطريق نحَّاه.

نزل الشام وسكن حمص، وكان أميرًا عليها، ختم الله له بخاتمة حسنة فمات وهو يتوضأ، فعن أم هاشم الطائية قالت: رأيت عبدالله بن بُسْر جالسًا يتوضأ، فبينا هو يتوضأ إذ خرجت نفسه[٢].

مات بحمص سنة (٩٦) أيام سليمان بن عبدالملك وعمره مائة سنة، وقيل مات سنة (٨٨)، وهو ابن (٩٤) سنة، وهو آخر من مات بالشام من الصحابة[٣].

الشرح الأدبي

إن الناس في هذه الحياة مجـــزيون بأعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، والإيمان دائمًا مقرون بالعمل الصالح، ولا إيمان بدون عمل، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾[٤].

---

(١) أخرجه أحمد ١٨٩/٤ رقم ١٧٦٨٩، وقال محققو المسند: إسناده حسن، ٢٣٥/٢٩.

(٢) مختصر تاريخ ابن عساكر (٥٠/١٢)؟

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (٣٨٤)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (١٨٥/٣، ١٨٦)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (٧٤٦)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (٩٤/٤)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٣٠٨/٢) والسندي (٢٢٠/٢٩)، والأعلام، خير الدين الزركلي (٧٤/٤)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (١١٦٤/٢-١١١٦).

(٤) سورة الكهف: ١٠٣-١٠٥.

ويقول عز وجل في السورة نفسها بعد ذلك ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾[1].

وفي ضوء هذه المفاهيم القرآنية تتموج دلالات هذه الحديث الشريف، وهو من جوامع كلمه ﷺ: فهو يتكون في بنائه اللغوي من جملة اسمية واحدة ركناها المبتدأ: خير الناس.

والخبر: "من طال عمره وحسن عمله" وللألفاظ إشعاعات دلالية، وموحيات معنوية توجيهية.

فقوله: "خير الناس" أي: أفضل الناس وأخيرهم عملاً وسلوكًا ومعتقدًا، وأكرمهم عند الله تعالى.

ولفظ الناس يفتح آفاقًا رحبة أمام البشر جميعًا ليسبحوا في أجواء هذه الخيرية، وينعموا بالإسلام والإيمان والإحسان ليكونوا في منظومة "خير أمة أخرجت للناس"، فالحديث يخاطب البشرية جمعاء، ويدعوهم من خلال هذه الموعظة الحسنة، والحكمة البليغة، والقول المقتصد الجامع المانع، من طال عمره وحسن عمله، وقوله ﷺ: وحسن عمله بعد قوله: طال عمره يفيد: حسن العمل... مع كثرته: لأن العمل الحسن... مقترن في الحديث بطول العمر، والحسن، والإحسان: في العمل إيجاز ينطوي على كثير من الدلالات والتفسيرات، فالأعمال تدخل في مُسمًّى الإسلام، ومسمى الإيمان، كما يقول العلماء، وكذلك أعمال الجوارح الظاهرة، وأعمال الجوارح الباطنة: فيدخل في أعمال الإسلام، وفي حسن العمل، إخلاص الدين لله تعالى، والنصح له ولعباده، وسلامة القلب لهم من الغش والحسد والحقد، وتوابع ذلك من أنواع الأذى.

ومن مظاهر حسن العمل: الحب في الله والبغض فيه، والعطاء له والمنع له، وأن يكون جميع الحركات والسكنات له، وسماحة النفوس بالطاعة المالية والبدنية، والاستبشار بعمل الحسنات والفرح بها، والمساءة بعمل السيئات والحزن عليها، وقال ابن

---

(١) سورة الكهف، آية: ١٠٧.

عجلان: لا يصلح العمل إلا بثلاث: التقوى لله، والنية الحسنة، والإصابة.

وإن الدين كله يرجع إلى فعل المأمورات، وترك المحظورات، والتوقف على الشبهات[١].

إن بلاغة الحديث النبوي هنا تكمن في هذا الإيجاز المشع بالمفاهيم والدلالات المفتوحة على كثير من آفاق الحياة والسلوك والمعتقدات، وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، والعمل الحسي اليدوي، والعمل العقلي، والشعوري، وقد رفع القرآن العمل إلى ذروة شامخة تشرف من فوق رُبَاها على ما عداها من القيم الإنسانية وذلك أنه جعلها في هذه القواعد الثلاث:

الأولى: العمل هو: الأساس والسبب الظاهر للوجود الإنساني، ذاته.

الثانية: العمل هو: الميزان الذي تقيم الذات الإنسانية نفسها على أساسه.

الثالثة: العمل هو: القانون الكلي الذي يدفع الإنسانية نحو التطور والارتقاء فيكفل بهاءها، ويحفظ عليها وجودها[٢].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار بفضل طول العمر مع طاعة الله تعالى.

ثانيًا: من واجبات الداعي: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل العمل الصالح.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: أهمية استثمار العمر في طاعة الله تعالى.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار بفضل طول العمر مع طاعة الله تعالى:

ويتضح ذلك في مجمل الحديث وهو إخبار الرسول ﷺ بأن قيمة العمر بما فيه من عمل صالح، وذلك ليزداد الإنسان من العمل والإحسان، ويستدرك ما فاته من تقصير، ليكون العُمر حافلاً بطاعة الله تعالى.

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ص ١-٢٧.

(٢) انظر: التكافل الاجتماعي في الإسلام، د. عبدالعال أحمد عبدالعال، ص ٢١٠.

ثانيًا- من مهام الداعي: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم:

إن من واجبات الداعي بيان مسالك الخير وما ينتفع به، المدعو حتى يكون على بصيرة من أمره، ويستثمر عمره في طاعة الله، والتقرب منه سبحانه، من هنا أرشدنا النبي ﷺ في عموم الحديث بقوله: "خير الناس من طال عمره وحسن عمله" حتى يحرص المسلم على اغتنام عمره في طاعة الله ومرضاته.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل حسن العمل:

وقد نبهنا الله تبارك وتعالى إلى إحسان العمل وأمرنا به، فقال: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ﴾[1] بل إن الله ليجعل الغاية من خلق الكون، إماتةً وإحياءً: إحسانَ العمل فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[2] أي أحكم وأتقن وأحسن عملاً وأكثر إخلاصًا وأبعد عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله، وكأن المفروض أن يكون عمل الإنسان دائرًا بين الحسن والأحسن، لا بين الخير والشر[3].

وقد ضمن الله لمن أحسن عمله أن يحفظ له أجره ولا يضيع عليه ثوابه فقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾[4].

(وإحسان العمل أن يريد العبد بعمله وجه الله تعالى متبعًا في ذلك شرع الله، فهذا العمل لا يضيعه الله، بل يحفظه للعاملين، ويوفيهم من الأجر بحسب أعمالهم)[5].

إن مما ينبغي غرسه في نفوس الناس الشعور بقيمة الوقت، (والمؤمن هو أعمق الناس إحساسًا بقيمة الوقت، فالله سبحانه سائله يوم الجزاء عن عمره فيم أفناه وعن

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٩٥.

(٢) سورة الملك، آية: ٢.

(٣) التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي٣/٢٩/٧٠.

(٤) سورة الكهف، آية: ٣٠.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٤٢٦.

شبابه فيما أبلاه، فهو لهذا يضن بوقته أن يضيع في عبث، أو يبعثر في مهب الرياح الهوجاء، إنه رأس ماله الوحيد فكيف يضيعه ويبقى صفر اليدين؟ إن الوقت نعمة يجب أن تشكر بالانتفاع بها، ولا تكفر بالتفريط فيها، وقد قال عمر بن عبدالعزيز: إن الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما)[1] لذا كان من الواجب على العاقل أن يحسن استثمار عمره، إذ (أن مجرد طول العمر ليس خيرًا للإنسان إلا إذا حسن عمله، ومن ثم كره بعض العلماء أن يُدعى للإنسان بطول البقاء، قال: لا تقل أطال الله بقاءك إلا مقيدًا، قل أطال الله بقاءك على طاعته، لأن طول البقاء قد يكون شرًا للإنسان)[2] إذا عايشه الإنسان مجرد قضاء وقت وتمتع كتمتع الأنعام.

إن عمر الإنسان فرصة له، إن لم يستغله في العمل الصالح كان وبالاً عليه يحاسب على أساسه، ويُسأل عنه، فالعبرة ليست بطول العمر، بل بحسب العمل، فعمر قصير مع عمل صالح خير من عمر طويل مع عمل فاسد، وأفضل الناس من أطال الله له المهلة ومَدَّ له في الاختبار فاستغل ذلك في صالح الأعمال فجعل من عمره ذخيرة وغنيمة ولم يجعله حملاً وإصرًا[3].

إن عمر الإنسان ووقته هو رأس ماله، وإن ساعات العمر هي أنفس ما عني بحفظه، فنحن نعيش في زمن محدود، ليل ونهار يتعاقبان بانتظام، ليس يطغى أحدهما على الآخر، وحياة مقسمة تقسيمًا محدوداً، صبًا، فشباب فكهولة فشيخوخة، ثم إن هذه الحياة محدودة، فإذا جاء الأجل فلا مفر من الموت.

وما فات من الزمن لا يعود، فالصبا إذا فات فات أبدًا، والشباب إذا مرَّ مرَّ أبدًا والزمن المفقود لا يعود أبدًا[4].

---

(١) الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي ص ٣٠٥.

(٢) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين ٣٣٢/١، ٣٣٣.

(٣) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ١٤٠.

(٤) انظر: الهمة العالية، معوقاتها ومقوماتها، محمد بن إبراهيم الحمد، ص ٢٤١، ٢٤٢.

ثم إن العبرة ليست بطول العمر، إنما باستثماره وملئه بالأعمال الصالحة النافعة، (فقيمة الوقت تكمن فيما يملأ به، وبالحدث الذي يحصل خلاله، لا بشيء آخر، لذلك فالاستخدام الأمثل، فالوقت وطريقة صرفه هما عنوان النجاح وشرط أساس لحصوله.

إن المسلم مسؤول أمام خالقه عن أوقاته وخاصة عن أوقات شبابه، وجعل الله سبب الفوز بالجنان ما أسلف الإنسان في أيامه الخالية في الدنيا، كما أن الوقت في حياة المسلمين قيمته التي تتباين بحسب الأحداث الحاصلة أو الشعائر التعبدية المفروضة خلاله، فقيمة الوقت في المنظور الإسلامي لا تقاس بمجرد الكم المادي فحسب، بل بمدى الفاعلية الذي يخلف استثماره نفعًا للناس)[1].

---

(١) انظر: إدارة الوقت بين التراث والمعاصرة، د. محمد أمين شحادة، ص ١٠٢-١٢٠.

الحديث رقم (١٠٩)

١٠٩- الخامس عشر: عن أنسٍ ﷺ، قال: غَاب عمِّي أَنَسُ بنُ النَّضْرِ ﷺ، عن قِتالِ بدرٍ، فقال: يا رسولَ اللّٰه غِبْتُ عن أوَّلِ قِتالٍ قَاتَلْتَ المُشركِينَ، لَئِنِ اللّٰهُ أشْهَدَنِي قتالَ المشركين لَيُرِيَنَّ اللّٰهُ ما أصنعُ، فلما كانَ يومُ أُحدٍ انْكشَفَ المُسلِمُون فقال: اللَّهُمَّ[1] أعتَذِرُ إليكَ مِمَّا صنَع هَؤُلاءِ يَعْني أصْحَابَه وأبرأُ إلَيْكَ مِمَّا صنعَ هَؤُلاءِ يعني المُشْرِكِينَ ثُمَّ تَقَدَّمَ فَاسْتَقْبَلَهُ سعْدُ بْنُ مُعاذٍ، فَقالَ: يا سعْدُ بْنَ معاذٍ الْجنَّةُ وربِّ الكعْبة[2]، إنِى أجِدُ رِيحهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ. قال سعْدٌ: فَمَا اسْتَطعْتُ يا رسول اللّٰه ما صنَعَ.

قالَ أنسٌ: فَوجدْنَا بِهِ بِضْعًا وثمانِينَ ضَرْبَةً بالسَّيفِ، أوْ طَعْنَةً برُمْحٍ، أو رمْيةً بسهْمٍ، ووجدْناهُ قَد قُتِلَ وَمثَّلَ بِهِ المُشرِكُونَ فَما عرفَهُ أحدٌ إلاَّ أُخْتُهُ ببنَانِهِ.

قال أنسٌ: كُنَّا نَرى أوْ نَظُنُّ أنَّ هَذِهِ الآيَة نزلَتْ فيهِ وَفِي أشْباهِهِ: [مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صدقُوا ما عَاهَدُوا اللّٰه علَيهِ] [الأحزاب: ٢٣] إلى آخرها. متفقٌ عليه[3].

قوله: «**لَيُرِيَنَّ اللّٰهُ**» رُوِى بضم الياءِ وكسر الراءِ، أي لَيُظْهِرنَّ اللّٰهُ ذَلِكَ لِلنَّاسِ، ورُوِى بفتحهما، ومعناه ظاهر، واللّٰه أعلم.

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

قتال بدر: أي غزوة بدر وهي الغزوة التي كانت بين المسلمين وقريش في رمضان ٢هـ وانتصر فيها المسلمون، وسميت بذلك لأنها وقعت عند ماء بدر بين مكة والمدينة، وبينه وبين المدينة ١٥٠كم[4].

---

(١) عند البخاري زيادة: (إنِّي).

(٢) لفظ البخاري: (النضر) بدل: (الكعبة).

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٠٥) واللفظ له، ومسلم (١٩٠٣/١٤٨). أورده المنذري في ترغيبه (٢٠٢٩). وسيكرره المؤلف برقم (١٣١٩).

(٤) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٦٥.

ليرين الله: روى بضم الياء وكسر الراء: أي ليظهرن الله ذلك للناس، وروى بفتحهما، ومعناه ظاهر والله أعلم[١].

يوم أحد: أي غزوة أحد، وأحد الجبل الذي كانت عنده الغزوة التي وقعت ٣هـ، وهو جبل أحمر بينه وبين المدينة المنورة قرابة ميل في شماليها والميل يساوي ١٦٠٩م[٢].

أبرأ: أي أتخلّى وأتخلص[٣].

ريحها: رائحتها[٤].

دون أحد: دون ظرف مكان منصوب وهو بحسب ما يضاف إليه فيكون بمعنى تحت وفوق وخلف وأمام وقبل[٥].

بضعًا: البضع -بكسر الباء وفتحها- ما بين الثلاثة والعشرة[٦].

مَثَّل به: مثّل بفلان: نكل به بجدْع أنفه أو قطع أذنه أو غيرهما من الأعضاء[٧].

بنانه: البنان: أطراف الأصابع، واحدته: بنانة[٨].

أشباهه: الأشباه: المفرد: الشبه وهو المثل[٩].

---

(١) رياض الصالحين ٩٣.

(٢) انظر: أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٢٣، وأطلس السيرة النبوية، د. شوقي أبو خليل ١١٩، والوسيط ٨٩٤.

(٣) الوسيط ٤٦، وانظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ٤٥.

(٤) الوسيط ٣٨١.

(٥) الوسيط ٣٠٥.

(٦) معجم لغة الفقهاء ٨٨.

(٧) الوسيط ٨٥٣، وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٨٥٥.

(٨) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ن ن).

(٩) الوسيط ٤٧١.

الشرح الأدبي

ينقل إلينا هذا الحديث مشهدًا جليلاً من مشاهد الجهاد والمجاهدة في حماية الدعوة الإسلامية، وهو مشهد حقيقي يصور حرص الصحابة رضي الله عنهم على حماية رسول الله ﷺ وحماية الإسلام والتصدي للمشركين دفاعًا عن العقيدة، وإعلاء لراية الإسلام.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحوار الصادق بين رسول الله ﷺ وأنس بن النضر عم أنس بن مالك بن النضر، خادم رسول الله ﷺ، ويبدأ الحديث بجملة خبرية تحكي واقعًا وهو غياب أنس بن النضر عن قتال بدر.

وهذا الغياب ربما كان لعذر أو لظرفٍ خارج عن إرادة أنس بن النضر، فأراد أن يعوض هذا الغياب، بحضور صادق، وتضحية في سبيل الله تعالى، حيث يكون من المؤمنين الذين يقاتلون في سبيل الله تعالى فيقتلون ويُقْتلون دفاعًا عن دين الله تعالى واستشهادًا في سبيله، وهذا الطريق هو أشمل طرق المجاهدة.

وتوجه أنس بن النضر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ، وناداه في صدق ومحبة "يا رسول الله"، وبعد هذا النداء الذي يفيض بالمحبة والرغبة في تعويض ما فاته من شرف المشاركة في القتال يوم بدر.

نشهده يُقرُّ ويتعهد أمام رسول الله ﷺ بأنه سيجاهد، ويقاتل.. ويبلى بلاءً حسنًا، ولم يُفصِّل القول، ولكن لجأ إلى الإيجاز والإجمال، وما أدق ذلك الإيجاز، وما أعظمه لأنه أشهد الله عليه أمام خاتم الأنبياء والمرسلين، وتشع هذه العبارة المشرقة بكثير من الإيحاءات والتفسيرات، "ليرين الله ما أصنع"، فأي صدق بعد هذا القول، وأي نية خالصة بعد هذا العهد، وأي عزيمة أمضى من ذلك بعد هذا الوعد؟

وبلاغة الحذف تضيء قسمات العبارات والجمل، وتأخذنا إلى مجالات وأسرار يفيض بها الحديث النبوي الشريف، لأن الكلمة التي يستدعيها السياق، ويوحي بها الموقف لا يجمل الكلام بذكرها، فقول الراوي: "غاب عمي... عن قتال بدر"، أي قتال المشركين في بدر... وذلك إشارة إلى غزوة بدر الكبرى، وما حدث فيها من معجزات وتأييد إلهي، ونصر مؤزر، ولم يحدد أنس بن النضر رضي الله عنه اسم الغزوة: فقال: "غبت عن

أول قتال قاتلت المشركين"، وذلك تجنبًا للإقرار بالغياب في يوم بدر، وهذا واقع لا يحبه أنس بن النضر رضي الله عنه فكم كان يتمنى أن يشارك في هذه الغزوة الكبرى، وكلمة "أول" توحي بأن هناك قتالاً سيدور بعد ذلك بين المسلمين والمشركين، وهذا رجاء يطمح إليه هذا الصحابي الجليل، الفارس الصادق، والمجاهد الصابر ، وحذف الجار والمجرور بعد ، قاتلت المشركين، أي فيه، وهذا الحذف يمكن أن يكون لمنع التقييد بالمكان أو الزمان، وكأن هذا الصحابي يتمنى أن يظل المسلمون في رباط إلى يوم القيامة – كما قال رسول الله ﷺ، فلم يشأ أن يقيد قتال المشركين ويحدده من خلال الزمان والمكان أو الاسم، وفي قوله: "لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع"، مظاهر بلاغية كثيرة تضيء المعنى، وتعمق الدلالة، وتوحي بكثير من المقاصد، فاللام هنا موطئه للقسم: والتقدير والله لئن، والقسم يدل على التأكيد والصدق.

والجملة يمتزج فيها القسم بأسلوب الشرط والجواب، ولكن القسم له الصدارة لأنه الدليل، الذي يقودنا إلى صدق النية، وشدة المجاهدة، والرغبة القوية في الدفاع عن الإسلام.

ولذلك حذف الشرط، وحذف جواب الشرط لدلالة جواب القسم عليه، وتزاحم الأساليب وتداخلها يصور ما عليه أنس بن النضر من شوق للقتال، ومن دوافع تحفزه إلى ذلك.

وتكرار لفظ الجلالة يؤكد صدق النية، وقوة الإرادة، وصدق التوجه، واللفظ تكرر في هذه الجملة التي تداخل فيها القسم مع الشرط (لئن الله، ليرين الله ما أصنع)، واسم الموصول "ما" مع جملة الصلة "أصنع" يموجان بكثير من المعاني والمقاصد والله هو الأعلم بذلك، وأنس نراه بهذا التعبير قد أجمل وأوجز...، ولم يشأ أن يفصل .. لأن التفصيل غير مناسب للمقام ولا السياق، ويمكن أن يندرج في باب الرياء، والادعاء، وأنس بن النضر من الصحابة الأخيار الصادقين الأبرار ويظل أنس ينتظر اليوم الذي سيشارك فيه ويقاتل المشركين ويُطل الإيجاز الأسلوبي.

وتحذف تفصيلات كثيرة عن غزوة أحد ومقدماتها وملابساتها، وقصة الرماة، ومخالفتهم لأمر رسول الله ﷺ. عن غير قصد -وإنما كان فرحًا بالنصر واستبشارًا بأخذ الغنائم- ثم حدثت الهزيمة حين احتل المشركون الجبل الذي كان عليه الرماة بعد أن تركوه، وشغلوا بجمع الغنائم.

هذه الأحداث كلها يوحي بها ذلك التعبير البليغ، "فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون" وهو تعبير موجز إيحائي نقتبس منه إشعاعات كثيرة تضيء المواقف، وتفسر الأحداث.

ويتوجه أنس بن النضر إلى ربه مناجيًا ومتضرعًا ... وفرحًا مستبشرًا لأن الوعد قد صدق، والعهد الذي أخذه على نفسه أمام رسول الله ﷺ سيتحقق، وفي هذه المناجاة يعتذر، ويبرأ ولنتأمل هذه الأسرار اللغوية، وهذه الحاسة الأدبية البلاغية، فلكل مقام مقال، إنه جاء بفعل "أعتذر" في مقام اعتراضه على ما صنع المسلمون من تخلٍ عن مكانهم الذي حدده رسول الله ﷺ، وذلك لأنهم لم يتعمدوا الإضرار، ولم يخونوا الرسول ﷺ، وإنما كان اجتهادًا منهم، وقد أخطئوا في ذلك، فهو يقدم العذر ويطلب الصفح عن أصحابه، ولكنه يبرأ مما صنع المشركون من اعتداء وقتال لرسول الله ﷺ، وبعد هذه المناجاة وذلك التضرع، تحين ساعة اللقاء ويتحول العذر الكلامي إلي فعل ناجز، وعمل بطولي فائق، وتحقيق لقوله: "ليرين الله ما أصنع"، ويشرق هذا الحوار، القصير بين سعد بن معاذ وأنس بن النضر، فيقول أنس وهو في غاية القوة والاستعداد للقتال، والفرح بالاستشهاد: مخاطبًا سعد وكأنه يحثه ويحث كل مسلم على أن يحذو حذوه طلبًا للنصر أو الشهادة "يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر.. إني أجد ريحها من دون أحد" وبلاغة الحذف هنا تضاء بها المعاني وتشرق بها الدلالات والتقدير، أريد الجنة، أو مطلوبي الجنة، وحسب تقدير المحذوف يكون ضبط "الجنة".

"وأجد ريحها من دون أحد" كناية عن قرب الجنة وقرب الاستشهاد: والفوز وتحقيق الوعد، فرحًا بأن الله سَيُرِي المشركين ما صنع، وقد وعد أنس فأوفى، ويقاتل ويعلم الله وحده ما بذله من قتال، وما تحمله من أذى، وهو يقابل كل هذا بالمجالدة

والمجاهدة، ويصرع كثيرًا من المشركين، ويُقْتل فرحًا مستبشرًا.

ويُمثل به المشركون، ويتمزق جسده وهو به بضعة وثمانون ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رميه بسهم، وتغيب ملامحه، ولا تعرفه إلا أخته حيث عرفته بأطراف أصابعه، وذلك شاهد على اهتراء الجسد وتمزقه، ولكنه فاز بالرضوان والفردوس الأعلى من الجنة، وهو من المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وقد أظهر الله تعالى صنيعه للناس، وكافأه بالجزاء الأوفى.

المضامين الدعوية

أولاً: من تاريخ الدعوة: غزوة بدر.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بذل النفس في سبيل الله وإشهاد الله على ذلك.

ثالثًا: من تاريخ الدعوة: غزوة أحد.

رابعًا: من أساليب الدعوة: النداء والتشويق والتوكيد.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: تضحيات الصحابة رضي الله عنهم وجهادهم لنشر الدعوة.

سادسًا: من ميادين الدعوة: ساحات القتال.

أولاً- من تاريخ الدعوة: غزوة بدر:

لقد كانت غزوة بدر معلمًا واضحًا في تاريخ الدعوة، حيث أيّد الله تعالى المؤمنين بالنصر العظيم على المشركين، وثبّت الذين آمنوا، وألقى في قلوب الذين كفروا الرعب، وهُزم المشركون، فكان ذلك فتحًا جديدًا في تاريخ الدعوة، حيث تغيّرت موازين القوى، وقويت شوكة المسلمين، وتاقت نفوسهم للجهاد في سبيل الله عز وجل.

(وغزوة بدر هي الغزوة والمعركة الفاصلة الأولى في تاريخ الإسلام، وهي أول مراحل الكفاح الجدي الدامي الذي خاضه الإسلام ضد الشرك)[1]، (فأعز الله فيه الإسلام وأهله، ودفع فيه الشرك، وخرب محله، مع قلة عدد المسلمين يومئذ، فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فيهم فَرَسان وسبعون بعيرًا، والباقون مُشاة، ليس

---

(١) موسوعة الغزوات الكبرى، محمد أحمد باشميل، ١/٧٧.

معهم من العدد ما يحتاجون إليه، وكان العدو يومئذ مابين التسعمائة إلى الألف في سوابغ الحديد والبيض، والعدة الكاملة والخيول المسومة والحلي الزائدة، فأعز الله رسوله ﷺ، وأظهر وحيه وتنزيله، وبيَّض وجه النبي وقبيله، وأخزى الشيطان وجيله، وكان ذلك في السابع عشر من رمضان، من سنة سنتين من الهجرة، ولهذا قال تعالى ممتنًا على عباده المؤمنين وحزبه المتقين: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[1]، أي قليل عددكم ليعلموا أن النصر إنما هو من عند الله، لا بكثرة العدد والعُدد)[2].

ولم يقصد النبي ﷺ في خروجه بادئ الأمر بجيش المسلمين إلا عير قريش، قال ابن إسحاق: (لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام، ندب المسلمين إليهم وقال (هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها؛ لعل الله ينفلكموها)[3] وذلك لقاء ما تركوا من أموالهم في مكة، فخف بعضهم لذلك، وتثاقل آخرون، فعن عبدالله بن كعب قال: ((سمعت كعب بن مالك رضي الله عنه يقول: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها، إلا في غزوة تبوك، غير أني تخلفت عن غزوة بدر، ولم يعاتب الله أحدًا تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد))[4].

(فالتقى الظلام بالنور، والكفر بالإيمان، والباطل بالحق، والتقت الجاهلية بالإسلام، فجاء الحق، وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا)[5].

قال د. محمود شيت خطاب: (ولست أعرف معركة حاسمة من معارك الحرب الحاسمة، كيوم بدر، انتصرت فيه العقيدة السليمة على العقيدة الفاسدة، بعد أن بدّل الإسلامُ العقولَ والنفوس من حال إلى حال، وكيف لا!! وقد كان النبي ﷺ هو

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٢٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢/١١١.

(٣) البداية والنهاية، ابن كثير، ٥/٥٦.

(٤) أخرجه البخاري ٣٩٥١، ومسلم ٢٧٦٩.

(٥) مقدمة موسوعة الغزوات الكبرى، محمد أحمد باشميل، بقلم محمود شيت خطاب.

القدوة والأسوة لأصحابه بالأعمال لا بمجرد الأقوال، فكان ﷺ مثالاً شخصيًا رائعًا لأصحابه في التضحية والفداء)[١].

وفي المعركة التقى الآباء بالأبناء، والإخوة بالإخوة! خالفت بينهم المبادئ، ففصلت بينهم السيوف! وفي يوم بدر تسابق المسلمون إلى الشهادة، وكان كل واحد منهم يتمنى أن يموت قبل صاحبه، وكان كل واحد من المشركين يتمنى أن يموت صاحبه قبله، وكان الشهيد يردد، وهو يحتضر: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾[٢].

هكذا كان جنود الرسول ﷺ يؤثرون على أنفسهم مع ما كان بهم من خصاصة، ويؤثرون عقيدتهم على آبائهم وأبنائهم وإخوانهم وعشيرتهم وأموالهم، بل يؤثرون عقيدتهم على أنفسهم، فيتسابقون إلى الشهادة، فيقول أحدهم للآخر: "هنيئًا لك الشهادة"، وتقول الأمهات والأخوات والزوجات حين يعلمن باستشهاد ذويهن: "الحمد لله الذي أكرمهم بالشهادة".

وهؤلاء قادةً وجنودًا، يبنون للمستقبل، فيعتبرون العلم فريضة لا نافلة، ويعتبرونه عبادة لا تجارة، ويعتبرونه غاية لا وسيلة!

كانوا إخوة في الله، يحب أحدهم لأخيه ما يحبه لنفسه، وكانوا كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضًا، وكانوا كالجسد السليم المعافى إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى!

كان انتصار المسلمين في بدر، إيذانًا بمولد دولة الإسلام عمليًا، فقاد المسلمون بعدها العالم إلى الخير والصلاح والمدنية والنور قرونًا طويلة.

وكانت انتصارهم بالإسلام، ولن ينتصروا بغيره، وتاريخ المسلمين خير دليل على ذلك.

كان العرب في الجاهلية متفرقين فتوحدوا بالإسلام، وكانوا أعداءً فألف الإسلام بين قلوبهم، وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم الإسلام منها، فأصبح العرب

---

(١) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ٦١٣/١، البداية والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٦٦/١.

(٢) سورة طه، آية: ٨٤.

بالإسلام "وحدة" رصينة، و"دولة" عظيمة و"أمة" متماسكة "وقوة" ضاربة وجدت لها متنفسًا بالفتح الإسلامي العظيم، فسارت رايات العرب المسلمين تهدي الدنيا، وتحضر العالم، وتمدن الناس، فامتدت دولة الإسلام من سيبريا شمالاً إلى فرنسا غربًا إلى الصين شرقًا إلى المحيط جنوبًا.

كانوا ضعفاء، فأصبحوا أقوياء، وكانوا أعداء، فأصبحوا إخوة، وكانوا مستعبدين، فأصبحوا فاتحين!)(١).

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بذل النفس في سبيل الله وإشهاد الله على ذلك:

لقد حرص الصحابة رضي الله عنهم على الجهاد وبذل نفوسهم وأموالهم في سبيل الله تعالى، وكانوا حريصين على الشهادة أشد من حرصهم على الحياة، وهذا ما جعل أنس بن النضر رضي الله عنه يعتذر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: "يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت فيه المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين، ليرين الله ما أصنع".

قال ابن هبيرة: (وفي هذا الحديث بيان وذكر بلاء أنس بن النضر رضي الله عنه، وعلو مقامه في جهاد الأعداء، وأنه لما غاب عن بدر، وهي أول المشاهد استدرك أي استدراك بفعلته هذه حتى قال سعد بن معاذ -الذي اهتز العرش عند موته- الذي قال: إني ما استطعت ما صنع، وحتى توجد فيه بضع وثمانون بين رمية وضربة وطعنة)(٢).

وما ذلك إلا لعظم أجر الشهادة في سبيل الله، وقد بين الحق تبارك وتعالى ذلك فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٣) (فقد أخبر الله تعالى فيها عن الشهداء أنهم أحياء في الجنة يرزقون، ولا محالة أنهم ماتوا وأن أجسادهم في التراب، وأرواحهم حية كأرواح سائر المؤمنين،

---

(١) مقدمة موسوعة الغزوات الكبرى، محمد أحمد باشميل، بقلم محمود شيت، بتصرف يسير.

(٢) الإفصاح، عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٥/٢٥٦.

(٣) سورة آل عمران، الآيتان: ١٦٩-١٧٠.

وفضلوا بالرزق في الجنة من وقت القتل حتى كأن حياة الدنيا دائمة لهم، وقد اختلف العلماء في هذا المعنى، فالذي عليه المعظم ما ذكرناه...، وأن أرواحهم في أجواف طير خضر، وأنهم يرزقون في الجنة، ويأكلون، ويتنعمون، وهذا ما صح به النقل)[١] فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُم بِأُحُدٍ جَعَلَ اللّه أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَأْكَلِهِمْ وَمَشْرَبِهِمْ وَمَقِيلِهِمْ قَالُوا مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا أَنَّا أَحْيَاءٌ فِي الْجَنَّةِ نُرْزَقُ لِئَلاَّ يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ وَلاَ يَنْكُلُوا عِنْدَ الْحَرْبِ؟ فَقَالَ اللّه تَعَالى: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُم، قالَ: وَأَنْزَلَ اللّه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّه أَمْوَاتًا﴾ إلى آخِرِ الآيَةِ))[٢] حيث ذكر الله عز وجل توفيق للشهداء في شهادتهم وما ساقه إليهم من الكرامة والتفضيل على غيرهم من كونهم أحياءً مقربين معجلاً لهم رزق الجنة ونعيمها، ويستبشرون بما تبين لهم من حال من تركوا خلفهم من المؤمنين وهو أنهم يبعثون آمنين يوم القيامة، بشرهم الله بذلك فهم مستبشرون به، وفي ذكر حال الشهداء واستبشارهم بمن خلفهم بعث للباقين بعدهم على الجد في الجهاد والرغبة في نيل منازل الشهداء[٣] فقد جمع الله للشهداء بين نعيم البدن بالرزق ونعيم القلب والروح بالفرح بما آتاهم الله من فضله فتم لهم النعيم والسرور، ومما سبق أن بذل النفس في سبيل الله من أسمى الطاعات وأعظمها أجرًا[٤].

ثالثًا- من تاريخ الدعوة: غزوة أحد:

قد أشار الحديث إلى ذلك من قول الراوي "فلما كان يوم أحد" (وقد كانت وقعة أحد في شوال سنة ثلاث من الهجرة، وكان سببها أن المشركين حين قتل من قتل من

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي٣/٥/٤٠٨-٤٠٩.

(٢) أخرجه أبو داود ٢٥٢٠، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢١٩٩).

(٣) مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي، ص ١٩٦، ١٩٧.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ١٢٤.

أشرافهم يوم بدر، ورجع قَفَلُهُم إلى مكة، قال أبناء من قتل، ورؤساء من بقي: يا معشر قريش، إن محمدًا قد وتركم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا، ففعلوا، وخرجت قريش بحدّها وحديدها وأحابيشها في قريب من ثلاثة آلاف، حتى نزلوا قريبًا من أحد تلقاء المدينة)[١]، (واستشار رسول الله ﷺ الناس: أيخرج إليهم أم يمكث بالمدينة؟ فأشار عبدالله بن أُبي بالمقام بالمدينة، وأشار آخرون من الصحابة رضي الله عنهم ممن لم يشهد بدرًا بالخروج إليهم، فنزل رسول الله ﷺ على رأيهم، وسار ﷺ في ألف من أصحابه، فلما كان "بالشوط"[٢] رجع عبدالله بن أبي في ثلث الجيش مغضبًا لكونه ﷺ لم يرجع إلى قوله، وتهيأ رسول الله ﷺ للقتال، وهو في سبعمائة من أصحابه، والرماة يومئذ خمسون رجلاً)[٣] فقال لهم ((انضحوا الخيل عنا، ولا نؤتين من قبلكم. والزموا مكانكم، إن كانت النوبة لنا أو علينا، وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم))[٤] فلاح النصر للمسلمين، وتخلف الرماة عن أمر النبي ﷺ، فانتهز خالد بن الوليد -قبل إسلامه- الموقف، وحقق التفافًا جعل المسلمين في موقف حرج، واستشهد حمزة، ومصعب بن عمير رضي الله عنهما "وبلغ من استشهد من المسلمين يوم أحد سبعون" وعلى الرغم من الانتصار العسكري لقريش، إلا أنها لم تستطع استئصال المسلمين.

رابعًا- من أساليب الدعوة: النداء والتشويق والتوكيد:

لقد اشتمل هذا الحديث على عدد من أساليب الدعوة مثل النداء والتشويق والتوكيد، فالنداء من أساليب الدعوة التي يحصل بها لفت الانتباه، وحث المدعو على أهمية ما يُدعى إليه، ويظهر ذلك في الحديث من قول أنس رضي الله عنه "يا سعد"، ومن أساليب الدعوة الهامة أسلوب التشويق لما فيه من حمل النفس على فعل الأمر المدعو إليه،

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام، ٣/٢٣، ٢٤.

(٢) وهو اسم حائط من بساتين المدينة، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ش و ط).

(٣) البداية والنهاية، ابن كثير، ٥/٢٣٨.

(٤) أخرجه ابن إسحاق في سيرة ابن هشام ٣/٢٩.

وسرعة الاستجابة لذلك، ويظهر ذلك في الحديث من قول أنس رضي الله عنه: "الجنة ورب الكعبة"، ومن أساليب الدعوة التي تضمنها الحديث: أسلوب التوكيد لما فيه من إثبات المعنى في نفوس المدعوين وأذهانهم، والتأكيد على أهميته. وذلك في الحديث من قول أنس رضي الله عنه "إني أجد ريحها من دون أحد"، ويمكن للداعية أن يفيد من هذه الأساليب حسب مناسبتها لموضوعاته الدعوية.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: تضحيات الصحابة رضي الله عنهم وجهادهم لنشر الدعوة:

لقد أبلى الصحابة رضي الله عنهم بلاءً حسنًا في سبيل نشر الدعوة، وهانت عليهم نفوسهم وأموالهم وديارهم، وتركوا الديار والأوطان، وسارعوا إلى ساحات الجهاد، ونصرة الإسلام، لأن طريق الدعوة ليس طريقًا ممهدًا وإنما تكثر فيه الابتلاءات، وقد يقتضي ذلك تقديم تضحيات، فمن أجل ذلك شرَّع الحق تبارك وتعالى الجهاد وحث عليه، فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1] ومن الشواهد التي تؤكد تضحيات الصحابة رضي الله عنهم في هذا الحديث ما أبلى به أنس بن النضر رضي الله عنه في غزوة أحد. ويظهر ذلك في الحديث من قول أنس رضي الله عنه: "فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل، ومثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه.

ومما يؤكد تضحيات الصحابة رضي الله عنهم وجهادهم في نشر الدعوة، قول أنس رضي الله عنه: ((بعَثَ النبيُّ ﷺ أقوامًا مِن بني سُلَيم إلى بني عامرٍ في سَبعينَ، فلمّا قدموا: قال لهم خالي: أتقدَّمُكم، فإن أمَّنوني حتّى أُبلِّغهم عن رسولِ الله ﷺ، وإلا كنتم مني قَريبًا، فتقدَّمَ فأمَّنوهُ، فبينما يُحدِّثُهم عن النبيِّ ﷺ إذ أوْمَؤوا إلى رجُلٍ منهم فطعنَهُ فأنفذَهُ، فقال: اللهُ أكبرُ، فُزْتُ وربِّ الكعبة، ثمَّ مالوا على بقيَّةِ أصحابهِ فقتلوهم إلا رجلٌ أعرجُ صعِدَ الجبلَ، قال همام: وأراهُ آخرَ معه، فأخبرَ جبريلُ عليه السلام النبيَّ ﷺ أنهم قد لَقوا ربَّهم، فرَضِيَ عنهم وأرضاهم، فكنّا نقرأ: أن بلِّغوا قومَنا، أنْ قد لَقِينا ربَّنا، فرَضِيَ عنّا وأرضانا. ثمَّ نُسِخَ بعدُ، فدعا عليهم أربعينَ صَباحًا، على رِعلٍ وذَكْوانَ،

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢١٦.

وبني لِحيانَ وبَني عُصَيَّةَ، الذينَ عَصَوُا الله ورسولَه ﷺ))[1]، ومما لاشك فيه أن الصحابة رضي الله عنهم هم الرعيل الأول والسلف الصالح والقدوة الحسنة للأمة في نشر دين الله والقيام بدعوته، مما يوجب على الدعاة اتباع نهجهم والسير على خطاهم في بذل النفس والمال لنشر دين الله تعالى ودعوته.

سادسًا- من الميادين الدعوية: ساحات القتال:

هذا ما أشار إليه نص الحديث في بيان ما دار في ساحات القتال بين المسلمين والمشركين في غزوة أحد، وساحات القتال هي التي فيها تتم الدعوة بالفعل، وفي ذلك عظيم الأثر في بيان القدوة الصادقة مما يؤثر في نفس المدعو، ويبرز جهود أصحاب رسول الله ﷺ، في سبيل نشر الدعوة، وكيف كانوا ينافحون عن هذا الدين ويضحون بكل نفيس في حياتهم.

ولم يكن هدف الجهاد الأوحد هو القتال وإنما كان يصاحب ذلك الدعوة إلى الله سواء دعوة غير المسلمين إلى الإسلام قبل القتال أو وعظ المجاهدين بعضهم بعضا بالصبر على لقاء العدو.

ومن شواهد ذلك ما قام به عمرو بن العاص رضي الله عنه في دعوة راهب مصر قبل فتح مصر، ذكر الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية أنه لما استكمل عمر رضي الله عنه والمسلمون فتح الشام بعث عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى مصر، وأردفه بالزبير بن العوام رضي الله عنه، فاجتمعا على باب مصر، فلقيهم أبو مريم جاثليق مصر، الأسقف أبو مريام في أهل الثبات، بعثة المقوقس صاحب اسكندرية لمنع بلادهم.

فلما تصافوا، قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: "لا تعجلوا حتى نعذر إليكم" ليبرز إلى أبو مريم وأبو مريام راهبا هذه البلاد؛ فبرز إليه، فقال لهما عمرو بن العاص رضي الله عنه: أنتما راهبا هذه البلاد، فاسمعا إن الله بعث محمدًا ﷺ بالحق وأمره به، وأمرنا به محمد ﷺ، وأدى إلينا كل الذي أمر به، ثم مضى وتركنا على الواضحة، وكان مما أرمنا ب الإعذار إلى الناس، فنحن ندعوكم إلى الإسلام، فمن أجابنا إليه فمثلنا، ومن لم يجبنا عرضنا عليه الجزية، وبذلنا له المنعة وقد أعلمنا أنا مُفْتحوكم، وأوصانا

(١) أخرجه البخاري ٢٨٠١، ومسلم مختصرًا ٦٧٧.

بكم، حفظًا لرحمنا بينكم، وأن لكم إن أحبتمونا بذلك ذمة إلى ذمة ومما عهد إلينا أميرنا "استوصوا بالقبطيين خيرًا فإن رسول الله ﷺ أوصانا بالقبطيين خيرًا لأن لهم رحمًا وذمة. فقالوا: قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء، معرفة شريفة(١).

فيتضح لنا من ذلك المثل العملي الذي احتفظ به التاريخ ونقله إلينا ما كان عليه السلف الصالح من (الاهتمام دعوة غير المسلمين إلى الإسلام قبل بدء القتال معهم، كما كانوا يعتنون آنذاك بالتناصح فيما بينهم والتواصي بالصبر والثبات والترغيب في الجهاد والزهد في الدنيا والمسارعة إلى الجنة ونعيمها)(٢) ومن تلك الأمثلة ما قام به المسلمون في غزوة اليرموك بالتواصي فيما بينهم بالصبر والثبات، فذلك معاذ بن جبل يجعل يذكر الناس ويقول: يا أهل القرآن ومستحفظي الكتاب وأنصار الهدى والحق، إن رحمة الله لا تنال، وجنته لا تُدخل بالأماني، ولا يؤتى الله المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادق المصدّق، ألم تسمعوا لقول الله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(٣) فاستحيوا رحمكم الله من ربكم أن يراكم فرارًا من عدوكم وأنتم في قبضته، وليس لكم ملتحد من دونه ولا عز بغيره.

وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه: أيها المسلمون غضوا الأبصار، واجثوا على الركب وأسرعوا الرماح فإذا حملوا عليكم فأمهلوهم، حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فوثبوا إليهم وثبة الأسد...(٤).

---

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير، ٨٩/١٠، ٩٠.

(٢) انظر: ركائز الدعوة إلى الله تعالى، د. فضل إلهي، ص ٣٣٨.

(٣) سورة النور، آية: ٥٥.

(٤) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير، ٥٥٥/٩.

الحديث رقم (١١٠)

١١٠- **السادس عشر:** عن أبي مسعود عُقْبَةَ بن عمروٍ الأنصاريِّ البدريِّ ﷺ قال: لَمَّا نَزَلَتْ آيةُ الصَّدقَةِ كُنَّا نُحامِلُ (عَلَى ظُهُورِنا)[1]. فَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ فَقَالُوا: مُراءٍ، وجاءَ رَجُلٌ آخَرُ فَتَصَدَّقَ بِصاعٍ فقالُوا: إنَّ اللَّه لَغَنِيٌّ عَنْ صاعِ هَذَا، فَنَزَلَتْ ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إلاَّ جُهْدَهُمْ﴾[التوبة ٧٩] الآية. متفقٌ عليه[2].

«**ونُحَامِلُ**» بضم النون، وبالحاءِ المهملة: أَيْ يَحْمِلُ أَحَدُنَا على ظَهْرِهِ بِالأجْرَةِ، وَيَتَصَدَّقُ بها.

ترجمة الراوي:

أبو مسعود البدري الأنصاري: هو عقبة بن عمرو بن ثعلبة الأنصاري أبو مسعود البدري مشهور بكنيته، وقد شهد العقبة مع السبعين من الأنصار شابًا وكان أصغرهم.

أُختُلِفَ في نسبته: البدري: فأكثر أهل السير على أنه لم يشهد بدرًا، وإنما سكنها أو نزل ماءها فنسب إليها، لكن البخاري جزم في صحيحه أنه شهدها[3].

وما عدا ذلك فقد شهد أُحدًا، والمشاهد، والمغازي كلها.

وكان معدودًا من علماء الصحابة، وكان يُفتي أيام عمر بن الخطاب ﷺ.

عُرف بعزة النفس والمنعة قال عن نفسه: كنت رجلاً عزيز النفس حمي الأنف لا يستقلّ مني أحد شيئًا: سلطان ولا غيره.

قاتل مع علي بن أبي طالب عندما وقع الخلاف بينه وبين معاوية، واستعمله على

---

(١) الزيادة عند مسلم عقب الحديث رقم (١٠١٨/٧٢، بدون رقم) قال: وفي حديث سعيد بن الربيع، قال: (كنا نحامل على ظهورنا).

(٢) أخرجه البخاري (١٤١٦) واللفظ له، ومسلم (١٠١٨/٧٢). أورده المنذري في ترغيبه (٢٤١٩).

(٣) صحيح البخاري (٤٠٠٧).

الكوفة، وكان يود أن يصطلح الفريقان وكان يقول: عليكم بالجماعة فإن الله لن يجمع الأمة على ضلالة حتى يستريح برٌّ أو يُستراح من فاجر.

مات بعد سنة أربعين، وقيل مات بالكوفة وقيل مات بالمدينة[١].

غريب الألفاظ:

نحامل: بضم النون وبالحاء المهملة: أي يحمل أحدُنا على ظهره بالأجرة ويتصدق بها[٢].

مراء: من الرياء، وهو أن يظهر الإنسان من نفسه خلاف ما هو عليه ليراه الناس؛ وذلك من أجل السمعة والشهرة بينهم[٣].

صاع: الصاع: وحدة من وحدات المكاييل وهو عند جمهور العلماء يساوي ٢١٧٢ جرامًا، أي ما يقل قليلاً عن الكيلوجرامين والربع[٤].

الشرح الأدبي

إن المنهج الإسلامي يفتح أمام كل صاحب جهد آفاق الإبداع والإتقان لتقديم المزيد من المجال الذي يتقنه المسلم، وكل ما يقدمه المسلم مهما قل شأنه ووزنه المادي: مقبول عند الله تعالى إذا كانت النية خالصة، وكان في العمل نفع للإسلام والمسلمين، وفيه نفع كذلك للناس جميعًا.

وفي ضوء هذا المنهج السوي نقرأ ونتدبر ونستجلي ما وراء الكلمات والأحداث في

---

(١) الطبقات، ابن سعد (١٦/٦) والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ٥٦١ وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (٢٨٠/٦) والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٩٢١ والسير (٤٩٣/٢) وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي (١٩٩/٥)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (١٢٦/٣) والأعلام، خير الدين الزركلي (٢٤٠/٤).

(٢) رياض الصالحين ٩٤.

(٣) انظر: القاموس المحيط، مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي ، ومختار الصحاح في (ر أ ى)، ومعجم لغة الفقهاء ٢٠٤.

(٤) انظر: معجم لغة الفقهاء ٢٤١ ، ٤١٩.

هذا الحديث الشريف.. حيث يعرض الراوي لنموذجين من المسلمين استجابا لدعوة القرآن الكريم إلى التصدق، وأقدما على التنفيذ بعد حث المصطفى ﷺ على ذلك في قوله ﷺ: "ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم".

وهذه الاستجابة لإخراج الصدقة اتخذت طريقين: أحدهما كان يتسم بالمشقة والقلة.. ومن الذين اتبعوا هذا النهج راوي الحديث، أبو مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري وغيره من فقراء الصحابة، حيث كانوا يحملون على ظهورهم بالأجرة ليكتسبوا ما يتصدقون به، وهو تطوع منهم وليس واجبًا، والتعبير بقوله: "نحامل" يومئ بالمشقة والتعب، ومن هؤلاء من تصدق بصاع: وهو نصف ما اكتسبه من عمل يده، فاستقل بعض الناس: وهم: اللامزون، ما تصدق به وقالوا: إن الله لغني عن صاع هذا، وهؤلاء لا يحبهم الله ولا رسوله لأنهم يسخرون من فقراء المسلمين، وجزاؤهم أن الله سخر منهم ولهم عذاب أليم.

ومما يؤكد خطأ منهجهم، وبأنهم غير صادقين في اعتراضهم على قلة الصدقة اتهامهم لمن اتبع الطريق الثاني الذين أكثروا من الصدقات بأنهم مراءون، وعبدالرحمن بن عوف هو الذي تصدق - كما قيل - بأربعين أوقية من الذهب، فاتهمه هؤلاء المنافقون اللامزون بأنه مراء، وهذا اتهام باطل.

وقد كشف الحق سبحانه وتعالى زيف هؤلاء اللمَّازين، وفضح أمرهم، حتى يكونوا عبرة وعظة لغيرهم، في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾(١)، وقول الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٢)، والصدقة في هذا الحديث: ليس المقصود بها، الزكاة، لأن الزكاة واجبة، وهي ركن من أركان الإسلام: والمراد هنا: الصدقات

---

(١) سورة التوبة، آية: ٧٨.

(٢) سورة التوبة، آية: ٧٩.

المنثورة، فقد دعا الإسلام إلى الإنفاق عامة، وأعد النفوس للبذل والعطاء: قيامًا بحق الله وحق العباد، وخص ذوي الحاجة في الجماعة الإسلامية بالذكر والحض على البر بها في آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ وتصرفاته وذلك ما يسمى الصدقات المنثورة: أي أنها تكون من غير تحديد لمقدارها المعطي، ولا تعيين للمعطي له، ولا إلزام للمعطي فيها مطلقًا، بل الدافع إليها قوة الإيمان، وكمال اليقين، فيما عند الله تعالى وهو خير وأبقى[1]، وفي ذلك تماسك وتعاطف بين أبناء الأمة الإسلامية، وقوة لها وهيبة لها أمام أعدائها المتربصين بها.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: المسارعة في الامتثال لأوامر الله تعالى ورسوله ﷺ.

ثانيًا: من أهداف الدعوة: الحث على التنافس في البذل.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان عداوة المنافقين للمؤمنين وخطرهم على الدعوة.

أولاً- من موضوعات الدعوة: المسارعة في الامتثال لأوامر الله تعالى ورسوله ﷺ:

إن مما يستنبط من الحديث المسارعة في الامتثال لأمر الله ورسوله، حيث كان الصحابة رضي الله عنهم سبّاقين في هذا المجال، خاصة عند نزول آية الصدقة، فقد ورد في هذا الحديث ما يؤكد ذلك من قول الراوي: "كنا نحامل على ظهورنا" وقد كان ذلك طبعًا وعادة في حياة الصحابة رضي الله عنهم امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾[2] وامتثالاً لقوله تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾[3] وقد حث النبي ﷺ على ذلك، فقال: ((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ. يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا. أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا. يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا))[4].

---

(١) انظر: التكافل الاجتماعي في الإسلام، د. عبدالعال أحمد عبدالعال، ص ١٤٧.

(٢) سورة الأنفال، آية:٢٤.

(٣) سورة الشورى، آية: ٤٧.

(٤) أخرجه مسلم ١١٨.

قال النووي: (معنى الحديث الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة، كتراكم ظلام الليل المظلم لا المقمر، ووصف ﷺ نوعًا من شدائد تلك الفتن وهو أن يمس مؤمنًا ثم يصبح كافرًا أو عكسه، وهذا لعظم الفتن ينقلب الإنسان في اليوم الواحد هذا الانقلاب)[١]. فالمبادرة إلى الأعمال والمسارعة في الامتثال لأمر الله تعالى ورسوله ﷺ واجب على كل مؤمن امتثالاً لقول الحق: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[٢].

ثانيًا- من أهداف الدعوة: الحث على التنافس في البذل:

إن من أهم ما ترمي إليه الدعوة استثارة همم المدعوين للتنافس في البذل والعطاء، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم قدوة في ذلك، ومن الشواهد على تنافسهم ما ورد في هذا الحديث من قول الراوي: "فجاء رجل فتصدق بشيء كثير... وجاء رجل آخر فتصدق بصاع" وذلك طمعًا فيما عند الله من الثواب وعظيم الأجر، وقد بين الحق تبارك وتعالى ذلك فقال: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[٤] وقد حث النبي ﷺ على ذلك فقال: ((اتَّقوا النارَ ولو بشِقِّ تمرةٍ))[٥] وقال: ((الصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ، كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ))[٦] فكان ذلك دافعًا للصحابة رضي الله عنهم في الحرص على بذل الصدقات امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾[٧].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٦٨.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٤٨.

(٣) سورة سبأ، آية: ٣٩.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٧٢.

(٥) البخاري ١٤١٣، ومسلم ١٠١٦.

(٦) أخرجه الترمذي ٦١٤، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٩٠٨).

(٧) سورة المطففين، آية: ٢٦.

وكما أن الصدقة إنما شرعت لسدّ حاجة المعوزين، فهي كذلك من أعظم الأسباب للتمهيد للدعوة وقبولها عند من تعرض عليه تأليفًا لقلبه، أو مواساة أو ما شاكل ذلك، وقد جعل الله تعالى للمؤلفة قلوبهم قسمًا من مصارف الزكوات، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1].

ومن يقرأ السيرة النبوية يجد أن النبي ﷺ كان يعطي عطاءً جزيلاً عما كان له أكبر الأثر في قبول دعوته ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أعطى رهطًا وسعد جالس فيهم، قال سعد رضي الله عنه "فترك رسول الله ﷺ منهم من لم يعطه وهو أعجبهم إلي، فقلت: يا رسول الله مالك عن فلان؟ والله إني لأراه مؤمنًا، فقال رسول الله ﷺ "أو مسلمًا" قال فسكت قليلاً، ثم غلبني ما أعلم منه، فقلت: يا رسول الله مالك عن فلان؟ فوالله إني لأراه مؤمنًا"، فقال رسول الله ﷺ "أو مسلمًا" قال: فسكت قليلاً ثم غلبني ما أعلم منه فقلت: يا رسول الله مالك عن فلان؟ فوالله إني لأراه مؤمنًا، فقال رسول الله ﷺ "أو مسلمًا" إني لأعطي الرجل غيره أحب إلي منه خشية أن يكبه الله في النار على وجهه"[2].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ غنمًا بين جبلين فأعطاه إياه، فأتى قومه، فقال أي قوم أسلموا، فوالله إن محمدًا ليعطي عطاء ما يخاف الفقر[3].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان عداوة المنافقين للمؤمنين وخطرهم على الدعوة:

إن من شواهد عداوة المنافقين للمؤمنين ما ورد في الحديث على لسان بعض الناس "... فقالوا مراء، وجاء رجل آخر فتصدق بصاع فقالوا: إن الله لغني عن صاع هذا" وذلك للتشكيك في إخلاص المنفقين والباذلين للمال فقاموا بلمزهم، إنه عندما (جاء رسول

---

(١) سورة النور، آية: ٦٠.

(٢) أخرجه البخاري ١٢٧، ومسلم ٢٣٧ واللفظ له.

(٣) أخرجه مسلم ٢٣١٢.

الله ﷺ إلى المدينة المنورة، كان أهلها على أهبة المناداة بعبدالله بن أُبَيٍّ مَلِكًا عليهم، فتغير مجرى الحوادث على غير ما يهوى هذا الرجل، فأقام مدة وحوله جماعة من أنصاره وأصدقائه، يقلبون الأمور ويبتغون الفتن لرسول الله ﷺ، ولكن الله أعز جنده، وأيد دينه، فأقبل بعضهم على بعض منذ يوم بدر، وقالوا: هذا أمر قد توجّه... ورأوا الناس يدخلون في دين الله، ويقبلون على رسوله بالسمع والطاعة والمحبة، فكرهوا أن يظلوا وحدهم، فدخلوا في الإسلام ظاهرًا، وبقيت قلوبهم على جحودها وغيظها... فكانوا يقومون بمهمة "الطابور الخامس" لليهود ولغير اليهود من أعداء رسول الله ﷺ؛ فأعلم الله رسوله بنبأ هؤلاء المنافقين، بصفة عامة لا خاصة، ليأخذ حذره، فقال: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ﴾[1] ثم زاده معرفة بهم فقال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾[2].

وقد كان موقف المنافقين من المسلمين، أحقر موقفًا وأخس نفسًا من المشركين واليهود، فليس كالنفاق آفة تحلق المروءة والرجولة، ولهذا يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[3].

وتتلخص أساليب هذه الحرب السرية في الأنواع الآتية:

أ- استهزائهم بالمطوعين من المؤمنين في الصدقات، فمن أعطى جزيلاً رموه بالرياء؛ ومن أعطى قليلاً؛ لأنه لا يجد إلا جهده، سخروا منه، وهذا ما أشار إليه نص الحديث من قول الراوي لما نزلت آية الصدقة: كنا نحامل على ظهورها، فجاء رجل فتصدق بشيء

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٠١.

(٢) سورة محمد، آية: ٢٩.

(٣) سورة النساء، آية: ٤٥.

كثير فقالوا: مراءٍ .... إلخ.

ب- إضعاف شأن المسلمين في الحروب، وهؤلاء المنافقون أقدر من غيرهم على القيام بهذه المهمة، فقد دخلوا في الإسلام، وأظهروا الإخلاص لنبيه، وأتقنوا دورهم، حتى إن عمر رضي الله عنه نفسه لم يكن يعرف عن أكثرهم إلا الصلاح والورع. فكان هؤلاء "الصلحاء الأكابر" يقعدون عن الخروج للقتال، أو يستأذنون في القعود. فإذا رآهم من هو أقل منهم من العامة، اقتدى بهم وأدركه شيء من الفتور والتثاقل. وكانوا كذلك يشيرون على غيرهم بالقعود معهم، فيقعد من يقعد، ويخرج إلى القتال من يخرج مخالفًا مشورتهم، فإذا قتل قالوا: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۗ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

وكان بعض هؤلاء المنافقين يخرج ولكنه يعود من الطريق. ويقول: والله ما ندري علام نقتل أنفسنا؟ فإذا رجع، رجع معه طائفة كبيرة من الجيش (كما حصل يوم أحد)[2]... فإذا خرجوا ولم يرجعوا من الطريق سعوا بالفتنة. وبثوا روح التخاذل في الجيش؛ كما حصل في غزوة تبوك، إذ قال بعضهم (يظن هذا "يعني رسول الله" أنه يفتح قصور الروم وحصونها، هيهات هيهات. ويقول آخر: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضًا؟ والله لكأنا بكم غدًا مقرنين في الحبال)[3]، وصدق الله العظيم: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾[4].

ج- كانوا ينتهزون كل فرصة سانحة للوقيعة بين المسلمين، وإثارة الفتن في صفوفهم.

في غزوة بني المصطلق (تدافع غلامان على الماء أحدهما لرجل من المهاجرين والآخر لرجل من الأنصار ... فصاح المهاجري: يا للمهاجرين، وصاح الأنصاري: يا للأنصار ... وسمعهما عبدالله بن أبيٍّ رأس المنافقين، فلم يتركها تمر دون أن يستغلها في الوقيعة التي

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٦٨.

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ٣/٢٥-٢٦.

(٣) المرجع السابق ٤/١٦٥.

(٤) سورة التوبة، آية: ٤٧.

يريد، فقال: قد ثاورونا في بلادنا، والله ما مثلنا وجلابيب قريش هذه، إلا كما قال القائل: (سمن كلبك يأكلْك) ... ثم أقبل على من في مجلسه، وقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم - أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو كففتم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها ... والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ...)[١].

وأرادها الرجل فتنة بين المهاجرين والأنصار، ولكن الله أحبط كيده، وحفظ جنده من التفرقة، بتصرف حكيم بارع لرسول الله ﷺ (فصلته كتب السيرة)[٢].

د- محاولة الغض من جلال الرسالة بالاستهزاء برجالها، واختراع الأراجيف في حقهم، فهذا عبدالله بن أُبي يخترع حديث الإفك، ويتولى كبره؛ وهو ضربة موجهة للإسلام بطريق غير مباشر ... فإن شكّ الناس في عرض عائشة رضي الله عنها[٣].

وقالوا عن النبي ﷺ: إنه أُذُن، كلما قال له أحد شيئًا صدقه، فإذا قيل له ضده صدقه أيضًا.

كل هذا، وهم معدودون من المسلمين، لا يستطيع أحد أن ينكر عليهم إسلامهم، لأنهم يقولون بألسنتهم "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، وتحت ستار هذه الشهادة يأتون ما يأتون من الجرائم، فإذا سئلوا اعتذروا، أو أنكروا وأقسموا.

أما موقف النبي ﷺ من هذه الفئة فقد كان يترك إلى الله سرائرهم، ويعاملهم بما يبدو من ظواهرهم. جاءه منافق ليتوب من نفاقه، فقال: ((يا رسول الله، الإيمان على لساني، والنفاق في قلبي ولا أذكر الله إلا قليلا، فقال عليه السلام: اللهم اجعل له لسانًا

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام، ٢٣٦/٣-٢٣٧، البداية والنهاية، ابن كثير، ١٨٤/٦-١٨٥.

(٢) وهو ما بينه ابن إسحاق في قوله: ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدْر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مسّ الأرض فوقعوا نيامًا، وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ يشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس، من حديث عبدالله ابن أبيّ". السيرة النبوية، ابن هشام، ٢٣٨/٣.

(٣) السيرة النبوية، ابن هشام، ٢٤٦/٣.

ذاكرًا، وقلبًا شاكرًا، وارزقه حبي وحب من يحبني، وصير أمره إلى خير. فقال الرجل: يا رسول الله إنه كان لي أصحاب من المنافقين، وكنت رأسًا فيهم، أفلا آتيك بهم؟ فقال عليه السلام: من أتانا استغفرنا له، ومن أصر فالله أولى به، ولا تخرقن على أحد سترًا))(١).

وقد بين النووي: (أن حلم النبي ﷺ وتركه لبعض الأمور المختارة، وصبره في ذلك على بعض المفاسد؛ إنما كان لغاية عظيمة وحكمة جليلة؛ هي ألا يترتب على ذلك مفسدة أعظم، وقد كان ﷺ يتألف الناس، ويصبر على جفاء الأعراب والمنافقين وغيرهم؛ لتقوى شوكة المسلمين، وتتم دعوة الإسلام، ولم يقتل المنافقين لهذا المعنى ولإظهارهم الإسلام، وقد أمر بالحكم بالظاهر والله يتولى السرائر)(٢).

ولعل في هذا التلخيص، ما يعين المدعو على فهم ما ورد في نص الحديث من عداوة المنافقين للمؤمنين.

---

(١) أخرجه الطبراني ٣٤٧٥، وقال الهيثمي في المجمع رجاله رجال الصحيح، وقال الحافظ في الإصابة، إسناد لا بأس به.

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٤٥.

الحديث رقم (١١١)

١١١- السابَع عشر: عن سعيدِ بنِ عبدِ العزيزِ، عن رَبيعةَ بنِ يزيدَ، عن أَبي إدريس الخَوْلاَنيِّ، عن أَبي ذَرٍّ جُنْدُبِ بنِ جُنَادَةَ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ فيما يَرْوِى عَنِ اللهِ تبارك وتعالى أنه قال: «يا عِبَادِي إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُم ضَالٌّ إلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جائعٌ إلاَّ مَنْ أطعمتُه، فاسْتطعِموني أطعمْكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلاَّ مِنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُوني أكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأنَا أغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُوني أغفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّوني، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُوني، يَا عِبَادِي لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ، وَإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أتقَى قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم ما زادَ ذلكَ في مُلكي شيئًا، يا عِبَادِي لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم وإنسكم وجنكُمْ كَانوا عَلَى أفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسألُوني فَأعْطَيْتُ كُلَّ إنْسانٍ مَسْألَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلاَّ كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذَا أُدْخِلَ البَحْرَ، يَا عِبَادِي إنَّما هِيَ أعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أوَفِّيكُمْ إيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّه، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إلاَّ نَفْسَهُ».

قَالَ سعيدٌ: كان أبو إدريس إذا حدَّثَ بهذا الحديث جَثَا عَلَى رُكبتيه. رواه مسلم[1].

وروينا عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله قال: ليس لأهل الشام حديث أشرف من هذا الحديث.

ترجمة الراوي:

أبو ذر الغفاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

---

(١) برقم (٢٥٧٧/٥٥).

غريب الألفاظ:

تظالموا: أي لا تتظالموا والمراد: لا يظلم بعضكم بعضًا[١].

صعيد واحد: الصعيد: وجه الأرض والمرتفع من الأرض والموضع الواسع[٢].

المخيط: الإبرة[٣].

جثا على ركبتيه: جلس على ركبتيه[٤].

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث القدسي الجليل يضيء آفاق الحياة، ويرشد الناس إلى سبل النجاة، ويغرس الأمل في قلوب الحيارى الذين أنساهم الشيطان أنفسهم، وأنساهم استحضار الشكر على نعم الله تعالى التي لا تعد ولا تحصى.

والمنارات الإرشادية الهادية تتوهج أضواؤها في آفاق هذا الحديث الجامع لكثير من أبواب الهداية والمعرفة، وأول ما يصلح ذات البين بين العباد هو القضاء على الظلم.. ولذلك جاء النهي الإلهي عن ذلك في قوله: "فلا تظالموا"، وهذا النهي جاء مقنعًا مسببًا لأن الله تعالى حرم الظلم على نفسه فقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[٥]، وحرم الظلم على عباده، ونهاهم أن يتظالموا فيما بينهم، فحرام على كل عبد أن يظلم غيره، مع أن الظلم في نفسه محرم مطلقًا: هو نوعان إحداهما: ظلم النفس وأعظمه الشرك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٦]، والثاني ظلم العبد لغيره، وهو المذكور في هذا الحديث[٧]، وقوله: "فلا تظالموا"،

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٤٢.

(٢) الوسيط في (ص ع د).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (خ ي ط).

(٤) النهاية، والوسيط في (ج ث و).

(٥) سورة فصلت، آية: ٤٦ .

(٦) سورة لقمان، آية: ١٣ .

(٧) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ص ١٦٦.

نهى عن رد الظلم بالظلم، ونهى عن الحرص على دفع الظلم بظلم أقسى وأشد منه، وفي ذلك إيحاء بالعفو والتسامح كما في الدعاء، اللهم اعف عمن ظلمني وأعط من حرمني، والأفق الثاني من آفاق الهداية والنجاة في هذا الحديث هو حرص الله عز وجل على هداية عباده، وحتى ينجيهم من الضلال ناداهم في رفق ومحبة ورحمة بعد أن بيّن لهم واقعهم: فهم كلهم معرضون للضلال إلا من هداه الله، وأمر الحق سبحانه وتعالى عباده بطلب الهداية، وعبر عنه بالاستهداء إشارة إلى ضرورة مقاومة النفس، ومجاهدة الشيطان، وهذا الحديث هو ختام باب المجاهدة، ويوحي ذلك بأنه جامع لسبل المجاهدة والمقاومة. وأي مجاهدة أعظم وأقوى من الاستعانة بالله تعالى والتحصن بقوته وعزته من سبل الغواية والضلال، وقيل: إن في طلب الهداية من الله: اعترافًا من العبد على نفسه بالعبودية ولمولاه بالربوبية، وهذا مقام شريف لا يتفطن له إلا الموفقون.

والأفق الثالث من آفاق النجاة والمجاهدة والصلة بالله عز وجل هو التوكل على الله، وطلب الرزق منه سبحانه وتعالى: فخزائنه لا تنفد، وعطاياه لا تنضب، وكرمه لا ينتهي، "وكلكم جائع"، واقع حقيقي لأن الإنسان في الحياة لا يستطيع إشباع نفسه إلا بالعمل.. والتحصيل والكسب، وهذا العمل لابد أن يكون مصحوبًا بشعور ويقين العبودية لله تعالى، لأنه مالك السموات والأرض، وهو يسخر كل ما في هذا الكون للإنسان من نبات وحيوان، وطير، وجبال، وبحار، وأجرام وكواكب، وكلها من مصادر رزق الإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُ﴾[(٣)]، والتعبير بصيغة التفعيل، فاستطعموني: أطعمكم، يرشد إلى حتمية الكد والتعب، والسعي، واستغلال الطاقات الكامنة في الأرض.. وما عليها، وفي

---

(١) سورة الذاريات، آية: ٢٢.

(٢) سورة الواقعة، آية: ٦٤.

(٣) سورة إبراهيم، آية: ٣٤.

السموات وما فيها، كما قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[١].

والأفق الثالث من آفاق النجاة والصلة بين العبد وربه: هو طلب الستر والإيواء، لأن الإنسان الذي يفقد مسكنه وملبسه وطعامه.. يفقد مقومات الحياة الأساسية.

وطلب الكسوة من الله... من سبل المجاهدة والمكابدة في الحياة، لأن الإنسان مهما سعى وحصَّل في الحياة المادية وهو يفتقد الشعور الإيماني.. فإنه سيظل عاريًا لا يجد ما يستره في حياته إذا فقد المقومات المادية التي زين للناس حبها وعبر عنها القرآن الكريم بالشهوات.

ويفتح الله تعالى باب التوبة لعباده، وهذا هو الأفق الأعلى من آفاق النجاة..والطريق إليه: الاستغفار وهو مفتاح الخير في الدنيا والآخرة، ويقول الله عز وجل: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾[٢].

وحتى لا يظن الواهمون بأن نداء الله لعباده في كل الأمور السابقة فيها إنقاص لعزة الله، وملكوته أكد الحق سبحانه وتعالى: بأنه لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية، وإنما كل النداءات السابقة من أجل إنقاذ الإنسان من الضلال والهلاك والغواية والجحود والعصيان، ويطمئن الحق سبحانه ملايين العباد في كل زمان ومكان بأن مُلْكه لا يزول، وأن عطاءه لا ينفد، وأن المتقين هم الفائزون بخيري الدنيا والآخرة، وأن الفجار هم الخاسرون، وإن وهموا أنهم أحسنوا الأعمال، وزينوا الأقوال.

ويختم الحديث ختامًا جميلاً كريمًا حيث يفيض الله تعالى بعطاياه على جميع عباده المخلصين الداعين والسائلين، بالإجابة والعطاء كل حسب مسألته وحاجته، وملكه هو هو في عطائه لا ينقص منه شيء.

---

(١) سورة النجم، آية: ٣٩.

(٢) سورة نوح، الآيات: ١٠-١٢.

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف وهى تمتزج بالمعنى، وتساعد على الفهم، وتقوي التأثير وهي:

أ- النداء والتكرار: في قوله: يا عبادي: وقد تكرر هذا النداء عشر مرات، وفي كل مرة تتجلى قدرة الله تعالى ورحمته بعباده الطائعين المجاهدين، والتعبير بقوله: "يا عبادي" فيه إشعار بحتمية العبادة، وبأن الله تعالى هو الخالق وهو يحفظ عباده الذين لا يعبدون من دون الله شيئًا، والتكرار لمزيد من التأكيد، وكذلك إضافة العباد إلى ياء المتكلم وهو الله عز وجل فيه تشريف لهم، ووعد بالرعاية والحفظ لأنهم عباده، عباد الرحمن.

ب- الاستثناء والمقابلة بين الألفاظ والمواقف والمعاني، وقد تكرر هذا الاستثناء ثلاث مرات، والمستثنى هو مَنْ شملته رحمة الله عز وجل، والمستثنى منه يمثل قاعدة عامة للسلوك البشري الذي ضل طريق الفطرة، وزين له الشيطان طريق الغواية، كما قال تعالى على لسان إبليس: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[1]، فالعباد كلهم ضالون إلا من هداه الله، وكلهم جائعون إلا من أطعمه الله، وكلهن عارون إلا من كساه الله.

ج- الأمر وجوابه: وقد تكرر ثلاث مرات بعد جملة الاستثناء، وفي ذلك إلزام بوجوب الفعل المطلوب وليس الأمر اختيارًا (فاستهدوني أهدكم، فاستطعموني أطعمكم، فاستكسوني أكسكم، وتكرر مرة بعد ذلك.

د- المشاكلة الأسلوبية وتناسق البناء التعبيري، فالجمل الثلاث التي ورد فيها الاستثناء فيها تناسق تعبيري ومشابهة في بناء الجمل مع تكرار "كلكم" لتأكيد شمول القاعدة، ولكن عند التنبيه إلى الأخطاء تغير ذلك النسق الأسلوبي، فلم يقل: كلكم تخطئون لأن من البشر مَنْ هم معصومون ولا يخطئون وهم الأنبياء، وجاء التعبير يقول: "إنكم تخطئون"، مصحوبًا بالتأكيد والزمن المضارع ليرشد إلى وجود الخطأ واستمراره، ولكن الاستغفار والمجاهدة تزيل ذلك الخطأ فالله يغفر الذنوب جميعًا.

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٦ .

ه- أسلوب الجواب والشرط: وأداته "لو" وهى أداة امتناع لامتناع، وجاءت صيغ الشرط في سياق تفرد الله تعالى بعزته وجبروته، وتكررت ثلاث مرات مع التأكيد وتكرار كلمات: أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، إشارة إلى عموم الخلق وجميع الكائنات.

و- أسلوب القصر: وقد ورد في سياق تصوير ثبات ملك الله عز وجل وأنه لا ينقص بالسؤال، والتشبيه هنا للتمثيل وتقريب المعنى وتوضيحه.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النداء.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: حرمة الظلم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الحث على الدعاء وبيان فضله.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الحث على الاستغفار وبيان فضله.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: بيان غنى الله تعالى عن عباده.

سادسًا: من أساليب الدعوة: التمثيل لتقريب الأفهام.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: مراقبة الله في الأعمال.

ثامنًا: من أهداف الدعوة: بيان رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين.

أولاً- من أساليب الدعوة: النداء:

النداء من الأساليب الدعوية التي يكون بها لفت انتباه المدعوين، فضلاً عن استحضار أذهانهم؛ لبيان أهمية الأمر المدعو إليه، وقد ورد هذا الأسلوب الدعوي في الحديث القدسي من قوله تعالى "يا عبادي".

ففي هذا الحديث العظيم الشريف يتجلى اللطف الرباني، والعناية الإلهية بالخلق، ويبدو هذا من أمور عدة وردت في الحديث، منها تكرار هذا النداء الندي الرائع الحنون الرؤوف: يا عبادي يا عبادي، فقد تكرر عشر مرات، ولهذا النداء وقع كبير عند أصحاب القلوب الشفافة والأرواح النامية، يتيهون لسماعه ويطربون له وتهتز أوتار

قلوبهم وأعماق مشاعرهم حين يلامس هذا النداء مسامعهم[١].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: حرمة الظلم:

إن الظلم من موجبات غضب الجبار، وتخريب الديار، به يكون فساد الأمم وانهيار الدول (فالله ينصر الدولة العادلة، وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة، وإن كانت مؤمنة)[٢]، وقد كان الظلم سببًا لهلاك الأولين (بعد أن منعوا الحق حتى اشتُريَ، وبسطوا الجور حتى افتُديَ)[٣]، ومن أجل ذلك حرمه الحق على نفسه، وجعله بين عباده محرمًا، وهذا ما ورد في نص الحديث، من قوله تعالى: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا" (والظلم وضع الشيء في غير موضعه، والتصرف في حق الغير، ومجاوزة حد الشارع)[٤].

وهو كما قال الراغب على ثلاثة أنواع: (الأول: ظلمٌ بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمه الكفر والشرك والنفاق، ولذلك قال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٥] وإياه قَصَد بقوله ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٦] والثاني: ظلم بينه وبين الناس، وإياه قصد بقوله ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٧] وبقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾[٨] والثالث: ظلم بينه وبين نفسه، وإياه قصد بقوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾[٩] وقوله: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾[١٠] وكل هذه الثلاثة في الحقيقة ظلم

---

(١) من هدي النبوية، د. محمد بن لطفي الصباغ، ص ٨٣.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم، ٢٨/٦٢-٦٣.

(٣) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعمر القيام ١/١٧٩.

(٤) الكليات معجم المصطلحات والفروق الفردية، أبو البقاء الكفوي، الكفوي، ٥٩٤.

(٥) سورة لقمان، آية: ١٣.

(٦) سورة هود، آية: ١٨.

(٧) سورة الشورى، آية: ٤٠.

(٨) سورة الشورى، آية: ٤٢.

(٩) سورة فاطر، آية: ٣٢.

(١٠) سورة القصص، آية: ١٦.

للنفس، فإن الإنسان في أول ما يهم بالظلم فقد ظلم نفسه)[١].

وقد توعد الحق تعالى الظالمين فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾[٢] (وفي ذلك وعيد للظالم وتعزية للمظلوم)[٣]، وقال تعالى في بيان عاقبة الظالمين ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[٥] وقال النبي ﷺ مؤكدًا ومرهبًا من الظلم ((اتَّقِ دَعوةَ المظلومِ، فإنها ليسَ بينَها وبينَ اللهِ حِجاب))[٦].

وقد بين ابن القيم: (أن الظلم عند الله عز وجل يوم القيامة له دواوين ثلاثة: ديوان لا يغفر الله منه شيئًا، وهو الشرك به، فإن الله لا يغفر أن يشرك به. وديوان لا يترك الله تعالى منه شيئًا، وهو ظلم العباد بعضهم بعضًا، فإن الله تعالى يستوفيه كله. وديوان لا يعبأ الله به شيئًا، وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه عز وجل، فإن هذا الديوان أخف الدواوين وأسرعها محوًا، فإنه يمحى بالتوبة والاستغفار، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، ونحو ذلك، بخلاف ديوان الشرك فإنه لا يمحى إلا بالتوحيد، وديوان المظالم لا يمحى إلا بالخروج منها إلى أربابها واستحلالهم منها)[٧].

فعلى المرء أن يجتنب الظلم جهده.

---

(١) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ٣١٧.

(٢) سورة إبراهيم، آية: ٤٢.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، ١٣/٧٠٤.

(٤) سورة يونس، آية: ١٣.

(٥) سورة الأعراف، آية: ٤١.

(٦) أخرجه البخاري ١٤٩٦.

(٧) الوابل الصيب من الكلم الطيب، ابن القيم، تحقيق: محمد عبدالرحمن عوض ٢٧١.

ولله دَرُّ القائل:

لا تَظْلِمَنَّ إذا ما كُنْتَ مُقْتَدِرًا ... فالظُّلمُ آخِرُهُ ياتِيكَ بِالنَّدَمِ

نَامَتْ عُيُونُكَ والمظلُومُ مُنتبِهٌ ... يَدْعُو عَلَيْكَ، وَعَيْنُ اللهِ لم تَنَمِ

وقيل:

يا أيها الظَّالمُ في فعلِهِ ... فالظُّلمُ مردودٌ على من ظَلَمْ

إلَى مَتَى أنتَ وحتَّى متى ... تَسْلُو المُصيباتِ وتنسى النِّقَمْ

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الحث على الدعاء وبيان فضله:

مما لا شك فيه أن الدعاء من أجلّ أنواع العبادات لما فيه من إلقاء الهمِّ على الرب لحسن الظن بالقرب (وهو إظهار غاية التذلل والافتقار إلى الله، والاستكانة له، وما شرعت العبادات إلا للخضوع للباري وإظهار الافتقار إليه)[1]، ومن أجل ذلك حث الحق -تبارك وتعالى- عليه، وأمر به في نص الحديث فقال "فاستهدوني أهدكم..." وقال: فاستطعموني أطعمكم. وقال: فاستكسوني أكسكم، وقد أكد الحق تبارك وتعالى على الدعاء وأهميته، فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[3] (وهذا من فضله تبارك وتعالى وكرمه؛ أنه ندب عباده إلى دعائه، وتكفل لهم بالإجابة، وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

الله يغضب إن تركت سؤاله ... وبُنَيُّ آدم حين يُسألُ يغضب)[4]

وقد أكد النبي ﷺ على أهمية الدعاء ووجوب القيام به فقال: ((الدُّعَاءُ هُوَ

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٩٨/١١.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٨٦.

(٣) سورة غافر، آية: ٦٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٥٣/٧.

العِبَادَةُ))[1] وقال: ((لاَ يَرُدُّ القَضَاءَ إلاَّ الدُّعَاءُ))[2] وقد رغب النبي ﷺ في القيام به فقال: ((لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى الله تَعَالَى مِنَ الدُّعَاءِ))[3] وقال ((مَا عَلَى الأَرْضِ مُسْلِمٌ يَدْعُو الله تَعَالَى بِدَعْوَةٍ إلاّ آتَاهُ الله إيَّاهَا أوْ صَرَفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا مَا لَمْ يَدْعُ بمأْثَمٍ أَوْ قَطِيعةِ رَحِمٍ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: إذًا نُكْثِرُ. قَالَ: الله أكْثَرُ))[4] (فالدعاء إن صادف خشوعًا في القلب، وانكسارًا بين يدي الرب، وذلاً له وتضرعًا ورقة، واستقبل الداعي القبلة وكان على طهارة، ورفع يديه إلى الله، وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ثنى بالصلاة على محمد عبده ورسوله ﷺ، ثم قدم بين حاجته التوبة والاستغفار، ثم دخل على الله، وألح عليه المسألة، وتملّقه ودعاه رغبة ورهبة وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقدَّم بين يديْ دعائه صدقة، فإن الدعاء لا يكاد يُرد أبدًا)[5].

فالدعاء أفضل العبادات لأن من خلاله تظهر عبودية الإنسان وانكساره أمام خالقه سبحانه، ويضرع المؤمن إلى ربه يرجو رحمته ويخاف عذابه، ويسأله من فضله سبحانه، ولاشك أن فضل الدعاء واسع، لا يمكن أن نستقصيه في هذا المجال، ولكن حسبنا في ذلك أن الله تعالى أمر عباده المؤمنين بالدعاء ووعدهم بالاستجابة فينبغي إخلاص الدعاء لله تعالى وحضور القلب.

إن الدعاء هو سبيل القوة الحقة، فلا يقضي على النفس ويوردها موارد التهلكة كإحساسها بالضياع وفقدان السند المعين واليد الحانية، إنه إحساس يأتي على كل ما فيها من قوة وثقة وعزيمة على السير إلى نهاية الطريق، وهو سر ما تعانيه المجتمعات الملحدة من كثرة حوادث الانتحار وضحايا القلعة والصرع والجنون، رغم ما تنعم به من متعة وراحة مادية في الحياة، وفي إحساس المؤمن بحفظ الله ورعايته، وأنه يستمع إليه

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، ٧١٤ وصححه الألباني (صحيح الأدب المفرد ٥٥٠).

(٢) أخرجه الترمذي ٢١٣٩، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٧٣٨).

(٣) أخرجه الترمذي ٣٣٧٠، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٦٨٤).

(٤) أخرجه الترمذي ٣٥٧٣، قال الألباني: حديث حسن صحيح (صحيح سنن الترمذي ٢٨٢٧).

(٥) الداء والدواء، ابن القيم، ٢٧-٢٨.

إذا شكا، ويجيبه إذا دعا ويأخذ بيده إذا كبا ويمده إذا ضعف ويغنيه إذا احتاج؛ إحساس يملأ النفس سكينة وراحة، ويخلق فيها القوة الحقة، والعزم والثقة والرضا[١].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الحث على الاستغفار وبيان فضله:

للاستغفار فضل عظمي، وأثر كبير في مغفرة الذنوب، وتفريج الكروب، وجلب الأرزاق، وقد أمر به تعالى في نص الحديث فقال "فاستغفروني أغفر لكم" وفي ذلك تأميل الراجين، وتأنيس المذنبين، بمغفرة الغفور الرحيم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢] وقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٣] وقال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٤] ومن أجل ذلك أمر تعالى عباده بالاستغفار فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٥] وقال: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٦] وهو سبب رفع العذاب لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[٧].

وبالاستغفار تكون الرحمة من الله تعالى، والإمداد بالأموال والأولاد، قال تعالى حكاية عن نبيه نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾[٨].

---

(١) منهج القرآن في التربية، محمد شديد، ص ٢٢٤، ٢٢٥.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٧٣.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٦٨.

(٤) سورة الحجر، آية: ٤٩.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٩٩.

(٦) سورة آل عمران، آية: ١٣٣.

(٧) سورة الأنفال، آية: ٣٣.

(٨) سورة نوح، الآيات: ١٠-١٢.

وقد حث النبي ﷺ على الاستغفار وأهمية لزومه، فقال: ((إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَىٰ قَلْبِي. وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللّهَ، فِي الْيَوْمِ، مِائَةَ مَرَّةٍ))[1] وقال ﷺ: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَىٰ اللّهِ. فَإِنِّي أَتُوبُ، فِي الْيَوْمِ، إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ))[2] وقال ﷺ: ((واللّهِ إني لأستغفرُ اللّهَ وأتوبُ إليه في اليوم أكثرَ من سبعينَ مرَّة))[3] (واستغفاره ﷺ تشريع لأمته)[4]، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ((إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مَائَةَ مَرَّةٍ: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ))[5] قال النووي: (ونحن إلى الاستغفار والتوبة أحوج، وللتوبة ثلاثة شروط: أن يقلع عن المعصية، وأن يندم على فعلها، وأن يعزم عزمًا جازمًا أن لا يعود إلى مثلها أبدًا، فإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فلها شرط رابع وهو: رد الظلامة إلى صاحبها أو تحصيل البراء منه)[6]، وفي ذلك بيانٌ على أهمية الاستغفار وضرورة الحث عليه، (فعن بعض الأعراب أنه تعلق بأستار الكعبة وهو يقول: اللهم إن استغفاري مع إصراري لؤم، وإن تركي الاستغفار مع علمي بسعة عفوك لعجز، فكم تتحبب إلي بالنعم مع غناك عني، وأتبغض إليك بالمعاصي مع فقري إليك، يا من إذا وعد وفى، وإذا توعد تجاوز وعفا، أدخل عظيم جرمي في عظيم عفوك يا أرحم الراحمين)[7].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: بيان غنى الله تعالى عن عباده:

(فالله هو الكامل بما له وعنده فلا يحتاج معه إلى غيره، وربنا جل ثناؤه بهذه الصفة -أي الغنى- لأن الحاجة نقص، والمحتاج عاجز عن ما يحتاج إليه إلى أن يبلغه

---

(١) أخرجه مسلم ٢٧٠٢.

(٢) أخرجه مسلم ٢٧٠٢.

(٣) أخرجه البخاري ١٣٠٧.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ١١/١٠٥.

(٥) أخرجه أبو داود ١٥١٦، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٣٤٢).

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٩٢.

(٧) الأذكار، النووي، ٤٥٢.

ويدركه، وللمحتاج إليه فضل بوجود ما ليس عند المحتاج، فالنقص منفي عن القديم بكل حال، والعجز غير جائز عليه ولا يمكن أن يكون لأحد عليه فضل إذ كل شيء سواه خلق له وبدع أبدعه لا يملك من أمره شيئًا، وإنما يكون كما يريد الله عز وجل، ويدبره عليه، فلا يتوهم أن يكون له مع هذا اتساع لفضل عليه)[١]، وهذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله تعالى: "لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا..." فالله غني عن عباده لقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[٢] أي: (إن ملكه جميع الأشياء وهو الغني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، وعبد لديه)[٣]، (فالله عز وجل لا ينتفع بأحد ولا يتضرر بأحد لأنه غني عن الخلق جل وعلا، وإنما خلق الخلق لحكمة أرادها تبارك وتعالى؛ خلقهم لعبادته)[٤].

سادسًا- من أساليب الدعوة: التمثيل لتقريب الأفهام:

قد ورد هذا الأسلوب الدعوي المهم في تقريب الأفهام من الحديث في قوله تعالى في الحديث القدسي: "ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر" قال النووي: (إن المقصود من ضرب المثل بالمخيط في البحر هو تقريب الأفهام بما شاهدوه في البحر من عِظَم، وفي الإبرة من صغر)[٥].

ومما لاشك فيه أن التمثيل لتقريب الأفهام من أساليب الدعوة المهمة التي اعتبرها الشرع الحنيف، وأكثر القرآن من ذكرها، كما قال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٦] وقال جل ذكره: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[٧].

---

(١) كتاب الأسماء والصفات، أحمد بن حسين البيهقي ٧٥/١، وقد نقله عن الحليمي.

(٢) سورة لقمان، آية: ٢٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٩٣/١٠.

(٤) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين، ٣٤٦/١.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٥٤٣.

(٦) سورة النور، آية: ٣٥.

(٧) سورة إبراهيم، آية: ٤٥.

فعلى الداعية أن يضرب الأمثال لبيان المعاني، وتوضيحها في الأذهان، حتى يكون المدعو على بينة من أمره، وهذا مما يسهم في نجاح الداعية في دعوته، ويعمل على إزالة اللبس والغموض.

سابعًا- من موضوعات الدعوة: مراقبة الله في الأعمال:

من أسماء الله تعالى الرقيب، قال الحليمي: (هو الذي لا يغفل عما خلق فيلحقه نقص أو يدخل عليه خلل من قبل غفلته عنه، وقال الزجاج: الرقيب الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء، ومنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[(1)])[(2)]، وقد ورد ذلك في الحديث من قوله تعالى: "إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها" قال السعدي: (فالله هو الرقيب المطلع على العباد في حركاتهم وسكونهم وسرهم وعلنهم وجميع الأحوال مراقبًا لهم فيها، مما يوجب على العباد مراقبته، وشدة الحياء منه بلزوم تقواه. وفي ذلك قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[(3)])[(4)]. أي حافظًا عليما[(5)].

ثامنًا- من أهداف الدعوة: بيان رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين:

إن مما يستفاد من عموم هذا الحديث القدسي بيان رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين، أن حرّم الظلم على نفسه، وجعله محرمًا بينهم، وهداهم إلى الطريق المستقيم، وأنعم عليهم بنعمه التي لا تعد ولا تحصى، ومن تلك النعم أن منّ عليهم

---

(١) سورة ق، آية: ١٨.

(٢) الأسماء والصفات، البيهقي ١٣٨/١.

(٣) سورة النساء، آية: ١.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١٢٩.

(٥) انظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي، ص ٢٠٨.

بالطعام والشراب، وكسا عريهم، وتفضل عليهم بالعفو والمغفرة والتجاوز عن الهفوات والزلات، فالله تعالى واسع الفضل، يغفر الذنوب ويستر العيوب، وهو الغني عن عباده، وهو المطلع عليهم المُحصي لأعمالهم وإن من أوجب الواجبات شكر المنعم سبحانه على تفضله وإنعامه ولزوم التوبة والاستغفار ومحاسبة الإنسان لنفسه قبل أن يحاسب ومراقبة الله في السر والعلن ورجاء رحمته سبحانه.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

تأخذ التربية في الإسلام مظاهر شتى منها:

أولاً- التربية بالترهيب:

يظهر هذا الأسلوب في الحديث القدسي الذي رواه النبي عن ربه عز وجل، يقول الله تعالى: «مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ»، وفي هذا الحديث ترهيب من الله تعالى لعباده أن يعادوا أولياءه ويؤذوهم، وأعظم بها من رهبة تقع في نفوس المتلقين، والمقدمين على إيذاء عباد الله الصالحين، حين يعلمون أنهم بذلك يحاربون الله تعالى! وأي قوة لهم تعصمهم من الله؟ وأي عدة وأي عتاد ذلك الذي يقف أمام الجبار المنتقم سبحانه؟

واحترام أولياء الله الصالحين، من قضى منهم ومن بقي حياً أمر واجب على كل مسلم، فإن هؤلاء عظموا الصلة بالله تعالى، وقد لا تكون لهم قوة ظاهرة، بل إن مظهرهم قد يكون الضعف والاستسلام، مما يجرئ السفهاء عليهم، فما جزاء هؤلاء السفهاء إلا أن يفاجئوا بقوة خارقة لهؤلاء، تردعهم وتوقفهم عند حدودهم، إنما قوة الله تعالى، الذي يوعد من اجترأ على هؤلاء بالحرب والنكال.

ولقد أكد التربويون على أن من عوامل نجاح الترهيب مصدر هذا الترهيب، فكلما كان المصدر قوياً كان للترهيب أثره عند الإنسان[1]، وأي مصدر أقوى وأكثر تخويفاً للإنسان من ربه عز وجل؟.

ثانياً- التربية بالترغيب:

لقد استخدم النبي ﷺ هذا الأسلوب التربوي، من أجل حث المسلمين على عبادة الله وطاعته، ففي الحديث: يبين جزاء التقرب إلى الله تعالى بالنوافل يقول ﷺ فيما يرويه عن ربه تعالى: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ»، ويقول عليه السلام فيما يرويه عن رب العزة سبحانه وتعالى: «إِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي شِبْراً، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً ....»،

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ص٣٩٥.

ويقول: "عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لله، فَإِنَّكَ لَنْ تَسْجُدُ لله سَجْدَةً إِلاَّ رَفَعَكَ اللهُ بِهَا دَرَجَةً....".

ولا يخفى على ذي بصيرة أن طاعة العبد فيما يؤمر تكون آكد وأقرب إلى قلبه إذا علم جزاءها عند الله، ولهذا استخدم النبي ﷺ أسلوب الترغيب، فما أعز على قلب المؤمن إذا علم أن الله يحبه! وما أسماها غاية يتطلبها أن يتقرب إليه الله كما يتقرب هو إلى الله تعالى! وما أحب إلى نفسه أن تُغفر له خطيئته ! ولهذا تراه يرغب في العمل من أجل ما سيلقاه من الجزاء عند الله تعالى، ويسعى لينفذ أوامر الله ويتقرب إليه بالنوافل الزائدة على الفرائض المكتوبة.

(ولما كان الإسلام هداية للناس أجمعين، وواقعياً في جوانبه العملية، كانت الواقعية فيه تتطلب إيجاد عنصر الترغيب في وسائله التربوية للناس، وذلك في كل ما يهديهم إلى الخير ويدعوهم إلى الفضيلة.... وليس بغريب أن تكون التربية الترغيبية هي الأساس والعنصر الذي يقوم عليه الإصلاح الإسلامي.... فهي تعتبر أساساً محدداً لبناء شخصية الفرد، تلك الشخصية التي تهب نفسها لله تعالى في قيامها وجلوسها..)[1].

ثالثاً- التربية بالقدوة:

الرسول ﷺ قدَّم للمتربين قدوة في سلوكه وأعماله وعبادته، ولم يكتفِ بالتوجيه والوعظ فقط؛ فكان يُرِي الصحابةَ الكرام منه المثل الأعلى الذي يتأسون به، فإنه -فيما ترويه عائشة[2] يروي أنه صلىﷺ صلى بهم صلاة فقرأ البقرة والنساء وآل عمران، وأطال الركوع والسجود، وكذلك فإن هذا المثل قدَّمه لعبدالله ابن مسعود ﷺ، حين طالت الصلاة، فهمَّ عبدالله بن مسعود ﷺ أن يترك الصلاة لطولها.

لقد أراد النبي أن يربي صحابته بالقدوة؛ حتى يكون مثلاً أعلى لهم يتأسون به

---

(١) تربية الأبناء والبنات، خالد العك، ص١٨٧.

(٢) كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، وعندما سألته عن ذلك الاجتهاد، وقد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال: "أَفَلاَ أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً؟".

وقد ثبت أنه ﷺ كان في العشر الأواخر من رمضان يزداد عملاً واجتهاداً.

ويقتدون؛ ورغم أن ذنوبه مغفورة، إلا أنه ظل على عبادته وتقواه؛ ليكون ذلك نبراساً للمسلمين جميعاً: أن يجتهدوا في العبادة والطاعة.

إن القدوة الطيبة "هي أعظم المعينات على تكوين العادات الطيبة، حتى إنها لتيسر معظم الجهد في كثير من الحالات؛ ذلك أن المرء يحب المحاكاة من تلقاء نفسه.... إن المناهج التربوية تظل حبراً على الورق، حتى تتحول إلى حقيقة واقعة تتحرك في واقع الأرض، وما لم تتحول إلى بشرٍ يترجم بسلوكه وتصرفاته مبادئ المنهج ومعانيه فإنها تبقى نظريات"[1].

رابعاً- التربية بالتوجيه المباشر:

وقد استخدم النبي ﷺ هذا الأسلوب في عدة أحاديث في هذا الباب، وذلك يجسد الأساس التربوي الأول للنبوة، ألا وهو التبليغ عن الله عزوجل، وفي هذا الأسلوب يوجه النبي ﷺ الأمر أو النهي أو غير ذلك إلى المتربين مباشرة، يقول ﷺ: "احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللّهِ. وَلاَ تَعْجِزْ ..."، ويقول: "يتبع الميت ثلاثة ..." ويقول ﷺ: "خَيْرُ النَّاسِ: مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ".

وبهذه الطريقة يصل المطلوب إيصاله إلى عقول المتلقين بأيسر السبل وأقصرها، وهذه الأمثلة للتربية بالتوجيه المباشر، يحاول فيها "تصحيح الأخطاء، والحث على صالح العمل، وتحويل طاقات الإنسان نحو الفضائل، واستثمار قدراته بجوانب الخير، وجعل ذلك عادة مستديمة له"[2].

خامساً: التربية العقدية:

من أساسيات التربية الأساسية الاهتمام بالجانب العقدي للمسلم، ومن الجوانب العقدية في أحاديث هذا الباب: الإيمان بالقضاء والقدر، يقول ﷺ: "إِنْ أَصَابَكَ شَيءٌ فلا تَقُلْ لو أَنّي فعلتُ كذا وكذا. ولكن قل: قَدَّرَ اللّهُ ..."، تلك هي عقيدة المؤمن في قضاء الله وقدره، أن يؤمن بأن كل شيء بيد الله، وما أشد ارتياحه وسكينته إذا

---

(١) تربية الطفل في الإسلام، د. أحمد محمود الحمد، ص١٨٥ بتصرف.

(٢) أساليب الدعوة والتربية، زياد العاني، ص ٢٨٨.

تحلّى بالإيمان بقدر الله، وأنه متصرف في كل شيء، وأنه ما مُنِع الإنسان الخير إلا لحكمة يعلمها الله، وأنه ربما ابتلي بشيء يحسبه شراً، وفي أعطافه الخير الجزيل في الدنيا والآخرة!

والإيمان بالقدر يقوي عزم الإنسان؛ فالمؤمن إذا ناقش الأمور ورجَّح بينها واستشار غيره، واستخار ربه، يمضي فيما عزم عليه دون تردد أو خوف، فهو يدرك يقيناً بأن جميع الأحداث الواقعة تكون في علم الله وبقدره... ولن يندم أو يتحسر على ما فات(١).

سادساً: التربية بذكر القصة:

إن لهذا الأسلوب التربوي فائدة كبيرة، فإنه ينقل إلينا كثيراً من صور الحياة عند الصحابة، وكيف كانوا يتصرفون في أمورهم وحياتهم، وفي هذا الباب وردت قصة أنس بن النضر رضي الله عنه وغيابه عن غزوة بدر، ومشاركته في غزوة أحد، وكيف كانت نهاية جهاده في سبيل الله وصدقه: أن نال الشهادة في سبيل الله تعالى.

ومن خلال هذا الباب أيضاً ترد قصة أخرى للرجل الذي تصدق بصدقة كبيرة، فقال المنافقون: مُراءٍ، وجاء غيره فتصدق بالقليل، فقالوا: الله غني عن ذلك، فنزل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾ الآية(٢).

إن هاتين القصتين تحملان صورتين من صور صحابة رسول الله ﷺ؛ أولاهما: تجسد روح المجاهدة في سبيل الله، وترسم قدوة حسنة لجهاد الصحابة وإخلاصهم في الحرب ضد المشركين، وتعكس ثواب الله تعالى للمجاهدين، أما الثانية: فإنها تمثل كيف كان الصحابة الكرام يسارعون في الإنفاق في سبيل الله ويجودون بما في أيديهم قليلاً كان أو كثيرًا. ففي القصتين تربية للمؤمنين وأي تربية؟

ولهذا الأسلوب التربوي أثر في النفس، كما لو كان يقع للقارئ أو المستمع ذاته، وهذا التأثير للقصة يقع عن طريقين اثنين: أولهما: المشاركة الوجدانية، فالمستمع يتابع

---

(١) التربية الإسلامية، "مصادرها وتطبيقاتها"، د. عماد محمد عطية، ص٧٥، ٧٦ بتصرف.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧٩.

الأشخاص ويتفاعل معهم، والطريق الثاني: أن يضع المتلقي نفسه مكان الأشخاص، فإن كانوا في موضع الرفعة والتميز، تمنى لو كان في موقفهم، وإن كانوا في موقف يثير الازدراء والكراهية حمد لنفسه أنه ليس كذلك، وبهذا تؤثر القصة تأثيراً توجيهياً، يرتفع بقدر ما تكون القصة بليغة ومؤثرة[١].

سابعاً- التربية الإيمانية:

من جوانب التربية الرئيسة في هذا الباب التربية الإيمانية، وفيها تقوية للإيمان بالله تعالى، واليقين بقدرته، وغناه، ويقول ﷺ فيما يرويه عن رب العزة تبارك وتعالى: «يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ . فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ ... يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ. ... لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي ... لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، ... كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ ... مَا زَادَ ذَٰلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً ... لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ. وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ ... فَسَأَلُونِي. فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ. مَا نَقَصَ ذَٰلِكَ مِمَّا عِنْدِي».

ذلك الحديث يجسد عظمة الله تبارك وتعالى، وقدرته المطلقة على كل شيء، فهو يعطي ويمنع، ولا يفقره رزقه لنا، ولن تزيد ملكه عبادتُنا، ولن ينقصها معصيتنا، إنها قدرته تعالى، واستغناؤه التام عن عباده، بل هم المحتاجون إليه في كل وقت وحين، هو صاحب الفضل عليهم، وهم عباده الأذلاء المحتاجون.

وتعظيم الله تعالى ومعرفة قدره "هو الأساس الذي تتفرع منه سائر فروع الاعتقاد ... وحين يستقر تعظيم الله تبارك وتعالى في النفس، ويملك صاحبه العلم الصحيح فإنه يسلم له اعتقاده، فلا يتردد في تصديق كتابه وسنة نبيه، والتزام الأوامر وترك المنهيات، ولا يتعلق قلبه بغير الله، ولا يتجه لمخلوق، فيصفو اعتقاده، ويستقيم عمله، ويجعل للمخلوقين منزلتهم التي يستحقونها"[٢].

---

(١) منهج التربية في التصور الإسلامي، د. علي أحمد مدكور، ص٤٤١، ٤٤٢ بتصرف.

(٢) تربية الشباب، محمد الدويش، ص٥٤ بتصرف يسير.

ثامناً: تصحيح مفهوم الولاية في الإسلام وفتح هذا الباب لكل مجتهد، وإبطال كون الولاية نسباً أو مصاهرة بل هي عمل ومجاهدة، فكل من يتولى أوامر الله ونواهيه بمعانيها الواسعة، فهو ولي الله، فإن لازم على ذلك فالله يتولى أمره.

والسبيل إلى ولاية الله تكون بما شرعه الله لا بما ابتدعه الناس، وذلك بالقيام بالتكاليف الشرعية، وإتباع ذلك بالسنة والتي تجبر القصور في الفرائض.

تاسعاً: مما ينبغي تربية أولادنا عليه فضلاً عن إلزام أنفسنا به:

القوة واستشعار العزة ورفض الدونية، وقد صرح الرسول ﷺ بقوله: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف)، وجاء النص مطلقاً لتذهب النفس فيه كل مذهب في حدود المشروع، فقوة الفكر والعلم والبدن والتملك والحجة والجدل كل ذلك من القوة المحمودة التي توظف لخدمة الإسلام.

والمسلم مطالب بترك الشك واللجوء إلى اليقين، لأن فتح باب الشك لن يفضي إلى خير، وسيجعل صاحبه محل تردد وعدم استقرار.

إن رسول الله ﷺ كان يستخدم "لو" في بعض الأحاديث لا على سبيل الشك والتردد، بل على سبيل الاسترجاع أو الإخبار، وكم ورد عنه "لو أن قومك حديثوا عهد بالجاهلية..."، وعندما ذكر حِلف الفضول قال: "ولو دعيت به في الإسلام لأجبت".

إن من منهج الإسلام تعليم أبنائه على مراجعة النفس فيما مضى، والنظر في نتائج المراجعة، بشرط أن لا يقف الإنسان إلى جواره يبكي حاله ويشكو أمره، لأن عجلة الحياة تدور، والوقوف عند حد الماضي يجعل القاطرة تدوس من يقف في طريقها، وهذا من عمل الشيطان الذي يجعل الإنسان يضيع وقته وعمره في علة السببية.



١٢- باب الحث على الازدياد من الخير في أواخر العمر

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧] قَالَ ابن عباس والمُحَقِّقُونَ: معناه أَو لَمْ نُعَمِّرْكُمْ سِتِّينَ سَنَةً؟ وَيُؤَيِّدُهُ الحديث الَّذي سنذْكُرُهُ إنْ شاء اللَّه تَعَالَى، وقيل: معناه ثماني عَشْرَة سَنَةً، وقيل: أرْبَعينَ سَنَةً، قاله الحسن والكلبي ومسروق ونُقِلَ عن ابن عباس أيضًا. وَنَقَلُوا أنَّ أَهْلَ المدينَةِ كانوا إذَا بَلَغَ أَحَدُهُمْ أربْعينَ سَنَةً تَفَرَّغَ للعِبادَةِ، وقيل: هُوَ البُلُوغُ. وقوله تَعَالَى: ﴿وجَاءكُمُ النَّذِيرُ﴾ قَالَ ابن عباس والجمهور: هُوَ النَّبيّ ﷺ، وقيل: الشَّيبُ، قاله عِكْرِمَةُ وابن عُيَيْنَة وغيرهما. واللَّه أعلم.

وأمَّا الأحاديث:

الحديث رقم (١١٢)

١١٢- **فالأوَّل:** عن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**أعْذَرَ اللَّهُ إلى امْرِىءٍ أخَّرَ أجلَه حتى بلَغَ سِتِّينَ سنةً**» رواه البخاري[1].

قال العلماءُ معناه: لَمْ يتْرِكْ لَه عُذْرًا إذ أمْهلَهُ هذِهِ المُدَّةَ. يُقال: أعْذَرَ الرَّجُلُ إذا بلغ الغاية في العُذْرِ.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

أعذر الله إلى امرىء: فسّره النووي، وفي النهاية: حيث أمهله هذه المدة ولم يعتذر[2].

---

(١) برقم (٦٤١٩). أورده المنذري في ترغيبه (٤٩٢١).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ذ ر).

الشرح الأدبي

إن البيان النبوي في إيجازه تتسع مسافات الرؤى والأفكار، وفي إطنابه تتجمع آفاق الحياة وتتلاقى أرجاء الأقطار، ولا يعرف التاريخ غير محمد ﷺ -كما يقول الرافعي- رجلاً أفرغ الله وجوده في الوجود الإنساني كله، كما تنصب المادة في المادة، لتمتزج بها، فتحولها، فتحدث منها الجديد، فإذا الإنسانية تتحول به وتنمو بهديه وتعاليمه، والإنسانية قطعت دهرها بين اثنين: أحدهما: فتح لها طريق المجيء من الجنة، والثاني: فتح لها طريق العودة إليها مع الذين سبقوه من الأنبياء والرسل عليهم السلام.

كان في آدم سر وجود الإنسانية، وكان في محمد سر كمالها[1].

في ظلال هذه المعاني نستروح نسمات الرشاد والهدى التي تهب علينا من أجواء هذا الحديث الشريف الموجز، لأن الإنسان في حياته لا يشعر بكَرٍّ الليالي وتعاقب الأيام.

والمصطفى ﷺ ينبه كل الغافلين الذين استهوتهم مغريات الحياة، حتى هزمهم الشيب، ولم يأخذوا من شبابهم لهرمهم، ولا من صحتهم لسقمهم، ولم يتأملوا قول المصطفى ﷺ: ((نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ))[2].

هؤلاء الغافلون ينبههم النبي ﷺ في هذا الحديث الذي يفتتح به صاحب رياض الصالحين باب في الحث على الازدياد من الخير في أواخر العمر، ويأتي هذا التنبيه في صورة إنذار موجز حيث يقول في بلاغة وإيحاء: "أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلغ ستين سنة".

والمعنى الذي نقتبسه من هذا الحديث الشريف هو أن الله لم يترك لهذا الصنف من الناس عذرًا للندم وهو لا يندم ولا يتوب، حيث أمهله هذه المدة وأطال عمره وعاش الرجل ستين سنة، وهو لم يبادر بالأعمال الصالحة، ولم يدرك أنه لا ينتظر بعد ذلك أو قبل ذلك، إلا فقرًا منسيًا أو غنى مطغيًا، أو مرضًا مفسدا، أو هرمًا مفندا، أو موتًا

---

(١) انظر: الرافعي، وحي القلم، ج٢.

(٢) أخرجه البخاري ٦٤١٢.

مجهزا، أو الدجال أو الساعة.

وقيل إن هذا التعبير في قوله: "أعذر الله إلى امرئ..." الحديث، فيه حث على إدراك ما فات من الطاعة والمبادرة بالأعمال الصالحة، والتوبة النصوح قبل فوات الأوان، فلم يعد أمام الإنسان عذر بعد الستين يبعده عن دائرة الطاعة: فقد حل به النذيران: الشيب والهرم، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾[1]، وقال بعض العلماء: طول العمر حجة، فنعوذ بالله أن نغتر بطول العمر، وكل ما أتى به الإسلام من عقائد وعبادات ومعاملات يملأ الفراغ في حياة المسلم فالصلاة ميزان إيماني لكل مواقيت الحياة، وهي تنهي عن الفحشاء والمنكر، والصوم سر بين العبد وربه، وهو إحساس بالزمن الذي خلقه الله، وامتثال لأمر الله تعالى في تنظيم ذلك الزمن بما يعود بالنفع على الإنسان: صحيًا واجتماعيًا وروحيًا، والزكاة مظهر من مظاهر الشكر على نعم الله تعالى، وتعاطف بين أفراد الأمة، والحج تاج المسلم، ومعرفته ببينة الإسلام الأولى، معرفة إيمانية يقينية. وهل لإنسان عذر إذا بلغ الستين ولم يذق حلاوة هذه العبادات...!!!؟

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: إقامة الحجة من الله تعالى على العباد.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: اغتنام الأجل في طاعة الله تعالى.

رابعًا: من مهام الداعية: بيان الحقائق للناس.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

قد جاء الحديث بصيغة الإخبار ليقرر حقيقة تكون حجة على المدعوين، ويثبت في أفئدتهم هذه الحقيقة، بحيث لا يكون أدنى شك عندهم في ثبوتها والجزاء عليها، وهذا الإخبار أبلغ في إيصال الرسالة الدعوية إلى المدعوين من أي أسلوب أخر، فهو

---

(١) سورة فاطر، آية: ٣٧.

إخبار بمعنى الترهيب والتحذير لكي ينتبه المدعوون إلى نعمة الله تعالى عليهم في أعمارهم وأوقاتهم وأنهم مسؤولون عن ذلك ومحاسبون عليه وخاصة من امتد به العمر إلى الستين عامًا.

إن أسلوب الإخبار وإعلام الناس بالحقائق خاصة الدينية منهامن أهم وظائف الداعية ومهامه، فما أحرى بالدعاة بتوطين النفس على مواجهة المصاعب والمتاعب في سبيل قيامهم مقام الرسل في تبليغ الدعوة، فعلينا معاشر المسلمين -خاصة الدعاة منا- أن نبلغ بديننا مشارق الأرض ومغاربها، وعندئذ فقط يحق لنا أن نردد باطمئنان قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾[1] وسبيلنا في ذلك هو سبيل المصطفى ﷺ إعلام وإخبار ينطلق من القرآن يلتزم الصدق ويرتبط بالحق لا خضوع فيه لغير الله، يعتمد على المكاشفة والمصارحة في العرض والإنصاف في المجادلة[2].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: إقامة الحجة من الله تعالى على العباد:

إن من لطف الله تعالى بالخلق، أن أعذرهم وأنذرهم ببلوغ الستين من الأجل، (فطول العمر حجة من الله على العباد)[3]، وهذا ما أكده نص الحديث في قوله ﷺ أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلغ ستين سنة.

قال ابن حجر: (قوله "أعذر الله" الإعذار إزالة العذر، والمعنى أنه لم يبق له اعتذار كأن يقول لو مد لي في الأجل لفعلت ما أمرت به، يقال أعذر إليه إذا بلغه أقصى الغاية في العذر ومكنه منه. وإذا لم يكن له عذر في ترك الطاعة مع تمكنه منها بالعمر الذي حصل له فلا ينبغي له حينئذ إلا الاستغفار والطاعة والإقبال على الآخرة بالكلية، ونسبة الإعذار إلى الله مجازية، والمعنى: أن الله لم يترك للعبد سببًا في الاعتذار يتمسك به. والحاصل أنه لا يعاقب إلا بعد حجة...، وقال ابن بطال: إنما كانت الستون حدًا لهذا

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ١٠٩.

(٢) وظيفة الإخبار في سورة الأنعام، د. سيد محمد ساداتي الشنقيطي، ص ١٠٧-١٠٨.

(٣) ذكره ابن كثير عن قتادة في تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٥٥٥/٦.

لأنها قريبة من المعترك، وهي سن الإنابة والخشوع، وترقب المنية فهذا إعذار بعد إعذار لطفًا من الله بعباده حتى نقلهم من حالة الجهل إلى حالة العلم، ثم أعذر إليهم فلم يعاقبهم إلا بعد الحجج الواضحة، وإن كانوا فطروا على حب الدنيا وطول الأمل لكنهم أُمروا بمجاهدة النفس في ذلك ليتمثلوا ما أمروا به من الطاعة وينزجروا عما نهوا عنه من المعصية)[1].

وقد بين ابن هبيرة: (أن في هذا الحديث من الفقه: أن العمر القصد الذي يتجاوز عن أم الشبيبة، ويسلم من توهين الهم، هو سن الكهول، ما بين الأربعين إلى الستين، فإذا أمهل الله عبده حتى جاوز زمن الصبى والحداثة، وسن الشبيبة، ودخل في الكهولة، فقد أعذر إليه؛ لأنه لا يبقى بعد هذا من العمر إلا ما لا يؤثر فيه النقص، ويستولي عليه الضعف، فلا يكون تركه ما يترك عن قدرة عليه، بل عن عجز عنه، ولا يأخذ ما يأخذ إلا (اضطرارًا به)[2].

وفي ذلك بيان على إقامة الحجة الكاملة من الله تعالى على عباده، وكيف لا وهو القائل: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾[3] (أي الحجة التي تقطع عذر المحجوج وتزيل الشك عما نظر فيها)[4].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: اغتنام الأجل في طاعة الله تعالى:

يستنبط ذلك من عموم الحديث، قال ابن حجر: (وفي الحديث إشارة إلى أن استكمال الستين مظنة لانقضاء الأجل. وأصرح من ذلك ما أخرجه الترمذي بسند حسن إلى أبي سلمة بن عبدالرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنه رفعه ((أعمار أمتي ما بين الستين إلى

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٢٤٤/١١.

(٢) وقد ورد في المطبوع من الإفصاح بلفظ "إضرارًا"، وما أثبتناه هو الأنسب في رأينا. والله أعلم. الإفصاح ٣٢٧/٧-٣٢٨.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٤٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢٨/٧/٤.

السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك))[1] قال بعض الحكماء الأسنان أربعة سن الطفولية، ثم الشباب، ثم الكهولة، ثم الشيخوخة وهي آخر الأسنان، وغالب ما يكون ما بين الستين والسبعين فحينئذ يظهر ضعف القوة بالنقص والانحطاط، فينبغي له الإقبال على الآخرة بالكلية لاستحالة أن يرجع إلى الحالة الأولى من النشاط والقوة)[2].

وهذا ما أمر به الحق تبارك وتعالى في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[3].

ولقد حث النبي ﷺ على اغتنام الأجل في طاعة الله لما في ذلك من ربح وفلاح فقال: ((اغتَنمْ خمسًا قبل خمس: شبابَك قبل هَرَمِكْ، وصحتَك قبل سَقَمِك، وغِناك قبل فقرِك، وفراغَك قبل شغلِك، وحياتَك قبل موتِك))[4]. وقال ((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ. يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا. أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا. يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا))[5]، (وفي ذلك حثٌّ منه ﷺ على العبادة في الأعمال، وضرورة اغتنام الأجل في طاعة الله تعالى)[6].

(فالزمن نعمة جُلَّى ومنحة كبرى، لايدريها ويستفيد منها كل الفائدة إلا الموفقون الأفذاذ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((نعمتان مغبون فيهما كثير

---

(١) أخرجه الترمذي ٣٥٥٠، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٨١٥).

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٢٤٤/١١.

(٣) سورة المنافقون، الآيتان: ٩-١٠.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٩٧١٦، وقال حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٥) أخرجه مسلم ١١٨.

(٦) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٦٨.

من الناس: الصحة والفراغ)[1] فأفاد الحديث أن المستفيدين من ذلك قِلَّة، وأن الكثير مفرط مغبون.

وقد كان السلف الصالح ومن سار على نهجهم من الخلف أحرص الناس على كسب الوقت وملئه بالخير، سواءٌ في ذلك عالمهم وعابدهم، فقد كانوا يسابقون الساعات، ويبادرون اللحظات، ضنًا منهم بالوقت، وحرصًا على أن لا يذهب منهم هدرًا.

نُقل عن عامر بن عبد قيس أحد التابعين الزهاد: أن رجلاً قال له: كلمني، فقال له: عامر بن عبد قيس: أمسك الشمس. يعني أوقف لي الشمس واحبسها عن المسير حتى أكلمك، فإن الزمن متحركٌ دائب المضي، لا يعود بعد مروره، فخسارته خسارة لا يُمكن تعويضها واستدراكها، لأن لكل وقتٍ ما يملأه من العمل.

قال الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسه، نقص فيه أجلي، ولم يزد فيه عملي. وقال الخليفة الصالح عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه: إن الليل والنهار يعملان فيك، فاعمل فيهما. وقال الحسن البصري رضي الله عنه: يا ابن آدم، إنما أنت أيام، فإذا ذهب يومٌ ذهب بعضك. وقال أيضًا: أدركتُ أقوامًا كانوا على أوقاتهم أشدَّ منكم حرصًا على دراهمكم ودنانيركم)[2].

وقال الذهبي: (قال عبدالرحمن بن مهدي: لو قيل لحماد بن سلمة: إنك تموت غدًا ما قدر أن يزيد في العمل شيئًا ... وقال موسى بن إسماعيل التبوذكي: لو قلت لكم: إني ما رأيت حماد بن سلمة ضاحكًا لصدقت، كان مشغولاً: إما أن يحدث، أو يقرأ، أو يسبِّح، أو يصلي، وقد قسَّم النهار على ذلك...، قال يونس المؤدب: مات حماد بن سلمة وهو في الصلاة، رحمةُ الله تعالى عليه.

وقال عفَّان: قد رأيت من هو أعبد من حماد بن سلمة، لكن ما رأيت أشد مواظبة على الخير، وقراءة القرآن، والعمل لله تعالى منه)[3].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٤١٢.

(٢) قيمة الزمن عند العلماء، عبدالفتاح أبو غدة، ١٧.

(٣) سير أعلام النبلاء، الذهبي ٤/٤٤٧-٤٤٨.

(فعلى المرء أن يغتنم أجله في طاعة الله ولا يخيل له أن الأيام ستفرغ له في المستقبل من الشواغل، وتصفو له من المكدِّرات والعوائق، وأنه سيكون فيها أفرغ منه في الماضي أيام الشباب، ولكن الواقع المشاهد على العكس من هذا أيها الأخ العزيز: كلما كبرت سنك، كبرت مسؤولياتك، وزادت علاقاتك، وضاقت أوقاتك، ونقصت طاقاتك، فالوقت في الكبر أضيق، والجسم فيه أضعف، والصحة فيه أقل، والنشاط فيه أدنى، والواجبات والشواغل فيه أكثر وأشد! فبادر ساعات العمر وهي سانحة، ولا تتعلق بالغائب المجهول، فكلُّ ظرفٍ مملوءٌ بشواغله وأعماله ومفاجآته.

ولما أدركت الشيخوخة وأمراضُها أبا عثمان الجاحظ الأديب المشهور، كان ينشد هذين البيتين متحسرًا متألمًا من تقاعد الضعف والكبر والمرض به:

أترجو أن تكون وأنت شيخٌ كما قد كنتَ أيامَ الشبابِ

لقد كذَبَتْك نفسُكَ ليس ثوبٌ دَرِيسٌ كالجديدِ من الثيابِ

فالعاقل الموفق من يملأ كل لحظة وثانية من حاضر عمره ووقته بفائدة أو عمل صالح، وقد كره عمر بن الخطاب ﷺ التعطل والبطالة وإضاعة الزمن سدى! فقال: إن لأكره أن أرى أحدكم سبهللاً - أي فارغًا - لا في عمل دنيا ولا في عمل آخرة!

ورحم الله الوزير الصالح والعلامة الفقيه الأديب الأريب: يحيى بن هبيرة، البغدادي الحنبلي، المولود سنة ٤٤٩، والمتوفى سنة ٥٦٠، شيخ الإمام ابن الجوزي، إذ يقول:

والوقتُ أنفَسُ ما عُنِيتَ بحِفظِهِ وأراهُ أَسهَلَ ما عليك يَضيعُ!)[١]

رابعًا- من مهام الداعية: بيان الحقائق للناس:

هذا ما ورد في الحديث من بيانه ﷺ على إقامة الحجة الكاملة من الله على العباد وعدم إبقاء عذر لمعتذر، فعلى الداعية أن يقتدي بالنبي ﷺ في بيان الحقائق للناس ممتثلاً في ذلك لقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[٢].

---

(١) قيمة الزمن عند العلماء، عبدالفتاح أبو غدة، ٧٩-٨٠.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

وفي الاقتداء بالنبي ﷺ الفائدة وكمال الأجر في إفادة المدعوين فيما غاب وخفي عنهم، خاصة وأن الإنسان قد ينخرط في مجالات الحياة وهو يركض وراء جمع المال، وتستهلكه رغباته الدنيوية التي لا تنقضي وقد يدركه الموت وهو على هذه الحالة، لذا فإنه من الأهمية بمكان أن يقوم الداعية ببيان الحقائق للمدعوين، ويستحثهم على المسارعة إلى اغتنام العمر في طاعة الله تعالى ومرضاته.

الحديث رقم (١١٣)

١١٣- الثاني: عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كان عمر رضي الله عنه يُدْخِلُنى مَع أشْياخ بْدرٍ، فَكأنَّ بعْضَهُمْ وجدَ فِي نفسه فقال: لِمَ تُدْخِلُ هَذا معنا ولنَا أبْنَاء مِثْله؟ فقال عمرُ: إنَّهُ من حيْثُ علِمْتُمْ، فدَعَانى ذاتَ يَوْمٍ فَأدْخلَنى معهُمْ، فما رأَيْتُ أنَّه دعانى يومئذٍ إلاَّ لِيُريهُمْ قال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ والْفَتْحُ﴾[الفتح: ١] فقال بَعضُهُمْ: أمِرْنَا نَحْمَدُ اللَّهَ ونَسْتَغْفِره إذَا نُصِرنَا وفُتِحَ علَيْنَا. وسكَتَ بعضهُمْ فلم يقُلْ شيئًا فقال لي: أكَذلك تقول يا ابنَ عباس؟ فقلت: لا. قال فما تقول؟ قلت: هُو أجلُ رسولِ اللَّه ﷺ، أعْلمَه له قال: ﴿إذا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ والْفتحُ﴾ وذلك علامة أجلِك ﴿فَسَبِّحْ بِحمْدِ رَبِّكَ واسْتَغْفِرْهُ إنَّه كانَ تَوَّابًا﴾[الفتح: ٣] فقال عمر رضي الله عنه: ما أعْلَم منها إلاَّ ما تَقُول. رواه البخارى[١].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

أشياخ بدر: الأشياخ المفرد: الشيخ، وهو من أدرك الشيخوخة وهي غالبًا عند الخمسين أو هو ذو المكانة من علم أو فضل أو رياسة. وأشياخ بدر: أي من شهد بدرًا من المهاجرين والأنصار وكانت في رمضان وكانوا قد شاخوا وكبرت سنهم أيام عمر رضي الله عنهم[٢].

وجد في نفسه: غضب[٣].

---

(١) برقم (٤٩٧٠).

(٢) انظر: الوسيط ٥٠٢، وفتح الباري، ابن حجر ٦٠٧/٨.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٩٦٠، والوسيط ١٠١٣.

الشرح الأدبي

تتعدد وتتجلى في البيان النبوي فنون أدبية كثيرة تنبئ عن مطابقة هذا البيان لمقتضى الحال، وبأن لكل مقام مقالاً يناسب السياق، ومن هذه الفنون: فن الخطابة، وفن الرسائل، والقصة والأقصوصة، والمكاتبات والمعاهدات، والمحاورات، وهذا الحديث الشريف يقدم لونًا طريفًا من ألوان البيان النبوي العام الشامل الذي يتضمن القول والفعل والإقرار والهيئة والصفة، وهذا اللون هو: فن المناظرة والاحتجاج، وهو فن أدبي اشتهر به العرب، واتسمت به البيئات العلمية والدينية في عصور ازدهار الثقافة الإسلامية، في عصر النبوة، وعصر الخلافة الراشدة، والعصر الأموي والعباسي، وللمناظرة في الحديث النبوي سمة تتفرد بها، وهي أنها لا تلجأ إلى المحاجة الباطلة، ولا إلى تزييف الحقائق، لأن النبي ﷺ لا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفَلْج أي الفوز إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة، ولا يستعمل المواربة، وقد انتهج هذا النهج أصحابه الأخيار وفي مقدمتهم أشياخ بدر، والفاروق عمر، وعبدالله بن عباس الذي يروي قصة هذا الحديث الذي يرسى قاعدة شرعية من قواعد المنهج الإسلامي، وهى معيار الأفضلية والتقديم، وهذا المعيار يقتضي أنه بمقدار فقه الرجل في دينه تكون أفضليته بين القوم.

وعمر بن الخطاب يعرف قدر عبدالله بن عباس، ولذلك كان يدخله مع كبار الصحابة وهم أشياخ بدر في المشورة والمهمات، وذلك لعظيم قدره بما تحلى به من فقه في الدين، وعلم بكتاب الله تعالى.

وقد كان مُسمًّى البحر لسعة علمه، واعترض بعض الصحابة وقيل الذي اعترض عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه وهو من أشياخ بدر، واعتراضه ليس قدحًا في شخصية ابن عباس رضي الله عنهما وإيمانه، وإنما كان لصغر سنه، ولكن عمر: يطبق النهج الإسلامي، ويقتدي برسول الله ﷺ فيقول: "إنه من حيث علمتم".

ولم يفصِّل عمر رضي الله عنه القول: لأن الصحابة يعرفون مكانة ابن عباس، ويعلمون أنه من بيت النبوة، ومنبع العلوم ومصدر الآراء السديدة، وأراد عمر أن يقنع القوم بما قال،

فعقد هذه المناظرة الموجزة حول المراد من سورة النصر، أو السبب القريب لنزولها، فأجاب بعض الصحابة إجابة صحيحة في عمومها لكن خصوص السبب لم يفطنوا له، وبعضهم سكت، والذين أجابوا قالوا: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وهذا رأي صائب لأنه لا يتصادم مع النص القرآني، ولكن عمر رضي الله عنه يسأل عن إيحاء السورة ، والمقصد الأكبر والمباشر المرتبط بأحداث الدعوة، وشخصية الرسول ﷺ وسأل ابن عباس عن فهمه للمراد من هذه السورة في ذلك الوقت، فأجاب ابن عباس قائلاً: هو أجلُ رسول الله ﷺ أعلمه الله له، فأيد عمر كلامه، وقال: ما أعلم منها إلا ما تقول، ولم يعترض أشياخ بدر، ولم يتعصبوا لرأيهم، ولم يجادلوا إلا بالتي هي أحسن، وهذا من أدب المناظرات في المنهج الإسلامي، والحوار البليغ الهادف، والمجادلة بالتي هي أحسن، والإقناع بالحسنى، وبالدليل؛ هو ما يميز هذه المناظرة التي تعلمنا درسًا في أدب الحوار في الإسلام، وترشدنا إلى منهج الإسلام في تفضيل الرجال، وتقديمهم، والاستئناس بمشورتهم، والعمل بكلامهم.

وقيل إن عمر رضي الله عنه بعد أن سمع إجابة ابن عباس قال: كيف تلومونني عليه بعد ما ترون؟ وقيل إن ابن عباس قد شهد له النبي ﷺ بعد أن أدرك المقصود من هذه السورة وقت نزولها، وفهم أنها نَعْيٌ لرسول الله ﷺ فقال: لقد أوتى هذا الغلام علمًا كثيرًا.

وروى أنه لما نزلت هذه السورة خطب النبي ﷺ وقال: إن عبدًا خيره الله بين الدنيا والآخرة، فاختار لقاء الله تعالى.

ويؤكد صاحب مفاتيح الغيب، على أن رأي ابن عباس رضي الله عنهما دقيق وصائب ويدلل على ذلك بعدة وجوه وهي:

أ- قال بعضهم إنما عرفوا ذلك ، لما رُوي أن الرسول ﷺ خطب عقيب السورة وذكر التخيير.

ب- أنه لما ذكر النصر والفتح ودخول الناس في الدين أفواجًا دل ذلك على حصول الكمال والتمام، وذلك يعقبه الزوال، كما قيل:

إذ تم شــيء دنــا نقــصه   توقــع زوالا إذا قيــل تمّ

ج- أنه أمره بالتسبيح والحمد والاستغفار مطلقًا، واشتغاله به يمنعه عن الاشتغال بأمر الأمة، فكان هذا كالتنبيه على أن أمر التبليغ قد تم وكمل، وذلك يوجب الموت وكما قال ابن عباس رضي الله عنهما: السورة نعي لرسول الله ﷺ، وقال نُعِيت إليه نفسه.

د- قوله تعالى: "واستغفره" تنبيه على قرب الأجل، كأنه يقول: قرب الوقت ودنا الرحيل فتأهب للأمر، ونبهه به على أن سبيل العاقل إذا قرب أجله أن يستكثر من التوبة.

هـ- كأنه قيل له، كان منتهى مطلوبك في الدنيا هذا الذي وجدته، وهو النصر والفتح والاستيلاء، والله تعالى وعدك بقوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾[1]، فلما وجدت أقصى مرادك في الدنيا، فانتقل في الآخرة لتفوز بتلك السعادة الأبدية[2].

وثبت أن رسول الله ﷺ بعد نزول هذه السورة كان يكثر من قوله: (سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي)[3]، وفي رواية: (أستغفرك وأتوب إليك)[4].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: مكانة ابن عباس رضي الله عنهما.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: مشاورة أهل العلم.

ثالثًا: من مهام الداعية: تصحيح المفاهيم والأعراف الخاطئة عند الناس.

رابعًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

خامسًا: من وسائل الدعوة: البرهان والاستدلال.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: أدب الخلاف.

---

(١) سورة الضحى، آية: ٤.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، تفسير سورة النصر.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري ٤٩٦٧، ومسلم ٤٨٤.

(٤) أخرجه مسلم ٤٨٤، ٢١٨.

أولاً- من موضوعات الدعوة: مكانة ابن عباس رضي الله عنهما:

لقد تميز ابن عباس رضي الله عنهما بمكانة عظيمة بين أصحاب رسول الله ﷺ، لا لكونه ابن عم رسول الله ﷺ فقط، وإنما أيضًا لعلمه وفقهه ودقته في الاستنباط، وما أكثر الشواهد على ذلك، ومنها استنباطه في هذا الحديث أن أجل رسول الله ﷺ قد دنا، وذلك من قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ فقال: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: "إذا جاء نصر الله والفتح" "وذلك علامة أجلك..." قال الإمام الذهبي: ابن عباس هو حبر الأمة، وفقيه العصر، وإمام التفسير)[1].

وقد دل هذا الحديث على مكانته رضي الله عنه في فهم وتفسير كتاب الله تعالى فهو الذي ضمه النبي ﷺ إلى صدره وقال ((اللّهُمَّ عَلِّمْهُ الكِتابَ))[2] وقد دعا له النبي ﷺ فقال: ((اللهم فقّهه في الدين وعلّمْه التأويل))[3].

(وقد عرف عمر بن الخطاب مكانة ابن عباس رضي الله عنهما في عالم الصحابة العلماء الفتيان، فكان - كما نرى في الحديث- يؤثره ويقرب مجلسه، وعمر كما نعلم من أكابر الصحابة العلماء، ومن أخيارهم، وحسبك بعمر شاهدًا على فضله وجلال قدره، كما كان يحضره مشاهِدَه مع الأكابر من ذوي شورا من أجلّة الصحابة وأعيانهم.

لقد كان ابن عباس رضي الله عنهما من السابقين في العلم، والمُجلّين في الفهم، حتى بلغ به منزلة عليا شهد بمكانتها القاصي والداني والحاضر والبادي، بل ألقوا رحال علمهم امامه، وسلموا إليه زمام المسائل. قال عبد الله بن أبي الهذيل: أردن الخروج، فعلم بي أهل الكوفي، فجمعوا مسائل، ثم أتوني بها في صحيفة، فلما قدمت على ابن عباس رضي الله عنهما: خرج فقعد الناس فما زال يسألونه حتى ما بقي في صحيفتي شيء إلا سألوه عنه)[4].

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي ٣٣٤/٣.

(٢) أخرجه البخاري ٣٧٥٦.

(٣) أخرجه أحمد ٣١٤/١ رقم ٢٨٧٩، وقال محققو الإسناد: إسناده قوي على شرط مسلم ٦٥/٥.

(٤) انظر: علماء الصحابة رضي الله عنهم، د. أحمد خليل جمعة، ص ٣٠، ٥٧.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: مشاورة أهل العلم:

يظهر ذلك في الحديث من مشاورة عمر رضي الله عنه لذوي الرأي من الصحابة رضي الله عنهم فيما أشكل عليه، وقد أمر الله تعالى نبيه بالشورى لتكون شرعة ملزمة لمن بعده، وقد جعلها الله ثمة صفة للمؤمنين فقال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1][2] وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾[3].

(فكان صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث، تطبيبًا لقلوبهم؛ ليكونوا فيما يفعلونه أنشط لهم، ومن ذلك مشاورته صلى الله عليه وسلم لأصحابه يوم بدر في قوله: "أشيروا عليّ أيها الناس" فقالوا: (يا رسول الله لو استعرضت بنا عُرض البحر لقطعناه معك، ولو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب فنحن معك وبين يديك مقاتلون، وشاورهم - أيضًا- أين يكون المنزل؟ حتى أشار المنذر بن عمرو المعتق ليموت -بالتقدم إلى أمام القوم، وشاورهم في أحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو، فأشار جمهورهم بالخروج إليهم، فخرج إليهم.

وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ، فأبى عليه ذلك السَّعْدَان: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فترك ذلك.

وشاورهم يوم الحديبية في أن يميل على ذراري المشركين، فقال له الصديق: إنا لم نجيء لقتال أحد، وإنما جئنا معتمرين، فأجابه إلى ما قال.

---

(١) سورة الشورى، الآيات: ٣٦-٣٨.

(٢) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ابن تيمية ص ١٣٥.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

وقال ﷺ في قصة الإفك: "أشيروا عليَّ معشر المسلمين في قوم أبنُوا أهلي ورموهم، وايم الله ما علمت على أهلي من سوء، وأبَنُوهُمْ بمن -والله- ما علمت عليه إلا خيرًا")[1].

ومن عظيم مكانة الشورى في الإسلام أنه سميت سورة باسمها وفي ذلك بيان على أهمية هذا الأمر وعِظمه.

ثالثًا- من مهام الداعية: تصحيح المفاهيم والأعراف الخاطئة عند الناس:

هذا ما فعله الفاروق عمر رضي الله عنه في بيان أن العلم لا يكون مرتبطًا بالسن، بل هو فضل الله يؤتيه من يشاء (وذلك عندما كان يدخل ابن عباس رضي الله عنهما على صغر سنه مع أشياخ بدر لمشاورتهم فوجد منهم الغضب على ذلك)[2]، قال ابن هبيرة: (هذا الحديث يدل على أن فهم الرجل يلحقه بذوي الأسنان، وإن كان حدثًا وقد يبرز عليهم)[3]. فحري بالداعية أن يصحح المفاهيم الخاطئة مقتديًا في ذلك بالنبي ﷺ، فقد كان ﷺ مصححًا للمفاهيم الخاطئة لدى أصحابه رضي الله عنهم ومن ذلك قوله ﷺ للصحابة: ((أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ. فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي، يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَـٰذَا، وَقَذَفَ هَـٰذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَـٰذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَـٰذَا، وَضَرَبَ هَـٰذَا. فَيُعْطَىٰ هَـٰذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَـٰذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ. فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ، قَبْلَ أَنْ يُقْضَىٰ مَا عَلَيْهِ. أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ. ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))[4].

وقوله ﷺ: ((ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب))[5] وقوله ﷺ: ((ليس الغنى، عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس))[6]، وقد استفاضت الأدلة في ذلك، بما يؤكد أهمية قيام الداعية بتصحيح ما

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٤٩/٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٦٠٧/٨.

(٣) الإفصاح، عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ١٥١/٣.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٨١.

(٥) أخرجه البخاري ٦١١٤، ومسلم ٢٦٠٩.

(٦) أخرجه البخاري ٦٤٤٦، ومسلم ١٠٥١.

كان من أفهام وأعراف خاطئة؛ حتى يكون المدعو على بصيرة من دينه.

رابعًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

إن السؤال والجواب من الأساليب الدعوية الهامة في استحضار أذهان المدعوين ولفت انتباههم، فضلاً عن وضعهم في حالة استعداد فكريّ ونفسيٍّ لمعرفة ما يكون من إجابة، وهذا الاستعداد أمر مهم جدًا لتلقف المعرفة واختزانها في الذاكرة، ثم لتطبيق إرشاداتها في السلوك، فعلى الداعية أن يستثمر هذا الاستعداد إلى أقصى حدٍّ ممكن[1]، وهذا ما سلكه عمر رضي الله عنه في سؤال أشياخ بدر، وإجابتهم، وإجابة ابن عباس رضي الله عنهما.

خامسًا- من أساليب الدعوة: البرهان والاستدلال:

إن البرهان والاستدلال من الأساليب الدعوية التي يحتاجها الداعية في دعوته، وإن القرآن الكريم بيَّن تلك المنهجية العلمية التي ينبغي للداعية أن يسلكها، وذلك حينما طالب القرآن اليهود والنصارى أن يأتوا ببرهان على ادعائهم بأنه لا يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى فقال: ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[2] ومن ثم فإن الداعية بحاجة إلى الإفادة من أسلوب البرهان والاستدلال، لأنه يساعد على تبليغ دعوته وإثباتها بما يؤكد وصولها إلى المدعو وهذا ما سلكه عمر رضي الله عنه وظهر من قول ابن عباس رضي الله عنهما "فما رأيت أنه دعاني يومئذٍ إلا ليُرِيَهُمْ".

سادسًا- من موضوعات الدعوة: أدب الخلاف:

(إن الخلاف أمر وارد نظرًا لاختلاف العقول والأفهام، فهو من طبيعة البشر أو من لوازم طبيعتهم)[3] وهذا ما ظهر من الحديث في اختلاف فهم الصحابة رضي الله عنهم لقوله

---

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ٥٩/٢.

(٢) سورة البقرة، آية: ١١١.

(٣) فقه الائتلاف قواعد التعامل مع المخالفين بالإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي ، محمد محمد الخزندار ص ٢١.

تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ ولكن هذا الخلاف تم في أدب جمّ من الصحابة رضي الله عنهم، فلم يؤد إلى شقاق أو خصام، بل تم في جو من الحب والود. وهذا من خلق الصحابة رضي الله عنهم وفقههم (لأنه قد يترتب على الخلاف فرقة وتناحر، ومتى تفرقت الأمة سهل على أي عدو أن يتحكم بالمسلمين ويذلهم، فالجماعة رحمة، والفرقة عذاب)[1]. وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا، فإن في الفرقة التناحر، وعندئذ يسهل على أي عدو أن يتحكم بالمسلمين ويذلهم[2]، يقول ابن تيمية عن تجربة أهل زمانة: وبلاد الشرق من أسباب تسليط الله التتر عليها كثرة التفرق والفتن بينهم في المذاهب وغيرها، وهذا التفريق الذي حصل من الأمة علمائها ومشائخها وأمرائها وكبرائها، هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها، وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله ﷺ، فمتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به وقعت بينهم العداوة والبغضاء، وإذا تفرقوا فسدوا وهلكوا، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا)[3].

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب: عبدالرحمن بن قاسم، ١٤/١٥٠-١٥١.

(٢) نظر: فقه الائتلاف، محمد محمود محمد الخزندار، ص ٢٥.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٣/٤٢١.

الحديث رقم (١١٤)

١١٤- **الثالث:** عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما صلَّى رسولُ اللَّه ﷺ صلاةً بعْد أَنْ نزَلَتْ علَيْهِ ﴿إِذَا جَاءَ نصرُ اللَّهِ والْفَتْحُ﴾ إلاَّ يقول فيها: «**سُبْحانك ربَّنا وبحمْدِك، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي**» متفقٌ عليه[1].

وفي رواية الصحيحين عنها: كان رسول اللَّه ﷺ يُكثِر أنْ يَقُول فِي ركُوعِه وسُجُودِهِ: «**سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ ربَّنَا وَبِحمْدِك، اللَّهمَّ اغْفِرْ لي**» يتأوَّل الْقُرْآن[2].

معنى: «يتأوَّل الْقُرْآنَ» أيْ: يعْمل مَا أُمِرَ بِهِ فِي الْقُرآنِ فِي قولِهِ تعالى: ﴿فَسبِّحْ بِحمْدِ ربِّكَ واستَغْفِرْهُ﴾.

وفي رواية لمسلم: كان رسولُ اللَّه ﷺ يُكثِرُ أنْ يَقولَ قبْلَ أَنْ يَموتَ: «سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وبِحَمْدِكَ، أستَغْفِرُكَ وأتُوبُ إلَيْكَ».

قالت عائشةُ: قلت يا رسولَ اللَّه! ما هذِهِ الكلِمَاتُ الَّتي أراكَ أحْدثْتَها تَقولها؟ قال: «جُعِلَتْ لِي علامةٌ في أمَّتي إذا رَأيتُها قُلْتُها ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلى آخر السورة»[3].

وفي رواية له: كان رسولُ اللَّه ﷺ يُكثِرُ مِنْ قَوْلِ: «**سُبْحانَ اللَّهِ وبِحَمْدِهِ. أسْتَغْفِرُ اللَّه وَأتُوبُ إليْه**». قالت: قلت: يا رسولَ اللَّه، أَرَاكَ تُكثِرُ مِنْ قَوْلِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وبحمْدِهِ، أستغْفِر اللَّه وأتُوبُ إليْهِ؟ فقال: «**أخبرني ربِّي أنِّي سَأرَى علامَةً فِي أُمَّتي فَإِذَا رأيْتُها أكْثَرْتُ مِن قَوْلِ: سُبْحانَ اللَّهِ وبِحَمْدِهِ، أسْتَغْفِرُ اللَّه وَأتُوبُ إلَيْهِ: فَقَدْ رَأَيْتُها: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ والْفَتْحُ﴾ فَتْحُ مَكَّةَ، ﴿ورأيْتَ النَّاس يدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أفْوَاجًا، فَسبحْ بحمْدِ ربِّكَ واسْتَغفِرْهُ إنَّهُ كانَ توَّابًا﴾**»[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٦٧) واللفظ له، ومسلم (٤٨٤/٢١٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٦٨)، ومسلم (٤٨٤/٢١٧) ولفظهما سواء.

(٣) أخرجه مسلم (٤٨٤/٢١٨).

(٤) أخرجه مسلم (٤٨٤/٢٢٠).

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

يتأول القرآن: معنى "يتأول القرآن": أي يعمل ما أمر به في القرآن في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾[١].

الشرح الأدبي

إن البنيان النبوي كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، ويأخذ بعضًا بحجز بعض. وبين هذا الحديث والحديث السابق ترابط عضوي، واتفاق دلالي، وهما يندرجان في باب واحد وهو ، في الحث على الازدياد من الخير، والخير في هذا الحديث نقتبسه من سنة المصطفى ﷺ القولية والعملية، حيث يستجيب النبي محمد ﷺ لأمر خالقه بالتسبيح والتحميد والاستغفار، شكرًا لله عز وجل على نعمة النصر والفتح المبين.

وتقدم أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ثمرة هذا الشكر على لسان المصطفى ﷺ في صيغة القصر التي تفيد الاستقصاء.. وطريق القصر هنا، النفي، في قولها: "ما صلى، ... والاستثناء في قولها ، إلا يقول...".

وأسلوب القصر هنا تؤازره بلاغة الحذف.. لأن الكلمة التي يشع بها المفهوم ليس لها قيمة جمالية أو تأثيرية في المنطوق، والبيان النبوي يتسم بالإيجاز والإيحاء وعدم الحشو، والبعد عن التطويل، فقد حذف المفعول من قول عائشة رضي الله عنها: "ما صلى رسول الله ﷺ"، والتقدير صلاة، ولكن الحذف أكثر بلاغة وإيحاء... لأن فعل الصلاة يتضمن المعقول، والحدث يتضمن المحدث، وفي بعض الروايات وردت كلمة صلاة وقد تكون للتوضيح فهي مفعول مطلق يفيد التأكيد على الحدث، والتعبير بقولها "إلا يقول فيها" يفيد استمرار القول مع تكرار الحدث وهو الصلاة، لأن صيغة المضارع في "يقول" توحي

---

(١) رياض الصالحين ٩٦.

بذلك، ولفظ "فيها" يدل على أن هذا القول في داخل الصلاة، وليس قبلها أو بعدها، حيث كان النبي ﷺ، يقول ذلك في ركوعه وسجوده: "سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي".

وكلمة سبحانك تتضمن إيجازًا لأن تقدير الكلام، سبّحت سبحانك، ومادة السَّبح فيها معنى البعد، أي: أن العبد ينزه ربه ويبتعد به عما لا يليق به من كل نقص، وإضافة سبحان إلى كاف الخطاب الموجه لله عز وجل تدل على شرف العبودية، والاحتماء بعزة الله عز وجل.

والنداء في قوله: "ربنا" حذف منه حرف النداء للإحساس بالقرب من الله عز وجل، وصيغة الجملة في هذا النداء "ربنا"، ترشد إلى أن هذه الصيغة من خصائص الدعاء لدى الأمة كلها، وأن هذه الصيغة يجب اتباعها اقتداء بسنة المصطفى ﷺ وقوله "وبحمدك"، فيه إيجاز كذلك لأن الواو للحال، أو للعطف، أو زائدة، وفي كل نوع للواو يكون توجيه المعنى، وكله صحيح ودال على المراد.

وقيل: قُدِّم التسبيح على التحميد؛ لأن التسبيح تنزيه عن النقائص، التحميد ثناء بصفات الكمال، والمغفرة ثمرتها المرجوة.

فقه الحديث

١- الدعاء في السجود: الحديث دليل على جواز الدعاء في الركوع كان ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده "سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي" يتأول القرآن وقد ترجم البخاري على هذا الحديث في صحيحه باب الدعاء في الركوع[1]. قال ابن حجر: (قيل: الحكمة في تخصيص الركوع بالدعاء دون التسبيح أن الحديث واحد أنه قصد الإشارة إلى الرد من كره الدعاء في الركوع كمالكٍ، وأما التسبيح فلا خلاف فيه، فاهتم هنا بذكر الدعاء لذلك، وحجة المخالف الحديث الذي أخرجه مسلم من رواية ابن عباس مرفوعًا، وفيه ((فأما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما

(١) الحديث ٧٩٤ الباب ١٢٣.

السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقمن أن يستجاب لكم))[1] لكنه لا مفهوم له، فلا يمتنع الدعاء كما لا يمتنع التعظيم في السجود، وظاهر حديث عائشة رضي الله عنها أنه كان يقول هذا الذكر كله في الركوع وكذا السجود)[2].

٢- ما يقال في الركوع والسجود: قال النووي: (مذهبنا [أي المذهب الشافعي] ومذهب الأوزاعي وأبي حنيفة والكوفيين وأحمد والجمهور: استحباب تكرير سبحانه ربي العظيم في الركوع وسبحان ربي الأعلى في السجود، وقال مالك: لا يتعين ذكر الاستحباب)[3].

٣-التسبيح في الركوع والسجود: قال النووي: (اعلم أن التسبيح في الركوع والسجود سنة غير واجبه، هذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي والجمهور، وأوجبه أحمد وطائفة من أئمة الحديث لقوله ﷺ: ((فأما الركوع فعظموا فيه الرب عز وجل))[4] ولقوله ﷺ: ((صلوا كما رأيتموني أصلي))[5] وأجاب الجمهور بأنه محمول

---

(١) أخرجه مسلم ٤٧٩.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٦٢٩/١ ط/ بيت الأفكار، وجاء في الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٣٢/٢٣: ذهب المالكية إلى كراهة الدعاء في الركوع، وذهب الشافعية إلى استحباب الدعاء في الركوع، وانظر: المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤١١/٣، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، الشربيني ١٦٥/١.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥٢٧، وجاء في الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٣٢/٢٣: وذهب المالكية إلى أن التسبيح في الركوع مندوب بأي لفظ كان، والأولى سبحان ربي العظيم وبحمده أهـ، وانظر: مراجع الموسوعة، الدر المختار ٣٣٢/١، ومراقي الفلاح، وحاشية الطحطاوي عليه ١٤٤، ١٤٥، وجواهر الإكليل ٥١/١، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد النفراوي المالكي ٢٠٩/١، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، الشربيني ١٦٤/١، ١٦٥، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤١١/٣، ٤١٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي ٣٤٧/١، والمغني، ابن قدامة ٥٠١/١، ٥٠٣.

(٤) أخرجه مسلم ٤٧٩.

(٥) أخرجه البخاري ٦٣١.

على الاستحباب، واحتجوا بحديث المسيء صلاته فإن النبي ﷺ لم يأمر به ولو وجب لأمره به)[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: القصر.

ثانيًا: من صفات الداعية: الامتثال لأمر الله.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل التسبيح والتحميد والاستغفار.

رابعًا: من واجبات المدعو: الاستفسار عما أشكل عليه.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: علم النبي ﷺ بدنو أجله.

سادسًا: من صفات الداعية: القدوة الحسنة.

أولاً- من أساليب الدعوة: أسلوب القصر:

من أساليب الدعوة أسلوب القصر، ويظهر هذا الأسلوب في استخدام أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لفظ (ما) ثم لفظ (إلا) وقد دل هذا الأسلوب على أن رسول الله ﷺ بعد نزول ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾[٢] ما صلى صلاة إلا قال فيها: "سبحانك ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي"، حيث امتثل لأمر ربه وكان مداومًا على ذلك لا يتركها في صلاة من صلواته.

ثانيًا- من صفات الداعية: الامتثال لأمر الله:

من صفات الداعية الحق الامتثال لأمر الله أولاً، ثم دعوة الناس إلى ذلك، لأن من أهم ما يؤثر في المدعو استشعاره للقدوة في الداعية؛ لأن الناس من شأنهم النظر في

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٣٨٥ ، وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢١٠/٢٤ ومراجعها، المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤١٠/٣، والبدائع ١٦٢/١، وحاشية ابن عابدين ٣١٢/١، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، الشربيني ١٦٩/١، وحاشية العدوي ٢٣٧/١، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد النفراوي المالكي ٢١٠/١، والمغني، ابن قدامة ٢١٠/١.

(٢) سورة النصر، آية: ١.

أعمال وسلوكيات من يدعوهم إلى الخير، فإن وجدوا فيها وقوفًا عند حدود الله وما يدعون إليه فإن ذلك يكون باعثًا على الاتباع، أما الأخرى فيهم لا يلقون للأقوال بالاً، ولا يعيرون أي اهتمام[١]، لذا فإنه على الداعية أن يمتثل لأمر الله ويلتزم بتعاليمه ويستقيم على منهجه، ويظهر الامتثال لأمر الله في هذا الحديث في حرص النبي ﷺ بعد نزول سورة (النصر) والأمر الذي ورد فيها بالتسبيح والتحميد على مداومة التسبيح والتحميد والاستغفار.

فإن في الامتثال لأمر الله تعالى والاستجابة له الحياة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾[٢] والمراد بالاستجابة: الطاعة والامتثال، "لما يحييكم" من علوم الديانات والشرائع، لأن العلم حياة، كما أن الجهل موت، قال الشاعر:

لا تعجبن الجهول حلته فذاك ميت وثوبه كفن[٣]

وقال السعدي: (في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان منهم، وهو الاستجابة لله وللرسول ﷺ أي الانقياد لما أمرا به والمبادرة إلى ذلك والدعوة إليه والاجتناب لما نهيا عنه، والانكفاف عنه والنهي عنه)[٤].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل التسبيح والتحميد والاستغفار:

حرص النبي ﷺ على مداومة التسبيح والتحميد والاستغفار، وكذلك حثه عليهم يدل على فضلهم، فعن سعد بن وقاص قال جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال:

---

(١) انظر: قواعد الدعوة الإسلامية، د. الشريف حمدان راجح المهدي الهجاري، ص ٢٦٠.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٣) مدارك التنزيل، النسفي، ص ٤٠٩.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٣١٨.

علمني كلامًا أقوله. قال: "قل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الله أكبر، الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، سبحانه الله رب العالمين، لا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم" قال: فهؤلاء لربي، فما لي. قال: ((قُلِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَاهْدِنِي وَارْزُقْنِي))[1] وقال ﷺ "استكثروا من الباقيات الصالحات" قيل وما هن يا رسول الله؟ قال: ((التكبير، والتهليل، والتسبيح، والتحميد، ولا حول ولا قوّة إلا بالله))[2].

وقال ﷺ: ((الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمَانِ. وَالْحَمْدُ لله تَمْلأُ الْمِيزَانَ وَسُبْحَانَ الله وَالْحَمْدُ لله تَمْلآنِ (أَوْ تَمْلأُ) مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ...))[3].

والاستغفار سبب لحصول الخيرات ونزول البركات، قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾[4].

خامسًا- من واجبات المدعو: الاستفسار عما أشكل عليه:

إن من واجبات المدعو الاستفسار عن الشيء الذي أشكل عليه ولم يدر سبب استحداثه، أو لما فعله الداعية، وهذا ما فعلته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مع رسول الله ﷺ عندما قالت: (قلت: يا رسول الله ما هذه الكلمات التي أراك أحدثتها تقولها؟ لأن استفسار المدعو عما أشكل عليه يعمل على إثراء العملية الدعوية، ويُوجد نوعًا من التواصل بين الداعية والمدعو، ويعطي برهانًا على اهتمام المدعو بما يسمعه، ويؤكد على حرصه على فهم أمور دينه.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: علم النبي ﷺ بدنو أجله:

من الأمور التي دلت على دنو أجل الرسول ﷺ نزول سورة (النصر) وعرف الرسول

---

(١) أخرجه مسلم ٢٦٩٦.

(٢) أخرجه أحمد ٧٥/٣ رقم ١١٧١٣ وقال محققو المسند حسن لغيره ٢٤١/١٨.

(٣) أخرجه مسلم ٢٢٣.

(٤) سورة نوح، الآيات: ١٠، ١١، ١٢.

ﷺ ذلك فكان يكثر من التسبيح والتحميد والاستغفار، وعندما سئل عن ذلك قال ((جعلت لي علامة في أمتي إذا رأيتها قلتها ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ إلى آخر السورة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما (أن عمر سألهم في قوله تعالى ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ قالوا: فتح المدائن والقصور، قال: ما تقول يا ابن عباس؟ قال: أجل: أو مثل ضُرِب لمحمد ﷺ نعيت له نفسه)[1].

وعن سعيد بن جبير (عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر.... قال: ما تقولون في قوله الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فقال بعضهم: أمرنا نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا: قال فما تقول؟ قلت هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: إذا جاء نصر الله والفتح -وذلك علامة أجلك- فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا...)[2].

نزلت سورة النصر في أوسط أيام التشريق في حجة الوداع فعرف رسول الله ﷺ أنه الوداع[3]. فكان ذلك مما أعلمه بدنو أجله ﷺ.

وقال ابن رجب: (أول ما أعلم النبي ﷺ من انقضاء عمره باقتراب أجله بنزول سورة "إذا جاء نصر الله والفتح". وقيل لابن عباس رضي الله عنهما: هل كان يعلم رسول الله ﷺ متى يموت؟ قال: نعم. قيل: ومن أين؟ قال: إن الله تعالى جعل علامة موته في هذه السورة: "إذا جاء نصر الله والفتح"، يعني فتح مكة "ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا"، ذلك علامة موته، وقد كان نعى نفسه إلى فاطمة رضي الله عنها.

فإن المراد من هذه السورة أنك يا محمد، إذا فتح الله عليك البلاد، ودخل الناس في دينك الذي دعوتهم إليه أفواجًا فقد اقترب أجلك، فتهيأ للقائنا بالتحميد والاستغفار،

---

(١) أخرجه البخاري ٤٩٦٩.

(٢) أخرجه البخاري ٤٩٧٠.

(٣) ذكره الحافظ ابن حجر العسقلاني، في فتح الباري، ابن حجر ٦٠٨/٨ وعزاه لأبي يعلى.

فإنه قد حصل منك مقصود ما أمرت به من أداء الرسالة والتبليغ، وما عندنا خير لك من الدنيا، فاستعد للنقلة إلينا.

قال ابن عباس: لما نزلت هذه السورة نعيت لرسول الله ﷺ نفسه، فأخذ في أشد ما كان اجتهادًا في أمر الآخرة)[١].

وكان يعرض القرآن على جبريل مرة، فعرضه ذلك العام مرتين، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((إنا كنا أزواجَ النبيِّ ﷺ عندَهُ جميعاً لم تُغادِر منا واحدة، فأقبلَتْ فاطمة عليها السلام تمشي، لا واللّهِ ما تخفى مِشيتها من مِشيةِ رسول الله ﷺ. فلما رآها رحَّبَ قال: مرحباً بابنتي، ثم أجلَسَها عن يمينه - أو عن شمالهِ- ثمَّ سارَّها، فبكت بكاءً شديداً، فلما رأى حُزنها سارَّها الثانية. فإذا هي تضحك. فقلت لها -أنا من بين نسائه- خَصَّك رسولُ الله ﷺ بالسرِّ مِن بيننا ثم أنتِ تَبكين. فلما قام رسولُ الله ﷺ سألتها عما سارَّكِ؟ قالت: ماكنتُ لأفشِيَ على رسول الله ﷺ سرَّه، فلما تُوُفي قلت لها: عزَمتُ عليكِ ـ بما لي عليكِ منَ الحقّ ـ لما أخبرْتني. قالت: أما الآن فنعم، فأخبرَتْني قالت: أما حينَ سارَّني في الأمر الأول فإنه أخبرني أنَّ جبريلَ كان يعارضه بالقرآن كلَّ سنةٍ مرَّة، وإنه قد عارَضني به العامَ مرَّتين، ولاأرى الأجلَ إلا قد اقترب، فاتقي اللّهَ واصبري، فإني نعمَ السلَفُ أنا لكِ. قالت: فبكيتُ بكائي الذي رأيت. فلما رأى جَزَعي سارَّني الثانيةَ قال: يا فاطمة ألا ترضَينَ أن تكوني سيدةَ نساءِ المؤمنين؟ أو سيدة نساء هذه الأمة))[٢].

وكان ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان كل عام، فاعتكف في ذلك العام عشرين؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ ((أنه كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين))[٣].

---

(١) انظر: لطائف المعارف، ابن رجب الحنبلي، ص ١٩٨.

(٢) أخرجه البخاري ٦٢٨٥، ومسلم ٢٤٥٠.

(٣) أخرجه أحمد ٢/٣٣٦ رقم ٨٤٣٦، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط البخاري ١٤/١٥٥.

سابعًا- من صفات الداعية: القدوة الحسنة:

القدوة الحسنة من أهم وسائل الدعوة إلى الله وأكثرها فاعلية؛ يقول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾(١).

قال السعدي: الأسوة نوعان أسوة حسنة، وأسوة سيئة.

فالأسوة الحسنة، في الرسول ﷺ فإن المتأسي به، مالك الطريق الموصل إلى كرامة الله وهو الصراط المستقيم.

وأما الأسوة بغيره، إذا خالفه، فهو الأسوة السيئة كقول المشركين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾(٢). وإن الأسوة الحسنة، إنما يسلكها ويوفق لها من كان يرجو الله واليوم الآخر. فإن ما معه من الإيمان، وخوف الله، ورجاء ثوابه، وخوف عقابه، يحثه على التأسي بالرسول ﷺ(٣).

فالقدوة الحسنة تنطبق على من يتبع ما جاء به محمد ﷺ. وطبقًا لذلك يكون متبوعًا في كلامه وأفعاله، ويكون متبوعًا إما لسبب تفوق بعلم أو بعبادة أو لقدمه في طريق الحق، وكلها تندرج تحت إتباع الرسول ﷺ وعلى مقدار الأتباع تزداد نسبة الإتباع أو تنقص(٤).

وتظهر أهمية القدوة للداعية في الاقتداء بالنبي ﷺ الذي عندما علم بدنو أجله ونزلت سورة "النصر" وأُمر بالتسبيح والتحميد والاستغفار كان أول من لبى الأمر وداوم على التسبيح والتحميد والاستغفار فكان قدوة للأمة عامة وللدعاة خاصة.

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٢) سورة الزخرف، آية: ٢٢.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١٠٩.

(٤) المصفى من صفات الدعاة، عبدالحميد البلالي ٢٠/١، ٢١.

الحديث رقم (١١٥)

١١٥- **الرابع:** عن أنسٍ رضي الله عنه قال: إنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ تَابعَ الوحْيَ على رسول اللَّه ﷺ قَبْلَ وَفَاتِهِ، حتَّى تُوُفِّي أكْثَرَ مَا كَانَ الْوَحْيُ. متفقٌ عليه[١].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

تابع الوحي: أي أكثر إنزاله[٢].

الشرح الأدبي

يروي هذا الحديث، أنس بن مالك رضي الله عنه وهو من أكثر الصحابة قربًا من النبي ﷺ، وهو لا يقدِّم موعظة، ولا يحدد قواعد شرعية، ولكن الحديث يوضح حقيقة أصولية لها في تاريخ الإسلام تأثير قوي.. وهي اكتمال عقد الدعوة الإسلامية وعدم انقطاع الوحى إلا بعد أن أكملت جوانب الشريعة، وتمت معالم العقيدة، ويتضح ذلك في قوله عز وجل: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[٣]، وقيل إن معنى إكمال الدين في هذه الآية التي لم تكن آخر آية أنزلت، أي إكمال أحكامه، وحلاله وحرامه، فلم ينزل بعدها شيء من الفرائض والتحليل والتحريم، وقيل: إن ما نزل بعدها: إنما هو من آيات الوعظ والتقدير لما سبق من الأحكام، لا لإنشاء أحكام جديدة[٤].

والحديث موجز ويصاغ في جملة واحدة تبدأ بالتأكيد دلالة على صدق الحدث وهو

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٨٢)، ومسلم واللفظ له (٢/٣٠١٦).

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٦٢٤/٨.

(٣) سورة المائدة، آية: ٣.

(٤) انظر: المختار من كنوز السنة المحمدية، د. محمد عبدالله دراز، ص ١، ٣.

تتابع الوحي وكثرته قبيل وفاته ﷺ، وذلك حتى لا يبقى شيء من التعاليم الإلهية لم يبلّغ به النبي ﷺ، ولم يبلغها إلى أمته، وإلى الناس كافة.

وفي الحديث ألفاظ مشعة تنسق إشعاعاتها مع جو الحديث وفضائه المفعم بالجلال والجمال، ومن هذه الكلمات المشعة بالجلال، لفظ الجلالة "الله" وبعده فعلان هما "عز وجل"، وهما مناسبان: لأنه لا يوحي إلا الله عز وجل، فالفعل "عز" معناه غلب فلا يغالب على مراده، ومن أقدر من الله! ومن أعز من الله! يقدر على إنزال جبريل، وإرسال الرسل، وتكليف الرسل بالرسالات، والفعل، "جل" يرشد إلى أننا لا ننسب إلى الله تعالى ما لا يليق بشأنه، ولا نكذب بالرسل، ولا ندعي عليهم، ولا نتشكك في الوحي؛ وللوحي دلالة في اللغة ودلالة في الشرع.

فالوحي: اسم مصدر بمعنى الإيحاء أو الشيء الموحى به، والإيحاء لغة هو: الإعلام بالشيء سرًا، ولذلك كانت الكناية والإشارة والرمز والكلام الخفي كل ذلك يسمى وحيًا.

وإذا أطلق الوحي في لسان أهل الشرع انصرف ذلك إلى الوحي الصادر من الله تعالى، الوارد إلى الأنبياء، فهو أخص من المعنى اللغوي، بخصوص مصدره ومورده.

والوحي الشرعي بكل أنواعه يصاحبه علم من الموحى إليه بأن ما ألقى إليه حق معصوم من عند الله تعالى، ليس من خطرات الأوهام، ولا من نزغات الشيطان، وهذا العلم يقيني ضروري، لا يخالجه شك ولا يتولد من مقدمات[1]. ولنتأمل هذا الجلال الذي يغمر هذا الحديث الشريف الذي يرويه الفاروق عمر واصفًا صورة من صور الوحي، وهو ما يحصل بمحادثة الملك للرسول ﷺ غير متمثل في صورة بشرية، يقول عمر رضي الله عنه: (كان رسول الله ﷺ إذا نزل الوحي مجمع عند وجه كدوي النحل، فأنزل عليه يومًا، فمكثنا ساعة فسرى عنه، فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال: اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وأرضنا وأرض عنا ..."

---

(١) انظر: المرجع السابق ١، ٣.

الحديث[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد والإخبار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: تتابع نزول الوحي على رسول الله ﷺ قبل وفاته.

ثالثًا: من تاريخ الدعوة: كثرة نزول الوحي قبل وفاة الرسول ﷺ.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد والإخبار:

من أساليب الدعوة في هذا الحديث أسلوب التوكيد حيث أكد أنس رضي الله عنه بقوله (إن الله) ثم أخبر بعد ذلك بتتابع نزول الوحي على رسول الله ﷺ، وهذا يدل على حرص أنس بن مالك رضي الله عنه على التوكيد والإخبار عن ذلك. وأسلوب التوكيد والإخبار من الأساليب المهمة في الدعوة إلى الله تعالى، حيث يستعمل أسلوب التوكيد في الأمر الذي يريد الداعية أن يخبر به المدعوين، وفي هذا الحديث أراد أنس رضي الله عنه أن يؤكد ويخبر بتتابع الوحي على النبي ﷺ قبل وفاته.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: تتابع نزول الوحي على رسول الله ﷺ قبل وفاته:

إن الله عز وجل اصطفى من خلقه أنبيائه وأنزل عليهم كتبه وشرائعه بواسطة وحيه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[٢] إلا أن الله عز وجل شاء أن يميز نبينا محمدًا ﷺ على الأنبياء جميعهم فختمهم به، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾[٣].

وكان الله عز وجل ينزل الكتب على الأنبياء جملة وأنزل القرآن على نبيه ﷺ

---

(١) أخرجه الترمذي.

(٢) سورة الشورى، آية: ٥١.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٤٠.

منجمًا، قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَهُ تَنزِيلًا﴾[١] أي أنزلناه شيئًا بعد شيء لا جملة واحدة، إذ أنزله الله "على مكث" أي تطاول في المدة شيئًا بعد شيء، "ونزلناه تنزيلا" مبالغة وتأكيد بالمصدر المتقدم أي أنزلناه نجمًا بعد نجم[٢].

والحديث الشريف الذي معنا ويؤكد أن القرآن الكريم لم ينزل جملة واحدة وإنما نزل متتابعًا، "إن الله عز وجل تابع الوحي على رسول الله ﷺ..." أي والي، أي الشيء بعد الشيء، وقال ابن حجر: (إن الله تابع على رسوله ﷺ الوحي قبل وفاته: أي أكثر إنزاله قرب وفاته ﷺ، والسر في ذلك أن الوفود بعد فتح مكة قد كثرت وكثُر سؤالهم عن الأحكام فكثر النزول بسبب ذلك)[٣].

وكذلك كثر نزول الوحي قبل وفاة النبي ﷺ ليتم الله دينه ويكمل نعمته ويبلغ كامل شريعته للمسلمين قبل أن يقبض رسول الله ﷺ. قال تعالى بعد أن أتم ما أراد من تبليغ الرسالة ونصره الإسلام ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَمَ دِينًا﴾[٤].

ثالثًا- من تاريخ الدعوة: كثرة نزول الوحي قبل وفاة الرسول ﷺ:

إن من تاريخ الدعوة إلى الله: كثرة نزول الوحي قبل وفاة الرسول ﷺ، لقد كان نزول الوحي في مدة بعثته ﷺ التي استغرقت ثلاثة وعشرون عامًا متتابعًا كما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((بُعثَ رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم لأربعينَ سنةً، فمكثَ بمكةَ ثلاثَ عشرةَ سنةً يُوحى إليه، ثم أُمِرَ بالهجرة فهاجرَ عَشرَ سنينَ، وماتَ وهو ابنُ ثلاثٍ وستين))[٥] ولكن قبل وفاة النبي ﷺ تتابع نزول الوحي على رسول الله ﷺ

---

(١) سورة الإسراء، آية: ١٠٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨٧/١٣، ١٨٨.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٦٢٤/٨.

(٤) سورة المائدة، آية: ٣.

(٥) أخرجه البخاري ٣٩٠٢.

أكثر ما كان عليه الوحي كما أخبر أنس بن مالك في الحديث الذي معنا.

وما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((كان يَعرِضُ على النبيِّ ﷺ القرآنُ كلَّ عام مرَّةً، فعرض عليه مرَّتَين في العام الذي قُبِضَ فيه، وكان يعتكِفُ في كلِّ عامٍ عشرًا، فاعتكَف عِشرين في العام الذي قُبض فيه))[١].

ولقد كان نزول الوحي وتتابعه من المسائل المؤثرة في تاريخ الدعوة الإسلامية؛ إذ أن الرسالة لما أوشكت على التمام وكملت الرسالات وتم الدين كثر نزول الوحي وتتابع على رسولنا ﷺ تأنيسًا له وتكريمًا وإعلاء لشأنه وتعظيمًا ورحمة للأمة وللخلق أجمعين، حيث تكاثرت البركات الإلهية والتوجيهات الربانية، وكأنما كان الوحي يودع الدنيا ويواسيها في مصابها الأليم، حتى توفي الرسول ﷺ فانقطع الخير وذهب الهناء ولم يبق من ضياء إلا ما تركه من سنته الشريفة القائمة مقامه والمبلغة رسالته، من استنار بها نجا ومن تنسم عبيرها حظي ببركته ﷺ[٢].

---

(١) أخرجه البخاري ٤٩٩٨.

(٢) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ص ١١٠.

الحديث رقم (١١٦)

١١٦- الخامس: عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُبْعثُ كُلُّ عبْدٍ على ما مَاتَ علَيْهِ**» رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث النبوي الشريف يُدرجه صاحب رياض الصالحين في ختام باب، "في كثرة طرق الخير والحث على الازدياد من الخير في أواخر العمر".

وهو يتضمن بشارة وتحذيرًا، فالبشارة لكل عبد مؤمن مات وهو متلبس بطاعة الله عز وجل عبادة وقولاً وسلوكًا ونية صالحة، والتحذير لكل عبد عاصٍ غافل عن طرق الخير لاهٍ، ومنصرف إلى شواغل الحياة. ولا يدري بأى أرض يموت ولا في أى ساعة يأتيه الأجل، والحديث قليل في مبناه كثير في معناه، فهو جملة لغوية واحدة، ولكنها تموج وتشع بجماليات الأداء الأسلوبي في الحديث النبوي، فبناء الفعل لمجهول في قوله: "يُبْعث" إرشاد إلى أن البعث بيد الله عز وجل فهو معلوم عند أولي الألباب، ولا يجهل ذلك إلا من لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، فهم في جهلهم كالأنعام بل هم أضل، وأولئك هم الغافلون.

وقوله "كل عبد" فيه إيجاز وتكثيف: لأن هذا القول يشمل كل من خلقهم الله من الناس أجمعين فهم عبيد الله، وهم جميعًا ذكورًا وإناثًا مسؤولون عما كلفهم الله به، ولنتأمل هذه الصورة المتماوجة بالملايين من أنواع البشر الذين يموتون، كل على وضع وحال يخالف وضع الآخر، وكل بقدرة الله عز وجل، يبعث على ما مات عليه، ففي الحديث، كما يقول العلماء، تحريض للإنسان على حسن العمل، وملازمة السنة

(١) برقم (٢٨٧٩/٨٤).

المحمدية في سائر الأحوال، والإخلاص لله تعالى في الأقوال والأعمال ليموت على تلك الحالة الحميدة فيبعث كذلك[١].

فلينظر كل عبد إلى نفسه أنه إلى الظالمين أقرب أم إلى المتقين؟ وانظر إلى نفسك - كما قال صاحب إحياء علوم الدين- بعد أن تنظر إلى سيرة السلف الصالحين، فلقد كانوا مع ما وفقوا له من الخائفين، ولما حضرت معاذًا الوفاة قال: "اللهم إني قد كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجْري الأنهار، ولا لغرس الأشجار ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند حِلَق الذِّكر.

ولما حضرت بلالاً الوفاة قالت امرأته: واحزناه، فقال: بل: واطرباه! غدًا نلقي الأحبة: محمدًا وحزبه.

وقال أبو بكر وهو يحتضر حينما دخل عليه سلمان الفارسي وقال ياأبا بكر، أوصنا فقال: إنا الله فاتح عليكم الدنيا فلا تأخذن منها إلا بلاغك.

وقال ﷺ مؤكدًا المراد من هذا الحديث الذي نحن بصدده، "إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده غدوة وعشية، إن كان من أهل الجنة فمن الجنة، وإن كان من أهل النار فمن النار، ويقال: هذا مقعدك، حتى تبعث إليه يوم القيامة"[٢]، فاللهم ابعثنا على الإسلام والإيمان والإحسان، واجعلنا من أهل الجنة والغفران.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: المداومة على فعل الطاعة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: من خصائص النبي ﷺ: جوامع الكلم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: تقرير حقيقة البعث.

رابعًا: من أهداف الدعوة: حث المسلم على ملازمة الطاعة والحذر من المعاصي.

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان.

(٢) أخرجه البخاري ١٣٧٩، ومسلم ٢٨٦٦.

أولاً- موضوعات الدعوة: المداومة على فعل الطاعة:

إن المسلم بحاجة إلى المداومة على الطاعات، ومراقبة الله تعالى في السر والعلن لأنه لا يدري متى يدركه الموت، ومن ثم فإن الإنسان بحاجة إلى استشعار مراقبة الله تعالى له. قال ﷺ ((اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ))[1] وعلى المسلم ذكر الموت، وذكر لقاء ربه، وقد أوصى النبي ﷺ بكثرة ذكر الموت فقال: ((أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ يَعْنِي الْمَوْتَ))[2].

وأمر بعدم التأني في طاعة الله فقال ﷺ ((التُّؤَدَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ خَيْرٌ، إِلاَّ فِي عَمَلِ الآخِرَةِ))[3] أي أن التأني في كل شيء إلا في عمل الآخرة ففي تأخير الخيرات آفات[4].

وقد حثّ النبي ﷺ على المداومة على الطاعات فقال: ((... وَإِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ مَا دُووِمَ عَلَيْهِ وَإِنْ قَلَّ))[5].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: من خصائص النبي ﷺ جوامع الكلم:

إن من الأشياء التي خص الله بها رسوله ﷺ جوامع الكلم، قال ﷺ ((فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ...))[6].

أي: أن كلامه ﷺ قليل اللفظ كثير المعاني[7].

وسياق هذا الحديث يدل على أن الرسول استخدم فيه جوامع الكلم حيث استخدم القليل من الألفاظ للدلالة على الكثير من المعاني التي تحتاج إلى تفصيل فذكر أن

---

(١) أخرجه مسلم ٨.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٣٠٧، وقال الألباني: حسن صحيح (صحيح سنن الترمذي ١٨٧٧).

(٣) أخرجه أبو داود ٤٨١٠، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٠٢٥).

(٤) انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم ابادي ٢٠٨٦.

(٥) أخرجه مسلم ٧٨٢.

(٦) أخرجه مسلم ٥٢٣.

(٧) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ٤٠٣.

العبد يبعث على ما يموت عليه، لذا ينبغي للداعية أن يفيد في دعوته من منهج النبي ﷺ من خلال الإيجاز والتركيز وعدم الإطناب، حتى يستطيع المدعو تكوين صورة ذهنية عن الموضوع الذي يتناوله الداعية.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: تقرير حقيقة البعث:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "يبعث كل عبد على ما مات عليه".

والبعث للدار الآخرة في يوم الجزاء حقيقة مقررة، وستوضع موضع التنفيذ إذا جاء أجلها المحدد في علم الله، فالبعث أمر واقع لا محالة، ستعود فيه الحياة التي بليت ورَمَّت، وليس ذلك ببعيد ولا مستغرب على قدرة الله الذي خلق السماوات والأرض؛ وخلقهن أكبر من خلق الناس!!

أو ليس الذي ابتدع خلق الإنسان على غير مثال سبق، بقادر على إعادة كل فرد من أفراد نوعه، بعد موته وفناء جسده؟! بلى إنه لقادر[1].

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾[2].

إن الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان، ولذا فإن قضية البعث والإيمان بها من أهم أركان الإيمان التي يقوم عليها بناء العقيدة بعد قضية وحدانية الله تعالى، والإيمان بما في اليوم الآخر وعلاماته من الإيمان بالغيب، الذي لا يدركه العقل، ولا سبيل إلى معرفته إلا بالنص عن طريق الوحي، وقلَّ أن تمر على صفحة من القرآن، إلا وتجد فيها حديثًا عن اليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب[3].

رابعًا- من أهداف الدعوة: حث المسلم على ملازمة الطاعة والحذر من المعاصي:

إن حسن خاتمة العبد فضل عظيم ينعم الله عز وجل به على من رضي من عباده، ومن أراد له السعادة في الآخرة، وذلك لأن بعض الناس قد يحرصون على الطاعة، ثم

---

(١) العقيدة الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حسن حبنكة ص ٦٥١.

(٢) سورة الحج، آية: ٧.

(٣) أشراط الساعة، د. يوسف عبدالله يوسف الوابل ص ٢٧.

يعتريهم التقصير فينغمسون في المعاصي، ولا يدرون كيف تكون النهاية، وقد بيّن النبي ﷺ أهمية ملازمة الطاعة والحذر من المعاصي، لأن الإنسان يبعث على ما مات عليه وقلوب العباد بين أصبعي الرحمن يقلبها كيف يشاء؛ فعن أنس رضي الله عنه قال: ((كان رَسولُ الله ﷺ يُكثِرُ أنْ يقولَ: يا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي على دِينِكَ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنَّ القُلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ شَاءَ))[1]. ومما يبعث على الحذر من المعاصي ما ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((... إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ. فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ. فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ. فَيَدْخُلُهَا. وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ. حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ. فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ. فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ. فَيَدْخُلُهَا))[2]. وهذا الحديث تصريح بأن التوبة تهدم الذنوب قبلها، وأن من مات على شيء حكم له به من خير أو شر، إلا أن أصحاب المعاصي غير الكفر في المشيئة[3].

---

(١) أخرجه الترمذي ٢١٤٠، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٧٩٢).

(٢) أخرجه البخاري ٣٢٠٨، ومسلم ٢٦٤٣.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ص ١٥٦٨.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

مدخل:

التجارب خير زاد للإنسان في هذه الحياة، وكلما طال العمر كلما كثرت التجارب والمشاهدة، والعاقل من يعتبر بغيره، ومن بلغ الأربعين فقد بلغ أشده، ومن أدرك الستين فقد انتفى عذره، ومن جاوزها إلى الثمانين فقد تجاوز الاعتذار. لهذا بيّن الرسول ﷺ حال الناس إذا طالت بهم الحياة ونص على أن خيرهم من يوظف عمره في طاعة ربه ويحسن عمله، وقد جعل الرسول ﷺ من نفسه قدوة، حين أكثر من الاستغفار والتوبة، وأخذ من القرآن ما أمر أن يأخذ به "فسبح بحمد ربك واستغفره". ولا يكتفي في هذه الفترة أو غيرها بالعمل، بل لا بد من حسن الظن والاعتقاد، فالمرء يبعث على ما مات عليه، ويمكن توظيف ذلك تربوياً فيما يلي:

أولاً- التربية على الازدياد من الخير، وخاصّة في أواخر العمر:

إن أحاديث الباب التي ساقها النووي ترشد إلى أنه ينبغي على الإنسان أن يزداد من الخير والعمل الصالح في حياته، وبخاصة في أواخر حياته وعمره، فإذا كان الإنسان عليه أن يجعل يومه خيرًا من أمسه وغده خيرًا من يومه، فإنه أحوج ما يكون إلى ذلك في أواخر عمره: وقت الخاتمة والنهاية، لأن الأعمال بالخواتيم والاعتبار بها. فإذا حسنت الخاتمة كان هذا رجاء في صلاح ما قبل الخاتمة، ونحن نرى في التربية على الازدياد من الخير وبخاصة في أواخر العمر من الفوائد ما لا يخفى، من ذلك:

أ- جعل الحياة حلقاتٍ متواصلة من العمل النافع والفعل الصالح، فإذا كان الصِّبا للتعلم والتدرُّب واكتساب المهارات والخبرات، وإذا كان الشباب وقت العمل والاجتهاد والكدّ والسعي وإثبات الذات، فإن كبر السنّ لا يكون منفصلاً عما سبقاه ولا منقطعًا بل وثيق الصلة بهما متين العلاقة، فهو مرحلة أيضًا للعمل والاجتهاد، وليس هذا فحسب بل إنه أيضًا يكون مميزًا بشدة السعيّ وقوة العزم وصدق الاجتهاد والجدّ، لا يمنعه عن ذلك مرض أو كبر أو غير ذلك من العوائق، وهكذا تكون حياة الإنسان حلقات متواصلة من التميز والمثابرة والاجتهاد، وحياة بهذه الصفة حياة نافعة مثمرة طيبة

يزداد بها الخير، ويقلّ بها الشرّ.

ب- الشيوخ هم من عركتهم الحياة وعركوها وخبروا الحياة وخبروها، واجتازوا مراحلها المختلفة واكتسبوا من الخبرات أثمنها ومن المهارات أفضلها ومن القدرات أحسنها، لذا كان لهم من المكانة عند الشباب والفتيان ما لهم، فعيونهم معلّقة بهم يراقبونهم ويتطلعون إلى أفعالهم، وتأخذهم الرغبة العارمة في الاقتداء بهم. فإذا رأوهم على صلاح حاولوا أن يكونوا مثلهم، وإذا رأوهم على غير ذلك تأثروا بهم وفعلوا أفعالهم.

ومن هنا كان حرص الشيوخ على الازدياد من العمل الصالح لا يعود عليهم بالنفع فحسب، بل يتعدَّى أيضًا إلى غيرهم من الشباب والفتيان الذين يرغبون في أن يجعلوهم قدوة لهم، يسيرون على منوالهم ويخطون على طريقهم.

ثانيًا- من مهام المربي: إفساح المجال أمام الشباب الواعد:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "كان عمر رضي الله عنه يُدْخلني مع أشياخ بدر فكأن بعضهم وَجَد [أي غضب] في نفسه، فقال: لِم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه من حيث علمتم". وفي هذا دلالة واضحة جلية على إفساح عمر بن الخطاب رضي الله عنه المجال لابن عباس رضي الله عنهما ذلك الشاب النابه، أن يحضر مجلس مشورته حيث أكابر الصحابة رضي الله عنهم، ويدلي برأيه مع رأيهم، ويُشير كما يشيرون، ويبدي وجهة نظره كما يبدون، ونحو ذلك.

وفي هذا حثٌّ لأهل التربية وغيرهم أن يهتموا بالشباب، وخاصة النابغ والنابه منهم، حتى يكونوا على أتمِّ الاستعداد لأن يتسلموا الراية من آبائهم، فيقوموا بها خير قيام ويضطلعوا بها خير اضطلاع، فيزيدوا إنجازات السابقين عليهم ويضيفوا إليها، لا أن يكونوا عبئًا وكلاً عليها.

ولعل ما يؤكد ذلك أن الأمم المتقدمة هي التي تحرص أشد الحرص على إعداد الشباب للمهام الجسام والحرص على تولية النابهين منهم ما يناسبهم من مسؤوليات ومهام، ولا يكون ذلك حكرًا على الشيوخ وكبار السنّ الذين رضوا بما هم فيه بل

وحاربوا كل محاولة للتغيير نحو الأصلح والأنفع، فتجد لهذا الأمم المتقدمة حيّة تتواصل فيها الأجيال تواصلاً مفيدًا، فتجد الكبار يعطون خبراتهم الثمينة إلى هؤلاء الشباب، الذين بدورهم يكونون حريصين أشد الحرص على أن يكونوا سواعدهم اليمنى في تنفيذ خططهم وبرامجهم، تجد الراية تنتقل من جيل إلى جيل بسلاسة ويسر، وكل جيل يبني إلى ما سبق من بناء. وبهذا تتقدم الأمم وتتكون القيادات المؤثرة والقدوات الصالحة والنماذج المبهرة.

والخلاصة أنّه على أهل التربية أن يتعهدوا الشباب النابهين النابغين، ويفسحوا المجال لهم لإبراز قدراتهم ويحققوا إنجازاتهم.

ثالثاً- التربية على الامتثال لأوامر القرآن الكريم:

قالت عائشة رضي الله عنها: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: "سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي" يتأول القرآن.

ومعنى: يتأول القرآن أي يعمل ما أمر به في القرآن في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾[1].

وفي رواية لمسلم: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر من قول: سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه" قالت: قلت: يا رسول الله أراك تكثر من قول سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه. فقال: أخبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي فإذا رأيتها أكثرت من قول: سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب، فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾.

أي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعمل بما أمره الله به في القرآن الكريم فيقف عند حدوده، فما كان من أمر عمله وما كان من نهي انتهى عنه وتركه.

---

(١) سورة النصر، آية: ٣.

وفي هذا حثّ لأهل التربية والمربين أن يربوا أتباعهم على ذلك، فيقفوا عند كتاب الله تعالى، وأن يتصفوا كما اتصف السلف الصالح بأنّهم وقّافون عند كتاب الله، كما ثبت في وصف عمر بن الخطاب رضي الله عنه ((كَانَ وقّافًا عند كتاب الله تعالى))[1]. ولو نجح أهل التربية في ذلك وجعلوا من يقومون بتربيتهم وقّافين عند كتاب الله سبحانه وتعالى، لكان في ذلك كل الخير لهم ولغيرهم، وذلك أن كتاب الله إنما نَزَلَ ليطبق في دنيا الناس ويحكم عليهم وعلى أفعالهم، قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾[2].

رابعاً: ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ندرك تربوياً وتعليمياً ما يلي:

جواز جلوس الصغير مع الكبير في مجلس العلم.

جواز إظهار السبب الذي دعا ولي الأمر إلى اتخاذ القرار الذي لم يعتده الناس.

الإسلام لا يعرف الطبقية الاجتماعية، وقضى على تقاليد الجاهلية، فلم تكن تأذن بجلوس الصغير مع الكبير فضلاً عن أن يتكلم حضورهم.

ليس بلازم أن يجيب الإنسان عن كل سؤال طرح أمامه، فمن توفر عنده علم أجاب، ومن لم يتوفر عنده علم يمسك وينتظر الإجابة.

التدافع في الإجابة غير محبب، وذلك لإعطاء الفرصة للآخرين ليتكلموا بما ظهر لهم، ثم يكون التعقيب على الإجابة.

على المعلم أن يكون على الإجابة الصحيحة من بين الإجابات المطروحة، وذلك في قول عمر رضي الله عنه: ما أعلم منها إلا ما تقول.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البخاري ٤٦٤٢، ٧٢٨٦.

(٢) سورة المائدة، آية: ٤٩.

فهرس المحتويات



فهرس المحتويات

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة